العبقات العنبرية

في

الطبقات الجعفرية

تاريخ المرجعية الدينية في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين

تأليف

العلامة الكبير الإمام الشيخ

محمد الحسين كاشف الغطاء

المتوفى سنة ١٣٧٣هـ/١٩٥٤م

تحقيق

الدكتور جودت القزويني

جميع الحقوق محفوظة
الطبعة الأولى
١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م

توزيع : بيسان للنشر والتوزيع

ص.ب./ ٥٢٦١ – ١٣ بيروت لبنان
هاتف/ ٣٥١٢٩١ * فاكس: ٧٤٧٠٨٩ – ١ – ٩٦١

المحتويات

مقدمة المحقّق ٩
ترجمة الأمام محمد الحسين كاشف الغطاء بقلمه ١٢
العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية ٢٣
مقدمة المؤلف ٢٥
المقدمة : في نسب آل كاشف الغطاء ٣٠

الباب الأول

في ذكر أحوال الشيخ جعفر واخوانه وأبيه

أبـوه ٣٧
إخـوانه ٤٠
في أحوال الشيخ جعفر كاشف الغطاء ٤٣
الفصل الأول : في كراماته ٤٥
سيرة الشيخ ٤٧
استسقاء الشيخ للأعراب ونزول الغيث ٥٠
الفصل الثاني : في مكارم أخلاقه ومحاسن صفاته ٥٥
كلام صاحب «روضات الجنات» في حقّ الشيخ الكبير ٦٣
كلام الشيخ أسد اللّه في حق الشيخ الكبير ٦٤
الفصل الثالث : في أسفاره وما وقع له فيها ٧٦
سفره الى بيت اللّه الحرام ٧٦
قصة (عقيل) ، وقتل الشيخ لهم ٧٨
سفره الى طهران ٨٢

ذكر وقائع الشيخ مع ميرزا مُحمَّد الأخباري ، وسرّ عداوتها ومنشئها ٨٦
قصّة مباهلة الشيخ مع ميرزا محمد الأخباري ٩١
بين الشيخ وفتح علي شاه ١٠٤
الفصل الرابع : في الحوادث التي وقعت في أيامه ١٠٨
الحادثة الأولى : حادثة الوهابي ، وغزواته للنجف ١٠٨
رسالة الشيخ الكبير في ردّ الوهابيّة ١١٧
الحادثة الثانية : واقعة الزقرت والشمرت ١٢٨
الفصل الخامس : فيما قاله من الأشعار ، وما قيل فيه من تهانيه ومراثيه ١٣٥
قصيدة للشيخ الكبير في رثاء العلامة الطباطبائي ١٣٦
معركة الخميس ١٣٨
ما قيل في الشيخ جعفر من الشعر ١٤٦
القسم الأول : في تهانيه ١٤٦
القسم الثاني : في وفاته ومراثيه ١٥٩
(بند) للشيخ علي الطبّاخ الحلّي ١٦٨
«يتيمة الدهر في ذكر علماء العصر» للسيد محمد علي العاملي ١٧٠

الباب الثاني
في الطبقة الثانية من الطائفة (الجعفرية)

ترجمة الشيخ موسى كاشف الغطاء ١٨١
تفصيل قتل ميرزا محمد الأخباري ١٨٣
فتوى الشيخ موسى في قتل الميرزا الأخباري ١٨٥
أخبار مُلاّ محمد (حاكم النجف) ، ووقائعه مع الشيخ موسى ١٨٨
ذكر سبب تسمية الشيخ موسى بـ «المصلح بين الدولتين» ١٩١
محاربة البغداديين لعسكر العجم ١٩١
آثار الشيخ موسى ٢٠١
رسالة الشيخ موسى الى فتح علي شاه ٢٠٤

جواب فتح علي شاه على رسالة الشيخ موسى ٢٠٧
ما قيل في الشيخ موسى وأولاده من الشعر ٢٠٨
(بند) في رثاء الشيخ أسد الله ، ومدح الشيخ موسى ٢٢٠
وفاة الشيخ موسى ومراثي الشعراء له ٢٣٠
ترجمة الشيخ موسى في «يتيمة الدهر» ٢٣٣
(بند) للشيخ ابراهيم القفطان في رثاء الشيخ موسى ٢٣٧
ابتداء تفصيل أحوال الشيخ علي بن الشيخ الكبير ٢٣٨
أحوال الشيخ محمد بن الشيخ الكبير ٢٤٠
وفاته ومراثيه ٢٤٧
باقي أحوال الشيخ علي نجل الشيخ الكبير ٢٥١
شعرُهُ وشاعريتُهُ ٢٥٧
ظهور الفرقة الشيخية (الكشفية) ٢٨٤
تنبؤ الشيخ علي بالفتنة البابيّة ٢٨٧
المزايا الثلاثة ٢٨٨
في أحوال الشيخ محمد بن الشيخ الكبير ٢٩٠
في أحوال الشيخ حسن بن الشيخ جعفر ٢٩١
«نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري» للشيخ عباس كاشف الغطاء ٢٩٣
أجوبة المسائل الاعتقادية ٢٩٦
في أحوال الشيخ أحمد الأحسائي ٢٩٧
في كراماته ٣٠٠
واقعة نجيب پاشا في كربلاء ٣٠٦
توجّه نجيب پاشا الى النجف ٣١١
مناظرة الشيخ حسن مع السيد أبي الثناء الآلوسي حول البابية ٣١٦
وفاة الشيخ حسن ٣٤٣
فصل : فيما قال وما قيل فيه من الشعر ٣٤٩

ترجمة الشيخ عيسى بن الشيخ الكبير ٣٥٨

الباب الثالث

في الطبقة الثالثة من هذه الطائفة

ترجمة الشيخ محمد بن الشيخ علي ٣٦٠
الفصل الأول : في مدائحه وتهانيه ٣٦٣
الفصل الثاني : في مراثيه وما قيل في تعزية إخوانه وبنيه ٣٧٤
من وقائع فرقتي الزقرت والشمرت ٣٩٤
هجوم العسكر على دار الشيخ محمد ٣٩٤
ترجمة الشيخ مهدي بن الشيخ علي ٣٩٨
شعرُه وشاعريته ٤٠٠
ما قيل في الشيخ مهدي من التهاني والمدائح ٤٠٣
ترجمة الشيخ مهدي في «يتيمة الدهر» ٤١٨
كراماتُهُ ٤٢٥
مراثيه ٤٢٨
ترجمة الشيخ جعفر بن الشيخ علي ٤٤٧
نادرة غريبة ٤٥٧
مراثيه ٤٥٩
ترجمة الشيخ محمد رضا ٤٦٥
مدائحه وتهانيه ٤٦٦
ترجمة الشيخ محمد رضا في «يتيمة الدهر» ٤٩٠
وفاته ومراثيه ٤٩٣
منهج الرشاد لمن أراد السداد
(رسالة الأمام الشيخ جعفر كاشف الغطاء الى الأمير عبد العزيز بن سعود) ٥٠٣

محمد الحسين كاشف الغطاء في شبابه

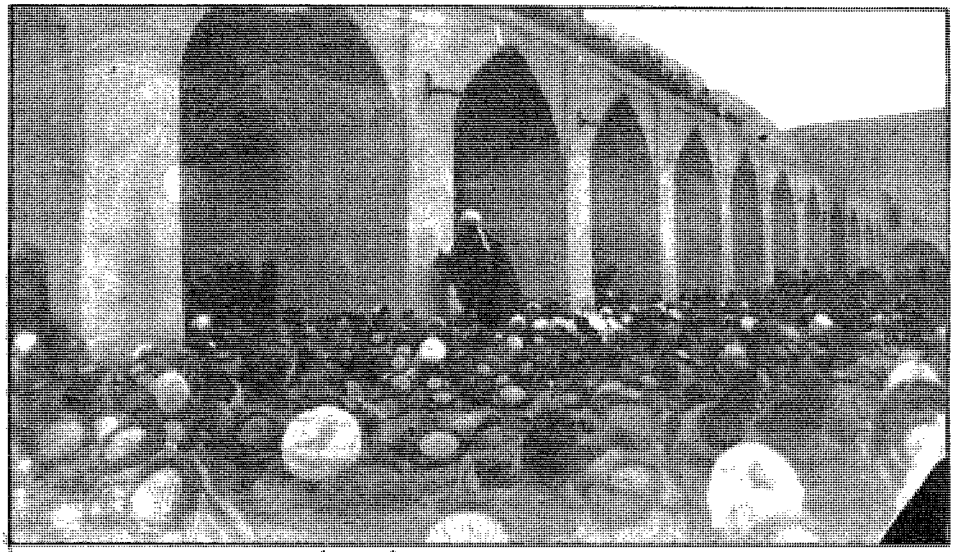

الأمام محمد الحسين كاشف الغطاء يُلقي خطاباً تأريخياً في «مسجد الكوفة»
٥ آذار سنة ١٩٣٢م

«إلتقط هذه الصورة النادرة الأستاذ الكبير صالح كبة ـ حفظه الله ـ»

يُعدُّ كتاب (العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية) من الكتب التأريخية النادرة التي تناولت تسجيل فترة زمنية مجهولة في تأريخ المرجعيّة الدينيّة العليا، وما يحيط بها من وقائع وأحداث خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر الهجريين / الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين. وهو أول تأليفات الأمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م.. كان قد بدأ بجمعه وهو ابن الخامسة عشرة، وانتهى من كتابته وهو في سنيه العشرين كما يظهر ذلك من تأريخ النسخة المخطوطة.

وقد تضمّن الكتاب تسجيل تراجم «الطبقات الجعفرية» من علماء أسرة الشيخ جعفر كاشف الغطاء، الجدّ الأعلى لأسرة آل كاشف الغطاء، المتوفى سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م، تبعاً للفترات الزمنية، وأهمية الشخصيات المُترجم لها.

وبالرغم من أنَّ الكتاب تخصص بتسجيل تاريخ (أسرة)، إلاَّ أنّه تعدّى إلى تسجيل تأريخ (عصر) كان لهذه الأسرة تأثير كبير في أحداثه الدينية، والسياسية، والاجتماعية، ولفترة زادت على نصف قرن من الزمن.

ويُعتبر الكتاب الحلْقة المفقودة في تأريخ المرجعيّة الدينية خلال هذين القرنين حيث تناول تسليط الأضواء على الوقائع التأريخية المتّصلة بالنشاط الديني للفقهاء، وأهمها يكمن بما يلي:

١ ـ أرّخ للصراع الوهابي ـ الشيعي في عهده الأول، وما وصلتْ اليه العلاقة الوهابية ـ الأثنا عشرية منذ قيام الحركة الوهابية. وقد انفرد من بين المصادر بالأشارة الى علاقة الصداقة بين الشيخ جعفر كاشف الغطاء (زعيم الأمامية)، والشيخ محمد بن عبد الوهاب (زعيم الوهابيّة).

٢ ـ أرّخ للصراع الأخباري ـ الأصولي (في مرحلته الثانية)، من خلال الحديث عن المحاججة بين الشيخ جعفر كاشف الغطاء، والميرزا محمد الأخباري المقتول سنة ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م.

وبالرغم من انحياز المؤلف في عرض الوقائع التأريخية، وتسجيل هذا الصراع لصالحه، إلاَّ انّه وفّر مادة غزيرة يمكن الاستلهام منها في معرفة بعض أسرار المرحلة، والأهداف

الناجمة عن ذلك الاختلاف .

٣ ـ يُعدُّ الكتاب من المصادر الأولى ، إنْ لم يكن المصدر الأول الذي دوَّن قصة نشوء طائفتي (الزقرت) و(الشمرت) في مدينة النجف ، والحوادث الدامية التي نجمت عنهما .

٤ ـ عرض المؤلف شيئاً من تأريخ ظهور الفرقة (الشيخيّة) الكشفية التي قادت لظهور الحركة (البابيَّة) فيما بعد ، ومواقف المرجعية الدينيّة من هذه الفرقة .

٥ ـ يعتبر كتاب (العبقات) ملفاً تأريخياً ضخماً للشعر العراقي في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين مع الأشارة إلى أسماء شعراء مجهولين ، وبعض الفقهاء المنسيين ، وإثبات نماذج شعرية لهم .

وقد أصبح مصدراً لجملة من المؤلفات مثل البابليّات للشيخ محمد علي اليعقوبي ، وماضي النجف وحاضرها للشيخ جعفر محبوبة ، وغيرهما . أمّا الأستاذ علي الخاقاني فقد كانت «العبقات العنبرية» مادته الأصلية في كتابيه (شعراء الحلّة) و(شعراء الغري) بعدما فرّق محتواه على الشعراء الذين ترجم لهم .

٦ ـ أورد الكتاب بعض الاقتباسات عن مصادر خطيّة أصبح بعضها في عداد المفقودات ككتاب «معدن الشرف في أحوال المشاهير من علماء النجف» للمؤرخ السيد حسون البُراقي المُتوفى سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م ، ولا يزال بعضها الآخر مخطوطاً مثل «يتيمة الدهر» للسيد محمد علي العاملي المتوفى سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م .

٧ ـ إشتمل الكتاب على رسالة خطيّة بعنوان «نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري» كتبها الشيخ عباس كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م في ترجمة حياة أبيه الشيخ حسن كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م ، وفيها شيء من فتاواه ، وأجوبته على بعض المسائل السائدة في عصره . وأهم ما تتضمَّنُهُ هذه «النبذة» المناظرة التي دارت بين الشيخ حسن ، ومُفتي بغداد أبي الثناء الآلوسي حول الحركة «البابية» بحضر الوالي نجيب باشا المُتوفى سنة ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م .

٨ ـ ألحقتُ بهذه (العبقات) رسالة الشيخ جعفر كاشف الغطاء الى الأمير عبد العزيز ابن سعوُد بعنوان «منهج الرشاد لمن أراد السداد» ، ـ وتعتبر إحدى مظاهر الفكر السياسي الشيعي في أوائل القرن الثالث عشر الهجري ـ ، مُحَقَّقَةً على نسخة كُتبتْ في حياة مؤلفها سنة ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م ، وقد وردت غير تامّة في (العبقات) ، وأذنَ المؤلف اضافتها إلى الكتاب في حالة توفر نسختها الكاملة .

هذا ما يخصُّ مادة الكتاب .

أمَّا المنهج الذي نهجه المؤلف في كتابه فانَّه رتَّبه ترتيباً تأريخياً ، وفنيّاً مُعْتَمداً ، وأشبعه بكثير من الفوائد التي تفرَّد بها .

والكتاب ـ كما يبدو للمتخصصين ـ مدعمٌ بالشواهد التأريخية الحيّة ، والوثائق النادرة ، والمنقولات عن طبقة من رجال السند الذين اعتمد على نقلهم المؤلف ، بيدَ أنَّ المؤلف استكمل بعض الصور الوصفية للأحداث بواسطة السرد القصصي ، كما حدث ذلك في سياق الحديث عن بعض أوصاف الميرزا محمد الأخباري ، أو الحديث عن بني (عقيل) في قصة تأريخية غير محققة .

ويظهر أنَّ المؤلف كان في بعض الأحيان يُبصرُ الحقائق على نحو ذاتي ، فبالرغم من موضوعية الحقائق المسجّلة الاّ انَّ بعضها لا يخلو من (التحيّز) ، والرغبة في اثبات ما يتعلّق به من أحداث ، والتقليل من واقعيتها لدى الأطراف الأخرى . وهذه صفة رُبَّما يشترك بها أغلب المؤرخين ، انْ لم يكونوا جميعهم .

كما إتبع المؤلف الاسلوب المُسجَّع الذي كان متعارفاً في تلك الأيام إلاَّ أنَّه في مؤلفاته التي كُتبت بعد هذا التأريخ ترك هذه «الصَّنْعة» واعتمد على أساليب الكتابة الحديثة .

وقد ظهرت صفة المُبالغة في وصف الأعلام الذي ترجم لهم تبعاً لمتطلبات هذه الطريقة السائدة في التعبير ، والتي كانت تُعدّ من شواهد الكمال ، وإتقان فنّ التأليف والكتابة .

أمَّا الكتاب فأنَّه بشكل عام يكشف عن طبيعة العلاقة الترابطية بين طبقة الفقهاء ، وبين أتباعهم من جهة ، وتأثير هذه الطبقة على المجتمع الشيعي تبعاً للظروف السياسية . وهذا لا يعني خضوع القطاع الشيعي دائماً لطبقة علماء الدين ، كما يظهر ذلك في المجتمع العراقي من خلال الصراعات الدائرة بين فرقتي (الزقرت) و(الشمرت) ، وتأثيرهما السلبي في المواجهة مع الفقهاء أنفسهم .

ترجمة
الأمام محمد الحسين كاشف الغطاء
بقلمه(*)

هو الشيخ محمد حسين بن علي بن الرضا بن موسى بن جعفر كاشف الغطاء .

ينتسب الى عائلة عربية صميمة ، وعريقة في الشرف . هاجر جدُّها الأعلى الى النجف منذ ثلاثمائة سنة من (جناجة) ـ بلدة جنوب الحلة ـ وولد هو في النجف عام ١٢٩٤هـ ، الموافق ١٨٧٧م ، وتعلّم أيام صباه القراءة والكتابة والحساب ، ودرس أيام شبابه النحو والمنطق والبيان والآداب ثم تخرَّج في الحديث على العلامة المحدث ميرزا حسين النوري ، وفي علم الكلام على الاستاذ الشيخ ملا رضا الهمداني ، وفي الأصول على حجة الاسلام الشيخ محمد كاظم الخراساني ، وفي الفقه على حجة الاسلام السيد كاظم اليزدي ، ودرس علم التفسير ، والتاريخ ، والفلك ، على غيرهم من رجال العلم .

سافر عام ١٣٢٩هـ / ١٩١١م من النجف الى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج ، ومن مكة توجَّه إلى دمشق ، ومنها الى بيروت ، ومكث في ربوع سوريا ، ومصر ثلاث سنوات ، واشترك في الحركات الوطنية مع أحرار سوريا كالشيخ أحمد طبارة ، وعبد الكريم الخليل ، وعبد الغني العريسي ، وباترو باولي ، وطبع هناك عدَّة كتب . ونشر في أمهات صحف سوريا مقالات نفيسة . وفي عام ١٩١٤م قبل اعلان الحرب العالمية الأولى بشهر ونصف قفل الى العراق عن طريق حلب ، ودير الزور ، وصار من خواص حجة الاسلام السيد كاظم اليزدي (أكبر مجتهد في ذلك الحين) . وفي عام ١٩١٧م ذهب مع السيد محمد نجل السيد كاظم المذكور ، وجماعة من العلماء الى (الكوت) للجهاد أمام قوات (الأنكليز) .

وبعد وفاة أخيه الشيخ أحمد عام ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م أصبح من المراجع العامة للتقليد والفتوى في النجف الأشرف .

وفي عام ١٣٥٠هـ / ١٩٣١ عُقد المؤتمر الاسلامي العام في القدس الشريف وبعد دعوات متكررة من لجنة المؤتمر توجَّه في كانون الأول الى القدس ، وأئتمَّ به في الصلاة جميع أعضاء المؤتمر البالغ عددهم (١٥٠) عضواً من شتى الفرق الاسلامية ، وخلفهم نحو (٢٥) ألف

(*) إعتُمدتْ في ترجمة الأمام كاشف الغطاء ترجمتان كتبهما بقلمه ؛ الأولى عام ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م ، والثانية عام ١٣٧١هـ / ١٩٥٢م . وقد أُرجئ نشر القسم الآخر من الترجمة الأولى الى مناسبة أخرى .

نسمة من أهالي فلسطين، وذلك ليلة المعراج ٢٧ رجب (٦ كانون الأول) في المسجد الأقصى. وكان لذلك أهمية كبيرة حيث كان بذرة للاتحاد الاسلامي، ورمزاً للأخاء والتساهل الديني.

وفي عام ١٩٣٣م (٢٥ تموز) - أول ربيع الثاني ١٣٥٢هـ توجّه إلى ايران عن طريق كرمنشاه، ورجع عن طريق البصرة، ومكث هناك نحو ثمانية أشهر متجولاً في المدن المهمة يدعو الايرانيين الى التمسك بالدين الاسلامي، والى ضرورة التفاهم مع الأقطار الاسلامية والشرقية والاتحاد معها. وكان موضع الحفاوة والتبجيل في كلّ مدينة يحلُّ بها. وقد خطب في كلّ من المدن الآتية باللغة الفارسية: كرمنشاه، همدان، طهران، شاهرود، خراسان، شيراز، المحمرة، عبادان.

ولّما حدث الهياج في قبائل الفرات منذ أوائل هذه السنة (١٩٣٥م)، واستمرَّ الاضطراب عدّة شهور كانت له المساعي المشكورة في إلزامهم بحفظ الأمن، وتأمين الطرق، وحقن الدماء، وسلامة الأموال، وعدم العبث والأفساد ولم يزل طيلة ستة أشهر ساهراً ليله، كادحاً نهاره على بثّ تلك الدعوة، وقبض الزمام، وكانت القبائل منقادة لأمره، خاضعة لتعاليمه وإرشاداته، ولولا ذلك لانفلتَ حبل الأمن، وساءت الأحوال إلى درجة لا تتدارك.

مؤلفاته

- الدين والاسلام (جزءان) - طبع ١٩١٢م في صيدا.
- المراجعات الريحانية (جزءان) - طبع بيروت ١٩١٣.
- التوضيح (جزءان).
- الآيات البيّنات - طبع النجف ١٩٢٧م.
- أصل الشيعة وأصولها - طبع صيدا ١٩٣٢م.
- خطبته في المؤتمر - طبع القدس ١٩٣٢.
- خطبته في مسجد الكوفة (الاتحاد والاقتصاد).
- خطبه الأربع عند رجوعه من ايران.
- نبذة من سياسة الحسين - طبع النجف ١٩٣٠.

كتبه المخطوطة

- رحلته في سوريا ومصر.

- ملخص الأغاني .
- نقد كتاب ملوك العرب .
- شرح كتاب العروة الوثقى في الفقه .
- النفحات[1] العنبرية (في تاريخ عائلته) .
- الجزء الثالث من (الدين والاسلام) .
- مجموعة مراسلاته العلمية .
- ديوان شعره

وهو الآن يقيم في النجف الأشرف ، ويقوم بأداء صلاة الجماعة في الحرم الشريف ويدرِّس الفقه الاسلامي لطلبة العلم الروحانيين . ولديه مكتبة نفيسة يستفيد منها المؤلفون ، والطلبة في النجف ، ويتّبعهُ في التقليد والفتوى ملايين من المسلمين في العراق ، وايران ، والأفغان ، والهند ، وسورية ، والبحرين ، والاحساء ، وعمان ، واليمن ، وشرق أفريقية .

تكملة

ترجمة الأمام كاشف الغطاء بقلمه(*)

ما انتهى العقد الأول من أعوامي إلاّ وقد شرعتُ أو كرعتُ من مناهل العلوم العربية والأدب ومبادئ الفقه وأصوله .

وأول تأليف برز لي في هذه البرهة كتاب (العبقات العنبرية في طبقات الجعفرية) - مجلدان - كله أدب وتأريخ ونوادر برزت نسخة واحدة منه الى المبيضة أرسلناها في ذلك العصر الى (عمّ) لنا كان في (إصفهان) كي يمثله للطبع فعاجله الأجل قبل انجاز العمل ، ومات وماتت تلك النسخة النفيسة معه . وقد علمنا أنّها ما نُشرتْ ، ولكن لا نعلم أين قُبرت ، وليس عندنا منه سوى مسودة الجزء الأول بخطنا (قبل ستين سنة) ، وقد إنتهل من مشارع هذه النسخة جملة من أدباء العصر ، ونقلوا الكثير من فرائدها إلى مؤلفاتهم مع حفظ أمانة النقل ، وبدونها .

ثم لم تنطوِ صحيفة العقد الثاني من حياتنا إلاّ ونحنُ منهمكون في طلب دائب ،

(١) هكذا وردت في الأصل .
(*) من هنا تبدأ الترجمة الثانية التي كتبها كاشف الغطاء سنة ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م .

وحركة سافرة بالأشتغال في علوم الحكمة والفلسفة والكلام عند أساطينها الذين هاجروا إلى النجف الأشرف لتحصيل العلوم الشرعية عند مراجع الشيعة الأعاظم في أوائل القرن الرابع عشر ، مضافاً إلى إشتغالنا في علوم البلاغة كالمعاني والبيان والبديع والرياضيات من الحساب والهيئة وأضرابها من الفقه وأصوله ، والحضور في حوزة درس الطبقة العليا من الأساطين كالكاظمين (صاحب العروة) ، و(صاحب الكفاية) ـ رضوان الله عليهما ـ فقد لازمتُ الحضور عليهما من سنة الثانية عشر هجرية الى حين وفاة الأول سنة ١٣٣٧هـ ، والثاني سنة ١٣٢٩هـ ، وعلى الشيخ الفقيه الهمذاني صاحب «مصباح الفقيه» ، المتوفى سنة ١٣٢٢هـ ، وغير هؤلاء من الأعاظم (قدّس اللّه أسرارهم) .

وفي حين الوقت الذي أحضرُ عند هؤلاء الأساتذة الأعلام كانت لي حوزة درس من الأفاضل المهاجرين لطلب العلم فكنتُ أكتبُ ما أتلقّاه من أساتذتي في الفقه وأصوله وأحرر ما ألقيه من الدروس على تلاميذي .

وفي هذه الآونة وأنا في وسط العقد الثالث ألّفتُ شرح العروة (في مجلدين كبيرين لم يطبع شيء منهما الى الآن) . ومع استفراغ الوسع وبذل الجهود البليغة في علمي الفقه وأصوله والحديث والتفسير ونحوها وصرف أكثر ساعات يومي وليلتي فيها أجدُ في فؤادي شعلة متوقدة وعطشاً ملتهباً يحفزني الى الانتهال ، والأشتغال بالعلوم الألهية ، والمعارف العليا ، والحكمة المتعالية ، فكنتُ أدرس في عين ذلك الوقت كتب صدر المتألهين قدّس اللّه سره من مختصراته (كالمشاعر ، والعرشية ، وشرح الهداية) ، ومطولاته (كالأسفار ، وشرح أصول الكافي) .

ثم ألحَّ بي العطش والظمأ إلى التماس جرعة من كتب العرفاء الشامخين (كالفصوص ، والنصوص ، والفكوك ، وكثير من مثنويات ملا جلال الدين الرومي ، والجامي ، وشمس التبريزي ، والشبستري) ، وغيرهم ممن نهج على مناهجهم ، وعرج في معراجهم فكنتُ لا أجدُ راحةً ورَوْحاً لروحي من عناء الحياة ، ومتاعب الكفاح إلاَّ بمزاولة الأدب العربي ، والتلذذ بمطالعة كتب القوم والأنس بأشعارهم ومعارفهم حتى بلغتُ من ذلك على مثل ما قيل (كنتُ أشرب ولا أرتوي ، فصرتُ أرتوي ولا أشرب) . وعلى كلٍّ فلا أريد بكلمتي هذه أن أُترجم لنفسي شؤون حياتي ، وكيف انقضت ساعات أيامي وليلاتي ، فأنَّ هذا يحتاج إلى مؤلف ضخم كله عجائب وغرائب ، ودروس ، وحوادث ، وكوارث ، وعبر ، ولعلَّ التاريخ يحتفظ بشيء منه ـ إنْ كان لا يستطيع الأحتفاظ بكله .

نعم جلَّ القصد من هذه الومضة إنارة زاوية واحدة من هذا العمر الحافل بالزوايا والمزايا ،

وهي ناحية الشغف والولع بالتأليف ونشر العلوم والثقافة بشتى أنواعها فكانَ أول تأليف لنا (العبقات) ـ كما أسلفنا ـ ، وهو أدب وتأريخ وتراجم .

وأوّل تأليف في الفقه «شرح العروة الوثقى» كنا نكتب الشرح ليلاً ، ونلقيه نهاراً على حوزة الدرس المؤلفة من أعلام الأفاضل المتجاوز عددهم المائة في مسجد الهندي تارة ، وفي غيره أخرى .

وبعد وفاة استاذنا الطباطبائي (أعلى اللّه مقامه) بسنة واحدة رجع إلينا جماعة من المؤمنين من أهالي بغداد ، وطلبوا منا تعليقاً على (التبصرة) ليكون عملهم عليها . فعلَّقنا عليها حواشي ، وطبعت في هامش الكتاب مع حاشية الأستاذ «قده» سنة (١٣٣٨)هـ وفي خلال هذا ترجمنا عدة كتب من الفارسية الى العربية (كفارسي هيئت) ، و(حجة السعادة) ، ورحلة (ناصر خسرو) .

وأول تأليف لنا في الحكمة والعقائد (الدين والاسلام) ، وكنا وسمناه (الدعوة الاسلامية إلى مذهب الأمامية) ، وشرعنا بطبعه بمطبعة دار السلام في بغداد .

وبينا كانت المطبعة تشتغل بطبع الجزء الثاني سنة ١٣٢٩ هجرية ، وكانت بعض نسخ من الجزء الأول الذي نجز طبعه قد انتشرت وتداولتها الأيدي ، وإذا بالسلطة تهاجم المطبعة بغتةً ، وتُصادر الكتاب بجزأيه ، وتحمله إلى حيث لا ندري إلى الآن . وكان ذلك بأمر الوالي الشهير في عهد دولة (عبد الحميد ورشاد) (ناظم باشا) وبايعاز المُفتي (شيخ سعيد الزهاوي) فكبَّدونا بهذه الحركة الجائرة ، خسائر باهضة مادية ومعنوية ، بعثت فينا روح النشاط والحماس إلى السعي بطبعه خارج العراق ، فصمَّمنا العزيمة على الحج إلى بيت اللّه الحرام من (الكاظمية) إلى (الشام) على البغال شهراً كاملاً ، ومنها إلى (المدينة) المنورة بالقطار ، ومنها إلى (مكة) على الجمال ، وكتبنا بهذا السفر رحلة بديعة أسميناها «نزهة السمر ونهزة السفر» لا تزال بخطنا .

ثم أقفلنا بعد الفراغ من أداء المناسك إلى الشام أيضاً ، ومنها إلى بيروت ، فصيدا فأنجزنا طبع الجزأين منه ، ولطَّفنا من اسلوبه الثقيل في الطبعة الأولى حتى ساغَ مشربُهُ للجميع .
ثم طبعنا الجزأين من (المراجعات الريحانية) ، والجزأين من (التوضيح في الأنجيل والمسيح) .
وواصلنا السعي لنشر عدة كتب مهمة ، وأشرفنا على تصحيحها «كالوساطة» للقاضي الجرجاني ، و«معالم الأصابة» في الكاتب والكتابة ، وديوان السيد الحبوبي ، وسحر بابل ، وغيرها ثم عدنا إلى النجف الأشرف سنة ١٣٣٢هـ أوائل الحرب العالمية الأولى ، وألجأونا إلى الأرشاد ، والدعوة ، وسافرنا للجهاد عدَّة مرات حتى إذا وضعت الحرب أوزارها ، وانتقل

استاذنا السيد الأمام الكاظم إلى جوار ربه ، وتحملنا أعباء وصيته مع الأخ المرحوم (أعلى الله مقامه) الذي إجتهدنا معه في تنقيح تأليف «العروة الوثقى» ، وطبعها مرتين في حياته ، وكانت مرجعية الأمامية في عموم الأقطار قد انتهت إليه (رضوان الله عليه) ، وعلينا كان يعول في جميع مهماته ولا يضع ثقته عند غيرنا ، وإلينا يرجع كل مرافعة تنشر عنده فيحكم بحكمنا ، ويقضي بقضائنا ، ولا تزال وصاياه بخطه عندنا .

ومذ اتسعت دائرة المرجعية إلينا بعد وفاته اضطرّتنا الظروف الى نشر الرسائل العملية المتنوعة ، فأصدرنا عدّة رسائل كالوجيزتين الصغرى والكبرى (فارسية ، وعربية) ، وقد طُبعت عدّة طبعات ، وكالسؤال والجواب العربي الذي طبع تكراراً ، وكزاد المقلدين (الفارسي) الذي تكرر أيضاً طبعه في النجف الأشرف ، وفي خراسان ، وكحاشية التبصرة ، وحاشية العروة ، وفيه أنفس التحقيقات في المدارك الفقهية ، وكذلك التعليقات على سفينة النجاة أربع مجلدات ، والأصل مجلدان للأخ المرحوم طبع ونفد في حياته ، فعلقنا عليه حتى بلغ أربعة أجزاء ، وطبعناه ثانياً .

وألّفنا (الآيات البينات) أربع رسائل مهمة في رد الأموية ، والبهائية ، والوهابية ، والطبيعية .

وقبل الحرب العالمية الثانية ألّفنا «تحرير المجلة» في خمسة أجزاء ، ويعرفُ قدر هذا الكتاب ، وعظيم وقعه وعلو مقامه مَنْ يطالعه ـ إن كان من أهل ذلك ـ .

وأعظم من كُلّ هذا أثراً ، وأعظم نفعاً ، وأصدق خُبْراً وخَبَراً كتاب «أصل الشيعة» الذي تُرجم إلى عدّة لغات ، وطبع إثني عشر مرة . ويتلوه «الأرض والتربة الحسينية» ترجم إلى الفارسية ، (وطبع فارسياً وعربياً) . والمترجم لها هو العالم المتبحر البر التقي الشاهزاده خسرواني أطال الله عمره ، وأجزل أجره .

وكان البريد وغيره يوصل الى مكتبتي سحابة عمري كتباً من الأقطار البعيدة والقريبة من العراق ، وخارجه تشتمل على أسئلة في مسائل عويصة ، ومشاكل غامضة في أصول الدين وفروعه ، وأسرار التشريع والحكمة في الاحكام ، مضافاً إلى الأستفتاء في الفروع الفقهية والقضايا العملية فكان الجواب عنها يذهب مع السؤال ، ولم نحتفظ إلاّ بالنزر اليسير مما ذهب ، وقد جمعنا من هذا اليسير مجلداً كبيراً وسمناه «بدائرة المعارف العليا» يصح أنْ يُعدّ ثروة علمية من أنفس الذخائر . وقد بقي من هذا النوع أوراق مبعثرة في حقائبنا ومجاميعنا فيها الكثير من الخطب والكلمات والمقالات التي تتعلق بأهل البيت (سلام الله عليهم) باختلاف المناسبات من أيام شهادتهم ، ووفياتهم ، ومواليدهم ، وأسرار شهادتهم ،

وما إلى ذلك مما يُناط بهم ، ويعود إليهم ممّا نشر بعضه في بعض الصحف والمجلات ، وما لم يُنشر .

وكنتُ طالما أحدّثُ نفسي بجمع تلك المتفرقات في كتاب عسى أنْ يكون كعقد ثمين ينتظم في سلك تلك العقود من المؤلفات التي وفقنا اللّه جلّ شأنه لنشرها ولخدمة العلم والفضيلة ، ونفع الانسانية ، وهداية البشر بها التي تجاوزت الثمانين ، والكثير أو الأكثر منها لم يطبع .

ثم رأيت أنْ أُفرد المسائل العلمية والمباحث النظرية في كتاب ، وما يتعلق بالنبيّ ، وأهل بيته الطاهرين (ع) في كتاب آخر ينتفع به أهل المنابر والخطباء مستقلاً على الأكثر ، وإنْ كان هذا المنهل العذب للجميع شرعاً سواء ، وأجعل هذين المؤلفين أو الثلاثة مسك الختام ، أو ختامه مسك لحياتي التي أوشكت على الزوال ـ وهي في آخر مراحلها ـ وقد ذرفتُ على السبعين ، وأخذتْ بعنقي ، أو أخذتُ بعنق الثمانين .

قالوا أنينُكَ طولَ الليل يُزعجُنا   فما الذي تشتكي قلتُ : (الثمانينا)

ثم هذه (السبعون) أو (الثمانون) مع تفاقم العلل والأسقام ، وضعف الحال وتراكم الأشغال ، وتوالي الأحن والمحن ، وسوء الزمن وأهل الزمن ، هو الذي كان يحول بيني وبين إنجاز تلك الرغبة ، وجعلها في حيز العمل ، وإنْ فسح اللّه تعالى في الأجل ، ووفّقنا ، فتلك زيادة فضلٍ منه تعالى الذي عوّدنا على ألطافه منذ أوجدنا ، وأسعد جدّنا[1] .

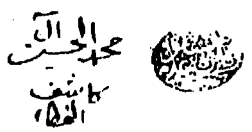

العبقات العنبرية (النسخة المخطوطة)

أول شهادة في أهميّة هذا الكتاب ذكرها الشيخ جواد الشبيبي المتوفى سنة ١٣٦٣هـ / ١٩٤٤م في الكلمة التي أُلحقتْ بكتاب «الدعوة الاسلامية» للمؤلف ، قال الشبيبي :

له من المصنَّفات كتاب أنيق ألَّفه قبل أنْ يألف العذار عارضيه ، ويجري قلم التكليف عليه ، أخلصه لتراجم طبقات أسلافه الأكارم ، وأسره الأعاظم وعدّ مساعي آبائه وأجداده ، ومآثرهم الجميلة في الدين ، وغرّ خدماتهم في الاسلام ، ووسمه بـ «العبقات العنبرية في

(١) تُوفي الأمام كاشف الغطاء في (١٨) ذي القعدة سنة ١٣٧٣هـ ، الموافق ليوم ١٨ تموز ١٩٥٤م .

الطبقات الجعفرية» ، وهو مشروع تموجُ فيه مياه الآداب من مساجلات ، ومراسلات ، وتواريخ ، وتراجم ، ومسائل فقهية ، ومباحث علمية ، ونثر فائق ، وشعر رائق مما قالوه ، أو قيل في مدائحهم ، ومراثيهم ، وتهاديهم ، وتهانيهم . ويحتوي على بعض وقائع العراق ، وأحواله وعلى الخصوص المشهد الكريم ، والزاوية المقدسة منه «النجف الأشرف» .

ووصف الشيخ كاشف الغطاء كتابه هذا بأنّه «أحسن مجموع في التأريخ والأدب إلاّ أنّه يحتاج إلى بعض الاصلاح والتهذيب لأنّه كان قد جمعه قبل الخامسة عشر من عمره»(١) . والنسخة التي إعتُمد تحقيقها كتبها حسن بن السيد جاسم الفحّام في (٢٥) من شهر جمادى الآخرة سنة ١٣١٦هـ / ١٨٩٨م . وكان المؤلف قد فرغ من كتابة الجزء الأول في اليوم العاشر من شهر رمضان سنة ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م ، ويبدو أنَّ تأليف القسمين الآخرين كان في السنة نفسها .

ورتّب المؤلف كتابه على مقدمة ، وثلاثة أبواب ، وخاتمة . وقد وُجدتْ في النسخة المخطوطة كلمة (الجزء) بدل (الباب) في القسمين الثاني والثالث ، وعدّلتُ ذلك حسب تقسيم المؤلف . إمّا الخاتمة فغير موجودة في هذه النسخة .

قدّم المؤلف هذه (العبقات) هدية إلى (عمٍّ) له كان يقيم في مدينة «إصفهان» الايرانية لغرض نشرها ، وعلى الصفحة الأولى من النسخة المخطوطة كُتب هذان البيتان :

إني نظرتُ فما وجدتُ هديةً ... تُهدى إليكَ سوى الدعاءِ الصالحِ
فرفعتُهُ لكَ بعد كُلِّ فريضة ... وقرنتُهُ لك بالثناء الراجحِ

إلاّ انَّ النسخة لم تُنشر بسبب وفاة (العمّ) سنة ١٣٣٦هـ / ١٩١٧م ، ولم يُعرف مصيرها بعد ذلك .

وفي عام ١٣٩٣هـ / ١٩٧٣م وقفتُ على نسخة مصورة من ممتلكات مكتبة العلامة الشيخ علي كاشف الغطاء المتوفى سنة ١٤١١هـ / ١٩٩١م ، فحصلتُ على مصورة عنها ، وعكفتُ على نَسْخها وتحقيقها إلاّ أنَّ العمل لم يكتمل ، وبقيتْ هذه النسخة تنتظر ضبط نصوصها ، وتكملة تعليقاتها منذ تلك الفترة الزمنية الممتدة إلى أكثر من عشرين عاماً . وكان مصدر هذه النسخة العلامة المحقق السيد عبد العزيز الطباطبائي المتوفى سنة ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م . والنسخة الأصلية محفوظة اليوم في مكتبة مجلس الشورى بطهران .

(١) تعليقة كاشف الغطاء على ديوان السيد جعفر الحلّي «سحر بابل وسجع البلابل» ، ص١٣١ .

ولا يسعني ، وقد فرغتُ من إنجاز هذا الكتاب تحقيقاً وتعليقاً ، وضبطاً وتصحيحاً خلال فترة زمنية متواصلة ، قاربت العامين إلاَّ أن أجدّد ذكرى خاتمة طبقة المحققين العلامة السيد عبد العزيز الطباطبائي الذي رحل قبل أن يرى ثمرة هذا الجهد . فإليه أرفعُ ثواب هذا العمل ، وفاء له ، ولروحه المعطاء ، وهو يرفلُ بأبراد النور في عالمه البعيد .

لندن

٢٠ رجب ١٤١٨هـ

٢٠/١١/١٩٩٧م

إني نظرت فما وجدت هدية ... تهدى إليك سوى الثناء الصالح

فرعته لك بعد كل فريضة ... توفرته لك بالثناء الراجح

الطرائف

العبقات

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي يصطفي من عباده ما يشاء، ويختار ما كان لهم الخيرة والصلاة والسلام على نبيه وخاتم رسله سيد الأنبياء، محمد المختار وآله البررة الخيرة وبعد فيقول الحقير الفقير إلى رحمة ربه وشفاعة نبيه البشير النذير العبد محمد المدعو بالحسين كان الله له في الدارين، وحباه بما تقر به العين، ابن علي خلف محمد المدعو بالرضا بقية موسى ابن جعفر كاشف الغطاء، أمد الله للأحياء بجودهم، وصعد إليه بأرواح أمواتهم أنه لا يخفى على من سلك سبيل الإنصاف، وجانب أسباب الظلم والاعتساف، حتى منار الصدق في بنيانه، والحق بحجة جنانه، فلم تجد الريبة لها في روضة قلبه مقيلا، ولم ترتق حسكة الحقد والشقاق إلى مهجته سبيلا فهو ينظر بمعيار ليس عليها من ظلم الظلم ما يوجب غشاوة، ويرى ما ورثتها عمائم ... من العمى والغشاوة، حتى صار ... لنا

الصفحة الأولى من مخطوطة «العبقات العنبرية»

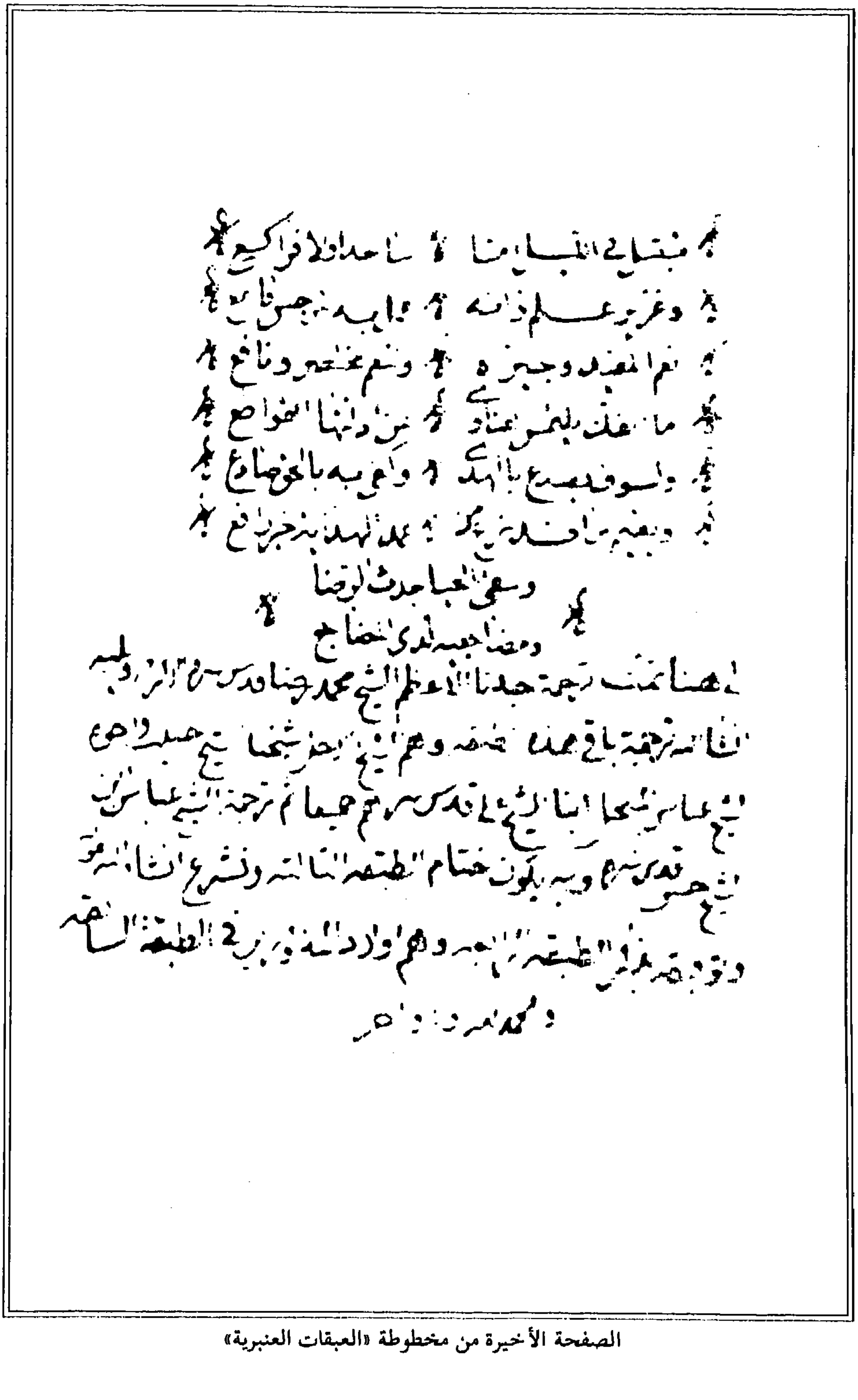
مبتدأ الثناء منا ... ساعد ولا فراكم
وغرير علم ذاته ... بابه جش نابع
ثم انعقد وجبره ... وثم عنصره وناقع
ما علت بلمس عنادي ... من دونها الفواصح
ولسوف تسمع بالهدى ... وأتى به بالوضاح
وبعضهم ما أنشد ... محمد الهدى بن جرير
وسعى العباد حث لرضا
ومضاجعه لدى النجاح
إلى هنا تمت ترجمة جدنا الأعظم الشيخ محمد رضا قدس سره الزكي وبه
انتهت ترجمة باقي ... وهم أبناء الشيخ جعفر شيخنا الشيخ حسين ...
الشيخ عباس شيخنا ابنا الشيخ ... قدس سرهم جميعا ثم ترجمة الشيخ عباس بن
الشيخ حسن قدس سره وبه يكون ختام الطبقة الثالثة ونشرع إن شاء الله
في الطبقة الرابعة وهم أولاد ... 2 الطبقة السادسة
... محمد ...

الصفحة الأخيرة من مخطوطة «العبقات العنبرية»

العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي يصطفي من عباده ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ، والصلاة والسلام على نبيّه ، وخاتم رسله سيد الأنبياء محمد المختار ، وآله البررة الخيرة .

وبعد :

فيقول الحقير الفقير الى رحمة ربه ، وشفاعة نبيّه البشير النذير (محمد) المدعو بالحُسين - كان الله له في الدارين ، وحباه بما تقرّ به العين - ابن (عليّ) خلف (محمد) المدعو بالرضا بقية (موسى) بن (جعفر) كاشف الغطاء (أمدّ الله للأحياء بحياتهم ، وصعد إليه بأرواح أمواتهم) :-

إنّه لا يخفى على من تمسك بعُرى الإنصاف ، وجانَبَ أسبابَ الظلم والاعتساف ، حتى صار الصدق لهجة لسانه ، والحق بهجة جنانه ، فلم تجد أريكة النفاق في روضة قلبه مقيلاً ، ولم تُرَ حَسيكة[1] الحقد والشقاق الى مهجته سبيلاً ، فهو ينظر ببصائر ليس عليها من ظُلَم الظُّلم ما يوجب الغباوة ، وبواصر عما ورثتها غمائم الغُمّة شيئاً من العمى والغشاوة ، حتى صار يهتدي بسنا الحق حيثما سار ، ويرجع الى هادي الصدق كلما احتار :-

أن الاعتراف بما للأشراف من أكمل الأوصاف ، وأداء حقوق العلماء من أوجب الأشياء ، والثناء على ذوي الفضل بما هم فيه لا يكون إلا من ذويه ، والاطراء في محاسن الشرفا ومناقبهم ، لا يوجد إلا عند أولي الوفا من أصاحبهم ، حيث أن الشريف للشريف نسيب ، فالواجب عليه أن لا يُضيّع أنسابه ، والكريم من الكريم قريب فاللازم على كل منهما رعي الذمم لتلك القرابة ، إلاّ أن الناس قد صرمت حبال تلك النسبة وخضرت عهود تلك القربة ، فنبذوها وراءهم ظهرياً ، وانتبذ بها فريق منهم مكاناً قصياً ، فكان يتقيَّضُ فيما مضى من القرون وغبر ، مَنْ ينشر على جهات الاوراق من محاسن أبناء عصره ما ينتظم به سلك درر ، ويجلو من أخبارهم على جيد الزمان ، ما يزري بقلائد العُقيان ، على أنه كم لأيامنا من محاسن لأولي الكمال باهرة ، وأنفاس لهم عاطرة ، ومزايا تهزأ بالدراري والدرر ،

(١) الحسيكة والحسك بمعنى الحقد والعداوة .

وتصلح أن تكون في دهم الليالي أوضاح وغرر ، ليس لها بالنقل والصون كفيل ، ولا في موسم الفضل مثيل ، فهي يتيمة دهرها ، على أنها حين تُتلى على الاسماع تُسْكِرُ ألباب أولي النُهى فتغتدي سلافة عصرها ، يفوز تاليها بخلاصة عين الفضل لا خلاصة الأثر ، ويحظى مستملُها بغرر الكمالات لا غرر الدرر ، وحيث أن اللّه عزّ وجلّ مَنَّ عليّ بمنّة كثّرَ بها شرفي وفخري ، فقَلّ عندها حمدي وشكري :

ولو أنَّ لي في كل جارحة فماً — وكلٌّ به للحمـدِ والشكر ألسنُ
ورمتُ بأنْ أُحصي بها شكر فضله — عليَّ لعادتْ وهي بالعجزِ تُعلنُ

كيف لا ، وقد جعلني :

من معشر هم للعلى قلائـدٌ — والناس فيها النعلُ والخلاخلُ
إذا بدوا كانواً شموساً في الضُحى — لكنهم إنْ نُسِبوا أصائلُ

وتداركني ، وكنتُ كالشئ المُلقى :

فصرتُ امرأً أُنمى الى أفضلِ الورى — عديداً ، وأوفاهم عُلاً ومكارما
بهاليل من سود الحتوف على العدى — لقاءً ، ومن بيضِ السيوف غُرائما[1]
ترى للهدى منهم نجوماً وللعدى — رجوماً ، وفي يوم العطاء خضارما[2]
(بكشف الغطا) للدين شادوا (قواعداً) — وأحيوا له بعد (الدروس) (معالما)

فكم لهم من مزايا ومناقب ، تلوح في سماء المجد كواكب ، وكم أبقوا من الآثار والسير ما هو في جبهة الدهر أوضاح وغرر ، بهم استقام عمود الدين ، ورُغِمَ أنفُ المنافقين .

والحاصل أن إحصاء مجدهم ، وحصر شرفهم وسؤددهم ، مما يضيقُ عنه نطاق البيان ، ويكلُّ عنه لساني بل لسان كل إنسان ، وحيث أنّ شكرَ المنعم على الحر ضربة لازم ، ونهوض العبد بما يستحقه مولاه من أسنى المغانم ، وجب عليّ أن أذكر ما منحني اللّه تعالى من شرف الآباء والأجداد ، وما منحهم من النجدة والسداد ، حامداً شاكراً له ، مُذْعناً أني لذلك لم أكنْ أهله ، بل هو محضُ تَفضُّلٍ منه وإحسان ، وتكرم وامتنان ، فلذلك بادرتُ الى حفظ ما أُنعِمَ به عليهم وعليّ لكيلا تذهب وسيلة الحمد من لديّ ، فأكون ممن ضيع كرم مولاه واسداءه وقابل إحسانه بالإساءة ، فجمعتُ في هذه الرسالة بعض أخبارهم التي

(١) غُرام الجيش كَثْرتُه .
(٢) الخضارِم : هم الرجال الكرماء .

تتناقلها الرُّواة ، فتعبقُ بشذاها الأندية ، وتقطع مع الركب شاسع الفلوات ، حتى تبتهج بسناها الأباطح والأودية :

من كلّ مكرمة سارتْ بذكرهم في حلٍّ ومُرتحلْ (سير الجنوب بريح العارض الهَطِلِ)
وكل فضيلة عمَّ نورُها السهلَ والجبلْ (كالشمسِ عمَّ سَناها سائر الدولِ)
وكلُّ منقبةٍ تهزأُ بالنجم إذا اشتعلْ ، فهي (بلا مثيلٍ سرتْ في الأرض كالمثلِ)

فجاء بحمد اللّه خالصاً من العيب ، صافياً من شوائب الريب ، وحيث أنه يتضمن الشرف المخلد ، والمجد المؤبد جعلتُه هديةً مني وخدمةً ، لصاحب العز والحشمة ، المُجلّي بسنا مُحيّاه عنا كيد الظَّلَمة والظُّلْمة ، (الحهسن) قولاً وفعلاً ، و(المحسن) عطاءً وبذلاً ، بحر الندى ، عَلم الهدى ، حتف العدى ، السراج الذي لا يخبو ، والجواد الذي يقدح زناد عزمه ولا يكبو ، والصارم الذي يفري غِرار حدِّه ولا ينبو ، (عليّ) الهمم ، وليّ النعم ، الشاملة للعرب والعجم :

ولقد قرنتُ علاهُ في أعلى الورى قدراً فما صَحَّ القياسُ وما اقترنْ
أتُرى يَصحُّ ولم تكن من نسبة ينجاب عن (كبرى) القياسِ بها الوهنْ
قومٌ بما نالوا يخالوا أنهم وصلوا وما وصلوا إليه ولَنْ ولَنْ

ومن ثم كان للناس إماماً ، والدين دعاماً ، وللشريعة شعاراً ، وللحقّ مناراً ، ولليل المشكلات مصباحاً ، ولمقفلاتها مفتاحاً ، وللفخرِ محلاً ، وللمجد أهلاً ، وللفضلِ مقاماً ، وللعلم غارباً وسناماً ، ولِمْ لا يكون كذلك وهو على أنّه حاز من المفاخر ما حاز ، وجاز من ذُرى المعالي ما جاز ، وسعى فأدرك ما أمّل بسعيه وجده ، لا بأبيه وجَده ، ابن من عرفت من الأساطين ، وصفوة من طبّقتْ أخبار فضلهم الأفاق الى حدود «الصين» ، مولانا الأجل ، ومن له العقد والحل ، موسى فرعون الجهل ، و(عيسى) موتى الفضل ، صاحب الفخر ، نائب الصدر ، عماد الملة المؤتمن ، مولانا وملاذنا (محمد الحسن)[1] أدام اللّه أيام معاليه ، وأبقى على العافين سكب أياديه ـ نجل الرضي المُرتضى ، العلامة محمد الرضا ، بقية الإمام الأكبر ، حجة اللّه في عصره موسى بن جعفر ، الحليّ النجفيّ ، حلاهم اللّه بلطفه الخفي .

وحيث أنّه (أمدَّ اللّه ظله) ممن تغرَّبَ عن الأوطان في طلب مزيد العلى فنالها ، بعدما

---

(١) محمد حسن كاشف الغطاء هو عمّ المؤلف وُلد في كربلاء عام ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م ، ودرس في النجف وسافرَ الى ايران عام ١٢٩٥هـ/ ١٨٧٨م ، واستقرّ في مدينة «إصفهان» وقد نالَ ثروة فيها ، وأصبح من كبار الملاكين وقد لُقِّب بشيخ العراقين . تُوفي في (٧) ربيع الثاني سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م ، ودُفنَ في مقبرتهم بالنجف .

أجهد نفسه في طلب العلوم حتى كاد أن يبعث الفنا لها ، ورأى أنَّ العُودَ في أرضه حطب ، وأن الرماح الخطيّة في بلادها قصب ، وأن المرء لا يبين قدرُهُ إلاّ إذا طال سيرُهُ ، كما قيل :

سـافـرْ إذا حـاولـتَ قَـدرا ... سـارَ الـهـلالُ فـصـارَ بدرا

ولغيره :

لـولا الـتـنـقـلُ مـا ارتـقـتْ ... دررُ الـنجـومِ إلى الـنحـورِ

على أن قدره أجل من أن يضيع ولا يضوع ، ولكنْ طيبُهُ بعد الاحتراق أكثر شيوع ، فألقى عصى التسيار في أمّ بلاد «إيران» ، دار العلم والشرف «أصبهان» ، فكانت له خير موطن ، وكان بها خير مُسْتَوطِن ، فما زال فيها قبل عشرين سنة الى هذه الأيام ، وشرفه وعزه يتصاعد ويتزايد على الدوام ، حتى بلغه اللّه من العلياء كلّما كان تمنى ورام ، فاتخذها داراً ، وألبسها من يُمنه شعاراً .

وكنتُ أسمعُ به ولا أراه ، ولكن الدر لا يخفى سناه ، ولم أزل أتمنى التشرف بلقياه ، والحضرة بطلعة مُحيّاه ، والأيام لا تساعدني بل تباعدني ، وأطاردها عما أروم وتطاردني ، فلما آيست من ذلك قلتُ في نفسي أن الميسور ، لا يسقط بالمعسور والمراسلة نصف المواصلة ، فجعلت أُكاتبُه ، فكانت أجوبتُه خير عائد وصلة ، وقد عرفتني أنه واحد زمانه ، ومِلءُ السمع والبصر في حالتي سماعه وعيانه .

وكان بعض أهل الدار يبعثون له بعض الهدايا والتحف ، من أرض النجف ، وأحببتُ أن أعقد له مني العبودية ، ومنه في حقي المحبة ، عسى أن يوليني إلتفاته وقربه ، لقوله (ص) : «تهادوا تحابّوا» . وحيث أنه أبقاه اللّه غنيٌ عن الدنيا وما فيها من المتاع الفاني ، مستغن بما خوّله اللّه عن كل قاصي وداني ، أردتُ أن أُهديَ له ما يخلد مع الزمان ، ويتجدد طيبُهُ في كل آن :

إنَّ إمـرأً بقـيـتْ جـمـيلُ صـفـاتِـهِ ... من بـعـده فكأنَّهُ مـا مـاتا

وسمعتُ أنّه (دام ظله) كثيراً ما يتطلّب أخبار آبائه وأجداده ، ويرغبُ في جمع ما كان لهم من طريف المجد وتلاده ، فشرعتُ في جمع هذه الرسالة ، جارياً على ما كنتُ أظنه موافق مناه وآماله . فبينما أنا مشغول بها إذ ورد من جانبه إلى حضرة الوالد[1] الماجد (دام

(١) هو الشيخ علي كاشف الغطاء ، المؤرّخ الكبير ، صاحب كتاب «الحصون المنيعة في طبقات الشيعة» . ولد سنة ١٢٦٨هـ / ١٨٥٢م ، وتُوفي سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م . وولداهُ هما : الشيخ أحمد المُتوفى سنة ١٣٤٤هـ / ١٩٢٦م عن (٥٢) عاماً ، والشيخ محمد حسين (المؤلف) المولود سنة ١٢٩٤هـ / ١٨٧٧م ، والمُتوفى سنة ١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م .

عزّهُ) مكتوب فيه ما حاصله : أني أرجوك أن تأمر أحد ولديك أن يجمع لي ما يتعلق بالشيخ الكبير من أخباره ، وأخبار أولاده وأصهاره ، وجميع ما يتعلق بهم . وقلتُ سبحان اللّه والحمد للّه على الإيمان ، فإن المؤمن مَنْ ينظر بنور اللّه حدساً فيوافق العيان ، وعلمتُ أنَّ قوله (عليه السلام) : «الأرواح جندٌ مُجنّدة تتعارف في ظهر الغيب» حق بلا ريب .

وحيث أني رتبتُه على «الطبقات» ـ وذلك أني أذكر كل طبقة طبقة مبتدئاً بأكبرها على حسب أسنانهم ، ورئاستهم ، ورجوع الأمر إليهم ـ سميتُه بـ «العَبقات العنبريّة في الطبقات الجعفرية» ليوافق اسمُه مسمّاه ، ولفظه معناه ، وإن كان الأحرى أن أسمّيه (هدية الأقل الى العمّ الأجلّ) ، وقد عرفتَ بعض ترجمته (أيّدهُ اللّه) هنا ، وسيرد عليك الباقي إنْ شاء اللّه في محلّه ، واللّه الهادي الى الرشاد ، والموفّق للسداد ، وعليه التكلان ، وبه المستعان .

فأقول ومن اللّه أستمد التوفيق ، إنه خير رفيق ، أن هذه الرسالة مرتبة على مقدمة ، وثلاثة أبواب وخاتمة .

أمّا

المقدمة

في نسب آل كاشف الغطاء

فاعلمْ أنَّ شرفَ العرب بين سائر البرية من البديهيات الأولية ، لا شك فيه ، ولا شبهة تعتريه . وسبب سيادتهم وشرفهم ، زيادة على كون الثقلين العظيمين منهم ، أمور ، كما استدل به (النعمان) (لكسرى) في الخبر المشهور ، وهي :

الفصاحة والبلاغة أولاً ، وحفظ أحسابهم وأنسابهم ثانياً ، والمحافظة على الوفاء ثالثاً . وإثبات كل واحد من هذه الأشياء على وجه التفصيل يطول به المقام ، ويستلزم الخروج عن المرام .

والمتتبع للتواريخ والسيَر ، المطلع منها على ما مضى وغبر ، يحصل له شاهد صدق على ما إدّعيناه ، وضمين حقٍّ بما ذكرناه . أمّا البلاغة والوفاء فكفاك شاهدُ الوجدان ، وإن أبيتَ فعلى الأول الفرقان ، وعلى الثاني قصة شريك وزير المنذر الذي جعل له يومين ، حيث كفل الإعرابي وعرّض نفسه للحَين[1] ، فما وجبت الشمس إلاّ وبالإعرابي قد طلع من التلاع والثنايا ، وشريك معلق بأظفار المنايا ، فتعجب المنذر من اقدام الرجلين ، ورفع عن الناس ذينك اليومين المشؤومين ، وسألهما عن ذلك ، فقال شريك : «خفتُ أن يقال ذهب الكرم من الوزراء» ، وقال الأعرابي : «خفتُ أن يقال ذهب من العرب الوفاء» .وإنْ كنتَ للزيادة طالب ، فانظر الى قضية قوس حاجب ، فسترى ثمّة العجائب .

وأما الثالثة فقد كانت المحافظة على الأجداد والآباء من أوجب الأشياء ، بل عندهم حفظ الانساب والاعراض سواء ، فلأنَّ الظاهر منهم أن حفظ الانساب للمحافظة على الأحساب ، وطلب الأصول لمن قعد بفرعه الخمول ، طلباً لشرف السابق ، كي يفتخر به اللاحق ، ودفعاً لعُهْر الأمّهات المستلزم لخبائث الأحوال والصفات ، وتنزهاً عن مظنة تعدد الآباء والفجور ، الداعي لسقوط النسل الى حضيض أقبح الأمور . وإلاّ فَمَنْ قام به شرفُ الأحساب قعد عن التفكر بشرف الأنساب ، ومن ساعدته الجدود ، استغنى عن الآباء والجدود ، لأن طيب الحسب أدلّ دليل على طيب النسب ، وَعِلْقَ[2] النفوس إذا كان ما بين

---

(١) الحَين : المنيّة .

(٢) العِلْق : النفيس من كلّ شيء ، وجمعُهُ أعلاق ، وسُمّي بذلك لأنّ القلب يتعلّق به .

نفيس وأنفس ، دل على نفاسة المغرس ، وطهارة الذات ، وحسن السيرة ، شاهدا عدلٍ على طهارة الآباء ، وكرم العشيرة . إلا أنَّ اجتماع هذه الأمور ، نور على نور ، والفوز بطيب النجار[1] ، مع حسن الآثار ، أجمع لأطراف الفخار .

وحيث أن اللّه ضمّ لنا مع طيب الأخلاق طيب الأعراق ، ومع زكاوة النفس نقاوة الغَرس ، ومع حُسن السيرة كرم العشيرة ، ومع شواهد الآثار طهارة النجار ، أحببتُ أن أُصدّر هذه الرسالة بهذه المقدمة ذاكراً انتهاء (نسبنا) ، ومَنْ ننتسبُ إليه من مرضيّ أصحابنا ، لا مفتخراً بذكر قبيلته وذكره ، وإن كانوا :

بهاليل في الإسلام سادوا ولم يكن ... كأوّلهم في الجاهليّة أوّلُ

ولا متبجحاً بانتساب آبائي الى (فُلان) و(فلان) ، وما شيدوا وأبانوا ، على أنه :

نسب كأنَّ عليه مِنْ شمسِ الضُحى ... نوراً ، ومِنْ فَلَقِ الصباحِ عمودا

لعلمي أنّ كل واحد من آبائي وأجدادي يُنشد وهو في قبره :

ما بقومي شرفتُ بلْ شرفوا بي ... وبنفسي فخرتُ لا بجدودي

كيف لا وأنت تعلم :

إنَّ الذي سَمَكَ السَّماءَ بنى لنا ... بيتاً دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ
بيتاً به (موسى بن جعفر) مُحْتَبى ... وأبو الفوارس (جعفرٌ) لا (نهشلُ)

بل لأنَّ حفظ شجرة الجرثومة ، عادة للعرب قديمة ، ولأنَّ بعض الكفرة السحرة المقتولين على أيدينا بسيف الشريعة المُطهّرة[2] ، قذفوا كل عالم في زمانهم من علماء الحق بنقيصة هي بهم أظهر وفيهم أليق ، (كاللّواط) بالنسبة الى قوم ، و(الزندقة) الى آخرين من حجج اللّه على الخلق ، وحيث لم يجدوا فيمن عاصروه من (طائفتنا) إلاّ المتحلّي بكل فضيلة ، المُنزّه عن كل رذيلة ، ألجأتهم الحيلة الى الخدش في نَسَبِه ورميه بما هم أولى به ، حتى أراد اللّه أن يريح الخلق منه على يديّ (حُجّتهِ) ، وأحسَّ (الملعون) بإقبال منيته ، الحائلة بينه

---

(١) النجار : الأصل .

(٢) يقصد المؤلف بهذه العبارة الميرزا محمد بن عبد النبي الأخباري المولود سنة ١١٧٨هـ / ١٧٦٤م ، والمقتول في مدينة الكاظمية سنة ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م . وهو جدّ أسرة آل جمال الدين العراقيّة . وكانت بينه وبين الشيخ جعفر كاشف الغطاء المُتوفى سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م خصومة إتخذتْ من الواجهة العقائدية مبرراً لها . وقد ظهر ذلك في تيار الحركة الاخبارية المُناوئ لمؤسسة الفقهاء الاجتهادية (الأصولية) . أمّا مقتل الميرزا محمد الأخباري فقد كان خاضعاً لظروف سياسية مضطربة (ستأتي الأشارة إليها) .

وبين أمنيته ، من إضلال الناس وغوايتهم ، وإخفاض راية حزب الرحمن ، ورفع لواء حزب الشيطان ورايتهم ، فأخذ يستعمل شعبذته وسحره ، آخذاً لدفع النسبة بهذه الخرافات حِذْرَه ، فأبى اللّه إلاّ أن يُريَه حقيقة قول الشاعر :

إذا جاء (موسى) وألقى العصا . فقد بَطَلَ السحرُ والساحرُ

لا بل (الكفر) وا(لكافر) ؛ فوقع القول على الذين ظلموا ، وخسر هنالك المبطلون ، وقُطع دابر القوم الذين كفروا والحمد للّه رب العالمين .

ولكن حيث كان داء الحسد كداء الجرب في السريان ، إلا أن الأول مختص بوقوعه من (الأنذال) على (الأعيان) ، طلباً لتلك المنزلة وهي بعيدة المرمى ، وسمواً بأنفسٍ تهوي في حضيض الخمول مراتباً من (السماك)[1] أسمى ، انتدب فريق من أهل الحقد والضغائن ، التي كانت في قبور قلوبهم دفائن ، فتحاملوا على تلك السبيكة المصفّاة ، وحاولوا أن تصدأ بخبيث تزويراتهم مرآةُ نورها ، وهيهات :

فَغَرَ العَدوُّ يريدُ ذمَّ فضائلي هيهاتَ أُلجمُ فاكَ بالجلمُودِ

هذا مع سفور الحق وتبلجه ، وظهور الواقع وانكشاف مدرجه فما هم إلاّ :

كضرائرِ الحسناءِ قُلنَ لوجهها حَسَداً وبَغياً إنَّهُ لَذَميمُ

ما أمكنتهم فرصة إلاّ إنتهزوها ، ولا وثبةٌ إلاّ اختلسوها ، ناكبين عن منهج الحق ، مائلين عن مدرج الصدق ، آخذين بقول مَنْ لم تكشف ذيلها عنه (حرّة) ولا (حُرّ) ، والجامع بينهم وبينه الحسد والنفاق إن لم أقل العناد والكفر ، كل ذلك طلباً لغسل عارهم ، بقذف خيارهم ، ودفعاً لمقابحهم ووصماتهم ، برمي الغير بعاهاتهم ، إذ لم يجدوا ما يُغطّي خمولهم سوى انتقاص الأشراف ، ولا ما يستر معايبهم سوى إعابة محاسن الأوصاف ، ولا يُعلي الزمان أشباههم ونظراءهم ، إلا أن يبخسوا الناس أشياءهم . ولعل الذي قتل أسلاف هذه الفرقة بسيف الشريعة الغرّاء أن يلحق بهم أجلاف الشيطان خلفهم تارة أخرى ، وإن كفاهم قاتلاً أن تضييع عَرف[2] فخرنا لا يزيده إلا نشراً وإضاعة ، وتكسيد تجارة مجدنا لا تكسبها إلا ربحاً وبضاعة :

وإذا أرادَ اللّهُ نشرَ فضيلةٍ طُويتْ أتاحَ لها لسانَ حَسودِ

---

(١) السماكان : نجمان نيّران يُضرب بهما المَثلُ على الرفعة والسمو . وهما السماك الرامح في الشمال ، والسّماك الأعزل في الجنوب .

(٢) العَرف : الطيب والعطر .

كـالعُود تُحـرقُـه لتُـخـفيَ طيبَـهُ ... فـيـزيدُ بالأحـراقِ طيبُ العُـودِ

فكم سـعـوا في هدم مـا بناه لنا الغـرّ وأبى اللّه تعـالى إلا أن تشـاد منه (القـلاع) و(الحـصـون) ، وأرادوا أن يطفـئـوا نور اللّه بأفـواههم ، ويأبى اللّه إلا أن يُتمَّ نورَهُ ولو كـره المشركون[1] .

على أنه لا لوم على من نجم به جدّه ، وأطلعـه في فلك العليـاء سـعـده ، وسـارت مع الركبان مآثره ، واشتهرت كالشمس في رابعة النهار نوادره وسرائره :

لا لومَ لي كَمْ رمتَ كتمَ فضائلي ... فكأنّمـا بَرْقَـعْتَ وجـهَ نهـارِ

ولنشرع في المقصود فإن هذه الفقرات والسطور ، كلها نفثة مصدور ، خارجة عن الغرض الأصلي ، وإنما الغرض أنني سـمعت مراراً ممن شاهدتُه من مشايخنا عن مشايخهم من الطبقة الثانية (كمُحمّد) و(المهديّ) عن مشايخهم من الطبقة الأولى (كعليّ) و(الحسن) ابني (جعفر) كاشف الغطاء ، وسمعتُه كثيراً من شيبة (الحلّة) و(العذار) الثقات الأبرار ، وسمعته أيضاً من مشايخ آل (قاطع) السـاكنين في (جناجية)[2] الجديدة ، وهذا أمر بديهي لشيوعه وتواتره بين الناس من أهل ذلك الطرف وهو أن الشيخ (خضر) من العشيرة المعروفة بآل (عليّ) وهي طائفة كـبيرة بعضهم الآن في نواحي (الشاميّة) ، وبعضهـم في نواحي (الحلّة) من (الموالك) وهم طوائف من سكان البوادي يرجعون الى مالك الأشتر[3] (رضوان اللّه عليه) بالنسب وهو شعارهم عند العرب ، وكان مبدؤهم من (الحلّة) والعذار لأن (مالكاً) و(إبراهيم) من (نخع) الكوفة ، وهما من مشاهير فرسانها وأعاظم سكانها .

وكانت جبّانات (النخع) بالكوفة أعظم الجبانات واسعة كبيرة تتصل بسواد العراق المنتـهي الى (بابل) ، فبـهـذا التـقريب تكون محـال (النخع) حَـواليْ (الحلّة)وهي المنازل المعروفة اليوم (بالعذار) التي منها (جناجية) .

والحاصل أن سلسلة (مالك) و(إبراهيم) ما زالت في (الكوفة) ونواحيها حتى اليوم ، فإن

---

(١) نصّ الآية (٣٢) من سورة التوبة : «يريدونَ أنْ يطفئوا نور اللّه بأفواههم ويأبى اللّه إلاّ أنْ يُتمّ نوره ، ولو كره الكافرون» .

(٢) جناجَة : إحدى القُرى الصغيرة الواقعة في ضواحي مدينة الحلّة . وكانت لأسلاف الشيخ خضر أراضٍ زراعية فيها .

(٣) مالك بن الحارث النَخَعي الأشتر من أمراء العرب الشجعان ، سكن الكوفة ، وله نسل فيها . شهدَ يوم الجمل . و(صفّين) مع الامام علي (ع) وولاّهُ عليّ مصر ، وكتب له (عهده) المشهور ، تُوفي عام ٣٧هـ / ٦٥٧م في مصر ودُفن في منطقة تُسمّى (بالألج) . وولده ابراهيم كان من أصحاب مصعب بن الزبير ، وقد وجهَهُ لحرب عبد الملك بن مروان فقُتل ابراهيم سنة ٧١هـ / ٦٩٠م ، ودُفن قرب مدينة سامراء ، وقبرُهُ مشيّد عامر .

(إبراهيم) لمّا قُتِل تحت راية مصعب بن الزبير ، جلس بمكانه ولده (خولان) وتقلّد أمر النخع ومن ينضم إليها ، ثم تقلدها بعده (حمدان) ولد (خولان) ، ثم تغيرت الأمور وصارت (الكوفة) تضمحل شيئاً فشيئاً وتفنى يوماً فيوماً ، وجُعلتْ قبائلها تنتقل من منزل الى منزل ، وتحل بمكان دون مكان ؛ فلَحِق قومٌ (باليمن) وآخرون (بالحجاز) وبقيتْ في أطراف (الكوفة) شرذمة يسيرة ومن جملتها رجالٌ من (النخع) من أولاد مالك ؛ منهم أبو النجم الذي هو ابن حمدان بن خولان بن ابراهيم ، ومنه تشعبت قبائل (الموالك) ، وتسموا بهذا الاسم لاضمحلال (النخع) ، وتفرقهم .

وفي الأثناء جاء المَزْيَدي[1] فعمّر (الحلّة) وجهد في تحصينها وتحسينها حتى صارت من الأمصار العظيمة .ولم يمض عليها إلا يسير زمان حتى عادت معدن العلم ، والعلماء ، لا يصدرون إلا عنها ولا يَرِدُ غيرهم إلا منها ، فكان ممن انتقل إليها الشيخ ورّام[2] الزاهد العابد المعروف ، وهو من آل (مالك) أيضاً ، فإنه ابن أبي فرّاس بن عيسى بن أبي النجم المتقدم .

ولم يزل الشيخ خضر معروفاً عند أعراب الحلة ونواحيها بأنه من آل مالك حتى ظهر ولده كاشف الغطاء ، واشتهر أمره وذاع ، وملأ البقاع والأصقاع ، فاشتهر بسعيه و(جِده) ، وأنسى ذكر (أبيه) و(جَده) ، واستغنى بشرفه ومجده ، بعدما كان ذاك مشهوراً عندهم متواتراً لديهم . وكانت الشعراء تذكر ذلك في مدائحه ومدائح بنيه ؛ فمن ذلك ما قاله الشيخ صالح التميمي[3] (من أهل الحلة) يهنئ الشيخ محمد بن الشيخ الأكبر بزواجه بإمرأة من شيوخ آل (مالك) ورؤسائهم الذين كانوا في (الدغّارة) وستأتي القصيدة في محلها ، ومحل الشاهد منها قوله :

رأى درّةً بيضاءَ مِنْ آل (مالكٍ) تضيءُ لغوّاص البحار ركوبِ

---

(١) هو سيف الدولة صدقة ابن بهاء الدولة المَزْيَدي (٤٧٩ ـ ٥٠١هـ / ١٠٨٧ ـ ١١٠٧م) ، وقد شيّد مدينة الحلّة عام ٤٩٥هـ / ١١٠٢م . (ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج٣ ، ص٣٢٧) . وهو أحد أمراء (الأمارة المَزْيَدية) التي تأسست نهاية القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي على يد (المَزْيَديين) الذين هم من القبائل العربية الشيعية التي حكمت المنطقة خلال سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م حتى سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م . وكان آخر مَنْ حكم من أمرائها علي بن دُبَيْس بن صَدَقة ، وبوفاته عام ٥٤٥هـ / ١١٥٠م انقرضتْ الأمارة المزيدية في الحلّة ، وأصبحت الحلّة تابعة للحكم العباسي . وقد تزامنتْ هذه الأمارة في نشأتها مع الحكم البويهي ، والحكم السلجوقي .

(٢) الأمير ورّام مِنْ كبار الزُهّاد تُوفي سنة ٦٠٥هـ / ١٢٠٦م وله مزار معروف . قيلَ أنّه من الأكراد الجاوانيين النازلين في الحلّة مع بني أسد .

(٣) من كبار شعراء العراق في عصره ، له علاقة مع ولاة بغداد خصوصاً مع الوالي داود باشا الذي كان حكمُهُ نهاية عصر المماليك في العراق سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م . ولد سنة ١١٩٠هـ / ١٧٧٦م ، وتُوفي ١٢٦١هـ / ١٨٤٥م .

ثم قال بعد أبيات كثيرة :

رأى أنّــه أولــى بـهـا لـقـرابـةٍ   تضـمّـهـمـا أصـلاً لخـيـر نجـيـبِ

وقال السيد النحرير ، والعالم البصير السيد صادق الفحام[1] ، الذي كان من العلماء الأعلام والشعراء العظام ، وهو من أساتيذ الشيخ الأكبر كما في روضات الجنّات[2] ، وله مِدَحٌ كثيرة ، ومراثٍ عديدة في هذه (الطائفة) ؛ فمن ذلك قصيدته التي يرثي بها الشيخ (حسين)[3] بن الشيخ خضر ـ وكان أكبر من أخيه الشيخ (جعفر) وتُوفيَ في زمانه (كما سيأتي قريباً إن شاء الله مع القصيدة بتمامها) ـ ومحل الشاهد منها قوله يخاطب الشيخ حسين ، ويندبه :

يا منتـمي فـخـراً الى (مـالكٍ)   مـــا مـــالكي إلاّكَ في المعنينْ

وأظنُّكَ بعد هذا لا تحتاج إلى شاهد ، لِما تعلمُ من عظمة هذا السيد الماجد ، فكلامه يكفيك في هذا المقام .

والحاصل أن تحقيق ذلك يطول ، وله بينات وبراهين مسلمة ، وقد أعرضنا عن ذكرها لكونها خارجة عن الغرض من هذه (الرسالة) ، ولكون الأمر أوضح وأجلى من أن يؤتى له بشاهد وبرهان :

وليسَ يَصحُّ في الآفـاق شيءٌ   إذا احـتـاجَ النهـارُ الى دليلِ

فأما سالم العقيدة من داء النفاق والحسد ، فغير محتاج الى شاهد ومستند ، وأما من تمكّن مرض النفاق والحقد من قلبه ، حتى حال بينه وبين ربه فلا يؤمن ولو جاءه (جبرئيل) بألف برهان ودليل . على أن أمر الانتساب قد ترك وهجر في هذا الزمان لأن الناس ترى أن من ينتسب الى أشرف الكونين محمد (ص) إذا لم تكن له مساع تقوم به مع نسبه لا يُرى له مزيد احتشام وارتفاع فكان الأصل هو الأول لأنهم يرون أيضاً منّ لا يعرف من أين ، وإلى أين ، وكان ذا جدّ على النيّرين ، فصارت الناس تجهد في تحسين مساعيها لتعلو فيها لعدم أثر لما عداها ؛ فمن ساعده الحظ والتوفيق نالت نفسه مناها وإلا بقي في حضيض الخمول لا بهذا فاز ، ولا لهذا حاز ، فلا تقل إن كان الأمر كذلك من الانتساب الى (مالك) فلِمَ لَمْ

(١) فقيه ، مؤرخ ، شاعر ، وآل الفحّام هم أحد فروع السادة (الأعرجيّة) . وُلِدَ سنة ١١٢٥هـ/ ١٧٣٢م ، وتُوفي سنة ١٢٠٤هـ/ ١٧٩١م .

(٢) الخوانساري ، محمد باقر ، روضات الجنّات في أحوال العلماء والسادات ، ج٢ ، ص٢٠١ .

(٣) تُوفي الشيخ حسين بن الشيخ خضر عام ١١٩٣هـ/ ١٧٧٩م .

يذكره الشيخ[1] في كتبه ورسائله خصوصاً في (رسالته) التي ردّ فيها على الأخباري ، وكفَّرهُ بها ، فإنا سنذكر لك فيما سيأتي أن نسبتها الى الشيخ غلط ووهم وهي مجموعة من كلام (الشيخ) على ذلك الأخباري ، وليست من تأليفه ، وأن (الملعون) لم يستند بدعواه الى دليل ، ولا تمسك بحجة ، لا قوية ولا واهية ، ولا صنع بذلك رسالة ولا جاء ببينة وبرهان ، والدعيّ كذّاب ، والكذّاب لا يجاب . وحاشا ، ثم كلاً أنْ يُدنّس الشيخُ (جوهرَ) كلامهِ الطاهر ، (بعَرض) ذلك الخبيث الفاجر .

وبالجملة فحيث كان حسّاد المرء على قدر شرفه وكان (الشيخ) قد بلغ من الشرف محلاً يحسر الفكر عنه ، كثر حاسدوه ومعاندوه ولم يجدوا سبيلاً الى قذفه بشيء من الأحوال والصفات لتحلّيه بأحسنها وأعلاها ، وتخلّيه عن أرذالها وأدناها ، فجعلوا يرمونه بالأشياء البعيدة عن أذهان العوام لتكون سبباً الى توهينه ، فقال الأخباري إن الشيخ (أمويٌّ) ، وقال ملاّ محمد[2] ـ حاكم النجف سابقاً ـ (إن الوهابي أخوه)[3] . وقد قتلهما اللّه على أيدينا وهذا من أعجب الأشياء وأعظم الكرامات التي لا تكون إلا للأنبياء والأمناء[4] .

وسنذكر تفاصيل هذه الأمور ، وعاقبة هؤلاء القوم ، وسبب عداوتهم لهذه الطائفة المصفاة فيما سيأتي إن شاء اللّه تعالى .

---

(١) يعني به الشيخ جعفر الكبير .

(٢) مُلاّ محمد بن المُلاّ محمود من أسرة (الملالي) . قُتِلَ سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٧م .

(٣) الوهابي يُقصد به الشيخ محمد بن عبد الوهاب مؤسس (الوهابية) ، لما شاع من وجود علاقة بين الشيخ جعفر كاشف الغطاء ، وبينه ، فأنّها كانت سبباً في الطعن على كاشف الغطاء مَن قبل بعض المناوئين له .

(٤) آل كاشف الغطاء بيت من بيوت آل علي من بني مالك ، إحدى عشائر المُنتفق الذين يرجعون الى عامر بن صعصعة ، وهم من العرب المضرية العدنانية وليس مالك الأشتر منهم ، فهو نخعي يماني من القبائل القحطانية .

ذكر ذلك الاستاذ عباس العزاوي في «عشائر العراق» ، جـ٤ ، ص١٤١ ، والسيد عبد الستّار درويش الحسني فيما كتبه في «تصحيح الأوهام في أنساب الأعلام» .

الباب الأول

في ذكر أحوال الشيخ جعفر وأخوانه وأبيه ومَنْ يمتُّ إليه

أمّا :

أبوهُ:

فهو **الشيخ خضر بن الشيخ يحيى** : كان فقيهاً متبتلاً ، وزاهداً لا منحرفاً إلى الدنيا ولا في شهوتها متنقّلاً ، هجرها هجر الجافي الملول ، وسلك فيها طريقة آل (الرسول) ، من الذل فيها للّه والخمول ، لعلمه بارتحاله عنها ، وتعويضة وإبدالها منها ، فنظر لها بقلبه لا بعينه ، وانتظر يوم فراقه وبَيْنه ، فلم يكن له بعد ذلك في نزهتها اشتغال ، ولا في شعاب مسالك الترؤُسِ إيغال ، على أن أباه كان في بلدهم بدر فلكها ، وواسطة القلادة في سلكها ، وصدر المجلس من ملكها ، تُحَلُّ في حرم بيته نجائبُ لرجاء حملها ، وتضع في رحب فِنائه مطلقات الآمال حملها ، فقذف اللّه نور المعرفة بقلبه ، حتى تغرب عن قشيب ربعه وشِعبه ، وعاف العز والشرف ، وألقى عصا التسيار في بعض زوايا (النجف) ، واشتغل في تحصيل العلوم اشتغال من أنهكتْهُ علة التقى ، وأهلكته الرغبة في الفناء ، والزهادة في البقاء ، فلم يكن له جهد بسوى الزهد ، ولا عادة إلاّ العبادة ، ولا وظيفة غير الخيفة ، فلذلك لم يتضلّع في العلوم ، تضلّعاً معلوم .

والأصحُّ فيه عدم إستقامته في النجف مدة شاسعة ، حتى انتقل أبوه إلى رحمة اللّه الواسعة ، فأكثر الالتماس منه بعض أعيان أقاربه وذويه ، أن ينتقل إليهم فيجلس مجلس (أبيه) ، فلم يكن له بُدٌّ من الأجابة ، لمسيس الرحم والقرابة ، فكان يقضي أيامه وأعوامه نصفها يتشرف بها في (النجف) ، ونصفها يُشرِّف بها محله ومقامه ، حتى أربى عمره على الستين سنة ، فتجرد للّه كليةً ، وخلّى وطنه ، فأغراه الشوق ، وحرّكه إلى (الغريّ) تُقاه ، فسكن إليه وألقى به عصاه ، وعاد إلى ما كان عليه من التقدس ، حين قالت له النفس بالتفرّس :

أكملتُ في ذا العام ستينَ سنَهْ ... مرّتْ وما كأنّها إلاّ سِنَهْ
لم تدّخرْ فيها سوى توحيدِهِ ... وغيرَ حُسنِ الظن فيهِ حَسَنَهْ
ما حالُ مَنْ لم يتعضْ بزاجرٍ ... وفي مراعي اللهو أرخى رَسَنَهْ
وإنَّ شرَّ الناسِ مَنْ طالتْ به ... حياتُهُ وفعلُهُ ما أحسَنَهْ
وإنَّما الناسُ نيامٌ مَنْ يَمُتْ ... منهم أزالَ الموتُ عنهُ وَسَنَهْ

فجعل يتضلع بعبادة ربه، ويشتاق السكون إلى رحمته وقربه، ويبرى قلبه من الذنوب، ويمحو عن صحيفة نفسه درن العيوب، مشتاقاً إلى رحمة مولاه، طالباً الفوز برضاه، قائلاً:

طُوبى لمن طيّبَ أوقاته ... إذا نأى عنكم بمعناكُمُ
وإن نأت عن داركم داره ... داوى الحشى منكم بذكراكُمُ
وإن دنا عطَّرَ أردانَهُ ... بما يَغيظ المسكَ ريّاكُمُ
كلُّ فؤادٍ بكُمُ مُغرمٌ ... وكلُّ مَنْ في الكون يهواكمُ
إذا حببتُهم فدعوني أمتْ ... فإنَّما مَحياي مَحْياكُمُ
طُوبى لِمَنْ آنستموهُ بكمْ ... فهو بغيب يتراءاكُمُ
وقد سكنتم بسويدائه ... فأينما وجّهَ يلقاكمُ
رفقاً بمن صارَ أسيراً لكمْ ... أمّا ترقّون لأسراكمُ
أمَا لكم في حقّه رحمةٌ ... يرحمُنا اللّهُ وإيّاكُمُ

وكان معظماً في نفس العلماء، كبيراً في أعين العُظماء. وكان في أيام تردده إلى بلده إذا جاء الى النجف يهدي إلى كُلّ عالم مكنسة، وعُدَّة (بئر)، فلمّا هجرَ وطنه بالكُلِّية أُخبرَ الشيخ حسين نجف بأنَّ الشيخ خضر هاجرَ إلى هذه البلدة. فقال: إنّا للّه، قد انقطعت (العُدَّة).

ولقد نسب إليه ولده الصادق (جعفر) في رسالته الأيرانية المنسوبة له؛ من الكرامات ما لا تكون إلاّ من الأولياء، أو ممن هو أكبر، كمُلاقاة صاحب الأمر (ع)، والخضر (ع)، وانفتاح بابي الحرَمين؛ حرم علي (ع)، والحسين (ع)، وكثيراً من أمثالها. وذكر أنَّ الناس كانت تزدحم على الصلاة خلفه وأن علماء ذلك العصر كالسيد العابد الزاهد العالم المشهور سيد هاشم الفحام[1] كانوا يقولون: مَنْ أراد أن ينظر إلى وجوه أهل الجنة فلينظر إلى وجه

(١) هاشم الفحّام الحطّاب: من كبار علماء عصره الزُهّاد. كان يحتطب من صحراء النجف ويبيع حطبه في

الشيخ (خضر) . وعبارة الشيخ في (كشف الغطاء) في بحث التشهد مما يدل على عظمة قدره (رحمهما اللّه) .

فما زال على تلك الطريقة من التهجد ، وعلى ذلك المنوال من التعبّد ، حتى اشتاق ربه وجواره ، فقضى نحبه بعدما قضى من الباقيات الصالحات أوطاره ، وانقلب إلى رحمة ربه وهو أصفى من سبائك الذهب ، وذلك في سنة الألف والمائة والثمانين تقريباً في رجب ، ودفن بالرواق المنوّر في الحجرة التي تحاذي الحجرة التي فيها قبر العلامة الأردبيلي[1] ، وهي اليوم خزانة الكتب و(القرائين) ، الموقوفة على حرم أمير المؤمنين ، وهذا مما يدل على حسن نية الرجل وصفاء سريرته . حدثني بهذا عمي العبّاس بن العلامة الحسن بن جعفر ، قال : «كنتُ أدخل مع أبي للزيارة وأنا صغير فإذا خرجنا عكف أبي على المكان الذي هو خلف قبر الأردبيلي فوقف هناك وقرأ الفاتحة وأمرني بذلك ، فسألتُه يوماً : لمن تقرأ يا أبه؟ فقال لجدّك : فقلتُ : أو ليس قبر جدي بإزاء دارنا؟ فقال : نعم ، هذا جدّك الخضر ، وذاك جدّك جعفر» .

وكان الشيخ خضر محبوب الجانب ، كثير الأصدقاء في اللّه ، فلما تُوفي كثر الصراخ والعويل عليه لكثرة أحبائه وأولاده وأقربائه . فقال السيد صادق الفحّام (رحمه اللّه) يرثيه ببيتين أنشأهما في الحال ، وقيل كتبهما على الصخرة التي هي على القبر ، وهما :

يا قَبرُ هَلْ أنتَ دار مَنْ حويتَ ومَنْ ... عليه حولكَ ضَجَّ البدوُ والحضرُ
أضحى بك (الخضرُ) مرموساً ومنْ عجَبٍ ... يموتُ قبل قيامِ القائمِ (الخضرُ)

وما قضى إلاّ وهو :

أبو النفر الغُرّ الأُلى تَركتْ لهمْ ... عزائمُهمْ في عزّة الدهر مَبسما
إذا ظمئتْ بيضُ الضُبا في أكفّهم ... تَحاشوا لها ورداً سوى مصدرِ الظما
لقد قرنوا بالنجدةِ العلمَ والتُقى ... فأبدوا لهم طعمين شَهداً وعلقَما
ففي الجَدبِ يُسْتَسقى بفضلهمُ الحَيا ... وفي الروع يُسْتَسقى ببيضهمُ الدِّما
وما بَرِحُوا يحمونَ عن بيضةِ الهُدى ... ويبنونَ منْ أركانها ما تَهَدَّما
يردون جيشَ الشِركِ عَنْها بعزمِهمْ ... فيرجعُ مكسورَ اللواء مُحَطَّما

(البلد) ليستعين به على معيشته حتى أصبحت هذه المهنة لقباً له . تُوفى سنة ١١٦٠هـ / ١٧٤٧م . (معارف الرجال ، جـ٣ ، ص٢٥٤) .

(١) هو الشيخ أحمد الأردبيلي المعروف بالمُقدّس الأردبيلي المُتوفى سنة ٩٩٢هـ / ١٥٨٤م ، كان من أكابر فقهاء النجف في القرن العاشر الميلادي .

إذا عُرِضتْ في جانب الدينِ زيغةٌ | أروها قـذى الأجـفـان أو تتـقـوّمـا
إلى أن أعادوا الأرض بالأمنِ كعبةً | حراماً وكل الدهر شهراً مُحرَّما

إخوانه

وأما إخوانه الذين هم أولاد الشيخ (خضر) فالمعروفون المجتهدون أربعة أكبرهم :

الشيخ حسين : عالم مجتهد ، وفقيه متفرّد ، محبوب الحاشية والأطراف ، منقادة له الأعيان والأشراف ، ذو شرف عظيم ، وفضل جسيم ، وزهد رزين ، وعلم مبين ، وقد ذكره الشيخ عبد الرحيم البادكوبي في «نقد العلماء» بعنوان مستقل أطنب به غاية الأطناب ، وأعجب بتقاه غاية الأعجاب . وتُوفيَ سنة ١١٩٦هـ ، فقال السيد صادق الفحام رحمه اللّه يرثيه ، ويؤرخ عام وفاته ، ويعزّي أخويه الشيخ محسن ، والشيخ جعفر بقصيدة غرّاء وهي :

يا أيُّها الزائر قـبـراً حَـوى | مَنْ كـانَ للعليـاء إنسـانَ عَينْ
قفْ ناشداً إنْ كـانَ يُطفي الجَوى | نشـدانَ أحـجـارِ هُناكَ انطوَينْ
يَا قَـبـرُ هَلْ تدري ومَنْ لي بأنْ | تَدري ولكـنَّ المعـالي دَرَينْ
مَنْ في ثَرى رَمْسِكَ منهُ انطوتْ | محـاسنٌ نُشّرنَ في الخافـقينْ
ومَنْ عليـه اليـوم لمّا قَـضى | نحـباً جليدات نفوسٌ قَضَينْ
وأيُّ آيات مِنَ الفـضلِ في | تُربِكَ مِنْ بَعدِ الوضوح امّحَينْ
وأيُّ أفنـانٍ من العلم مِنْ | بَعـد بسوق واخضرار ذَوَينْ
قَـدْ طالما أُجْنَيْـتَنا يانَعـاً | لذّ لَنا واليـومَ لا يُجْـتنينْ
وهَلْ تبـينتَ ومـا أن أرى | عندكَ تبيـانَ أمـور جَرَينْ
أيُّ جيـوبٍ بالأسى مُـزّقتْ | فَـوقَكَ أمْ أيُّ جفـونٍ ذَرَينْ
وأيُّ ربّات خُـدور من الـ | ـحُجب على أعجالهنَّ إنْكَفينْ
خَـواسـراً بُحّـا من النَّدب يبـ | ـكينَ لنـدب فقـدَهُ غيرَ هَيـنْ
نَشـرنَ منهنَّ شـعـوراً على | غـيرِ شعـور لُمصاب (الحُسينْ)
وأدمـعـاً حُـمـراً يَصَـعّدْنَها | من دم أفـلاذ كُـبـود فَـرينْ
يا قَـبرُ ، مـا بالَكَ لم تَسْـتَنرْ | أرجـاؤكَ الجُـونُ لذي ناظرينْ

أليسَ قَــدْ أوطنتَ بدرَ الهُــدى حتى افـتـقـدنا أحـدَ النَيّـرينْ
يا قَـبـرُ ، مـا بالَكَ لم تَضْحى للـ ـخـصب مـراداً ممرّع الجـانبينْ
أليسَ فـيكَ الغـيثُ أرسى فَلِمْ أصبـحتَ لا تَلوي على الرائدينْ
لا ينتـهي اليـوم إلى غـايةٍ تَعَـجُّبي منِ الليـالي قَـضَينْ
كيفَ على ضيقِ المجالِ احتوى جَنباكَ جَنْبَيْ (يَذبُلٍ) أو (حُنَينْ)
وكـيفَ واريتَ الهـلالَ الذي عمَّ ضيـاهُ الغَربَ والمَشرقينْ
وكـيفَ غـيّضتَ الخِضَمَّ الذي كـانَ بعيـدَ القعـرِ والسـاحلينْ
أصبحَ فـيكَ العزُّ مـسـتسلماً للقَـدَرِ المُنزلِ مُعطى اليَـدينْ
والشرفُ السـامي ومحضُ التُقى في رمسكَ الدّاثرِ مُسْتـوطنينْ
يا صـاحبَ القبـرِ دُعـا ثاكلٍ خـدُّ بكَاهُ الخـدُّ والوجنتينْ
يا مُنْتَمي فَخْـراً إلى (مـالكٍ) مـا مـالكي إلاّكَ في المعنيينْ
يا سـاكنَ الرَمسِ دُعـا صـادقٍ يقولُ في حـقِّكَ منْ غيرِ مَينْ
قَـدْ كُنتَ لي بَرّاً رؤوفـاً ولاَ غـروَ فـأني أحـدُ الوالـديـنْ
إنْ كُنتَ قَدْ غُيّبتَ تحتَ الثَّرى فَلَمْ تَغبْ عن خـاطري لَحظَ عَينْ
أوحـشـتني مـرأى ولكنَّ لي ذكـراً وفكراً فـيكَ لي مـؤنسَينْ
أبكيكَ للجَـدوى وبذلِ القِـرى يرجَعُ عنكَ الوَفـدُ بالجـدويَينْ
واليـومَ إن أمّـوا حِـمـاكَ الذي قَدْ عَرفوا عـادوا (بخُفّي حُنينْ)
أحـرى بأنْ أقـضيَ نَحْبي أسىً لولا التعـزّي عنك (بالجعـفرَينْ)
خـلّـفـتَ يـا بـدرُ لـنـا سـلوةً بَدْرَينِ في أُفقِ العُلى طالـعَينْ
ذا (جَعـفرٌ) فينا وذا (مُحسنٌ) فـإنْ تشأ فـادْعُهـما (المُحسنَينْ)
وفَـرقَـدَيْ مَـجـد ، ومـا خلتُ منْ قـبلكَ بدراً يُعـقبُ الفَـرقَـدَينْ
سـقـاكَ منْ صَوبِ الرّضـا هاطلٌ يُغْـنيـكَ عـن نَـوءِ مـن المُرْزِمَينْ
نعـاكَ ناعـيكَ بفـيـه الثـرى فـابتـدرَ الدمعُ من المُقْلَتَينْ
فـقلتُ لمّا أنْ نَعى أرّخـوا (تُنسى الرزايا دونَ رُزءِ الحُسينْ)

وهذه القصيدة تكفيك في بيان عظمة هذا الرجل وشرفه خصوصاً كونها من مثل السيد (صادق) ، العظيم القدر ، القديم الفخر .

وله أولاد كثيرون ، والعَقبُ من الشيخ (عيسى) الذي هو أب الشيخ مُحَمَّد الذي هو أب الشيخ محسن[1] الشاعر المُفْلِق ، وصاحب الشرف المُحَلِّق ، كان معظماً عند الأعيان ، جليساً للأشراف ، للطافة طبعه ورقة حواشيه التي تُغني عن السّلاف ، تُوفيَ قبل خمس سنين أو سبع فجأةً وهو يمشي في الطريق في تشييع (جنازة) بلا سبب سوى أنه كان يُماشي في الطريق بعض الأجلاء ، وينقل له لطائفَ ونوادر ويضحك ضحكاً كثيراً فسقط في الأثناء .

وسمعتُ ممن كان يماشيه أنه قال له خفّفْ عليك فقد أفرطتَ ، وهذه أمامنا جنازة ولا نعلم ما يؤول إليه حالنا ؛ فلم ينفع واستمر على ضحكه حتى وقع من بين أيدينا ، وهو على تلك الحالة . فسبحان اللّه ما أبهر قدرته ، وأعظم حكمته . وكان الشيخ محسن هذا مختصّاً ببني عمّه آل الشيخ جعفر قاصراً أغلب أشعاره مدائحاً ومراثياً عليهم وعلى من يتعلق بهم . وسيأتي عليك من غرره ما يبهر الأسماع ، ويسحر الطباع . فيا رحمة اللّه تغمديه ، ويا رضوانه راوح جسده الطيب وغاديه .

والجماعة (الملقّبون) كلهم من الشيخ عيسى . ومن ولده الشيخ مهدي نويّر ، ومن ولده أيضاً الشيخ مُحَمَّد آل الشيخ محمود (الموجود في زماننا هذا) ، وله ولدان ظريفان .

الثاني من أولاد الشيخ خضر ، **الشيخ المحقق المجتهد المتبحر ، الشيخ محسن** كان من تلامذة أخيه الشيخ (جعفر) وتُوفيَ بعده فرثاه السيد صادق الفحام (رحمه اللّه) ـ الراثي أخيه المتقدم ـ بقصيدة غراء رائية أولها :

هي لوعةٌ تحتَ الضلوعِ زفيرُها ... هل كيفَ يُطْفَئُ بالدموعِ سعيرُها

إلى أن يقول :

ظعنتْ (بمُحسنِها) المطلّ على الورى ... إحسانُه فتطوّقْتُه نُحورُها

وهي طويلة حسنة التأليف والأسلوب جداً ، وتُنبئ عن عظمة مرثيها ، وقد أتينا على جميعها في ترجمة الشيخ (موسى) لتضمنها أخيراً ، مدحاً له كثيراً ، ويعزّيه فيها هو وابنه الشيخ (مُحَمَّد) الذي هو أب الشيخ النحرير ، والمحقق الذي لم يأت الدهر له بنظير ، المحيط غاية الأحاطة بالفروع والأصول ، والجامع بين المعقول والمنقول ، الشيخ راضي[2] المشهور ، وهو

(١) الشيخ محسن الخضري بن الشيخ مُحَمَّد بن الشيخ موسى بن الشيخ عيسى بن الشيخ حسين من كبار شعراء عصره ، ولد سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م ، وتوفيَ أوائل شهر صفر سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م . ونشر ديوانه الشيخ عبد الغني الخضري سنة ١٩٤٥م .

(٢) الشيخ راضي بن الشيخ مُحَمَّد بن الشيخ محسن (هو جدّ الأسرة المعروفة بآل الشيخ راضي) من الفقهاء المتميزين بالعلم ، تُوفي سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٥م وأعقبَ سبعة أولاد .

ابن بنت الشيخ الكبير ، وكان كُلٌّ تلمّذه على خاله الشيخ حسن بن الشيخ الكبير ، وتُوفي هو والشيخ مهدي في سنة واحدة وكانا بمنزلة الأخوين ، بَلْ أشدّ إلفة وإخاءً (رحمهما اللّه جميعاً) . وسيأتي في باب (الأصهار) باقي أخباره .

وعقبه **الثالث** من أولاد الشيخ خضر **الشيخ مُحَمَّد** ، تُوفيَ عن الشيخ عليوي وله ولدان الشيخ (محسن) والشيخ (مُحَمَّد) ، ومنه الشيخ (حسن) الذي كان في طهران ، والآن في نواحي (الحلة) ، وله عدة أولاد[1] حفظه اللّه وإياهم .

والحاصل أن ذرية الشيخ خضر لا تُحصى ولا تُستقصى[2] ، قَدْ ملأوا البقاع والأصقاع ، فطرف منهم في (النجف) وآخر في الدهلة ، ومثله في (العذار) و(الحلّة) ، أمدّ اللّه بسلسلتهم مدى الأبد .

في أحوال الشيخ جعفر كاشف الغطاء

الرابع من أولاده الأكسير الأكبر ، والكبريت الأحمر ، والسرّ المضمر ، شيخ المشايخ وأستاذ الكل **الشيخ جعفر الأكبر** .

كُلّ فكر قاصر عن إدراك كنهه وذاته ، وكل طالب خاسر من احصاء بعض سجاياه وصفاته ، فكم استنهضتُ (فارس) القريحة في حلبة الطروس ، واستطردتُ (جواد) القلم ، للاقدام على أداء ما يجب من بيان علو قدره ، فاسترجع كُلّ منهما وأحجم ، وكم أجريتُ طِرف الفكرة ، لاقتناص بعض الشوارد الغرر مما استجمَعَتْهُ تلك (الحضرة) ، فاستوقف دون الوصول وكبا ، واستعملت سيف البلاغة والبيان للافصاح عن بعض تلك السجايا الحسان فتكهّمَ[3] دون الحصول ونبا ، فوقفتُ وقوف العيِّ الشحيح ، وأنا والحمد للّه نجلُه الفصيح ، نعم ومن لي بإدراك كنه (حُجَّة) من حجج اللّه ، وآية من آياته ، وخزانة من خزائن علمه أودع فيها خفايا أسراره ومكنوناته ، وحمّله ثقل شرائعٍ أنبيائه ، فخف به ناهضاً بأعبائه ، حتى رفع ما انطمس ، وجدد منها ما درس ، فأصبحت به وهي مشيدة البناء ، مأهولة

(١) منهم الشيخ جواد بن الشيخ حسن آل شيخ عليوي ، وكان قَدْ أقام في النجف فترةً ثم رجعَ إلى منطقة (جناجة) ، تُوفي في شهر صفر عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م .

(٢) تشكلت من أولاد الشيخ (خضر) عوائل مهمة غلبَ على رجالها محافظتهم على الخط الروحاني ، حيث أصبح الشيخ جعفر جدًا لأسرة آل كاشف الغطاء ، والشيخ محسن جَدّاً لأسرة آل الشيخ راضي ، والشيخ حسين جَدّاً لأسرة آل (الخضري) ، والشيخ مُحَمَّد جداً لأسرة الشيخ عليوي .

(٣) يُقال كَهمَتْهُ الشدائد أي جَبَّنَتْهُ عن الاقدام .

الفناء ، عبقة الأرجاء ، ظليلة الأفياء ، محكمة المباني ، غضة المجاني ، يطيش سهم راميها ، ويهتدي إلى أوضح السبل من أخذ بها وسلك ما فيها ، بعد ما بذل مهجته في ذلك ، وسلك بها في جميع شَعوب الأرض والمسالك ، لينتشر الحق والعدل ، في كُلّ حزنٍ وسهل :

بعَيدُ مناط العزم فالغربُ مشرقٌ ... إذا ما سعى في اللّه والشَرقُ مَغربُ

إلى أن انتشر في جميع فجاج الأرض والسماء صيته بالفخار وذكره ، وعبق كلّ الآفاق طاوياً فضيلة سائر أولي الفضل نشره ، فماذا عسى أن يبلغ (المُطريُّ) فيه ، وبماذا يأتي من مكارمه ومساعيه ، فنحن أحرى بنا وأجدر ، أن نقول في ترصيف ذلك الجوهر :

قُدسيٌّ ذاتكَ ما إليه سَبيلُ ... وصفاتُ مجدكَ ما لَهُنَّ وصولُ
وبلغتَ غايَات العلوم عَلاً فَما ... يَدري بليغٌ فيكَ كيفَ يَقولُ
لكنَّ مجدَكَ قال للمُطري به ... قولاً جميلاً فيكَ وهو جليلُ
عظّمْ وبجِّلْ ما استطعتَ ليكتسي ... شَرفاً به التعظيمُ والتبجيلُ

وحيث أن فضله وشرفه كالشمس في رابعة النهار ، وما رزقه اللّه من الذكر الجميل في سائر الأقطار ، كما هو أهله (كأنّهُ عَلَمٌ في رأسه نار) ، وإنما قول القائل فيه عيلم علامة :

ضربُ الزجاجِ لنور اللّهِ في المثلِ

إذ حاشى مساعيه أن تكتسب بزبرج الألفاظ حشمة وفخامة :

والشمسُ تكبرُ عن حلي وعَنْ حُللِ

فلننتقل الى ما يجب علينا ذكرُهُ من كراماته ، وحكاياته في أسفاره وأحضاره ، وما قال ، وما قيلَ فيه من تهانيهِ ومراثيه .

والسلام في استيفاء هذا المقام يقع في فصول .

الفصل الأول

في كراماته

ما خفي منها وصحّ، وما اشتهرَ، وحكاياته الظريفة سفراً وحضَر، مقتصراً فيه على ما ذكر ما هو كالمتواتر صحة وشهرة، أو كالمقطوع به لصدوره من ذوي الاطلاع وأهل الخبرة، كمشايخنا سلفاً وخلف، أو بعض المختصين ممّن بهم يعرف، لحصول الوثوق والاطمئنان بل اليقين بعدم الافتراء، وكيف لا يحصل ذلك وصاحب الدار أدرى بالّذي فيها.

ولكن حيث ان كراماته كثرت فاشتهرت، وسعدت فبعدت، وتداولتها ألسن الصغار والكبار، في جميع الأقطار فربّما يوجد فيها ما ليس له أصل، أو يخلط معها ما لم تكن له، اشتباهاً أو تعمداً، ولكني بحمد الله قد انتقدتها ولا انتقاء الصيرف، وأتيتك بخالصها وقذفت المزيف، وأخذتُ اللّب والصفو، ورميتُ الحشو واللّغو.

وقد التزمتُ أن لا أذكر في هذه الرسالة شيئاً إلاّ عن مستند قوي، وهو إمّا كتاب معروف، مطبوع أو مألوف، وأمّا رجل موثوق به أرى كلّ من رآه أو عرفه.

وأنا أذكر لك كلا منهما أولاً ثم أرمز لكلٍّ واحد برمز أكتفي به عند الحاجة.

أمّا الكتب فمنها تأليف العالم المجتهد المحقق المنفرد، صاحب التصانيف الكثيرة، والأجازات الخطيرة، الشيخ ميرزا محمد التنكابني[1] وهو رجل من الطاعنين في السنّ توفي قريباً من عصرنا، وله من العمر ما ينيف على التسعين، وقد حضر درس الشيخ حسن، والشيخ محمد حسن صاحب الجواهر، والسيد إبراهيم القزويني صاحب الضوابط وغيرهم من العلماء، وهو مجاز من أغلبهم كما في ترجمته. وذكر أنّ له ثلاثمائة تصنيف، وقد رأيتُ بعضها فكانت تدلّ على سعة اطّلاعه، وطول باعه في المعقول والمنقول بقدر ما أميّز، وان كانت (سالبة بانتفاء الموضوع).

فمن تصانيفه كتابه المسمى بـ (قصص العلماء)، وهو جيد في بسط أحوالهم جداً، وانّ

---

(١) الميرزا محمد بن الشيخ سليمان تُوفي سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م.

كان فيه خلطٌ عند بعض المقامات ، فلذا يسمّيه بعض فضلاء العصر (فضائح العلماء) ، ولكنه قد بسط القول في أحوال الشيخ الكبير وكراماته بمقدار كرّاسين ، وأطنب في فضله وعظمته غايةً ونهايةً ، (وسنذكر نصّ ذلك في محله) ، وهو مطبوع بطبعين ؛ هندي وايراني ، ونرمز عنه (قص) .

ومنها كتاب (معدن الشرف في أحوال المشاهير من علماء النجف) ، وهو للسيد النحرير والمطّلع الخبير ، والمؤرخ البصير ، السيد حسّون البراقي[1] (سلّمه الله وأبقاه) ، وهو من المعاصرين ، وله شوق ورغبة شديدة في هذا الفن خصوصاً في أحوال العلماء وكراماتهم ولا أظنّ انّ له نظيراً في العرب بهذا العلم ، فيا وفقه الله لذلك وأدامه ، جامعاً شتات هاتيك المفاخر السوامك ، وأرمز عن كتابه (مع) ، وربما أذكر نص عبارته لأنّي ظفرتُ بمسودة كتابه ، ولم تكن مهذّبة بل أخذُ المعنى ، وأكسوه ألفاظاً رشيقة ، ومباني هي به حقيقة .

ومنها : كتاب (روضات الجنّات) للسيد محمد باقر الأصفهاني[2] تأليف عظيم ، غنيّ عن التعريض والتفخيم ، وان كانت سقطاته لا تحصى كما لا تخفى على من نظر فيه ، ولولا خوف الاسهاب لأشرنا على جملة منها ، ولكن (جلّ من لا عيب فيه وعلا) ، ونرمز عن كتابه (رو) .

ومنها : كتاب (نقد العلماء) للشيخ عبد الرحيم البادكوبي ، ونرمز عنه (نق) . وهناك كتب أخر لم نجعل لها رمزاً لعدم تكرر النقل عنها .

وأما الرجال الذين أروي عنهم بلا واسطة فهم عدة ، ولكن أكثر ما أروي عن عمّي وسيّدي العالمين العاملين الجليلين العظيمين الغنيين عن التعريف ، والرفيعين عن الترصيف والتوصيف ، عَلَمَي المجد وعلامتي الزمن ، العباسين نجلي علي[3] والحسن[4] قدّس اللّه أرواح آبائهم ، وأدام حياة آبائهم ببقائهم ، آمين عن محمد[5] وأخيه المهدي[6] ، عن عمّهما

---

(١) سيد حسّون البراقي ولد سنة ١٢٦١هـ / ١٨٤٥م ، وتُوفي سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٤م . له مؤلفات تأريخية غزيرة ، لم يُطبع منها إلاّ النزر القليل . وكتابه (معدن الشرف في أحوال المشاهير من علماء النجف) في عداد المفقودات .

(٢) السيد محمد باقر الأصفهاني الخوانساري ولد سنة ١٢٢٦هـ / ١٨١١م ، وتُوفي سنة ١٣١٣هـ / ١٨٩٥م .

(٣) الشيخ عباس بن الشيخ علي كاشف الغطاء ، ولد سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٧م ، وتُوفي سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م .

(٤) الشيخ عباس بن الشيخ حسن كاشف الغطاء ، ولد سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م ، وتُوفي سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م .

(٥) الشيخ محمد بن الشيخ علي كاشف الغطاء ، تُوفي سنة ١٢٦٨هـ / ١٨٥٢م .

(٦) الشيخ مهدي بن الشيخ علي كاشف الغطاء ، ولد سنة ١٢٢٦هـ / ١٨١١م ، وتُوفي سنة ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م .

الحسن[1] عن أبيهما علي[2] عن أخيهما موسى[3] بن جعفر، وأبيهما الشيخ الأكبر، وأعبّر عن هذا بالسند العالي لعلوّ درجته بارتفاع قدر سلسلته .

وربما يُحدِّثاني بوقائع هم شاهدوها، وقد أنافا اليوم على الستين .

ثم عن التقي الزاهد العابد الشيخ منّاع النجفي، وكان من عباد الله الصالحين الملازمين لخدمة العلماء والسعي في مصالحهم، وكان طاعناً في السنّ، وتُوفيَ قبل هذا بسنة، وهو مناهز المائة . وقد تشرّف بصحبة أغلب مشايخنا . ومن منن الله عليه لحسن نيّته وصحبته لأوليائه أنّه مدّة عمره لم يسقط له ضرس، ولم تَعْمَ له عين، ولم يُحْنَ له ظهر ولم تُصبه عاهة ولا آفةٌ بجميع أنواعها حتّى قبضه الله إليه . وكثيراً ما أروي عنه مُرْسلاً أو مُسْنداً لشدّة الاطمئنان به خصوصاً في آخر أمره، وعند انقضاء عمره . وكثيراً ما أسمع الواقعة عن كثيرين فأسندها الى الشُهرة، وإذا نسبتُ شيئاً إلى (القيل) أو (يقال) فهو علامة عدم التثبّت والاطمئنان بالصحّة .

والحاصل إنّا لم نأل جُهداً في نقل الصّحيح المُتيقَّن بوثوقه، ونحن نسأل اللّه التوفيق والعفو عن الزلل والخطأ، ومن الناظر الغض عن الخطل والكبوة .

سيرة الشيخ

ولنذكر أولاً هنا سيرة الشيخ في ليله ونهاره، ليقتدى بها مَنْ أراد الوصول الى تلك المراتب مع اخلاص النيّة، وإصلاح السريرة، (وعند الله غيب السماوات والأرض) .

كان قدّس اللّه نفسه، وطيّب رمسه يأتي بعد صلاة المغربين الى داره العامرة فيقرّب له العشاء مع أولاده وعائلته فيتناولون منه قدر الكفاية حتى إذا فرغوا جلسوا ريثما يحلّ العاقد حبوته ثم يقوم كلٌ منهم فيدخل حجرته فيشتغلون بالمطالعة حتى يمضي من الليل ثلثُهُ، ثم يقوم كلٌ فيأخذ مضجعه، والتقوى معه حتى إذا ولّى الليل بثلثيه، وهدأت الأصوات، وهجعت العيون انتبه الشيخ، وكأنما نشط من عقال :

وإذا حلّت الهدايةُ قلباً   نشطت للعبادة الأعضاءُ

ثم أسبغ الوضوء، واشتغل بصلاة الليل، ثم ناجى فأطال، وبكى واستقال، حتى بدت

(١) الشيخ حسن بن الشيخ جعفر الكبير، ولد سنة ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م، وتُوفي سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م .
(٢) الشيخ علي بن الشيخ الكبير، تُوفي سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م .
(٣) الشيخ موسى بن الشيخ الكبير، تُوفي سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م .

طلائع الفجر وراياته ، وذهبتْ بالليل إلاّ كحلبة شاة ساعاته ، قام الشيخ فأيقظ كلّ واحد من بنيه لأداء صلاة الليل والتهجد فيه ، حتى اذا أكملوها أحاطوا بعميدهم وأبيهم ، فجعل يوعظهم ويذكرّهم حسن صنيع اللّه فيه وفيهم ، فمن بعض ما كان يقول الكلمات المشهورة : «كنتُ جُعيْفراً ثمّ جعفراً ثم شيخ جعفر ، ثم الشيخ ، ثم رئيس الأسلام» .

حتى اذا استطرد الصبح جيش الدجى وأذهب ، وألقى الفجر في الأفق ترسه المذهّب ، خرج الشيخ الى حجرة درسه الكبيرة الواقعة في الدار الخارجة والجماعة قد استكملت صفوفهم فوقف هنالك ورفع صوته الجهوري فكبّر اللّه سبحانه وتعالى حتى خشعت القلوب وذرفت العيون .

يقول الراوي : أما وأيم اللّه الجليل لقد كانت قلوبنا تنشقّ حتى تمتلئ بالهداية . ثم اذا أكمل صلاته سنّة وفرضاً جلس للتعقيب ريثما تطلع الشمس وتنتشر في الجوّ وحينئذ تأتي الطلبة أفواجاً أفواجاً ، وجماعةً جماعةً من مبتدئٍ محصّل ، وعالم الى غايتها متوصّل ، وآخر بينهما مراهق حتى اذا استكمل جمعهم ، واجتمع جمّهم ، رقى منبر التدريس ، ونثر عليهم لآلئ ألفاظ تحتها من خزائن علم اللّه كلّ معنى نفيس :

وما خُلِقَتْ إلاّ لجود أكُفُّهم وأرجلُهم إلاّ لأعوادِ منبرِ

حتى إذا كمل واستوفى ، خرج وصحبه حافّون به :

كأنّهـمُ نجـومٌ حـولَ بَـدرٍ تكمَّلَ في الأنارة واستدارا

قاصداً زيارة مولاه ، حتى اذا تشرّف بأعتابه أطال العكوف على مثواه ، وقبل الظهر بقليل بادر الى المسجد الهندي ، (وهو جامع البلد) ، فصلّى جامعةً ، ثمّ أتى داره للغداء حتى اذا فرغ راجع بعض ما ينبغي مراجعته من الكتب والأقوال ، وانتهز من النوم قليلاً كلوث خمار ، أو كحل عقال ، حتى اذا صار العصر تقدّم بأولاده خارجاً الى فضاء كان أمام المسجد الهندي يسمّى الآن بـ (الطمّة) ولم يكن فيه تعمير كاليوم ، ثم اذا جلس حفّتْ به قومهُ وأولادُه ، (كبدر هُدىً حفّتْ به الأنجم الزُهرُ) ، أتت الوفّادُ والزائرون من كلّ فجٍّ ، وهم بين مقبّل يديه ، وآخر واقع على قدميه :

لولا ندى كفّه قلنا لكثرة ما يقبّل النّاس منها انّها (الحَجَرُ)

وكانت تسمّى تلك البقعة بـ (دكّة القضاء) ، لأن الشيخ كان اذا جلس بها عصراً أتى كلّ متداعِيّيْن فيقضي فيهما ، وهو جالس هناك حتى اذا جاءت الفحمة من المغرب دخل

المسجد المذكور للصلاة . هذا ديدنه عامّة أيامه .

وكان الشيخ حسين نجف يصلّي في داره ، وقيل في الحرم ، والسيد الطباطبائي في مسجد الطوسي ، ولم تكن الصلاة في الصحن معروفة قبل ، وما أدري ما الذي صيّرها بحيث يمتنع الاستطراق فيه مغرباً لكثرة (الجمائع) .

ثم توجه الشيخ الى الحجّ فجعل الشيخ حسين يصلّي بمكانه فلمّا رجع إلى محله أجمع العلماء كالسيد الطباطبائي ، والشيخ حسين نجف ، والشيخ جعفر ، وأمثال هؤلاء على أن يوزّعوا أمر التدريس والفتوى والجماعة على المبرّزين من علماء ذلك العصر . فجعلوا المنبر لنائب إمام العصر حجّة الله المهدي ، عليه رحمة المعيد المبدي ، لكونه الأهم ، فأُعطي للأعظم ، فلم يكن يرقى منبراً في زمانه سواه ، وجعلوا أمر التقليد في سائر الأمصار الى وكيل الامام الأكبر الصادق جعفر لعلمهم بأنَّهُ :

عليم بغيب الوحي حتى كأنَّهُ بمختلسات الظنّ يسمع أو يرى
إذا أخذ القرطاس خلتَ يمينَهُ تُصحّحُ نوراً أو تُنَظِّمُ جوهراً

فلم يكن عالمٌ مُقَلَّداً في الفرقة المحقة غيرُه (قُدّس سرّه) ، وجعل الأئتمام بالناس لزين العابدين في زمانه ، وقدوة الساجدين من أقرانه الشيخ حسين نجف . فلم يكن سواه إماماً في جميع تلك البلد ، وكان العلماء جميعاً حتى السيد والشيخ يصلّيان خلفه أغلب الأوقات . ثمّ لمّا تُوفيَ السيد صار المنبر منحصراً للشيخ ، كذا في (معدن الشرف) ، وأزاد انّ السيد كان يأمر أهله وعياله بتقليد الشيخ الأكبر .

وأما كراماته فهي أكثر من أن تُحصر ، وأقصى من أن تحصى . منها : ما أرويه بالسند العالي عن المرأة الصالحة والدة محمّد والمهدي أنّها كانت تقول انّ عبادة الشيخ على قسمين ؛ تارة فعلاً ، وأخرى قولاً ، فطوراً يناجي ويدعو ويصلّي ، ومرة يجول بنفسه على الأرض ويبكي ويتضرّع . وكنتُ في بعض ليالي الصيف نائمةً في السطح ، والى جنبي محمّد (وكان رضيعاً) ، وكان الشيخ في الطرف الآخر من السطح وبيني وبينه خمسة عشر ذراع أو أزيد ، وكان يُحيي أغلب ليالي الصيف لقصورها عن مطالعته ، وتمام أوراده فلمّا كان الثلث الأخير من الليل أخذ في البكاء والمناجاة سرّاً وجهراً وتضرّعاً وخيفة ، وهو يعفّر جسده الشريف في تراب السطح ويكرّر قوله : «يا جعفر ، يا جعيفر ، يا قليل الحياء ، يا كثير الشقاء» ، وأمثال ذلك حتى انتبهتُ عليه من بكائه وصوته وهو على تلك الحال . فبقيتُ في فراشي مستلقية فبينا أنا كذلك إذ سمعتُه يقول ، وهو يتقلّب على الأرض بنفسه

بصوت ضعيف : «من يأتيني بماء ، مَنْ يسقيني شربة ماء - كرّرها مراراً - ، وكان على شرافات السطح أكواز ماء ، فقمتُ لأناوله بعضها ، فلم يُعِد الشيخ كلامه بل انكفأ على وجهه يسبّح الله ويقدّسه فقلتُ في نفسي ، لعلما وهمني سمعي ، وأكذبني حسّي فلأقطعنَّ الشك باليقين أو لأعودنَّ ببرهانٍ مُبين ، فتقدّمتُ قريباً منه ، ومنعتني هيبته عن الأقدام عليه :

ومَنْ ذا يردّ السيف وهو مهنّدُ　　　ومَنْ ذا يثير اللّيث ، واللّيث ملبدُ

فوقفتُ بيني وبينه خطوات فقلت يا أبا موسى آتيك بالماء؟ فرفع رأسه فزعاً مرعوباً وقال ما الذي أيقضك في هذا الليل وعَلامَ أتيتِ ، ارجعي فاهجعي ولا تعودي لمثلها . تقول : قضيتُ وعلمتُ أنّه سرّ رباني ، ومعنى عرفاني ، بين محبٍّ وحبيب ، كرها أن يظهر عليه واشٍ ورقيب :

إذا أنتَ أخلصتَ المحبَّةَ والهوى　　　تملكتَ سرَّ الكائنات بأسرها

ومنها : ما في (قصص العلماء) ، ونصُّ ترجمته : أنّه نقل لي بعض أصدقائي الذين أعتمد عليهم غاية الأعتماد في الوثاقة أنّه قال : كان لي عمّ كثير المال والثروة فابتلي بمرض (العين) عدّة سنين ، وكلّما ازداد في مباشرة الأطباء والجرّاحين لم تزدد إلاّ نزولاً ، حتى بذل عليها مالاً جزيلاً ، وكان يجلس في مجالس الطلبة من مشتغلي بلده فسمع ذكر الشيخ الكبير بينهم ، فسألهم أين هو الآن فقالوا في (لاهجان) فشدّ الرحل والاقتاب ، حتى تشرّف بأعتاب ذلك الجناب فمثل بين يديه وهو على متن راحلته عازم على الرحيل من تلك البلد فقبّل يديه ، وعرض له أمر عينيه ، فادعو اللّه أن يردّ عليَّ النور ، فمسح الشيخ بكفه المباركة من ماء فمه على عينَي ذلك الضرير ، ورفع يديه بالدعاء وما ردّهما حتى ارتدّ الرجل بصيراً .

استسقاء الشيخ للأعراب ونزول الغيث

ومن كراماته المعجزات التي كادت أن تكون لنبوّة علومه آيات ، القصة المشهورة التي جازت حدّ التواتر والشُهرة وهي مستفيضة على ألسن الناس ، ورواها في (معدن الشرف) عن عدّة من رجاله الثقات ، ورويتها أيضاً بالسند العالي ، وهي : ان الشيخ عزم في بعض السنوات على زيارة الكاظمين ، وكانت سنة قحط كثيرة الضر قليلة الخير ، قد حبست الأرض ماءها ، ومنعت السماء أنواءها ، فبينا الشيخ في أثناء الطريق ، تهافتت عليه أعراب

البوادي من كلّ ناحية وجهة وتعلّقت بركابه ، وعقلت آمالها لدى أعتابه قائلين : أيّها الشيخ قد بَرَّتْنا سنون وتغير وانتقاص فما تركت لنا هبعاً ولا ربعاً ، وما أبقت فينا ثاغية ولا راغية ، أماتت الزرع ، وقتلت الضرع ، فنحن أنضاء بؤس ، وصرعى جدب ، تغيّرت النِعَم ، وأُهلكت السوارح والنعم ، فأكلنا ما بقي من جلود فوق عظام ، وبقينا نعلّل أنفسنا بالغيث فلم نجد الاّ الخلبُ والجهام ، حتى عاد أشراقنا ظلام ، وهتك الحجاب ، وبرزت الكعاب ، وحملتنا نكبات الدهر على المركب الوعر ، وكنّا ذوي ثروة من المال ، وغبطة من الحال ، واليوم لا ثاغية يجتدى ضرعها ولا راغية يرتجى نفعها ، حتى ضاق بنا البرّ الواسع ، بعد الأهل والمراضع ، فسألنا أحياء العرب عمّن له بين السماء والأرض أقوى سلّم وسبب ، فما أرشدنا الى سواك ، أدام اللّه علاك ، فجئناك من بلد شاسعة ، تهيضنا هائضة ، وترفعنا رافعة ، ومشينا حتى انتعلنا الدماء ، وجعنا حتى أكلنا الثرى على بوادر برينَ اللّحم ، وهفين العظم ، من سنة جردت ، وحال اجتهدت ، وأيد جمُدت ، فارفع ما بنا من الضُرّ ، بما بينك وبين الله من السرّ ، فقال الشيخ لهم : لا بأس عليكم ولا ضرّ ، فأنّي سأفعل ذلك عند أول تشرّفي بأعتاب الأمامين (ع) ، والتمسّك بذاك القبر ، فانّ الدعاء هنالك أوقع ، وأسمع ، فأبوا وقالوا لا ندعك تفلت من أيدينا ، حتى تدعو لنا فانّا نرجو بدعائك نزول الفرج علينا . فاستمهلهم الى وصول الخان ، وأعطاهم على ذلك العهود والأيمان ، وقال مكانكم فانتظروا الغيث ، فأنّه سيأتيكم عند أول وصولي بلا ريث .

ثم انّ الشيخ مضى ، وأسبغ الوضوء وأمر بعض خدمه أن يصعد السطح فينظر هل بقي في تلك الفيافي والقفار أحد من الزوّار ، فنظر فلم يجد أحداً فأخبر الشيخ بذلك ، فقام عن أولئك الأقوام ، وقال لهم يا قوم ان أمتعتكم سيغمرها الماء ، ويذهب بها السيل جفاء ، فادخلوا مساكنكم لا يحطمنّكم سليمان الودق وجنوده ، وتخطف أبصاركم بوارق السحاب ورعوده ، فأُخلي له إيوان في المنزل ، وشرع في الصلاة ، فارتفعت في الجو ألوية الرياح ، وتسابقت مذاكي الشمال ، وقدمت بالنصر طلائع جيش الوُدِق ، وهجمت بالبشر لوامعُ أسنّهُ البرق ، وأقبلت كل سحّاء ووطفاء ، وكان هواديها الدلاء ، فلا ترى غير مرجحنّة النواحي موصولة بالآكام ، متدلية العَزالي تكاد تمسّ من الرجال الهام ، كثير زجلها ، قاصف رعدها ، خاطف برقها ، حثيث ودقها ، بطيء سيرها ، متدفقٌ قطرُها ، مظلمٌ نوؤها ، هدّارة فوّارة ، خوّاضة موّارة ، مظلمة مشعلة ، شاهقة مسدلة :

ولهـا ربابٌ هيـدبٌ لزفيـرهِ قبل الهـدير سـحابةٌ وطفـاءُ
مـستضحكٌ مـستعبرٌ بدوامع لم تُجـرها بعـيونه الأقـذاءُ

فله بلا حـــــزن ولا بمســـرة ضـــــحك يؤلّف بينه وبكاءُ
نُعمتْ كـلاه فـاثّقلت أصـلابه وتشـقّـقتْ عن مـائه الأحـشـاءُ
غـرٌّ مـحـجّلةٌ دوالح ضـمّنتْ حـمل اللقـاح ، وكلّهـا عـذراءُ
سـحمٌ فـهنّ إذا عـبسـنَ فـواحمٌ سـودٌ وهنّ إذا ضـحكنَ وِضـاءُ
لو كـان من لجج السـواحل مـاؤهُ لـم يبقَ في لجج السـواحلِ مـاءُ

فأرخت هواديها ، وحلّت عزاليها ، وقيل يا أرض فوري ، ويا بحار موري ، ويا جبال غوري ، ويا سماء انفتقي ، ويا بروق صدقي ، وجاءهم السيل من كلّ مكان ، وكان ما كان ، وانقلب الجو من عنان السماء الى تخوم الأرض بحراً ، واظلمّت الدنيا فصارت ليلاً والبروق فجراً ، كلّ ذلك والشيخ في صلاته ، مشغول بمناجاته .

ثم انجلى السحاب وتة شّع ، وظهرت زجاجة السماء مُرصّعة بلآلئ النجوم تشعشع ، وجاء القوم وهم يقولون : ليس عجباً من وعدك بالاستسقاء ، فانّها سنّة الأنبياء وسيرة الصلحاء . ولكن مِنْ قولك أخشى أن يغمر الزوّار الماء ، فقال لهم : يا ضعفاء اليقين لنا خمسون سنة نشتغل بعبادة اللّه وطاعته ، وتنقيح أحكامه وشريعته ، وعرفنا ما قدر جُوده وكرمه ، ومننه ونعمه ، فنحن نرجو أن يرجينا في مواهبٍ جزيلة ، فكيف لا نرجو هذه القليلة .

ومنها : ما في (معدن الشرف) عن عِدّة من ثقات رجاله ، (وسمعتها من جماعة كذلك) : أنّ الشيخ لمّا كان في طهران بعث إليه حاكم (النجة) ، وهي من الأمصار العظام (وكانت من توابع العجم) ، ملتمساً من الشيخ القدوم عليه وتشريفه ذلك المكان ، على أن يدفع له من الذهب الأحمر عشرة آلاف تومان ، على أن يصوم هنالك شهر رمضان . فتوجّه الشيخ نحوه ، وخرج جميع أهل (لنجة) من حكام وأمراء ورعيّة للاستقبال فجاؤوا به ، وأنزله الحاكم أحسن عماراته فلمّا بقى يوماً أو يمين قال لأصحابه استأجروا لنا دواباً ومراحل فاني عزمت على الرحيل ، فعلم بذلك حاكم البلد فوقع على أقدام الشيخ وقال ما السبب لعلّنا قصّرنا في خدمتك ، فقال الشيخ حاشا لله ما صدر إلاّ الجميل ولكن أمر لا بدّ منه ، فأصرّ الحاكم على عدول الشيخ وقال للألف ألف أخرى ، فأبى وخرج الحاكم غضباناً وهو يتكلم بالكلمات المنافية في حق الشيخ ، ويقول : كنّا نسمعُ به فنستعظمه ونقول ليس فوقه فوق ، وهذه الأفعال لا تصدر إلاّ عمّن لا عقل له ولا دراية .

وأما الشيخ فأنّه لمّا صار على مراحل من البلد نزلوا فباتوا تلك الليلة فما أصبحوا إلاّ

والعسكر محيط بهم الاّ أنّ هيأتهم غير هيئة عسكر العجم ، فبعث الشيخ الى رئيسهم أن ما تريدون منّا؟! فقال الترجمان : يقول الأمير من أين أنتم وإلى أين ، فقالوا نحن من العراق ، وإليه ، فقال امضوا على شأنكم فلا حاجة لنا بكم فرحلوا ، وارتحل الشيخ فسألوا عنهم في المراكب ، فقيل : هؤلاء عسكر (الأُرس) أتوا من أماكنهم بالمراكب البحرية ، وتوجّهوا لأخذ (لنجة) لأنّ سلطان العجم أخذ منهم بعض البلدان التي كانت تحت تصرفهم ، وجاؤا الآن لمقابلته بمثل ذلك ، ثمّ جاء الخبر انّ بني الأصفر نصبوا المدافع والأطواب والمجانيق وقلعوا (لنجة) ، وقتلوا حاكمها وأسروا جميع مَنْ فيها ونجى الشيخ من القوم الظالمين ، ولو لم يخرج ذلك اليوم لكان في الهالكين ، ولكن وقعت الحيرة من أصحابه في سبب علم الشيخ بذلك :

وما علموا أنّ المطيع لربّه كما يرتضى يُلقى له كلّ أقليد

وفيه أيضاً : انّ الشيخ كان جالساً بعض الأيام بين أصحابه في داره ، فدخل عليه سيّد رثّ الثياب والأطمار عليه أثار الفاقة والاعسار فسأل من الشيخ أنْ يعطيه شيئاً من المال فاعتذره الشيخ ، وخرج السيّد ، ودخل على أثره سيّد آخر عليه سمات الوقار ، وآثار الجلالة والاعتبار ، حسن الثياب جميل الهيئة وخلفه خادم له حامل لمولاه (شطب) وعليه امامة مثمنة من كهرب فأكرمه الشيخ واستقبله وجعل يلاطفه ويسأله فجلس السيد ريثما شرب الشطب وخرج فأمر الشيخ أن يُحمل إليه مقدار غزير من المال ، فتعجّب الحاضرون وقالوا للشيخ أتعرف كلاً منهما ، وكيفيّة حالهما فقال أعرفهما بوجه من الوجوه ، وهذه أول رؤياي لهما فقالوا فلم أعطيت هذا ولم يسألك ، وحرمت ذاك وقد سألك؟! فقال : قوموا بنا نسأل عن دارهما وأريكم السبب ، فسألوا حتى وقعوا على دار السيد الأول الفقير فاستأذنوا ودخلوا فوجدوها مملوءة بالفرش والبسط والأقمشة وفيها من جميع (الحبوبات) ما يكفيه وعياله سنين ، ثمّ خرجوا وأتوا دار السيد الثاني فوجدوا عياله عليهم أرثّ الثياب وأطفاله عُراة يتصارخون من الجوع ، وليس في داره شيء من الفرش والقماش سوى حصير خلق .

فقال انظروا هؤلاء الذين قال الله تعالى عنهم «يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف» ، هذا رجل توسّمتُ فيه أنه عزيز نفس من قوم أعزاء وضعهم الدهر ولم يبق عنده سوى هذه الملابس التي عليه يتجمل بها لئلا يشمت عدوّه به ، وهو كما قال عزّ من قائل «يسألون الناس الحافا» .

فلنختم هذا الفصل بحكاية أظنّها عندك أعجب من جميع ذلك قد حدّثني بها عمّي العباس بن علي بن جعفر عمّن كان مع الشيخ ، وشهد الواقعة ـ وذكرها في (معدن الشرف)

أيضاً ـ وحاصلها : أنّ الشيخ توجّه في بعض السنين الى نواحي البصرة فأتوا على خيولهم الى غياض ملتفّة بالقصب والبردي ، وكان ذلك المكان يُعرف بكثرة السباع والأغوال فلم يمكن المبيت به وقد هجم الليل ولا بيت ولا خباء حتى ينزلوا فيه وبينهم وبين البيوت الشط العظيم المعروف بـ (شط العرب) ، وهو في الحقيقة بحر لا شط لأنّ فيه يجتمع الفرات ودجلة ، وشط العجم ، ولم تكن على ساحله سفن فوقفنا متحيّرين ، فجاء الشيخ ووقف على الساحل ودخل بفرسه في الشط وهو عليها ، وتبعناه نحن ، وإذا نحن على الساحل المقابل .

ولما وصلنا البصرة وأقمنا فيها مدة رجعنا على طريق بغداد فلمّا صرنا على ليلتين منه بتنا ليلة هناك وكانت الأرض ذات شوك وَقَتاد فكان الشيخ يكرّر قوله سبحان الله المعمّر المدمّر ، فسألناه عن السبب لهذه الكلمات بالخصوص فقال ستكون هذه الأرض بلدة عظيمة ذات قصور وجنان وبساتين وغير ذلك .

يقول الراوي : فما مرّت الأيام والسنون حتى أدرك أغلب مَنْ كان معنا تلك البلدة ، وهي كوت العمارة المعروفة الآن بالكوت :

«عطّر اللهمّ مرقده الكريم ، بعَرفٍ شذيٍّ من رحمةٍ وتسليم»

الفصل الثاني

في مكارم أخلاقه ومحاسن صفاته

أمّا علمه وسعة باعه في الفقه فما ظنك بمن باحث دورة (الشرائع) ثلاثمائة مرة بأدلّتها تفصيلاً على وجه الاحكام والاتقان كما ذُكِرَ هذا في قصص العلماء . وذكر أيضاً أن الشيخ كان يقول : «لو مُحيتْ جميع كتب (الفقه) من أولها إلى آخرها لأمليتُها للناس على خاطري بلا زيادة ولا نقيصة» من شدة الممارسة والضبط .

يقول الناقل (رحمه اللّه) : الأنصاف أن الشيخ كان كذلك كما يظهر من تأليفاته لا سيّما كتاب «كشف الغطاء» وبه يعلم ما قدر إحاطة الشيخ بالفقه بَلْ تبين لك أن جميع المسائل من (الطهارة) إلى (الديّات) كالخاتم في يده يديره كيفما شاء وحيثما أراد . وكان إذا ذكر قاعدة فقهية في كتاب «الطهارة» أو في غيره فرّع جميع أبواب الفقه إلى (الديّات) ، ومن هذا يعلم أن جميع مسائل الفقه محفوظة لديه بالفعل حاضرة عنده كُلّ وقت ، فكلما دعاها أجابت ، (إنتهى ترجمة)(١) .

وأقول : مما يدلك على ما يقوله هذا (الفاضل) بَلْ يزيد ، ويشهد لك أن الشيخ ما بين جميع الفقهاء فريد ، أن «كشف الغطاء» صنّفه على ظهر (الدابة) وهو في الطريق ، ولم يكن معه من الكتب سوى «قواعد» العلامة ـ رحمه اللّه ـ وجعله كالرسالة العملية ، ليرسله إلى فتح علي شاه بعنوان (الهدية) ، فبرز كما ترى هديةً للدين ، لا للسلاطين ، ومنّة على سائر المؤمنين ، لا المتولّين ، وهذا الأمر مشهور .

ومما ذكر السيد مُحَمَّد باقر في «روضات الجنّات» قال ما نصه : من جملة مصنفاته كتابه «كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغراء» خرج منه أبواب (الأصولين) ، ومن الفقه (العبادات) إلى آخر الجهاد ، ثم ألحق به كتاب (الوقف) وتوابعه ، ولم يكتب أحدٌ مثله ، وينيف ما خرج منه على أربعين ألف بيتاً ، إلاّ أنه فائق على كُلّ من تقدمه من كتب (الفنّ) مع أنه إنما صنّفه في بعض الأسفار ولم يكن عنده من الكتب سوى «قواعد»

---

(١) التنكابني ، الميرزا محمد بن سليمان ، قصص العلماء ، (باللغة الفارسيّة) ، ص١٨٨ .

العلامة ـ كما نقله الثقات[1] ـ (إنتهى) .

ثم قال صاحب «القصص» : ومجملاً أن الشيخ جعفر النجفي في (التفريع) و(الفقاهة) وتطبيق فهم ألفاظ الكتاب والسنة على طريقة الفهم العربي المستقيم كان بلا نظير وهو من الأئمة ما بين فقهائنا كما يستنبط من كتبهم ، وأنه إلى الآن لم يأت فقيه (مثلهُ) ومثل الشيخ ، والشهيد الأول[2] .

والتبحر في الفقه على ثلاثة أقسام :

الأول : تأسيس المسائل الفقهية والاستدلال عليها مع إحكام واتقان قواعدها ، وهذا منحصر بالشيخ علي[3] ، وأستاذ المؤلف مُلاّ أحمد النراقي[4] .

الثاني : التفريع والأحاطة بمسائل الفقه وتطبيق الفروع بالأصول ؛ وفي هذا المقام لم يكن أحد غير الشيخ جعفر ، والشهيد الأول .

الثالث : تحقيق المسائل والفتوى وتكثير الأدلة ، وتبديهها وهذا للمؤسس البهبهاني[5] ، (إنتهى)[6] .

هكذا النسخة التي رأيتُها وما أدري مَنْ المراد (بالشيخ) الواقع بين الشيخ (جعفر) و(الشهيد) . ويقتضي أن يكون المراد به الشيخ (موسى) لِمَا هو مشهور عن (الشيخ) من قوله : لا فقيه إلاّ أنا ، وولدي (موسى) ، و(الشهيد) ، وقد ذكرها أولاً وسيأتي نصُّها قريباً . ولعلَّ (موسى) سقط من قلم الناسخ في الطبع . ويحتمل أن يراد به الشيخ الطوسي[7] وهو

(١) روضات الجنّات ، ج٢ ، ص٢٠٢ .

(٢) الشهيد الأول هو مُحَمَّد بن مكي العاملي المولود سنة ٧٣٤هـ / ١٣٣٣م ، والمقتول على يد مماليك الشام سنة ٧٨٦هـ / ١٣٨٤م .

(٣) الشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء اشتهر بدروسه الفقهية العالية ، تُوفي سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م .

(٤) الشيخ أحمد النراقي مجتهد كبير اشتهر بكتابه «عوائد الأيام من مُهمّات أدلّة الأحكام» ، المطبوع على الحجر سنة ١٨٤٩م . وقد أُعيدَ طبعُه في قم عام ١٩٨٢م . تُوفي النراقي سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م .

(٥) الشيخ مُحَمَّد باقر البهبهاني المُلقّب (بالأغا) و(بالوحيد) ، ولد في اصفهان سنة ١١١٧هـ / ١٧٠٥م ، وهاجر إلى مدينة (كربلاء) حيث قضى معظم حياته فيها ، وأغلب الفقهاء الذين تولّوا الزعامة الدينية بعده هم من تلامذته ، تُوفي سنة ١٢٠٦هـ / ١٧٩٢م ، ودُفنَ في الحائر الحسيني .

(٦) قصص العلماء ، ص١٨٨ .

(٧) مُحَمَّد بن الحسن المعروف بشيخ الطائفة الطوسي ، هاجر من مدينة طوس وهو ابن ٢٣ سنة إلى بغداد ، وحضرَ على يد الشيخ المفيد ، ولازمَ الشريف المرتضى وأصبح الزعيم الامامي غير المُنازع . قدّم موسوعات في الفقه والحديث والرجال والتفسير أصبحت من المصادر الأساسية للمذهب الاثنا عشري .

وبعد سيطرة السلاجقة على الحكم وسقوط البويهيين عام ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م ، رحل إلى النجف ، وأقام بها حتى وفاته عام ٤٦٠هـ / ١٠٦٧م . ونظراً لجهوده الكثيرة في مجال الدراسات الشرعية ، وتأسيسه لقواعدها على طريقتي العقل ←

وإن كان يعبر عنه عند الفقهاء (بالشيخ على الأطلاق) إلاّ أنه هنا محتاج إلى قرينة وهي على خلافه . ويحتمل أن يكون المراد به الشيخ (علي) بمقتضى التقسيم الذي بعده .

والحاصل أن بلوغ (الشيخ) إلى غاية الأعجاز في (الفقه) صار من البديهيات التي لا تحتاج إلى بيان ، وكذلك يده الطولى في سائر العلوم خصوصاً الحكمة والكلام . ويدلك على ذلك ما صدّر به كتابه «كشف الغطاء» و«البُغْية» ، وغير ذلك وذكر في «قصص العلماء» أن (الشيخ) لمّا تشرَّفَتْ بمطالعه (أصفهان) جاء إلى خدمته بعض تلامذة الحكيم المتكلم المشهور الملا علي النوري وسأل الشيخ بمسألة عويصة من مشكلات فن الحكمة وكان قَدْ استفادها من ذلك الأستاذ الماهر ، وعرضها بخدمة (الشيخ) مكتوبة في ورقة ، وكان قَدْ حضر وقت نوم (الشيخ) ، فقال : بكّر غداً وخذ الجواب ، فأُخبر الشيخ ملا علي بسؤال تلميذه (للشيخ) فتغير وتكدّر على تلميذه وقال له : إن (الشيخ) رجل فقيه فلماذا أخجلته بمسألة من مشكلات (الحكمة) وليس له يد بها؟ فأياك أن تعود الصبح لمطالبته . فلما فرغ (الشيخ) من صلاة الصبح بعث على السائل ، وأعطاه جواب المسألة . فعرضها السائل على أستاذه المذكور ، فتعجب غاية العجب لموافقتها تمام قواعد ذلك الفن . فلمّا إلتقى الآخوند بالشيخ قال له : يا مولانا من أين جئت بجواب هذه المسألة العويصة الصعبة التي عجزت عنها الفحول مع أنك لا تشتغل بفن (المعقول)؟ فقال الشيخ : هذه من واضحات إفادات الأخبار الواردة عن الأئمة الأطهار (ع)[1] .

وكان (قُدِّس سرُّه) يحفظ على خاطره جميع الكتب السماوية من «إنجيل» و«زبور» ، و«توراة» ، وغير ذلك بجميع آياتها وفصولها ، وينبئك على ذلك ما ذكره في «كشف الغطاء» . ومن تلك الكتب في مقام الاستدلال على نبوة نبينا (عليه الصلاة والسلام) فقد سرد منها هناك ثلاث أوراق ، أو أكثر من عباراتها باللسان التي أُنْزِلتْ به ، ثم ترجمها إلى العربية ، وبيَّن تناقض بعضها مع بعض ، وأنها مُحرَّفة عما أُنزِلتْ به ، ويذكرهم الأصل .

والحاصل أنك إذا راجعتَ آخر كتاب «الجهاد» فسترَ ثمَّةَ من هذه المقامات ما لا تتصوره

والنقل أصبحتْ مؤلفاتُه متحكمةً بالدراسات الشرعية . كما أنّ هجرته إلى النجف واستقراره فيها ١٢ عاماً ، واستحداث مركز دراسيّ فيها جعلَ إسم جامعة النجف الدينية مرتبطاً باسمه .

وتُعتبرُ (مدرسة بغداد) في المرحلة البويهيَّة والتي مثّلها الشيخ المفيد ، الشريف المرتضى ، والشيخ الطوسي هي مرحلة تأسيس المؤسسة الدينية الشيعية التي يُطلق عليها الآن إسم (الحوزة العلمية) . وقد ناقشتْ مؤلفات هذه المرحلة التيارات الفكرية السائدة يومذاك كتيار المعتزلة ، والغلاة ، والزيدية ، والتيارات السُنّية بشكل عام .

(١) قصص العلماء ، ص١٩٣ .

في حق بشر فإنه رجل من أعراب البوادي الذين لا يعقلون شيئاً ، وهاجر إلى (النجف) مع أبيه ، وهو قريب البلوغ ولم يكن يقرأ القرآن ، وكانت (النجف) من أصغر القرى ، وأقلها سكاناً ، وأضعفها آثاراً وكتباً فمن أين تعلّم هذه العلوم؟ وممن أخذ تلك الأشياء العجيبة من اللغة اليونانية ، والعبرانية وأمثالهما؟ حتى أنه حدثني عمّي العَلَم (العباس) - لا زال ظله منشوراً - عن ثقات (الشَيَبة) الذين أدركهم أن جماعة من (الطلبة) الذين كانوا من أهالي (البحرين) أخبروا (الشيخ) أن في البصرة جماعة من أحبار اليهود ، ورهبان النصارى وقسيسيهم يجلسون في الطرق والأسواق ، ويُفسدون مذاهب الأسلام ، ويُطعنون فيها عند العوام ، حتى (تهوّد) خلق كثير من المسلمين ، و(تنصّر) آخر . فشد (الشيخ) الرحال بجماعة من أصحابه حتى أتى البصرة ، وصار يُجالس أحبار اليهود ، والنصارى ويحادثهم شيئاً فشيئاً بألسنتهم وكتبهم ويؤيد تارة ويهدم أخرى حتى عرفوا أنه من الحاوين لكل العلوم فسألوه أن يباحثهم في علم الأديان ، وغيرها فأجابهم إلى ذلك . وجعل بحثاً للنصارى وبحثاً لليهود عصراً وصبحاً ، ثم صار يذكر مفاسد كُلّ مذهب ، وبالخصوص مذاهبهم والاختلاف الكثير في أناجيلهم كأنجيل (مرقس) و(يوحنا) ، وغيرهما . والحاصل ما انجلت الغُبرة إلاّ وقدر مائة (حبر) و(قسيس) قَدْ أسلم ممن كان يجلس في الأسواق لإفساد مذاهب الأسلام ، ثم توجهوا إلى البلدان النائية الخالصة يهوداً ونصارى ليهدوهم بالمسالك اللطيفة الخفية إلى سواء السبيل ، ورجع (الشيخ) إلى محله .

فهل هذا إلاّ من تأييدات الأئمة (ع) له ، وأخذه عنهم وقراءته عليهم بالطريق الذي هم أعرفُ به حيث رأوه قابلاً لاكتساب الفيوضات الألهية ، والمعارف الروحانية (قدس اللّه روحه ، ونوّر ضريحه) .

وأما زهدُه وتقدّسه وما التزمت به نفسه فقد جاوز الحد والنهاية ، وفات الحصر والغاية ، حتى كاد أن يُنْسَى علمُهُ على ما عرفتُ من عظمته وشهرته ، في جنب عبادته :

شيمةٌ مِنْ أبيهِ شَبَّ عليها وكذا شيمةُ الهِزَبرِ لشبلِهِ

وقد سمعتُ من الثقات أنّ (الشيخ) رأى رسول اللّه (ص) في المنام فقال له : «يا جعفر ، أو يا شيخ إني أحبك حباً شديداً» فقال له : سيدي وما ذلك حتى أداوم عليه؟ قال : «لتدومنّ عليه صوم الدهر ، وصلاة الليل ، والكون على الطهارة» .

وسمعتُ من الشيخ الأجل قدوة الوعّاظ وعمدة الحفاظ ، العابد الزاهد الشيخ علي

اليــــزدي[1] ، وكان وحيد زمانه في العبادة ، وفريد أوانه في العلم والأخبار والوعظ ، وقد تشرفتُ برؤيا مُحَيّاه الأنور ، وجلستُ تحت منبر وعظه أياماً وليالي ، فما أظن أن الدهر سمح بمثله واعظاً . وكان لكلامه تأثير في النفوس عجيب ، وكان ملازماً للخمول والضعة كسراً لنفسه ، وأصابه في آخر عمره عرض (السوداء) فاختلّ عقله ، وأشار عليه الأطباء بالرواح إلى بلاد (العجم) فإنه أنفع لمزاجه ؛ فانتقل إلى (خراسان) ، وتُوفيَ هنالك (طيّب اللّه مضجعه) . فمما ذكر على المنبر في شهر رمضان بالصحن الشريف ، وهو غاصّ بالمستمعين ، وكان يتكلم في مقام تغير الزمان والأيام وترك عبادة الرحمان ، والسعي بمراضي الشيطان إلى أن قال : وحدثني بعض الثقات من شيبة أهل (النجف) أول مجيئي من (يزد) أنه سمع في بعض ليالي شهر رمضان في زمان العلامة الطباطبائي ، والشيخ (جعفر) بكاءً ونحيباً في زوايا الصحن الشريف فتأمله وإذا هو في الحجرة الفوقانية فصعد إليها وجعل ينظر (حِجرةً) (حِجْرَةً) حتى وصل إلى (حجرة) في الزاوية بعيدة عن المستطرقين والنظّار ، فوقف وراء الباب ، ونظر من شقوقها ، فرأى جماعة سادةً ، وعلماء قَدْ افترشوا التراب يقرأون دعاء (أبي حمزة الكبير) وهم سجود يبكون ، فبقي حتى فرغوا من أدعيتهم ، وصلواتهم وخرجوا بأجمعهم ، فرآهم جماعة من العلماء في ذلك العصر يعرفهم بأشخاصهم ، واستفسر عن الكيفية ، فكانت هذه عادتهم كُلّ ليلة (جمعة) ، وسائر ليالي شهر رمضان .

ثم قال : وحدثني جماعةٌ منهم أيضاً أنهم وجدوا الشيخ (جعفر) في بعض الأيام وهو يعدو وأمامه صبيٌّ قارب (العشرين) هو يركض بسرعة وشدة و(الشيخ) خلفه يطلبه إلى أن وصل (الصبيّ) إلى (الصحن) فالتجأ إليه ، فنادى الشيخ أن اقبضوا عليه ، فقبضوا عليه ، وجعل الشيخ يوجعُهُ ضرباً تارةً بعصاه ، وأخرى بيديه ، والصبي يبكي ويلوذُ بالناس ، فخلّصوهُ من يديّ الشيخ . ولَمّا سكن روعه سألوه عن ذنب (الصبي) ، فقال لهم : منذُ ثلاث ليال لم يقم إلى (صلاة الليل) وكلما أيقضناه لم يستيقظ ، وجميع إخوانه وأهليه قاموا فأتوا بها على الوجه .

هذا وقد كان (رحمه اللّه) تعوّد من المأكل على ما جشن ، ومن الملابس على ما خشن ، فإنه كان يلبس من (الخام) الغليظ الذي يصنع (شرعاً) للسفن ثياباً ، ومن (كرباس) الصوف الخشن قِباءً ورداءً ، وعلى هذا أصحابه ، وتلاميذه ، وأهل بيته ، وأولاده حتى يقال

---

(١) كان من تلامذة الميرزا مُحَمَّد حسن الشيرازي ، بقي في العراق حتى سنة ١٣٠٨هـ / ١٨٩١م حيثُ سافر إلى (خراسان) ، وتُوفي فيها حدود سنة ١٣١١هـ / ١٨٩٣م . له «منظومة في أصول الفقه» . الطهراني ، نقباء البشر ، جـ١ ، ص١٣٢٢ .

إنه رأى يوماً في درسه رجلاً من أهل (القطيف) وهو ملتحف بعباءة (ماهود) بعثها إليه أهله ، ولم يكن يُعرَفُ ذلك في (النجف) وكانت مطرّزةً بشيء من (الأبريسم) ومثيله المسمّى اليوم (بالكلبدون) ، فرمقه (الشيخ) شزراً ، فلما حقق أنه لِبسٌ جديدٌ ناداه ، فجاء الرجل ووقف حذاء المنبر فقال : أيها (القطيفيُّ) ما هذه السيرة المخترعة ، والسُنّة المبتدعة ، والتماثيل التي أنتم لها عاكفون؟

فقال : يا مولاي ليس هذا من اختراعي ، ولا بهواي وإنما بعثوه لي أهلي .

فقال (الشيخ) : نِعْمَ الجواب أجبتَ «بسم الله الرحمن الرحيم ما هذه التماثيلُ التي أنتم لها عاكفون ، قالوا وَجَدنا آباءنا لها عابدين . قال لقد كنتم أنتم وآباؤكم في ضلال مبين»[1] ، ثم قال له : إعلم يا (شيخ) أن أهلكَ إن رغبوا في لباسك لهذا ، وأمثاله فليأخذوكَ إلى بلدهم فأنهم أرسلوك مسترشداً لا مستغوياً ولا يحل لك البقاء في (النجف) ، وأنت على هذا ؛ فاخرُجْ منها قبل أن تُخْرَجَ ، واصنع ما شئتَ فلا جُناح عليك بعدها ، ولا حرج .

فقيل : إنَّ (الرجل) تناول سكيناً وأراد أن يخرق (العبا) ، فقال له (الشيخ) : لا تُطع الشيطان بشيء ، وتعصيه بآخر (إنَّ المبذرين كانوا إخوان الشياطين) ، ولكن أرجعها إلى محلها . فبعثها (الرجل) إلى أهله ، وجلس خجلاً ، فأخذ (الشيخ) يرفع عنه خجله ، فقال له : يا ولدي بارك الله بك ، وأني لأتوسم الخير فيك ، وإنّما قلتُ ما قلتُ لأنَّ النفوس أمّارةٌ بالسوء ، ميّالة إلى التصنّع ، والشيطان باسطٌ للغواية باعه ، وفارش للوثبة ذراعه ، فإذا نظر (الطلبة) المشتغلون ما أنت عليه مالت نفوسهم إلى ذلك اللباس ، وهم ذوو فاقة وإفلاس ، فيلتزمون بالأسفار ، وركوب الأخطار ، لتحصيل أثمانها ، فتَرْكَن النفوس إلى شيطانها ، فيضيع العلم ، ولا يبقى منه لدى مُدّعيه سوى الاسم ، ويتزيّا الناس بزيّ عبدة الأوثان ، وأمناء الشيطان ، ولا يبقى من الأيمان سوى رسمه ، ولا من الحق غير اسمه ، ولم يزل يُبيِّنُ له المغيبات التي نراها اليوم رؤى العين ، والمفاسد الشائعة في البين ، حتى ذهب خجل (الرجل) ، وعاد الشيخ إلى درسه .

وكان يعول بما ينيف على (الخمسين) من إخوته ، وعياله ، وأولاده إلى غير ذلك من المتعلقين ، والخدام فكانوا يضعون في (قِدرٍ) كبير سحيق (الأرز) ، وشيئاً من (اللحم) مع بعض الحموضات ، فإذا طبخ جيء بآنيتين كبيرتين من الكاشي الأخضر[2] فتُملأ واحدة للنساء ، وأخرى للرجال ، فيجتمع عليها مقدار عشرين رجلاً كلهم بين (مجتهد) ومناهز ،

(١) سورة الأنبياء ٢١/٥٢ ـ ٥٤ .

(٢) يبدو أنَّ مثل هذه الأواني كانت مشهورة في ذلك العصر ، وقد ندرَ وجودها اليوم .

وعلى باقي الخدم والمتعلقين ، وكانوا إذا أرادوا إكرام (الشيخ) صنعوا له مقداراً من (الأرز) مع (الماش) ، وأتوا له منه على مقداره ، وعليه (البصل) قطعاً قطعاً .

فمن ذلك ما ذكره في «معدن الشرف»[1] أنه دخل عليه (سيدٌ) - يقول البُراقي وهو معروف الاسم واللقب ولكن ذهب عني اسمه - والقصة مشهورة ، فلما رآه (الشيخ) رحَّبَ به وأكرمه ثم قال له : ما الذي جاء بك في هذا الوقت؟ فقال : جئتك لأنك المطلّع على أحوالي والى الآن لم أتزوج ، وأريد منك (المَهر) ، فقال (الشيخ) : حباً وكرامة وعلى العين والراس ، لكن لا يُترك الميسور بالمعسور ، ونرجوك المسامحة وقبول ما عندنا ، ولك العهد عليّ أن أول شيء يأتيني أبعثُه إليك ، فاستقرِضْ ما يكفيك مع ما نعطيك ، وأنا أؤدّي عنك .

فتشكر (السيد) ، وذهب ليقوم فقال له (الشيخ) : إجلس فتعشّ معي فأنّ (عشائي) اليوم نفيسٌ على الأرادة ، قال (السيد) : فجلستُ وحسبتُ أنَّ (الشيخ) سيعطيني خمسين أو ستين شامياً وقيمتُه (قرانين) من أول عصرنا ، فجاؤا بالعشاء فوضعوه بين أيدينا ، فالتفت (الشيخ) إليَّ وقال : يا (فلان) هذا رزقٌ على عينك ومن بركات قدومك ، تقدَّمْ فكُلْ هذا العشاء الحسن ، فتقدمتُ وإذا هو طبيخ (ماش) ومعه (بصل) . وجعل يضربُ على منكبي ويقول : كُلْ مِنْ هذه النعمة التامة التي لا تقوم بشكرها ؛ (تِمّن) و(ماش) و(ماء) و(ملح) ومع هذا كله (إدام) ، و(الأدام) بصلٌ ونِعمَ الأدام البصل .

يقول (السيد) : بينما نحن كذلك وإذا بعشاء يفوح منه (الزعفران) وفوقه (دجاج) ، وكأنما بعض (العَجم) أهداه إلى (الشيخ) ، فلما نظره (الشيخ) قال لي : قُمْ فكُلْهُ ،قال : فاختصصتُ به دونَهُ ، و(الشيخ) حسر عن ذراعيه ، وجعل يكسر البصل ، ويجعله على طعامه وهو يحمد اللّه ويشكره ويقول : إيه يا (جُعَيْفر) وكيف لا تحمد اللّه الذي سخَّر لك حرّاث الأرض وزرّاعها والحاصدين ، والدائسين ثم جلب إليك ثمره ، وأنت في مكانك فطُبِخَ ، وقُدِّمَ بين يديك من غير كدٍّ وتعب ، فأي شكرٍ يؤدي حق نِعم هذا (المُنعم) .

قال : ولم يأكل من (طعامي) لقمةً واحدةً . فلما فرغنا قال : قُمْ إلى تلك (الحِجرة) فافتحها وخُذْ ما فيها ؛ فقمتُ إلى (حجرة) صغيرة في زاوية (الطنبيّة) - وهي إلى الآن موجودة - ففتحتُها فوجدتُ فيها (كيساً) مملوء فأخذته وودعتُ (الشيخ) وإذا فيه (خمسمائة) شامي ، (إنتهى) .

وكان مع عدم ترتيب مأكله ، وانضباطه ذا قوة ، ونشاط على العبادة ، وكان لصوته

(١) «معدن الشرف في أحوال المشاهير من علماء النجف» للمؤرخ السيد حسون البُراقي .

ومناجاته تأثير عظيم في القلوب، وكان مدمناً على المناجاة والأبتهال، ملازماً لأحياء الليالي الطوال، ولتضرعه خاصية معروفة وهي أنَّ كُلّ من سمعه حلّت الهداية بقلبه، ونشطت جوارحه لعبادة ربه.

فمن ذلك ما في «قصص العلماء» عن بعض أكابر الأفاضل عن الشهيد الثالث العالم الرباني الشيخ مُحَمَّد تقي البرغاني[1] المقتول بسيف الفرقة (البابية) بأمر رئيسها مُحَمَّد علي[2]، وقرابة المقتول المعروفة الخبيثة (قرة العين)[3] وسنذكر نبذة من أحواله، لأنَّه ممن استجاز (الشيخ) قال: إنه لَمَّا تشرفتْ جبهة (قزوين) بأقدام (الشيخ) حطَّ الرحال عند الأخ الحاج مُحَمَّد صالح البرغاني، وهو أيضاً من كبراء العلماء، وكانت داره تشتمل على بستان كبيرة، فلما هجم الليل نام كُلٌّ منّا بمكانه في البستان، ونمتُ أنا في طرف منها، وكانت للشيخ عناية في حظّي، فلما انتصف الليل جعل الشيخ يوقظني وهو يقول لي قم لصلاة الليل فقلت سأقوم، فتركني ومضى، وأخذني النعاس فذهبت أعوم في تياره فتغيرت أحوالي في الأثناء، وأنا نائم، وتألم فؤادي، وأوجع قلبي، فانتبهتُ من شدة الوجع فبان لي أن ذلك من جهة سماع صوت وبكاء أسمع صداه، ولا أرى شخص بكاه، إلاّ أنه أخذ بمجامع قلبي، واستولت رقته على عقلي فأدهشت لُبّي، فقمتُ أتمشي وأطلبه، وأنا بلا شعور حتى قربت منه وتأملته فإذا هو (الشيخ) قَدْ افترش التراب وهو يتململ ويتضرع، ويبكي بكاء الثاكل الموجع، ويناجي ربه مناجاة الحبيب لحبيبه، ويأنّ أنين الفاقد صحيبه، فأثّرتْ تلك الأحوال الغريبة من الرقة والخشوع فيّ أثراً؛ أنا منه إلى الآن من خمسة وعشرين سنة أقوم في ذلك الوقت من هيبة تلك الليلة، وأثرها في روعي، وأشتغل حتى الصباح بمناجاة قاضي الحاجات، وأداء النوافل والمستحبات.

أقول: وهذا دليل على بلوغ (الشيخ) مبلغاً من التعبد والزهد يقصر عن إدراكه الفكر الوقاد، ويُحسر دون تصوره تصور جهابذة الزهاد، لأن هذا (الرجل) كان وحيداً في الطاعات، وفريداً في الملازمة على الزهد، والمستحبات، فكلامه في هذا المقام له خصوصية إعظام واحترام.

---

(١) كان فقيهاً كبيراً تصدى للحركة البابيّة، وقُتلَ على يد أتباعها عام ١٢٦٤هـ/ ١٨٤٨م. ويُلقّب بالقزويني لسُكناه هذه المدينة، وكان معاصراً للشاه فتح علي القاجاري المتوفى سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م.

(٢) الصواب ان اسمه علي مُحَمَّد الشيرازي. وقد قُتلَ رَمياً بالرصاص سنة ١٢٦٧هـ/ ١٨٥٠م في تبريز، وتحوّلَ معظم أتباعه إلى المذهب (البهائي).

(٣) قُرَّةُ العين هي بنت الشيخ مُحَمَّد صالح البرغاني، وهي من دُعاة البابيّة وقادتهم، قُتلتْ سنة ١٢٦٩هـ/ ١٨٥٢م.

ولنختم هذا المقام بكلام لصاحب «قصص العلماء» أثنى فيه على (الشيخ) وبيَّن مقدار رفعته، وعلو درجته في العلوم والطاعات وإن كانت غنية عن البيان، ولكن ذكرناها أداء لحق الرجل، وقد ذكرنا عبارته بنصِّها لأنَّ (للعجمية) لطف في عالمها كما (للعربية) ذلك. قال: (رحمه الله وجزاه خير الجزاء): «الشيخ جعفر النجفي العالم الزخّار، والاستاذ الأكبر، قمر سماء الفقاهة والجلالة، ومتاع فلك الزهادة والتُّقى والنقاء، زعيم أرباب العبادة وفذلكة أصحاب الكرامة، نادرة الزمان، وأعجوبة العصر، وفلتة الدهر.

والأنصاف لا يوجد مثلُهُ في الأحاطة بالتفريعات الفقهية من أولها إلى آخرها منذ زمان الغيبة حتى عصرنا هذا؛ فهو في التفريع وفهم الأحكام كالشهيد الأول كما قال عن نفسه «الفقه باق على بكارته لم يمسّه إلاّ أنا، وولدي موسى، والشهيد الأول». ومَنْ أرادَ أنْ يتبيّن له ذلك فليَرجع إلى كتاب «كشف الغطاء» للشيخ وتأليفاته الأخرى. أمّا مَنْ أراد التصديق لهذه المقولة بالنسبة إلى الشهيد الأول فليرجع إلى كتابه «القواعد»[1].

وأقول: ومَنْ أراد تصديق ذلك في شيخ (موسى) فليرجع إلى شرح (رسالة) أبيه، فأنّها على صغر حجمها كافية في بيان فضله على أنه كتبها أول اجتهاده وهو صغير في زمان أبيه كما سيأتي ذلك.

كلام صاحب روضات الجنّات في حق الشيخ الكبير

وأما مطاعيّته وعظمته عند كُلّ الأمم، ورئاسته على جميع العرب والعجم، وامتثال أوامره ونواهيه عند سائر الأمراء والسلاطين، فهي غنية عن البيان والتبيين. وإنْ أبيتَ فيكفيك ما ذكره في «روضات الجنات»، ونصّه: «كان رحمه الله من أساتذة الفقه والكلام، وجهابذة المعرفة بالأحكام، معروفاً بالنبالة والأحكام، منقحاً لدروس شرائع الأسلام، مُفَرّعاً لرؤوس مسائل الحلال والحرام، مروّجاً لمذهب الحق الأثني عشري كما هو حقه، ومفرّجاً عن كُلّ ما أشكل في الأدراك البشري وبيده رتقه وفتقه، مُقَدّماً لدى الخاص والعام، مُعَظَّماً في عيون الأعاظم والحكام، غيوراً في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وقوراً عند هزاهز الدهر وهجوم أنحاء الغِيَر، مطاعاً للعرب والعجم في زمانه، مفوقاً في الدين والدنيا على سائر أمثاله وأقرانه، ظهر من غير بيت العلم فصار في بيداء حكومته علماً مشهوراً، ومَهرَ في نشر زيت الفقه إذ أتى عليه حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً.. الخ»[2]، (إنتهى).

---

(١) نقل المؤلف النصّ بالفارسيّة عن قصص العلماء، ص١٨٣.
(٢) روضات الجنّات، جـ١، ص٢٠٠.

وهذه الكلمات جيدات بَلْ فائقات خصوصاً من أنها من (أعجميٍّ) اللسان ، ولكنها منحة ربانية . وإساءة الأدب في قوله «وغير بيت العلم» مغفورة له ؛ فأنَّ مراده بالنسبة إلى ما صار (الشيخ) إليه من التفوق في العلوم حتى صار بيته كأن لم يكن بيت علم لا على ظاهره ، وإلا فهو قَدْ نقل في كتابه : فقرات الرسالة المنسوبة إلى (الشيخ) في حق والده ، وقد تقدَّم بعض ذلك ، وقد عرفتَ جلالة بيته سابقاً .

وإنْ إستزدتني فيما نحن فيه أزدتُكَ بما ذكره السيد شفيع البروجردي المعاصر لشيخنا (قُدِّسَ سرُّهُ) في كتابه الذي صنَّفه في علماء إجازته[1] ، فقال بعد ذكر العلامة الطباطبائي[2] ما هذا نصه : «ورابعهم : الشيخ المكرم المعظم ، ملجأ العرب والعجم ، ملاذ كافة الأمم ، منبع الفضائل الجليلة ، ومعدن السجايا الجميلة ، ناهج المناهج السوية ، بالغ المقاصد العليّة ، مهذب المعالم الدينية ، المشتهر في جميع الأمصار والآفاق ، شيخنا ، وعمادنا الشيخ (جعفر) النجفي (قدَّسَ اللّه روحه الزكية) ، وهذا الشيخ أفضل أهل زمانه بالفقه لم يُرَ مثله مبسوط اليد في الفروع الفقهية والقواعد الكلية ، قويّ غاية القوة ، مقبول القول عند (السلطان) و(الرعية) ، كان من العرب بحيث يطيعونه غاية الأطاعة ويمتثل السلطان فتح علي شاه أوامره ، وكذا أكابر دولته وأمناؤه غاية الأمتثال ، ويأخذ من السلاطين وأكابر العجم وأرباب الثروة والغنى مالاً كثيراً ، ويعطيه بتمامه في مجلس الأخذ وفي يومه» . ثم أخذ في تفصيل أولاده واحداً واحداً على الأجمال .

كلام الشيخ أسد الله في حق الشيخ الكبير

ولعلك أيها الناظر لا تكتفي بهؤلاء وتقول ننظر في هذا المقام «إلى مَنْ قال لا إلى ما قيل» ، وهؤلاء وإن كانوا من أجلّة الفضلاء إلاّ أنهم ليسوا من المشاهير ، ولا الجماهير ، حتى يعتقد بأن (الشيخ) جمع الرئاستين مَنْ ليس بها خبير ، فلنذكر لك ما يكفيك من كلام مَنْ لا تخفى عليك جلالة قدره ، وعظم منزلته ، العلامة الفهّامة ، مالك أزمّة التحقيق والتدقيق ، الشيخ أسد اللّه[3] في (المقابيس) ، عطّر اللّه مرقده النفيس ، ونصّه : «ومنها

---

(١) ذكر التنكابني في مقدمة كتابه «قصص العلماء» أنَّ هذه الاجازة لا تفترق عن كتاب «لؤلؤة البحرين في الاجازة لقرتي العين» للشيخ يوسف البحراني المتوفى سنة ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م . وكان السيد شفيع البروجردي قَدْ كتبها إلى ولده السيد علي أكبر ، وهي بعنوان «الروضة البهيّة» .

(٢) هو السيد مهدي بحر العلوم المُتوفى سنة ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م .

(٣) الشيخ أسد الله التُستري الكاظمي كان فقيهاً من مشاهير المحققين ، وهو صهر الشيخ جعفر كاشف الغطاء على بنته . تُوفيَ سنة ١٢٣٤هـ / ١٨١٩م ، ومن أشهر مؤلفاته «مقابس الأنوار في أحكام النبيّ المختار» وعُرِفَ أحفادُهُ بآل (أسد الله) نسبة إليه .

الأستاذ السعيد الشيخ الأعظم الأعلم قرة الأنام ، وسيف الأسلام ، علم الأعلام ، علامة العلماء الكرام ، خرّيت طريق التحقيق والتدقيق ، مهذّب مسائل الدين الوثيق ، مالك تقريب مقاصد الشريعة من كُلّ فج عميق ، وحيد العصر ، وفريد الدهر ، ومدار الفصل والوصل ، ومنار الفخر والفضل ، خاتمة المجتهدين ، وإسوة الأفاضل المعتمدين ، وحامي بيضة الدين ، وماحي آثار المفسدين ، بدر النجوم ، وبحر العلوم ، المؤيد المسدد من الحي القيوم ، شيخي وأستاذي ومعتمدي واستنادي ، وجدّ أولادي ، الأجل الأكمل الأفضل ، الأورع الأجل ، الألمعي اللوذعي ، التقي النقي الرضي المرضي ، الزكي الذكي ، الوفي الصفي ، الخائض المغمور في عواطف بحار لطف اللّه الجلي والخفي ، الشيخ جعفر بن المرحوم المبرور شيخ خضر النجفي (أدام اللّه ظلاله) على رؤوس العالمين ، وزيّن به كراسي العلم للعالمين ، وجزاه اللّه عني خير جزاء المحسنين ، المعلّمين يوم الدين ، وهو صاحب كتاب «كشف الغطاء» ، الباسط العطاء ، على أولي الذكاء ، وعلى غيرهم في غاية الغموض والخفاء» ، (أنتهى موضع الحاجة)[1] .

هذا والحالة أن الشيخ أسد اللّه كما ينقل عنه وهو مشهور غير بعيد قَدْ فرغ من المعقول والمنقول ، وجميع العلوم قبل العشرين .

وقال السيد الهُمام ، والعيلم العلامة إمام المُحدثين السيد عبد الله شُبّر ، وهو من تلامذة الشيخ الأكبر في كتابه المعروف بـ «كشف الأنوار في حلّ مشكلات الأخبار»[2] وهو من أحسن ما صُنّف في هذا الباب . قال في أوله : «الحديث الأول ما رويتُه بأسانيد عديدة ، وطرق سديدة عن جملة من مشايخي الكرام ، وأساتيذي العظام ، ومنهم : ـ وهو أعظمهم شأناً ، وأرفعهم مكاناً ، وأقومهم برهاناً ـ قدوة الأنام ، وعلم الأعلام ، وناموس العصر ، وعظيم القدر ، صدر صدور الأفاضل ، وبدر بدور المحافل ، جامع أشتات الفضائل ، ووارث علوم الأواخر والأوائل ، ورافع المشكلات عن معضلات المسائل ، بمحكمات الدلائل ، مهذب مسائل الدين الوثيق ، ومُقرّب مقاصد الشريعة من كلّ فجٍّ عميق ، مقيم شعائر الاسلام والدين ، وحجّة اللّه على العالمين ، المؤيد من الله بلطفه الجلي والخفي ، شيخنا ومولانا الشيخ جعفر النجفي ، مدّ اللّه ظلَّهُ على العالمين ، وأدام فضله على سائر المسلمين . ثم ذكر

(١) طُبع كتاب (المقابس) طباعة حجرية نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، والكلام المنقول في (المتن) مذكور في صفحة (١٩) من هذه الطبعة . وجاء في عنوان الكتاب من النسخة المطبوعة (مقابس الأنوار ونفائس الأسرار المقتبسة من مشكاة آل محمد المختار) .

(٢) ورد في النسخة المطبوعة إسم الكتاب بعنوان «مصابيح الأنوار» .

بعده السيد العلامة الطبطبائي، والمُرَوِّج البهبهاني، وأمثالهما، رحمهم اللّه أجمعين[1].

وإنما أورد لك أيها الناظر في هذه (الرسالة) هذه الأشياء كيلا تقول في حقي هذا رجل مغالٍ بأجداده وآبائه، وتعلم أن هذا أمر مغروس في نفوس أهل العلم وكبرائه، وأما أنا فلم يزدني ذكر هؤلاء العلماء في حقه من المدح والثناء، شيئاً من الأشياء، بَلْ ازدادوا عندي بمعرفة من (الشيخ) رفعة وفضلا، وبانوا عندي أنهم كانوا للكمال أهلا. وما هذا إلاّ كما يحكى عن أبان بن تغلب (رحمه اللّه) أنه كان يأتي مسجد المدينة فتخلى له سارية النبي (ص)، ويجلس ويحدث الناس فجاءه يوماً شاب من أهل المدينة وقال له: يا أبان كم كان مع (عليٍّ) في حروبه من أصحاب النبي (ص)؟ فقال: يا ضعيف اليقين أظنُّكَ تريد أن تعرف فضل الأمير (ع) باتّباع أصحاب النبي (ص) له، وأنا ما عرفت فضل (عمّار) و(فلان) و(فلان) إلاّ بخروجهم معه، واتباعهم قوله.

ومثله ما يحكى عن بعض (الصوفية) من ذوي الاعتبار، أنه قال لمّا رأى كلام بعض المتكلمين أنه تعالى تدل عليه (الخلق) و(الآثار): «إني ما عرفت الدنيا وما فيها، إلاّ بمعرفة منشيها».

والحديث شجون، فلنختم هذا المقام بحكاية في «معدن الشرف» هنا محلها. رُوِيَ عن عدة من الثقات أنّ السيد مير علي[2] صاحب «الرياض» اجتمع مع السيد جواد[3] صاحب «مفتاح الكرامة» ومعه جماعة، وكان في (كربلاء)، فأخذ القوم في الثناء على (الشيخ) الأكبر وأن ليس له شريك في فضله وسجاياه خصوصاً في العبادات، والالتزام بالنوافل والأوراد من المستحبات، فضلاً عن الواجبات، فقال المير: ما قلتموه حق إلاّ أن هذا عمل العجائز وحرفة عاجز، فقد ترك أبحاثه ودروسه وعلمه، وصار ملازماً للأسفار، والسياحة ولم يبق عنده سوى ما قلتُم مما هو بالنساء أحرى.

فانتدب السيد جواد فقال: يا للّه للعجب العجاب، أتقول هذا في حق رئيس المسلمين، وحجة اللّه على الخلق أجمعين، كهف الأنام، ومرجع الخاص والعام، وأبي الأرامل والأيتام، صاحب العلوم العجيبة، والكرامات الباهرة الغريبة، من لم تسمح بمثله الأيام،

(١) مصابيح الأنوار في حلّ مشكلات الأخبار، جـ١، ص٤. وفي (العبقات) وردت السطور الثلاثة الأخيرة زيادةً عما وُجِدَ في النسخة المطبوعة.

(٢) السيد علي الطباطبائي (هو ابن أخت الوحيد البهبهاني) من مشاهير مجتهدي عصره، ولد سنة ١١٦١هـ/ ١٧٤٨م، وتُوفي سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م.

(٣) مُحَمَّد جواد العاملي من أعاظم فقهاء ذلك العصر، اشتهر بكتابه «مفتاح الكرامة» المطبوع في الفقه الاستدلالي، وهو من تلامذة الشيخ كاشف الغطاء، تُوفي سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م.

وتعجز عن انتاج شكله الأعوام ، فلا يضاهيه إنسان ، ولا احتوت على مثله الأزمان ، ولا يحيط بكنهه الواصفون ، ولا يعلم أقل مزاياه العالمون . (ثم أطال في الأطراء والثناء بما لا مزيد عليه) ، حتى قال ، وتحسب أيها (السيد) أن كثرة الأسفار ، بما يمت إلى ذلك الهيكل القدسي بالعار ، وأنك بجلوسك هذا تقاربه أو تدانيه ، أو أنك بقدحك هذا فيه تساويه ، كلا ثم كلا ، وهل قام عمود الدين إلاّ في أسفاره ، وفيه ، وهل هذا إلاّ سيرة ساداته ومواليه ، أليس النبي (ص) خرج إلى (الطائف) ، وهاجر إلى (المدينة) لإحياء هذا الدين ، وتبعه على هذا وصيه أمير المؤمنين (ع) ، فقد هاجر من (المدينة) إلى (البصرة) ثم إلى (الكوفة) ثم إلى (النهروان) و(الشام) كله محافظة على الشريعة . كما تُنبئ عنه الرواية أنه (عليه السلام) لمّا حمل على أهل (الشام) ، وخفى صوته ، وحمل أولاده وأصحابه فوجده (مالك) يُصلّي فقال : يا سيدي أبمثل هذا المكان تصلي؟ فقال (ع) : «يا مالك وهل قتالي إلاّ للصلاة» . وكذا سيرة ولديه المظلومين الحسن والحسين (ع) ، وكذا سائر الأنبياء والأوصياء (ع) .

وقد أنزل اللّه تعالى ذلك في محكم كتابه كقوله تعالى : «إنما أنت منذر ولكل قوم هاد»[1] ، وأمثال هذا كثير ، فقد حذا (أيده اللّه) حذو المتقدمين من الأنبياء ، والوصيين ، وعباد اللّه الصالحين ، حتى قام عمود الدين بعدما مال ، وأرشد إلى سبيل الهدى جماعة من أولي الضلال . ولم يزلْ (السيد) يزأر ، ويهدر بهذا ، وأمثاله حتى سكنت فورته ، وقرّت شقشقته .

وبلغ الخبر إلى السيد الحسيب المحقق المدقق السيد محسن الكاظمي[2] وهو في (بلده) ، فشد الرحال حتى اجتمع بالسيد المير وقال له : أنت القائل على رئيس مذهبنا وإمام ملتنا ، قَدْ ضيّع علمه ، وصار من أهل الأسفار؟ فقال له (السيد) : وما الذي جاء بك؟ فقال : سمعت مقالتك ، وجئت لمعاقبتك ، وتأنيبك ، (إنتهى) .

ورواها بطريق آخرعن حجة الأسلام الشيخ العلامة الشيخ مُحَمَّد طه نجف[3] (حفظه اللّه وأيده) ، ومولى المسلمين الشيخ عباس (أدام الباري وجوده) أن السيد مير علي كان مشغوفاً بالتأليف ، والتصنيف ، ومولعاً بكتابه المعروف (بالرياض) مفتخراً به ، ولم تكن له يد

---

(١) سورة الرعد ٧/١٣ .

(٢) السيد محسن الأعرجي الكاظمي ولد سنة ١١٣٠هـ / ١٧١٨م ، وتُوفي سنة ١٢٢٧هـ / ١٨١٢م ، وهو من تلامذة البهبهاني ، والسيد مهدي بحر العلوم ، والشيخ جعفر كاشف الغطاء . له مؤلفات أهمُها كتابه «المحصول في علم الأصول» الذي اشتهر به .

(٣) من كبار مجتهدي النجف تُوفي سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م .

بالعبادة ، فلا يزيد في صلاته على غير الطريقة المعروفة من نوافل وتعقيبات وغير ذلك . وكان (الشيخ) محافظاً على تلك الأشياء خصوصاً النوافل المرتبة ، فاتفق أن اجتمعا يوماً فقال (الشيخ) للسيد : إنك من العلماء المشهورين فلم لا (تتنفّل) بصلاتك وهو نقص بمثلك ، فكيف إذا اقتدت (عوام) الناس بك؟ فقال (السيد) معرّضاً بالشيخ : النوافل سيرة العجائز ، لكن أنت لِمَ تركتَ العلم وصرتَ من أهل الأسفار ، وحُرمتَ لذة التصنيف؟ فسكتَ الشيخ عنه .

وبلغتْ هذه إلى السيد محسن الكاظمي فأتى إلى (كربلاء) ، واجتمع (بالمير) وقال له : أنت العاتب على شيخ الطائفة ، ورئيس الفرقة المحقة بذلك الكلام؟ فقال له (السيد) : ما أنت وهذا نحن علماء يتكلم بعضنا مع بعض فما أنت والدخول في البين ، (انتهى) . مع التهذيب والأختصار الكثير مما ذُكِرَ من التطويل الذي لا طائل تحته ، فإن نقل مثل هذا عن العلماء في غير محله إلاّ مع حمل كلامهم على خلاف ظاهره ، وتوجيهه بغير مؤداه ، فإنه قَدْ قيل :

إذا صَدرَتْ مِنْ صاحبٍ لكَ زَلَّةٌ فكُنْ أنتَ مُحتالاً لِزلَّتِه عُذرا

فكيف إذا صدر من العالم الواجب الأتباع ما هو بنظر العامي زلة ، وإلا فحاشا أن يقع منهم مثل ذلك ، مع أنّا لا نعتقد العصمة فيهم .

فممنْ ذكر شيئاً من ذلك فما أجاد ، ولا وافق السداد ، صاحب «قصص العلماء» فإنه نقل عن (الشيخ) أنه كان يقول : «إن كان (العلاّمة) و(الشهيد) مجتهدين ، فأنا لستُ بمجتهد ، وإن كان السيد (مير علي) مجتهداً فأنا ثمانية مجتهدين»[1] ، وهذا من الخلط الذي لا ينبغي . وأنت على فرض صحتها لا تخفى عليك الأوجه والمعاذير مع علمك بأن الحق مع كُلّ منهما ، وأنه عليه يسير .

وأنا أظن ظناً قوياً أن كُلّ هذا لا أصل له ، كيف وقد رأيت من تعظيم (الشيخ) لهذا (السيد) العظيم ما يبعد معه صدور هذا الأمر الذميم . قال الشيخ في «الحق المبين» ما هذا نصه : «واجتمعت مع أعظم علمائهم فقال لي رأيتُ في (رسالتك) ، و(رسالة) السيد علي - يعني زبدة المجتهدين وأفضل العلماء العاملين ، مولانا ومقتدانا سيد مير علي دام ظله السامي -» ، (إنتهى محل الحاجة) .

وإن شئت قلت وما أنا والدخول بين هؤلاء الأولياء المقربين ، ومثل السيد (محسن) مُنعَ

---

(١) قصص العلماء ، ص١٩٤ .

عن ذلك فكيف بمثلي ، وهاهم قَدْ وفدوا على ربٍ كريم ، فأحلهم دار المُقامة لا يمسهم فيها نصب ولا لغوب يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين ، ونزعنا ما في صدورهم من غلّ إخواناً على سرر متقابلين . ونحن نسأل اللّه أن يدخلنا في زمرتهم ، ويرزقنا شفاعة حججه ، وشفاعتهم .

وهذا القدر كان في الأنباء عن ضمّ (الشيخ) الرئاستين ، وجمعه لأقصى ما يتصور من هاتيك المنزلتين .

وأما تواضعه للشريف والوضيع مع هيبة وصولة تريعان قلب البطل المريع ، اللتان أعرب عنهما في «روضات الجنات» حيث قال ما نصه : ومن صفاته المرضية ، أنه كان (رحمه اللّه) شديد التواضع والخفض واللين ، فاقد التجبر ، والكبر على المؤمنين مع ما فيه من الاقتدار ، والهيبة ، والوقار ، والصّولة ، فلم يكن يمتاز في ظاهر هيأته عن واحد من الأعراب ، وترتعد من كمال هيبته فرائص أولي الألباب ، وكان أبيض الرأس واللحية في أزمنة مشيبة ، كبير الجثة ، رفيع الهمة ، سمحاً شجاعاً ، قوياً في دينه بصيراً في أمره ، كثير التشوق إلى الأنكحة والطعام ، والتعلق بأبواب الملوك والخدام لأجل ما في ذلك من المنافع اليقينية ، والمصالح الدينية[1] ، (إنتهى) .

فقد كان (رحمه اللّه) إلى بلد أو مصر التمسوه على الصلاة في مسجدها الكبير فيجيبهم ثم يخرج فيصلي أولى الفريضتين ويقدم في الثانية صاحب المسجد الذي يصلي فيه إماماً سائر الأيام . فاتفق لمّا كان (بإصفهان) أنه وصل إلى محلة (بيدادماد) فدخل المغرب وكانت عادته في (إصفهان) أنه أينما دخل عليه الوقت صلى في المسجد الذي هو قريب فدخل إلى مسجد تلك المحلة ، وكان يصلي فيه حجة الأسلام السيد مُحَمَّد باقر[2] ، فلما رأى (الشيخ) قدّمهُ ، وكان أستاذه ، وتنحّى عن (المحراب) ، فصلى (الشيخ) المغرب بالناس ، ثم إلتفتَ إلى الصفوف فرأى قريباً منه ملا علي النوري فقال له : قم فصلٍّ بنا (العشاء) ، فامتنع (الآخوند) ، وأصرّ على الأباء ، فأخذ (الشيخ) بكفه فقال له (الآخوند) ، أقسمتُ عليك إلاّ كففتَ عني لأن شرائط الأمامة غير مجتمعة فيَّ ، فقال : أمّا يقبح بالرجل أن يبلغ هذا القدر من العمر ولم يك صالحاً لئن يكون إماماً ، ثم أمر حجة الأسلام فصلى بالناس ، وصلى (الشيخ) خلفه ، كذا في «قصص العلماء»[3] .

---

(١) الخوانساري ، ج٢ ، ص٢٠٠ .
(٢) السيد مُحَمَّد باقر الرشتي لُقِّب بلقب (حجة الاسلام) لغزارة عِلمه ، وزعامته الروحية . توفي سنة ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م .
(٣) قصص العلماء ، ص١٩١ .

وهذا وإن كان غاية في التواضع ، وحسن الأخلاق إلاّ أن الأعجب منه ما ذكره أيضاً في ذلك الكتاب من أن (الشيخ) وصل إليه (حقٌّ) ففرّقه بين الصلاتين على المستحقين ، فلما نفد أتى إليه (سيدٌ) فقير رث الثياب ، الحماقة تلوح على شمائله ، فقال للشيخ : إعطني حقّ (جدي) ، فقال (الشيخ) : قَدْ نفد ولم يبق شئ فلِمْ لَمْ تجئ أولاً حتى تأخذ نصيبك منه ، فجمع (السيد) ماء فمه ، وبصق على كريمة (الشيخ) المباركة . ورمته الناس بأبصارهم شزراً ، وأرادوا أن يقطعوه بأضراسهم ، وجعلوا ينتظرون صُنْعَ (الشيخ) فيه ، فقال الشيخ له : إجلس يا سيدي مكانك وأنا آتيك الآن بما تريد ، فأخذ الشيخ طرفي ثوبه بيده وجعل يدور بنفسه بين الصفوف وهو قابض بيده الأخرى على كريمته قائلاً : مَنْ كانت لحية شيخه عزيزةً عليه ، فليمدد لإعانة هذا (السيد) المبارك يديه ، فتعجب الحاضرون ، وما كان إلاّ يسير حتى امتلأ رداء (الشيخ) بالدراهم والدنانير ، فجاء بها إلى (السيد) وقال له : نرجوك العفو يا سيدنا ، والشفاعة عند (جدِّكَ) ، ولم يزل يعتذر إليه ، ويتضرع بين يديه حتى قال (السيد) : عفوتُ عنك ، وأخذ المال ومضى ، ورجع (الشيخ) إلى صلاته[1] .

وأنا بعد هذا لا أذكر لك في تواضعه شيئاً ، فأنت خبير أنّ هذه ليست إلاّ ملكةَ نبيٍّ مكرّم ، وإمام مُعظّم ، وما هي إلاّ العصمة المقتبسة من الأئمة (عليهم السلام) ، إذ لو تكلم (الشيخ) بحرفٍ واحد أو أظهر (الكدورة) ، و(الأنزعاج) لصار (السيد) هباء ، ولعاد وجوده وعدمه سواء .

وأما جوده وكرمه على المساكين ، وسعيه لفقراء المؤمنين ، فقد سمعتُ كثيراً من (الشَيَبة) الصالحين ، كما هو في «قصص العلماء» أيضاً أن (الشيخ) في أغلب الأعوام والسنين (يرهنُ) داره وينفق الأموال على الفقراء والمساكين ، من الطلبة والمشتغلين ، ثم يسافر إلى (العجم) ، ويأتي بمال جم ، فيسترجع داره ، ويصرف الباقي في الوجوه[2] .

وفي «روضات الجنات» أنه كان يؤجر نفسه للعبادة ثلاثين سنة ، ويصرف ذلك على متعلقيه[3] .

وقال عمّي العباسُ بن الحسن ، (لا زالت مناهل فيوضاته مترعة للواردين) ، في (نبذته)[4] التي جمع فيها أحوال أبيه (الحسن بن جعفر) ؛ فمما ذكر في مقام أن الأمام (ع)

---

(١) قصص العلماء ، ص١٩٣ .

(٢) قصص العلماء ، ص١٨٨ .

(٣) روضات الجنات ، ج٣ ، ص٢٠١ .

(٤) سمّاها (نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري) ، فرغ من تأليفها سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م ، وقد أوردها المؤلف ضمن هذه (العبقات) .

لم يزل يمد العلماء الذين يرى منهم القابلية ، ويؤيدهم بالتأييدات الربانية ، ومنهم والده المطهر حيث رزقه اللّه الهيبة والعظمة في نفوس الأمراء والسلاطين حتى دفع عن أهل (النجف) بواقعة نجيب باشا (الآتية تفصيلاً) . ولم يزل في ذلك حتى قال : وكيف لا ، وهذا جدنا (كاشف الغطاء) بلغ في بدء أمره من الحاجة ، والفقر ما لا عين رأتْ ، ولا أذن سمعت حتى أنه كان يتربص الفرص في (المال) الذي أعرض عنه صاحبه من الطعام وغيره فيجتزئ منه بمعاشه ، وهو مكبٌّ على التحصيل إلى أن وصل أمره إلى جلوسه ليلاً بين مواضع (النجو)[1] المعدّة في الصحن الشريف كي يستضيء بسراجها الموقوف لها في المطالعة من حيث عجزه عن قيمته . وهو مع هذه الحاجة شكى إليه بعض إخوانه العزوبة لعدم تمكنه من الزواج فأجّر (الشيخ) نفسه نيابة عن (ميِّتٍ) مقداراً من السنين صوماً وصلاةً ، ودفع مال الأجارة إلى أخيه المؤمن فتزوج بها[2] .

ولما عرف الله منه صدق النيّة ، وأنَّ لا قصد له في طلب العلم إلاّ التقرب إليه أمدّه بأكسير ألطافه حتى بلغ مرتبة تيسّر فيها كلما يريد ، وصار من الجلالة وعلو القَدر بمقام لا يمكن وصفه ، وطاف أغلب البلاد ، وهدى اللّه به خَلْقاً كثيراً ، وانتشر صيته في الآفاق .

فراجعْ ما رسمه بعض العلماء من أوصافه لتقف على العجب العُجاب الذي يستكشف فيه أنه منظور من إمامه ؛ فكم فرّج كربةً ، وأزاح علةً ، وكم حرس (النجف الأشرف) من كيد (سعود) وشرّه ، وصار سبباً لبناء (السور) الموجود ، ودفع عن أهاليها الضيم مراراً ، وقتل (المارقين) من فرقة (عقِيل) في الفيحاء ، وأخمد نار بعض الفرق المشبهة ، وشتت شمل أهل التصوف بمساعدة الملك المؤيد الساري بسيرة العدل في الرعية سلطان إيران فتح علي شاه قاجار[3] .

ومما اختص به دون غيره من مشاهير العلماء أن حباه اللّه بصحة المزاج ، وأنعم عليه بأن تمكن من السفر والعبادة ، وخصه بأن أبقى بعده من بنيه علماء راشدين مسلّم لهم بالفضيلة ، ولم يُخلِ داره من (عالم) يدعو إلى الخير ، وتجري على يده الخيرات ، وينفّس عن المكروب .

---

(١) موضع (النجو) هو موضع الغائط . ويُطلق عليه اليوم (المرافق الصحيَّة) .

(٢) وكتب المؤلف تعليقةً على هذا الموضوع حيث قال : «وسمعتُ منه أعني من جناب الشيخ عباس (سلّمه الله) ، ومن جماعة من (الشيبة) الصالحين أنَّ هذه القصة مع الشيخ حسين نجف العابد الزاهد الفقيه المعروف ؛ فأنّه شكى العزوبة إلى (الشيخ) وكانا خليلين ، وأنّه لا يقدر على (المهر) ؛ فأجّر (الشيخ) نفسه للعبادة بمقدار كثير من المال ، وبذله للشيخ حسين ، ولم يُخبره بذلكَ . وهذا مما لا يلمُّ بفكر أحد من الخلق في بلوغ الشيخ إلى هذه الدرجة» .

(٣) الشاه فتح علي القاجاري حكم من سنة ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م ، حتى وفاته عام ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م .

وروى لي جماعة ممن يوثق بهم عنه أنه سأل اللّه تعالى في المقام تحت (الميزاب) عام حجّه بأن لا يخلي بيته من العلم، وأن يجعل في ذريته مَنْ يُقْتَدى به إلى ظهور الحجة (ع)، فنسأل اللّه ذلك، وأن يستجيب دعاءه.

وأعجبُ ما اختص به أن جعل اللّه (أسباطَهُ) من (بناته)، كلهم أيضاً علماء يُقتدى بهم ببركته مثل أولاد الشيخ أسد اللّه[1]، وأولاد الشيخ مُحَمَّد تقي[2]، وأولاد الشيخ مُحَمَّد آل الشيخ خضر، فإنه أعقب من بنته الشيخ (راضي) العالم الفاضل المعروف. ولو شئنا أن نذكر ما وقفنا عليه من صفاته وحالاته وما منحه اللّه لملأنا الطروس، ولكن حيث تعرض لبعض ذلك غيرنا طوينا عنه كشحاً. فاعتبر آثاره فهذا يكفي في جلاله وقدره وعظم مرتبته. فنرجو أن يقيض لنا اللّه في هذا العصر علماً للشريعة الغراء منظوراً من إمامه (ع)، (إنتهى).

وسنذكر جميع آثاره، ومساعيه في الدين التي أشار إليها العمُّ (سلّمه اللّه).

وفي «قصص العلماء» شواهد كثيرة لِمّا نحن فيه، من جود (الشيخ) وأياديه، منها: أنه كان ما بين الصلاتين يأخذ بكفيه طرف ردائه ويتردد بين الصفوف، ويلتمس من أهل الجماعة، الأموال للفقراء حتى يجتمع فيه مقدارٌ غزيرٌ فيناديهم ويفرّقه فيهم، ويعود لصلاته.

ومنها أن (الشيخ) كان من عوائده إذا دعاه (حاكم)، أو (ظالم)، أو أحد (التجار) ليُشرّف داره، ويتناول من طعامه أجابه لذلك، فإذا مُدَّ الخوان، وحضرت الأطعمة والألوان، قوّمها (الشيخ) مع الحاضرين بقيمتها الواقعية، ثم قال لصاحب الدار: أنا لا آكل شيئاً منها، ولا آذن لأحد بذلك حتى تبتاعها مني، وتعطيني (الثمن)، فيحضر صاحب المكان ثمنها للشيخ فيأذن للحاضرين، ويأكل هو منها. حتى أنه حضر عند بعضهم بعض الأيام فقوّم ما أحضر من الطعام، وكان وليمةً عظيمةً يبلغ مصرفها ثلاثمائة دينار، أو أزيد، فلم يأذن لأحد بالتناول حتى حضّر (المبلغ) لديه، فكان ناقصاً ديناراً واحداً، فقال صاحب المكان: يا مولانا نخشى أن يبرد الزاد فكُلْ، ولا تخرج من الدار حتى تأخذ (الدينار)، فأبى وامتنع عن الأكل حتى أُحْضِر لديه، فأكل وأذن للحاضرين. حتى إذا فرغ بعث رسوله إلى أهل المدارس، وفقراء البلد فأحضرهم بخدمة (الشيخ)، وفرّق المال عليهم، وقام وليس معه

(١) هو الشيخ أسد اللّه التستري، المُتوفى سنة ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م.

(٢) الشيخ مُحَمَّد تقي بن محمد رحيم الأصفهاني صاحب الحاشية على (المعالم) في علم الأصول. تُوفيَ سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م.

من المال شيء .

ومنها : أنَّ (الشيخ) لمَّا عزم على الرحيل من (إصفهان) ، وركب (راحلته) خارجاً من داره ؛ أتاه سيِّد فأخذ بلجام (دابته) وقال له : أنا (سيِّدٌ) محتاج مضطر إلى قدر مائة تومان ، وأريدها الآن منك ، وكان (أمين الدولة) يومئذ حاكم (إصفهان) ، فقال (الشيخ) للسيِّد : إمض إلى (أمين الدولة) وقُلْ له يقول (الشيخ) اعطني المقدار المذكور ، فقال السيد : فإن ردّني فمن لي بك وأنت راحل؟ فقال الشيخ : لا بَلْ أنا في مكاني حتى تأتي . فأوقف (دابّته) وهو عليها ، ومضى (السيّد) إلى (أمين الدولة) وقصَّ عليه الخبر ، وقال له : تركتُ (الشيخ) منتظراً لي وهو على راحلته في أثناء الطريق ، فانزعج (أمين الدولة) لذلك ، وأمر ملازميه بإحضار (المُقدار) عاجلاً فجاؤوه (بكيس) فيه ما يزيد على ذلك القدر فجلسوا يعدون منه للسيد فقال : اعطوه (الكيس) بما فيه ، فقيل له فيه ما يزيد على مائتي ألف فقال ولو بعشرة فإني أخشى أن يطول انتظار (الشيخ) فيأتي ، ويقع البلاءُ علينا بواسطة تعطيله ، فأخذ (السيد) الكيس ، وأتى (الشيخ) فوجده على (دابته) ينتظره ، وخلفه خلق كثير فأخذ الكيس من السيد وعدّ له طلبته وقال له : أعلِمْ فقراء (البلد) فليأتوا ، ووقف حتى اجتمعوا وفرّق المال الباقي فيهم أجمع ، ثم حرَّك راحلته وتوجَّه إلى قصده .

ومنها : لمَّا شرَّفَ (قزوين) ، وحطَّ رحله في دار (مُلاّ عبد الوهاب) اجتمعت عليه حكام سراي الشاه ، وأعيان التجار ، وطلبوا منه أن يُشرِّف منازلهم على مقتضى العادة من (البازديد) المعروف في زماننا ، فالتمسوا من (ملا عبد الوهاب) ذلك فرجّح للشيخ هذا الأمر فأجاب إليه ، وخرج مع أصحابه الأطياب ، وبخدمتهم ملا عبد الوهاب . فلما وصلوا إلى السوق أقبل التجار ، وولاة سراي الشاه وحكام البلد مسرعين فاستقبلوا (الشيخ) وقبلوا يديه ، واصطفوا خلفه ، ووقع بينهم النزاع والجدال وكلٌ يروم أن يشرف (الشيخ) داره أولاً ، فعرض عبد الوهاب مشاجرة القوم بخدمة (الشيخ) فجلس (الشيخ) في وسط السوق وقال : مَنْ أهدى للشيخ هديةً أنفس من هدية أصحابه شرَّفَ (الشيخ) داره قبل أصحابه . فكلٌّ أتى بشيء تناوله من السوق عجلاً من (شالةٍ) نفيسة ، أو (عباءة) مثمنة وغير ذلك ، حتى جاء بعضهم (بطشتٍ) كبير مملوء بالدراهم والدنانير فقال (الشيخ) : أنت أول من أدخل داره ، ثم أمر بعض صحبه فجمع له الفقراء ، والمساكين ففرَّقَ تلك الأموال بينهم ، وقام إلى الدار ، وليس معه درهم ولا دينار .

ولعلك لا ترى بهذا الفعل حسناً كثيراً ، وتسأل عن وجهه وسببه ، ولكن قال في «قصص العلماء» ما هذا نصه : يقول مؤلف الكتاب : ولا تحسبُ أنَّ بهذا المال شُبهةً أو

إشكالاً ، فإنّ (الشيخ) كان يعلم أنّ ذمم هؤلاء مشغولة بأغلب الحقوق من زكوات وأخماس ، ومرادّ مظالم ، وغير ذلك ويرى أن استيفاء حقوق اللّه واجبة بأي طريق كان خصوصاً بالنسبة إلى مثله ، نظراً إلى عموم (الولاية) ومراعاة حق الفقراء[1] ، (إنتهى) .

ويؤيده قول (السيّد) في «روضات الجنات» ونصّهُ : كانَ الشيخ (ره) يرى إستيفاء حقوق اللّه تعالى على سبيل القهر ، والخرق من الخلق ويباشر ذلك أيضاً بنفسه ويصرفه بمحض القبض إلى مستحقيه الحاضرين من أهل الفاقة والفقر ، ونقل أنه في مبادئ أمره كان ذا عيلة شديدة في مسغبة ، ومسكنة ذات متربة ، فرأى أن يؤجِّر نفسه من بعضهم لإتمام ثلاثين سنة من العبادة يستغني بأجرتها عن مؤونة زمان التحصيل[2] ، (إنتهى) .

ولم تزل هذه عادته ، وعلى هذا المنوال سيرته ، فكان إذا قبض الحقّ لا يستقر عنده دقيقة ، ولا يقوم من مكانه إلاّ وقد أوصله إلى مستحقيه . وكان إذا أتاه (حقٌّ) والى جنبه (سيّد) أو (مستحق) أعطاهُ الحق ولو كان ألفاً ، ويقول : «خيرُ العطاء ما أثرى منه العديم وفُكّ به الغريم ، وأشبعَ جائعاً ، وكسا عارياً . وأحسنُ النوال ما إذا قام عنك السيّد مسروراً وانقلب إلى أهله بالخير والحبور» . وكان (ره) طالما يُؤثر الفقراء و(السادات) على نفسه ، وأنفس أهله ، وأولاده وإن كان به وبهم خصاصة .

فمنه ما في «معدن الشرف» أنّ ولده المحقق الشيخ (علي) تراكمتْ عليه الديون وأقلقته الحاجة ، وأزعجته الفاقة فجاء لأبيه (حقٌّ) غزير ، وكان قَدْ شكا إليه أحواله وأنه ممن ينطبق عليه (حقٌّ) الفقراء ، فحمل له من ذلك المال مقداراً مُعيّناً فأخذها الشيخ (علي) ، ولم يُعلم به أحداً من أهله وعياله وجعلها في صرّة وأخفاها بين كتبه ليفي بها دينه ويصلح حاله . فاتفق مجئ مُسْتَعط من الشيخ الكبير بعد نفاد ذلك الحق الغزير ، فشكا إلى الشيخ الحاجة وضيق المعاش فأقسمٍ الشيخ بعدم وجود شئ عنده ولا تحت يديه فهمّ السيّد بالخروج فقال له : عزيز عليّ أن يدخل إليّ طالب ، فينقلب خائب ، فقف مكانك عسى أن يهيئ اللّه لك شيئاً عند أهلي وأولادي . فتركه ودخل على ولده الشيخ (علي) وقال : يا ولدي ما تقول فيمن قَدْ ادّخر مالاً له ، وبات مكتفياً شابعاً ، وبات أخوه المؤمن محتاجاً جائعاً ، فقال : بئس الرجل ذاك يا أبتيْ ، فقال له : فامْدُدْ يدك وأعطني (الصرّة) التي بين كتبك لأفرّج بها عن أخيك المؤمن كربته ، وأبرّد غلّته ، ولا تكن أنت ذلك الرجل الذي أعَبْتَه . فعندها لم يستطع (عليٌّ) مخالفته ، فدفع له صرّته ، ودفعها (الشيخ) إلى ذلك المحتاج وردت الفاقة إلى

(١) قصص العلماء ، ص١٩٢ .

(٢) روضات الجنّات ، جـ٢ ، ص٢٠٠ ـ ٢٠١ .

(عليّ) كما كانت .

ولك بهذا المقدار من سجايا (الشيخ) ، وصفاته كفاية ، فأنَّ مآثره ، ومكارمه ليس لها حدّ ولا غاية ، فأنّى ومن منحه هذه المكارم الجليلة ، طالما سمعتُ من (الشَيَبة) الصالحين أمثال ما ذكرته بما ينيف على الألوف من الصنائع الجميلة ، خصوصاً في أهل (النجف) ، وأنه كان يشتري لهم الدور والمساكن ويبذل لهم مصارف الأعراس ، وغير ذلك من اللوازم ، والضروريات . ولكنا ذكرنا لك في كُلّ مقام نبذة من مآثره يسيرة ، تدلك على منزلة عند اللّه كبيرة .

فلننتقل إلى ذكر أسفاره ، وما إتفق فيها ، وفي أحضاره ، من الحوادث العظيمة ، والوقائع المشهورة ، والنكات المُسْتَحْسَنة ، والتخلصات اللطيفة ، وهذا هو الفصل الثالث .

الفصل الثالث

في أسفاره وما وقع له فيها

أمّا أسفاره فكثيرة لا تحصى ، ونحن نذكر المشهور منها :

سفره إلى بيت الله الحرام

فمن ذلك حجّته الأولى سنة ١١٨٦[1] المؤرخة بقصيدة للسيد صادق الفحام يهنئ (الشيخ) فيها بقدومه ، ويؤرِّخُ ذلك العام بقوله .

وبذلتُ أقصى الجهد في تأريخهِ (نلتَ المُنى بمنى ، وجئتَ حميدا)

وكان الطريق على البر يومئذ مخوف ، ودون التشرف بتلك البقعة المقدسة خوض الحتوف ، ولم يكن على ذمة قوم تلتزم به كاليوم ، فلذا كان طُعمةً للغائر ، وفريسة للوارد والصادر ، وكانت الناس تذهب على طريق البحر ، فتجد البؤس الشديد والضرّ ، وربَّما يحول عليهم عام كامل ، ولا يقع السير بهم على حاصل .

فجهز (الشيخ) جماعة من أهل (النجف) من المعروفين بالشجاعة ، وأمرهم بالسير معه ، وهيَّأ لكل واحد عُدَّةً من السلاح مجتمعة ، فمما يقال أن والدة الشاه المعظم فتح علي شاه كانت في (النجف) فرغبتْ في (الحج) ، ولم يكن رجل من ذويها وأهليها ليسير بها ، فأرسلتْ إلى (الشيخ) تسأله أن تسير بخدمته على أن يعقد عليها (منقطعاً) فأجاب إلى ذلك ، وتفل بها معرساً برحله خارج البلد ، وباتوا الليل حتى إذا سلّ الفجر من غمد الدجى عضبه ، أخذَ الحادي في البيداء ركبه ، فلم يبق في (النجف) شريف ولا وضيع ، إلاّ خرج للتوديع ، وأوصلوا (الشيخ) إلى عين (الرحبة) حفاة ، وراكبين ، ثم رجع المشيعون ، وبقي زهاء مائتي فارس خلفه مدجين ، خوفاً عليه من غارة الأعراب ، والسلب والانتهاب . فلما علم (الشيخ) بأمرهم أمرهم بالرجوع ، وقال لهم : إن معنا من جند اللّه ما هو أشد حولاً وقوة ، فرجعوا إلاّ ثلاثين من خدمه الذين استصحبهم ، وباقي الفقراء والمؤمنين .

---

(١) ١١٨٦هـ / ١٧٧٢م . أمّا حجتُه الثانية فقد كانت سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٥م .

فقيل كانت الأعراب تأتي لنهبهم فعندما يقع نظرهم على (الشيخ) ينزلون عن خيولهم، ويقعون على قدميه خاشعين خاضعين. ولم تمض ليلة إلاّ وفي خيام (الشيخ) منهم أربعون أو خمسون ضيفاً.

وكانوا يتناقلون أخباره وسجاياه بينهم حتى صارت تتقاصده (الأعراب) التي ليست على الطريق حتى تتشرف برؤياه.

فلما قضى مناسكه ورجع، التمسوا منه المقام عندهم أياماً فأجابهم إلى ذلك، فتوقف في (نجد) بمنازل (حرب) أربعة أشهر، وكانوا كُلّ يوم يزدادون عجباً، وشغفاً حتى استشيع كثير منهم على يديه، وهم إلى الآن من مخلصي (الشيعة) المؤدين للحقوق.

وحدثني بعضهم ممن يعتمد عليه أن (الشيخ) هو الذي عرَّفهم (التشيع)، ولم يكونوا من ذلك قبله بشيء، ثم ارتحل (الشيخ) عنهم ونصب لهم من أصحابه (علماً) يرجعون إليه في الأحكام، وقفل ضاعناً عنهم، وذكرُ مفاخره وشرفه عندهم:

وابنُ الأكارمِ ما ترحّل عن حمى إلاّ أقامَ به العُلى والسؤددا

وظلت الألسن تلهج بذكره، وتتحدث بمزاياه وفخره، وتسأل عنه الرائح والغادي، من الحواضر والبوادي، وكانت كيفية سؤالهم كيف حال نزيلنا الشيخ (جعفر). فلهذا توهم، أو تعمد بعض المبغضين الحسد، لذلك الشرف المخلد، فأوهم على بعض الأوهام من العوام، أن الشيخ (جعفر) من أهل (نجد)، وأن الوهابي[1] المشهور من عشيرته، بَلْ عند بعضهم أنه من (اخوته). ولما رأى أن ذلك لم يتم له، بَلْ جلب عليه الفضيحة والخزي والخجلة:

ومَنْ يَدّعي شيئاً بغير دليلهِ فلا بُدَّ يوماً أنْ يُكذِّبَه الحقُّ

إدّعى أن الوهابي من أهل (جناجيّة)، و(الشيخ) منها، فهم أقرباء. (وسيأتي تفصيل هذا قريباً). والحمد لله الذي قتلهم على أيدينا بما يؤفكون، وأزاد أولياءه شرفاً يهلك به الحاسدون.

ولما وصل الشيخ من (النجف) على أميال، خرج الناس للأستقبال، قائلين:

بمقدمكَ الميمونِ قَدْ قَدِمَ البِشرُ لأهلِ الحِمى فالحَمدُ للّهِ والشكرُ

---

(١) هو مُحَمّد بن عبد الوهاب مؤسس الحركة الوهابية المولود سنة ١١١٥هـ/ ١٧٠٣م والمُتوفى سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٢م، كانت بينه وبين الشيخ جعفر كاشف الغطاء ـ كما ينقل المؤلف ـ علاقة صداقة. ومن هنا إتُّهِمَ كاشف الغطاء بما نقله المؤلف في المتن باتهامات تناقلها بعضُ مناوئيه من أصحاب القُوى المتنازعة على النفوذ في النجف.

قصة «عِقيل» وقتل الشيخ لهم(*)

ولما أشرقَ بدرُ مُحيّاه في فلك سعده ، صدحتْ بلابلُ التهاني معلنة بشكر اللّه وحمده .

ثم أن الشيخ لمّا استوفى الراحة من جلوسه ، وقلّم أظفار تلبيسه ، بلغه أنَّ فرقةً من (النواصب) في الحلّة قد تجاهروا بسبِّ الأئمة والطعن فيهم وكانوا يعرفون بعِقيل (بكسر العين والقاف) ، فتوجّه الى الفيحاء وكان فيها بعض أولاده وأقربائه ، فبقي مدة ثم ليطلع على حقيقة الأمر ، فوجدهم كما بلغه وزيادة . وكان كلما نهاهم ووعظهم لم ينتهوا بل يزدادون غيًا وعتوًا ، حتى أنهم جعلوا يضربون الدفوف والطبول في (عاشوراء) ، وكان أعظم أعيادهم يوم العاشر من المحرّم .

فلمّا رأى الشيخ ذلك لم يطق صبرًا عليه ، فأمر مناديه فجمع له رؤساء الشيعة فقال لهم : إني عازم على قتال هؤلاء والجهاد معهم ، فماذا تقولون؟ فقالوا كلهم : نحن نقوم لك بهذا الأمر ؛ فمُرنا نمتثل ، فقال : أرى أن تهجموا عليهم ليلاً إذا جلسوا في مجالس لهوهم وضربوا طبولهم ، وتغمدون سيوفكم في رقابهم ، فإما عليكم وإما لكم ، فقالوا : سمعًا وطاعة . وخرجوا حتى إذا هجم الليل أقبلوا بأجمعهم الى الشيخ ، ومثلوا بين يديه ، وكل منهم قد استكمل لآمة حربه ، فهمّ الشيخ بأن يمضي معهم ، فأبوا وأصروا عليه وقالوا : أنت جامع شمل الدين وسلك نظام المؤمنين ، ونخشى أن يصيبك شئ فلا يبقى الأيمان ، لا خبر ولا عيان ، فأمددنا بدعائك فسنكفيك أمرهم ، ونقيك شرهم :

فأنّا كالسهام إذا أصابتْ مراميها ، فراميها أصابا

فقال : إن كان كلا ، ولا بُدَّ فامضِ معهم يا (عيسى) ، ويا (مُحمَّد) ويا (فلان) ويا

(*) نقل المؤلف هذه القصة كما سمعها ممن عاصرهم . ولم تكن الحوادث المنقولة محققة بشكلها التاريخي الصحيح ؛ كما لم تكن أسباب هذه الواقعة مذهبيّة بحتة ـ كما وردَ في النصّ ـ وإنّما كانت أوسع من ذلك .

ومن خلال النصّ المنقول أنَّ تاريخ هذه الواقعة حصل حدود عام ١٢١٢هـ / ١٧٩٨م واقترنَ بسفر الشيخ جعفر كاشف الغطاء إلى ايران ، وهي السنة التي تولّى الشاه فتح علي القاجاري الحكم فيها . كما ذكر أنّها حدثت في عهد سلمان باشا (والي بغداد) الذي تولى الحكم عام ١١٩٤هـ / ١٧٨٠م ، وتُوفي عام ١٢١٧هـ / ١٨٠٣م . إلاّ أنَّ شيئاً من هذه الحوادث لم يقع في هذه المرحلة الزمنيّة بالذات ، بل المنقول أنّها حدثت في زمن الوالي داود باشا الذي تولّى الحكم عام ١٢٣٢هـ / ١٨١٦م ، وتُوفي سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م .

ففي عهدهِ أنشقَّ أحد قواته وهو (محمد أغا الكهية) عليه وذلك سنة ١٢٤٠هـ / ١٨٢٥م ، واستولى على مدينة الحلّة بمساندة بعض العشائر المناوئة لحكم داود باشا ، وأعلن ولايته على العراق . الاَّ أنَّ انتصاره لم يَطُلْ بعدما اندحر على يد قوات داود باشا . وكانت عمدة هذه القوات منْ بني (عقيل) ، وهم قوات من البدو السُنّة .

وبعد انسحاب قوات الدولة تُركتْ فرقة من العقيليين لحماية البلدة الاّ أنَّ (الحامية) مارست نفوذها ضد الأهالي مما سبّب حركة تمرّد ضد هذه القوات أدّى إلى ضرب مقرّهم ، والفتك بهم . وقد قمع داود باشا هذا التمرد ، وأصلح سياسته في المنطقة .

(فلان) ، وجعل يخاطب أولاده ، فقاموا وتقلّدوا سيوفهم واصطفوا مع القوم . حتى إذا اشتغلت تلك الفرقة الملعونة بلهوهم وضرب طبولهم قام أنصار اللّه فودعهم الشيخ ، وعوّذهم بالتعاويذ الواردة ، ثم رجع الشيخ .

وذهب أصحابه حتى أتوا منازل (عقيل) ، فَتَسوَّروا (السطح) الذي فيه رؤساؤهم فدخلوا عليهم ، وحكّموا السيوف فيهم . وكانت كؤوس الخمر تدار بينهم فقتل منهم عشرون ، وأفلت الباقون . فدخلوا على (بيك) الحلة صارخين باكين ، ونقلوا له القصة ، فقال لهم لا طاقة لي على محاربة الشيخ ، وهو إمام العراق ، ولكن امضوا الى الوزير ، وكان يومئذ في بغداد سليمان باشا[1] والياً وهو من طائفة (الكولات) من أهالي بغداد ، فتوجهوا بعيالهم وأطفالهم .

وحدثني بغير هذا عمي العباس بن الحسن بن جعفر عمن شهد الواقعة أن الشيخ الكبير (ره) توجه الى الحلة ، وكان فيها بعض أولاده وأقربائه فنزل في دار قريبة الى (الخان) الكبير المحادد لشط الفرات ، وكان ذلك الخان كالقلعة للعسكر ، وكان عسكر الدولة من الطائفة العظيمة الكبيرة المعروفة بعقيل ، وفي ذلك الخان منهم أربعمائة ، أو خمسمائة ، وحذاؤه (خان) أصغر منه وهو بمكان القلعة اليوم ، وفيه ثلاثمائة ، أو أربعمائة . فلما انتصف الليل جلس الشيخ على جاري عادته لصلاة الليل فسمع الطبول تضرب والمزامير تُدقّ ، وقومًا تُغنّي وآخرون ترقص ، فأصغى قليلاً فسمع بعضهم في حالة الطرب يسبّ الزهراء (صلوات اللّه على أبيها وعليها) ، فلم يتحقق الشيخ الخبر تلك الليلة حتى أصبح الصباح ، فسأل الشيخ عن القوم ، وفعلهم فقيل عسكر من (عِقيل) نواصب ، وهم من أولاد الخوارج المارقين ، وهذه عادتهم أكثر الليالي أنهم إذا طربوا وضربوا وشربوا جعلوا يسبّون الزهراء (ع) وبعلها (ع) وبنيها (ع) .

فبعث الشيخ على رؤسائهم ووعظهم وحذّرهم من سخط الباري ، ووقوع العذاب بهم ، فخرجوا من عنده وهم يضحكون ويتهكمون ، ولم يزدهم ذلك إلاّ كفراً وطغياناً .

ولما صار وقتهم مضوا على عادتهم من اللهو والسبّ ، بل ازدادوا وقيعة في الأئمة (ع) ، وطعناً في الأولياء . كل ذلك والشيخ يسمع كفرهم وعتوّهم وينتظر أمرهم . فلما لم يجد منهم إلا الصعود والترقّي فيما هم فيه ، نزل من السطح ، وجمع أولاده وحفدته وألقى بينهم على الأرض عمامته ، وجعل يبكي ويقول : أتُسبُّ فاطمة ، وعليّ ،

---

(١) تولّى سليمان باشا الحكم عام ١١٩٤هـ / ١٧٨٠م ، وتُوفي عام ١٢١٧هـ /١٨٨٣م . ولم تحدث هذه الواقعة في عهده .

وأولادهما (ع) على رؤوس الأشهاد ، وفينا رمق الحياة؟! إذن ثكلتْ جعفراً وبنيه أمُّهُ ، ثم ركب بغلته ، وجعل يطوف في شوارع الحلة وهو ينادي :الجهاد الجهاد عباد اللّه . فلم يبق رجل ولا امرأة ولا صبي ولا صبية.إلاّ خرج وبيده شئ من السلاح . فلم يمض إلاّ يسير من الليل حتى انضم إليه من أهل الحلة إثنا عشر ألف فارساً غير الصبيان والأطفال .

فتقدمهم الشيخ ، وساروا خلفه والأطفال تصرخ ، والنساء تهلهل حتى جاء بهم الى الخان الكبير فوجدوا أبوابه مغلّقة والعسكر مشغول بلهوهِ ولعبه وكفره وسبّه ، وكانوا قد غلب السكر عليهم فلم يلتفتوا الى هذا كله . فأمر الشيخ بأن توضع السلالم ، فعرج الشيخ مع جماعة الى السطح وجعلوا يقرِّبون أصحابه إليه منهم واحدًا واحدًا وهو يضرب عنقه ، ويكبّر اللّه حتى أفناهم عن آخرهم . ثم أمر الشيخ أنْ تُطرحَ أجسادُهم للكلاب في الطرق والأزقّة ، وأن يخرّب (الخان) ، ويهدّم سوره ، ففعلوا ذلك كله .

يقول العم ، (أدام اللّه تأييده) ، إن الخان الى هذا الزمان خربة معروفة بالحلة ، ولعلّ هذه السنة ، أو قبلها قد عمّروه جديدًا .

ثم عرج الشيخ الى الخان المحاذي له فوجدوا أبوابه أيضًا مغلقة ، فأمر الشيخ أن يوضع النفط والنار عليها فأحرقت الأبواب ، ودخل الشيخ وأصحابه . وكان أهل ذلك الخان صحاة وقد أحسوا بنزول العذاب عليهم فكانوا مشغولين بالأستعداد ، فهجم الشيخ عليهم قبل أن يكملوا عدّتهم ، ولكن جعلوا يقاتلون أصحاب الشيخ بما قدروا عليه من التفك والسيوف والخناجر حتى قتلوا من أهل الحلة تسعة ، و(صوّبوا) تسعين ، منهم الشيخ فإنه أُصيبَ بجرحين .

ثم إن أهل الحلة تدافعوا على الخان بأجمعهم فقتلوا العسكر بأجمعه إلاّ تسعة فإنهم فرّوا أول الأمر . فما طلعت الشمس إلاّ والقوم بين صريع ومجدّل وهارب ، والشيخ يكبّر اللّه ويقدّسه وهو يقول : الحمد للّه وقعتْ أخت وقعة (النهروان) ، فقيل وكيف ذلك؟ فقال : خرجوا على الأمير (ع) تسعمائة أو سبعمائة مرقوا من الدين ، وهؤلاء قوم مارقون عددهم ذلك العدد ، وقد قتلوا أولئك من أصحاب الأمير (ع) تسعة ، وفرّ منهم تسعة ، وهؤلاء أولادهم قتلوا تسعة منّا ، وفرّ تسعة منهم ، فالحمد للّه الذي جعلنا من المتأسّين بأوليائه الصالحين .

ثم أمر الشيخ صبيحة اليوم الثاني أن تدفن أجساد ذلك المعشر اللعين ، بلا غسل ولا تكفين .

ثم إن أهل الحلة اجتمعوا عند الشيخ وقالوا له : لا نأمن أنْ يدهمنا سليمان باشا

بجنود لا قِبلَ لنا بها ، ولا نستطيع الدفاع عنك ، فلو رحلتَ لكان أولى لأنك ركن الدين ، فأَن سلمت سلم ، وإلاّ هدم ، وأما نحن فأنْ قُتلنا فتلك الشهادة العظمى ، والسعادة الكبرى ، وإن بقينا فلا تجدنا لك إلاّ ذخراً .

فقال الشيخ : نعِمَ ما نصحتم به ، وقد كان عزمي عليه . ثم بعث بأهله وأولاده جميعًا الذين في الحلة والنجف الى (الحسجة) ، وسار هو مع ثلاثة من خواصه على البصرة الى (العجم) .

وأما سليمان پاشا فجاء بجند عظيم من (عقيل) ليأخذوا ثأرهم من الشيخ وأولاده فلم يجدوه هنالك ، ولم يمكنهم قتل جميع أهل الحلة لأنهم لم يظهروا العصيان ، فجمعوا رؤساءهم ، وأرادوا قتلهم فقالوا : إن الذي قتل العسكر رجلٌ من أهل النجف جاء مع جماعة من قومه ، وقتل منا جماعة ومن العسكر جماعة ، وقد انهزم وما شهدنا إلاّ بما علمنا . ثم دفعوا الأموال والهدايا الى الوزير وكُتّابه حتى خلصوا من شره ، وأطلقهم من أسره ، ثم بنى قلاعًا وحصونًا مشيدة ، وجعل فيها ألف نفر من طائفة (عقيل) ، لأنّ عسكر الدولة كان قبل تشكيل (القرعة) منحصر في ثلاث طوائف : الينكچرية[1] ، وعقيل ، والهاتية ، وهو الملفق الذي لا يعلم له عشيرة خاصة ، وكان أكثر عسكر العراق عقيل ، وهم الى الآن كثيرون .

ثم رجع الوزير الى دار السلام ، وبقي العسكر في الحلة ، ولكنهم جعلوا يؤذون أهل الحلة ، ويأخذون أموالهم ظلمًا وعدوانًا لما حملوا لهم من الحقد بقتلهم تلك الفرقة من عشيرتهم . فما زالوا بهم على هذا حتى جعلوا يشتكون منهم الى الوزير الشرير فلا يشكيهم فالتجأوا إلى العصيان فعصوا ، وطردوا العسكر من الحلة وقُتل بعضهم . فتجهز سليمان پاشا (أو سعيد پاشا[2] أخوه أو ابن عمه) ، وجاء بالمدافع والمجانيق فقلع الحلة ، وفعل بأهلها أفعالاً عجيبة ، وبنسائهم الأمور الشنيعة ، فكانت واقعة نجيب پاشا رديفة لها . وليس الغرض بيانها لأنها مشهورة معروفة ، وفرّ فيها كثير من أهل الحلة ، ولاذوا بالشيخ موسى ، وكان قد جاء الى محله وأخذ الأمان من الوزير .

لما فتحت الحلة ، وقتل أهلها ، وجلس بها الوزير والعسكر ، أرجع الشيخ موسى المنهزمين ، وأخذ لهم الأمان من السلطان ، وأرجع إليهم أموالهم ، وجلسوا آمنين في

---

(١) الينگچري : كلمة تركية معناها العسكر الجديد .

(٢) سعيد پاشا تولّى الحكم سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م ، وقُتل سنة ١٢٣٢هـ / ١٨١٦م . ولم تقع هذه الحادثة في عهده .

مساكنهم .

سفرُهُ إلى طهران

وأما (الشيخ) الكبير فإنه لَمّا سار إلى بلاد (العجم) توجه إلى الدستور الكبير ، والوزير الخطير ، مُحَمَّد علي ميرزا بن السلطان فتح علي شاه ، فخرج لاستقباله وكان حاكماً في بعض البلدان العظيمة ، فأنزله عنده . وعرَّفه الشيخ بالكيفيَّة ، فجعل الميرزا يُراجع السلطان العثماني في ذلك الوقت حتى بعث له بأمان فيه مزيد إعظام واحترام للشيخ الكبير ، وأنْ لا يتعرَّض له بسوء من الناس أحدٌ خصوصاً الوزير ، فبعثه مُحمَّد علي ميرزا إلى وزير بغداد .

ثم توجَّه الشيخ بعده إلى دار السلام بحشمة وإعظام ، ودخل على واليها فأكرمه غاية الأكرام .

والظاهر أنَّ الشيخ لم يسافر إلى (العجم)[1] غير تلك المرة ولكن بقي في تلك الأقطار يتردد في هاتيك الأمصار ثلاث سنين ، وسعدت بتشريفه أغلب بلاد (الريّ) و(خراسان) و(أذربيجان) . وله في كُلّ بلد ومصر منها حكايات ظريفة ، ومواعظ شريفة ، أهملنا أغلبها خوف الأسهاب . وقد أتى على شئ منها في «قصص العلماء» ، ونحن نذكر بعض ما يلزم ذكره من ذلك .

فمنه : ما يقال من أن فتح علي شاه تغيّر على (الشيخ) لَمّا علم بعقده على والدته

(١) يظهر من خلال ضبط التاريخ الشعري أنَّ للشيخ جعفر كاشف الغطاء سفرتين إلى إيران :
- الأولى ، عام ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م .
- والثانية ، عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م .
وقد أرَّخ الشيخ مُحَمَّد علي الأعسم هاتين الرحلتين معاً . فقال مؤرخاً الرحلة الأولى (وبعثها إلى الشيخ جعفر عندما كان مقيما في مدينة شيراز) ، وأول القصيدة هو :

هي المحبّةُ لو شاهدتَ دفترها ... رأيتَ إسماً لأسمي قَدْ تصدَّرها
خُذها عروساً أبا (موسى) لذي مقة ... من (العراق) إلى (إيران) سيَّرها
وحين حلَّ بها ، نادى مؤرخُها ... (شيراز من وصب الأرجاسِ طهَّرها)

إمّا الرحلة الثانية فقد أرَّخها بقوله :

لو تسمعُ مذهبك العُلما ... فيما اختلفتْ لم تختلف
بَلْ ألق عصاكِ ، وقُمْ أرّخْ ... (قَدْ عادَ الشيخُ إلى النجفِ)

وكان الشيخ كاشف الغطاء قد عادَ إلى النجف عام ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م . وقد أوردَ القصائد كاملة الخاقاني في شعراء الغري ، ج١٠ ، ص١٩ ـ ٢٢ .

منقطعاً . فلما سمع بقدوم (الشيخ) أمر جنده وعسكره أن لا يعتنون به ، ولا يلتفتون إليه . وكان الشاه مع جنده في خيام ضربتْ لهم خارج البلد فجاء (الشيخ) إلى (خيم) الشاه ، وكانَ العسكر قَدْ اصطفوا صفين عن باب خيمة الشاه إلى قريب الميلين وصار ما بين الصفّين كالزقاق . فلما حلّ في أوساطهم وأحسّ بقصدهم التفتَ إلى الشمس فوجدها قَدْ زالتْ ؛ فاستقبلَ القبلة ونادى اللّه أكبر ، فألقى السلاح جميع ذلك العسكر واصطفوا خلفه للصلاة جميعاً حتى أن الشاه نادى على (قليانه) فلم يُجبْهُ أحد . فلمّا (أحرم) الشيخ سكنت الهواجس حتى كأنَّ اللّه لم يخلق نفساً ولا نفس ، فلما (بَسْمَلَ) رفع صوته بها حتى سمعه الشاه فلم يتمالك إلاّ أنْ خرج عجِلاً ووقف يصلي خلف (الشيخ) . فلما فرغ من صلاته جعل يُقلّبُ كفيه ويعتذرُ إليه عن تقاعده ذلك بأني كنتُ مشغولاً بأمر أراجعه ، فقال الشيخ له : عفا اللّه عنا وعنك .

أقول : لم يثبت لي هذا بطريق قطعي ، لا هو ، ولا أصله (أعني زواج الشيخ بوالدة الشاه) ، وإنْ كان معروفاً على الألسن . ومثلُ هذه المعرفة لا يُعتمدُ عليها بحيث يرسم معروفها في الكتب ، لكن التسامح في أمر التواريخ كالتسامح في أدلّة السُنن ، خصوصاً في فضائل العلماء الأعلام الذين هم أوصياء الأئمة عليهم السلام ، فالاعتبار مساعد على صدور ما هو أعظم من هذا ، وأمثاله بمراتب ، لأنَّ كراماتهم لا تنكر ، وفضائلهم أعلى مِنْ أنْ تُحصر .

نعم ذكر في «قصص العلماء» من كرامات الشيخ أن فتح علي شاه تغير بعض الأيام عليه لأمر ما ، فلما توجه الشيخ إلى طهران قال الشاه لوزيره أمين الدولة وكان من مخلصي الشيخ : أنا لا أمضي إلى رؤية الشيخ ولا أهنّيه بقدومه ولا أعتني به فأمرْ (عساكري) عني أن لا يأذنوا له بالدخول عليّ ، ولا يرفعوا له الحجب عني . فعزم الشيخ على مُلاقاة الشاه ، فلما قرب من (صرايه) ، ووقعَ نظرُ الجند والعسكر على أنوار مطالعه مثلوا مكتفين أنفسهم بين يديه ، فدخل إلى فناء (الصراي) فنظره الشاه من مقصورته ، فتعجّبَ غاية العجب ، وغضب على أمين الدولة أعظم الغضب ، ثم قال : لأزيدن في عدم الاعتناء به والتغافل عنه . فلما أراد الشيخ أن يصعد المرقاة التي هي طريق مقصورة الشاه قال الشيخ رافعاً صوته الجهوري ضارباً بعصاه الأرض : «يا اللّه» . فلما سمع الشاه صوته الشريف قام من مكانه عجلاً بلا اختيار ولا شعور ، فاستقبل الشيخ من أول المرقاة ثم قبّل يديه وأخذ يسعده على النهوض والصعود ، فلما قضى الشيخ وطره من المجلس قام ، وقام الشاه معه فشيّعه إلى باب (الصراي) .

فلما رجع الشاه سأله أمين الدولة وقال : قَدْ رأينا منك الساعة العجب ، فأنّك أمرتَنا بعدم الاعتناء بالشيخ فكيف آلَ الأمرُ إلى عكسه؟ فقال السلطان : لا تلمني ، فأنّي لمّا سمعتُ صوت الشيخ ، فكأنما نُفِثَ في رَوْعي أنْ لا منجى لك إلاّ به ، فقمتُ بلا شعور ولا اختيار مستجيراً بتلك الأنوار[1] ، إنتهى ترجمةً مع تغيير يسير ، في طريق التعبير .

ثم ذكرَ في مقام آخر أن والدة فتح علي شاه لمّا تشرفتْ بالعتبات العاليات[2] ، التمستْ بشُرُفات (الشيخ) ، ودخلتْ حرم داره ، وطلبت المأمن به من عذاب ذلك اليوم وحرّ ناره ، وقالت له : حيث أنّ ابني سلطان ، ليس لي من عقوبة الظلم وكثرة الذنوب أمان ، فأرجو منك أن تدعو اللّه في حقي ، ليعتق من الآثام رقّي ، ويحشرني مع سيدتي ومولاتي فاطمة الزهراء (ع)[3] .

وفيه أيضاً ما هذا نصه : (وقد أذِنَ جناب الشيخ جعفر لفتح علي شاه بالسلطنة ، وجعلهُ نائباً عنه بشرط أنْ يُعيِّن لكلِّ فوج عسكريٍّ مؤذناً ، وإماماً لصلاة الجماعة يقوم بمهمة الوعظ يوماً واحداً في كُلِّ اسبوع[4] . وقد ذكر كيفية ذلك في كتاب «الجهاد» من كتابه «كشف الغطاء») . إنتهى محل الحاجة منه[5] .

وسمعتُ من الثقات أنَّ الشاه قال للشيخ بعد أن جلس معه على سرير ملكه ، وأخذ منه الأذن في التصرف والنيابة في السلطنة : ما تشتهي في دنياك وتتمنى بنفسك؟ فقال الشيخ : وما تريد بذلك؟ فقال له : حتى يقضى لك . فقال : لا تقدر على قضائه ولا القيام بعهدته . فأقسم أن يفعلنّه ولو توقف على بذل ملكه أجمع . فقال الشيخ : نعم وكل ملكك لا يقوم به .

فتعجب الشاه وقال : يا سبحان اللّه ، وماذا يكون هذا؟ فقال الشيخ : لا تتعجب فواللّه ما بنفسي مُنْية ، ولا بآمالي حاجة سوى أن أُغني كلَّ فقير في الدنيا ، وهذا مما لا تقدر عليه أنت ولا ملكك .

وسمعتُ أيضاً كذلك أنَّ الشاه بعثَ للشيخ قبل اليوم الذي عزم فيه على المسير من

---

(١) قصص العلماء ، ص١٩٠ .

(٢) يعني بها مدينة (النجف) .

(٣) ورد في النصّ (الفارسي) أنَّ والدة فتح علي شاه قالتْ للشيخ الكبير : «إنَّ ولدي سلطان ، واني لأخشى أنْ ينالني شيءٌ منْ ظلمه ، وظلم عائلتنا للرعيّة ، فادْعُ اللّه أنْ يغفرَ ذنوبي ، ويحشرني مع الصدّيقة الكبرى» .
وقد نقل المؤلف في (المتن) نصَّ العبارة بتصرّف . قارن : قصص العلماء ، ص١٩٠ .

(٤) قصص العلماء ، ص١٩٠ .

(٥) كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغرّاء ، ص٣٩٤ .

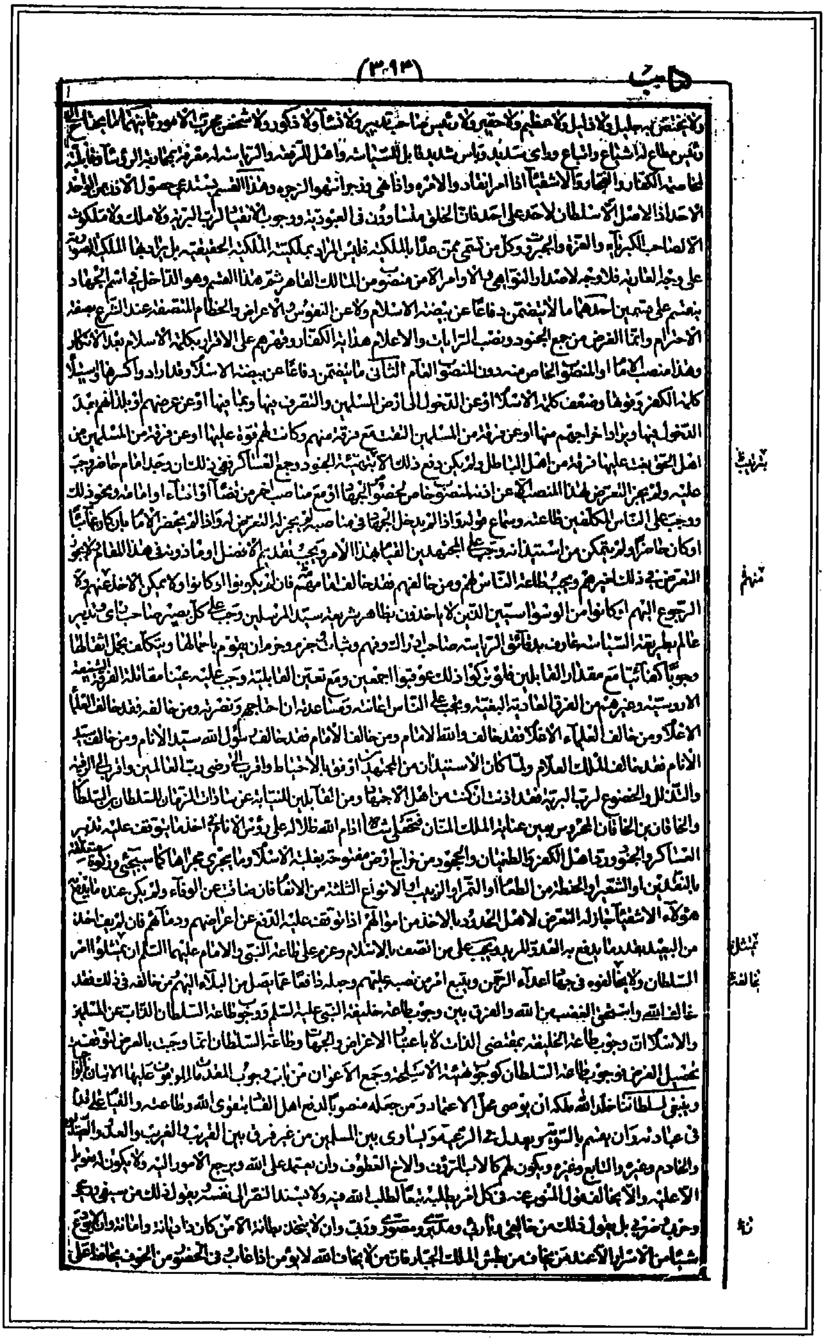

«نص تخويل الشيخ كاشف الغطاء للشاه فتح علي القاجاري»
كما ورد في كتابه «كشف الغطاء عن مبهمات الشريعة الغرّاء»

طهران بثمانية آلاف تومان من الذهب ، فجاء الرسول وألقاها بين يدي الشيخ في المجلس وكان قَدْ جاء بها عسكر الشاه المخصوص من (نواكرِه) وخدمه ، فجعل الشيخ يملأ كفيه من ذلك المال ، ويعطيهم حتى نفد أكثره فأعطى الباقي للطلبة الذين كانوا في مجلس الشيخ من أهل طهران ، ثم قال : هذا من بعض عطائنا لرفقائنا .

ذكر وقائع الشيخ مع ميرزا مُحَمّد الأخباري، وسرّ عداوتها ومنشئها

ومما اتفق له في تلك الاقطار ، مناصبة الأخباري ميرزا مُحَمّد حيث يتطلبه بالثار ، من نفيّ (الشيخ) له عن العراق ، وطرده له مع أهل الشقاق والنفاق[1] .

وبيان ذلك مع الكشف عن سره ، وذكر أصل الواقعة على سبيل الاجمال ؛ أنّ الشيخ كان شديد التعصب على جماعة الأخباريين ، خصوصاً المتأخرين ، تبعاً لأستاذه مروج الشرع ، ومُمهّد الشريعة الأغا البهبهاني . وقد كانت هذه (الفرقة) قبل ظهور (الأغا) ،

---

(١) لمّا كانت حياة الميرزا محمد الأخباري حافلة بالأحداث المثيرة ، التي ذهب هو ضحية لها ، فمن المفيد إثبات تسلسل سيرته الزمنيّة بما تيسّر استنتاجُهُ من الوقائع .

ولد الميرزا محمد الأخباري سنة ١١٧٨هـ / ١٧٦٥م في (٢١) من شهر ذي القعدة بالهند ، ثم سافر الى الحج عام ١١٩٨هـ / ١٧٨٤م وهو ابن العشرين عاماً . ثم استقرّ في مدينة النجف ومنها الى كربلاء .

بعد شهر صفر سنة ١٢١١هـ / ١٧٩٧م سافر الى ايران في عهد الشاه محمد خان القاجاري الذي قُتل في العام نفسه (٢١ من شهر ذي الحجة ١٢١١هـ) ، وتولى الحكم ابنُ أخيه علي شاه المولود سنة ١١٨٥هـ / ١٧٧١م والمتوفى في (١٩) جمادى الآخرة سنة ١٢٥٠هـ (٢٣ تشرين الأول سنة ١٨٣٤م) .

ويبدو أنّ الأعوام التالية (١٢١٦هـ ، ١٢١٧هـ ، ١٢١٨هـ) كان قد قضّاها في كربلاء حتى عام ١٢١٩هـ / ١٨٠٣م حيث سافر الى ايران ، واشتهرتْ صلته بالشاه فتح علي القاجاري بعدما تنبّأ بمقتل الجنرال الروسي إشبوختر تسيتسانوف عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م .

وفي أواخر عام ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م طُردَ الى العراق بفعلِ الحملة المُضادة التي قام بها العلماء الأصوليون ضده ، والتي تزعّمها الشيخ جعفر كاشف الغطاء الذي كان موجوداً في ايران في العام نفسه .

وفي العراق ضيّق العلماء الحملة عليه ، وأفتوا بقتله أو نفيه ، وحراجةً على الوضع العام فقد سُفّرَ الميرزا الأخباري الى ايران عام ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م . ويبدو أنّ بقاءه في ايران استمرّ حتى عام ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م حيث كان يُقيم في منطقة (الري) قرب مرقد الشاه عبد العظيم الحسني .

ويبدو من خلال سيرة الأحداث أنّه رجع الى العراق ، واستقرّ في مدينة (الكاظمية) عام ١٢٢٦هـ / ١٨١١م ، وبقي فيها حتى أواخر عام ١٢٢٧هـ / ١٨١٢م حيث سافر الى ايران .

وبعد وفاة الشيخ جعفر كاشف الغطاء سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م ، طُردَ من ايران بعد الحملة التي قام بها مناوؤه ضده ، فجاء الى العراق في عهد الوالي الشاب سعيد باشا المولود سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م ، والمقتول سنة ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م .

وبقي مقيماً في مدينة (الكاظمية) حتى مقتله عام ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م . وسيأتي التعليق على خبر مقتله .

أحوال الرجل ، واطّلع عليها رأى الحق فيه حقيقة ما قلتُ ، ولو لم يكن إلاّ حكاية (اشبوختر) لكفى شاهداً على ما ادّعيتُ .

وقد ذكر طرفاً منها في «قصص العلماء» ، وحاصلها : أن (المسقوف)[1] تحركت على الدولة المنصورة القاجارية ، في زمان فتح علي شاه فوجهوا بعض أمرائهم المشهورين بالنجدة والبأس وكان يعرف بـ (اشبوختر)[2] مع جمع من الجند ، وبعث الشاه مع جنده مَنْ يُعْتَمدُ عليهم . فلمّا إلتقى الفريقان كانت الغلبة للمسقوف . وما انكشفت الغبرة إلاّ وعسكرهم قَدْ دخل بلاد العجم المُحادّة لهم ، وفعل مثل ذلك في القابل ، وجعل كلّما تحرك على بلاد فتحها . فضاق السلطان به ذرعاً ، وأعيته الحيلة في أمره ، فجاء إليه ذلك الرجس الخبيث ، وكان يومئذ في طهران ، فقال للشاه إنْ ضمنتَ لي ما أرجوه منك التزمتُ لك بمجيء رأس ذلك الرئيس بعد أربعين يوماً ، فقال : ضامن لك فماذا تريد ، قال : ما أريد إلاّ إتلاف المجتهدين وقتلهم ومحو هذه الطريقة من العالم بهلاك أهلها أجمعين ، فأنّهم ألفوا آباءهم ضالين ، فهم على آثارهم يهرعون . فقال له : وبما تدين الناس؟ قال : أنا أحملهم على الحق الذي لا يشوبه شك . فالتزم الشاه له بذلك . ومضى الرجل فاشتغل ببعض الأوراد و(التبخيرات) التي لها تأثير ذاتي في نفسها ، وكان ذا يد طُولى بهذه الأمور خصوصاً في السحريات ، والشعبذات ، والتبخيرات التي هي عقائد حكماء الهند من الفلاسفة حيث يبخرون لنجوم خاصة بأوقات خاصة لحوائجهم ، ويزعمون أنها هي المدبّرة في العالم .

والحاصل هذه عادة كُلّ من خرج من ربقة الأيمان ، ودخل في جند الشيطان . وهذا رئيسهم ، وعنده أصولهم وتأسيسهم ، فكان هو وحصول تلك الخواص المؤثرة لديه ، كالبول الصافي وارتسام الصورة الحسنة عليه . فما مضت المدة إلاّ ورأس ذلك الرئيس بين يدي السلطان ، فخرّ ساجداً للّه شكراً .

وجاء الأخباري فطالبه بأنجاز وعده ، فاستمهله ، فلما خرج أحضر الشاه وزراءه وأمناءه ، فشاورهم فيما يريد ذلك اللعين ، من إمحاق هذا الدين ، وقتل المجتهدين . فقالوا : هذا أمر ممتنع مستحيل ، ولئن فعلته فليكثر عليك من الرعية والدول القال والقيل ، ويقع التشويش في المملكة ، ولعلّما يخلعون منك أمر السلطنة ، لأنّ هذا دين الناس القديم ، نشأت عليه

---

(١) المسقوف : من التعابير المستعملة للدلالة على الجنود (الروس) . ويبدو أنّ اشتقاقها مأخوذ من كلمة (موسكو) .

(٢) كلمة (اشبوختر) مأخوذة من كلمة Inspector الانكليزية ، وأصبحتْ عَلَماً على الجنرال الروسي تسيتسانوف Tsitsianov الذي كان رئيساً للقوات الروسيّة في (القوقاز) . وهو من أصل كُرجي ، ومن أسرة الأشراف شغل منصبه من سنة ١٢١٧هـ / ١٨٠٢م حتى مقتله عام ١٢٢٠هـ / ١٨٠٥م .

الآباء، وورّثته الأبناء. هذا وكيف تترك الدولة القاجارية دينها التي نشأت عليه، ودانت به من قديم الزمان لساحر كذاب، أو كافر مرتاب.

فدخل هذا البيان في ذهن السلطان، فقال: وما الرأي فيه؟ فقالوا: إن بقاء هذا في دولتك غير مصلحة لك إذ لعلّما تغير عليك وتكدّر فيصنع بك كما صنع بعدوّك، فالرأي أن تنفيه إلى العراق فتنجو من شرّه، وتتخلص من مكره. فقال: ذاك إليكم.

فأرسلوا على الرجل وقالوا له: أن الشاه أمر لك (بكذا) مقدار من المال، ويسألك الدعاء عند العتبات العاليات، وهو يقضي بعدك ما أردتَ، ويسعى فيما أحببت، قدر الجهد. فبهتَ الذي كفر وخاب، ونكص ذليلاً على الأعقاب. ووكلوا به نفرين من الجند حتى أوصلوه إلى حكومة العراق، وأوصوهم عن لسان الشاه بحفظه لديهم، وعدم خروجه من تلك الآفاق[1].

وقد أوردنا تلك الحكاية لتطلعك على غرضه، وما يروم من هدم الدين، وإذهاب شريعة سيد المرسلين، وكفاك بها شاهداً ودليلاً. فلنَعُدْ إلى ما كُنّا بصدده من سرّ عداوة هذا الرجس لخصوص شيخنا الأكبر.

وذلك أن الشيخ بلغ به الحال في أمرهم أنه إذا أجاز رجلاً من تلاميذه ونصبه علماً لقوم نائين، جعل أهمّ وصاياه له عدم المراودة مع هذه النبعة الخبيثة على الأطلاق، وعدم التكلم معهم والجلوس بمجالسهم إلى غير ذلك من الانقطاع عنهم، والتباغض معهم كي يذلوا، وتكسر شوكتهم عند العوام، الذين هم كالأنعام، من تَبِعة تلك الأقوام.

فممن بعثَهُ الشيخُ مجازاً منه، نائباً عنه، الحاج ميرزا ابراهيم الكلباسي[2] (رحمه اللّه) صاحب «الأشارات»، وكان من تلاميذ الشيخ المبرزين، فبعثه إلى (إصفهان)، وأوصاه بتلك الوصايا وأمثالها. فلما استقر به المقام فيها دخل في الأثناء ذلك الأخباري المذم فمكث مدة أيام ينتظر دخول العلماء إليه كما هي عادتهم في القادمين عليهم من أمثالهم. فلم يجد شيئاً من ذلك، فبلغه توعّك الكلباسي وعيادة الناس له، فدخل عليه فيمن دخل. وكان فيمن حضر المجلس حجة الأسلام السيد مُحَمَّد باقر الرشتي[3]. فلما استقر به

(١) قصص العلماء، ص١٧٩.

(٢) كان من كبار الزعماء الدينيين في مدينة إصفهان. ولد سنة ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م، وتُوفي سنة ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م. وكتابه «الأشارات» في علم الأصول أثنى عليه بعضُ المختصين من طلابه.

(٣) اشتهر بلقب حجة الاسلام عندما كانت الألقاب نادرة. ولد سنة ١١٧٥هـ/ ١٧٦٢م، وتُوفي سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م. وكانت بينه وبين زميله الكلباسي رابطة صداقة متينة وكانا الزعيمين الدينيين البارزين في مدينة (إصفهان). له مؤلفات كثيرة ذكر قسماً منها الطهراني في «الكرام البررة»، ج١، ص١٩٢.

الجلوس جعل يعاتب الشيخ على عدم مجيئه حين قدومه على مقتضى العادة ، ويقول : إنّ لي حقّاً عليك قديماً لأنّا في أيام التحصيل كنا سواء ، وفي طلب العلوم أصدقاء ، وأراك لم تُراع تلك الحرمة ولا أدّيتَ ما يُوجبُ الحق . فسكت الكلباسي وأعرض عنه ، فلما كَثُرَ لغطَه أجابه السيد الرشتي بأن الحاج قَدْ أمره (أستاده) ، ومن عليه بعد اللّه اعتماده ، برفض جماعتكم الأخباريين ، وعدم مراودتكم أجمعين ، وكان أستاذه يأمر تلاميذه ومن يحضر عليه بذلك ويقول : مَنْ خالطهم وجالسهم فهو عاق لأبوّةِ الأستاذية ، التي هي أعظم من الأبوة الحقيقية ، فلهذا ترك الحاج القدوم عليك .

فقال ذلك المبغض : أمّا الآن فقد آل الأمر إلى معارضة (الحقوق) و(العقوق) ، فلننظرْ أيُّهما المقدّم . فقال السيد الرشتي : لا إشكال في تقديم (العقوق) على (الحقوق) . واستشهد على ذلك بأخبار كثيرة فجعل الأخباري يناقش أسانيدها ، ويورد بعض الأيرادات الواهية في متنها وعربيّتها . وكان في الجدل لا يدانيه أحد ، فأثبتَ في ذلك المحفل تقديم (الحقوق) . كُلّ ذلك ، والحاج ساكتٌ عنه .

فلما خرج خشي أن يقتله أهل (إصفهان) بإشارة من رئيسيها السيد والحاج رحمهما اللّه ، فتوجه إلى (طهران) . وقد بلغه أن الشيخ قَدْ شرّف تلك الأقطار وقد امتلأ قلبه غيضاً عليه وحقداً له ، وسوّلتْ له نفسه الخبيثة إفحام الشيخ بالمجالس المعظمة بمحضر (الخوانين) و(الأمناء) ليعدلوا عن تقليده وتأييده ، ليحصل لقلبه التشفي ، ولمرضِ خبثه الشفاء .

فلمّا دخلها ازداد حقده للشيخ لمّا رأى من عظمة قدره عند عظمائها ، وكبير حظه لدى كبرائها ، مضافاً إلى عدم اعتناء أحد من أهلها به ، وعدم إلتفاتهم إلى وفوده عليهم وقربه . فصار إذا سمع بوليمة للشيخ قصدها حتى يتيسرَ له الاجتماع بخدمة الشيخ فيظهر عند ذلك بمحضر الأعيان خبث نيته .

فاتفق له كثيراً من تلك المجالس فكان يلقي في البين بعض المسائل ، وينتصب موسم الجدال . ولكن الرجل كان من قواعده في المباحثة التحول من مقام إلى مقام ، ومن علم إلى آخر ليُظهر عجز المقابل خصوصاً إذا حوصر في الجواب أو السؤال ، فأنّه يُخلّص نفسه بالفرار ، إلى غير ما هم فيه بأدنى مناسبة . وكان من عادة (الشيخ) في المباحثة التحقيق والتنقير ، وعدم الخروج من مسألة إلاّ بعد إستيفاء جميع فروعها وشُعبها . فلما تجادلا في ميدان المباحثة جعل الرجل ينتقل من مكان إلى مكان كعادته و(الشيخ) يقول : قف حتى نفرغ مما بأيدينا ، ثم ننتقل إلى ما تقوله ، فيقول الرجل : «لا بَلْ عجزتَ ووقفَ حمارُك»!

فلم يزل هذا دأبه مع الشيخ حتى أنه بعض الأحيان ينادي : عجز الرجل ، عجزَ الرجل ،

حتى ألبس على الناس الأمر ، ودلَّس الحقّ فاستمال بعضهم بزبرجه وتزويره ، وغضب (الشيخ) غضباً شديداً ، وتغيّر خوفاً من إضلال العوام تغيراً مفرطاً ، حتى قال له يوماً بحضر الشاه وأمين الدولة : قَدْ زيّنت كلامك الباطل بزينة الحق ، وأبرزتَ عقائدك المستهجنة بصورة حسنة ، فضللتَ وأضللتَ ، وتبعكَ بعضٌ ممن ظنَّك على هدى ، وأنت منه ومن الدين سدى ، ولئن بقيتَ على هذا فليذهبن الدين ، وتنمحق الشريعة ، ولا حاسمٌ لهذه المشاجرة إلاّ (المباهلة) ، فلْيُعيِّن (الشاه) لنا يوماً نتباهل فيه ونرى الحق لمن ، وعلى مَنْ ، والفلج ممن وفي مَنْ ، وإلاّ فإنَّك زيادة على ضلالك في نفسك قَدْ أضللت كثيراً من الناس فالواجب عليّ ردعك وزجرك ، وإنقاذ الناس من غوايتك ، وتبصيرهم من عمايتك ، وحيث أن لا قادر عليّ وعليك ، ولا عليم بأمري وأمرك إلاّ علاّم الغيوب ، فاللازم علينا التحاكم إليه فهو أحكم الحاكمين .

قصة مباهلة الشيخ مع ميرزا محمد الأخباري

فاستحسن الحاضرون كلام (الشيخ) وقالوا للأخباري : إنْ كان الحق معك فأجب الشيخ إلى ما يقول لتنقطع المشاجرة ، ويمتاز الخبيث من الطيب ، «ليهلِكَ مَنْ هلك عن بينة ويحيى من حيَّ عن بينة»[1] .

فأجاب إلى ذلكَ وقبل ، وعيّنوا للخروج إلى الصحراء اليومَ المستقبل ؛ فجمعَ الوزير بأمر السلطان أركان الدولة وذكر لهم الواقعة ، وأمره بالخروج ليكون يوماً مشهوداً . فخرج السلطان والوزراء وجميع الأعيان وضربوا الأخبية والخيام خارج البلد ، ولم يتخلف منهم أحد .

فلما كانت فريضة الظهر أو الصبح ، خرج الشيخ من خبائه ، متعمماً على هيئة عمائم الملائكة النازلين يوم بدر ، وقد أرخى حنكاً ، وأسدل الآخر ، والتفَّ ببُردة يمانية ، وتأزّر بأخرى ، وفي رجليه نعلان شراكهما ليف ، وفي يمينه كتاب اللّه العزيز ، وفي يسارة مسبحة حسينية وهو يهلل ويكبر ، حتى وقف قبال القبلة فرفع صوته بالتكبير ، حتى خشع قلب كُلّ جبار له ، وصغر قدر كُلّ كبير . ثم تجمع خلفه من الصفوف ، ما يزيد على الألوف ، فصلّى بهم جماعة .

وماكان إلاّ ساعة ، حتى خرج (المُذم) متعمماً بعمامة صغيرة هندية على هيئة العمائم (الكابُلية) ، رجوعاً بذلك إلى أصله ، لكنها مع صغر حجمها طويلة كما هو اليوم دأب الأفغانيين ، فهي على هيئة غريبة كأنها رؤوس الشياطين . وقد تحلل بحُلل الماهود ، ولفّ

---

(١) سورة الأنفال ٤٢/٨ .

رقبته ببعض الشُّول ، وشدّ على وسطه البنود ، كما هي اليوم عادة النصارى واليهود ، وبكفه قضيب خيزران ، وهو يلعب به ويختال عجباً بنفسه كالنشوان . فوقف للجماعة هو وصحبه الغاوون ، وجنود إبليس أجمعون[1] .

فلما رأى من الشيخ ما رآه ، من الخضوع والخشوع علم مَنْ المُحق الأوّاه ، فخشيَ نزول العذاب عليه ، فيكون قَدْ بحث على حتفه بيديه ، فعزم على الهزيمة والفرار ، وارتكاب العار من النار . فخفف من صلاته حتى فرغ قبل الشيخ ودخل تلك البلد المعظمة ، هو وصحبه وهم أذلّ من قوم الأمة ، ولم يقف للمباهلة ، ودُحِضت حجته الباطلة ، ورجع الحق مستقلاً به أهله وعرف طالبه ، وفشل الباطل وراكبه . كذا رواها في «قصص العلماء» مجملاً[2] .

وبهذا التفصيل سمعتُها من كثير .

وحدثني كثيرٌ ممن أعتمد عليه عن بعض فحول العلماء ممن هو في عصرنا ، وعن غيرهم من السابقين ، (رحمهم اللّه أجمعين) ، أن الشاه وجنده والشيخ والأخباري لمّا خرجوا إلى الصحراء ونزلوا ضربوا أخبيتهم وخيامهم ، جنّهم الليل فاجتمعوا في خيمة الشاه ، ووقع القرار على أن تقع (المباهلة) بعد فريضة الفجر فتفرق الجماعة ولم يبق في خيمة الشاه إلاّ هو والوزير الكبير .

أمّا أمين الدولة ، وأبوه حسين ، (وكلاهما كانا من مخلصي الشيخ) ، وكان قَدْ أخذ الوزير القلق والأرق والأضطراب والخوف من وقوع هذا الأمر لمّا علم من سحر ذلك الفاجر وشعبذته ، فخشي أن يسحر أعين الناس بما ظاهره الغَلَبة على الشيخ فيتضعضع ركن الملة والدين بالسحر المُبين . فلم يزل يفكر في نفسه بطلب الحيلة في تدبير الأمر حتى عزم على نقض ما أبرم من قضية المباهلة خوفاًمن تزويرات الرجل الباطلة ، وبقي يتأمل في الطريق إلى ذلك . وخشيَ أن ينام الشاه ويصبح الصباح ويقع المحذور فأخذ يلهيه بذكر سياسات المملكة وتدبيرها في بعض أمورها حتى انتصف الليل وهجعت العيون ، وهدأت الهواجس وركدت الأوهام والظنون . فجرَّ الوزير الكلام إلى كثرة الجند والعسكر والقوة والشوكة لعلمه أن السلطان لا يسهره ويؤنسه إلاّ مثل هذه الأمور حتى قال : الحمد للّه بهمة مولانا الملك قَدْ اشتد بأس المملكة وكثر الجند وانتشرت الرعية . ومما يدل على ذلك أن الخارجين معنا من طهران ليس إلاّ ربع من فيها ، وها هم لا يُحصَون ، فأنْ شئتَ أن تصدّق ذلك فقم بنا

---

(١) يُلاحظ في وصف هيأة الملابس العامة أنّ المؤلف أراد إضفاء القدسيّة على الشيخ كاشف الغطاء ، وسلخها عن الميرزا الأخباري ، ولم يرد شيء من هذا الوصف في (قصص العلماء) .

(٢) قصص العلماء ، ص١٧٨ .

ننظرهم ونتفرج مع ذلك على ترتيب العساكر وكيفية منامهم . فرغب وقام الوزير وبيده المصباح ، وجعل يمشي بالشاه بين الخيم ، فرأوا خيمة صغيرة محقَّرة نائبة عن خيم الناس ، فقال الوزير : دعنا نغض ونرَ أمر هذه الخيمة ومن فيها . حتى إذا وصلوا قريباً منها سمعوا بكاءً ونحيباً وشكوى محب إلى حبيب ، فتأملوا وإذا بالشيخ واضعاً خده على التراب وهو يتململ على الأرض تململ السليم ، ويأنُّ أنين الفاقد كفيله والحميم ، ويناجي ربه مناجاة الحزين الواله ، ويتوسل بالنبي (ص) وآله (ع) . فوقفوا هنيئة حتى فرغ من أطايب مناجاته ، وقام إلى تكميل صلاته ، انصرفوا وقد أخذتهم حالة الخشوع والخضوع وانسكبت على غير اختيارمنهم الدموع ، وصاروا يتذاكرون بتلك الحالة العجيبة ، ويتحدثون أمر هاتيك الأمور الغريبة . فحمد الله الوزير في نفسه وشكره ، على حُسن ذلك الأتفاق الذي لم يكن أمّله ولا تصوّره ، وقال هذا نعم المفتاح لما أريد ، ولكن لا يتم إلاّ برؤيا حالة ذلك الجبار العنيد ؛ فجعل يُساير الشاه حتى أتى به إلى خيمة ذلك (المُذمم) وهما في حديث الشيخ وتقاه ، فقال الوزير : أيها الملك هذا خباء ميرزا مُحَمَّد فلننظر بماذا هو مشغول وكيف مثواه ، حتى نميّز نحن أولاً بينه وبين ذلك الشيخ الأوّاه . فنظروا في الخيمة من بين الستائر وإذا بولد أمرد ، ورجلا ميرزا مُحَمَّد في حضن الولد ، وهو يمرّ عنهما والرجل نائم . فازداد تعجب الشاه واستأنس الوزير بذلك ، فقال : يا أيها الملك ، أنت أجلّ من أن يخفى عليك هذا الأمر ويشتبه ، فإن كُنَّا نائمين فلننتبه ، هذه آيات الله ظاهرة ، وحجج الحق باهرة ، وبينات الصدق قاهرة ، ونهج الهدى مستقيم ، وطود الباطل رميم ، فعلى ما وبما المباهلة وهي لا تكون إلاّ لأمر مشكل قد أوقع في الحيرة ، وعَميَ لعدم التميز فيه أولو البصيرة ، وهذا الأمر واضح المناهج بين المسالك ، ونحن لو تأملنا في عقولنا وراجعنا إدراكنا عرفنا أي هاتين الحالتين سيرة الأنبياء والأولياء ، وأيُّهما حلية الأشقياء . فقال الشاه : هذا برهان قاطع ودليل ساطع ، على حقيقة الواقع . فقال له الوزير : فَعَلامَ جعجعت بهذا الرجل وهو شيخ كبير ، وأزعجته مع هذا الجم الغفير ، فإن تبين لديك الحق فمُرْ مناديك ينادي في الناس أن الحق تبين عند الشاه لِمَنْ ، والفَلجُ في مَنْ ، فليرجع كُلّ منكم إلى محله .

فما تجلَّت الشمس للعيون ، حتى انجلت عن تلك الساحة كُلّ هاتيك الطعون . وأرسل الشاه إلى ذلك الأخباري أن يرتد عن غيّه من معارضة الشيخ ومناصبته ، وإلاّ أخذ بأمّ ناصيته . فبقي الشيخ ثمّ أياماً قلائل ، ثم ارتحل إلى زيارة الأمام الرضا (ع) فأقام بها قريب الحول ، ثم رجع من قابل .

وأمّا عدُوهُ الخبيث فاغتنم بعده الفرصة في الأهتداء ببعض سلفه الماضين من الأخباريين الغاوين ، في الطعن على علماءالدين الراشدين ، وتضليل طريقة المجتهدين .

وحيث أن الكوز ينضح بما فيه ، والذي خبث لا يخرج إلاّ الخبيث من فيه ، جعل يرمي العلماء بالخصال الشنيعة ، وينسبهم إلى الأمور الوضيعة ، ويقبّح محاسن مآثرهم في الملة وأياديهم ، ويجعل معائبه ومعائب أصحابه فيهم :

فقلتُ لجاعلٍ عيبٍ بهم   أضرَّك وردٌ ذكيْ يا (جُعَلْ)!

وهذا دأب اللّه من قديم الزمان في أنبيائه وأوليائه ، فأنّه جلّ وعلا لم يزل يمتحن ويبتلي كُلّ واحد منهم بعدو من أعدائه . ولو شئت أن أذكر لك حكايات الأمم السابقة واللاحقة ووقيعة العمى بالهدى ، والضلال بالحق ، وامتحان أولي الرشاد بأولي الفساد لطال المقام ، واستلزم الخروج عن المرام . ولكن الأنسب هنا ذكر نبذة يسيرة من تشنيع إمامي هذه الطائفة على علماء الدين الذي بهم اقتدى هذا الكافر المرتاب في توهين حجج اللّه النواب ، وليرَ الناظرُ هذا المقام أنه كان لهذا الخبيث اقتداء بقومه الغاوين ، فكذا للشيخ إسوة بالسلف الصالحين ، من حجج اللّه الماضين .

فمن بعض ذلك ما يقوله أخوه الخائن اللعين ، المدعو بمُحَمَّد أمين[1] ، في حق حجج اللّه الأجلّة ، ورؤساء الدين والملّة ، وأركان الشريعة ، ومؤسسي مذهب الشيعة ، الشيخين المفيد[2] ، والطوسي[3] (قدس سرّهما القدوس) ، وغيرهما من العلماء الأعلام ، الذين هم أول من اجتهد في الأحكام ، كالعُماني[4] ، وابن الجنيد[5] والعَلمين ؛ علم الهدى[6] ، والعلامة[7] ، رفع اللّه لكل منهما مقامه .

---

(١) محمد أمين الأسترابادي مؤسس الحركة الأخبارية ، تُوفي سنة ١٠٣٦هـ / ١٦٢٧م . له مؤلفات عديدة اشتهر من بينها مؤلفه الذي هاجم فيه المجتهدين وهو بعنوان «الفوائد المدنيّة للردّ على الأصوليّة» .

(٢) الشيخ المفيد هو مُحَمَّد بن النعمان المُتوفى سنة ٤١٣هـ / ١٠٢٢م ، وكان من كبار متكلمي الشيعة في العصر البويهي . وقد بدأ تشكيل المؤسسة الدينية الأثنا عشرية على يديه ، واستمرت على هيأتها المتوارثة حتى الآن .

(٣) مرَّ التعريف بشيخ الطائفة الطوسي ، ووفاته كانت سنة ٤٦٠هـ / ١٠٦٨م .

(٤) العُماني هو الحسن بن علي بن أبي عقيل الذي كان معاصراً للشيخ الكُليني المُتوفّى سنة ٣٢٨هـ / ٩٤١م أو سنة ٣٢٩هـ / ٩٤٢م . وهو أول مَنْ اعتمد على الأجتهاد في استنباط الأحكام الشرعية من أدلتها النقلية هو وابن الجُنيد . وقد إنتُقدا مِنْ قِبل بعض الفقهاء الذين جاؤوا بعدهما ، وعلى رأسهم الشيخ المفيد ؛ إلاّ أنَّ أعتبارهما إستُعيدَ على يد المحققَ الحلّي في القرن السابع الهجري / الحادي عشر الميلادي .

(٥) مُحَمَّد بن أحمد ابن الجُنيد الأسكافي . تُوفي سنة ٣٨١هـ / ٩٩١م . وقد إتُّهم هو والعُماني ابن أبي عقيل باستعمال مصادر التشريع السُنّية كالأخذ بالرأي ، والقياس في الأستنباط الشرعي .

(٦) علي بن الحُسين الموسوي المُتوفى عام ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م ، المُلقب بعلم الهُدى . كان والده الحسين الطاهر من كبار المتنفذين في البلاط البويهي ، وقد شغل الشريف المرتضى نقابة الطالبيين ، وأمارة الحج ، وديوان المظالم . وتُعتبر مؤلفاته المصادر الأولى التي أسستْ التفكير العقلي الاثنا عشري .

(٧) الحسن بن يوسف ابن المطهّر الحلّي المولود سنة ٦٤٨هـ / ١٢٥٠م ، والمُتوفى سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م ، وهو ابن أخت المحقق الحلي ، وقد لعب دوراً أساسياً في نشر المذهب الشيعي تحت ظل المملكة المغولية ، كما كان موجّهاً لأثنين من الحكام المغول وهما غازان ، وأولجايتو المعروف بخُدابندة الذي أعلن المذهب الأثنا عشري مذهباً رسمياً

وأنا أقسم باللّه قسم صدق ، ويمين برّ أن دين الحق لولا هؤلاء الأئمة ، لَمَا عرفه هذا الضالّ ولا غيره من الأمة ، وما كان جزاؤهم من هذا المدعي له إلاّ قوله في تضاعيف كتابه المسمى (بالفوائد المدنية) من كلام طويل ملخصه : إنّ أول من غفل عن طريقة أصحاب الأئمة (ع) ، واعتمد على فن الكلام وأصول الفقه المبنيّين على الأفكار العقلية المتداولة بين العامة ابن الجنيد وابن عقيل والمفيد ، واقتدى به أصحابه كالمرتضى ، وشاعت بين المتأخرين قرناً فقرناً حتى وصلت النوبة إلى (العلامة) فالتزم القواعد الأصولية من العامة ، ثم تبعه (الشهيدان)[1] ، والشيخ علي[2]» .

وهذا سهل بالنسبة إلى ما قاله بعد نقل كلام الشيخ البهائي من (مشرق الشمسين) أنه ذهب أكثر علمائنا إلى أن العدل الواحد الأمامي كاف في تزكية الراوي ، وأنه لا يحتاج إلى عدلين كما في الشهادة ، وذهب القليل منهم إلى خلافه . يقول هو : وأقول أنا أولاً في قوله : «ذهب أكثر علمائنا» تسامحٌ وغفلة وذلك لأنّ الأخباريين من أصحابنا هم أكثر علمائنا وعمدتهم ، وهم لا يعتمدون إلاّ على حديث قطعوا به وبوروده . إلى أن قال بعد كلام طويل : وبالجملة ما نسبه إلى أكثر علمائنا إنما ذهب إليه العلامة الحلّي وجمع من مقلديه ، وهم جماعة كالشهيدين ، والشيخ عليّ ، ولم تكن لهم بضاعة في العلوم ، ولم يكونوا عارفين بمعاني الأحاديث الواردة في الأصولين من أصحاب العصمة ، وغلبتْ على أنفسهم الألفة بما قرأوه في كتب العامة ، ولم يكن لهم نظر دقيق ، فاستحسنوا المألوف لموافقته كلام العامة .

ولم يزل يخبط في عشوائه ، ويجري في غلوائه ، بهذا وأمثاله في حق آية اللّه وإعجوبة

للبلاد . وهو من تلامذة نصير الدين الطوسي في الفلسفة والكلام والجدل والرياضيات ، والذي كان من المتنفذين في الدولة المغولية ، ومن أصحاب المراكز الرسمية والعلمية . وكان فقيه الدولة المملوكية ابن تيميّة الحرّاني قدْ ردّ على بعض مؤلفاته .

(١) الشهيدان هو لقب إثنين من كبار فقهاء الأمامية أولهما هو الشيخ مُحَمَّد بن مكّي العاملي المعروف بالشهيد الأول حيث قُتِلَ على يد مماليك الشام في سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م .

أمّا الشهيد الثاني فهو زين الدين الجُبعي المقتول غدراً عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٨م على يد العثمانيين . كانت له رحلات علمية إلى مصر وسوريا والحجاز والعراق ، كما سافر إلى عاصمة الدولة العثمانية (اسطنبول) في مهمة سياسية . وقد عيَّنتهُ الأدارة العثمانية مدرساً في إحدى المدارس المهمة وهي المدرسة النورية في مدينة (بعلبك) حيث بقي فيها سنين عديدة . وقد اشتهر في شرحه لكتاب «اللُمعة الدمشقيّة» الفقهي لسلفه الشهيد الأول المقتول على يد المماليك عام ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م ، وهو مطبوع في عشر مجلدات بعنوان «الروضة البهيّة في شرح اللُمعة الدمشقيّة» ، ويُعتبر حتى اليوم من الكتب الدراسية المنهجية في المراكز الدينية .

(٢) علي بن الحسن بن عبد العالي الكَرَكي المُلقّب بالمحقق الثاني المُتوفى سنة ٩٤٠هـ/ ١٥٣٣م . من أشهر العلماء الأمامية في أيام تأسيس الدولة الصفوية . وقد تولّى منصب (شيخ الاسلام) في عهد إسماعيل الصفوي (٩٠٥ـ ٩٣٠هـ/ ١٥٠٠ ـ ١٥٢٤م) ، وولده طهماسب (٩٣٠ ـ ٩٨٤هـ/ ١٥٢٤ ـ ١٥٧٦م) . وأشهر مؤلفاته كتابه «جامع المقاصد» في الفقه ، ورسائله المطبوعة في مجلدين .

الدوران ، الذي يقصر عن أن يحيط ببعض صفاته نطاقُ البيان .

على أن هذا سهل أيضاً مما هو مشهور عنه من قوله : ما هدم الدين إلاّ مرتين ، يوم السقيفة ، ويوم مولدي المفيد والعلامة .

وليتَ شعري كيف يتكلم بهذا مَنْ شمَّ أدنى رائحة من الأيمان على مثل المفيد الذي قال في رثائه صاحب العصر والزمان من الأبيات التي أولها :

للّه يومكَ في الأنام فأنّهُ — يومٌ على آلِ النبيِّ عظيمُ

مضافاً إلى التوقيعات الخارجة في حقه التي تدل عناوينها على غاية عظيم المنزلة ، فمنها قوله (ع) : «إلى الأخ السديد ، والولي الرشيد ، والشيخ المفيد ، أبي عبد الله مُحَمَّد بين مُحَمَّد الخ» ومنها : «من عبد اللّه المرابط في سبيله ، إلى ملهم الحق ودليله ، أدام الله إعزازهُ ، سلام عليك أيها الناصر للحق ، الداعي إلى كلمة الصدق» . إلى غير ذلك من أمثال هذه الكلمات .

فانظر كيف يُقوّي الحجة (ع) أمر المفيد ويؤيد ، ويأتي هذا المدعي ولاءه ، والاقتصار على ما ورد عنه فينقض ويبدد .

وأنا لا تختلج بي الأوهام والظنون ، بأن هذه الأمور قَدْ خفيت على هذا المبغض الخؤون ، بَلْ أظن وأستغفر اللّه أن العناد والشقاق مع من قال تلك الكلمات والعياذ باللّه ، وإلا فليس الطعن في علماء الدين ، من شرائط الأخباريين . كيف وكثير منهم معدودون عند أصحابنا من العلماء المرضيين ، كالصدوق[1] وقومه من المتقدمين ، والحُرّ العاملي[2] ، والشيخ يوسف البحراني ، والسيد صدر الدين القمّي[3] ، من المتأخرين ، فقد كانوا هؤلاء إذا ذُكِرَ أحدُ أولئك العلماء الأعلام بالغوا بالثناء عليه والأعظام .

ولذا ترى (هذا) ، و(الميرزا) المذم السالك في طريقته الباطلة ؛ الذين ما عرفا الحق طرفة عين ، غير مرضيين عند الطرفين . كيف وقد قال الشيخ يوسف في (لؤلؤته) عند ذكر هذا الخائن ما نصُّه : «وهو أول من فتح باب الطعن على المجتهدين ، بَلْ رُبّما نسبهم إلى تخريب الدين ، وما

(١) هو مُحَمَّد بن علي بن الحسين بن بابويه القُمي المعروف بالصَدُوق ، ولد بمدينة قم سنة ٣٠٦هـ/ ٩١٨م ، وهاجر إلى بغداد سنة ٣٥٥هـ/ ٩٦٦م ، وألّف في علم الحديث كتابه «مَنْ لا يحضرُهُ الفقيه» الذي يُعدُّ أحد الكتب الأربعة في الحديث عند الأمامية . تُوفي سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م في (الريّ) بأيران .

(٢) هو محمد بن الحسن الشهير بالحُرّ العاملي المُتوفى سنة ١١٠٤هـ/ ١٦٩٣م . وكتابه «وسائل الشيعة إلى تحصيل مسائل الشريعة» (المطبوع عام ١٩٦٣م في عشرين مجلداً) يُعدُّ من مصادر الحديث الثانوية عند الأمامية .

(٣) صدر الدين مُحَمَّد ابن السيد باقر القُمّي ، تُوفيَ حدود سنة ١١٦٦هـ/ ١١٧٤م .

أحسن ولا أجاد، ولا وافق الصواب والسداد، لِما قَدْ ترتّب على ذلك من عظيم الفساد»[1].

وبمثل هذا أو أزيد منه تكلّم في كتابيه «الحدائق»[2]، و«الدرر النجفية»[3]. وأنت ترى الفرق بين كلامه وكلام مُحَمَّد أمين، ورديفه اللعين، وتميز بعقلك من المجترئ منهما والبريء، وتعرف مَنْ المقتصد وغير المقتصد، والمتعرض للتفرّض، ومَنِ الصافي العقيدة والخالي الذهن، من المتحمل الحقد على الدين وأهله، والممتلئ فؤاده بالضغن. وإلا فكلاهما إخباريان، فما الداعي لاختصاص هؤلاء بإظهار العداوة للمجتهدين والشنآن.

ولعلّكَ أيُّها الناظر بهذه الرسالة في هذا المقام، تفوّق إليّ سهام التأنيب والملام، بسبب بعض الكلمات التي أعبّر عن هذين الرجلين الملعونين من طردهما، ولعنهما، ونسبة الباطل إليهما، وتقول هما إماميان مواليان، فلا ينبغي في حقهما هذا البيان والعنوان. ولكنك بملاحظة ما ذكره الشيخ يوسف البحراني - الذي هو منهم - تعذرُني في ذلك ولا تؤنبُني.

وأمّا لو ذكرتُ لك ما ذكره الشيخ علي[4] بن الشيخ حسن بن الشهيد رحمهم اللّه في كتابه المُسمّى بـ «السهام المارقة، في ردّ أولئك الزنادقة»، لقلتَ لي أحسنت وأجدت، ولقد مدحتهم لمّا أبنت وأفدت. وأنا أذكر لك بعض كلماته لا لذلك، بَلْ لتطلع على نُبذة من أحوال الرجل وتصدقني فيما نسبتُ له من الطعن في (حُجج) اللّه.

قال رحمه اللّه بعد كلام طويل في تضليل الغزالي[5]، ومُحيي الدين[6]، وإفساد طريقة هؤلاء المبتدعين من المتصوفين، ويتخلص منه إلى مقصده ومرامه من إثبات ضلالة (الفيض)[7] وأتباعه على تلك الطريقة الفاسدة ومقالتهم جميعاً بوحدة الوجود المستلزمة

---

(١) البحراني، لؤلؤة البحرين في الأجازة لقرتي العين، ص١١٨.

(٢) الحدائق الناضرة، جـ١، ص١٧٠.

(٣) الدرر النجفيّة، ص٨٧، وما بعدها.

(٤) الشيخ علي بن الشيخ حسن من كبار علماء زمانه، ولم أقف على سنة وفاته في المصادر التي ذكرتْهُ كروضات الجنّات، ج٢، ص٣٠٢، وطبقات أعلام الشيعة، ج٥، ص٣٩٢، وتكملة أمل الآمل، ص٢٨٦.

(٥) الغزالي هو أبو حامد مُحَمَّد بن مُحَمَّد تُوفي سنة ٥٠٥هـ/ ١١١١م. فقيه وفيلسوف إشراقي لُقّبَ بـ (حُجّة الاسلام)، ولد في طوس وتنقّل بين بغداد ودمشق والقدس والقاهرة ومكة والمدينة. اشتهرتْ مؤلفاتُهُ إحياء علوم الدين، المنقذ من الضلال، تهافت الفلاسفة، وغيرها إشتهاراً واسعاً.

(٦) محيي الدين ابن عربي المُلقّب بالشيخ الأكبر، مُحَمَّد بن علي الطائي صاحب كتاب «الفتوحات المكّية»، من كبار فلاسفة الاسلام، تُوفي سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م، وقبرُهُ بالشام.

(٧) الفيض هو مُحَمَّد بن المرتضى المعروف بالمولى محسن الكاشاني. له مؤلفات شهيرة منها «الوافي» في علم الحديث، و«المحجة البيضاء في تهذيب الأحياء»، تُوفي سنة ١٠٩١هـ/ ١٦٨٠م.

لتعدد المعبود، أو إتحاد الموجود، وغير ذلك من المفاسد، والمقالات الكواسد، التي هي إنكار أنه تعالى واحد. حتى قال (قُدِّسَ سرّه): وقد قلّد، (يعني الفيض)، في بعض تقليده بذلك رجلاً جاهلاً بمراد العلماء مغروراً لا اطلاع له على علوم الشريعة وضوابطها، ولا خدم أهلها وحصّل مما عندهم، بَلْ كان قصده الشهرة، وتعريف نفسه بمُعاداة أولياء اللّه لما اشتهر من قولهم «إذا أردتَ أن تشتهر فَقَعْ في مَنْ هو أكبر منك وعادِه»، وهذا الرجل اسمه مُحَمَّد أمين، من تسمية الشئ باسم ضدّه، وكان في مكة وقت خلوها من الفضلاء:

وإذا ما خلا الجبانُ بأرضٍ   طلبَ الطعنَ وحدَهُ والنزالا

وقد كان عنده بعض المعرفة فيما لا يُسمن ولا يُغني من جوع، وكان يحضر أوقاتاً فيها درس ميرزا مُحَمَّد الأسترابادي[1]، ولم تطل مدة الرجل. فلما انتقل إلى ربه تصدّى لقصد الشهرة عارياً من العلوم التي بها يشتهر المجاورون؛ فشرع هناك بالتنقيح والتدليس، وأخذ مسائل من كلامهم لم يفهم مغزاها، ولا عنده خبرها، وضمَّ إلى ذلك ادّعاء منامات كثيرة وتخيلات إن صح شئ منها فمنشؤوه ماكان يستعمله من (الأفيون) ونحوه، وموّه على ضعيفي العقول وقليلي البضاعة أشياء سَحَرهم بها، وهي أوهى من بيت العنكبوت، ولم يوافق فيما ادعاه، ويظهر ذلك لمن عرفه حق المعرفة. ثم ادّعى العصمة لنفسه فيما يقع الخطأ فيه عادة في آخر رسالته، ونحو ذلك من الخرافات. فتبعه كُلّ مريض القلب، مقعد الهمة، أكمه البصيرة، قريح القريحة، مغترّ بخضراء الدِمن، متخيّل بذيء ورم سمن، ضعيف النقل، صحفيٌّ التحصيل، مائل إلى الراحة والتقبيح، قاصد الطفرة إلى سمو الرتبة من غير تعب ومشقة:

تُريدين إدراكَ المعالي رخيصةً   ولا بُدَّ دونَ الشّهدِ من إبرِ النحلِ

مكتّف بما يسمى من كتب الحديث، مما اشتمل على التحريف والتصحيف، لعدم إعتبار النقل المقرر، والأخذ عن أهله المحرّر، وخيَّلَ له حُبُّ الرئاسة بذلك القدر السخيف معرفةَ مراد الأمام (ع) كمتبوعه، وإنْ كان لا يعرف سوى سواد الكتاب من بياضه، وإذا سُئِلَ عن شئ فتح الكتاب وأجاب كلما يخطر بفكره لئلا ينسب إلى عدم المعرفة، وموّه على العوام، أني ألقي إليكم مراد الأمام (ع)، والمجتهدون يلقون إليكم من مخترعاتهم. فصار الناس بمتابعته كإبل مائة لا ترى فيها راحلة، وعز التوفيق والاخلاص لعدم أخذ العلم من وجوهه، وكثر السواد، وقلّ البياض وتقاعدت الهمم ميلاً إلى الراحة وانقبض العلم:

---

(١) الميرزا مُحَمَّد بن علي الأسترابادي، كان من كبار المُحدثين الرجاليين، وقد كتبَ ثلاثة كتُب رجاليّة. تُوفي سنة ١٠٢٨هـ/١٦١٨م.

كأنْ لم يكنْ بينَ الحُجونِ إلى الصفا أنيسٌ ولـم يَسـمـرْ بمكـةَ سـامـرُ

***

وكــــأنّه برق تألّقَ بالحِــــمى ثـم انثنـى وكـــأنّـهُ لـم يلمـعِ

وقد تفحّصتُ عن حقيقة هذا الرجل ، وأحواله ممن رآه وظهر ما لفّقه أنه ليس بشئ يُعبأ به مع أني لمّا سمعتُ ببعض تمويهاته حصل لي أدنى ريب فلمّا تفحّصتُ عنه ، وطالعتُ (رسالته) ظهر لي تدليسه ، وقصور يده وغواية مطلبه . ولتتمة الكلام معه والردّ عليه مقام آخر ، وإن كان الأنسب السكوت عنه من قبيل : «رائحة الماء المتعفن بتحريكه يزيد» ، ولكن رأيتُ شياع ذلك عند العوام كشياع غيره ممن يضاهيه ، وهذا تنبيهٌ للناقد البصير لئلا يغترّ به . إلى أن قال (رحمه الله) : وقد جعل علماء الأمامية ـ خصوصاً العرب منهم ـ ضالين مُضلين مشركين استحبوا العمى على الهُدى وهم عارفون أنه لأجل حب الرئاسة وجعل الشيخ المفيدُ أول مبتدع ، ومخرّب للدين . وذكر في حواشيه على أصول الكافي أن المشرك بمعنى أنْ يقول «أنّ اللّه له شريك» لم يوجد أصلاً ، وأن كُلّ ما ورد من ذمّ المشركين ، فهو متوجه إلى المجتهدين . والرجل لم يكن عنده من متاعهم وبضاعتهم ما يحصل به شهرة فسلك هذا السبيل ، وفتح باب الطعن والتشنيع والتكفير ، فربح من في قلوبهم مرض زادهم اللّه مرضاً . ولما كان (زمزمٌ) في مكة المشرفة وسَمعَ بمثل : «البايل في زمزم» أراد أن يفعل ما يُضاهيه . ولنمسك بعنان القلم عنه إحالة على ما أوضحته من حاله في رسالة مفردة .

والمقصود هنا ذكر متابعة مَنْ قلّده[1] في ذلك ، كما قلد غيره ، وزاد في الطنبور نغمة بتقليده الغزالي ، وصرف عمره في تتبع آثاره الشنيعة ، ومن جملتها تشنيعه في (الأحياء) وغيره على علماء الشريعة . وقد سلك سبيله المظلم وترك الاقتداء بمن يقتدى بهم ، ومن لم يصدّق فعليه بمطالعة رسائله فأني رأيتُها بعدما أرسلها إليّ ليهديني بها عن طريق الصواب ، فظهر لي منها العجب العجاب وكلامُها مُنتهبٌ من غيره ومثّلٌ به ؛ كما يعرفه الناقد البصير . (إنتهى كلامه رفع الله مقامه)[2] .

وأقول : ليتَ الشيخ علي[3] أدرك تابعهما المُذم المُتأخر الذي زاد في الطنبور نغمات من السياسة والتدليس ، أظنُّ أنّه مما أوحاها إليه أخوهُ إبليس ، «وإنَّ الشياطين ليوحون إلى أوليائهم» ، فجعل يعبّر عن الأغا البهبهاني بالبهتاني ، وتارةً بالنهرواني مُدَّعياً أنه من

---

(١) يُقصدُ به الفيض الكاشاني (تعليقة المؤلف) .

(٢) النصّ منقول عن روضات الجنّات ، جـ١ ، ص١٣٤ ـ ١٣٦ .

(٣) هو الشيخ علي بن الشيخ حسن بن الشهيد الثاني .

خوارج (النهروان) بتقريب أنَّ الأباضية - وهي فرقة منهم - في نواحي (بهبهان)، ويعبّر عن شيخنا الكبير بفقيه المروانيين مدَّعياً أنه - والعياذ باللّه - من بني أميّة، ويُعبّر عن السيد محسن الكاظمي بمحلل اللواط مدعياً أنه يرى حليته. وأنت خبير أن الأمويّة وحليّة اللواط ونحوهما مهما بلغا من القُبح لا يكونان بأعظم مما نسبه شريكه في الضلالة المذمم الخؤون، مُحَمَّد أمين الملعون، من الشرك في حق الشيخ المفيد، والطوسي، والمرتضى، والعلامة، وأمثالهم. كيف والأموية والنهروانية مع الأيمان، غير مقتضيين النقصان، ولا مانعتين عن دخول الجنان، بخلاف الشرك فأنّ اللّه لا يغفر أن يُشرَك به ويغفر ما دون ذلك.

ورأيتُ في كتب بعض المتأخرين أنّ (الشيخ) كتب في طهران رسالة لرده بعث بها إلى فتح علي شاه، ودلّ فيها على معائب الرجل وتدليساته وكفره، وأتى بشواهد على عدم حيائه وعدم دينه وعدم عقله. وقد ذكر منها نبذة لطيفة صاحب «روضات الجنات».

وأما نحن فلم نذكر منها شيئاً لعدم ثبوت صدور (الرسالة) منه، وصحة إنتسابها إليه (قدس سرّه) فيه (لعنه اللّه)، ولم يعرفها أحد من مشايخنا أدام اللّه وجودهم، وما سمعوا بها عن مشايخهم، مع أن (صاحب الدار أدرى بالذي فيها)، بَلْ ولا يعلم بها أغلب أهل النجف، بَلْ كلهم. ومما يؤيد ذلك، بَلْ يكاد يورث الجزم بالعدم عدم تعرض الشيخ ميرزا عليّ في «قصص العلماء» لها بوجه من الوجوه لأنَّ هذا الرجل قَدْ استوفى في أحوال الشيخ ما لم يستوفه فيه أحد، وأطنب بتفصيل أحواله ومصنّفاته وعلمه غاية الأطناب، وليس فيه إشارةٌ ولا تصريحٌ بأن الشيخ قَدْ ردّ عليه، ولا ذكر ذلك في ترجمة ذاك الملعون فإن مجموع ما ذكر من تشاجر الهدى والضلال ما هذا نصه:

كان للميرزا مُحمَّد إلمامٌ بالعلوم الغريبة، وكان يدّعي المهارة في معرفة أنساب العرب. وكان يقول - والعياذ باللّه - إنَّ الشيخ جعفر النجفي هو مِنْ نسل بني أُميَّة. وبعدَ وفاة الشيخ جعفر قال هذا الملعون المطرود: «ماتَ الخنزير بمرض الخنازير» حيث كان الشيخ جعفر قد أُصيبَ بمرض (الخنازير)[1] الذي يحصل مِنْ تورُّم الرَّقَبة.

وبسبب أفعاله الشنيعة، وتضلّعه بالسحر فقد أصدرَ علماءَ العتبات المُقدسة حُكْماً بتكفيرِه وقتله. وعندما هَمُّوا لاقتحام داره لم يجدو لها (باباً) من تأثير سحره، فكسروا الحائط، ثم قتلوه[2].

(١) الخنازير: مُفردها (خنزيرة): غُدّة صُلْبة تكون في العنق تظهر على سطحها أدران شبيهة بالعُقد، وهي ما تُسمى الآن (تورّم أو سرطان الغدد اللمفاوية).

(٢) قصص العلماء، ص١٧٩.

فلو كان الشيخ قَدْ ردّ عليه في رسالة أو كتاب لكان هذا محل ذكره ولو إجمالاً ، وهو ممن لا يحتمل فيه عدم الاطلاع على مثل ذلك لقرب عهده ولكثرة تردده في البلدان ، زيادة على أن أغلب تحصيله في طهران لأنّ (تنكاپن) من قراها ، وقد حصّل أغلب تراجم العلماء منها ، وقد مكث بها سنين متعددة ، وهي محل الواقعة بين الشيخ والأخباري ، فلو كان لذلك أثر لَمَا خفي عليه .

والحاصل أن العقل والاعتبار مساعدان لمن يقول بالأنكار ، فأن الشيخ أجلّ أمراً ، وأعلى قدراً من التعرّض لمثل هذا (الكلب) ، والردّ عليه ، خصوصاً في مثل هكذا أمر ، والبديهة قائمة على بطلانه ، وانّه من أقل تزويره وبهتانه :

فـمـا كلُّ فـعّـال يجـازى بفـعلهِ ... ولا كُلُّ قـوّالٍ عليـه يُجـابُ
ورُبَّ كـلامٍ مـرّ فـوق مـسـامعٍ ... كـمـا طنّ في لوِحِ الهـجيـر ذُبابُ

* * *

فـهـل أزعجَ الـذرُّ شُمَّ الـذُرى ... وهلْ أعـجـزَ الليثَ كلبٌ عَـسلْ
وهـلْ ضـرَّ بدراً عـلى شـأوه ... إذا الكلبُ منه عـوى أو عَـولْ

وأنا واللّه أتكلم بكلامي هذا واستنقص ذلك بي وأستهونه منّي ، لكن الحديث شجون ، والغرض أن تظهر في الأثناء ترجمة الرجل ، وكرامات الشيخ (ره) .

ثم أن الخبيث لم يصنع رسالة فيما ادّعاه ، ولا ذكر ذلك في كتاب حتى يبطل الشيخ دعواه ، ولا جاء ببينة أو دليل ، ولكنّه حيث لم يجد موضع طعنٍ بالشيخ لا في علمه ولا تقاه ، ولا في سيرته وهداه ، ينتقص الشيخ به عند تبعته ، والهمج الرعاع ممن استغواهم بسحره وشعبذته ، فجعل يعبّر لهم بفقيه المروانيين . وغاية ما بلغ به خبثه أن ذكر ذلك مرة واحدة في رجاله الكبير حيث قال في ترجمة (الأغا) ، وأشار إلى ترادي أمر الأخبارية في زمانه ، وزمان شيخنا من بعده ما نصّه : «كان مجتهداً صرفاً خالياً عن التحصيل كما كان معترفاً به . وتصانيفه أصدقُ شاهد على ذلك ، وكان متقشفاً له (فوائد) في الأصول أتى فيها بالخطابيات والشعريات التي لا طائل تحتها ، ولا أساس لها» . وما زال على هذا المنوال حتى قال : «وكان كثير التشنيع على المُحدّثين ، وبه إندرستْ أعلام أحاديث الأئمة المعصومين ، وطالت ألسنةُ المعاندين ، بشتم الأخباريين ، حتى آل الأمرُ بتعدادهم من المبتدعين ، وأفتى بأخراجهم مع العجز عن قتلهم فقيهُ المروانيين» . ثم قال : والهرب والحمد للّه عن ذله وقتل أصحابه ، بواسطة سعي الشيخ عليهم وانتدابه ، وأضمر خموله فلم ينفعه

الأضمار، وأنكر تجلّداً سقوطه هو، وأصحابه عن درجة الاعتبار، ولزوم الذل والصّغار، حتى جلّ الأمر عن الانكار، فرجع إلى الاقرار، فقال: «وصار المحدّث الصارف عمره بـ «قالَ اللّه»، و«قال الرسول»، أذلّ من اليهود والمجوس، وأصحاب الحلول».

نعم تاللّه لقد صدق الرجل، ولكن مشاركته مع هؤلاء ليست بالذلّ، بَلْ بفساد العقيدة مع ذلك، والقول بالتناسخ والحلول وما أشبه من هذه المسالك، والناقد البصير، يعرف أن الرجل قَدْ بلغ في الذل المبلغ الخطيرِ، حتى صار يعبّر عن حاله بهذا التعبير. ولو ذكرتُ كيفية تشريد الشيخ لهذا الملعون، وتشتيت شمله، ونفيه كُلّ يوم عن العتبات لعذرتَ الرجل، بما قال في حق الشيخ إذ ليس له ما يدرك به الثأرَ منه والذحول، إلاّ التشنيع فيما يقول:

فما هو إلاّ كالعُقـابِ سلاحهـا   إذا صرّتِ الهيجاءُ ناباً سلاحها

ولما رجع الشيخ من خراسان إلى طهران نُقلتْ له كلماتُ الرجل ومطاعنه في العلماء، وانحياز فرقة إليه من الأشقياء، الذين استغواهم بزبرج لسانه، وسحره وبهتانه، وكان من تقنيعاته لهم أن الحق لم يزل مخذولاً، وما برح قليلاً، زاعماً أن الحق معه لأنه كان يختفي هو وصحبه عن السلطان وأمنائه، ويكتم في الأول أمره عنهم.

واستمر الحال على هذه المشاجرة والتخاصم حتى وقعت قضية (أشبوختر) السابقة فنُفيَ الرجلُ إلى العـراق[1]، واعتقد برأيه أنّ ذلك بواسطة إخلاص الوزير له، ثم توجّه الشيخ بعده بأيام فوجد الرجل في النجف أو كربلاء، وعنده جماعة وحفدة، وهو يباحثهم، وقد جعل في بحثه (الأغا) المروّج غرضا لسهامه، وعرضاً لتشنيعه بكلامه، وقد صيّر الرد على مقالات (الأغا) عنواناً لبحثه. وقد انزعج لذلك أصحاب الأغا وأقرباؤه، كالسيد علي صاحب الرياض، وولده الأقا مُحَمَّد علي[2] فعزموا على إخراجه من العراق فكتبوا صورة استفتاء للشيخ الكبير لكون العوام أطوع له وأسمع منه، ومضمونُه: «ما يقول شيخنا في مبتدع بالدين، يسعى بأتلاف شريعة سيد المرسلين، وما جزاءُ مَنْ سعى في الأرض الفساد، وحارب أولياء اللّه الأمجاد. فكتبَ: «بسم اللّه الرحمن الرحيم، إنّما جزاءُ الذينَ يحاربون اللّه ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يُقتّلوا أو يُصلّبوا أو تُقطّعَ أيديهم وأرجلهم من خلاف، أو يُنْفَوا منَ الأرض، ذلك لهم خزيٌ في الدنيا ولهم في الآخرة عذابٌ

(١) وذلك أواخر عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م.

(٢) هو ابن الأغا مُحَمَّد باقر المعروف بالوحيد البهبهاني المولود سنة ١١٤٤هـ/ ١٧٣١م، والمُتوفى سنة ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م. له مؤلفات في الفقه والتاريخ والأدب.

عظيم»[1] ، والقتل أرجح الأمرين ، والنفي أحوط القولين ، وخصوصاً مع العجز .

والى هذا يشير الملعون بقوله هناك : «وأفتى بنفيهم بعد العجز عن قتلهم فقيهُ المروانيّين» .

ثم بعثوا (بحُكم) الشيخ إلى حاكم البلد فقيل اخرج منها مذموماً مدحوراً من الصاغرين ، وأن عليك اللعنة إلى يوم الدين ، وتمزّق قومه كُلّ ممزّق ، ووقعت الصيحة عليه ، وعلى كُلّ ملحد تزندق . فدخل (طهران) متنكراً ، ثم قدَّم الشفعاء ، والكفلاء إلى السلطان ، بأنْ يُعطى الأمان ، حتى يجلس فيها ولا يخرج عن طاعة ، ولا يشقّ عصا جماعة ، ولا يأتي بمنكر أبداً ، وإلاّ إستحقّ القتل والعذاب . (وانتظرْ لتمام خبره ، وكيفية قتله عند ترجمة موسى بن جعفر) .

وهذا غيض من فيض ، وإن طلبتَ الرد عليهم فانظر (رسائل) الشيخ علي الشهيدي ، و(الحق المُبين) تصنيف الشيخ ؛ ففيه من الحسن والبلاغة ، والخروج عن العهدة ما ليس في غيره .

ولنكفّ عنان القلم فقد تلوث بأحوال هؤلاء ، ولا يغسل درن ذلك إلاّ بالعود إلى باقي مكارم أخلاق الشيخ ، وطيب أعراقه .

فأمّا علمُهُ وتقواه وجوده ، فقد مرّ عليك من كُلّ واحد منها نبذة يسيرة تكفيك في بيان علو قدره ، وأما فصاحته وبلاغته ، وحسن مدخله في فنون الكلام فهذا أمر تعرفه بذوقك ، وتميزه بذهنك ، وتُصحّه بقدر فهمك ومنزلتك من العلوم ، فإن طلبت ذلك فعليك بمراجعة كتبه خصوصاً «كشف الغطاء» ثم «الحق المبين» ، فإنه الضمين بما تهوى من تشجيع وتحسين وتزيين ، من غير تكلف ولا جهد ، ولا تعب ولا كدّ ، بَلْ عن صرف القريحة ، وجري القلم ، وبديهة الخاطر ، مع بلاغة مبدعة ، وفصاحة مقذعة ، وجزالة ألفاظ برقّة ، ومتانة معاني بدقّة . فما شئت هناك من مصقع :

إذا قالَ لم يتركْ مقالاً لقائلٍ ... بمُلتقطات لا ترى بينها فصلا
كفى وشفى ما في النفوسِ ولم يدَعْ ... لذي إربة بالقول جدّاً ولا هَزْلا

---

(١) سورة المائدة ٥/٣٣ .

بين الشيخ وفتح علي شاه

ومِنْ مختصّاته اللطيفة ما حدثني به عمّي العباس عن أبيه الشيخ الحسن بن جعفر، عن الثقات من أصحاب الشيخ الكبير: أنه لمّا خرج الشيخ من خراسان، متوجهاً إلى طهران، بعد أن أكمل زيارته، وقضى على الوجه الأتم نافلته، فبينا نحن في متن الطريق، وإذا بفارس يلوح أنه بشمائل الملك عريق، وقد خرج علينا من ناحية البرّ، التي ليس عليها لأحد ممرّ، وهوى علينا من جبال شواهق، متقلد بمطابق المكاحل، متوشح بالبنادق، فقبض راحلة الشيخ بيديه، ثم وقع يقبل يديه ورجليه، وهو يبكي بكاء الثاكل، ودموعه تنحدر إنحدار ماء الغمام الهاطل. فقال الشيخ له: لا ويل عليك ولا خذلان، فقد ظفرت فاحمد اللّه بالأمان، فاقصصْ عليّ خبرك، واللّه لو توقف خلاصك على نفسي لن أذرك. فقال: يا مولاي أنا مصطفى علي خان، من أهل خراسان، كنتُ من الوزراء العظام، ذي قوة وعشيرة مشيدة الدعام، فأراد أن يعزلني فتح علي شاه أول سلطنته، خوفاً من شدة بأسي وسطوته، فعصيته وخرجتُ عليه، وقتلتُ جملةً من الجند والعسكر بين يديه، فأقسَمَ بالأيمان المُغلّظة ليقتلني أشر قتلة بيده، وليفنني في طلبي سائر عمره مع طريفهِ وتلدهِ، وأن لا يُشفَّع فيّ أحد، وله سبع سنين، قد جعل عليَّ المراصد والعيون، وأنا مختف في هذه الجبال لا إلى الحياة ولا إلى المنون، لا عشيرة تحميني، ولا أرض تؤويني، وقد جاءني بالأمس بعض مَنْ غمرَهُ نوالي بالأحسان، يوم كنتُ حاكماً في خراسان، فقال وهو يعرف خبري: هذا نائب إمام العصر زار وقفل إلى طهران، وفتح علي شاه وكيل عنه، ومنصوب منه، لا يتخلف عن أمره، ولا يحيد عن قوله، فتمسّكْ بأذياله، وَقِدْ نفسك بأزمّة الرجاء واعقلها برحاله، وقد نذرتُ لك إن خلصتني من العطب، خمسين ألف ذهب، تصرفها فيما تشاء، ومثلها على يدك للفقراء، لعلّما تعمل حيلة وتدبير، وتفكّ هذا العاني الأسير.

فقال الشيخ له: على العين والرأس، فاذهب بلا ويلٍ عليك ولا بأس، وانتظر الأمان، أول دخولي طهران. فودّعه وسار الشيخ، فلما صار عن تخت المملكة بأميال، جاء أمين الدولة وباقي الوزراء للاستقبال، فلما دخل الدار التي أعدّت له، خلى بأمين الدولة، فقال له: أريد الدخول على الشاه، فقال: على الرحب والسعة. ثم قال: وأريد أن أشفع عنده لمصطفى علي خان، وأطلب منه له الأمان. فانزعج الوزير وتغيّر، وقال: يا للعجب منك وأنت بهذه المرتبة لا تدرك استحالة هذا الأمر ولا تفيدك الممارسة مع العجم إلاّ تعرُّب، ولا تزيدك الموالفة بقواعدهم إلاّ تغرُّب، مع علمك بهذا الرجل وعصيانه، وخروجه على الشاه وشق عصا سلطانه، ولو لم يكن إلاّ أيمانه المغلظة على قتله، لكفاك رادعاً عن التعرض

لمثله ، فإن كنت تريد البُلغة من المال ، فهذه أموال طهران بين يديك ، لا يمنعها مانعٌ عليك . فلم يزل به حتى قال الشيخ : حسبك فقد كففنا عن هذا الأمر وصرفنا آمالنا منه . ثم قاما فدخلا على الشاه وبعد أن تعانقا ملياً جعل الشاه يسأل الشيخ عن سفره وكيفية أمره ، ويذكر له فقرة فقرة من راحة وتعب ، ومأكل ومشرب ، والشيخ يحمد اللّه ويشكره ، ويثني على الشاه ويتشكّره . ثم جعل يسأله عن خراسان وأهلها وكيفية استقبالهم له ، وابتهاجهم به ، إلى أن قال له : مهازلاً : وهل كانت صيغُهُم على نظرك وإرادتك ، وكم متعبة منهم تشرَّفتْ بخدمتك . فقال الشيخ : أيها الملك ، مجمل الكلام أني بحمد اللّه بوجودك الشريف ، ومن حسن إلتفاتك عليّ ، لم تبق لذة من ملاذ الدنيا لم يكن زمامها بيدي ، وقد تمتعت نفسي بكل شئ من ملابس ، ومناكح ، ومآكل ، ومراكب ومراحل ، إلاّ لذة واحدة لو نلتُها لكان الموت هنيئاً بعدها .

فقال الشاه : وما هي؟ فقال : ما أظنُّك تسمح بها ، وإن كانت عليك يسيرة ، فأقسم الشاه أن يمكّن الشيخ منها ولو توقف على بذل حياته . فقال الشيخ : تلك لذة النهي والأمر ، فإني أرجوك أن تنصبّني في محلك ربع ساعة ، على أن يكون لي لا لك السمع والطاعة ، فقال : أيسر ما طلبت وهذه أيضاً لا أبقيها بنفسك .

ثم قام وأجلس الشيخ على مُتّكئه ، وجعل خاتم المُلك بيمناه ، ونادى العسكر أن يُجمع فجمعوه ، فقال لهم : هذا سلطانكم فخذوا له السلام الرسمي وأطيعوه ، ثم تمثّل الشاه بين يديه ، مثول أحد الرعية بين مَنْ له الأمر عليه ، كُلّ ذلك والناس طامحة البصر ، تنتظر ما الخبر .

فقال : «بسم اللّه الرحمن الرحيم الحمد للّه الذي جعلنا خلفاء في أرضه وحججاً على بريّته ، وأمرنا بسيرة العدل ، وقول الفصل ، وبعدُ : فأنّ اللّه أحبّ العفو وأمر به أولياءه ، فقال : «واعفوا واصفحوا» وأنا الآن الأمام الذي تجب طاعته ، ولا تجوز مخالفته ، فأشهدوا أيها الناس أني قَدْ عفوت عن ذنوب مصطفى علي خان ، وأرجعته حاكماً إلى خراسان» .

ثم نزل من السرير ، وأخذ بكف الشاه وأجلسه بمحلّه ، وقال له : قَدْ وهبتك باقي المدة على أن لا تنقض حكمي .

فضحك الشاه حتى استلقى على قفاه ، وتعجب أمين الدولة من حسن مدخله ، ولطف مسلكه فَأخبرت الرسالة البرقيّة مصطفى علي خان بالأمان ، وبعث بالأموال إلى الشيخ ففرقها جميعاً على الفقراء ، وكانت بكفّه كالذرّ هبّت عليه الزعزع النكباء . وهكذا كانت عادته ، عطّر اللّه قبره الكريم ، بعَرف شذيٍّ من رحمة وتسليم .

ومنها ما في «معدن الشرف» : إنّ الشيخ كان ذات يوم عند (الصدر) ، وكان يخلي له من سريره الصدر ، فيجلس الشيخ والوزير بين يديه ، فبينا هم كذلك إذ دخل بعض الطلبة عليه ، فجلس فوق يد الشيخ فنظره الصدر شزراً ، ورمق نحوَهُ عيوناً خزرا ، إذ لم يكن يجسر على ذلك أحد ، لأنّ الشيخ إذا احتبى بالدست ، (قلتَ غابٌ به احتبى الأسدُ) ، فقام المشتغل منكسراً ، وأومأ له الوزير فجلس ناحيةً . فقال الشيخ : أيها الوزير اليوم أتت عليك شكاية ، فاضطرب الوزير وقال : ممن؟ ، فقال : من (الكنيف) فإنها تقول أنا أفضل ، وأطهر من الصدر ، فقلت لها : هذه دعوى تحتاج إلى بيّنة ، فقالت : نعم أنا وإياه مشتركان في حمل العذرة والبول إلاّ أن ما في بطني من ذلك منه وبسببه فأنّه يأكل المآكل الجيدة فتستحيل في بطنه فيلقيها إليّ على تلك الصفة فأحملها لدفع الأذى عنه فلي المنّة عليه ، ولو جُعلَت في بطني تلك المآكل لمّا استحالت كما استحالت في بطنه ، وهو زيادة على ذلك يحمل الدم والمنيّ ، وزيادة عليه يكذب ويغتاب ويظلم ويجور إلى غير ذلك من سبعيّات الصفات مما أنا خالية منه ؛ فمن أحقّ بالوزارة منّا؟ فقلت لها : صدقت فيما قلت إلاّ أنه هو أفضل منك بأمور بها استوجب هذه المنزلة ، فأنّه يقضي حاجة السائل ، ويرحم اليتيم ، ويعطف على الأرامل ، ويتصدّقُ على المساكين ، ويكرم القاصدين ، وهو يعظّم العلم وأهله ، ويعرف حق المعرفة شرفه وفضله ، وأنت من كُلّ ذلك خالية ، فلذا استحق هذه المنزلة العالية .

فنهض الوزير وقبّل يد الشيخ واعتذر إليه ، وأكرم المشتغل وقضى الأمر الذي جاء عليه .

هذا ما اقتضى المقام نقله مما اتفق له في أسفاره . وهناك حكايات كثيرة قَدْ ضربنا صفحاً عنها خوف الأسهاب والأطناب ، وقد أتى على كثير منها في «قصص العلماء» .

ولما رجع من سفره بعد أن استمر ثلاث سنين[1] مكث في النجف عدة سنوات ، ثم عزم على الحج ثانياً[2] ، وكان قَدْ ابتدأ أمر الوهابي وقطعه الطرق ونهبه للحاج ، فتعذّر الرواح على (نجدٍ) فمضى على الشام .

ولما نزل بها كان الشيخ إبراهيم العاملي يومئذ هناك ، فمدحه بقصيدة غراء (ستأتي إن شاء اللّه) . وكان الشيخ في رحله جماعة من الأساطين العلماء قَدْ بذل لهم الزاد والراحلة

---

(١) يبدو أنّ تأريخ هذه السفرة هو عام تولّى فتح علي القاجاري الحكم سنة ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م . وكان فتح علي شاه يومذاك في السادسة والعشرين من عمره .

(٢) من المؤكد أنّ سفر الشيخ جعفر إلى الحج كان قبل سفره إلى ايران ، حيث يدلُّ تأريخ رحلته الثانية على عام ١١٩٩هـ / ١٧٨٥م ، أي قبل تولّي فتح علي شاه الحكم بأكثر من عقد من الزمن .

فمنهم السيد جواد العاملي صاحب مفتاح الكرامة ، وسيد محسن الكاظمي ، والشيخ مُحَمَّد علي الأعسم[1] .

فلما رجعوا إلى النجف هنّأهم السيّد أحمد بن السيد مُحَمَّد البغدادي الشهير بالعطار بقصيدة غرّاء أولها :

أ سَنا جبينكَ أم صباحٌ مُسْفِرُ

(وستأتي في محلها إن شاء اللّه) ، ويقول في آخرها مؤرخاً ذلك العام :

بشرى فقد حجّ المسدّدُ (جعفرُ)[2]

والظاهر أنها آخر أسفاره عطّر اللّه قبرَهُ المُصان ، بعَرفٍ[3] شَذيٍّ من رحمة ورضوان .

---

(١) من تلامذة الشيخ جعفر كاشف الغطاء ، ومن المُقربين إليه ، تُوفي سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م .
(٢) حساب الجمل لهذا التاريخ يساوي سنة (١١٩٩هـ) .
(٣) العَرْف هو الرائحة الطيبة .

الفصل الرابع

في الحوادث التي وقعت في أيامه

وهي كثيرة لكنا نذكر منها ما له شأن وعظمة ، وينحصر ذلك في حادثتين :

الحادثة الأولى: حادثة الوهابي، وغزواته للنجف

فنقول أن مبدأ هذه الطريقة الفاسدة ، الكاسدة من زعيمها الأول مُحَمَّد بن عبد الوهاب المتولد سنة ١١١٠هـ ، ولما شبّ تفقه وحج ثم أظهر دعوته وهي إغفال جميع الكتب الأسلامية والأحاديث النبوية ، وسائر فروع الدين ، وقد ذكره بن دحلان[1] في كتابه المسمى بـ «الفتوحات الأسلامية» وبيّن عقائده وأدلّته وما ردّ به ، ونحن نذكر شيئاً يسيراً مما ذكره .

قال : ومؤسس مذهبهم مُحَمَّد بن عبد الوهاب ، وأصله من (المشرق) من بني تميم ؛ ويعني بالمشرق شرقي (مكة) كالدرعيّة وعسير وغير ذلك من قرى الأعراب الذين هم حول (المدينة) ومنها الصفْر (الجديدة) . ولعل هذا أحد أسباب الأيهام بأن شيخنا أخو الوهابي ، أو قرابته لأن (الجديدة) أيضاً إسم لقرية من قرى (العذار) قريبة من (جناجيّة) . وهذا التوهم كما ترى . وقد قال الحموي في «مراصد الأطلاع» بعد أن ذكر قرى كثيرة اسمها (الجديدة) : منها إثنان في مصر ، وإثنان على شاطئ دجلة . قال : وهي كثيرة في البلدان لا تحصى .

ولنَعُدْ إلى ذكر ما أوردناه من (الفتوحات) فأنّ التعرض لمثل هذه الخرافات وردّها تضييع للعمر ، وأنت تعرف بطلانها بما نذكره من كلام الدحلاني في أحوال هذا الرجل .

---

(١) هو مفتي الشافعية الشيخ أحمد بن زيني دحلان ، ولد في مكة عام ١٢٣٢هـ / ١٨١٧م ، وتولّى منصب الافتاء والتدريس فيها . تُوفي سنة ١٣٠٤هـ / ١٨٨٦م وكتابه «الفتوحات الاسلامية» مطبوع في مجلدين . كما أنّ له رسالةً بعنوان «الدرر السنيّة في الردّ على الوهابية» طُبعتْ في القاهرة عام ١٣١٩هـ / ١٩٢١م . وقد كرر فيها الحديث عن تاريخ الحركة الوهابية . الدرر السنيّة ، ص٤٢ وما بعدها .

من الشرك ، وأن الناس كانوا على شرك منذ ستمائة سنة ، وأنه جدّد للناس دينهم وحمل الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين على أهل التوحيد كقوله تعالى : «ومَنْ أضلُّ ممن يدعو من دون اللّه مَنْ لا يستجيبُ له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون»[1] وأمثال ذلك . وقال بعد أن أتى بآيات من ذلك القبيل كثيرة : إن من توسل بغير اللّه مطلقاً داخل في عموم تلك الآيات . ثم قال : واعتذار المسلمين في ذلك كاعتذار المشركين في عبادتهم الأصنام حيث قالوا فيما حكى اللّه عنهم : «ما نعبدهم إلاّ ليقربونا إلى اللّه زلفى»[2] فإن المشركين ما اعتقدوا في الأصنام أنها تخلق شيئاً بَلْ يعتقدون أنه اللّه تعالى بدليل قوله تعالى : « ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن اللّه»[3] فما حكم اللّه عليهم بالكفر والأشراك إلاّ لقولهم : «ليقربونا زُلفى» . وهؤلاء مثلهم .

ومما ردّوا به عليه : أن المؤمنين ما اتخذوا الأنبياء والأولياء آلهة ولم يجعلوهم شركاء للّه بَلْ يعتقدون أنهم عبيد مخلوقون لله ، ولا يعتقدون أنهم مستحقون شيئاً من العبادة ، والمشركون الذين نزلت فيهم الآيات كانوا يعتقدون استحقاق أصنامهم الألوهية ويعظمونها تعظيم الربوبية وإن كانت لا تخلق شيئاً . وأما المؤمنون فيعتقدون أن الأنبياء والأولياء عباد اللّه وأحباؤه اصطفاهم واجتباهم فببركتهم رحم عباده ، ولذلك شواهد كثيرة .

ثم أخذ الدحلاني في ذكرها وتفصيل الرد عليهم بما لا مزيد عليه نقلاً عن العلماء .

ثم أردفه بتفصيل أحوالهم وانتهاء أمرهم بما حاصله أن مُلْكَهم إتسع حتى ملكوا اليمن والحرمين وقبائل الحجاز وبلغ ملكهم قريباً من الشام . ثم انتشب القتال بينهم وبين أمير مكة الشريف غالب ابن مساعد[4] ووقعت بينهم وقائع كثيرة قتل فيها خلائق كثيرون . ولم يزل أمرهم يقوى ، وبُدْعَتهم تنتشر إلى أن دخلت تحت طاعتهم أكثر القبائل و(العربان) الذين كانوا تحت طاعة شريف (مكة) . ثم نازلوا (الطائف) وحاصروا أهله رجالاً فهزموهم ، ونساءً فأسروهم إلى أن فتحوا البلد ، ونهبوا الأموال ، وعزموا على التوجه إلى مكة فوقفوا حتى انقضت أشهر الحجّ وعلموا بخروج الحاج المصري ، والشامي فتوجهوا إلى مكة ، ففرّ الشريف

---

(١) سورة الأحقاف ٥/٤٦ .

(٢) سورة الزمر ٣/٣٩ .

(٣) سورة الزخرف ٨٧/٤٣ .

(٤) الشريف غالب بن مساعد الحسني قاتَل الأمام سعود بن عبد العزيز لكنّه لم يصمد أمامه فأظهر الطاعة له . وعاد إلى مكة بعد فراره إلى (جدة) أميراً عليها مظهراً ولاءه للأمام سعود . ولّما زحف مُحمَّد علي باشا والي مصر ، قبض عليه وأرسله إلى مصر سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٤م ثم إلى الاستانة حيث نُفيَ إلى جزيرة (سلانيك) فتُوفي فيها عام ١٢٣١هـ / ١٨١٦م .

إلى (جدّة) لعلمه بعدم الطاقة لمحاربتهم فطلب الأمان منهم أهل (الحرم) خوفاً أن يصنعوا ما صنعوا في (الطائف) فآمنوهم ، ودخلوا البلد ، وحكموا بها على ما يريدون حتى توجه الشريف إليهم من (جدّة) مع عسكر سلطاني قائده والي جدّة شريف پاشا فدخلوا مكة وانهزم الوهابيون . والحاصل أنهم لم يزالوا أياما وأعواماً على هذا يغلبون (غالب) ويغلبهم ، وقد هدموا أكثر (القُبب) التي على قبور الأولياء والأنبياء لِما يرون أنّها بدعة ، وحرّموا (التنباك) ، وجعلوا يقتلون من يستعمله .

وكانت الدولة العثمانية في ارتباك كثير ، وشدة قتال مع النصارى ، وفي اختلاف من خلع السلاطين وقتلهم ، إلى أن صدر الأمر السلطاني من ابن عبد الحميد الأول محمود الثاني إلى مُحَمَّد علي پاشا والي مصر ، فبعث ابنه (طُوسون) مع جيش من العسكر ، وكان مشغولاً بقتل (المماليك) وهم طائفة من عسكر مصر تمرّدوا . ثم توجه مُحَمَّد علي بنفسه مع عساكر بتمام القوة والاستعداد ، وكان معهم ثمانية عشر مدفعاً وثلاثة (قنابر) ، فاستولى على ما كان بيد الوهابية وأخذوا (الصّفر) و(الجديدة) بالمخادعة ومصانعة العرب ببذل الدراهم وكان هذا بتدبير الشريف غالب ، وهو في الظاهر تحت حكم الوهابية . فلم يزل الپاشا يقبض على واحد بعد واحد من أمراء الوهابي وأعيانه وأعوانه الذين نصّبهم وكلاء عنه في البلاد ، ويبعث بهم إلى (قسطنطينية) فيُصلبون هناك .

وفي أثناء تلك الحروب مات مُحَمَّد بن عبد الوهاب حتف أنفه سنة ألف ومائتين وخمس[1] ، وعمره خمس وتسعون فقام بالأمر بعده سعود وابنه مُحَمَّد ، واستمر على حاله من المحاربة والدعوة إلى ذلك المذهب حتى توجه مُحَمَّد علي پاشا إليه فجلاه عن الحرمين بعد أن انتهب ما فيهما من الخزائن ونفائس الجواهر ثم تحصّنَ بمسقط رأسه (الدرعية) . وبعد أن أمّنَ مُحَمَّد علي پاشا الحرمين وجلا ذلك الخبيث وأحزابه عنهما أبقى هنالك عُدّةً من العسكر ، ورجع إلى مصر .

ثم بعث ابنه إبراهيم پاشا لقتال عبد الله بن سعود ومن تحصّن من قومه بالدرعية خوفاً من أن يعود على سيرته الأولى . وكان قَدْ هلك في الأثناء من أصحاب الپاشا ابنه (طوسون) ، ومن أصحاب الوهابية أميرهم الأعظم سعود بعد زعيمهم الأول مُحَمَّد بن عبد الوهاب ، وكان قَدْ تخلف بعدهما عبد الله بن سعود . وكان قَدْ تكاتب مع طوسون پاشا ، وعقد صلحاً بينهما على بقاء إمارة عبد الله هذا ، وعدم خروجه بعد على الدولة ، فلم يقبل به مُحَمَّد علي پاشا وبعث مع ابنه إبراهيم عسكراً ذا عدة ، فنازلت جيوشهم عبد الله ،

(١) تُوفي الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١٢٠٦هـ .

وكثرت الوقائع بينه وبين إبراهيم حتى كان آخر الأمر أن قبض إبراهيم على عبد اللّه سنة ثلاث وثلاثين بعد المائتين وألف ، وبعث به إلى (مصر) . فأدخلوه على هجين ، وازدحم الناس عليه للتفرّج حتى أدخل على مُحَمَّد علي باشا فأكرمه وجعل يلاطفه وقال له : ما هذه المطاولة؟ فقال : الحرب سجال . وكان معه صندوق صغير فقال له الپاشا : ما هذا؟ فقال : هذا ما أخذه أبي من حجرة الحرم أصحبه معي للسلطان ، فأمر الپاشا بفتحه فوجدوا ثلاثة مصاحف من خزائن الملوك لم يَرَ الراؤون أحسن منها ، ومعها ثلاثمائة حبّة من كبار اللؤلؤ ، وزمرّدة كبيرة ، وشريط من الذهب ، ثم بعث بعبد اللّه إلى(السلطان) فطافوا به في (قسطنطينية) ، وقُتِل عند باب (الهمايون) .

ورجع إبراهيم پاشا بعد أن خرَّب الدرعية خراباً كلياً ولم يبق بها أحد .

هذا مجمل أحوالهم مع تمام الجهد في الاختصار لقصر المقام عن التفصيل . وعلى هذا فانتشار مُلكهم ، وقوة شوكتهم استمرت ثمانين سنة .

وكان يمنّي نفسه بأخذ (العراق) ولكن يمنعه علمه بأن فيها جنداً ذوي منعة وقوة لا طاقة له بهم . ولكن كان ينازل (النجف) و(كربلاء) كثيراً لعلمه بضعف من فيها من الأهالي ، وعدم مكث الجند والعسكر بها ، حتى أنه أرجف (النجف) خمس أو ست دفعات . وكان اللّه يكفيهم شره فيها ، ولكن بعد أن يقتلهم الخوف والاضطراب لأنه كان يأتي بجنده فاذا سمعوا به غلّقوا الأبواب فيطوف حول (السور) فمهما وجد دابة على الأرض من حيوان أو إنسان ، رجلاً أوطفلاً ، ذكراً أو أنثى قتله ورمى برأسه داخل البلد . وكان يأتي من أصحابه العشرة ، والعشرون فيدخلون البلد على حين غفلة من أهلها فيقتلون وينهبون ثم ينهزمون بكل ذلك لقرب منازلهم وهي (نجد) و(القصيم) إلى العراق خصوصاً (النجف) منه .

وكانوا يأوون إلى السيد محمود الرحباوي[1] فيبيتون الرحبة ، ويُصبحون بغاراتهم (النجف) ثم يُمسون في (الرحبة) . وكان الشيخ يومئذٍ هو المرجع والمآل في جميع الأحوال ، فنهى السيد محمود عن إيوائهم وإخباره أهل النجف بمجيئهم ، فأبى عن كُلّ ذلك ، وهذه إحدى دواعي قتله كما سيأتي قريباً .

فالتجأ إلى تداركِ الأمر من زعيمهم الأول لمّا أخبر به من عقله ووفور معرفته . فجعل يكاتبه على البعد ، ويطلب الأمان منه بأنواع اللطائف والحيل حتى سمح له بذلك ، وأمر

(١) قُتل السيد محمود الرحباوي في شهر ذي القعدة سنة ١٢٢٧هـ / ١٨١٢م . والسادة الذين سكنوا (الرحبة) هم بقية من السادة الصفويين الهاربين في عهد الغزو الأفغاني لبلاد فارس .

جنده بأن يكفوا شرهم عن (النجف) ففعلوا . فلم تأتِ غارة للنجف مدة بقاء مُحَمَّد الوهابي في قيد الحياة .

وحدثني بعضُ الثقات المطلعين ممن طاف في تلك الآفاق ، ورأى بعض أولئك القوم أنه قال بعض أولاد الوهابي : أصحيح ما يقال من قرابتكم للشيخ جعفر النجفي ، فقال : قَدْ سمعنا ذلك من أهل العراق وهو كذب لا أصل له لأنَّ (جدَّنا) رجل نجدي هاجر بأولاده إلى المدينة المنورة لطلب العلم فاخترع ولده (مُحَمَّد) هذا المذهب ، ومضى به إلى (مصر) يدعو أهله فطردوه ، ولم يقبلوا منه ، فجاء إلى (مكة) ثم رجع إلى (الشام) ، ثم إلى (المدينة) فلم يجد من يتبعه ويأخذ بيده ،حتى جاء إلى مسقط رأسه ، ومحل قومه وعشيرته وهي منازل (نجد) ـ وكان أميرها (سعود) ـ فتجلّى الحق له فاتبعه ، وصار له ساعد يصول به ، ويبطش فيه . ولم يمضِ أحد منّا إلى (العراق) لا مُحَمَّد ولا غيره من عشيرتنا . نعم ، قَدْ بعث جدُّنا أسرته لغزو (النجف) فنَهبتْ وقَتَلتْ شيئاً يسيراً ، ثم جاء هو بنفسه إليها ليهدي أهلها إلى دعوته فأن قَبلتْ وإلا قُتلتْ ، وعزم على تخريب (النجف) وإفنائها إن لم يقبلْ أهلها بدينه ؛ فلما نزل بجيشه (الرحبة) عند السيد محمود ، بعث الشيخ بقُرآن نفيس من هدايا سلاطين العجم إليه ، وبعث معه كتاباً يطلب الصلح والأمان من جدنا ، وأنه هو وأهل النجف جميعاً على دينه غير خارجين عن طاعته ، والتمس منه أن لا يدخل (النجف) هذه الدفعة لأن أهلها في خوف منه واضطراب ، فأجابه إلى ذلك مُحَمَّد .

وكان الشيخ جعفر قَدْ سأله أن يُنَصِّبهُ حاكماً في النجف من قبله ، فبعث إلى أهل النجف كتاباً يأمرُهم بطاعة الشيخ ، وأنه (وكيل) عنه عليهم .

ثم رجع مُحَمَّد بجيشه ، واشتغل بالوقائع والحروب التي بينه وبين طوسون پاشا وشريف مكة فلم يمكنه العود إلى (النجف) .

قال الراوي : وقالوا إنَّ كُتبَ الشيخ لجدِّنا ، وكتُب جدِّنا إليه محفوظة عندنا ، وأطلعوني على بعضها فكان مضمونها كما قالوا ، فما أدري تلفيق منهم على الشيخ ، أم واقع الأمر كان كذلك ، لأنه رأى انحصار الدفع عن بيضة الدين بذلك إلى أن يستعد لدفاعهم ، واللّه وأولياؤه أعلم .

ثم بعد أن مات مُحَمَّد كثرت الحروب والوقائع بين خليفته (سعود) ، وبين أمراء الدولة ، وجلوهم عن الحرمين ، جعلوا يطلبون العُدّة لهم والقوة من أموال ورجال ، فبعث ابنه عبد اللّه إلى (كربلاء) و(النجف) وقال له : إنْ سلَّموا لك وبعثوا معك عدة حسنة فاكفف عنهم ، وإلاّ فأنزل بهم الفناء . فنازل (النجف) بجنده ، وكان الخبر قَدْ بلغ الشيخ وأصحابه وكان قَدْ

استعدَّ لهم بعض الاستعداد ونقل (خزنة) الأمير (ع) وبعث بها إلى (بغداد) مع مَنْ يُعْتَمَدُ عليه من أصحابه ، فقيل كانت الجواهر التي فيها مقدار حمل عشرين بغلاً ، وإنّما نقلها الشيخ لئلا ينهبوها كما نهبوا خزينة (الحرم) .

وحدثني بعض أعمامي عن بعض الشيبة أن الشيخ رأى في المنام قبل أن يأتي خبر عبد اللّه ومجيئه إلى (النجف) وقد حدثنا بها وأحس بالشرّ ، وهي أن رجلاً جاءه وقال له أجب أمير المؤمنين فأنه يدعوك ، فقمت معه حتى جئت (الصحن) الشريف ؛ فخلعتُ نعلي ، ودخلت إيوان الذهب فرأيت الأمير (ع) جالساً على كرسيٍّ له في صدر الأيوان وعن يمينه رجلٌ ، وعن شماله آخر ، وبين يديه بَطلٌ ، قَدْ اتكأ على الحائط المقابل له ؛ فوقفت إلى جنب ذلك البطل وسلّمت فردوا عليَّ السلام ، وكانوا مطرقين برؤوسهم إلى الأرض ، فرفع الأمير (ع) رأسه والتفت إلى الذي عن يمينه وقال : يا بُنيّ يا (حسن) إصبر كما صبر أبوك من قبل ، فقال : يا أبَ صبرتُ وسأصبر ، ثم أطرق ورفع رأسه فقال : يا بُنيّ يا (حسين) اصبر كما صبر أبوك وأخوك من قبل ، فقال : صبرت وسأصبر ، ثم أطرق ورفع رأسه وقال للذي بين يديه : يا بُنيّ يا (عبّاس) اصبر كما صبر أبوك وأخواك من قبل ، فقال مع التغيّر والانزعاج : لا واللّه يا أبَ لا أعطي بمن يستحميني ويستجير بي ، ثم كرر الأمير (ع) كلامه والعباس يجيبه بذلك الجواب .

يقول الشيخ : ثم إلتفتَ إليَّ وقال : يا شيخ يا شيخ ، احفظ (النجف) احفظ (النجف) ، فقلتُ : سمعاً وطاعةً . ثم داخلني الرعب والرهب من هيبته فاستيقظتُ وفرائصي ترتعد وجوانحي تضطرب ، وبقيت أنتظر الشأن حتى جاء الخبر أن (سعود) فتح (المدينة) وهدّم (البقيع) وقبور الأئمة (ع) وجعلها قاعاً صفصفاً وانتُهبتْ خزائن (القبر) المُطهّر ، وما فيها من النفائس . فقلتُ هذه إحدى العلامات ، وبعثتُ بالخزينة إلى (بغداد) .

ثم أخذ (الشيخ) يستعد بتعبئة السلاح ، وجمع الدروع ، وجلب (التفق) إلى النجف . فما كانت إلاّ أيام حتى أتى عبد اللّه بجنود ، ونازلها ليلا فبات تلك الليلة على أن يفتح (البلد) صبحاً ويوسعها قتلاً ونهباً . وكان (الشيخ) قَدْ غلّق أبواب البلد وجعل خلفها أحجاراً كباراً لأنها كانت محفّرة ، وعيّن لكل واحدة عدة من المقاتلين شاكين السلاح ، وأحاط باقي الناس بسور البلد من داخلها ، وكان يومئذ محفّراً واهي الدعائم ، وكان ما بين كُلّ أربعين أو خمسين ذراعاً حجرة تسمى (قولة) ، كما هي الآن كذلك ، وكان قَدْ وظّف في كُلّ (قولة) جماعة من المؤمنين المسلحين .

وكان جميع مَنْ في البلد من المقاتلين لا يزيدون على المائتين لأنَّ أغلب أهل (النجف)

خرجوا منها ، واستجاروا بأعراب العراق لما سمعوا من سيرة الوهابي بالقتل والنهب والسبيّ ، فلم يبق مع (الشيخ) إلاّ الصفوة من العلماء كالشيخ حسين نجف[1] ، والسيد جواد العاملي[2] ، والشيخ خضر شلال[3] ، والشيخ مهدي ملا كتاب[4] ، وغيرهم من الشَيَبة الأطياب ، وبعض من العوام .

وكان قَدْ وقع التشاجر بين العلماء في هذه المسألة ، فبعضهم أوجب الخروج من النجف تقديماً لأدلة حفظ النفس فخرجوا ومن اتبعهم ، وبعضٌ كالشيخ ، والسيد جواد ، وباقي العلماء أوجبوا الجهاد تقديماً لأدلة حفظ بيضة الدين على المسلمين . وقد صنّف السيد جواد العاملي رسائل في الرد على من خالفهم في ذلك ، وشنّع بها على من خرج من (النجف) .

ثم أن الشيخ وأصحابه وطّنوا أنفسهم على الموت لقلتهم ، وكثرة عدد عدوهم ، وكان الشيخ قبل مجيء هذا الخبيث حفر في داره الكبيرة (سرداباً) ينزل في الأرض مقدار أربعين درجاً ، وهو من العجائب لأن الشيخ صنعه بهندسته ليُخفي فيه أولاده وعياله خوفاً من السبي فجعله بحيث لا يهتدي إليه أحدٌ إلاّ من علم بكيفية طريقه ، وسلك فيه مراراً ، وهو موجود إلى الآن ، ويعرف بسرداب الوهابي . وهذه الدار من منن اللّه علينا ، ونحن نازلون بها ، وهي من مدة ثلاثين سنة في أيدينا . وستأتي كيفية بنائها ، وإتقانها ، وحسن ترتيبها ، وبنيانها .

ثم أن (الشيخ) أخفى أولاده ونساءه في (السرداب) ، وجعل معهم من الطعام ما يكفيهم مقدار شهر كامل ، وودّعهم وداع مفارق وقال : إن هذا الملعون سيأتي إلى النجف ، فإن أظفرنا اللّه عليه فبها ، وإلاّ فسيقتلنا ويدخل النجف فلا يرى شيئاً بها مما يريد من مال أو رجال فسيتركها ويرتحل ، وأما أنتم فاخرجوا بعد الشهر وكاتبوا الأطراف ، ومن خرج فليعد ، ولا تقصروا في السعي بتعميرها أبداً ، ولا تخرجوا منها ، ولو بقيت خالية . إلى غير ذلك من الوصايا والترتيبات لأحياء الملّة والدين حياً وميتاً .

وأما ابن سعود فأنّه بات بجنده تلك الليلة خارج البلد ، وما أصبح الصباح إلاّ وهم قَدْ انجلوا عن تلك البقعة ولم يبق منهم بها أحد .

---

(١) تُوفي الشيخ حسين نجف سنة ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م .
(٢) تُوفي سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م . وهو صاحب الكتاب الفقهي الشهير «مفتاح الكرامة» .
(٣) الشيخ خضر بن شلاّل كان من تلامذة الشيخ جعفر كاشف الغطاء . تُوفي عن ثمانين عاماً سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م .
(٤) الشيخ مهدي مُلا كتاب من زُهّاد زمانه ، كان موصوفاً بالفقاهة والعلم . وهو من معاصري هذه المرحلة .

ثم توجَّه إلى (كربلاء) فقتل أهلها قتلاً ذريعاً حتى فاض الدم من الحرم الحسيني كالميازيب ولم ينجُ إلاّ مَنْ لاذ بالحرم العبّاسي حيث قال الملعون عبد الله : «خلُّوا حرم العباس فأنّه إبن أُختنا» . ودق القهوة على ضريح أبي عبد اللّه (ع) ، وأحرق قبر حبيب بن مظاهر ، إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة ، ثم ولى هزيما ، لعنه اللّه وعذَّبه عذاباً أليما .

هذا مجمل أحوالهم ، وإن كان بالنسبة إلى رسالتنا المبنيَّة على الاختصار تطويل ، لكن إنما ذكرنا لك النبذة الأولى من أحوالهم لتطلع على كذب أعداء اللّه على أوليائه ، وكيف يؤول الحسد والشنأن بأصحابه وخلفائه ، والأولى الامساك عنهم ، والكف فإنهم أقل وأحقر ، من أن يرد أحد بشئ أو يذكر :

وما أشكو تَلوّنَ أهلِ دهري ... ولو أجدتْ شكيّتُهم شَكوتُ
مَللتُ عتابَهُمْ ويَئِستُ مُنهمْ ... فَما أرجوهُمُ فيمَنْ رجَوتُ
إذا أدمَتْ قوارِضُهمْ فُؤادي ... كظمتُ على أذاهُمْ وانطويتُ
ورُحتُ عليهمُ طَلْقَ المُحَيّا ... كأني ما سمعتُ ولا رأيتُ
ويومَ الحشرِ موقفُنا وتبدو ... صحيفةُ ما جَنوهُ وما جنيتُ

ولما ألقتني مراحل الأقلام ، في هذا المقام ، أعثرني التوفيق على لؤلؤة مكنونة ، وجوهرة مخزونة ، كانت مطروحة في زوايا الخمول ، على أنها مما يبهر العقول ، وهي (رسالة) لشيخنا الأكبر ، علامة الدهر ، حجة اللّه الكبرى ، وآيته العظمى ، الشيخ جعفر ، أفاض اللّه رَوحَه على روحه ، وأعلى على الضراح شامخ ضريحه ، (في ردّ الوهابية) ، وهي بديعة في مقامها غاية الأبداع ، وقد سلك فيها مسلكاً لطيفاً ، وعمل بقوله تعالى فيما أمر به نبيّه موسى (ع) حيث قال له : «فقولا له قولاً ليّناً لعله يتذكر أو يخشى»[1] فأنَّ الشيخ سلك مسلك اللين والانعطاف ، وتطلّب الأنصاف ، وتجنب العنف والأعتساف ، لما فيه من جذب القلوب إلى الحق ، واستجلابها باللين والصدق . حيث أنه يقول مخاطباً الشيخ عبد العزيز بن سعود : «يا أخي يا أخي» ، في أواخر الفصول ، وجعل نفسه من طلبة أهل (بغداد) مُكنّياً بذلك عن كونه من أهل (السنّة) والجماعة ليتوصل إلى الغرض شيئاً فشيئاً ، ويرتقي من مرتبة إلى أخرى ، على أنه ليس قصده إلاّ أن يُقْلع الوهابي عما هو عليه من تكفير سائر المسلمين شيعة وسُنّة ، (ولو على أن يكون هو منهم) فأنّهم لا يرون وجوب قتال من يشهد الشهادتين ، وهو يرى وجوب قتال من خالف طريقته ولو بيسير ، ولهذا كان أمره على

(١) سورة طه : ٤٤/٢٠ .

المسلمين عسير .

وحيث كان الوهابي لا يعتمد إلاّ على الصحاح الستة وأمثالها من متقدمي أهل السنّة والجماعة مدّعياً أنهم على طريقته ، إلتزم الشيخ في ردّه بأن لا يأتي له إلاّ بأحاديثهم المروية بطرقهم المسلمة عندهم ، وهذا أشد في الأبلاغ وأعذر ، وآكد في الأعذار وأنذر . ولكن ما أسفتُ على شئ من عمري ، ولا تلهفتُ على ما مضى من دهري ، كما أسفتُ على عدم ما فات مني من التوفيق والحظوّ بتمام (الرسالة) لأني لم أعثر منها إلاّ على كراس واحد بخط عمي المرحوم المبرور الشيخ موسى[1] بن الشيخ مُحَمَّد رضا (تغمدهما اللّه بالغفران والرضا) . وكنتُ أرى هذه الوريقات في مجموع أوراقه (رحمه اللّه) فلا أعرف قضيته ، حتى أخبرني الوالد الماجد صاحب الشرف والفضيلة الشيخ عليّ (سلّمه اللّه) أن أخاه الشيخ موسى أخبره بخبرها وأنه وجدها عند بعض الطلبة ، ولم يتمكن إلاّ من كتابة هذا المقدار منها ، وأنها كانت عنده تامة . وها أنا قَدْ أثبتُّ لك ما عثرتُ عليه من ذلك لأنها عزيزة النُسخة ، بَلْ معدومة الوجود . وقد أذنتُ لِمَنْ عثرَ على الباقي أن يدرجه في رسالتنا هذه طلباً لعموم المنفعة ولكثير الفائدة[2] . وأنت بعد مراجعة تصانيف الشيخ ورسائله خصوصاً «الحق المبين» ، الذي ردّ به على الأخباريين ، وتراجع هذه النبذة اليسيرة التي نوردها لك ، منها تعرف أن هذا المنهج والترتيب ، وذلك الأسلوب الغريب ، من تقفية وتسجيع ، الذي هو على صرف القريحة ، وجري الخاطر السريع ، بلا تكلف ولا كد ، ولا تعب ولا جهد ، كلاهُما من وادٍ واحد ، وقد أوردنا لك ما وجدناه بنصّه فخذه تجده على ما تهوى من بلاغة وفصاحة وردود كافية ، وتقنيعات شافية وهي هذه :

رسالة للشيخ الكبير في ردّ الوهابية

بسم اللّه الرحمن الرحيم ، الحمد للّه الذي تفرد بالوحدانية والقِدم ، واشتق نور الوجود من ظلمة العدم ، وأسس قواعد الشرع وفق المصالح والحكم ، وفضّل أمة مُحَمَّد (ص) على سائر الأمم ، وأنزل القرآن فيه آيات محكمات هُنَّ أمّ الكتاب وآخر متشابهات ، وحذر عن اتباع الملاذ والشهوات ، وأمر بالوقوف عند الشبهات ، وأنذر عن متابعة الآباء والأمهات . والصلاة والسلام على من قدّمه على جميع أنبيائه ، وفضله على كافة أصفيائه ، مُحَمَّد

---

(١) الشيخ موسى بن الشيخ محمد رضا بن الشيخ موسى بن الشيخ جعفر الكبير تُوفي سنة ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٨م .
(٢) طُبعتْ هذه الرسالة سنة ١٣٤٢هـ/ ١٩٢٤م بعنوان «منهج الرشاد لِمَنْ أرادَ السداد» ، وقد أثبتُّ نصّها الكامل ـ ملحقاً بالعبقات ـ ، مُحَقّقاً على نسخة فريدة كُتبتْ في حياة المؤلف سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م .

المختار ، صلى اللّه عليه وآله ما أظلم ليل وأضاء نهار .

وبعد : فقد ورد - إلى المقصّر مع ربه ، التائب إليه من ذنبه ، الطالب من اللّه السداد ، (جعفر) أقل طلبة بغداد - ، كتابٌ كريم ، مشتمل على كلمات كالدر النظيم ، ممن لم يزل بالمعروف آمراً وعن المنكر ناهياً زاجراً ، الآمر بعبادة المعبود ، الشيخ عبد العزيز بن سعود . فلما نظرته ، وتدبرته ، وتأملته ، وتصورته ، وخلوت في زاوية الدار ، وتصفحته تصفّح الانصاف والاعتبار ، وقلتُ مُتّهماً لنفسي بالميل إلى العصبية والعناد ، والركون إلى ما عليه الآباء والأجداد ، يا نفس اعرفي قدر دنياك ، واحذري شرّ من أغوى أباك ، لقد تخليتِ عن نعيم الدنيا بحذافيرها ، وقنعتِ بقليلها ولو بقرص شعيرها ، وتجنبت دار العزّة والوقار ، واخترت العزلة في هذه الدار ، فلو كنتِ في كبار البلدان ، من ممالك بني (عثمان) أو في بعض بلدان فارس وايران ، لجاءتْ إليكِ الدنيا من كلّ جانبٍ ومكان ، ونلتِ من النعيم ما لم ينلْهُ إنسان ، فاحذري أنْ تكوني مع الأعراض عن هذه النِعمِ الفاخرة ، ممن قد خسَر الدنيا والآخرة .

فلمّا شممتُ منها رائحةَ التصفية ، ورأيتُ أنّ نسبة المذاهب لولا اللّه عندها على التسوية ، وجهتُها إلى الكشف عن حقيقة الجواب ، عن الشُبَه المُوْرَدة في ذلك الكتاب . ورأيتُ أنْ أشرحَ في الحال رسالةً على وجه الأختصار مستمداً من فيض الواحد القهّار ، وسميتُها (منهج الرشاد لِمَنْ أرادَ السداد) .

فأُقسِمُ عليكَ بِمَنْ جعلكَ متبوعاً بعد أنْ كنتَ تابعاً ، ومُطاعاً بعد أنْ كنتَ لغيركَ مُطيعاً سامعا ، وأعزّكَ بعدما كُنتَ ذليلاً ، وكثّر جمعَكَ بعدما كنتَ نَزْراً قليلا ، أنْ تنظرَ ما رسمتُهُ سطراً سطرا ، وتُمعنُ في تحقيق ما رقمتُهُ نَظراً وفكرا ؛ متوحشاً من الناس وقتَ النظر ، متحذراً من النفس الأمّارة كُلَّ الحذر ، طالباً من اللّه كشفَ الحقيقة ، سالكاً في المُناظرةِ واضحَ الطريقة ، فلعلّه يظهرُ أنّه ليس بيننا نزاع ، فنحمدُ اللّه على الأتفاق والأجتماع .

وقد رتبتُها على مقدمةٍ ، ومقاصدٍ ، وخاتمة .

أمّا المُقدّمة فتشملُ على ثلاثة فصول :

الفصل الأول: في أنّ الأفعال والكلمات تختلفُ باختلاف المقاصد والنيّات

فمَنْ قال (يدُ اللّه ، وعينُ اللّه ، وجَنبُ اللّه) وأرادَ الجوارح على نحو ما في الأجسام ، أو قال : انَّ اللّه على العرش استوى ، أو في جهة الفوق ، وأرادَ الحلول والاختصاص التام ، أو أسندَ الرحمة إليه ، أو الغضب ، وأرادَ رقّة القلب ، أو ثوران النفس على نحو ما يُعرف بينَ الأنام ، أو أسند الرزق الى المخلوق أو دعاه ، أو استغاثَ به على نحو ما يُسندهُ الى الملك العلام ـ كانَ خارجاً عن مقالة أهل الأسلام .

وأمّا مَنْ قَصَدَ بها معاني أُخر فليس عليه من بأس ولا ضرر ، وليس هذا كصنيع المُشركين فأنَّ الفرق ظاهرٌ كما سنبيّنُهُ كمالَ التبيين ، فالمستغيث بالمنسوب مستغيث بالمنسوب إليه ، والمستجير بالمكان مستجير بمن سلطانه عليه ، فمن أراد الأستجارة والأستغاثة بزيد فله طريقان : الأول : أن يهتف باسمه ، والثاني : أن ينادي بصفاته أو مكانه أو خدمه . وثانيهما أقرب إلى الأدب ، وأرغب لطباع أرباب الرتب ، فلا يكون المستغيث ببيت اللّه أو بصفات اللّه أو برسل اللّه أو المقربين عند اللّه إلاّ مستغيثاً باللّه . فكل من دعا مخلوقاً مقرباً عند اللّه أو استغاث به قاصداً بحسن التعبير ، الأستغاثة باللطيف الخبير ، فليس عليه بأس في ذلك ، بَلْ هو سالك في الآداب أحسن المسالك . وكذلك من أسند تلك الأشياء بمجرد الربط الصوري ، لا على قصد التأثير الحقيقي ، كما يُقال : أنبتَ الربيعُ البَقلَ ، والمُنْبِتُ هو اللّه ، وبنى الأميرُ القصرَ ، والباني غيره . فأطلاق (السيد) و(المالك) على غير اللّه وإضافة العبد والمملوك في الأحرار إلى غير اللّه إنْ أُريدَ بها الملكة الحقيقية ، كان خروجاً عن الطريقة الشرعية ، وإلاّ فلا بأس به بالكلية .

ولهذا ورد في الأخبار النبوية إطلاق (السيد) على غير اللّه . روى أبو هريرة عن النبي (ص) أنه قال : «أنا سيد ولد آدم يوم القيامة» ، وعن سعيد الخدري عنه (ص) أنه قال : «الحسن والحسين (ع) سيدا شباب أهل الجنة» ، وعن علي (ع) عن النبي (ص) قال : «أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة» ، وعن فاطمة (ع) قالت :«أخبرني النبي (ص) أني سيدة نساء العالمين» رواه الترمذي . وروى أبو نعيم الحافظ قال قال النبي (ص) : «أدعو لي سيد العرب علياً» ، وفي حلية الأولياء أنه (ص) قال لعليّ : «مرحباً بسيد المؤمنين» ، وعن أبي بكر عنه (ص) أنه قال : «إنَّ الحسن والحسين ابنيّ هذان سيدان» ، وعن عائشة عنه (ص) أنه سأل ابنته الزهراء فقال : «أمّا ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين أو المؤمنين» . وروى ذلك عن الصحابة أيضاً فعن جابر أنّ عمراً كان يقول أن أبا بكر سيدنا وأعتق سيدنا ،

يعني (بلالاً) ، رواه البخاري . وعن أبي بكر أنه قال : أتقولون هذا شيخ قريش وسيدهم ، وعن عائشة عنه (ص) أنه قال : «أنا سيد ولد آدم وعليٌّ سيد العرب» . ورُوي عنه (ص) أن : «سادات النساء أربعة : خديجة ، وفاطمة ، ومريم ، وآسية» . وعن عليٍّ (ع) : «أنا سيد البطحاء» . إلى غير ذلك مما يزيد على التواتر .

فالجمع بين هذا وبين ما روي في الكتب المعتبرة أنه جاء وفد إلى النبي (ص) فقالوا : أنت سيدنا فقال : «السيد الله» ، باختلاف القصد ، في معنى (السيد) . وكذا الاستغاثة بغير الله إن أريد بها الصورة أو من باب استغاثة العبد بقصد المعبود فلا بأس بها . وعلى ذلك قوله تعالى : «فاستغاثَهُ الذي من شيعته على الذي مِنْ عدوّه» ، وكذا قوله تعالى : «يستصرخه» ، وكذا إطلاق (الربّ) في بعض المعاني على غير الله كفر مع أن الصديق يوسف (ع) قال : «أذكرني عند ربك» . وكذلك إسناد الرزق إلى غير الله تعالى على وجه الحقيقة كفر ، وقال تعالى : «فارزقوهم منها واكسوهم وقولا لهم قولاً معروفاً» ، وقال تعالى : «يا أيها العزيز مسّنا وأهلنا الضرّ» . ونحو «استطعما أهلها فأبوا أن يضيفوهما» .

ومن ذلك قول القائل : لولا (فلان) لكان (كذا) ، فأن أراد أنه الفاعل المختار ، دخل في الكفار ، وإن أراد العلّة الصُورية ، بمجرد رابطة جزئية ، لم يكن عليه بأس بالكلية . ولذلك ورد عن سيد الأنام (ص) : «لولا قومي حديثو عهد بالأسلام لهدّمت الكعبة» ، وعن الثوري أنه قال : لولا هذه الدنيا لكان الملوك (كذا) ، وعن عمر أنه قال لعليّ لمّا أشار عليه بعدم أخذ حليّ الكعبة : لولاك لافتضحنا ، وعن النبيّ (ص) أنه قال لعليّ (ع) : «لولا أن تقول الناس فيك ما قالت النصارى لقلت كذا وكذا» .

وورد في صحيح الأثر عن الفاروق عمر ، أنه قال : لولا عليّ لهلك عمر ، ولم يرد عليه أحد من الصحابة ؛ إلى غير ذلك من كلمات هذه العصابة .

وكذا الحلف بغير الله إن أريد الحلف على جهة إثبات الدعوى كان خارجاً عن الشريعة وإلاّ لم يكن قَسَماً على الحقيقة . والحديث الذي فيه «مَنْ حلف بغير الله فقد أشرك» محمول على حقيقة الحلف . وسيجيءُ تفصيله في المقصد الخامس .

وكذلك إطلاق (اليد) و(الرِجل) و(القدم) ؛ وغير ذلك بالنسبة إلى الله تعالى على الحقيقة من غير تأويل ، لم يتوهمه سوى النزر القليل ، مع أنه روي عن أبي هريرة عن النبي (ص) أن النار لا تمتلئ حتى يضع قدمه فيها . ومن ذلك نسبة الضحك والعجب إلى الله تعالى فأن إرادة الحقيقة بعيدة عن الطريقة ، مع أن أبا هريرة روى عن النبي (ص) أنه قال : «لقد عجب الله وضحك من فلان وفلانة» ، ونقل قصته باختلاف المعاني ، التي بها

اختلفت المباني . وكذلك في مسألة الأفعال ، فإنها شبيهة بالأقوال ، فأن القيام للتواضع قَدْ ورد النهي عنه . وروى أبو أسامة عن النبي (ص) أنه خرج متكئاً على عصا فقمنا له فقال : «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم بعضهم لبعض» رواه أبو داود . وروى ابن عمر عنه (ص) أنه قال : «لا يقيمُ الرَجلُ الرجل من مجلسه ثم يجلس فيه ولكن توسعوا وتفسحوا» . وعن أنس أنه قال : لم يكن شخص أحب إليهم من النبي (ص) وكانوا إذا رأوه لم يقوموا لما يعلمون من كراهته لذلك ، رواه الترمذي وقال هو خبر صحيح . فينبغي أن ينزل المنع على قيام خاص كأن يقوم منحنياً كالراكع على نحو ما تصنعه الفرس القديمة قبل الأسلام ، أو على اختلاف الأغراض والمقاصد .

كما روي عن معاوية أنَّ النبي (ص) قال : «مَنْ سرّه أن يتمثّل له الرجال قياماً فليتبوء مقعدَهُ من النار» . ورُبّما ينزل كراهية لذلك على نحو كراهته لملاذ الدنيا وزهده في القيام كزهده في مباحاتها . فقد روى أبو سعيد الخدري أن سعداً جاء على حمار فلمّا دنا من المسجد قال النبي (ص) : «قوموا إلى سيدكم» .

وعن عائشة قالت : «كنتُ جالسة فجاء النبي (ص) فأردت القيام كما هي عادتي عند دخوله فمنعني» ، فأنَّ فيه دلالة على أن ذلك كان معتاداً . ولعل هذا المنع كان لسبب خاص أو للزهد وكسر النفس .

ورُوي عن النبي (ص) لمّا قدم جعفر ، مبشراً بفتح خيبر ، قام فقال : «ما أدري أنا بأيهما أشد فرحاً بقدوم جعفر ، أم بفتح خيبر» . مع ما ورد في الأخبار الكثيرة من استحباب التعظيم وأنه يدخل في تعظيم شعائر الله على نحو ما ورد في التفاسير المعتبرة .

وعن أبي هريرة أن النبي (ص) كان يجلس معنا في المسجد فيحدثنا فأذا قام قمنا لقيامه حتى نراه دخل بيوت أزواجه . وعن واثلة قال : قال رسول اللّه (ص) : «إنَّ للمُسلم لحقاً فإذا رآه أخوه تزحزح له» رواه البيهقي في خصال الأيمان . ولعل هذا مبني على أن التواضع يختلف أقسامه باختلاف الأزمان .

فكيف كان فالذي يظهر بعد التأمل التام ، اختلاف الأقوال والأفعال ، باختلاف المقاصد والأحوال . ومن ذلك اختلاف أحوال الزهاد فبعض ترك المآكل ، والملابس ، والحسان ، واقتصر على الجشب والخشن ، وبعضهم يأكل من أطيب المأكول ويلبس من أنعم الملبوس .

ثم أن الأفعال المختلفة بعضها لا ينسب إلى غير اللّه كأيجاد الكائنات وصنع المصنوعات ، وبعضها لا ينسب إلى اللّه تعالى كأفعال القبائح والمنفرات . وبعضها يختلف

معانيها ومقاصدها فينسب إلى الخالق مرة والمخلوق أخرى . وهذا القول متمش على قول من لم يثبت فاعلاً سوى اللّه . وعلى قول من أثبت . والمعيار أنه متى قام احتمال إرادة وجه صحيح بني عليه لقوله (ص) : «إدْرأوا الحدود بالشبهات ولا تقل في الناس إلاّ خيراً» . وما دل على النهي عن سوء الظن فكيف بالشك . وعن عائشة عن النبي (ص) : «إدرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم» .

فالناس إذنْ في أمثال هذه الأمور على أنحاء بين علماء عاملين مقاصدهم صحيحة فلا يتعمدون بالأقوال والأفعال إلاّ الوجوه السليمة من القيل والقال ، وبين أعوام جهّال ، بنوا على ما بنى عليه علماؤهم على الأجمال ،و ليس لهم قابلية التفتيش عن حقيقة الحال ، فهم أيضاً معذورون عند رب العزة والجلال ، وبين من بنوا على طريقة الضلال ، وعليهم المأخذة بضروب النكال .

والتحقيق أنّ تبدل الأحكام بتبدل الموضوعات ليس من باب التشريع والابداع ، مثلاً يستحب للنساء التزيّن للرجال ، فمنذ كان لبس السواد زينة استحبّ ، فأذا انعكس وصار الميل إلى الأحمر والأصفر انعكس الخطاب . وألوان اللباس تختلف باختلاف الناس ، ففي كُلّ وقت يستحب لون ونوع فأنّه قَدْ يكون في مكان لباس شهرة وفي آخر بعكسه ، وفي موضع من لباس النساء وفي آخر بعكسه . وكذا كانت رغبةُ الناس في طيب الكافور فكُرِهَ اليوم ، وكذلك إكرام الضيف بالمأكل ، وكذا المراكب فتختلف باختلاف الأحوال .

وكذا طريق التواضع وتعلية البناء ، ولباس الزهد ، والزهد في المأكول يختلف بأختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال والمقاصد ، وعلى ذلك مَبْنى كثير من مختلفات الأخبار . وكذا يُستحب التأهب بجهاد الكفار ، بأحسن السلاح ، وكان أطيبها السيوف والرماح ، وصار الأحسن في هذه الأيام ، (التفك)[1] المعروف بين الأنام . وكذا الوصول إلى بعض الأرضين ، لا يستحب حتى يجعل مقبرة للمسلمين . فاختلاف الأزمنة والأمكنة والجهات ، يبعث على إختلاف الأحكام لاختلاف الموضوعات ، ورُبّما بُني على ذلك اختلاف كثير من الأخبار ، وطريق المسلمين على اختلاف الأعصار .

فلنسأل اللّه أخي أن يهدينا وإياكم لسلوك الجادة المستقيمة ، والأخذ بالطريقة المستقيمة ، وأن يردّني إليك إن كنت على الحق ، ويردك إليّ إن كان الحق معي ومع أكثر الخلق .

---

(١) التُفك : البنادق .

الفصل الثاني: في بيان اختلاف ظواهر الآيات والروايات

و أنّ لكلّ من الحق والباطل مأخذاً ، كما روي أن لكل حق حقيقة ، ولكل صواب نوراً فمن أراد الحق إهتدى إليه ومن أراد الباطل كان له ميدان في المجادلة عليه . فمن خرج عن جادة الأنصاف ، وسلك طريق الغيّ والأعتساف ، ولم يرجع إلى سيرة الصحابة والتابعين ، أمكنه أن يستند إلى ظاهر القرآن المبين ، فيما يخرج عن شريعة سيد المرسلين . فأنّ الوعيدية المنكرين العفو ، الموجبين للمؤاخذة على المعاصي يمكنهم الاستدلال ، بآية الزلزال ، «فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره» الآية ، والوعدية القائلين برفع المؤاخذة بالكلية وأن اللّه تعالى لا يعاقب على معصية يصحُّ لهم الاستناد إلى قوله تعالى : «قل لعبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة اللّه ، إن اللّه يغفر الذنوب جميعاً» ووعده لا خلف فيه .

والمثبتون للرؤية في الآخرة يستندون إلى قوله تعالى : «وجوه يومئذ ناضرة إلى ربها ناظرة» ، والنافون إلى قوله تعالى : «لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار» .

والقائلون بأن اللّه على العرش بآية «على العرش استوى» ، والنافون بقوله تعالى : «إن اللّه معنا» و «إن معي ربي سيهدين» و «ما يكون من نجوى ثلاثة إلاّ هو رابعهم» .

والقائلون بالتجسيم حقيقة يستندون إلى قوله تعالى : «يد اللّه فوق أيديهم» ، والنافون إلى قوله تعالى : «ليس كمثله شئ» ونحوها .

والقائلون بجواز المعصية على الأنبياء يستندون إلى قوله تعالى : «وعصى آدم ربه فغوى» ، والنافون بمثل قوله : «لا ينال عهدي الظالمين» .

والقائلون باستناد جميع الأفعال إلى اللّه تمسكوا بقوله : «خالق كُلّ شئ» وقوله : «كُلّ من عند اللّه» ، والآخرون إلى قوله : «ما أصابك من حسنة فمن اللّه وما أصابك من سيئة فمن نفسك» .

والقائلون بأن الكفار مخاطبون بالفروع بعموم «يا أيها الناس اعبدوا ربكم» ، والنافون لذلك بخطاب : «يا أيها الذين آمنوا» ، إلى غير ذلك .

وكذا في الفروع الفقهية فأنّ كُلاً من الفقهاء له مأخذٌ من الكتاب والسنّة مغاير لمأخذ

صاحبه كما لا يخفى على المتتبع . ولمن أراد أن يبيح جميع الأشياء ما عدا الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ به لغير اللّه من جميع ما خلق[1] .

والحاصل أن كُلّ من أراد العناد والعصبية ، فله مدرك يثبت به من آية قرآنية ،وسنّة محمدية ، ويكون صاحب مذهب ورأي ، ويباحث العلماء والفضلاء ، ويناظر أساطين العلماء ، ما لم يكن له حاجب من تقوى اللّه .

ولقد أجاد بعض القدماء من فحول العلماء حيث يقول : «إن المسائل الشرعية عندي بمنزلة الشمع اللين أصوّرها كيف أشاء لولا تقوى اللّه» .

ونُقل أن بعض الفضلاء أخذ قطعة قرطاس في محفل من الناس فأورد عليهم براهين أنها قطعة من ذهب حتى أقروا بذلك .

ولكن من أراد رضا الجبار ، ورجا الفوز بالجنة والعتق من النار ، ينظر إلى المعادلة في الدلالات ، ثم ينظر المرجحات الخارجيات ، وأولها التأمل في طريقة الصحابة وسيرتهم فأنّها أعظم شاهد على ما حكم به الجبّار ، وجرت عليه سنّة النبيّ المختار ، فأنّ لكل ملّة طريقة يرجعون إليها ، ويعوّلون عند الاشتباه عليها . وقد يحصل العلم بما عليه الأمراء من النظر إلى عمل أتباعهم وأشياعهم ورعاياهم وخدمهم وحشمهم لأن الأثر يدل على مؤثره ، والمنتهى يدل على مصدره ، والبعد بيننا وبين زمان الصدور ، رُبّما أخفى علينا كثيراً من الأمور ، فأذا حصل الأجماع والأتفاق ، ارتفع النزاع والشقاق ، وكذلك إذا اشتهر بين السلف وظهر ، فلا وجه للأنصراف عنه إلى ما شذّ وندر ، فقد علم أن الميزان الذي لا غُبنَ فيه ، ولا نقص يعتريه ، هو الرجوع إلى كلام الصحابة والتابعين ، وتابعي التابعين ، لأنه موضح وكاشف لحكم سيّد المرسلين .

ولما اختلفت الاخبار في بعض ما أوردناه وشرحناه لزم الرجوع إليهم ، والاعتماد في تنقيح الاخبار بعد اللّه عليهم . على أن الأخبار الدالة على جواز ما منعه المانعون أكثر مورداً ، وأوفر عدداً ، وأقرب إلى ظاهر الكتاب ، والسنّة وكلام الأصحاب .

هدانا اللّه وإياك يا أخي لإدلال حقائق الأمور والتجنب عن الظنون ، ووفقنا للسعادة لديه يوم لا ينفع مال ولا بنون ، وجعلنا من المتمسّكين بالعروة الوثقى ، والمتشوّقين إلى الدار الآخرة التي هي خير وأبقى ، واللّه وليّ التوفيق ، وبيديه أزمّة التحقيق .

---

(١) هكذا وردت العبارة في الأصل ، وفي نسخة «منهج الرشاد» المخطوطة : فلمن أراد أنْ يُبيحَ جميع الأشياء قوله تعالى «خلق لكم ما في الأرض» ، ومَنْ قَصرَ التحرم على أربعة استندَ الى ما دلّ على تحليل جميع الأشياء ما عدا الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهِلّ به لغير الله من جميع ما خلق الله .

الفصل الثالث: في بيان الميزان الذي يرجع إليه عند اشتباه الأمور

وهو ما عليه الصحابة والتابعون، وما أجمع عليه المسلمون. قال تعالى: «ومن يبتغ غير سبيل المؤمنين نولّه ما تولّى»، وقال: «إنما يريد اللّه أن يذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهّركم تطهيراً». وعن ابن عمر عن النبي (ص) أنه قال: «لا تجتمع أمتي أو أمة مُحَمَّد على ضلال»، و«يد اللّه مع الجماعة»، و«من شذّ في النار»، رواه الترمذي. وعن ابن عمر عنه (ص) أنه قال: «اتبعوا السواد الأعظم فأنّه من شذّ شذّ في النار»، وعن عمر عنه (ص): «من سرّه بحبوحة الجنّة فيلزم الجماعة فأنَّ الشيطان مع الواحد، وهو مع الأثنين أبعد». وعن أسامة ابن شريف عنه (ص): «أيما رجل يفرق بين أمتي فاضربوا عنقه»، رواه النسائي. وعن النبي (ص): «إن اللّه أجاركم من خلال ثلاث، وعدّ منها أن تجمّعوا على ضلال». وعنه (ص): «ما اجتمعت أمتي على خطأ». وقال علي (ع) في خطبه: «عليكم بالسواد الأعظم وإن الشاذّة للذئب». وعن عمر عن النبي (ص): «أصحابي كالنجوم بأيهم إقتديتم إهتديتم». وعن رزين عن عمر عن النبي (ص) قال: «سألت ربي عن اختلاف أصحابي فأومأ إليّ أن أصحابك كالنجوم بعضها أقوى من بعض، ولكل نور فمن أخذ بما هم عليه فهو عندي على هدى». وعنه (ص): «مثل أهل بيتي كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلّف عنها هلك». وعن أبي هريرة عنه (ص): «لو سلك الناس وادياً وسلك الأنصار وادياً لسلكت وادي الأنصار». وعن زيد بن أرقم قال: قام النبي (ص) خطيباً فقال: «أيها الناس إنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم الثقلين كتاب اللّه فيه الهدى وأهل بيتي أذكركم اللّه في أهل بيتي»، رواه مسلم.

وعن جابر قال: رأيت النبي (ص) في حجته يخطب فسمعته يقول: «أيها الناس إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي كتاب اللّه وعترتي أهل بيتي»، رواه الترمذي.

وقريبٌ منه ما رواه زيد بن أرقم. عن حذيفة عنه (ص): «إقتدوا بالذي من بعدي أبي بكر وعمر». وعن جبير بن مطعم عن النبي (ص) إن امرأة قالت له: إن لم أجدك فإلى من أرجع قال: «إئت أبا بكر». وعن ابن عمر عنه (ص): «وضع الحق على لسان عمر يقول به». وعن أبي ذر مثله. وعن عقبة بن عامر عنه (ص) أنه قال: «لو كان بعدي نبي لكان

عمر» . وعن سعد بن أبي وقاص أن النبي (ص) قال لعلي (ع) : «أنت مني بمنزلة هارون من موسى» . وعن عبد الله بن عمر عنه (ص) أنه قال : «ما أقلّت الغبراء ولا أظلّت الخضراء من ذي لهجة أصدق من أبي ذر» ، رواه الترمذي . وعن النبي (ص) أنه قال : «اللهم عدّل الحق مع علي حيثما دار» ، رواه الترمذي . وعن عمار عن النبي (ص) قال له : «إذا سلك عليّ طريقاً وسلك الناس غيره فاسلك طريق علي» . وعن ابن مسعود عنه (ص) : «أصحابي كانوا أفضل هذه الأمة وأبرّها قلوباً وأعمقها علماً» إلى أن قال : «فاعرفوا لهم الفضل واتّبعوهم على آثارهم وتمسّكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرتهم فأنّهم كانوا على هدى مستقيم» رواه الرزين . وعن عرباض بن سارية قال : صلى بنا رسول اللّه (ص) ووعظ ثم قال : «إنه من يعيش بعدي منكم فيسرى اختلافاً كثيراً ، عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين بعدي ، تمسّكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ ، وإياكم ومحدثات الأمور فأنَّ كُلّ محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة» ، رواه أحمد وغيره .

وعن أبي هريرة عن النبي (ص) أنه قال : «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية» . وعن الحارث الأشعري عنه (ص) أنه قال: «من خرج من الجماعة بقدر شبر فقد خلع ربقة الأسلام من عنقه» . وعن ابن عباس عن النبي (ص) : «من فرق الجماعة بشبر مات ميتة جاهلية وخرج من الطاعة وفارق الجماعة» . وعن عبد اللّه بن عمر عنه (ص) : «إن أمتي تفترق على ثلاثة وسبعين فرقة وليس فيها ناج سوى فرقة واحدة» فسُئل عنها فقال : «ما أنا عليه اليوم وأصحابي» ، إلى غير ذلك من الأخبار .

ومقتضى ذلك أنه من اللازم الرجوع إلى سيرة الصحابة وطريقتهم وأنها الميزان إذا أشكلت علينا الأمور ، وتعارضت الأدلة . وسيتضح أن جميع ما ينكر من هذه الأفعال الموردة صادرة عن الصحابة وطريقتهم مستمرة عليه مع أن في السنة ما يدل على جوازه . وما ورد عنه (ص) أن «الأسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً» فلا ينافي ما ذكرنا لأن فرق الأسلام بين طوائف الكفر كنقطة في بحر .

روى أبو سعيد الخدري عن النبي (ص) : «ما أنتم في الناس إلاّ كشعرة بيضاء في جلد الثور الأسود» . وعوده غريباً في أيام الدّجّال ونحوه يكفي في صدق الخبر .

وروى عبد اللّه بن مسعود عنه (ص) قال : «لا تقوم الساعة إلاّ على شرار الخلق» ، رواه مسلم . عن أبي سعيد الخدري عن النبي (ص) أنه قال : «لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الأرض اللّه» .

وكل ما صدر في زمن الصحابة من الأعراب وكان بمحضر منهم ولم ينكروه فهو موافق

لرضاهم وإلا لأنكروه . ولهذا أوردنا في هذه (الرسالة) كثيراً مما صدر في زمانهم منهم ومن غيرهم .

وعلى كُلّ حال فلا كلام في أن الأدلة فيها عام وخاص ، وفيها ناسخ ومنسوخ ، وفيها مجمل ومبين ، وفيها مطلق ومقيد ، ومنها قطعي السند وظني الدلالة ، ومنها ظنيُّ المصدر قطعيُّ الدلالة ، ومنها ظنيهما ، ومنها قطعيهما . ومن جهة اختلاف السند منها صحيح ومنها ضعيف ومنها حسن ومنها موثّق وقوي إلى غير ذلك . فأذا تعارضت الأدلة فلا بُدَّ من النظر إلى المرجّحات من جهة السند ، أو من جهة الدلالة ، أو من جهة السّبك في العبارة ، أو من جهة كثرة الروايات ، أو من جهة شهرة الفتوى ، أو من جهة موافقة الأصول ومخالفتها ، أو من جهة موافقة العموم ومخالفتها ، أو من جهة موافقة الكتاب وعدمها ، إلى غير ذلك .

فإذا فقدت المُرجّحات وقامت الحيرة فلا يبقى مدار إلاّ على خيرة الصحابة وطريقتهم والنظر إلى ما هم عليه صاغراً عن كابر ، وأولاً وآخر . وما نحن عليه اليوم ، من طريقة القوم ، أغلب الرويات موصلة إليه ، وطريقة الصحابة مستمرة عليه . وقد ذكرت منها قليلاً من كثير ، ليعلم حال السلف ويرتفع عن خلفهم النكير .

ويا أخي ، وحقّ من رفع السماء ، وبسط الأرض على الماء ، إني لمّا أحببتُك لمكارم أخلاقك ، وحسن سيرتك مع الناس وإرفاقك ، خشيتُ عليك من حمل راية القدح في المشايخ الكبار ، والعلماء الأبرار ، الذين هم للشارع نوّاب ، ولمدائن الشرع أبواب . ونسأل اللّه أن يعصمنا وإياكم ، ويكفينا شر الجهل ويكفيكم وكفاكم ، واللّه الموفق .

وأما المقاصد فثمانية:

الأول: في تحقيق ضروب الكفر

وأقسامه كثيرة :

أولها : كفر الأنكار ، وذلك فيما إذا أنكر وجود الأله وأثبت أن غير اللّه هو اللّه وأنكر المعاد ، أو نبوّة نبينا أشرف العباد .

ثانيها : كفر الشرك ، كما لو أثبت الشريك للواحد القهار ، أوفي نبوّة النبي المختار .

ثالثها : كفر الشكّ ، فيما لو شَكّ في إحدى الثلاثة التي هي أصول الأسلام ، في غير

محل النظر ولا عبرة بالأوهام التي هي كخيالات المنام .

رابعها : كفر هتك حرمة الدين ، بالبول على المصحف أو في الكعبة ، أو سبّ خاتم النبيين .

خامسها : (كذا) . . .

إنتهى ما ظفرتُ به من هذه الرسالة . وأنا أسأل اللّه أن يرزقنا هذا التوفيق تمامه وكماله ، ويعثرنا على باقي هذا الكتاب ، إنه هو الكريم الوهاب .

وأنا أرجو من إخواني المؤمنين أن يبذلوا ثمار الجهد في الفحص والاستفسار والتفتيش عن هذه الرسالة فأذا ظفروا بها فليلحقوا الباقي بالماضي ، ولهم جزيل الحمد والثناء ، مني ومن مصنّفها (قدّس اللّه روحه) .

الحادثة الثانية: واقعة الزقرت والشمرت

البلية التي هي حتى اليوم باقية ، واقعة الزقرت والشمرت التي فنيت بها خلائق لا يُحصي عددَهم إلاّ اللّه . وقد أُختلف في سببها ، والأقرب إلى الأعتبار ما حدثني به شيخنا الأجل ، وعمادنا المبجّل ، عمّي العباس ابن المحقق الشيخ عليّ (رحمه اللّه) أن الشيخ الكبير لمّا كثرت الغارات على النجف من أعراب البوادي خصوصاً من الوهابي وأصحابه ، فأنّه غزاها مراراً كثيرة ، وفي كُلّ مرّةٍ لا بُدّ أن يقتل رجلين أوثلاثة ممن يظفر به خارج البلد ، ثم يحول اللّه بينه وبين ما يروم من دخولها وإتلافها بشئ من تقديراته وأسبابه ، حتى آل الأمر أن المرأة الحامل إذا سمعت بمجئ الوهابي تُلقي ما في بطنها وتموت ، والرجل يبكي بكاء الثكلى .

وكان (سعود) هذا إذا جاء إلى (النجف) نزل في (الرحبة) عند السيد محمود الرحباوي فيُكرمه غاية الأكرام ، ويحترمه نهاية الأحترام ، حتى قيل إنَّ السيد محمود هو الذي كان قَدْ دلّهَ على (النجف) وأرشده إلى طريق غزوها . فبعث الشيخ إلى السيد محمود أن هذا الرجل إذا جاء إليك عازماً على السوء ، فالذي ينبغي منك أن ترسل إلينا مُخبِراً لنستعد له ، ولقتاله وحربه ، ولا يدخل علينا غفلة فلا نطيق دفاعه ، هذا إذا لم تؤدِ ما يجب عليك من إمداد إخوانك أهل (النجف) والدفاع عنهم بنفسك وجندك . فما أجاب إلى شئ من ذلك ، وقال أنا رجل ذو مزارع وأراضٍ وأخشى على نفسي ومالي من هؤلاء لأني طعمة بين أيديهم .

فالتجأ الشيخ إلى اختيار عدة من شبّان (النجف) وعيّن لهم وظائف من المال ، واشترى لهم أسلحة كاملة ، وجعلهم مرابطين في حدود النجف من جهاتها الستة على رأس أميال منها . وكان من جملتهم سوّاد العكايشي (جدّ العشيرة المعروفة اليوم بهذا الأسم) ، ومنهم عباس الحداد وكان أول أمره حداداً ثم انضم إليه بعض الصبيان من محلته ، فجعلوا يخرجون إلى خارج البلد ويتصيّدون الطيور والضباء ويلعبون في الأباطح والأودية ، وهم يلهجون بقول (زقرت) أو (زقرتات) ، يعني نحن عدة بلا سلاح نتصيد ونستأنس . ومنه يقال (فلان) أو (أنا) زقرتي أي أنا بنفسي ليس لي شيء .

فلما عزم الشيخ على تهيئة المرابطين وجمع الصبيان جعل عباس الحداد وأصحابه منهم فكانت عدتهم مائة أوأقل . فكان إذا جاء الغزو حاربوهم حتى يدفعونهم . وكان ينضمُّ إليهم مددٌ من (الملائية) و(المشتغلين) وكانوا ذوي أسلحة وعُدّة ، حتى قتلوا كثيراً من أصحاب (سعود) وابنه في أغلب الغزوات وأسروا بعضهم وبعثوهم إلى (الشيخ) .

فاستمرالحال على ذلك حتى انقطع الغزو عن أهل (النجف) وأمنوا الغارات يسيراً إلى أن تغير الشيخ على السيد محمود الرحباوي ، وكان من سادة يُعرفون ببيت (أغا جمال) ، هاجروا من (العجم) لطلب العلم وسكنوا (النجف) ، ولهم دُور كثيرة فيها ؛ منها الدار المعروفة بدار الأرواني ، وجميع جوانبها لهم أيضاً .

وكان السيد محمود ذا ثروة وأموال فأخبره بدويّ أن في المكان (الفلاني) عين ماء تهايل عليها الرمل حتى أخفاها ، وهي عين عظيمة تكون عليها مزارع كثيرة فإذا بذلتَ عليها المصارف استخرجتُها لك حتى تملكها . فبذل السيد وخرجت العين وبنى عليها قصراً عظيماً وسكن فيه . وما مضت الأيام والليالي إلاّ و(الرحبة) كبغداد لكثرة ما فيها من البساتين المملوءة بالفواكه من عنب ورمّان وتين وغير ذلك من البقول كالبطيخ والرقي ؛ ثم من الحبوب الحنطة والشعير والأرز ، وصار يُجبى منها ذلك إلى (النجف) وسائر الأطراف ، حتى (يخيس) من كثرته .

وعَظُمَ أمرُ السيد في الرئاسة والشهرة عند العرب والقبائل لأنه كان من الجود بالمرتبة القصوى . فمن ذلك أن له في قصره بركة في الأرض عميقة واسعة يضع فيها الطعام ليلاً ونهاراً ، وكان الفارس إذا مرّ بها يتناول منها حتى يشبع وهو على فرسه ، ويجتمع أعراب البوادي عليها ، وهكذا كان دأبه . ومنها أنه إذا صار وقت حاصل كُلّ ثمرة ، أو حصاد المزارع خرج إليه أغلب أهل (النجف) فيعطي كُلّ واحد منهم ما يكفيه سنته من الثمرات . وهكذا أغلب فقراء القبائل من أهل البوادي فملأ ذكره الأرض ، وتجاوز صيته (الحجاز) و(اليمن) ،

وصار يُقصد من أقاصي البلاد .

ولكن كان الشيطان قَدْ وسوس له وحسَّنَ في عقله أن لا يجنيَ في داره وقصره شيئاً من الأناث بجميع أنواعها ، ويقول أنا لستُ (قواداً) حتى أوقع التناكح في منزلي ، ويرى أن تشبيته الفرس من الحصان ، وإرسال الفحل على النوق ، وإعطاء الأخت أو البنت للزواج من أشد العار بالرئيس . وكانت له أختان الأولى : أم السّعد ، والثانية رخيتة ، وقد بلغا مبلغاً من العمر وهو لا يرضى بزواجهن ، وأولاد عمهن يخطبونهن منه وهو يأبى ويمنع ويحيل ذلك . فبعثتا إلى (الشيخ) تشكيان أخاهن إليه ، وأنه قَدْ أسرنا ومنع بني عمنا ، وهذا لا يجوز حتى عند الكفرة وعبدة الأصنام .

فبعث الشيخ ينهاه عن ذلك فلم يعبأ به . فتكدر الشيخ زيادة على كدره أولاً منه ، وفي أمر الوهابي المُنبئ عن تصحّبه له ، فأعرض عنه (الشيخ) .

أمَّا بنو عمه فحيث لم يزوجهم أخواته ، ويأسوا من ذلك غضبوا عليه وتكدروا منه ، وكانوا شركاءه في أملاك (الرحبة) ، فطلبوا منه (القِسمة) فطردهم وأنكر ذلك ، فاشتكوا إلى (الشيخ) الكبير منه ، وطلبوا من الشيخ أن يدعوه إليه حتى يتداعيان فيتبيّن ألهم حقٌّ أم لا . فامتنع الشيخ عن ذلك ، وقال : هذا رجل طاغ لا أدخل نفسي في أموره ، وأصر على الامتناع ، فكلموا باقي (العلماء) فأبوا وقالوا : إذا امتنع الشيخ فنحن بالطريق الأولى . فرجعوا إلى دار الشيخ وجلسوا يبكون ويقولون : إلى مَنْ نمضي ومن يستنقذ حق المظلوم من الظالم ، وهذا رئيس ممتنع عن ذلك .

فمضى الشيخ موسى وكلَّمَ أباه في ذلك وقال له : لعلَّما يكون في إمتناعك إشكال وحرمة لأنك رجل قادر مبسوط اليد وهذا أمر منكر ، وشأنك الأمر بالمعروف ، فما زال به حتى خرج الشيخ وأمر جماعة من المؤمنين المتسلحين الذين يسمّون بـ (البواردية) وضم إليهم جماعة من أهل النجف فيهم عباس الحداد ، وكان قَدْ درج حاله وظهر له اسم بالشجاعة . وقال له : إمض أنت وأصحابك إلى (محمود) فقل له : يدعوك (جعفر) للحضور مع بني عمك في مجلس الشرع . فلبس عباس لامته ودعا أصحابه فابتدر له سبعون كاملو العدة . وأتوا (الرحبة) ونزلوا القصر ، والسيد بأعلاه ، فأخبره حراسه أن هؤلاء قوم الشيخ يريدون الاجتماع معك ، فقال أخرجوهم ، وسدوا أبواب القصر وقولوا : السيد لا يريد مواجهتكم . فخرجوا وتفرقوا جماعة جماعة ، ونزلت كُلّ واحدة عند من تعتاد النزول عنده ، ثم بعثوا أحدهم بالخبر إلى الشيخ ، فتكدر غاية الكدر وبقي يرتعش من انزعاجه ساعة . ثم قال له : قل لأصحابك لا ينبغي لأحد أن يتخلف عن دعوة الشرع ويتكبر عليه ،

بقتله ، فقال : إذا كان الشيخ قتله فهو مقتول بسيف الشريعة ، والمقتول بسيف الشريعة لا ثأر له .

وأما مُلا مُحَمَّد فاستمر على عمله وجعل يترقب الفرص بالشيخ موسى ، وباقي أولاد الشيخ جعفر ويسعى بهم إلى حكام بغداد ليقتلوهم كما سيأتي في أحوال الشيخ موسى . وجعل يطعن في بيت الشيخ فتارة يتمسك بقول سميّه الأخباري المتقدم ، وتارة يقول : الشيخ جعفر إبن عم الوهابي أو أخوه ، إلى غير ذلك من التشنيعات . واشتد أذاه وضرره على الناس حتى جعل يقتل أصحاب الشيخ ليلاً بالغيلة ، فخرج الشيخ موسى من النجف غَضِباً عليه كما سيأتي .

والحاصل كانت عاقبة أمره أنْ ضربه رجل من (الزقرت) هجم عليه وهو في رواق الحرم المطهر ، فوقعت الرصاصة في فمه فمات من ساعته . فقام أصحابه وقد تسمّوا مقابل الزقرت (بالشمردل) أو الشجاع ، ثم صارت (شمرت) ، وانضم إليهم كثير ممن يطلب بثار السيد محمود فتسلحوا ولزموا (الصّناكر) ؛ وهي الحصون العالية من مساجد أو منائر أو دور كذلك . وجعلوا يضربون بالمكاحل إلى جهة الزقرت ، ففعلوا الزقرت مثلهم وانضم إليهم (الموامنة) و(الملائيّة) وكانوا طوائف وقبائل تتصل بأعراب العراق كالهلالات والظوالم والخزاعل وغير ذلك . وكانوا كاملي العدة من السلاح . وما زالت الملائية ذوي أسلحة وسيوف و(تُفك) إلى زمان الشيخ مُحَمَّد ؛ فأن الرئيس من بيت الشيخ يشتري لهم عدة كاملة من السلاح لكل واحد من المؤمنين فيجعلها في (الطنبيّة) الكبيرة ، فإذا صار وقت الحاجة أتى كُلّ واحد فلبس لامته وخرج إلى المحاربة أو المدافعة .

وسمعتُ من الشيخ الأجل الشيخ صالح[١] بن المرحوم الشيخ مهدي أنه ممن شهد في زمان الشيخ مُحَمَّد[٢] بن الشيخ علي في (الطنبيّة) مقدار سبعين لامة حرب كاملة للملائية . وسمعتُ من شيخنا الأجل عمي الشيخ عباس[٣] بن الشيخ علي (ره) أن أخاه الشيخ مهدي[٤] قبل أن يتوفى بأيام قال له : عندي شيئان من آثار آبائك وأجدادك أريد أن أظهرك عليهن :

الأولى : وقفيّات هذه الدور التي هي نسخ الأصل ، (ثم أعطاه الأوراق) .

---

(١) الشيخ صالح بن الشيخ مهدي بن الشيخ علي بن الشيخ جعفر الكبير . ولد سنة ١٢٤٨هـ / ١٨٣٢م ، وتُوفي سنة ١٣١٧هـ / ١٨٩٩م .

(٢) الشيخ مُحَمَّد بن الشيخ علي بن جعفر الكبير . تُوفي سنة ١٢٦٨هـ / ١٨٥٢م .

(٣) كان من كبار العلماء والأدباء ، وُلد سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٧م ، وتُوفي سنة ١٣١٥هـ / ١٨٩٧م .

(٤) تُوفي الشيخ مهدي في شهر صفر سنة ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م .

والثانية :خزينة عظيمة في الأرض فيها من (التفك) ، والرصاص ، والبارود مقدار لا يحصى وهي في المكان (الفلاني) من الدار الكبيرة التي هي اليوم (برّاني) ، وقد إدخرتْها المشايخ لحوادث النجف .

ثم ولي حكومة النجف ملا سليمان[1] بن ملا مُحَمَّد واستمرت الفتن والحروب بين الطرفين فعزل الشيخ موسى ملا سلمان بأمر داود باشا ونَصَّب عباس الحداد على أن يقطع هذه الفتن ويخمد نارها . فترأس وعظم أمره وأخرج أغلب الشمرت ، وقتل أكثرهم ونفى بعضاً من أصحابه (الزقرت) تمويهاً ، فخمدت الفتنة أياماً . ثم استعرت وبقيت كذلك تخمد وتستعر ، واشتد حنق (الشمرت) على عباس وصار أكبر همهم في قتله ، فعجزوا عنه إلاّ بالغيلة . فجاء إليه بعض المطرودين ممن كان لا يعرفه أو نساه فخدمه سنتين وصار من (نواكره) المقربين ، وأظهر له الصفاء والأخلاص حتى اطمأنّ منه ووثق به . وكان عباس لا يفارق السلاح دقيقة واحدة على كثرة من يحرسه . وكان سلاحه الخنجر يشدّه في وسطه . فقال له يوماً ذلك الخادم المخادع : أنت لا ينبغي أن تحمل السلاح إلاّ للزينة ، فيلزم أن تجعل على خنجرك قضبات وسلاسل من الفضة والذهب فأنّه لك أهيب . فجعل له ست قضبات فصار يعسر استخراجه على السرعة .

ثم قال له بعد ذلك : لا بُدَّ للرئيس من مترجم ، وأحسن منه أن تتعلم بنفسك (العجمية) و(التركية) لتقضي مرادك مع حكام (العصملّي) و(خوانين) العجم ، وهذا معلم لك فتعلم منه . ودلّه على رجل قَدْ تواعد معه على قتله وعلّمهُ الطريق . فجاء الرجل وقال : ينبغي أن تجعل لتعليمك مجلس خلوة لا يأتيه الناس كيلا يستخف بك أحد ، فأجاب إلى ذلك ، وعيّن في (الصحن) حجرة خاصة يدخل هو والمعلم فيها وذلك الخادم . فلما كان اليوم الثاني أو الثالث قتلوه في ذلك المجلس ، فكان عباس كلما أراد أن يخرج خنجره من غمده لا يخرج لِما التف عليه من السلاسل . فقطع الخادم رأسه وملأ من دمه طشتاً وجاء به هو وأصحابه وأتوا بخيار وخبز وجعلوا يأكلون ويغمسّون الخيار والخبز بذلك الدم .

فلما قُتِل جاءت (الملالي) إلى بيت الشيخ واعتذروا من إساءتهم ، وعاهدوهم ألاّ يعودوا في مكر ، ولا يثيروا فتنة . فعفت المشايخ عنهم وأرجعوا إليهم حكومة النجف فاستمرت بيدهم إلى مُلا يوسف[2] .

---

(١) تولّى سدانة الروضة الحيدرية بعد مقتل أبيه المُلا مُحَمَّد طاهر سنة ١٢٤٢هـ ، وكان طرفاً في النزاع بين (الشمرت) و(الزقرت) . قُتِلَ سنة ١٢٤٨هـ بيد عباس الحدّاد بن جواد العبودي الذي كان مدعوما من السلطة التركية في العراق . وقد قُتِلَ عباس الحداد أيضاً .

(٢) مُلا يوسف بن مُلا سليمان تُوفي سنة ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م . أصبح حاكماً على النجف ، ولمّا قويتْ شوكته ، ←

ثم تغيرت الأمور حتى صاروا عبرة في الأرض ، فسبحان اللّه المعمّر المدمّر وله الحمد أولاً وآخراً .

هذا مجمل ما حدثنا به (أدام اللّه بقاءه) من أمر هاتين الفرقتين ، وقد ذكر لنا في بعض المجالس إبتداءهم ، وتفصيل وقائعهم ، وما قتل منهم من الخلائق إلى اليوم . وقد ذكرنا لك هنا موضع الحاجة منها ، ولخروج الباقي عن مقصد الرسالة أعرضنا عنه .

واستتبّ له الأمر ، تنكّر للزقرت ، واعتقل عدداً من رؤسائهم بخديعة (ذكرها المؤرخ مُحَمَّد حرز الدين في معارف الرجال ، ج٣ ، ص٣٠٠) ، ثم ذبحهم ذبحاً في سرداب داره . إلاّ أنّ الشيخ مُحَمَّد بن الشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء تمكن من عزله عَنْ منصبه في حدود سنة ١٢٥٥هـ / ١٨٣٩م بتوسطه لدى والي بغداد علي رضا اللاز ، وعيّن السيد رضا الرُفيعي لرئاسة (السدانة) ، ومفاتيح الخزانة العلوية . وقد قُتل السيد رضا الرُفيعي سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م .

الفصل الخامس

فيما قال من الأشعار وما قيل فيه من تهانيه ومراثيه

إعلم أن من منح اللّه الكريم، لهذا الشيخ العظيم، أنه على سعة علمه، وكثرة اشتغاله في الفقه وشهرته، له ملكة في النظم وقوة فيه كملكة الشاعر الذي صرف عمره في ذلك، وتوغل في تلك الشعوب والمسالك. وهو لم يشتغل فيه ولا يوم واحد بَلْ يجري على صرف بديهته، وجودة فكرته، وحسن سليقته.

وقد حدثنا شيخ الاسلام، في هذه الأيام، الشيخ مُحَمَّد طه نجف[1] (أدام اللّه وجوده)، عن خاله الشيخ جواد نجف[2] أن الشيخ الكبير كان جالساً في بعض الأيام بين أصحابه فجرى ذكر الشعر بينهم وأنه من أعظم الكمالات، فجعل الشيخ يتأسف ويقول: أنا محروم من هذه الفضيلة. ثم قال: أريد أن أجرّب نفسي هل لها قوة في النظم ولو بيتاً واحداً.

يقول الراوي: فتأمل الشيخ زماناً ثم قرأ بيتاً لنا في مدح الأئمة وإذا هو جيد النظم موزون، حسن السبك، فمدحنا نظم الشيخ له واستأنس هو بنفسه وقال: إني لشاعر ولا أعلم بذلك. ثم قال: إن اللّه قَدْ ستر على الشعراء حيث لم يجعلني منهم وإلا فما كنت أبقي سوقاً لهم. فقام إليه رجل من تلاميذه فقال: يا مولانا ما كان ذنب العلماء حتى لم يستر اللّه عليهم فجعلك منهم. فضحك الشيخ والحاضرون.

وأنا مورد لك هنا نبذة من أشعاره لليُمن والبركة، ولتعلم أن الشيخ حقيق بأن يقول:

أنا أشعرُ الفُقهاء غير مدافع ... في الدهر بَلْ أنا أفقهُ الشُعراءِ
شعري إذا ما قُلتُ دوَّنهُ الورى ... بالطبع لا بتكلُّف الألقاءِ
كالصوتِ في قُللِ الجبالِ إذا علا ... للسمعِ هاجَ تَجاوبُ الأصداءِ

---

(١) تُوفي سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م. وهو من كبار علماء عصره الفقهاء.
(٢) الشيخ جواد بن الشيخ حسين نجف. تُوفي سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م.

وكان أغلب شعره مدحاً ورثاءً في السيد العلامة الطباطبائي (رحمهما اللّه) . فمنه ما أورده له فيه السيد محمود الطباطبائي في «المواهب السنيّة» ، وهو :

لسانيَ عَنْ إحصاء فَضلكَ قاصرُ وفكريَ عَنْ إدراكِ كُنْهِكَ حاسرُ
جَمعتَ من الأفضالِ كُلَّ فضيلة فلا فضلَ إلاّ عن جنابكَ صادرُ
يُكَلِّفُني صحبي نشيدَ مديحكم لزعمِهُمُ أني على ذاك قادرُ
فَقُلتُ لهُمْ هَيهاتَ لَستُ بقائل لشمسِ الضُحى يا شمسُ نورُكِ ظاهرُ
وما كُنتُ كالبدرِ المنيرِ بناعتٍ له أبداً بالنورِ والليلُ عاكرُ
ولا للسما بُشراكِ أنتِ رفيعةٌ ولا للنجومِ الزُهرِ أنتِ زَواهرُ

ومنه ما أورده أيضاً له فيه (رحمهما اللّه جميعاً) :

إليك إذا وَجّهْتُ مَدحي وجدتُهُ مَعيباً وإنْ كانَ السليمَ من العَيبِ
إذ المدحُ لا يحلو إذا كانَ صادقاً وَمَدحُكَ حاشاهُ مِن الكذبِ والريبِ

وله أيضاً في مدح السيد (رحمه اللّه) من علّة أصابته :

الحَمدُ للّه على عافية كافية لخلقه شافيتكْ
قد ذابَ قلبُ الوجد في تاريخها (شفاءُ داءُ الناسِ في عافيتكْ)

وأنت ترى أن قوة هذا الشعر ، وجودته خصوصاً إذا كان التاريخ يزيد على تلك السنة ثلاثة فأنّه يصير حينئذٍ في أعلى مراتب الحُسن ، لأن المراد بقلب الوجد هو (الدجو) ، يعني ذابت الظلمة كناية عنْ ذهاب الغم ببرئه ، وفيه تورية بإسقاط ثلاثة فأنّ (الجيم) هو القلب أي الوسط ، ويكاد أن يقال هذا الشعر ليس له لمزيد قوته وحسن صناعته ، وشعر العلماء ملازم للركّةِ والانحطاط . إلاّ أنك تعلم أن هؤلاء قوم حووا من كُلّ مكرمة أدقها وأجلها ، ومن كُلّ فضيلة أتمها وأجلها . وأحسن من هذا قوله يرثي ذلك العلامة (رحمه اللّه) بقصيدةٍ بديعة ، وهي :

قصيدة للشيخ الكبير في رثاء العلامة الطباطبائي

إنَّ قلبي لا يَستطيعُ اصطبارا وقراري أبى الغَداةَ القَرارا
غشيَ الناسَ حادثٌ فترى الناسَ سُكارى وما هُمُ بسُكارى

غَشَيـتْـهُمْ من الهُمـوم غَـواش   هشَّـمتْ أعظمـاً وقَـدَّتْ فِـقـارا
لُمصـاب قَـدْ أورثَ الناسَ حُـزناً   وصَـغـاراً وذلةً وانكسـارا
وكـسـا رونقَ النَّهـار ظَلامـاً   بعـدمـا كـانت الليـالي نَهـارا
ثُلمَ الدينُ ثلمـةً مـا لهـا سـدٌّ   وأولى العُلومَ جُـرحـاً جُـبـارا
لُمصـاب العـلامـة العَلم (المهـديِّ)   مَنْ (بحـرُ علمـه) لا يُجـارى
خلف الأنبيـاءِ، زُبدةَ كُلِّ الأصـ   ـفيـاءِ الذي سَـمـا أنْ يُبـارى
واحدِ الدهرِ، صاحبِ العَصرِ ماضي   الأمـرِ في كنه ذاتِه الفكرُ حـارا
كـيفَ يسلوهُ خـاطري وبه قـمتُ   مـقـامي، وفـيـه فكريَ طارا
كـيفَ ينفَكُّ مـدحُـهُ عَنْ لسـاني   وهو لولاهُ في فَـمي مـا دارا
وارتضـاني أخـاً لـه منّةً، والرِّ   قُ شـأني إذا أردتُ اعـتـبـارا
خصَّني بالجميلِ مِنْ بَعد أنْ عمَّ الـ   ـبـرايا، وطبَّقَ الأقطارا
وحـبـاني عِـزاً به بَعـدَ ذُلٍّ   وكـسـاني جـلالةً ووقـارا
مـا هديتُ الرشـادَ لولاهُ والـ   أحكامُ لَمْ أدْرِها ولا الأخـبـارا
مَنْ تُرى يدفعُ المُلمّاتِ أو يُصَرِّفُ   صـرفَ الزمـان إنْ هُوَ جـارا
سـيـدي مـاتت العلومُ ووارى   الدِّين في الرمسِ مَنْ لك اليوم وأرى
مَنْ يَردُّ (اليـهـودَ) إنْ أبرزُوها   مُـشْكلات بردِّها الكُلُّ حـارا
كُنتَ تتلو (توراتَهم) فـيـردّو   نَ عن الغَيِّ للهُدى استبـصارا
مَنْ لأعـلام (مكة) وجـمـاهيـر   (الحـجـاز) انتـحـوا إليكَ بَدارا
طالبينَ الحـجَـاجَ والكُلُّ قَـدْ   ثقَّفَ للبـحـث أملدًا خَطّارا
فحججتَ الجميعَ بالحُجج الغُرِّ   فَـدانتْ لكَ الخُـصـومُ صَـغـارا
وَلَكم مُـعـجـزٍ بَهـرتَ به الخَلقَ   بـه حـالكُ الظلامِ أنـارا
صـدَّني أنْ أقـولَ أنتَ نَبيٌّ   أودعَ اللّهُ كُنْهَـهُ الأسـرارا
إنَّ ربَّ العـبـاد قَـدْ خَتَمَ الرُّ   سلَ بطاها المختـار جَلَّ اختـيارا
سيدي نجلُكَ (الرضا) مستطارُ الـ   ـقلبِ لا يَستطيعُ قطُّ قَـرارا
جـاءَ يطوي الفَـلا إليكَ من البُعـ   ـدِ ويَفـري سَبـاسـبـاً وقـفـارا
قـاربَ الدارَ راجـيـاً فـأتى النا   عي إليـه فطاشَ لُبّـاً وَطارا

كـيفَ أزمـعتَ غـيـبـةً قَـبلَ أنْ يـأتي فـــيطغى كُلٌّ بكُلٍّ أُوارا
كُلّمـا أبصـرَ المنازلَ قَـدْ أُوحـشـ ـــنَ أذكـتْ لـه المـنـازلُ نـارا
أو رأى منكَ مـجلسَ الدرسَ خُلواً عَجَّ يَبكي سِـراً ، وطوراً جـهــارا
صِهرُكَ (المُرتضى) إليكَ بربع الدارِ كَـمْ طـرفَــــــهُ إلـيكَ أدارا
وبنو (أحـــمــد) بَنوكَ أُســارى فـاثنِ عَـوداً أو فُكَّ تلكَ الأُسـارى
كيفَ أيتمـتَهُم فأضحـوا صِغاراً وتَراهم مِلءَ العُـيـونِ كـبـارا
ســيــدي لا رأيتَــهمْ وعليـهِمْ نَفَضَ اليُـتمُ في الوُجـوهِ غـبـارا

وهي طويلة لم نعثر منها إلاّ بهذا المقدار وفيه الكفاية . ولعمري أنه (قُدّس سره) لكما قال في أبياتٍ قالها في العالم الفاضل ، والأديب الكامل ، الشيخ مُحَمَّد رضا النحوي ، وهي :

يُكلِّفُني صَحـبي القَـريضَ وإنَّمـا تَجنَّبـتُ عنـهُ لا لعـجـزٍ بـدا منّـي
ألـم يعلمـوا أنَّ الكمــالَ بأسـرهِ غدا داخـلاً في حوزتي صادراً عَنّي
ألـم تَرَ مولانا (الرضا) نجلَ (أحمد) إذا قالَ شِعراً لم يُحكِّمْ سوى ذهني
على أنَّهُ للفَـضلِ قُطبٌ وللنُهى مَـدارٌ وفي الآداب فـاقَ ذوي الفَنِّ
غــدا في الورى ربّاً لكُلِّ فـضـيلة وحازَ جميلَ الذكرِ في صِغَرِ السنِّ

وقال الشيخ (ره) فيه أيضاً :

ماتَ الكمالُ بموتِ (أحمدَ) واغتدى حـيّــاً بأبلجَ مِنْ بنيـــهِ زاهرِ
فـاعجبْ لمَيْتٍ كـيفَ يَحيى ظاهرا بينَ الوَرى مِنْ قَـبلِ يومِ الآخــرِ

معركة الخميس

وما يندرج في هذا المقام معركة الخميس ، وهي ما اتفق من المداعبة بين الشيخ الكبير ، والسـيـد مُـحَـمَّـد زين الدين[1] ، والشـيخ مُـحَـمَّـد آل الشـيخ يوسف ، وأظنه صـاحب

(١) هو السيد محمد بن السيد زين الدين أحمد بن السيد علي الحسني العطّار البغدادي النجفي المُتوفى سنة ١٢١٦هـ / ١٨٠١م .

«الحدائق»[1] . وكانت بين الشيخ مُحَمَّد هذا ، والسيد مُحَمَّد زين الدين مودة أكيدة ، وكانا كالروح في جسدين ، أو النور في عينين ، فنازعه الشيخ جعفر على وداد السيد مُحَمَّد . وكان الشيخ في (بغداد) فأرسل كتاباً إلى السيد ومعه هدية ، وفي الكتاب أبيات يجذب وداد السيد مُحَمَّد عن الشيخ مُحَمَّد[2] . فلما وصلت الأبيات انتصب ميدان المداعبة بين الشيخ جعفر والشيخ مُحَمَّد ، إلى أن ترافعا عند نائب إمام العصر في عصره ، وسميِّه السيد مهدي الطباطبائي ، ونظم أبياتاً يُحكّم بينهما . ثم نظم السيد صادق الفحّام ، والشيخ مُحَمَّد رضا النحوي ، ولكن كُلّ أشعار هذه الواقعة ركيك محلول العُرى ، وأظن أنها وقعت بينهم وهم أولاد .

فأما الشيخ فأبياته إلى السيد مُحَمَّد هذه :

لسانيَ أعيا في اعتذاري وما جَرى ... وإنْ نالَ حظّاً في البلاغة أوفرا
فلو أنني أهديتُ مالي بأسره ... ومالَ الورى طُرّاً لكُنتُ المُقصِّرا
فدَعْ عَنكَ شيخاً يَدَّعي صفوَ ودِّه ... ولا تَحْسَبَنْ كُلَّ الأخلاَّءِ (جعفرا)
يُريكَ بأيام (الخميس) مودَّةً ... وفي سائرِ الأيام ينسخُ ما أرى
فلا تَصحَبَنْ غيري فأنَّكَ قائلٌ ... بحقيَ «كُلُّ الصيدِ في جانب الفِرى»
فلو رُمتَ مِنْ بَعدي ـ وحاشاكَ ـ صاحباً ... فأياكَ أنْ تعدو (الرِّضا) خيرةَ الورى
فتىً شارعٌ للودِّ أوضحَ مَنهجاً ... وجَارى مَعَ المصحوب مِنْ حيثُ ما جرى
وإنْ تَهجرنَّ الكُلَّ منتظراً لنا ... لبستَ مِنِ الأثوابِ ما كانَ أفخرا

وكان السبب المحرك للشيخ على هذا أبياتٌ كتبها الشيخ مُحَمَّد إلى الشيخ يتشوّق إليه

(١) هو الشيخ مُحَمَّد بن يوسف الجامعي المُتوفى سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م ، وليس كما ظنّ المؤلف بأنّه ابن الشيخ يوسف البحراني صاحب كتاب «الحدائق» .

(٢) ورد في «المجموع الرائق» المخطوط للعلامة السيد مُحَمَّد صادق بحر العلوم المُتوفى سنة ١٩٧٩م أنّ السيد مُحَمَّد زيني كان قدْ سافرَ إلى بغداد ، وكان صديقُه الشيخ مُحَمَّد بن يوسف الجامعي قدْ مرَّ على داره فتذكّر صاحبَهُ ، وهاجت به الذكرى فكتبَ أبياتاً يتشوّقُ بها اليه ، ويُعرِّضُ بالشيخ جعفر كاشف الغطاء ، والسيد صادق الفحّام ، وهي :

بما بيننا مِنْ خالصِ الودِّ لا نسلو ... وغير أحاديث الصبابة لا نتلو
مررتُ علَى مغناكَ ما زال آملاً ... فهاجَ غرامي ، والغرامُ بكم يحلو
وعيشكَ أنّي ما توهّمتُ آنفاً ... بعادكَ عني ، أو ربوع الهوى تخلو
وما (جعفرٌ) في ودِّه الدهر صادقٌ ... وما (صادقٌ) مَنْ لم يكنْ في الهوى يغلوا

ويُعرّض به في آخرها، وهي:

سلامٌ على (دار السلام) ومَنْ بها ... وبالرغم منّي أن أُسلّمَ منْ بُعد
نأيتُمْ فأفراحي نأتْ ومسرّتي ... وأنّي وحقِّ الودِّ باقٍ على الودِّ
أوّد بأنْ ألقاكمُ لَمحَ ناظرٍ ... لعلّ لقاكُمْ أنْ يُخففَ مِنْ وَجدي
خَليليَّ قولا للمؤيد (جعفر) ... مقالةَ ذي نُصح هُديتَ إلى الرُشد
(تَبغددتَ) حتى قِيلَ إنَّك قاطنٌ ... وجانَبتَ أهلَ العِلمِ والنُسكِ والزُهد
فَجِدَّ إلى المجد الذي أنتَ قاصدٌ ... فليسَ لنيلِ المكرماتِ سوى الجِدِّ
تحيةَ داعيكم (مُحمّد) مُعْلِناً ... بمدحِكُمُ ما زالَ جَرياً على العهدِ

فأجابه الشيخ مُحَمَّد عن الأبيات الرائية بقوله:

ألا مَنْ لِخلٍّ لا يَزالُ مُشّمرا ... لجذبِ ودادِ الخَلق سرّاً ومُجْهرا
أحاطَ بودٍّ الأنسِ والجنِّ وانثنى ... بأعلى ثنا الأملاك وداً وأبهرا
ونالَ من الرحمانِ أسنى مودة ... فَيا لكَ وداً ما أجلَّ وأكبرا
يُجاذِبُني ودّ الشريفِ ابن (أحمد) ... سُلالة (زين الدين) نادرةِ الورى
وهيهاتَ أنْ يَحظى بصفوِ ودادِه ... وإنْ كانَ (بَحراً) في العلوم و(جعفرا)
تَرومُ محالاً في طلابك رُتبةً ... بما خصّني الباري وأكرمُ مَنْ برا
فمهلاً أبا (موسى) سيحكمُ لي (الرضا) ... وتكسب بالألحاح أنَّكَ لَنْ ترى[1]
ألا فاجتهِدْ ما شئتَ في نقضِ خلتي ... فمُحكمُ إبرامي يُريكَ المُقَصِّرا
فيا أيُّها المولى الخليط الذي جنى ... سينصفُني (المهديُّ) منكَ فتُحصرا
فَقُمْ سيدي للحُكم إنَّكَ أهلُهُ ... فديتُكَ أنصِفْني فَقَدْ أحوج المرا

فقال العلامة الطباطبائي حاكماً:

أتاكَ كوحي اللّه أزهرَ أنورا ... قضاءُ فتىً باريه للحُكم قَدْ بَرا
فتىً لم يخَفْ في اللّه لومةَ لائم ... إذا ما رأى عُرفاً وأنكر مُنكرا
يظاهر مجنيّاً عليه إذْ اشتكى ... وينصرُه في اللّه نصراً مؤزرا

(١) علّق المؤلف على هذا الشطر بقوله: «لم يتضح معنى هذا الشطر».

(محمدُ) يا ذا المجدِ لا تكترث ولا ... يُروِّعنَ منك العَتب شيخٌ تذمَّرا[1]
فـمـا هي إلاّ من مكائده التي ... عُـرِفنَ به مُـذْ كـان أصـغـر أكـبـرا
وإنك أولى الناس كـهـلاً ويافـعـاً ... بحُـسبك نجل الطاهرين المُطهّـرا
كفى للخمس اليوم للودّ عـاضداً ... يردّ خـمـيسَ الهَجرِ أشعث أغـبرا
وليس ببـدع ذاك فـالخلطاءُ كم ... جرى بينهم في ودِّهم مثل ما جرى
ومـا حُكمُ (داود) بأن يمتـرى به ... ولـلـنـصِّ حـكـمٌ لا يُـدافَعُ بـالمـرا
فخـذها إليك اليـوم منّي حكومـةً ... شقائقُها تحكي السحاب الكهنورا[2]
فـمـا هو إلاّ النفسُ منّي وإنّهـا ... تُخـالفُ إذ أبدتْ خـلافـاً بأن يرى
أقَمْنا على النَفْسِ الشهادة حيثما ... أُمِـرْنا بهـا في الذِكـر نصّاً مُـقـررا

فقد جعل الشيخ جعفر نفسه وحكم عليها، وأشار إلى قوله تعالى: «ولو على أنفسكم». فأجابه الشيخ جعفر عن حكومة بقوله:

جرى الحُكمُ مِنْ (مولاي) في حقِّ (رقّه) ... ولستُ لِـما أمـضـاه مولاى مُنكِرا
ولكنهـا في البَين تُعـرَضُ شـبـهـةٌ ... يزيد دقـيقُ الفكر فـيـه تحـيُّـرا
إذا كنتُ نَفْساً منك أُدعى ومُهجةً ... فكيف أداني الكيـدَ أصغـرَ أكبـرا
وكـيف تُدانيني الرجـال لمفـخـر ... وقد نِلتُ من علياك ما كان أفخرا
فلستُ أرى في البين عـذراً مُوْجَـهـاً ... سـوى أنَّ كـسـرَ النفس أمـرٌ تقـرّرا
فـدعْ سيـدي فـالحُكمُ فيَّ مـداعـباً ... بلِ احكمْ بمُرِّ الحق يا خِيـرةَ الورى

وكان الشيخ يريد أن يقول بجوابه هذا أن السيد إذا جعلني نفسه فكيف يجعلني كائداً، والكائد خائن، والخائن لا تنفذ حكومته. فينتج من هذا أن السيد لا تنفذ حكومته، أو الشيخ غير كائد؛ فأجابه الشيخ مُحَمَّد بقوله:

عـذيري مِنْ (شـيخٍ) ألحَّ بي المِرا ... فـعـاد إلى مـا ناب لا يألفُ الكَرى

---

(١) ورد في هامش المخطوطة «التذمر له معان أنسبها بالمقام الزئير» ـ منه ـ.

(٢) الكهنور ـ على وزن (سَفَرْجَل): هو السَّحاب المتراكم الكثيف، وقد علّق ناظمُها على هذه الكلمة: أنّه الشيخ (جعفر). (كما ورد في النسخة المخطوطة). وقد وردت القصيدة في مقدمة رجال بحر العلوم، جـ١، ص٨٣، وفيها بعض الاختلافات، ولم أثبتها هنا لركةِ هذه القصائد الداعية إلى السأم، والتي تبرهن على أنها من شعر الفقهاء.

يخاصمني كلُّ الخصام فأرتئي — وأثبتُ بعد الرأي حُجَّةَ ما أرى
أيحكم لي (المهديُّ) أعدلُ مَنْ قضى — فيَثقُلُ حكم الحق فيه ويَكبرا
يحاول نقض الحكم بعد نفوذه — وهل ينقضُ الحُكمَ المسجَّلُ إنْ جرى
ويلهجُ أنَّ الحكم كان دُعابةً — ولكنه الجدُّ المصمم أزهرا
وحكمُ (الرضا) و(الصادق) القول قبلَهُ — صريحٌ بنصري لو يكن منصفٌ ذَرى
فأيها بُغاةَ الحق إني لحائرٌ — لِما قَدْ دهى الأنصاف من حادثٍ عرا

يريد (بالرضا) حكم الشيخ مُحَمَّد رضا النحوي ، و(بالصادق) السيد صادق الفحّام ، حيث قال :

جَرى ما جَرى بين الخليلينِ وانتهى — وإنْ كانَ مَعْرُوفاً لَما كان مُنْكَرا
فاحفظ مولىً لم يزل ذا حفيظة — لُمخْلصه عن ساعد العدل شَمَّرا
وأغرى حكيماً بانتصار فألّبا — عليه مَن التأنيب واللوم عَسكرا
كلامٌ له بطنٌ وظهرٌ ولَم يكنْ — سوى محض ودٍّ بطن ما كان أضمرا
مداعبةُ الأخوان تُدعى عبادةً — لَعَمرُكَ ما هذا الحديث بمُفترى
فلا يستفزُّ الشيخَ برقُ غمامة — بدا خُلَّباً في عارض ليس مُطرا
ولا يصرفُ (المهديُّ) عن عادل القضا — شقاشقَ ما كانت بحقٍّ لتَهدُرا
قَضى فتعاطى مذهبَ الشعرِ مُذْ قَضى — فكان قضاء عادلاً قاطع المرا
ولو يتعاطى مذهب الشرعِ لم يكن — ليقضي بأنَّ الصبح لم يكُ مُسْفِرا

يريد بقوله «لا يستفز الشيخ» : الشيخ مُحَمَّد ، و«برق الغمامة» هو جذب الشيخ جعفر لودّ السيد مُحَمَّد ؛ أي أن هذا ليس له واقع .

وأنه ، خبير أن هذه الأبيات نصٌ في الحكم على الشيخ مُحَمَّد ، فما أدري كيف إدَّعى أنه له في أبياته السابقة مع ما صرّح به من حَملِ حكم السيد الطبطبائي على أنه في مذهب الشعر لا مذهب الشرع ، وأنه على مذهب الشرع فالحق مع الشيخ جعفر لسفور الصبح . وأما الشيخ مُحَمَّد رضا فقال وأطال :

لعمري لقد ثارتْ إلى أفُقِ السَما — عُجاجةُ حَرب حولّتْ نحوَها الثّرى
وجالتْ بمَيدانِ الجدالِ فَوارسٌ — تماروا على أمرٍ وليسَ بهم مِرا

وذلكَ أنَّ الشيخَ شيخُ زمانهِ ... عَنيتُ به بحرَ المكارم (جَعْفَرا)
فَردُهُ ولا تَعْدِلْ به ريَّ غيرِهِ ... تَرِدْ مَورداً لا تبتغي عَنهُ مَصْدَرا
تعمَّد منْ (بغدادَ) إرسالَ رُقعَة ... تَضمَّنُ معنى يُخجلُ الروضَ مُزْهِرا
بنَظم حكَى الدُرَّ النَظيمَ مُفصَّلاً ... ونَثر حكى الروضَ النسيمَ مُنَوَّرا
وأعربَ عن دعوى ودادِ (مُحمَّد) ... سلاَلَة (زين الدين) نادرة الوَرى
ولا غروَ في دعوى ودادٍ هوىً لهُ ... فيا لكَ وداً ما أجلَّ وأكبرا
ولكنَّهُ قَدْ قاربَ الحُورَ وادَّعى ... اختصاصَ هوىً كُلٌّ له قَدْ تَشطَّرا
فكان عظيماً ما ادَّعى سيَّما على ... ذوي ودِّه منْ كُلِّ ذَم تذمَّرا
ولا سيَّما الشيخُ الذي خَلُصتْ لهُ ... مودتُهُ مُذْ كانَ أصغرَ أكبرا
فتىً أشرقتْ منْ وجههِ غُرَّةُ الهُدى ... ومنْ نورهِ صُبحُ الحقائق أسفرا
فقالَ إلى كَمْ ذا تُحاولُ رُتبةً ... بها خصَّني الباري وأكرمُ مُذْ بَرَا
كبرتَ ولم تَقنعْ بما يكتفى به ... أظنُّكَ أُلهمتَ الطَماعةَ أصغرا
تُجاذبُني الودَّ القديمَ وليسَ مَنْ ... تَقدَّمَ في ودٍّ كَمَنْ قَدْ تأخَّرا
فقالَ نَعمْ لكنْ قَضتْ لي مودتي ... ومَحْضيَ للأخلاص سرّاً ومُجْهرا
وإنّيْ أُراعي منهُ للودِّ خلَّة ... فلا تَحسبنْ كُلَّ الأخلاَّءِ (جَعفرا)
وإني أمتُّ اليومَ في صدقِ قولهِ ... بحقي كلُّ الصيدِ في جانبِ الفرا
ولستُ كَمَنْ يرميه بالهجرِ حقبة ... وما كانَ ذو ودّ بحال ليُهْجَرا
يريه بأيام (الخميس) مودةً ... وفي سائر الأيام يَنْسَخُ ما أرى
فَطالَ نزاعٌ بينهم وتشاجرٌ ... معا وأقلا منْ نزاع وأكثرا
ومُذْ سئما طُولَ النزاع ترافعا ... إلى حَكم باريهِ للحُكم قَدْ بَرا
هو السيّدُ (المهديُّ) عَنْ نور حُكمهِ ... أتاكَ كوحيِّ اللّه أزهرَ أنورا
هُنالكَ قُصّا ما عليه تنازعا ... عليه وبُثّا عندَهُ كُلَّ ما جَرى
وكلٌّ غدا يُدلي بحُجتهِ ومَا ... ونَى في احتجاج منهُ جَهداً وقصَّرا
وأجلبَ كلٌّ خيله ورجالَهُ ... على خصمهِ والكلُّ للكُلِّ شَمَّرا
فلمَّا رأى (المهديُّ) ذو الهَدي ما رأى ... وأبصرَ من ذي الحالِ ما كانَ أبصرا
درى أنَّ ذا لا عن خصام وكَمْ وكَمْ ... لسرٍّ خَفيٍّ مثل ذا قبلُ ذا دَرى

وأيقنَ أنَّ الشـيخَ زيدَ عـلاؤهُ أرادَ اختبار الشيخ فيما لهُ انبرى
ليُظهِرَ ما أخفاهُ مِنْ صفو ودِّه وما كان ذاكَ الودُّ يَخفى فيظهرا
وأيقنَ أنْ ليستْ لذاكَ حقيقةٌ ولكنْ كلامٌ واللسانُ به جَرى
وقالَ هما خَصمانِ في البغيِّ أشْبَها خَصيمين للمحراب قَبل تسوَّرا
جرى حكمُهُ وفقاً لداود إذْ جَرى وقَرَّرَ ما قَدْ كانَ (داود) قَرَّرا
وما كان هذا الحُكمُ إلاّ مُشابِهاً لدعواهما عند امرئ قَدْ تبصَّرا
فلا الشيخُ مَقضيٌّ عليه حقيقةً ولا الشيخ مقضيٌّ له لو تفكَّرا[1]
كفى شاهداً في الصدق لي قولُ (صادق) فتىً قَدْ سما في مجدِه شامخَ الذُرى
وأعلى له الرحمانُ فوقَ عبادِه مَقاماً يردُّ الحاسدين إلى ورا
مداعبةُ الأخوانِ تُدعى عبادةً لَعَمرُكَ ما هذا الحديثُ بمُفتَرى
وحررتها طوعاً لأمرِ أخي عُلا لخدمته مُذْ كنتُ كُنتُ مُحرَّرا[2]
وذي حلبةٍ جلّت جميع جِيادُها ولكنني كنتُ الكُمَيتَ المُقصِّرا

وهذا ظاهر عدم الحكم للطرفين وإنْ كان فيه ميل إلى الحكم للشيخ مُحَمَّد لأنه أشار إلى قصة داود حيثُ قال: «لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه». إلاّ أن السيد مُحَمَّد قَدْ قطع لسان المخاصمة، وقضى بما عنده من المحاكمة، وصار حكم السابقين إلى حكمه هباء إذ المرء على نفسه بصيرة فهو وما يشاء. فقال وهو أحسن مَنْ نظم منهم (تغمّدهم اللّه برحمته):

أتاني كتابٌ مُستَطابٌ بطيِّه خطابٌ كنشرِ المسك فاحَ مُعَطَّرا
خطابٌ سرى في كُلِّ قلبٍ سرورُهُ خطابٌ بما تهوى الأمانيُّ بَشَّرا
كتابُ جناب الشيخ (جعفرٍ) الذي يَودُّ لديه البَحرُ لو كانَ (جَعْفَرا)
تَضمَّنَ نَظماً يُخْجِلُ العقدَ درُّهُ ونثراً لديه أزهرُ الروضِ يُزدَرى
فَشاهدتُ (قُسّاً) (باقلاً) عند نُطقه وإنْ نالَ حظّاً في البلاغةِ أوفرا
يُصرِّحُ تصريحَ الغمامِ بودقهِ فروَّضَ عافي مَنزلِ القلب مُمْطِرا
وقد خَصَّني بالودِّ مِنْ دونِ غيرِهِ وإنْ كانَ هذا الودُّ قَدْ شَملَ الورى

(١) وردَ في هامش المخطوطة: أرادَ بالأول الشيخ جعفر، والثاني الشيخ محمد كما لا يخفى.
(٢) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله: «أراد بهذا كلّه مدح السيد صادق الفحّام».

وأنكرَ وُدَّ الشيخ أعني (مُحَمَّداً) حميد السجايا أطيبَ الناس عُنصرا
يَزرُّ على حُسنِ السَجايا قميصَهُ كما هو بالمَجد ارتدى وتأزّرا
وقالَ رأيتُ الشيخَ لَمْ يَرعَ خِلَّةً فلا تَحسبَنْ كُلَّ الأخلاّءِ (جَعفرا)
وما لقديمِ الودِّ عندي مزيةٌ فكمْ مِنْ قديمٍ سَادَهُ مَنْ تأخّرا
ومَنْ خصَّ في يوم (الخميس) ودادهُ نَراهُ بأنْ يُعزى إلى الهجر أجدرا
وكم جَرَيا في حلبةِ الشوقِ والهوى وأحرزَ كُلٌّ غايةَ السَبقِ إذْ جَرى
هُناك استفزَّ (الشيخَ) حتى أجابَهُ بنظم بديع يزدري الدرّ منظرا
دعا شوقه يا ناصرَ الشوق دعوةً فَلبّاهُ ذو أمرٍ من اللّه أمّرا
مُجيبُ الندا مُردي العدى مُطعمُ القِرى بعيد المدى داني النّدى سامي الذُرى
هو السيِّدُ (المهديُّ) بوركَ هادياً بنورِ سَناهُ يَهتدي من تَحيَّرا
فبادرَهُ بالحُكم بَلْ كانَ غوثه وناصره في اللّه نصراً مؤزرا
بنظم بحبّات القُلوب مفصّل تَخالُ نثيرَ النَجم فيهِ تنثّرا
جريتُ على النهج القويم مُجارياً وقد سألوني عن حقيقةِ ما جَرى
فقُلتُ أراني أنْ أزيد مسرَّةً وأحمدُ ربَّ العالمين وأشكرا
ليَ الفخرُ أني قَدْ عَززتُ عليهُما وحسبيَ عِزّاً في الأنام وَمَفخرا
ألا إنّما الأسلامُ دينُ (مُحَمَّد) وطاعتُهُ فيما عن اللّه أخبرا
ولي مذهبٌ ما زلتُ أُبديه قائلاً تَجعفرتُ باسم اللّه فيمَنْ تَجَعْفَرا
تَخذتُهما للعينِ نوراً وللحشا سروراً وللأيامِ درْعاً ومغفرا
فهذا حُسامي حين أسطو على العِدى وهذا سَناني إذْ أُقابلُ عَسْكرا
فكانا وقد أصبحتُ أُعزى إليهما هما سيّدا مولىً لهم قَدْ تشطّرا
فبعتُهما صَفوَ المودّة خالصاً ومحضيَ للأخلاصِ سرّاً ومَجهرا
فَنلنا بسوق الشَوق ربحاً مُعَجَّلاً فيا نِعمَ ما بِعنَا ويا نِعمَ مَنْ شَرى
أدامهما الرحمانُ لي ولِمَعْشَري وللناسِ طُرّاً ما حديثُهما طرا

وهذا كما ترى ظاهره الحكم للشيخ جعفر وعدول السيد عن صاحبه الأول غير ملتفت إلى قول الشاعر: «ما الحُبُّ إلاّ للحبيبِ الأول» نظراً إلى قوله: «تنقَّلْ فلذَّاتُ الهوى

بالتنقُّلِ» .

ما قيل في الشيخ جعفر من الشعر

وأمّا ما قيل فيه فأكثر من أن يحصيه أحد فيمليه . لكنا نذكر مما تيسر لنا جمعه وهو على قسمين :

القسم الأول: في تهانيه

قال السيد الأجلّ ، والسند المبجّل ، عميد العلماء الأعلام ، السيد صادق الفحّام ، وهذا السيد فضله وجلالة قدره في ذلك الزمان ، أعظم من أن تحتاج إلى بيان ، و(أثر النجابة ساطع البرهان) ، وكان من خواص العلامة الطباطبائي ، والشيخ الكبير . ثم بعد السيد انقطع إلى (الشيخ) واختصَّ به . ثم عمَّرَ بعد الشيخ زماناً طويلاً . وله أشعار كثيرة في هذه (الطائفة) ، وشعره كله في أعلى مراتب الحسن والجودة والبلاغة والفصاحة كما ستراه من مراجعة ما نورد لك منه .

فمنه قوله يهنّئ الشيخ بقدومه من حجته الأولى ، ويؤرخ ذلك العام بقصيدةٍ طويلة ، منها قوله :

لِلّه درُّكَ مِنْ عَميدٍ لَمْ تَزلْ ... بالصالحاتِ مُتَيَّماً مَعْمُودا
حَثَّ الركابَ يؤمّ بيتاً لَمْ يَزلْ ... للناسِ مِنْ دونِ البيوتِ قَصيدا
وأناخَ يلتمسُ القرى من ربِّه ... فَقِراهُ ما لم يبغِ مَعْهُ فريدا
فَضْلاً وإحساناً ومَغفرةً لما ... قَدْ كانَ منهُ طَارفاً وتليدا
وقَضى مناسكَهُ وعادَ بغبطة ... في الصالحاتِ وفي العُلى محسودا
يا أيُّها المولى الذي شادَ العُلى ... وبَنى المكارمَ ناشئاً ووليدا
أصْبَحتَ سيدَها وليس بضائر ... إنْ لَمْ تكنْ مِنْ (هاشم) مولودا
زانتْ بمقدمكَ (الحجازُ) كما زهتْ ... فيك (الحِجازُ) تهائماً ونجودا
أزمعتَ قصدَ البيت لا تلوى على ... شيءِ تُزَجّي اليعملاتِ القُودا
تَقتادُ حَربَ اللّه مُجْتَهِدا كما ... قادَ المليكُ عَساكراً وجُنودا
ثم انصرفتَ بسيرةٍ مَحْمُودة ... ولكَ المحاسنُ مَبْدَءً ومُعيدا

وأقولُ إنَّكَ (جعفرٌ) كلا ولا بَلْ أنتَ بحرٌ بالنَدى مورودا

أحييتَ آثارَ السَماحةِ والنَدى وأعدتَ دارسَ رسمهُنَّ جديدا

مُسْتَأثِراً بفضيلة العِلم التي أضحى عليكَ رواقُها ممدودا

فَلكَ العلومُ الباهراتُ سبقتَ في تحقيقهُنَّ (مُحَقِقاً) و(مُفيدا)

وسلكتَ في الآداب أبعدَ مَنْهج أتعبتَ فيه (جرولاً) و(لبيدا)

نَظْمٌ تَودُّ الخُودُ أنَّ فريدَهُ قَدْ نظّمَتْهُ قلائداً وعقودا

وبديعُ نَظم تستعيرُ الروضةُ الـ ـغنّاءُ منه زَهرةً وورودا

يا قِبلَةَ الفَضلِ التي أربابُهُ مالوا إليها رُكّعاً وسجودا

حُيّيتَ من بدر تجلّى فانجلى عَنّا به ليلُ العنا وأُبيدا

بَلْ عارضٌ متهلّلٌ وافى وقَدْ ملأَ البلادَ بَوارقاً ورُعودا

جاءَ البَشيرُ مُبَشِّراً بقدومه فَحمدتُ ربّاً لَمْ يَزلْ مَحمودا

وبذلتُ أقصى الجُهدِ في تأريخهِ (نِلتَ المُنى بِمنىً وجئتَ حَميدا)

١١٨٦هـ

ولما حجّ الحِجّة الثانية كان طريقه على (الشام)، نزل بها هو وصحبه الكرام؛ السيد محسن صاحب «المحصول»، والسيد جواد صاحب «مفتاح الكرامة»، والشيخ مُحَمَّد علي الأعسم[1] صاحب «الشرح الكبير» في الفقه، فقال الشيخ إبراهيم العاملي[2] يمدحه، وكان يومئذ في تلك النواحي، وأجاد، والقصيدة طويلة اقتصرنا منها على اليسير، وهو قوله:

أَلَمَّتْ بنا والليلُ تسطو كتائبُهْ ولاحَ مُحَيّاهُ فَولَّتْ غياهبُهْ

قَضى نَحْبَهُ جُنحَ الظلام بنورها وقامتْ عليه في الغصون نوادبُهْ

أَتَتنا على بأسِ الرجاء ورُبّما أُتيحَ لكَ المطلوب عزّتْ مطالبُهْ

(١) من تلامذة الشيخ جعفر كاشف الغطاء الملازمين له. كان مُرافقاً له في سفرته إلى الحج عام ١١٩٩هـ/ ١٧٨٥م. ولد سنة ١١٥٤هـ/ ١٧٤١م، وتُوفي سنة ١٢٣٣هـ/ ١٨١٨م. وستأتي ترجمة ولده الشيخ عبد الحسين الأعسم.

(٢) ابراهيم صادق العاملي من تلامذة الشيخ موسى كاشف الغطاء ولد سنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م، وتُوفي سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م.

فيا طِيبَ ذاكَ الوصلِ مِنْ بعدِ جَفوة وبعـد الظمـا يَلتـذُّ بالماء شـاربُهْ
ويا حَـبَّــذا لولا النَوى ذلكَ اللقــا وللدهر وِردٌ ليس تصـفـو مـشـاربُهْ
وكـيـف سـرورُ الحُـرِّ في زمنِ غَـدا يحارب بالأحداث مَنْ لا يحاربُهْ
إذا همّ بالمعـروف أكـدى كـأنَّهُ غَنيٌّ يرومُ الجُـودَ والبُـخلَ غـالبُـهْ
ولو أجدتِ العُتْبى لهجتُ بعتبه ومـا كُلُّ مَنْ يجني عليَّ أعـاتبُـهْ
ومـا أرى مـثلَ الدهرِ يأمنُهُ الفتى وتلدُغُــهُ في كُلِّ حين عـقـاربُهْ
وتَعـجبُ منهـا من بنان خضـيبـة ورابَكَ أنَّ الليثَ حُمـرٌ مخـالبُـهْ
وأكـثـرُ مِنْ فـوق البـسـيطةِ عـاكفٌ على صَنم مِنْ مـاله لا يُجـانبُـهْ
لعمري لقَدْ عَمَّ الضلال وأصبحتْ ربوعُ الهُدى مطموسةً وملاعبُهْ
ومـالَ عـمـودُ الدين شَرقـاً ومَغـرباً ولولا أبو (موسى) لَمَا قـامَ واجـبُـهْ
هو العـالـمُ الحَـبـرُ الذي لو رأيتَـهُ إذاً لرأيتَ السِحرَ جاشتْ غواربُهْ
فـتـىً قَـيَّـد البـاري به كُلَّ شـاردٍ من العلمِ حتى راجعَ الناس عازبُهْ
وأخــفى عُلومَ المُلحــدين بعلمــه وكيفَ يرى مَعْ صادق الفَجرِ كاذبُهْ
حوى الفضلَ كلَّ الفضل كَهلاً ويافعاً فطالعــهُ وقْفٌ عليــه وغــاربُهْ
ولا عَـجبٌ إنْ جـازَ كُلَّ عـجيـبـة فليس عجيباً في المُحيطِ عجائبُهْ
فَـصـيحٌ إذا نَصَّ البـيـانُ تَلفّـتتْ إلى عقدها بيضُ الحمى وكواعبُهْ
تَخـالُ مـقـال القـائلين وقـولهُ إذا اختلفا ليلاً تهاوى كـواكـبُـهْ
تَقيٌّ نقيٌّ مــا تَخطّتْ خطيـئــةٌ إليهِ ولَمْ يكتبْ سوى الخير كـاتبُهْ
فــيــا كــاتبَ الأوزارِ مـا نالَ عـالِمٌ بخيبتهِ في جانبٍ لم يُجانبُهْ[1]
هو البــحــرُ يحظى جـارُهُ بفـريده وتَنهلُ في ربع البَـعيـد سحـائبُهْ
وأبلجُ فـيّــاضُ اليــدين يَســرُّهُ إذا بات مسكيناً وأُثريَ صاحـبُـهْ
جَـوادٌ يرى المعـروف خـيـرَ تجارة وإنْ قَلَّ حـالٌ والثناءُ مكاسـبُــهْ
أباحَ لِمَنْ فـوقَ الثَـرى عينَ مــاله ولَمْ يَحْتَفلْ يوماً بما قال حاجبُهْ
ومـا زالَ مـرْجُـواً على الفـقـر والغنى وكَمْ مِنْ غَنيٍّ ليسَ تُرجى مواهبُهْ

(١) علّقَ المؤلفُ على هذا الموضع بقوله : «هكذا وجدتُ نُسخةَ هذا البيت ، ولم أقِفْ منهُ إلى الآن على مُحصّل»!

أقـامَ إمـامـاً بالعـراقِ مُـبَـجَّـلاً وسـارتْ مَـسـيـرَ النيِّراتِ مناقبُـهْ
لَقـدْ ظفـرتْ منهُ بطودِ مـفـاخـر تَفَـجَّـرُ بالعلم الغـزير جـوانبُـهْ
أقـامَ لواءَ الدينِ والدينُ غـاربٌ تحـدِّث عن مسِّ التـرابِ ترائبُـهْ
وشُمٌّ فِـعـالٍ لا يُحـيطُ بعـدِّها بيانٌ وهَلْ يأتي على الرملِ حاسبُهْ
فيا (جعفرَ) العلياء حَتّامَ تَبْتَغي عُلُوّاً وقـد جـاوزتَ مـا أنتَ طالبُـهْ
يرومُ العِدى حرمانَكَ المجد والعُلى وهَلْ يُحـرمُ المجـدودُ واللّهُ واهبُـهْ
ويبغونَ محوَ الحقِّ مِنْ صُحفِ الهُدى وهَلْ ينمحي أمرٌ وذو العرشِ كاتبُهْ؟!

إلى أن قال :

وفدتَ على قُطر (الشآم) فأشرقتْ جـوانبُـهُ والليلُ سـودٌ ذوائبُـهْ
ولو أنصَفَتْكَ (الشامُ) وافَتْكَ تبتغي لقاء (نجيب) شَرَّفتْها (نجائبُهْ)
ولكنَّهـا مـا قَـدْ عـرفتَ وقلَّمـا يُرى سـابقـاً مَنْ قَيَّدتْهُ مـعـائبُـهْ
ومـا جئـتَـهـا تَبْـغي تجارةَ تاجـرٍ تَشـدُّ على الفـاني وتوكـا حـقـائبُـهْ
ولكنَّهـا كـانتْ طريقـاً إلى التي إلى ربعـهـا تهدى الحَجيجَ ركائبُهْ
فَـبَلَّغَكَ البـاري مُناكَ وكـيـفَ لا تَنالُ المُنى والخيـرُ خَيـرٌ عـواقـبُـهْ
ولا زالتِ الأقـدارُ تَهـدي لكَ العُلى وكُلُّ امـرئ يُهـدى لهُ مـا يناسـبُـهْ
تقـودُ إلى الخـيـراتِ جـيشَ هداية فـتـرجعُ في نُجح وربح كـتـائبُـهْ
وتسـحُبُ للرحـمـانِ أكرمَ صُحبـة كـذا أكـرمُ الدُنيـا كِـرامٌ صـواحـبُـهْ

ثم لَمَّا رجع من حجّته هذه ، وأشرق بدر محيّاه في برج محله وأفق شعبه ، مع أولئك البررة الهداة من صحبه ، قال السيد أحمد بن السيد مُحَمَّد الشهير بالعطار[1] ، مؤرخاً عام قدومه ومهنئاً له ولمن كان معه من أولئك العلماء ، بقصيدة غرّاء ، وهي :

أسَنى جبينكَ أمْ صباحٌ مُسْفِرُ وشـذى أريجكَ أمْ عـبـيـرٌ أذفـرُ
أهلاً بطلعتِكَ التي مـا أسـفـرتْ إلاّ ولـيـلُ الـهـمّ عَـنّـا يُـدبـرُ

---

(١) شاعر ومؤرخ ، وفقيه له منظومة في علم الرجال ، تُوفي سنة ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م . ووالده السيد محمد العطار أحد شعراء زمانه تُوفي سنة ١١٧١هـ/ ١٧٥٨م .

بكَ عادَ ذابلُ روض آمالِ الورى   غَضّاً ولا عَجَبٌ فأنَّكَ (جعفرُ)
وتبسَّمتْ أرضُ (الغَريِّ) مَسرَّةً   بك بعدما عبستْ فكادتْ تزهرُ
ومدارسُ العلم استنارتْ مُذْ بَدا   فيها مُحَيَّاكَ البهيجُ الأنورُ
واستبشرتْ فرحاً بكَ العُلماءُ بَلْ   كُلُّ الأنامِ وحُقَّ أنْ يستبشروا
كُنّا بفرقته بأعظم وحشة   وبعوده عادَ السرورُ الأكبرُ
فكأنّنا روضٌ تجانَبَهُ الحَيا   فَذَوى وعاوَدَهُ فأصبحَ يزهرُ
وكأنَّهُ شمسٌ فيغشى الليلُ إنْ   غابتْ ويبدو الصُبحُ مَهْما تُسفرُ
سُبحانَ مَنْ أحيا الورى بمعاد مَنْ   بنواله موتى الخَصاصة تُنْشَرُ
هو (جعفرٌ) لا بَلْ هو البحرُ الذي   كم فاضَ بحرٌ منْ نَداهُ و(جَعْفرُ)
والحمد للّه الذي أولاهُ منْ   آلائه ما الشكُر عنهُ يقصرُ
ودعاهُ فَضلاً من لَدُنه لبيته   وَقَراهُ منْ جَدْواه ما لا يُحصرُ
فَسَرى مسيرَ الشمسِ في فئة به   حفّتْ كأمثال الكواكب تزهرُ
أكرمْ به وبصحبه منْ سادة   كَرُمتْ سجاياهم وطابَ العُنصرُ
لاسيَّما صدرُ الأفاضلِ (مُحسنٌ)   كنزُ العلوم المُحسن المُتبحِّرُ
و(جوادٌ) النّدبُ (الجواد) جلالُ   أرباب الجَلال وعزُّهُمْ والمَفْخرُ
وسميّ حجتي العليّ مُحَمَّد   وعليٌّ الطهرُ الزكيُّ الأطهرُ
أعني سليل (الأعسم) الحَبرَ الذي   هو بحرُ علم مدُّهُ لا يُجْزَرُ
وسليل (صادق) الصدوق (مُحَمَّد)   والنعمةُ الكُبرى التي لا تُنكرُ
قوم تردّوا بالعُلى وتقمصّوا   بالمكرمات وبالعَفاف تأزّروا
وقد اقتفوا منْهاجَ مَنْ عَنْ فضله   أقلامُ أربابِ البلاغة تُحصرُ
أكرمْ بهِ منْ مُقْتَضى مَنْ يَهتدي   بهُداهُ يَحظَى بالنجاح ويَظفرُ
ذاكَ الذي لولاه ما وَخَدتْ إلى   جمع بهم قبّ البطون الضُمَّرُ
مولى به بطحاء (مكةَ) أشرقتْ   وبنور غُرَّته أضاءَ المشْعَرُ
بَهجتْ بوطأته المواقفُ واغتدى   بَعْضٌ يهنئ بعضَها ويُبَشِّرُ
ولقَدْ غَدا الحرمُ الشريفُ به على   ما فيه منْ فَخر يتيهُ ويَفخرُ
مُذْ طافَ طافَ به العلاء ومُذْ سعى   سعتِ المَعالي نحوَهُ والمَفخرُ

وبلمسه الحَجرُ السعيدُ يمينُهُ ... ربحتْ وتمَّ له السُعودُ الأوفرُ
بَلْ تَمَّ للحجرِ السُعودِ وكادَ أنْ ... يبيضَّ بِشراً لونُهُ المُتَغيِّرُ
وعلا مَقاماً في المقام كما اعتلى ... بمقامه فيه المقامُ الأنورُ
وأفاضَ منْ (عرفات) بَعدَ وقوفهِ ... فأُفيضَ رضوانٌ عليه أكبرُ
جَمَعَ الألهُ لهُ جميعَ الخيرِ في ... جَمع فيا للّه جَمعٌ مُبْهِرُ
نالتْ (مِنى) بمبيته فيه المُنى ... وَصَفا به عيشُ الصفا المتكدرُ
وبسوقه للهَدي سيقَ لهُ الهُدى ... وبنحره نُحرَ الحسودُ الأبترُ
ورُمي - غَداةَ رَمى الجمارَ - عُداتُهُ ... بُعداً لهم فليخسؤا وليذمروا
وبأرضِ (طيبَة) طابَ مَثْواهُ فَيا ... طُوبى لها أضحتْ به تتعطّرُ
وبزورة (المختار) نالَ الغايةَ الـ ... ـقصوى التي عنها الكواكبُ تَقْصرُ
وسما بزورة آلِ (أحمدَ) رُتْبَةً ... بَصرُ البصيرةِ عَنْ مداها يَحسرُ
فليحمد اللّهَ الذي في جنب ما ... أولاهُ طولاً كُلّ حمد يَصْغَرُ
وليبتهجْ بِشراً بما أرّختُهُ ... (بُشرى فَقَدْ حجَّ المُسدّد جعفرُ)

١١٩٩هـ

ولما قدم من (إيران)، قال الشيخ إبراهيم قفطان[1] يُهنّيه، ويذكر أصحابه من العلماء الغرر، الملازمين لخدمته سفراً وحضر، وعرّض بشكواه، طيّب اللّه مضجع كُلٍّ منهم ومثواه، وهي:

قَدْ أقبلَ (الشيخُ) بالأقبالِ والنعم ... واليُمنِ والبركاتِ الغُرِّ والكَرم
وقَدْ أحاطتْ به غُرٌّ غطارفَةٌ ... بيضُ الوجوه حسان الخيم والشيمَ
مِنْ كُلِّ نَدبِ سَريٍّ سيّد سَند ... ولوذعيٍّ ومفضال وكُلِّ كمي
ممدحونَ مصاليتٌ تخالهمُ ... حيثُ اشتباكُ القَنا كالأسدِ في الأُجمِ
وجاءَ بالسّعد مَحْفُوفاً وقَدْ خفقَتْ ... أعلامُ إقباله بالفضلِ والنعَمَ
فابتلَّ منّا غليلٌ لم يَزلْ أبداً ... إلى لقاء مُحَيّاهُ الجميلِ ظَمي
وأصبح الكُلُّ إذْ جاء البَشيرُ به ... ما بينَ مُبتهجٍ منّا ومبتسمِ

(١) ابراهيم بن الشيخ حسن قفطان تُوفي سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م.

والأرضُ مُخضرَّةٌ تزهو بطلعته   كما زها الروضُ غِبَّ الوابلِ الرزمِ
كأنَّما صُحبُهُ مُذْ حَلَّ بينهمُ   شُهبٌ تحفُّ ببدرِ التمِّ في الظُلمِ
وآفى فوافى لنا نَصرٌ نؤمِلُهُ   منهُ فكشَّفَ عنَّا غيهبَ الغممِ
فقلتُ للنفسِ قُرّي واهجعي فلقَدْ   وُقيتِ ما تحذرينَ اليومَ مِنْ ألَمِ
ونلت أقصى المُنى إذْ رحت صادرةً   عَنْ وردِ بَحرٍ بموج الفضلِ مُلْتَطِمِ
حُيِّيتَ يا بنَ الكرام الصيد مِنْ (أسد)   هو المُعَدُّ لكشف الحادثِ العممِ
المخجل البحر فيِ وكّاف راحته   وفي مواهبه المُزري على الديمِ
مَنْ أيَّدَ اللّهُ فيه الدينَ فاتضحتْ   بنورهِ سُبلَ الأرشاد للأممِ
ما أمَّهُ المُسْنَتُ العافي وأمَّلَهُ   إلاّ وأصدَرَهُ عَنْ مَورد شَبِمِ
إن اتخذتَ حَماهُ مأمنا فلَقَدْ   أصبحتَ عزّاً بغاب منه كالحرمِ
وإن تحصَّنتَ منهُ خوفَ نائبة   فَقَدْ تحصنتَ في عالٍ من الأُطَمِ
أو اتقيتَ به بأساً تُحاذرُهُ   كنتَ الموقّى حلول البأس والنقمِ
وإن تمسّكتَ فيه رُحتَ مُمتسكاً   منهُ بحبلٍ متين غيرِ مُنصرمِ
خوّاض ملحمة منّاع مَظْلَمة   بدّاع مكرمة كالوابل الرزَمِ
كأنّما سُحبُ كفّيه إذا وَكَفتْ   سيبٌ من اليَمِّ أو سَيلٌ من العَرِمِ
يَحفُّهُ الملأُ الأعلى ويخدُمُهُ   فَقُلْ ونافسْ بمَخْدُوم لذي الخَدمِ
والدهرُ أُذنٌ إلى داعيه واعيةٌ   وإنْ يكنْ عن دواعي الغير في صَمَمِ
وكُلُّ أيامه غُرٌّ محجّلَةٌ   تُنْسيكَ أُنسَ ليالي دارة العلمِ
كَم أفصحتْ بروايات مخبِّرةً   عن فضل هذا الفصيح الحاذق الحكمي
وأعربتْ عَنْ مزايا سرٍّ مفخره   لنا فباحَتْ بسرٍّ غيرِ مُنْكتِمِ
له جَلالٌ وأخلاقٌ مُهذبةٌ   تَذْكارُها يُبرئُ المُضنى من النقمِ
حلوُ الشمائلِ والأعراقِ شيمتُهُ   أحلى من الشَهد والسلوى لدى الأممِ
يستأنسُ الريمُ فيه مِنَ لطافته   كأنّهُ بين ضال الطلح والسلمِ
سهل العريكة منّاع الحقيقة   خوّاض الكريهة إنْ حرُّ الوطيس حَمى
أ(جعفرٌ) هو أم بحرٌ طَمى كرماً   وفاضَ حتى تخطّى غاية الكرمِ
المُنفقُ المال يومَ المَحْلِ يتبعُهُ   ما كان يحويهِ مِنْ شاءٍ ومنْ نِعَمِ

والحاكم المُرتضى دون الورى حَكَماً   يا أسـعدَ اللّه جدّ الحاكم الحَكَمِ
أكـرِمْ بـه مِنْ فـتىً كمْ راحَ مُنْتَـشِراً   عليـه للنصـرِ يومَ الرّوع من علمِ
ندبٌ وناهيكَ مِنْ ندب ومُنتَـدَبٍ   إلى المعـالي ومِنْ حَـبـرٍ ومِنْ عَلَمِ
كم حلّ بالنظرِ العالي إذاً اشتكلت   عـقـدُ الأمـورِ وداوى الكَلْمَ بالكَلِمِ
ملءُ المفـاضـةِ مِنْ عِلم ومن عـملٍ   ومِنْ سـخـاء ومن بأس ومن شـيَمِ
له من المجـد حظٌّ وافـرٌ وعُـلاً   ما ليس يُحصيه خَطُّ اللوحِ والقلمِ
حـازَ المفـاخرَ حتى جاز غـايتَـهـا   وصـارَ بين عـبـاد اللّه كـالعَلَمِ
حَـوى المكارمَ حـتى قـال قـائلُهـا   هذا الذي الفَضلُ فيه غيرُ مُنْقَسمِ
يُهْنيكَ لو راحَ يُلقي مِنْ بَلاغـتـه   عُـقـودَ دُرٍّ بسلك الحُسنِ مُنْتَظمِ
أبدى له العُـذرَ (قُسٌّ) لو يعـاصـرُهُ   وكـان مـعـتـرفـاً في زلّةَ القَـدمِ
أو راح يُملي مـقـالاً من يراعـتـه   لكان كـالسـيلِ مُنْحَطاً عن الأُكَمِ
يُنْسيكَ (حسّانَ) نَظماً رائقاً ولهُ   نثرٌ حكى أنجُمَ الجوزاء في الظُلَمِ
مَنْ لم يَجُرْ قطُّ يوماً في حكومتـه   وإنْ يَفـهْ فَـاهَ بالأسـرارِ والحِكَمِ
تلقـاهُ يومَ النَدى يهـتـزُّ مِن طرَبٍ   إلى المكارم هزَّ الغـصنِ للنَسَمِ
لا زلتَ تَنْشقُ من ريّا شـمـائله   نَوافـحـاً تُنْعشُ العـافي مِن العَدمِ
وفـاقَ حـتى سـمـا النسرين منزلةً   وداس هام الثـريّا منه بالقَـدمِ
فـمَنْ يُضـاهيـه في عزٍّ وفي شـرف   ومَنْ يُدانيـه في علم وفي كـرمِ
مـولى له مُـدّت الأعناقُ خـاضعـةً   لمجـده مِن ملوكِ العُـربِ والعـجمِ
ما استمطرت سُحْبَهُ الآمالُ في زمنٍ   إلاّ وجـاء بوبلٍ للندى سـجمِ
ولا أناختْ له الوفّـادُ مِن حَـرمٍ   إلاّ وألفَتْهُ فـيهـا خيرَ مُحْتَرمِ
نَماهُ (خضرٌ) فيا طُوبى لخيرِ فتى   مكرّم للكريمِ المُسـتطابِ نُمي
يا بنَ الخضـارمـة الأمجاد يا أملي   ويا ملاذي ويَا كـهفي ومُعْتصمي
جُدْ لي مـن الكرم الوافـي بمونقة   حـتى أُصـانَ بهـا عن مـورد وخَمِ
وحـاشـا للّه إن أبقى (كـذا) غرضاً   إلى مـرامي سـهام الضّيم والأُظمِ
أو أنثني اليـومَ عن ناديكَ منقلبـاً   في صفقة الغُبنِ أو في حَيرةِ الندمِ
أبقـاكَ ربُّكَ في عـزٍّ وفي شـرفٍ   أين اتجـهتَ وفي خـيـرٍ وفي نِعَمِ

وقال أيضاً مؤرخاً بعض أعياد الشيخ ، ومهنئاً له بقدومه من سفر كان قَدْ أسفر عنه . وهي تزيد على المائة قَدْ اقتصرنا منها على هذا المقدار ، وهو :

جاء السُرورُ وجاد في نيل المُنى ... وَغَدا ينادي بالبشارة والهَنا
والسّعد بالأقبال أقبلَ ناشراً ... ثوبَ المَسرَّة طاوياً بُردَ العَنا
والكونُ أصبح لابساً خُلعَ الهنا ... جذلاً وطيرُ الشوق يطربُ بالغنا
وقضيبُ بانِ الشوق لمّا أنْ سرى ... سِرُّ الهوى فيه تَمايل وانثنى
وليالي الأفراح أفجرَ صبحُها ... يوماً وكانتْ قبلُ ليلاً أدكنا
والكُلُّ مغبوطٌ وفيما أنعمَ الـ ... ـباري به بعضٌ يُهنّي بعضنا
مستبشرين وحَقتِ البُشرى لنا ... بقدوم مولانا الأجل وشيخنا
بقدوم (جعفر) بحر علم اللّه قَدْ ... نأت الكآبةُ ، والسرورُ لنا دنا
يا روضةَ الرّواد بَلْ يا منهل الـ ... ورّادِ يا بحرَ السماحةِ والمُنى
قَدْ ودّتِ السبعُ الطِباقُ لو أنّها ... قَدْ أصبحتْ لكَ موطئاً أو موطنا
مَلكٌ تغَضُّ له الملوك مهابةً ... منهُ وتُطرقُ خَشيةً مهما رَنا
لم استزدْ شرفاً له بمقالتي ... هيهات في مدح الأله له غنى
لكنني لمّا رأيتُ مديحَهُ ... فَرْضاً عليَّ أتيتُ فيما أمكنا
بالخمسةِ الأشباحِ تمَّ فأرخوا ... (يا جعفرُ بالعيدِ قَدْ نِلتَ المُنى)

وقال يهنيه :

تِه سروراً فَقَدْ بلغتَ الأماني ... بلقى شيخنا ونلتَ التَهاني
وابتهجْ فرحةً ونافسْ عليها ... كُلَّ قاصٍ من الأنام ودانِ
بِسَريٍّ تأرّجتْ منْ شَذاهُ ... نفحةٌ عطّرتْ جَميع المعاني
(جعفرٌ) يُفْضِلُ البحارَ وهيهاتَ ... تُضاهي عُبابَهُ أو تداني
أسَّسَ المجدَ والعُلى فاستقامتْ ... واستقلّتْ أركانُهُ والمباني
يَفْخَرُ الفَخرُ حين يُعزى إليه ... وكفاهُ فَخراً به وكفاني
شرفٌ دونَهُ (السَماك) مَحلاً ... ومَقامٌ يعلو على (السرطانِ)
جَلَّ قَدْراً ومفخراً فتعالى ... عن بني عصرهِ بأسنى مكانِ

وَرَدوا (الغريَّ) فطال إذ وردوا السما ... بقـدومـهـم إذْ كـان عند قـدومـه
وتـودُّ أنْ لـو أبْـدَلَـتْـــــــهُ بـدرَهـا ... عن بدرِه ، ونجـومَـهـا بنجـومـه
عَلَمـاً بنقص بدورها في أفـقـهـا ... ومـغـيب أنجـمـهـا خلال غـيـومه
وتيـقُّنـاً أنْ ليس ينقـصُ نـورهـم ... واللّه أمضى الأمـر في تتـمـيـمـه
حثّ الرواسم للحـجـاز ولم تزل ... مشـتـاقـة لوجـيـفـه ورسـيـمـه[1]
كـالغـيث كُلّ تنوفـة ظمـآنة ... لغـزير وابل وُدْقـه وعـمـيـمـه
وسـعى لحجّ البـيـت وهو الحج في ... تحليله المعـــهـــود أو تحـريمه
وبمروتيــــه وركنه ومـقــامــه ... وبحـجـره وحُـجـونه وحطيـمـه
ودقـيـقــه وجليله وكـثـيـره ... وقليله وحــديثــه وقــديمه
رُفِعتْ قـواعدُ حجر (إسـماعيله) ... فـيـه وقـامَ مـقـامَ (إبراهيـمـه)
وبه (الصَفـا) لقيَ الصفا وتأرّجتْ ... أرجـاءُ (مكةَ) من أريج نسـيـمـه
وغـدتْ ينابعُ (زمـزم) وكـأنّمـا ... مُزجتْ لطيب الطعم من تسنيمه
أهدى السلام إلى (النبيِّ) وما درى ... أنّ (النبيَّ) بداهُ في تسليـمــه
جـزل العطاء فَـمَنْ يَنِخْ آمـالـه ... بشـريف طبع من عُـلاهُ كـريمه
يَنِخ الرجـاءَ ببـاب غـيـر منهنه ... مَن أمَّ جـدواهُ ولا مـحـرومـه
طُبِعَتْ خلائقُهُ على محمودها ... والطبعُ ليس حمـيدُهُ كـذمـيـمـه
أمَّــا المقــالُ فَـرّقَ في منثـوره ... عن كنه مـعـناهُ وفي منظومــه
فليـقـتنعْ ذو اللُّبِّ في تبـجـيله ... بمديح خـالقـه وفي تعظيـمــه
ليس المديحُ يزيد في تشـريفـه ... شـرفـاً وليس يزيد في تكريمه
وإن ادّعى أحــــدٌ بلوغ ثنائه ... بنشـيـر درٍّ صـاغـه ونظيـمــه
فـأنا الذي سلَّمتُ أني عـاجـزٌ ... ونجـاة نفس المرء في تسليـمــه
لكنَّ عـام قـدومـه أرّخـتـُـهُ ... (قَدِمَ السخا والمجدُ عند قدومه)[2]

وقد أرسل الشيخ الكبير بهدية إليه وكتب معها :

عـذر الحـقـيـر إذا قَلّتْ هديتُـه ... (إنَّ الهدايا على مقدار مُهديها)

---

(١) الرواسم : الأبل . والوجيف والرسيم : نوعان من السير تتصفُ بهما الأبل .
(٢) حساب الجمل يساوي (١١٩٩هـ) .

فكتب إليه الشيخ مُحَمَّد رضا (ره) مجيباً بهذه الأبيات، وهي:

وافتْ هديتُكَ الغـرّاء حـاملةً ... شـذا نسيـمكَ يذكـو في مطاويها
وأعربتْ عن صفايا الودّ منك فيا ... طُوبى لنفس بصفو الودّ تصفيها
فَجَلَّ مُـقـدارها عند المُحبِّ كما ... قَدْ جلّ بين البرايا قَدرُ مُهْديها
وجاوزت قَدْرَ مَنْ وافتْ وقد عدلت ... إذ كنتَ مُهديها الدنيا وما فيها

وكتب الشيخ إبراهيم بن الشيخ يحيي العاملي من الشام إلى النجف يمدحه، ويوصيه بولديه، وكانا يشتغلان بالنجف، وهي:

سلام كـمُنهلِّ السَحاب الكَهَنْورِ ... على روضة الدين الحنيفي (جعفرِ)
تحيّة مشتاق على القُرب والنَوى ... يرنّ كما الحرّاء في أوبة وري
أمَا وهواهُ وهي حلفة صادق ... يرى الصدق في الدارين أربح مَتْجَرِ
لقد حلّ منْ قلبي محلاً حميتُهُ ... من الناس حتى من قبيلي ومعشري
وبوأتُهُ الدارَ التي ما أبحتُها ... لغير نبيّ أو إمام مُطهّرِ
ولا غرو أنْ يُمسي ويُصبحَ (جعفرٌ) ... ومنزِلُهُ ما بين (طه) و(حيدرِ)
أحنُّ إليه والحنينُ من الجوى ... ولا عجبٌ إنْ حنَّ صاد (لجعفرِ)
وأهتزّ إنْ أطراهُ مُطْرٍ كأنني ... نزيفٌ وما حدَّثتُ نفسي بمُسكِرِ
هو العالِمُ النحريرُ والجبلُ الذي ... تفجّر منه العلمُ أيَّ تفجّرِ
أقامَ لواءَ الدين شرقاً ومغرباً ... وقد جاشت الدنيا بغاوٍ ومُفترِ
وأنقذهُ من قبضة الشرك بعدما ... ألحّ بأنياب عليه وأظفرِ
وأجرى لطُلاب العلوم جداولاً ... من العلم بالأوهام لم تتكدّرِ
ولا أمْتري أنَّ الذين تقدّموا ... لهم مفخرٌ في العلم أعظم مفخرِ
ولكنْ له بين الجميع تقدُّمٌ ... عليهم فكان السبق للمُتأخرِ
ولا عجبٌ فانظرْ إلى الدهر كم مضى ... به قبل (طه) من رسول ومُنذرِ
هو البحر للقاصي يجودُ بوابلٍ ... وطلّ وللداني يجوُد بجوهرِ
هو الصارمُ الماضي يروقُكَ منظراً ... ويُوليكَ أضعافَ المُنى بعد مخبرِ
هو الغيثُ لا ينفكُّ منهلَّ جوده ... على مُعْسِرٍ في الناسِ أو غير مُعْسِرِ

إذا ما ظما جود الجواد تشاركا … يدا مُعْسرٍ فيما هناك وموسرِ
يُغلّسُ في كسب المعالي وغيرُهُ … نؤومُ الضُحى ، والجدُّ حَظُّ المُبكّرِ
ويكدحُ في حاجات مَن هو نائمٌ … بعَزْمَةِ مضّاء على الهول عبقري
فلستَ ترى ليثاً يُفزّعُ من ندى … وفرض عليه غير غادٍ مشمّرِ
لنصرة مظلوم وأمن مروّعٍ … وإرفاق مجهود وإيواء مفجرِ
وما طرق الملهوف باباً كبابه … إذا طرقت في الدهر أمُّ حبوكرِ(١)
إذا جيءَ في ليلٍ من الخطب حالكٌ … رماهُ بصبحٍ من محيّاهُ مُسْفرِ
ويصبحُ في أمنٍ من الدهر جارُهُ … وكيف يخافُ (الذئبَ) جارُ (الغضنْفَرِ)
ويغشى حماه المجدبون من الورى … فيمسون أصناف الربيع المنوّرِ
تقيٌّ يخافُ اللّه سراً وجهرةً … وذلكَ شأنُ العارف المتدبّرِ
فوآ عَجَباً من خيفةِ الناسك الذي … من الذنب لم يعلق ولا بالتصوُّرِ
عزوفٌ عن الدنيا ولو برزتْ له … وفي راحتيها مُلكُ (كسرى) و(قيصرِ)
فيا قاليَ الدُنيا وقد أجمعَ الورى … على حُبِّها من ذي عماء ومُبْصرِ
بعيشكَ خبّرني ألستَ محرّماً … مخالفة الأجماع أم أنت مُجْتَرِ
فيا (جعفرُ) الخير الذي طابَ مَحْتداً … فطاب ، وطيبُ الفرع من طيب عُنصرِ
ليُهْنكَ مَجْداً أنت ساحبُ ذيله … برغم العدى فوق السحابِ المُسخّرِ
ولمّا رأيتَ الأرضَ شتى ولم تكنْ … لتحفلَ إلاّ بالمقام المطهرِ
تخيّرتَ قُربَ (المرتضى) علم الهدى … وطاب لك المثوى فخيّمتَ بالغَري
فصادفتَ منه يا أخا الفضل جنّة … لها من نداكَ الغَمْرِ أفضلَ كوثرِ
وحسبُكَ فَخْراً أنّ فضلَكَ وافرٌ … ومالك في الأموال غيرُ موفّرِ
وأنّكَ طودٌ زادهُ اللّهُ رفعةً … بفرعٍ زكيّ بالفضائلِ مُثْمرِ
وكم مِن يد عندي له لو ذكرتها … تضايق وردي في القريض ومصدري
وفدتُ على مغناهُ والدهرُ أسودٌ … فأصبحتُ في روضٍ من العيش أخضرِ
سأشكرُهُ وهو الجدير من الورى … بشكري ومَنْ يستوجبِ الشكرَ يُشْكَرِ
إليكَ أبا (موسى) زففتُ بديعةً … تبخترُ في ثوبِ البديعِ المُحبّرِ

(١) الحبوكر : الداهية . وأم حبوكر : الداهية العظيمة .

هديتَ بمشــغــوف بمدحكَ مُــوْلَع — بشكر جميل في مغيب ومحضرِ
ولا أدعــي أنّـي تـطـوّلـتُ بـالـثـنـا — ولكنني حــاشــاكَ عينُ المُقـصّـرِ
ولي بحــمــاكم بضــعــةٌ وأخٌ له — مـقـيمٌ على ربع من الخير مُقْـفِـرِ
فلا تَنْسَهُ واعطفْ على الحائم الذي — يروحُ ويغـدو ظامـيــاً بين أبحـرِ
ولا تُخْـرِجَنْهُ من عـمـوم فـواضل — تلفّ إذا جـاشـت مـقـلاً بمُكثـرِ
وكـيـف يمسّ الجَـدبُ ربعَ مـخـيّم — على باب هطال من الغـيث ممطرِ
ولا زلت في عيش رغـيـد ونعـمـة — تـكرُّ عليكـم بالـنـعــــيم المكرّرِ

ولمّا توفّي العلامة الطباطبائي جعلت الشعراء تتخلّص في مراثيه بمدح الشيخ جعفر لأن الأمر انحصر به . فمن ذلك ما قال الشيخ إبراهيم العاملي يرثي السيد ، ويعزّي ولده السيد رضا ، ويوصي الشيخ به ، حيث قال :

وله من الشـيخ المعظّم (جـعـفـر) — علم الهـدى جـارٌ عـزيز الجـارِ
وهو الأب الـثــاني له وكــفـى بهً — عن غـيّـب كـاف وعن حـضّـارِ
يا (جـعـفـرَ) الخـيـر الذي بزَّ الحـيـا — كـرمـاً فـأصـبح كـعـبـةَ الزّوارِ
يا عـالمَ العـصـرِ الذي لم يكتـحلْ — بنظيـره عـصـرٌ من الأعـصـارِ
أُوصيكَ بالخَلفِ (الرضـا) وأراك لا — تحـتـاجُ في (المذكـور) من تذكـارِ
أنّى يُضـيّـعُ واجبُ مـولى يرى — تضــيـــيعَ نـاقلةٍ من الأوزارِ

وقال بعض الشعراء ، يرثيه في سينيّة طويلة يتخلص بآخرها في مدح الشيخ الأكبر ، ويطيل في الثناء عليه . ولم يحضر في حفظي منها إلاّ بيت واحد ، وهو :

لَئَنْ غابَ (مهديٌّ) الهُدى فيه عنكمُ — ففي (جعفرٍ) بالعلم تحيا المدارسُ

القسم الثاني: في وفاته وما وقع بيدي من مراثيه

إنَّ الشيخَ رحمه اللّه ، كما ذكرنا لك فيما سبق ، انحصرت به رئاسة الأمامية نهياً وأمراً وتدريساً وفتوى ، حتى أن السيد الطباطبائي كان يأمر أهله بتقليد الشيخ في أغلب المسائل التي يحتاط فيها ، ويأمر الناس بتقليده في جميعها كما في «معدن الشرف» . هذا كله في زمان أستاذيه : في التدريس المروّج البهبهاني وفي الأجازة العلامة الطبطبائي .

إلاّ أنه رحمه اللّه بعد أن فرغ من جميع العلوم على وجه الاستيفاء لم يكن ليستقر في بلد أو مكان إعتماداً على وجود مثل هاتيك الأركان، والأستغناء عنه بهم في نشر القضايا والأحكام، إلى أن توفى الآقا (ره) سنة ثمان بعد المائتين وانحصر الأمر بالعلامة المتقدم والشيخ، فالتزم الشيخ بالأقامة، والنهوض بأعباء هاتيك المقامة، فألقى عصا التسيار، وقام بتشييد شريعة النبي المختار (ص)، فاستقلا بالأمر جميعاً، وبزغا في أفق الهدى كالنيّرين طلوعاً. وكانا متقاربين في السنّ، إلاّ أنَّ (الشيخ) عمّر بعد السيد بمقدار خمسة عشر أو ستة عشر سنة. وكانا متساويي الحضور على الأساتيذ فلم يحضر السيد عند أستاذ إلاّ وكان الشيخ بخدمته وفي صحبته، فلما آل الأمر إليهما حضر الشيخ بدرس (السيد) مقدار إسبوع أو اسبوعين ليُرجع الناس إليه كلهم، وطلبة العلم جلّهم، وليبين فضله على جميع العلماء الأعيان، وإن كان غنياً عن البيان.

وأما السيد فأنّه أرجع الناس إليه في التقليد، وألقى إليه من أغلب أمور الدين والدنيا الأقليد، ونصبه علماً للفتاوى والأحكام، وحكماً تصدر عنه الأقضية في ذوي الخصام. وجعل أمور الحقوق والأموال بيد العابد الزاهد الورع التقي المشهور الشيخ حسين نجف، فكان يضع ما يؤتى إليه من حق أو مال في صندوق في داره، فإذا احتاج السيد أو الشيخ شيئاً من المال لأعطاء تلميذ أوفقير أتيا إلى الصندوق فأخذا منه قدر الكفاية، كذا في «معدن الشرف» وغيره. هذه سيرة أولياء اللّه الأبرار، فاعتبروا يا أولي الأبصار، وما كان حديثاً يفترى.

ثم أن السيد العلامة قبل وفاته بحولين إرتحل إلى مكة المشرفة حاجاً، فعيَّن فيها الحدود والمواقيت وأظهر المقامات المشرفة. وكراماته هناك أشهر من أن تُذكر. وبقي هناك سنتين، فانحصر أمر تدريس طلاب النجف وعلمائهم في هذه المدة بالشيخ الأكبر، ورجع جميع أصحاب السيد إليه، للحضور والقراءة عليه، الاغتراف من بحره الطامي، والتشرف تحت منبره السامي. فكان على ما سمعتُ من الشيبة تحت منبره ما يزيد على المائة من العلماء الأشراف، الذين هم فوق رتبة الأجتهاد بآلاف.

فمن (الجعافرة)[1] أولاده الخمسة، موسى، ومحمد، وعلي، والحسن، وعيسى، وإخوته محسن، ومحمد.

ومن (القزاونة)[2] السيد باقر، والسيد علي، والسيد حسن ـ والد السيد الوحيد السيد

---

(١) هم أولاد الشيخ جعفر كاشف الغطاء.

(٢) (القزاونة): هم أسرة السيد أحمد القزويني المولود سنة ١١٢٤هـ/ ١٧١٢م والمُتوفى سنة ١١٩٩هـ/ ١٧٨٥م.

المهدي ـ رحمهم الله أجمعين .

ومن (البغاددة) السيد حسن الأصم[1] من بيت العطار المعروفين إلى الآن في بغداد ، وبيتُهم من أعظم بيوت الشيعة هنالك اليوم ، ثم السيد محسن الأعرجي[2] صاحب المحصول ، ثم السيد إبراهيم البغدادي[3] عالم شاعر ، وسيأتي عليك من شعره ما يدلك على ذلك ، وله ابن اسمه السيد باقر البغدادي[4] وهو من شعراء الشيخ موسى وخواصه إلاّ أنه أقوى في هذه الصناعة من أبيه ، وسيرد عليك من ذلك ما ينبيك .

ومن (الأعاسمة) الشيخ مُحَمَّد علي[5] ، والشيخ عبد الحسين[6] ، وكان بيتهم بيت شرف وعلم ، ولهم تصانيف في الفقه عظيمة .

ومن (العوامل) السيد جواد[7] صاحب «مفتاح الكرامة» ، والسيد علي أمين العاملي[8]

والسيد أحمد هذا هو استاذ السيد مهدي بحر العلوم ، والشيخ جعفر كاشف الغطاء . وزوجتُهُ هي أخت السيد مهدي بحر العلوم . وله أولادٌ خمسة كلُّهم من كبار المجتهدين ، وهم : (السيد حسن ، السيد حسين ، السيد علي ، السيد محمد علي ، والسيد باقر) ، ومنهم تتفرّع أسرة آل القزويني التي نُسبتْ الى (الحلّة) .

وأكبر أولاد السيد أحمد هو السيد حسن (والد السيد مهدي القزويني) ، وكان من علماء عصره الكبار ، ولد سنة ١١٥٢هـ / ١٧٣٩م . في النجف ، وسكن منطقة (الدغّارة) فترة من الزمن ، وكان له إلمامٌ بالعلوم الرياضية والهندسية وقد شارك عام ١٢٠٨هـ / ١٧٩٤م في هندسة مجرى نهر الهندية الذي أصبح من أعظم أنهار العراق في وقته . تُوفي سنة ١٢٢٣هـ / ١٨٠٨م .

السيد علي القزويني : من كبار المجتهدين ، وهو أستاذ السيد مهدي القزويني وقد أجازه بالاجتهاد . تُوفي بالنجف ، ودُفنَ بباب مسجد (الخضرة) كما ذكر ذلك السيد مهدي القزويني في كتابه «المزار» . ويمكن استظهار سنة وفاته حدود عام ١٢٣٧هـ / ١٨٢٢م .

السيد باقر القزويني المعروف (بصاحب الكرامات) والمُتوفى في الطاعون سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م .

وأسرة آل القزويني اليوم تتفرّع من (السيد حسن ، السيد علي ، والسيد محمد علي) . أمّا السيد حسين ، والسيد باقر فقد درَجا . وقد اشتهر عقب هؤلاء الفقهاء الثلاثة في المناطق الفُراتية العراقية ، وامتلكوا فيها الأراضي الزراعية في مدينة الحلّة ، طويريج (الهندية) ، الرغيلة ، الدغّارة ، البزونية ، القزوينيّة ، الكفل ، العباسية ، وغيرها من المناطق الأخرى .

(١) توفي السيد حسن الأصم البغدادي سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٩م .
(٢) تُوفي السيد محسن الأعرجي سنة ١٢٢٧هـ / ١٨١٢م .
(٣) السيد ابراهيم بن السيد محمد العطّار البغدادي تُوفيَ سنة ١٢١٥هـ / ١٨٠١م .
(٤) وفاة السيد باقر بن السيد ابراهيم العطّار البغدادي سنة ١٢٣٥هـ / ١٨٢١م .
(٥) الشيخ محمد علي الأعسم من خواص الشيخ جعفر كاشف الغطاء ، والمرافقين له في أسفاره تُوفي سنة ١٢٣٣هـ / ١٨١٨م .
(٦) تُوفي الشيخ عبد الحسين الأعسم سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م .
(٧) تُوفي السيد جواد العاملي سنة ١٢٢٦هـ / ١٨١١م .
(٨) السيد علي الأمين العاملي هو ابن عمّ السيد محمد جواد العاملي . وكان من الملازمين للسيد باقر القزويني ، وقد أعانَهُ في تجهيز الموتى الذين راحوا ضحية وباء الطاعون سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م .

من العلماء الشعراء . إلى غير ذلك من أساطين العلماء (عرباً) ما مر عليك ، و(عجماً) كالشيخ أسد اللّه التستري ، والشيخ مُحَمَّد تقي صاحب الهداية والسيد مُحَمَّد باقر الرّشتي المعروف بحجة الأسلام ، والحاج ميرزا ابراهيم الكلباسي ، إلى غير ذلك ممن يضيق نطاق البيان عن تعدادهم .

ولنا عزمٌ إن شاء اللّه بتوفيقه أن نضيف إلى (رسالتنا) هذه جملة من أخبار أساتيذ الشيخ واحداً واحداً إجازة وحضوراً حتى تنتهي سلسلة أساتيذه إلى المعصوم (ع) ، ثم نردف ذلك بأخبار تلاميذه وتفصيل أحوالهم جميعاً . وأرجو من الناظر في هذا المكان أن يدعوَ لي بالتوفيق لذلك ، والنهج على أحسن المسالك .

والحاصل أن هؤلاء وكثير من أمثالهم كالشيخ حسين نجف ، والشيخ قاسم محيي الدين رحمهم اللّه أجمعين ، إلى غير ذلك ممن يطول المقام بذكرهم ويقصر القلم عن حصرهم ، وكلهم أتوا إلى درس الشيخ وهم مجتهدون مسلّمون الفضيلة ، ولكن علماً منهم أنهم وإن بلغوا مبلغاً من الفضل خطير ، فهم محتاجون إلى الاستمداد من ذلك البحر الغزير :

فَهَلْ بفروعِ الدوحِ عن أصلها غنىً　　　وهل بالسحاب الجون كفوٌ عن البحرِ

ولما رجع السيد العلامة (ره) من الاتصال بجوار ربه في العالم الفاني ، لم يقم إلاّ أياماً يسيرةً حتى دعاه مولاه فعرج إلى حظيرة القدس بمقدّس ذلك الجسم الروحاني ، فاستقل الشيخ الأكبر بالأمر ، ونهض بأعباء الدين فساس ما شاء فيه وتدبّر ، إلى أن دخل شهر رجب من سنة الثامنة والعشرين بعد الألف والمائتين ، فتوعّك الشيخ وشكى نفسه وأصابه في الأثناء برد فتورّمت منه رقبته ووقع بالمرض المعروف (بالخنازير) . وجعل يشتد الورم حتى نُعيتْ إليه نفسه الشريفة ، فأوصى بنيه الثمانية بعد أن جمعهم بوصايا كثيرة من أمر الدنيا الفانية ، والآخرة الباقية .

ثم قال لهم : وقد خلّفتُ عليكم مَنْ يرعاكم بعد خالقكم ولدي الطاهر المطهر موسى ابن جعفر ، فاسمعوا له وأطيعوا ، ولا تخالفوا له قولاً ، ولا تعصوا له أمراً ، وخوضوا دونه الحتوف ، وعانقوا لأجله السيوف ، فأنه خليفتي عليكم ، وأنا خليفة اللّه عليكم ، وإنكم لا تزالون بخير وعلى خير ما أطعتموه واتبعتموه . ثم إلتفتَ إليه وقال : يا بُنيّ هؤلاء قوة ساعدك ، فاستعنْ بهم على شدائدك ، واعطف عليهم فإنهم لُحمَتكَ ، وارم عدوك بمن شئتَ منهم فأنهم كُنانتك ، وأحسِن فيهم فأنهم منك وأنت منهم ، ولا تتمسكَ فيما في يديك من أثاث الدنيا الفانية عنهم ، فأنّ ما أعطيته لك ، وما أمسكته عليك ، ولا تحملهم

على رقاب الناس فتزلّ قدم كما زلّت بمن قبلك ، ولكن أمزج لهم رخاءً بشدة ، وشدةً بعفة ، وعفةً بغنى ، وغنى بزهد ، وزهداً بصبر ، وصبراً بفقر .

ولم يزل يقول لهم : ولا ولا ، حتى ضعف عن الكلام فقال : اخرجوا عني وادخلوا عليّ بعد ساعة . وجعل يتلو الكتاب العزيز حتى ضعف نَفَسه ، وفارقته نَفْسُه ، فهوى عمود الدين ، وطمست آيات الكتاب المستبين ، وكثر الصراخ والهلع ، وكادت السماء أن تقع .

فلما فرغوا من تجهيزه ودفنه في مدرسته رجعوا إلى داره الكبيرة فوضعوا الرؤوس بين الركب ، وأطالوا النشيج والبكاء هنالك ولا عجب ، لأنهم عيال على مكارمه الجزيلة ، فكأنما فقد كُلّ واحد منهم أباه البرّ وكفيله ، وأنشد كلٌّ منهم لعظم ما دهاه من المصاب ، وقد سقته أكف الرزايا كؤوس الحنظل والصاب :

ظننّا الذي نادى محّقاً بموته ... لعظم الذي أنجى من الرزء كاذبا
وخلنا الصباحَ الطَّلْقَ ليلاً وإنَّما ... خبطنا حذاريا من الحُزنِ كاربا
وما ذَهبتْ نَفسٌ تصفَّتْ من القذى ... ولكنَّما الأسلامُ أدبرَ ذاهبا
ولّما أبى إلاَّ التحمُّلَ رأيها ... بمنحناهُ أعناقَ الكرامِ ركائبا
يسيرُ به النَعشُ الأغرُّ وحولَهُ ... أباعدُ راحوا للمُصابِ أقاربا
عليه حفيفٌ للملائك أقبلتْ ... تُسايرُ نعشاً زاحمَ العرشَ جانبا
تَخالُ لفيفَ الناسِ حول ضريحه ... خليطَ (قطا) وافى الشريعةَ هاربا
إذا ما امتروا سحبَ الدُموعِ تفرَّعتْ ... فروعُ البُكا عن بارق الحُزنِ لاهبا
فمَنْ ذا لفصلِ القولِ يسطعُ نورُهُ ... إذا نحنُ ناولنا الألدَّ المناوبا
ومَنْ ذا ربيعُ المسلمين يقوتُهم ... إذا الناس شاموها بروقاً كواذبا
فيا لهفَ قلب الدين بعدَ (عميده) ... وفارسه الدفّاع عنه النوائبا
وكان عظيماً يُطرقُ الجمع دونَهُ ... ويعنو له ربُّ الكتائبِ هائبا
وذا مقول عضب الغرارين صارم ... يروحُ به عن حومة الدين ضاربا
لئن أفَلَتْ شمسُ الهُدى فيه عنهمُ ... فقد أعقبت بدراً لها وكواكبا

فقامت نواعي الهدى تنعاه ونوادبه ، والنوح يجاذبها وتجاذبه ، فقال السيد إبراهيم البغدادي راثياً له ومعزياً ولده ، ومؤرخاً عام وفاته :

خطبٌ تكادُ له السـمـا تتـفطرُ والأرضُ ترجفُ والجبالُ تُسيّرُ
ومصيبةٌ أذكتْ بكُلِّ حُشاشة نيرانَ وجد لم تَزلْ تتسعّرُ
ورزيةٌ كسرتْ قلوب أولي النُهى كسراً وأنْ طال المدى لا يُجبرُ
اليوم ماتَ (المرتضى) علمُ الهدى و(الشيخُ) والحَبرُ المحققُ (جعفرُ)[1]
اليوم أظلمت المشاهدُ بَعدَ أنْ كانتْ بطلعته السنيّة تُزْهَرُ
اليوم وجهُ الكونِ بعد بهائه بالأمس أصبح وهو أشعثُ أغبرُ
ذهبَ الكريمُ الأريحيُّ ومَن زكتْ منه الفروعُ وطاب منه العُنصرُ
شكرتْ عوائدُ برِّه كُلُّ الورى وعلى الحامد مَنْ تَعوّدَ يُشكرُ
ما أمَّهُ طلبَ اغتنام نواله راجيه إلاّ آبَ وهو مُظَفَّرُ
كلتا يديه حياةُ أبناءِ الرجا لكنْ على الأعداءِ موتٌ أحمرُ
بأبي أبي (موسى) أخا الهمم التي ما حازَ كسرى مثلهنَّ وقيصرُ
مَنْ للمساجد والمحاريب التي كانتْ بحُسن الذكرِ فيه تعمرُ
مَنْ للقضايا المشكلات يحلُّها مَنْ للأمور المصعباتِ يُدبّرُ
مَنْ للعويصات التي عن كُنهها تَعيا عُقولُ ذوي العُقول وتقصرُ
مَنْ يكنفُ الأيتامَ مَنْ يتفقّدُ الـ أرحامَ مَنْ يرعى الذمامَ ويخفرُ
فيمَنْ وقَدْ أودى الزمانُ وقد نأى إنْ عنَّ فَخْرٌ في البَريّة نفخرُ
وبِمَنْ نصولُ على الزمان وقد نأى عنّا أبو (موسى) الهُمامُ القَسورُ
ضلَّ الأُلى قَدْ غسلوهُ أمَا دَرَوا أنَّ المياهَ بغُسله تَتطهّرُ
وغوى الأُلى قَدْ حنّطوهُ أمَا دَرَوا أنَّ الحُنوطَ بنَشْرِهِ يتعطَّرُ
ما خلتُ قبلَ حلوله في رمسه أنَّ المفاخرَ والمكارمَ تُقبرُ
اللّهُ أكبرُ ما أجلَّ مصابهُ فلديه كُلُّ مصيبة تُسْتَصغَرُ
للّه داجية من الأرزاء قَدْ كادتْ لها شمسُ الضُحى تتكورُ
ضاعفتُ من وجدي عليه تحسّري لو كانَ يُجدي الواجدين تَحسُّرُ
والَهفتاهُ على شُبولِ كريهة قَدْ صيدَ مِنْ آجامهُنَّ غضَنْفَرُ
واحسرتاهُ لقادح برزتْ له أمُّ المعالي حاسراً تتحسّرُ

(١) على هذا البيت علّقَ المؤلف بقوله: «لا تغفلْ عن حُسنه».

ما عذرُ عيني بعد عينك (جعفراً) لو أنَّهـا تَرقى ولا تتـفـجـرُ
ومن العجائب أنْ يُسمَّى (جعفرٌ) مَنْ مـدَّ بحـرَ يمينـه لا يجـزرُ
أبنيـه لا تأسـوا على مـا نابكم وتحـمّلوا وتجلّدوا وتصـبّـروا
مـا مـاتَ مَنْ أبقى لنا من بعـده أَسَـداً تخـاف الأسـدُ منه وتحـذرُ
فـهـو المُقـدَّمُ والمُشـار إليـه والـ ـحـاوي من العـرفـان مـا لا يُنكرُ
حيَّـا الحَـيـا أكنافَ ذيّاكَ الحِـمى حـتى يعـودَ ثراهُ وهـو مُنوَّرُ
وقـد اقـتـفـاهُ العِلمُ قلتُ مـؤرخـاً (العلمُ مـاتَ بيوم فـقـدكَ جعـفرٌ)[1]

وهذا شعر عالم كما تراه . وقد التزمنا هنا ألاّ نأتي إلاّ بمراثي العلماء للشيخ الكبير لأنه أوقع ، وللعدو أقمع ، إذ لا مزية بقول الشعراء ، فإنهم في كُلّ وادٍ يهيمون .

فممن رثاه من العلماء الشيخ حمود بن الشيخ إسماعيل[2] رحمهما الله وكانا من العلماء المبرّزين في النجف وبيتهم من البيوت القديمة ، ويعرفون الآن ببيت الظالمي . والشيخ حمود هذا هو جد الشيخ جعفر الظالمي المتوفى في هذه الأيام[3] ، وكان من ظرفاء المؤمنين ، رحمه الله وإياهم أجمعين .

قال الشيخ حمود يرثي شيخه الأكبر ، ويعزّي ولده الشيخ موسى ويمدح الشاه زاده مُحَمَّد علي مرزة لمّا أظهر من الاعتناء والاحترام للشيخ موسى رحمه الله ، ويعرّض بحسّاده والباغين عليه ، ممن قتلهم الله أخيراً على يديه :

لم يشجني ذكرُ جيرانٍ بذي سَلَمِ ولا جرى مدمعي شوقاً إلى أضمِ
ولا تجـدّدَ لي وجـدٌ بغـانيـةٍ فـبتُّ أشكو أُوامَ القلبِ منْ ألمِ
ولا سـألتُ الحَيا سقي الربوع ولا طربتُ شـوقـاً لذكـر البـان والعلمِ
بَلْ رُبَّ ناشـدة الأترابِ منْ ولهٍ لمّا رأتْ أدمُـعي ممزوجـةً بدمي
قَـدْ كنتُ أعـهـدُهُ والدهرُ ذو غِيرٍ يُنابذُ الدهرَ لم يخـضـعْ ولم يُضَمِ

(١) حساب الجمل يساوي (١٢٢٧هـ) .
(٢) الشيخ حمود بن الشيخ اسماعيل الظالمي اختصّ بملازمة شيخه كاشف الغطاء هو ، وأبناؤه . وهو جدّ أسرة آل الظالمي المعروفة بالنجف .
(٣) أي سنة ١٣١٤هـ / ١٨٩٦م ، لأنّ المؤلف بدأ بكتابة هذه الصفحات منتصف شعبان عام ١٣١٤هـ ، وانتهى منها في العاشر من شهر رمضان من العام نفسه .

لم تدر ما حلّ بالأسلام من خلل ... باد وما صبَّت الأيامُ من نِقم
أودتْ بأمنع ماضي العزم ذي هِمم ... جلّتْ عن الوصف والأحصاء بالكلِمَ
بجَدّه كان جدُّ الدين في صُعدٍ ... واليوم لّما تولّى بالحضيض رُمي
ساسَ الأقاليم بالنطق الحكيم كما ... كان النبيُّ يسوسُ الناسَ بالحِكَمِ
فراض معتاصها منه بقاحمة ... للجُود أغنتْ من الفرسان والبُهمِ
كانت ضغائنُ أهل الحقد كامنةً ... وكاد منهنَّ أنْ يقضوا بغيضهِمِ
حتى قضى لا قضى فانهارَ كيدُهمُ ... كالوَبْلِ غطّى ذُرى الأطوادِ والأكَمِ
كذاك يومٌ قضى فيه النبيُّ بدتْ ... أحقادُ قوم وكانتْ في صدورهِمِ
ضاهى النبيينَ في علم وفي خُلُقٍ ... وفي بلاءٍ وفي عزم وفي همَمِ
ما مُيّزَ الأنبياءُ الرُسلُ عنه سوى ... هبوط وحيٍ أتى من بَارئ النَسمِ
لو أنَّ في الأُمم الماضيِّ مولدَهُ ... لاختاره اللّهُ مبعوثاً إلى الأُمَمِ
تحيّرتْ فكرتي فيما يليقُ به ... وكُلُّ حيّاك نَظم فيه منتظمِ
أنّى يفي بعُلاهُ واصفٌ ندسٌ[1] ... والعقلُ عن وصفه فيما يليق عمي
كأنَّ في العالم العُلويِّ نشأتُهُ ... أو كان ذا عصمة حلّتْ بمُعتصمِ
يا وحشةَ الدين والدنيا لغيبته ... يَودُّ أهلوهما لو يُفتدى بهمِ
لولا التعللُ بالأمجاد عُتْرتُهُ الـ ... أطهارُ أهلُ الهُدى مستودع الحكمِ
لفارقتنا لعُظم الرُزء أنفسُنا ... وأسرعتْ للفنا شوقاً إلى العَدمِ
كم أنقذوا الناسَ من ويل ومنْ حَرَبٍ[2] ... وأولوا البرِّ من باد ومكتتمِ
يقودُهم للعُلى حامي الحقيقة مَنْ ... جلّتْ مزاياهُ أنْ يُحْصَينَ بالقلمِ
موسى بن جعفر قُلْ ما شئتَ من شرف ... واحكمْ بما شئتَ مدحاً فيه واحتكمِ
أبا المكارم صبراً فهو أجمل بالـ ... حُرِّ الكريم قضاءُ العزِّ والكرمِ
إنْ روّعتْ منكَ قلبَ الدين نائبةٌ ... أودتْ بحدٍّ شباها كُلَّ مُصطَلمِ
لأنتَ أكرمُ مَنْ أنْ تُلْفَ مضطهَداً ... مما عرا من وقوع الحادث العممِ
وكيف تخشى صُروفَ الدهرِ والملك الـ ... ـمنصورُ أولاك وداً غيرَ مُنصرمِ

---

(١) الندس : كثير الفهم .
(٢) الحَرَب : السلب .

تاجُ السلاطين قطبُ الدين ناصرُهُ ومظهرُ العدلِ والأحسانِ والشيمِ
(الشـاه زادهُ) مَنْ ذلّتْ لسطوتهِ شُمُّ العَرانينِ مِنْ عُربٍ ومن عَجمِ
المالك الأم ابن المالك بن المـا لـك الأم ابـن المـالّـك الأمَ
كم قلتُ للدهر هل أنجبتَ مثلهمُ في المكرمات مجلّي قال لا ولِمَ
همُ هُموا فوقَ مَنْ تحت السما شرفاً ومثل أهليـه بالأجلال والعظمِ
ما (قيصرُ) الروم أو (سيف ابن ذي يزن) أو (رستمٌ) بمضاه أو أبو (هرمِ)
لو أنَّ (كسرى أنوشروان) شاهدَهُ أبدى التواضع منحطاً إلى القدَمِ
خُذْها محبّرةً تختالُ في مرحٍ ما حام حول حماها ناطقٌ بفمِ
سمت بمدحكمُ هامَ السما شرفاً وسامتْ فَلكَ الأنوار لا الظُلَمِ
فلا برحتَ بأهل الدين في شغفٍ كما بك الدينُ في كهف ومعتصمِ

وهو وإن أجاد ما شاء إلاّ أن شعره شاهد على علمه بالقاعدة الأغلبية .

ثم جعلت الشعراء تسلّي الناس عن كفيلها وأبيها ، بمثل موسى بن جعفر فيها ، وأنه إن ذهب أصل العلم وفصله ، فهذا ثمره وأثله ، وإن غابت شمس الهدى ، فدونكم البدور ، وإن نَضبَ (جعفر) الفضل والندى ، فبين أيديكم البحور . فمن ضرب في ذلك الأمثال ، فأجاد فيما قال ، الشيخ حسن قفطان ، وهو من العلماء الأعيان ، من قصيدة طويلة ، منها :

فَقَدْنا جعفراً والعلمَ حتى كأنَّ العلمَ كانَ له خيالا
ترى الصيدَ الكرام أولي المعالي كأنَّ النعشَ منهمْ يومَ زالا
ترى بحلومهم لولا التسلّي بموسى كافياً ذاقوا وبالا
هنيئاً للذي حاز اعتقاداً بموسى بعد جعفر ثم والى
كموسى بعدَ جعفر إذ تولّى به دين الألهِ سما وطالا

وقال المرحوم السيد علي أمين العاملي راثياً شيخه وأستاذه المرحوم الشيخ (قده) :

أتطلب دنيا بعد فقدك (جعفرا) وتطمع فيها أن تكونَ مُعمِّرا
وتركنُ للدهر الخؤون سفاهةً وتغفلُ عمّا كنتَ تَسمعُ أو ترى
وترغبُ في الدنيا وتعلمُ حالها وتزهدُ في أُخراكَ سرّاً ومجهرا
وتعذُلُني صحبي عن الوجد والبكا وتعجب من مُحْمَرِّ دمعي إذا جَرى

ألم تدرِ أنَّ العِلمَ ماتَ بموتهِ ... وأصبحَ رُكنُ الدينِ منفصم العُرى
وأنَّ سنامَ المجد جُبَّ لفقده ... ووجهَ الندى من بعده قَدْ تقفرا
فتى كان عِزّاً للذليل وناصراً ... ويسراً لمن قَدْ كانَ في الناس مُعسرا
له الشيم الغرّ التي لو تجسّمت ... لكانتْ لنا شمساً من الناس أنورا
وإنْ عُدَّ أهلُ الفضلِ كان إمامَهمْ ... جميعاً وكُلُّ الصيد في جانب الفرا
هو الدهر إلاّ أنّهُ غيرُ خائن ... هو البحرُ إلاّ أنّهُ ما تكدّرا
هو الشمسُ لم تُكسَفْ هو البدرُ لم يَغبْ ... هو الليثُ إلاّ أنّهُ ليس أبخرا
هو الدين والدنيا ، هو العلم والتُّقى ... هو الغيثُ إلاّ أنّهُ العلمَ أمطرا
فقدناهُ فقدانَ (النبيِّ) وصنوه ... (عليّ) فيا للّه من فادح عَرى
فقدناهُ فُقدان الوليدِ كفيله ... فهلاّ فديناهُ وكان المُعمّرا
ولكنّهُ قَدْ فازَ بالسبق دوننا ... أبى اللّه يوماً أنْ يكونَ مؤخرا
فوا عَجَباً للبحرِ يحويه قَبرُهُ ... ووا أسفاً للدر يغرب في الثرى
سقى عهدَهُ صوبٌ من العهد هاطلٌ ... وروّى ثراهُ رائحاً ومبكّرا
ولمّا مضى للخُلدِ (جعفرٌ) قاضياً ... أفاضَ من العلم الألهيّ أبحرا
و(موسى) هو العلمُ المحيطُ بعلمه ... فيا لك بحراً في العلوم وجعفرا
حسودهُمُ خفّضْ عليك فأنّهمْ ... بُحورُ هُدىً من جانبِ اللّهِ في الورى

(بندٌ) للشيخ علي الطبّاخ الحلّي (1)

ولنختم هذا المقام إذْ لا تستطيع إستيفاء جميع ما قيل فيه من الأقلام ، بمكتوب كتبه الشيخ علي من علماء الحلة إلى الشيخ موسى يتضمن (بنداً) يعزّيه فيه بأبيه وهو لطيف في بابه . قال الشيخ علي ويلقب بالطبّاخ :

حنانيك أقمْ صدر القلاص اليعملات الشعشعانات ، العياهيم المخيسات ، الشغاميم السديسات ، الهجان الشدقميّات ، المهاري الشذنيّات ، الحقاف الأرحبيات ، المراسيل الشملات ، التي تقصر عنها كُلّ فتلاء أمون تشرب الخمسَ كهاة عيسجور ناعج عيرانة

(1) إستخدم الشيخ علي الطبّاخ في هذا (البند) بعض الكلمات المندثرة في وصف سير الأبل ، وغيرها مما حدا بالمؤلف أنْ يُعلّق على هذا (المكتوب) بقوله : ويصلح أنْ يُسمّى «الذروق في أسماء النوق»!!

حلس ذمول جسرة خرق دلاث سلعد حرف دفاق أجدناب سناد عنتريس عرمس زيّافة وجناء تطوي نشر تبّار الفلا طياً بضبعيها أمام الركب ، تسري كهبوب الريح لو هبّ ، منىً قلدتها كُلّ بنانٍ موحش من كُلّ تيهاء أتت كالبرق في طرفة عين صحصحاً يمّمت ساحات مراميه كما شئت ، وأدركت قصارى غاية القصد كما كنت ، تأملت تراها ، كلما طال سراها ، تسرع الخطو بمسراها ، متى فيها حدا الحادي انبرت ترقل أغذاذاً وإيجافاً ولا تعلم أين الأين مثواه ، وإن شطّت مداياه ، ولو لوث خمار ، وتجمّل وتحمّل من أخ الوجد ، قتيل الهجر والصدّ ، حليف السقم والسّهد ، أليف الحزن والجهد ، كتاباً بشؤون الدمع ممدوداً ، وبالأوجال والأوجاع معقوداً ، بدت من نشر أنحاء طواياه الكتابات ، ولاحت من مثانيه أمارات الصّبابات ، بأقلام الأسى حرره العاني الكئيب المدنف المغرم ، من في قلبه المقروح نيران مصاب جلل تُضرم ، قَدْ أسلمه صرف زمان السوء للأحزان والأهوال والأشجان ، قَدْ واصله الضُرّ ، وقد فارقه الصبّ ، يقاسي كربات بعضها يذبّل في أوصابها (يذبل) لو ساور منها النزر أركان (ثبير) هُدّ منه الركن وجداً وتداعى حيث إذ وفقّت للخير وما مسّكَ من ضير ، إذا أدلجتَ في السير ، وقد جبت تنوف البيد تهجيراً وتأويباً على أسنمة العيس القناعيس ، وقد أرقلتها من دون تعريس ، وأوضعت القلاص الشدنيّات المهارى ، في حثيث السير ليلاً ونهاراً ، ثم إنْ عُجتَ وعرّجتَ وقد بلّغك اللّه إلى حيث تنقّلتَ ، وقد شارفت أعلام (غريّ) النجف الأشرف حاوي روضة القدس التي شرّفها اللّه على كُلّ شريف فغدت مثوى لمولى الثقلين (المرتضى) الكرار صنو (المصطفى) الهادي الذي قَدْ نوّر الدين عليه بعد خير الخلق (طه) صلواتي وسلامي أبد الدهر . ألا وامنن بتبليغ ألوك المستهام المغرم العاني إلى حضرة ذي النسك العميد العالم العامل ، من حاز قصارى الفضل في العاجل والآجل ، شمس السّعد ، بدر المجد ، بحر العلم ، طود الحلم ، ذو القدر الذي صكّ علاه هامة النسر ، وقد فاق مدى الأيام بالفضل وبالفخر ، وقد شيّد دين اللّه بالتأييد والنصر ، فكان ابن (جلاها) ، بَلْ و(طلاّع) ثناياها ، تخطّى غاية المجد ، فأضحى في الورى كالعلم الفرد ، أخو الاجلال والفضل الذي ليس له حّد ، وقد جلت مزايا كنه أوصاف معاليه عن العدّ ، ومن مثل أخي الحزن الذي ينسيك (يعقوب) نبيّ اللّه تعالى في مثل مصاب شفّ منه الجسم والضرّ ، الذي فات به (أيوب) لّما عزّه السلوان والصبر ، ومنه القلب يطويه على جمر ، يقاسي من جوى الثكل كروباً ليس تنفك مدى العمر ، إلى المولى الكريم الشيخ (موسى) علم العصر ، الذي عزّ مثالاً شيد الرحمانُ أركان علاه ، وكفاه كُلّ ضير ووقاه . ثم إن شرّفت في حضرة ذاك الأسد الماجد حامي حوزة الشريف الأمثل المولى الذي يأنس في ألطافه وحش فلاة الأرض فأخضع صاغراً بين يديه ، بعد ما تثني بإكمال التحيات عليه ، شاكراً للّه فيما

كنت أدركت من الزلفى لديه . ثم سلّمه كتابي بعد أن تشرح في حضرته العلياء أحوال اكتئابي ، ثم قُلْ يا عَيبةَ العلم ، وطود الفضل والحلم ، لقد خلّفت مُضْنىً شفّه السقم ، يقاسي ما يقاسيه ، لداء عزّ آسيه ، لرزء نابكم في (الشيخ) والهفي على الشيخ الأجلّ الأكرم المولى الذي فاقت مقامات علاه ذروة النجم ، بلا ريب ولا رجم . لعمري كان للاسلام ركناً ، ولأهل الدين والأيمان حصناً ، وربيعاً مُمْرِعاً يمرَعُ فيه كُلّ آنٍ ركب راجية ، متى ما أمّه ركب ، نبي الآمال قَدْ أدرك ما أمّل من فيض أياديه ، التي تخجل في وكّافها وَبْلَ الحيا المنهلّ إذ عمّت هواميه ، فمن ذا بعده يصلح ما أفسده الدهر ، ومن يجبر منّا بعده الكسر ، ومن ترجو إذا اشتدّ بنا الأمر ، وقد كان لنا كهفاً يقينا صرف دهر خاننا فيه ، إلى مَنْ بعده نفزع من عظم تجافيه ، فيا عظّم ربي اللّه فيه لكم الأجر ، ويا ألبسكم أردية الصبر ، وأنَّ الصبر في الجُلّى حميد ، وأخو السلوان في ذاك مجيد ، وأبوكم رحمة اللّه عليه ، سبق بالغفران والعفو إليه ، عاش واللّه حميداً ، ولقد مات سعيداً وفقيداً ، جاور الرحمان في جناته الخلد ، ولقد أدرك ما يرجو لديه حسب القصد ، وقد أخدمه الولدان والحور ، فأمسى وهو مغبوط ومسرور . فسبحان الذي قَدْ خلق الخلق وأحياها ، إلى أن بلغت آجالها ثم توفّاها . وهل يبقى ابن أنثى خالداً في دار دنياه ، وأنّى وهو مرميّ ليس ينفك إلى سهم مناياه ، ومن تُحبى له الآثارُ ما مات ، ومن أنتم له (الأولاد) ما فات ، فيا طاب ثرى مثوى جوى ذاك الجناب الأقدس الأنفس ، بَلْ كيف توارى فيه ذاك الشرف السامي الذي نِيطَ به ، ولم يبلغ مداهُ الشمس والبدر ، حوى بحراً من العلم ، وطوداً شامخاً للفضل والحلم ، ولو كنتم علمتم ما أقاسيه لداء عزّ آسيه ، لفقد (الشيخ) يا طاب ثراه لبكيتم رحمةً لي ولما قَدْ مسّني فيه ، عليه رحمة اللّه تعالى وعلى الباقين من أبنائه الغرّ سلامي ، وعلى سائر من حلّ بناديهم من الأخوان في الدين الأُلى فاقوا بني الآفاق عزاً وجلالاً .

يتيمةُ الدهر في ذِكر عُلماء العصر

ثم إن اللّه عزّ وجلّ بعدما ساق إلى التوفيق في جمع هذه الوريقات ، وانتهى بنا الكلام ، إلى قريب الفراغ من المرام ، والعزم على الختام ، بعث إليّ على يد الوالد الماجد (دام ظلّه) نسخة كتاب ، لا بَلْ قلادة كِعاب ، وأوراق مجموعة ، لا بَلْ لئالئ مصنوعة ، تتضمن ذكر أحوال مشايخنا الكرام ، مع بعض معاصريهم من الأعلام ، في مجلدين جيدين ، وهما بخط مصنّفهما السيد الذي أصبح كُلّ كامل مسوده ، والمولى الذي يحق لأولي الفضل والفضائل أن تمشي كسائر الأنام عبيده ، سيدناً ومولانا أبو المحاسن السيد مُحَمّد علي بن

السيد أبي الحسن العاملي[1] الذي هو أخ السيد الصدر العلامة المشهور، صهر الشيخ الكبير . وستأتي بعض ترجمته ، تغمدهم الله جميعاً بواسع رحمته .

وكان السيد مُحَمَّد علي هذا من أولي الفضل الذي لا يحدّ ، والكمال الذي لا يعدّ ، وكان يعدّ في حلبة الشعراء السابقين في عصره ، إلاّ أنه من المكثرين غاية الأكثار في شعره . فلهذا كان شعره يشتمل على الغثّ والسمين ، والركيك والمتين ، وكان من الملازمين لمن عاصره من مشايخنا الكرام ، متصلاً بهم ولا اتصال الأرحام ، خصوصاً لجدنا الأكرم الشيخ مُحَمَّد رضا[2] المعظم ، مخلصاً له غاية الأخلاص والارادة ، وله فيه مدائحُ كثيرة تجاوزت العادة . على أنه لم يدرك تمام أيام الشيخ المزبور ، بَلْ تُوفي هو قبل الشيخ بأعوام وشهور ، كما ستعرف في ترجمة الشيخ (ره) . قَدْ سمى كتابه هذا بـ «يتيمة الدهر في ذكر علماء العصر» ، وهو على نسق يتيمة الثعالبي ، ولو أنَّ السيد سمّاه "تميمة الدهر" لخلص من وصمة السرقة .

فلما نضرتُه على سبيل الأجمال ، وتصفحت منه بعض التراجم والأحوال ، أخذ بمجامع لبّي ، ووقع بمكان من الاستحسان في قلبي ، فعزمت من حيني على رفض ما أنا مشغول بتأليفه وجمعه ، وحزمت في نفسي على (خفض) ما (نصبتُ) مدّةً في تشييده ورفعه . وقلت جزى الوادي وعبّ البحر ، فطمّ على القرى وعفّ النهر .

ثم لمّا أجلتُ نظري فيه مرة أخرى ، أبدت عين التأمل والتحقيق أنه (بالرفض) أحرى ، فهو وإن أجاد فيما أفاد من تحريره وتحبيره ، وأحسن وأزاد في بيان المراد بنثره وتعبيره ، حتى رجع وهو السبّاق في هذا الرهان ، وعجز عن لحاقه فرسان ذاك الميدان ، وقد شرطنا أولاً أن نعطي كُلّ ذي حق حقه بما هو فيه ، ولا نزيد ولا ننقص شيئاً من محاسنه أو مساويه ، فتلك الخصلة التي كان يفاضل السيد بها ، ويفوق على مَنْ عداه فيها . ولكنه يكون مفضولاً بخصال توجب النقص فيه ، وتكثر تعداد مساويه ، وهي عدة أمور :

منها : أنه يغرق في الثناء على الشخص الذي يذكره حتى يملّ التالي من تلاوته ، ويعجز لسانه عند قراءته ، فلا تحسبه إلاّ ديباجة مراسلة ، أو صدر مكتوب لواصلة .

ومنها : أنه مع هذا الأغراق والتطويل لا يذكر فيها ولادة مَنْ يترجمُه ولا ما قال الشعر ولا ما قيل فيه سوى ما قاله هو فيمن عاصره ، ولا تاريخ وفاته ، ولا مدة عمره ، ولا تعداد

(١) السيد مُحَمَّد علي شرف الدين العاملي تُوفي سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م عن اثنين وأربعين عاماً . ووالده السيد أبو الحسن العاملي المتوفى سنة ١٢٧٥هـ/ ١٨٥٩ أخ السيد صدر الدين العاملي .

(٢) تُوفي الشيخ محمد رضا بن الشيخ موسى كاشف الغطاء سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م .

مصنفاته ، ولا بعض حكاياته أو كراماته أو تلاميذه أو أساتيذه أو شيئاً من أحواله إلاّ بعض الأشارات الأجمالية ، في فقرات جزئية ، عن وقائع كلية ، فلا تفيد الناضر فيها إلاّ حيرةً وتيهاً .

ومنها : أنه رُبّما كرر الترجمة ، فذكر ترجمة شخص في ترجمة شخص آخر بعينها ، وينشأ من هاهنا ما يكمل هذه النقيصة وهي أنه لا يفاوت في الثناء على حسب مراتبه العلماء ، فربما ساوى بين أجلّهم وأقلّهم ، وأثنى على بعضهم بأزيد مما يثني به على أكملهم ، فلا يعرف لكل فاضل صفاته الجميلة ، ولا يعطيه بالنسبة إلى غيره ما ينبغي له . وهذه عندي ولا غضاضة فيها وعلى غيرى أعظم المعائب وأجلّها ، (ومن ذا الذي ترضى سجاياه كلها) .

ومنها : أنه غير منوط في ترتيبه برابطة ، ولا مغبوط بضابطة ، فلم يرتبه على حروف (الهجاء) كما هو شأن المؤرخين غالباً ، ولا على (الطبقات) كما صنعناه ، ولا على (الطوائف) كما صنعه بعض المعاصرين ، ولا على حسب (الزمان) من عصره فما فوق أو العكس ، بَلْ افتتح كتابه بترجمة الشيخ مرتضى[1] ، ثم ذكر بعده أولاد الشيخ علي كالشيخ مهدي ، والشيخ جعفر ، والشيخ مُحَمَّد ، ثم بعدهم الشيخ الكبير (ره) ، وبعده أولاده ، من الصغير إلى فوق آخرهم الشيخ موسى . ثم بعده العلماء المتفرقون والمتقدمون كصاحب الرياض وأقرانه ، والمتأخرون كالأيرواني وأقرانه المعاصرون له ، وجعل بعض المتقدمين مع بعض المتأخرين . وهكذا عن غير ترتيب ونظام ، وهذه الأمور توجب تشويش الناظر فيه وملله منه ، وأظن ظناً قوياً أنه المسودّة وأنه لم يخرج بعد إلى المبيضّة ، واللّه أعلم .

فعنَّ عزمُنا الأول بحاله علينا ، وعدنا على ما كنا عليه وقلنا هذه بضاعتنا ردّت إلينا ، وسألنا اللّه تعالى أن يوفقنا للأتمام ، ويعصمنا من خطل الرأي وخطأ الأقلام . ووقع الرأي أن نعقب ترجمة كُلّ واحد من مشايخنا بما ذكره السيد (ره) بكتابه هذا في خصوص ذلك الشخص بعينه وأن ننقل عين عبارته في كتابنا هذا بلا زيادة ولا نقيصة سوى ما يكرره من الفقرات التي يذكرها في الثناء فأننا نُسقطها خوف الأطالة بما لا ثمرة فيه . فمن ذلك بعض الفصول التي يعبّر عنها بالحيثيات . وذلك أنّ له في الثناء على العلماء طريقاً جديداً ،

(١) هو الشيخ مرتضى الأنصاري الفقيه الشهير المولود سنة ١٢١٤هـ / ١٧٩٩م ، والمتوفى سنة ١٢٨١هـ / ١٨٦٤م . ومن طريف ما نُقلَ أنّ السيد محمد علي العاملي عرض كتابه «يتيمة الدهر» على استاذه الشيخ الأنصاري فأراد الاستاذ مداعبته فكتب على غلافه هذا البيت اليتيم :

إنْ كنتَ ضيَّعتَ عُمْراً في كتابته فلا أُضيِّعُ عُمراً في قراءته

حيث جرت العادة أنّ الأنشغال بغير علمي الفقه والأصول من العلوم الأخرى مضيعةٌ للعُمر .

ونهجاً حديثاً وهو أنه بعد أن يثني على ذي الترجمة بأنه العالم الفاضل (الكذا) (الكذا) إلى آخر الخصال الجميلة يقول : وتمام الكلام فيه يقع في حيثيّات ، الحيثيّة الأولى : أنه عالمٌ فاض (كذا) و(كذا) فيعيد ما ذكره في صدر الترجمة بالألفاظ عينها أو مضامينها ، فلا ترى في تمام الحيثيّات العشرة أو العشرين مثلاً إلاّ اثنين أوثلاث فيها ما ليس في الأول . ولعلنا نذكر لك بعض التراجم بحالها لترى صدق ما نقول .

وكنا نظن قبل الاطلاع عليه أنّه يزيح عنّا كثيراً مما نحن في حيرة منه من الأمور التي خفيت عنا لبعد العهد وأنه يذكرها لقرب عهده من مشايخنا وعلمه بأحوالهم ، فإذا ليس فيها شيء مما كنا نرجوه سوى الأشارة إلى بعض الأمور المشهورة . وعلى كُلّ حال فجزاه اللّه عنا أحسن الجزاء ، وأوفر له العطاء ، ونحن لا ننكر فضله وكماله ونعطيه حقه من الشرف والفضائل كما له . ونحن نذكر الآن بعون اللّه ترجمته للشيخ على مقتضى ترتيبنا واللّه الهادي للصواب .

قال (رحمه اللّه) وقد أجاد في ترجمة الشيخ وأولاده ، وأشار إلى أغلب وقائعهم بعبارات وجيزة . وكانت عادته أن يفتتح ترجمة كُلّ واحد ممن يترجمه حتى الطلبة الأصاغر بقوله هذا : ونحمدك اللهم يا من تفضل علينا بالعلاّمة الأكبر ، والأمام البرّ ، شيخ المشايخ (جعفر) ، مَنْ كان في عصره سلطان العلماء ، وخاقان الفضلاء ، وسراج الأولياء ، وعميد الأتقياء ، كهف الأيتام والأرامل ، ملجأ الغنيّ والسائل ، بحرعلم ماله ساحل ، غيث فضائل وفواضل ، رئيساً في الأمة ، نائباً عن الأئمة ، فريداً في الحكم والحكمة ، متصدياً لدفع كُلّ ملمّة ، حاكياً بالفضل في العلوم ، فضل البدر على النجوم ، وحيداً في الزمن ، عابداً للّه في السر والعلن ، معروفاً في سائر الملل ، مجيباً من سأل قبل أن يسأل ، حليماً أواه ، خشناً في ذات اللّه ، خبيراً بالعلم من المبدأ إلى الغاية ، واقفاً على باديه وخافيه من البداية إلى النهاية ، مرجعاً في الاسلام ، آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر بين الأنام ، طوعه العلماء والكبراء ، والأعلام الشرفاء ، والحكام والأمراء ، إمامٌ في البدو والحضر ، مطاعاً ما نهى وما أمر ، بعيد الجولة ، عظيم الصولة ، بحراً زخاراً بالفضائل ، موّاجاً بالفواضل ، به من نفسه على فضله دلائل ، كان منية القصّاد ، مقتدى العبّاد ، معروفاً بالتقوى والفضل في كُلّ بلاد ، لا يستطيع الناظر ما رَناهُ ، أن يحقق معناه ، لعظيم هيبته ، ومزيد سطوته وسلطنته ، جاز ذُرى (العيّوق) رفيع مكانه ، وطال السبع الملوك بعظيم سلطانه ، لا يناط غيره به بمشاكلة ، ولا يقاس بمماثلة ، ولا يُجاريه في ميدان مجادلة ، ومجال مناضلة ، كان في عصر العلامة الأفضل ، والأمام المفضّل ، والفهّامة الأمثل ، ومن عليه المدار في العلم والعمل ،

كان كعبةً للوفد، سحاباً للرِّفد، جوهر علم فرد، يتحلّى بمفخره جيد المفاخر، وتزهو بكوكب عنصره كواكب العناصر، مأوى الناس شرقاً وغرب، محطّ ركب كُلّ ذي كرب، له العلوم خير بضاعة وكسب، والمواظبة على الطاعات دأب، ما أمّ مشكلة إلاّ وجلّى ديجورها، ولا معظلة إلاّ وأبان مستورها، جدّ في طلب العلم حتى ذوت قواه، ونال الغاية القصوى بتقواه، كشف العلوم بكشف (غطائه)، وطوّق أجياد العفاة ببرّه وعطائه، كانت الأيام أعياداً بوجوده، وكان رياض الكرام تزهو بجوده، كان مولى والأنام له عبيد، وجواداً تقلّد في جوده كُلّ جيد، وأباً لبني العلياء من والد ووليد، كان ذا مرابع بها مدير الكائنات بها يدير، وذا معال بها طرف المعالي قرير، كان له من الفتيا عرشها والسرير، كان تتخضع الأسد لسطوته، والعلماء لسلطنته، والأمراء والوزراء لرفعته، كان الكبير في الرؤساء لديه صغير، والعظيم في الدنيا حقير، الحقير في الدين عظيم، والصغير به كبير، كم ألانَ قلب الجلمود، في استجداء الجود لعُفاة الوجود، عالم آفاق العلماء بنعت غير معدود، وفاضل لغيره حديث الفضل غير مردود، طأطأت له الملوك والأشراف، ولم يزل يمدّهم بالاسعاف، كان معدن الحلم، مصدر العلم، ربّ الاصدار والايراد، رئيس الكل في الكل، واحد الآحاد، كُلّ يوم أياديه في تجديد، وبه للورى غدا للدهر عيد، نُشرتْ له الراية البيضاء في الملل، بأبلاغه كُلّ آمل ما أمّل، صحّ عنه حديث العلم في جميع الأعصار والأمصار، واشتهر بذلك اشتهار الشمس في رابعة النهار، وغدا بكل الأخبار ذا اختيار، وأبدى لأهل البيت دارس الآثار، وأوضح شبه المشكلات من الأخبار، وجلّى ما على الدين من قتام وغبار. وكم حلّ بدين النبي بنوداً أبت الحل في بني الأمصار، برموز غوامض الأسرار، وأبان خفاياه بكشف الغطاء والأستار، وكم أسس أصلاً في قضايا الفروع أنتج منها الحكم في بديع اختصار، فلم تَنْجُ من فضله أنجادٌ ولا أغوار، وكان لرحى الكون قطب مدار، وعليه في المشكلات المدار، كانت السبعة الأقاليم شاخصة إليه الأبصار، رامقة إليه ابتهاجاً بأعين الأفكار، ولقد تحجب بهيبته عن أعين النظّار. وكان الهادي إلى سبيل الهدى جملة من الكذ ار، والمنادي لجهاد الأعداء في حربهم بالبدار، فكم من دم أراق لمعشر فُجّار، وكان طمعاً بدار القرار، يسبّح اللّه في الآصال والأبكار، ويتضرّع في آنات الأسحار، وكانت هي أوقات تأليفه وتصنيفه لصفاء الأفكار، وكان يتنفّل ويبتهل بها للواحد القهار. وكان ذا يراع لا يُشاب بالأنكار، يأتي من المعاني بالغواني الأبكار، ومن جواهر الكلم بما يسمو النجومَ في الأزهار، بهن وحّد موجد الممكنات والأقدار، وله الملائكة أعوان وأنصار، وكم سطا على الكفار بفيلق جرّار، وأذن لحربتهم بالبدار، مرة وتكرار، فألقاهم بالذلة والأنكسار، والمحنة والاحتقار، فأدنى أولي الأقرار، وعمّهم بحر جوده الزخار. وكم أقال لهم من عثار،

وأبعد أولي الأستمرار في الأنكار، إلى أقصى الديار، بعدما أسقطهم عن ذروة الأعتبار، ولم يذر منهم في مرابع المسلمين ديّار، وكم بالصّارم البتّار، والقنا الخطّار، غادر جموعهم بدداً في الفيافي والقفار، وأعانه بيوم حربه حامي الجار، غداة توجه إلى النجف (صفوق) وحاصر أهليها، وقابله الشيخ الموما إليه بما ليس له في العديد من مقدار.

وكم شاد للعلماء من دار، وكساهم جلابيب عزّة ووقار، واختلع عنهم أبراد الخزي والعار، وألبسهم أحسن شعار، وكان يقضي الليل والنهار بالأذكار، وكم من جميل باق إلى انقضاء الأعمار.

وكانت ألفاظه تنغرس في القلوب غرس الثمار، في الأشجار، فللّه مساعيه، في بادي الأمر وخافيه، فكم من بيت للمسلمين أنشأ بنيانه، ومتداع شيد أركانه، وكم من مسلم بغير تأهل أهّله، وكم من أصل في الفروع أصّله، وكم نهج للمفاخر سنّ بكل فن، إمام تقيّ نقيّ ورع عابد لوذعي، أزهد ألمعي، يحيي الدياجي في طاعات ربه، مكرّماً في سلمه وحربه، عريض اصدر مربوع القامة أصبح الوجه أغرّ الجبين إذا سلك في الطريق لا يكاد أجلّ الناس أن يرنو إليه، وإذا جلس تطرق الملوك الصيد إجلالاً لديه، وإذا تبسّم زهت المحافل بابتسامه، وإذا غضب لم تأمن (القروم) شر انتقامه، وإذا تكلم فكالسيل المنحدر من الآكام والغُلل، بما يشفي العلل ويبل القلل، وإذا تنحنح تكاد الجدران تهتز لهيبته، والأرض تميد من خشيته، وإذا مضى في مقصد لا يردّ من حرّ وعبد، وإذا طُلب منه أنجز بلا وعد، لا يعارض في حجة، ولا ينازع في محجّة، يثبت ما يبديه من المقال، بواضح الاستدلال.

وكان معظماً مبجلاً مكرماً محتشماً، مهاباً جليلاً في جميع الملل حتى (اليهود) و(النصارى) و(المجوس) فإذا مضى إليهم بأمر، أو راسلهم به فأنّى لقرومهم أن لا تنجزه. وكم أنتج منهم، ومن غيرهم نتائجاً لعفاة المسلمين وفقراء المؤمنين.

وكان (ره) كعبة الوفّاد، من كُلّ فج وواد، منية القُصّاد، عماد كُلّ عماد، بدراً منيراً للعاكف والباد، بحر علم ماله من نفاد، ذا مناقب لا تحصى بتعداد، تخطب الناس بإسمه على الأعواد، في كُلّ بلاد، وكان للمضلّين أكرم هاد، يَردُ بحر علمه كُلّ صاد، وتهمي سحب نواله على الناس من غير إبراق وإرعاد. هُمام يرى المعروف ضربة لازب، لم يعبأ في اللّه بعتب عائب، ولم نظفر بفتى أمّهُ خاب من جدواه خائب، شامخ المجد في السلاطين، وأرباب المناصب، لا خافض لمن هو ناصب، وكم خفض بعوامل رفعه (النواصب)، تنحوه الناس بالأحكام الدينية من كُلّ جانب.

ولو أحطت خُبْراً بما أبداه من العجائب، يوم أمّ النجف (صفوق) بجيوش ملأت رحب

الفلاة عامداً اغتنام ما حوته حضرة سيّد البريّات ، فنادى الشيخ بالجهاد في الناس فغلّق أبواب النجف وأعدّ لمن فيه الأطعمة والأشربة ، وقام لحرب على ساق الشيخ من داخل ، واللعين من خارج شطراً من الأيام حتى بلغ الحال بالشيخ وصحبه أنهم لا يجدون الطعام ، ولا ما يعينهم على حرب هذه الطغام ، ومذ شاء اللّه نصره ، وأراد أن يكشف ضرّه ، رنا بطرفه وإذا أبواب الحرم المطهّر قَدْ فتحت قهراً ، وأبواب النجف كشفت جبراً ، وإذا بمجاهد مع الأعادي لا يرى غير بارق نصله ، وبرى الهام بحدّه ، فما انكشفت الغُبرة إلاّ وبحر دم الأعادي يجري على الصعيد مجرى البحور ، فكان بانكشافهم عن البلاد غاية السرور ، وعلم أن ذيّاك المجاهد كان حامي الجار ، حيدرة الكرّار (ع) .

وما أبداه من الغرائب مذ أمّه سيد من النجباء شكا له ضُرَّ الفاقة ، والكلفة بما فوق الطاقة ، فارتحل معه إلى دار (يهوديّ) من ديار بغداد فأناخ ركبه في ربعه معلناً أنه قصده يتوقع نفعه ، وأبدى له أنه ضيفه فاستبشر به غاية البشر ومذ رام أن يستعدّ لضيافة الشيخ مع صحبه دعاه الشيخ في زمرة من اليهود فصالحهم عنها بما يكشف ضرّ السيد ، فقبلوا ذلك ودفعوا له خمسة آلاف دينار ، فهل رأيت يهودياً رقّ على مسلم بهذا المقدار . ولولا عظمة الشيخ وسلطنته وغرسه في قلوب الموالين والمعادين بتقواه لما وقع له وصدر .

مذ نوى السفر ، إلى بلدان إيران ، سقاها مَلَثُ العفو والغفران ، وكان فيها الشيخ الرئيس الميرزا المقرب عند الخاقان من كان يزعم أنه في العلوم الأوحد ، الشهير بالأخباري الميرزا مُحَمَّد ، وكان يبغض علماء الأصول ، وخصوصاً الفقهاء الفحول ، ومذ سمع بقدوم الشيخ إلى هاتيك الصفحات ، صار يأمر الناس بعدم الركون له ، وإلغاء قوله وفعله وعدم الأعتناء به حتى غرس في ذهن (المليك) أن هذا العالم القادم متنح عن جادة اللّه ورسوله ، وتنال أعلى الدرجات بقتله . ولما كان الشيخ خبيراً بذلك ولكنه الجبل لا تحركه العواصف ، ترك صحبه وقت الظهيرة رقوداً وتوجه إلى ملاقاة الخاقان ، وقد كمن له في باب (الملك) رصداً مأمورون بقتله . فلما دخل الباب ونادى «يا اللّه» من صميم قلبه تساقط السلاح من أيدي الرصّاد بغير شعور ، وهووا لتقبيل أياديه وأقدامه ، ولم ينفذوا أمر الخاقان بما أمرهم ، وارتقى الشيخ إلى مجلسه وسلّم بالشرعي عليه . وكان الأخباري جالساً متأدباً بين يديه ، فتعجب الخاقان من ذلك وأطرق هنيئة ، وبدأ الشيخ بالكلام في طلب المحاجة مع الأخباري فمن كان على الحق نجا ، ومن كان على الباطل هوى . فدعى الأخباري أن يضرموا ناراً فيدخل كُلّ منهما فيها ؛ فمن كانت برداً وسلاماً عليه فهو مع الحق ، ومن اصطلى بها فهو مع الباطل ، فقال الشيخ : ذاك من مكر أولي السحر ، وسحر أولي المكر ، فلا يصلح لأثبات

المطلوب ، فرام منه الجري في ميادين المسائل ، حيث تبين بها فضيلة أولي الفضائل . فقال له الأخباري : من غير (حَكَم) ثالث بيننا لا يمكن ، وهو محال غير ممكن ، أمّا أدنى من الطرفين فلا يقبل منه ، أو مساوٍ فيتّهم ، أو أعلى فلا يوجد ، فليس لك إلاّ أن تختار الخروج والصلاة بالناس جماعة ويأمرُ كُلّ واحد منا بقتلِ الآخر فالذي ينفّذُ أمره الناس محقّ والآخر مبطل . (وقد عرفت أن الأخباري كان مبرّزاً في تلك الأطراف) ، فلما كان الغروب برزوا إلى الصحراء وتراكمت الصفوف والألوف ، عقيب الأخباري ، حتى الخاقان ، وبقي الشيخ وحده فنادى «اللّه أكبر» برفيع صوته ، فلما سمعته الناس آوى إليه نصف ممن كان يروم الصلاة خلف الأخباري . ومذ أعادها ثانياً ، وثالثاً لم يبق معه سوى الخاقان بنفسه . فلما فرغ من صلاة المغرب أراد الشيخ أن يأمر الناس بقتل عدوه فأسرع نجل المليك الأكبر إلى أبيه وقال له : لئن أمرنا الشيخ بقتلك فضلاً عن قتله قتلناك . فهناك أمر الملك الأخباري بالركوب على فرسه ، والفرار ليلاً بنفسه ، فامتثل ، وسرى يجدّ الليل والنهار حتى نزل الكاظمين (عليهما السلام) ، وأقام فيها أحياناً .

وحيث طرقت أسماع الحكام من (الوزير) وأتباعه فعلته مع الشيخ ، وهو عربيٌّ كيفما يكون محسوباً من رعيتهم أخذته الغيرة والحميّة فجهزوا شرذمة من العسكر فطرقوا الباب عليه فلم يفتحها لهم فارتقوا من السطح المحاذي له وقتلوه ، إلى غير ذلك من عجائبه وقضاياه التي تُفضي إلى العجب .

وقد عرفت أني لستُ له من المعاصرين فأطلّع على بادي أحواله وخافيها ، وفي أفق هذا الطرس أبديها ، وما ذكرتُ سوى الضروري المعلوم ، في حقه عند أرباب جميع العلوم ، من كُلّ ما جاء به الخبر المتواتر ، ورواه وارد لصادر ، وصار بين الناس في الاشتهار ، كالشمس في رابعة النهار ، على أن الاطناب ينافي غرض الأتمام ، بيسير من الأيام ، ويوجب الملل ، والمقصود به أنس جميع الملل . نعم لا بُدّ قبل الشروع في بيان مفصل أحواله من تمهيد حيثيّات :

الأولى : في أقواله ، وقد علمت أنه لم يقل إلاّ الحق ، ولم ينطق إلاّ الصدق .

يقول الناقل : «ثم أخذ السيد يعيد الفقرات السابقة إن لم يكن بأغلب الألفاظ فبكل المعاني» ، إلى أن قال فيها :

وكان مستجاب الدعوة عند ربه ، فمن ذلك أنه دعا لذريته بالاجتهاد فاستجاب اللّه منه وجعلهم كذلك .

«ثم رجع على ما كان عليه» إلى أن قال :

الثانية : في أفعاله .

الثالثة : في ورعه .

الرابعة : في فضله ؛ «ولم يذكر فيها سوى ما تقدم» ، ثم قال :

الخامسة : في اقتران مساعيه بالنجح ومنشؤها ما عرفت .

السادسة : في قضاياه وقد طرق سمعك شطر منها ، ولا يمكن الأحصاء لها .

السابعة : فيما قال من الشعر وما قيل فيه . أمّا الأول فلم أقف عليه ، وأما الثاني فلا يحضرني الآن .

الثامنة : في زهده ، وقد إتضح لديك .

التاسعة : في أصهاره وهم جدنا الشيخ أسد اللّه ، وعمنا الصدر ، ولم يذكر سواهم .

العاشرة : في أولاده ، وهم العلامة الشيخ موسى ، والشيخ علي ، والشيخ حسن ، والشيخ مُحَمَّد ، والشيخ حسين . وستأتي ترجمتهم ، وقد أعقب في النجف بيته الرفيع الشامخ محط ركائب الأمراء والوزراء والأغنياء والفقراء في الشدة والرخاء .

الحادية عشرة : في خصاله التي تفرَّدَ بها .

الثانية عشرة : فيما كان عنه ومنه وله ، (ولم يذكر فيهما شيء) .

وأنت خبير أن هذه (الحيثيّات) كلها عبثيات إذ لم يفدنا فيها بشئ زائد ، ولا أوصلنا بعائد ، وإنما ذكرنا أغلب هذا المقام ليعرف اللبيب مشربه وطريقته ، ويميّز سقمه وصحته ، ونحن بعد هذا بعون اللّه لا نذكر منه إلاّ ما يرتضيه الفهم السليم ، والطبع المستقيم .

وأما ما ذكره من وقوع بين الشيخ و(صفوق) فلم نسمع بها من غيره ، وأظنها إشتباهاً مع واقعة سعود الوهابي التي مرّ عليك تفصيل أمرها ، وليس المعروف بصفوق من الأشرار وأهل الغزوات إلاّ واحد وهو رئيس قبائل عديدة تُسمّى إلى اليوم بالخزاعل ، وكان فتاكاً سفاكاً قطّاعاً للطرق خصوصاً في العراق . فلما كاد أن يهلك الحرث والنسل بعث إليه والي بغداد وكان يومئذ نجيب باشا[1] ، (وستأتي عليك جملةٌ من قضاياه مع الشيخ حسن بن الشيخ

(١) تولّى نجيب باشا ولاية بغداد سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م ، وعُزِلَ سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م . وتُوفي بعد سنتين من عزله في استنبول .

الكبير) ـ عسكراً جرّاراً فقتلوه غيلة وجاؤا برأسه إلى بغداد . وفي تلك الأيام التي قتل الوالي بها (صفوق) عُزل مفتي بغداد[1] أيضاً فمدحه عبد الباقي المشهور بقصيدة منها قوله :

قَدْ أرحتَ الدنيا بقتل (صفوقٍ) وبعزل (المفتي) أرحتَ الدينا

وسيأتي تمام الحكاية إن شاء اللّه .

ولا يحتمل أن يكون (صفوق) هذا هو صاحب الوقعة التي ذكرها السيد كما لا يخفى واللّه أعلم .

وأما ما ذكره من أن حكومة بغداد قتلت الأخباري في زمان الشيخ فأنّه اشتباه أيضاً بملاحظة ما ذكرناه من تاريخ وفاة الشيخ ، وقتل الأخباري ، وأن حكومة بغداد كانت مع الأخباري لا عليه ، وإنّ الرعية قتلته بإجماع العلماء .

وليكنْ هذا آخر ما أردنا جمعه من أخبار الشيخ (رضي اللّه عنه وأرضاه) مع مجمل أخبار أبيه وأخوته . ولعلّما يأتي لهم زيادة تفصيل في مطاوي أخبار أولاده وأحفاده وأصهاره . واعلم أن هذا الذي ذكرناه من أخباره وأخبارهم وكراماته غيض من فيض وقطرة من بحر ، فإنّي ، ومَنْ قبض روحه الطاهرة ، قَدْ سمعتُ من أعاظم علماء زماننا وأكبر نبلاء أواننا الحاج ميرزا حسين[2] أدام اللّه ظلاله على العالمين ابن المرحوم ميرزا خليل[3] رحمه اللّه فأنّه شرّف منزلنا ليلة من ليالي شهر رمضان المبارك وجلس قريباً من (الساعة) وهو ينقل ويحدث بفضائل الشيخ وولده الشيخ موسى مما ذكرنا بعضه وذهب علينا الآخر لقصر الباع ، وعدم التوفيق .

والحاصل أني لم أُرد برسالتي هذه بيان فضل الشيخ وتخليد ذكره فأنّك خبير بأن :

مَنْ كانَ فوقَ محلِ الشمسِ رتبتُهُ فليسَ يرفعُهُ شيءٌ ولا يَضعُ

ولكن الغرض من ذلك ما ذكرته في صدر الرسالة من أداء ما يجب من الحمد والشكر للّه على ما وفقني تعالى ورزقني من الفضل ، بشرف الآباء الذي لستُ له أهلاً ، ولمّا حطّتْ

---

(١) عُزل مفتي بغداد السيد أبو الثناء الآلوسي عن منصب الأفتاء في شهر رمضان سنة ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م .

(٢) الميرزا حسين الميرزا خليل : انتهت اليه الرئاسة الدينية بعد وفاة الميرزا مُحَمَّد حسن الشيرازي عام ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م . تُوفي سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م .

(٣) الميرزا خليل هو مؤسس أسرة آل الخليلي ، واليه ترجع بالتسمية . كان من المشتغلين في العلوم الطبّية ، حتى أصبح من أعاظم أطباء عصره . كانت ولادته سنة ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م ، ووفاته سنة ١٢٨٠هـ/ ١٨٦٣م . وقد توارث بعض أبنائه هذه المهنة عنه .

بي رواحلُ القلم ، في هذا المقام عرفت العجز والتقصير ، وأني بهذا ذو باع قصير ، وأن الأقرار بالعجز أحجى ، والسكون في هذا المقام أنجى ، فأمسكتُ عنان البيان وعزمتُ على الأختصار والأقتصار على قليل من أحوالهم ومكارمهم من الآن ، ملتمساً من اللّه السداد والهداية ، فأنه وليُّ التوفيق والعناية .

والى هنا تم الجزء الأول من هذه الرسالة المشتملة على الطبقة الأولى من هذه الطائفةِ ، أمدّ اللّه بسلسلتهم مدى الدوران ، إنه ولي الأحسان والأمتنان .

إبتدأتُ في تأليفها نصف شعبان وختمتُها عاشر شهر رمضان المبارك سنة ١٣١٤ .

قَدْ وقع الفراغ من تسويد هذه الرسالة بقلم الحقير الفقير ، صاحب الذنب والتقصير ، أقلّ عباد اللّه عملا ، وأكثرهم زللاً ، المحتاج إلى رحمة ربه العلام ، حسن نجل المرحوم السيد جاسم الفحام ، (يوم الخامس والعشرون[1] شهر جمادى الأخرى سنة ١٣١٦) .

إنْ تَجدْ عيباً فسدَّ الخللا   جلَّ مَنْ لا عيبَ فيهِ وعلا

(١) هكذا وردت في الأصل .

الباب الثاني

في الطبقة الثانية من الطائفة الجعفرية

وهو يشتمل على الطبقة الثانية ، من هذه النبعة الزاكية ، وأولهم الأكسير الأكبر ، والكبريت الأحمر ، الطاهر المطهّر ، النور الأزهر ، عميد الطائفة الجعفرية ، ورئيس الملة الأسلامية ، الأمام الأكبر ، فريد الدهر ، ووحيد العصر ، إمام الفقهاء ، وفقيه الأئمة موسى بن جعفر (قدس اللّه روحه الزاكية ، وأعلى لديه درجاته العالية) .

ترجمة الشيخ موسى كاشف الغطاء

ولما فرغوا من فاتحة الشيخ والجلوس للعزاء عليه ، أجمعت العلماء على تقديم ولده موسى وإنّه أولى بالأمر فحضروا بأجمعهم في درسه تأييداً له ، فلم يشذ عنه شاذ ، ولم يختلف فيه اثنان ، وصاروا يكاتبون بذلك الأمصار والبلدان ، ويأمرون الناس بالطاعة له والاذعان ، فلم يحل الحول إلاّ وهو مدار العالم ومن فيه ، وركن العلم ومعتمد بنيه ، على أن أباه لم يأمر الناس بالرجوع إليه ، ولم ينص بالأفضلية عليه ، سوى ما اشتهر من قوله فيه : «لا فقيه إلاّ أنا وولدي موسى والشهيد الأول» ، وهي وإن كانت كافية في المقام ، ووافية بالأعلام ، إلاّ أنّهُ قبل وفاته ، وأيام حياته ، لم يتصدّ لرجوع الناس والأمر بتقليده ، والسعي في تشييد أمره وتأييده ، حتى رآه اللّه أهلاً لذلك فقدمه أمام الناس للهدى إمام ، وألقى ذلك في نفوس أوليائه فتطامنت له رقاب العلماء العظام ، فبزغ بينهم بزوغ البدر في السماء على سائر كواكبها ، وتقدمهم بالفضيلة تقدّم ليلة القدر على باقي الليالي الشريفة من صواحبها ، على كثرة من كان في زمانه من العلماء المشاهير ، والأساطين الذين لم يسمح لهم الدهر بنظير ، كالشيخ أسد اللّه ، والسيد محسن (صاحب المحصول) ، والسيد باقر القزويني ، والميرزا القمي ، والسيد مُحَمَّد باقر الرشتي حجة الأسلام ، والحاج الكلباسي ، والشيخ حسين نجف ، والشيخ محسن الأعسم ، والشيخ خضر شلال ، والآقا مُحَمَّد علي ابن المروّج البهبهاني ، وغيرهم من تلامذة ذلك (الآقا) المشهور ، والعلامة الطبطبائي ، وأبيه[1] تغمدهم

(١) هو السيد مرتضى الطباطبائي المتوفى عام ١٢٠٤هـ/ ١٧٨٠م .

الله برحمته أجمعين . وكان كُلّ منهم يرى الفضل لنفسه وكان الأمر مردداً بين الشيخ موسى ، والميرزا القمّي[1] وأغلب الناس ممن كان في (إيران) قلّد الميرزا أول الأمر ، والعرب قلّدت الشيخ موسى . وأمّا الفضلاء ، وطلبة العلم في النجف فأنهم عزموا على السؤال من الميرزا عمّن هو أولى بالتقليد منه ومن الشيخ موسى لكون الميرزا (ره) أكبر سنّاً ، وأقدم هجرةً ، وأشد تحصيلاً وأعظم شهرة ، بل كان يُعدّ من طبقة الشيخ الكبير ، وإن كان في زيارته للعتبات حضر أياماً في درس الشيخ ، واستجازه في الرواية كما في «نقد العلماء» .

قال في «معدن الشرف» : وسمعته أنا من كثير أن الميرزا (ره) عزم في تلك السنة على الحج فجعل طريقه على النجف ليقرأ فاتحة للشيخ ويعزّي أولاده ، فلما حل هناك اجتمع عليه الفضلاء والناس ، وسألوه عن الشيخ موسى فقال : لا علم لي به ولكن أكتب لكم ثلاث مسائل من المشكلات فأنْ أجابني نظرت في جوابه وميّزت مقدار فضله ، فكتب المسائل وبعثها إلى موسى وكان قَدْ قرب الغروب . فقالوا له : الميرزا يقول ما رأيك فيها ، وقد أمهلك في الجواب عشرة أيام ، فقال : إني مشغول بأمور مهمة أقلقت فكري وشوشت بالي والوقت ضيّق ، فقالوا : ألم يمهلك بتلك المهلة ، فقال : لا فرق عندي في ذلك بين الساعة والعشرة أيام ، ولكن قفوا فخذوا ما تيسر على العجلة . ونادى أخاه الشيخ علي وقال له : أنا أملي عليك الجواب وأنت اكتب ، فجعل موسى بن جعفر يملي ، و(علي) يكتب ما يمليه ، فما كان إلاّ نصف ساعة حتى تمّ الجواب . وقيل إنّ المسائل وصلت إليه وهو مشتغل بالوضوء فجعل يملي على (عليّ) وهو يكتب فما فرغ من الوضوء إلاّ وقد تمت الأجوبة .

فجاؤا بها إلى الميرزا وهو بعد لم يقم من مكانه ، فقال الميرزا : ويحكم متى خرجتم ومتى راجَعَ الشيخ المسائل ، ومتى كتب الأجوبة والوقت يضيق عن بعض هذا؟! فقالوا : هذه الأجوبة وهو يعتذر إليك من تشتت البال ، وضيق الأحوال ، فقال : إنّ هذا أمرٌ خطير ، لا يكون إلاّ للقادر القدير ، فأمهلوني أراجع جوابه الليلة ، وأعطيكم الجواب .

فلما بكّروا عليه قال لهم : إسألوا الشيخ موسى عن اجتهادي ، فقد شكّكني في أمري ، ولا أرى أن أُقَلّدَ مع وجود مثله .

فعند ذلك قلّدته الناس ، ورجعت جميع الأطراف ، من الأذناب والأشراف ، واشتهر أمره وذاع صيته ، وأطاعته العرب والعجم ، مشرقاً ومغرباً ، وصار مسموع الكلمة عند الشفيع

---

(١) الشيخ أبو القاسم القُمي المعروف بالميرزا القمي من تلامذة البهبهاني . وُلِدَ سنة ١١٥١هـ/ ١٧٣٨م ، وتُوفي سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م . وقد اشتهر بكتابه «القوانين» في علم الأصول الذي أصبح مداراً لدراسة هذا العلم حتى عهدٍ قريب في المراكز التعليمية العالية .

والوضيع ، والسلطان والوزير ، وأذعن له الصغير والكبير . إنتهى ما ذكره مع تمام الأجمال والأختصار ، والقصة تجاوزت حدّ الاشتهار .

والحاصل أن أمره لم يزل ينمو ، ومعاليه ما برحت تسمو ، وذِكره يضوع أرجُهُ ، وفخره تتجلّى حججه ، حتى أصبح وهو الحادي للرئاستين ، والمُصلح بين الدولتين ، السامي مفخره علي النيِّرين ، وجعل يسلك مسلك أبيه ، وينهج على مساعيه :

فلم تكنْ لأبيه النَدْبِ مكرمةٌ ... يعيا الورى نيلها إلاّ لها انتُدِبا
فجازها واغتدى أعلى مراتبها ... لو كان أبقى أبوهُ فوقَها رتبا
فقُلْ لمن راح للأيمان حينَ هوى ... عمودُهُ باكيَ الأجفان مُنْتَحِبا
هوِّنْ عليكَ من الوجد المُلِحِّ فذا ... موسى بن جعفر ركنا للعلى نُصبا
بدرٌ ، فبدرُ الهُدى في الدين ما غرُبا ... بحرٌ ، (فجعفرُ) علم اللّهِ ما نَضُبا

تفصيل قتل ميرزا مُحَمّد الأخباري

فلما بلغ من الرفعة المبلغ المتناهي في العلو ، وتمهدت له الأمور تمهيداً أقرّ عين المحب ، وقصم ظهر العدو ، ثقل ذلك على أولي الشنآن من ناصبي العداوة لأبيه ، وجعلوا الذحول والأوتار منه فيه .

فمنهم رأس الجبت والطاغوت من أولي الشقاء ، وإمام أهل الضلال والبدع والأهواء ، حامل لواء حزب الشيطان ، والساعي إلى تشتيت حزب الرحمن ، المُبنضّ المشرّد ، المدعو بميرزا مُحَمّد ، فأنّه لمّا وصل إليه خبر وفاة الشيخ الكبير[1] ، جعل ذلك اليوم عيداً ، وأظهر من الفرح والسرور ما لم تتصور الأذهان عليه مزيداً ، وكان يومئذ في (طهران) ، فحركه الخبث والشنآن ، على إدراك ثأره من الشيخ في ولده ، فجاء حتى أتى الكاظمين (ع) فرأى أن أمر الشيخ موسى قَدْ استوسق وتمّ ، وسؤدده كنار على علم ، فسوّلت له نفسه بما يوحي أخوه الشيطان إليه ، وينزل عليه ، أن يتوصل بوادى العراق ويوادّه ، لينال بذلك مراده ، فجعل يستجلب مراضيه بمقدمات طويلة ، وإرسال هدايا من تحف العجم جزيلة ، فحظي الخبيث عند (الپاشا) ، وحاز من (داود)[2] ما شا ، بعد أن استجلب طائفة من العوام بزبرج لسانه ،

(١) وذلك سنة ١٢٢٨هـ .

(٢) كان داود باشا في هذه الفترة بالذات (سنة ١٢٢٩هـ) قائداً لجيش العراق في ولاية الوالي الشاب سعيد باشا بن سليمان باشا . وكان يسمى داود أفندي . وقد بقي في منصبه هذا حتى هربه من بغداد في (١٢) ربيع الأول سنة ١٢٣١هـ بعدما عمل سعيد باشا على التخلص منه .

وتزويره وبهتانه ، فصار يصعد المنبر ، ويطيل الوقيعة بالشيخ الأكبر ، والنقيصة بولده البرّ ، ويفشي للناس غيّه وعتاته ، ويظهر بالشيخ الشماته ، ويتمثل ببعض الآيات كقوله تعالى : «فكان عاقبة من أساؤا السوء أن كذبوا بأياتنا» ، و «سيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون» ، الى غير ذلك من أمثالها التي أوقعه الله في آخر الأمر في وبالها ، وصيّره مثلاً من أمثالها .

وكان السيد مُحَمَّد المجاهد[1] مقبلاً من أصفهان إلى كربلاء للإقامة مقام أبيه، فيها بعد أن بلغه خبر وفاته[2] ، فتوقف في الكاظمين (ع) أياماً للاستراحة والزيارة ، فكان ينكر على (الخبيث) تلك الأفعال والأقوال أشدّ الانكار ، فتحمّل (الملعون) له العداوة والبغضاء ، زيادة على أنَّهُ يطلب بأبيه الثار ، وقد كان يسمّيه هو وخاله الأغا وأصحابهما بالأزارقة (فرقة من الخوارج) ـ لزرقة في عين السيد مير علي وأولاده ـ ، ويسمي الميرزا أبو القاسم القمي (اليقاسمة) ـ كما في «روضات الجنّات» .

والحاصل أن الأخباري جعل يؤذي السيد ويزعجه ، وبعث عليه في الليل من جنده الغاوين من يقلقه ويخيفه حتى ارتحل الى كربلاء . فكتب إلى الشيخ موسى بخبر ذلك الغاوي وسيرته ، وشتمه للعلماء ، ونقل له كلماته التي يقولها على المنبر في أبيه ، والشماتة فيه ، فغضب الشيخ موسى وجاشت نفسه ، وارتحل بعدّة من أصحابه حتى كربلاء وسار هو والسيد مُحَمَّد المتقدم إلى الكاظمين .

فلما سمع السيد عبد الله شبّر[3] بن السيد رضا شبّر ـ وكان من العلماء المشهورين المبرزّين ، والزهاد المقدسين ، وكان مطاعاً جليلاً خصوصاً عند أهل (الكاظم) التي هي مسقط رأسه ، إلاّ أنَّهُ كان من أهل العزلة والانزواء لشدة زهده ، وكان من تلاميذ الشيخ الكبير ، ويرى له عليه الحق الكثير ، وكان الشيخ موسى روى بالأجازة عنه ـ خرج السيد لاستقباله مع جميع أهل البلد ، وعظّم الشيخ وأكرمه غاية الأكرام ، وترجّل له من مسافة بعيدة ، فعظم في عيون الناس زيادة على ما كان فيه وأنزله داره ، وعقد له على أخته ، (وقيل بنته) ، وكانت تحت ابن عمّ لها من العلماء يعرف بمير أحمد ، فهنّأهُ الشيخ صالح التميمي بأبيات ستأتي إن شاء الله . وإنما رغب الشيخ في ذلك لتجلب له قلوب الناس ، فيستعين بهم على قتل عدوه .

---

(١) السيد محمد المجاهد هو ابن السيد علي الطباطبائي ، لُقّبَ بالمجاهد لقيادته فصائل المجاهدين في مواجهة الغزو الروسي لايران في عصر الشاه فتح علي القاجاري . وقد تُوفي سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٧م .

(٢) تُوفي السيد علي الطباطبائي سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٥م .

(٣) تُوفي السيد عبد الله شبّر سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٧م .

وأمّا الأخباري فأنّه مضى إلى مدّ يده للوالي سعيد باشا[1] ، وأخبره بدخول الشيخ ، وقال : إن هذا الرجل قَدْ ترأس على فرقة الأمامية ، وهي رعيته لا رعية الدولة العليّة ، فأن بقي في بغداد يومين أفسد عليك أمر المملكة ، وأوقعك مع جندك في المهلكة ، فأن لم تقتله قتلك ، وإن لم تُعجّل عليه عجّل عليك . وهو رجل سبّاب (رافضي) يرى أوجب الأشياء وأحبها إلى اللّه قتل (السُنّي) .

ولم يزل يذكر له المنفّرات والمزعجات حتى استشاط الوالي غضباً ، وامتلأ غيضاً ، وحلف بالطلاق ليقتلنّ كُلّ شيعي ، ولا يدع على ظهر الأرض منهم أحداً . ثم قال : ولابُدَّ من قتل رئيسهم أولاً بطريق حسن كيلا تهيج علينا الرعية ، وتسمير من الدولة تحت المسؤولية ، حيث أن هذا رجل عظيم ، فقتله لابُدّ أن يقع فيه محذور جسيم ، والرأي أن تدعوه يوماً إلى وليمة نصنعها له ، ونعمل التدبير إذا جاءنا حتى نقتله ، ثم نأمر العسكر بالهجوم على ديار الشيعة ورحالهم ، وسبي نسائهم وأطفالهم . فشكر له ، وخرج مسروراً من ذلك (الملعون) .

فتوى الشيخ موسى في قتل الميرزا الأخباري

وأمّا موسى بن جعفر ومحمد المجاهد ، فبقيَ كُلّ منهما يسعى في تهيئة أسباب قتل عدوه ويجاهد . فكتب السيد صورة استفتاء من الشيخ حاصله : ما رأي حجة اللّه على خلقه ، وأمينه في أرضه ، في رجل يؤلب على العلماء الصالحين ، ويسعى في قتلهم إطفاءً لنور الدين ، فوقّعَ تحته : «يجب على كُلّ محبّ وموال ، أن يبذل في قتله النفس والمال ، وإلاّ فلا صلاة ولا صيام له ، وليتبوأ من جهنم منزله» .

فأخذ السيد (حُكم) الشيخ وأمضاه ، وبعثه إلى السيد عبد اللّه شبّر فحكم بوجوب إتّباع حكم الشيخ ، وكذلك فعل باقي العلماء المعروفين هنالك كالسيد محسن صاحب المحصول ، والشيخ أسد اللّه .

فلمّا تم الحكم على أحسن هيئة نُشِرَ لدى العوام ، وقُرأ على الخاص والعام . وكان بيد رسول السيد عبد اللّه شبّر يدعو الناس إلى امتثاله ، وإنّ حكم الشيخ نافذ على كُلّ مَنْ في دائرة الوجود .

وكان السيد عبد اللّه كما عرفت أولاً عند أهل (الكاظم) بمنزلة الأمام ، فعزموا على أن

---

(١) تولّى سعيد باشا الحكم عام ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م ، وقُتل في (١٠) ربيع الآخر سنة ١٢٣٢هـ / ١٨١٦م . وهو من مواليد سنة ١٢٠٥هـ / ١٧٩١م .

يهجموا على دار (الأخباري) ليلاً ، ويريحوا منه الناس .

فاجتمع ثلاثة أنفار منهم من المعروفين بالأقدام والبأس فتسوّروا الدار عليه نصف الليل لأنهم أتوا إلى باب داره فلم يجدوها لأنه أعشاهم بسحره . ثم أتوا إلى (الحِجْرَة) التي هو فيها ، وقلعوا الباب فوجدوا عفاريت وحيّاتٍ فاغرةً تريد أن تبتلعهم فتوقفوا يسيراً ثم هجموا ثانية . فوجدوا ليثاً بالباب يريد أن يفترسهم فارتدّوا متجبّرين ، ولم يزالوا يهجمون على الباب فيرون ما يهولهم من شعبذاته وسحره ، فصعدوا السطح وحفروا فيه على الحجرة فخرجت إليهم نيران ملتهبة . فقال واحد منهم : يا قوم إني سمعتُ من الشيخ موسى يقول : أنا ضامنٌ على اللّه الجنّة لمن يقتل هذا ـ بحضور الشُبريّ ـ ، (وقد صدّقه السيد) ، وأنا صاحب ذنوب كثيرة ، وقد عزمتُ على الخوض في هذه النار ، فلعلي أحظى بعدها بجناتٍ تجري من تحتها الأنهار ، فأنْ أحرقتني فانجوا بأنفسكم ولا (تُيتّموا) أطفالكم ، وإن تبيّن أنها شعبذة وبهتان فسأُنبئكم بذلك فادخلوا عليّ ، وشاركوا بالفوز فيما لديّ .

فاقتحم النار وتقدمهم إماماً ، فقيل يا نار كوني برداً وسلاما ، فنادى أصحابه فدخلوا عليه ، فوجدوا الخبيث وتبخّراته بين يديه ، فقال لهم : خلّوا سبيلي ولكم عشرون ألف ذهب ، فلم يقبلوا ، ولم يزل يترقّى لهم في ذلك حتى قال لهم : أنظروا الحجرة ، فنظروها وإذا هي وجميع ما فيها من بسط وجدران وفرش تلألأ ذهباً أحمر ، فقال : خذوها أجمع ودعوني أنجوْ بنفسي ، ولكم العهد عليّ أنْ لا أرجع بعد إلى بلادكم ، فقالوا : هيهات هيهات ، على غيرنا موّه هذه الكذبيات والشعبذات ، وأمّا نحن فقد ضُمِنتْ لنا على اللّه الجنان ، والفوز بالرضوان . «فوقع الحق وقطع دابر القوم الذين ظلموا قيل الحمد للّه رب العالمين ، وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ، أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين» .

وكان ذلك يوم الأحد سنة ١٢٣٣[١] ، ودُفِنَ في مقابر قريش ، كما وجدته بخط بعض تلاميذه ومريديه على كتاب من مصنّفات أستاذه هذا وهو كتاب «ذخيرة الألباب ، فيه لكل علم باب» ، وهو كتابٌ فيه جداول العلوم خصوصاً الرياضية منها كعلم الحروف والجفر والرمل وما أشبهها . ونصّ ما وجدته مكتوباً في ظهره : «من هبة اللّه العارية لعبده الأقل أضعف خدّام المحدّثين العاملين بسنة الطاهرين مُحَمَّد المدعو بالجواد[٢] بن مُحَمَّد بن زين

(١) هكذا ورد التأريخ في الأصل . وطبقاً لمصادر أسرة آل جمال الدين فانّ مقتل الميرزا محمد الأخباري كان يوم (٢٨) ربيع الأول سنة ١٢٣٢هـ .

(٢) السيد مُحَمَّد جواد بن السيد مُحَمَّد زيني تُوفيَ سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م . ويُعرف بلقب (سياه پوش) .

الدين الحسيني الحسني كتبه بخطه لنفسه ، وهو من مصنّفات العلاّمة الجامع لجميع العلوم الجليّة والخفيّة مُحَمَّد بن عبد النبيّ بن عبد الصانع النيشابوري ، وقد قرأه عليه ، وصححه ، وقابله معه ، وأخذ منه إجازته ، وأدرك شهادته على يد (الجهلة) من أمة التظنّي والتخمين ، في يوم الأحد سنة ١٢٣٣ ، وكان ذلك في مقابر قريش حرر سنة ١٢٣٧» ، إنتهى .

ويعني بأمة التظنّي والتخمين هم الأصوليين والمجتهدين . وأظنُّ أنّه هذا هو ابن السيد مُحَمَّد زيني الذي مرّ ذكره وشعره ومطايباته مع الشيخ الكبير في معركة الخميس .

فلعله كان ممن استغواه الرجل بتزويراته وأشراكه ، وسعى حتى ظفر بهلاكه . ولا لوم على هذا السيد فأنك لو رأيت كتابه هذا أعني «ذخيرة الألباب» ، أو غيره من تأليفات ذاك الكذاب ، وما فيها من الجداول والرسوم ، ودوائر العلوم ، والهياكل الغريبة ، والأشياء العجيبة ، لطاش لبّك ، وذهل عقلك ، وقلت هذا خارج عن طاقة البشر ونوع الأنسان ، وإنما هو من صنائع الشياطين والجان ، وهو يشتمل على أربع مجلدات عندنا اليوم منه الجلد الأول . وأنت بعد اطلاعك على قوة هذا الرجل في هذه الأشياء ، وقدرته على مثل هذا الأيهام والأفتراء ، تعلم أن قتله إنما كان بتأييد ربّاني للدين ، وتسديد إلهي حفظاً لشريعة سيد المرسلين ، وإلاّ فهو خارج عن حيّز الأمكان ، وهو ما اجتمعت عليه الثقلان . ولكن قال عزّ وجلّ : «إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون» فكان العمدة بقتله بعد اللّه الشيخ موسى ، ولكن بإعانة السيد مُحَمَّد المجاهد ، والسيد محسن الكاظمي ، وكلهم بقوة السيد عبد اللّه شبّر ، لا الشيخ موسى وحده كما هو مشهور على الألسن ، ولا السيد عبد اللّه وحده كما سمعته من بعض أهل (الكاظم) ، ولا السيد المجاهد كما في «روضات الجنّات»[1] .

هذا ما استفدناه من التتبع التام والتفحص مع إستفراغ الوسع في الجمع بين أقوال المؤرخين والمُطّلعين ، واللّه أعلم بحقيقة الحال[2] .

---

(١) روضات الجنّات ، ج٧ ، ص١٢٩ .

(٢) مقتل الميرزا الأخباري حدث في أوج الصراع الدموي الذي دار بين الوالي سعيد باشا ، وقائد الجيش داود أفندي ، والذي استمرّ عاما كاملاً انتهى بمقتل سعيد باشا سنة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م ، وتولّي داود السلطة في العراق . ففي ١٢ ربيع الأول خرج داود باشا من بغداد هارباً بعد أنْ عمل الوالي سعيد باشا على التخلّص منه لقوّة نفوذه . وقد أجرى سعيد باشا تعديلات في مناصب الدولة ، كما أسنده أحد كبار زعماء العشائر وهو حمود الثامر بألف وخمسماتة من العساكر لحمايته وذلك في ٢٣ ذي الحجة سنة ١٢٣١هـ .

سيطر داود باشا على بعض المدن مثل كركوك ، والسليمانية ، وبقي مُحصّناً فيها . ونظراً لقوته وسطوته فقد وجهتْ إليه الوزارة في (١) محرم سنة ١٢٣٢هـ ، إلاّ أنّ سعيد باشا تمرّدَ عليه ، ولم يرضخ له ، وفي هذه الفترة الحرجة أصاب بغداد القحط ، وتذمّر الأهالي من جرّاء ذلك ، ورجع الشيخ حمود الثامر الى دياره . كما سادت الفوضى أغلب المدن العراقية واشتد القتال بين الطائفتين (الزقرت) و(الشمرت) في النجف للسيطرة على المدينة الأمر الذي سبّب تذمر الأهالي ، والتطلع الى التخلّص من هذا الحكم الضعيف .

ثم اتصلت البشائر والتهاني من شعراء بغداد، والحلة، والنجف للشيخ موسى بقتل عدوه، وسيأتي عليك كثير في شعر السيد باقر بن السيد إبراهيم البغدادي والشيخ صالح التميمي وغيرهما من المفلقين.

أخبار مُلا مُحَمّد حاكم النجف، ووقائعهُ مع الشيخ موسى

ومنهم: معينه على الضلالة وخدينه في الجهالة، حاكم النجف السابق ملا مُحَمّد المتقدم ذكره. وهذه طائفةُ الملالي على ما سمعت من بعض (الخَدَمة) ينتمون الى ملا عبد اللّه، صاحب «الحاشية على تهذيب المنطق»، وجاؤا من (العجم) مع نادر شاه، أو غيره من السلاطين وبقوا في النجف مدةً ثم حكموا بها عدة سنين حتى انتهت حكومتهم بملا يوسف وانقطعت. فأمّا ملا مُحَمّد هذا فأنه نصب العداوة للشيخ موسى بعد أبيه طلباً لثأر خاله السيد محمود الرحباوي، وحيث لم يكن متمكناً من إيذائه بنفسه جعل يشي به إلى الولاة، ويحضّهم على القبض عليه.

فمن ذلك ما بعث به الى سعيد باشا وكان هو الوالي يومئذ ببغداد، وكان من (الكولات)[2] وهي طائفة بغدادية عظيمة تجتمع فتنصب منها والياً، وتكتب بذلك إلى

وفي هذه الأثناء قُتل الميرزا محمد الأخباري، وكان يوم مقتله هو اليوم الثامن والعشرون من شهر ربيع الأول سنة ١٢٣٢هـ. ولم تُشر المصادر المطبوعة إلاّ إلى سنة مقتله فقط، وأغفلت اليوم الذي قُتل فيه، والشهر.

واعتماداً على مجموعة خطيّة (محفوظة لدى أحفاد الميرزا الأخباري) فقد أُشير إلى انّ وفاته كانت في اليوم الثامن والعشرين من شهر ربيع الأول من السنة المذكورة. وهذه المجموعة تحتوي على رسالة من الشيخ أحمد الأحسائي إلى الميرزا الأخباري يحذّرُهُ فيها من القتل.

ويبدو أنّ الميرزا الأخباري كان قد أحسّ بالخطر على حياته فأرّخ سنة وفاته بقوله «صدوقٌ غُلب»، والذي يساوي في حساب الجمل سنة ١٢٣٢هـ. وفي عبارة التاريخ أكثر من مغزى يُعبّر عن مظلوميّة الرجل، ومحاولة التربّص به.

وفي (٥) ربيع الآخر سنة ١٢٣٢هـ دخل داود باشا بغداد.

وفي (١٠) ربيع الآخر سنة ١٢٣٢هـ قُتل سعيد باشا قِتْلَةً شنيعة.

وقد ذكر الدكتور حميد الگار H.Algar أنّ الميرزا الأخباري عندما جاء إلى العراق، واستقرّ في مدينة الكاظمية أخذ يتدخّل في أمر الصراع الدائر بين سعيد باشا، وداود باشا. وعلى ما يبدو ففي هذه الفترة بالذات أخذ بعرض قواه الروحية لمساندة سعيد باشا. وخوفاً من تكرار ما نُقل عن الخطة التي أعدّها لمقتل القائد الروسي (اشبوختر) فقد وجّهَ داود باشا قواته للهجوم على بيت الميرزا الأخباري، وقتله. وقد إحتملَ الدكتور الگار أنّ استياء العلماء الأصوليين من تصرّفات الميرزا الأخباري جعل لهم يداً في هذه القضية.

يُنظر بهذا الصدد مقالة الدكتور Algar في موسوعة IRANICA المجلد الأول، ص٧١٦ (لندن، ١٩٨٥م)، تحت عنوان (Akhbari).

(٢) الكولات: مفردها (كوله) وهي كلمة تركية تعني العبد المملوك. وقد ابتدأ حكم المماليك في العراق منذ عهد حسن باشا ١١١٦هـ/ ١٧٠٤م، وانتهى بعهد داود باشا عام ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م.

(إسلامبول) فيأتي إمضاء لفعلهم . وكان أعظمهم سليمان باشا[1] الذي عصى آخر الأمر على الدولة العليّة ، فبعثوا إليه خالد باشا من رجال الدولة مع جند عظيم فنازله في بغداد وحاصره أياماً ، حتى قبض عليه ، وقتله أشرّ قتلة[2] .

ثم ولّي بعده عبد اللّه باشا[3] فبقي أشهراً وتغيّر عليه باقي (الكولات) ، فقتلوه مع عضده طاهر كخوه ، ونصبوا سعيد باشا هذا وزيراً فقبلته الدولة . وكان ذلك في سنة الألف والمائتي والثمان والعشرين كما ذكره في (تأريخه الكبير) خالنا الثقة الذي كان يسمى سلمان زمانه ـ لطَيف رآه فيه بعض علماء بيت نجف ـ ، (وأظنه الشيخ جواد) ، وهو أنَّهُ سَأل الأمير (ع) في المنامِ أن يريه سلمان الفارسي فقال له انظر إلى الشيخ مُحَمَّد بن الحاج عيسى كبّه . وهي السنة التي تُوفيَ (الشيخ)[4] في أولها .

فلما استقر أمر ذلك الوزير جعل يراجعه ملا مُحَمَّد المذكور ، ويخبره أن الوالي في العراق موسى بن جعفر لا أنت ، ولا تتم ولايتك إلاّ بقتله ، وأن هذه الفسادات من (الزقرت) و(الشمرت) وعصيان أهل (الدّغارة) ، وباقي العراق كلها بسببه . فبعث إليه يستشيره في قتله ، فقال له : إبعث إليّ بعض الجند وأنا ضامن لك أني أقبضه وأبعثه إليك مُكبّلاً .

فوصل تفصيل الخبر إلى الشيخ فبعث بأهله وعياله وجميع مَنْ في داره إلى (إستار) شيخ الموالك ، وكان رئيس (الدّغارة) ، فأخلى لهم منازلَ على الفرات فنزلوها ، ولحق بهم الشيخ مع إخوته وعمومته والخواص من بطانته . ولم يبق في النجف أحد ممن يتعلق به ، فأصبحت ديارهم خالية ، وربوعهم موحشة ، فضجّت الناس والعلماء ، ووقع الهرج والمرج ، ولحق أغلب طلبة العلم بأهلهم وتركوا العلم والتحصيل ، وارتحل الباقي خلف الشيخ ، وبقيت النجف خالية حتى من الكسبة لعدم السكان ، وصارت حكومة المُلا على نفسه وأهله واشتد الأمر عليه ، وأوقع في يديه ، حتى وقع على بعض العلماء وعلى أن يشفعوا له عند الشيخ فيرجع إلى محلّه ومكانه ، على أن لا يعود (الملا) في شيء من زوره وبهتانه ، فأخذوا عمّته في رقبته ، فعفى الشيخ عن سيئته . ورجع إلى محلّه بأهله ، وبقي يُظهر الودّ له ، ويسعى باطناً بالأذى إليه ، لكن حواليه لا عليه ، حتى قتله بعض من أصابه أذاه ، فنجّى اللّه الشيخ من شره وكفاه .

---

(١) سليمان باشا حكم من سنة ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م إلى سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م .
(٢) إلتجأ سليمان باشا الى شيخ المنتفق الشيخ حمود ، ولمّا وصل الى عشيرة الدفافعة قتلوه ، وقطعوا رأسه ، وذلك في (١٠) شوّال سنة ١٢٢٥هـ .
(٣) عبد الله باشا حكم من سنة ١٢٢٥هـ / ١٨١٠م حتى سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م .
(٤) هو الشيخ جعفر كاشف الغطاء .

وأمّا الوزير فبقي ذلك الأمر في نفسه وجعل يشتدّ ، ويتأكّد لما يرى من مطاعيّة الشيخ وعظمته في نفوس العظماء من الرعية ، بل وسائر البرية ، حتى أتى الأخباري من طهران الى بغداد ، فأكّد ذلك ، واتصل به لنيل غرضه ـ كما عرفت ـ ، إلى أنْ ارتحل (موسى) عازماً على قتل (فرعون) الدين ، وإهلاك هاروت السحرة الكاذبين ، فلمّا أحسَّ بذلك أخبر الوزير بدخول موسى في بغداد ، وأنه قَدْ حصل المراد ، فتواعدا على أنْ يصنع الوزير وليمة له ، وهنالك يبلغ الكتاب أجله . وفي الأثناء قُتِلَ الأخباري .

ودعا الوزير كاتبه ، وكان ممن يُبطن الودّ للشيخ موسى فأمره بكتابة رقعة تتضمن استدعاء الشيخ له . فكتبها بحضور الوالي ، وختمها بيده ، ولم يجد الكاتب بُدّاً من الأشارة للشيخ لعلمه بمرادهم . ولكنه لم يتمكن من ذلك فجعل في التاريخ ألفاً زائدة بعد أن نظرها الوزير ، ثم بعثوا بها إلى الشيخ . فلما نظر الألف عرف أنها لنكتة ، وأن الكاتب في مثل هذا المقام لا يشتبه فأصاب بقوة حدسه أنها إشارة لقوله تعالى : «إن الملأ يأتمرون بك فاخرج منها» . فأمر خادمه الشيخ (مُحَمَّد وَيسين) فاستكرى له دواباً ، وقال للمكاري سِرْ بنا على غير الجادة المعتادة لئلا يدركهم مدد الوالي ، فخرج موسى منها خائفاً يترقب :

وهو لو شاءَ محوَ دائرة الأرض ومَنْ في طباقها لمحاها!

فساروا ليلاً حتى أتوا الحلّة فنَزلَ موسى ففدته بالنفوس والأهلين ، وأَمن من كيد (فرعون) و(هامان) ، وجنودهما الظالمين .

فلما علم الوزير بخروجه تفحّص عن مقرّه فعلم أنّهُ في الحلّة ، فبعث إلى (بيكها) يأمره بإرسال الشيخ إلى بغداد ، فكتب (البيكُ) أنَّ هذا رجل مطاع خصوصا بالحلة ، وأهلها يرونه إماماً واجب الطاعة ، وإن دنوتُ إليه بمكروه لا بُدَّ وأن تثور الفتنة ويقع القتل في البين ، ولا جند عندنا يقوم بدفاعهم . فجهّز الوالي جُنداً إلى البيك ، فاستمهله الشيخ وقال لأهل الحلّة : لا تقاتلوهم فأن الفرج قريب . فما مرّت الأيام والليالي حتى قُتل الوالي سنة ١٢٣٢[1] ، ونصب داود باشا ، كما ذكره الخال الشيخ مُحَمَّد كبّة في «تأريخه»[2] .

وكان داود باشا مخلصاً للشيخ قبل ذلك حيث أن الشيخ موسى أطلقه من أسر العجم .

---

(١) قُتل سعيد باشا في اليوم العاشر من شهر ربيع الآخر سنة ١٢٣٢هـ .

(٢) زوجة الشيخ علي كاشف الغطاء هي الحاجة (هدية) كُبّة ، وهي من أسرة آل كُبّة البغداديين . وهي أم أولاده الشيخ أحمد والشيخ محمد الحسين ، ولها بنتٌ واحدة تزوّجها الشيخ كاظم كاشف الغطاء ، (هذا ما أخبرني به حفيده الأستاذ عباس بن العلامة الشيخ أحمد بن الشيخ علي كاشف الغطاء) .

ذكر سبب تسمية الشيخ موسى بـ«المصلح بين الدولتين»

وبيانه على سبيل الأجمال ومنه تعرف سبب تلقّبه بأنه المصلح بين الدولتين كما هو مشهور ، وفي «معدن الشرف» ما حاصله : أن فتح علي شاه كان يحب ولديه عباس مرزه ومحمد علي مرزه حُبّاً شديداً ، لَّما علم فيهما من البأس ، وشدة المراس ، والهمة العالية ، والسمو إلى المراتب السامية ، فجعل ولاية العهد لعباس مرزه ، وأمضت الوزراء والأمراء ذلك . فتغيّر مُحَمَّد علي مرزه ، وخشي أبوهما الفتنة فجعل عباساً في حدود (الأرس) في آذربيجان وما أشبهها ، ومحمد علي في حدود الدولة العثمانية من كرمانشاه ولواحقها ، تفريقاً بينهم وتبعيداً .

فكانت همة مُحَمَّد علي تسمو إلى أخذ العراق من الدولة . فبينا هو كذلك إذ جاءت قافلة من زوّار العجم إلى مُحَمَّد مرزه فوقفوا على باب (صرايه) يبكون ، وقد توزّروا على أوساطهم ، ونشروا شعور نسائهم ، فسألوهم عن أمرهم فقالوا : نحن زوّار وقد سلبنا عسكر العراق ، ونهبوا أموالنا وقتلوا عدة من رجالنا وتركونا كما ترون . فاستشاط الميرزا غضباً ، وازداد تعجباً ، وقال : يا للّه لهؤلاء القوم ، كفيناهم شرّنا فلم يكفّوا ، وتركناهم فلم يعفّوا ، ونحن أجدر بالبدءة ، وأحرى بالسوءة ، فليذوقنّ عما قريب طعم عاقبة الظلم ، وليتجرعنّ غداً بأسيافنا مضاضة السمّ :

أرى خلفَ الرمادِ وميضَ جَمرٍ ويُوشكُ أنْ يشبَّ لَهَا ضرامُ

* * *

وهم بدؤونا بالأساءةِ أولاً فنحن بها أحرى الغَداةَ وأجدرُ

فجهّز من حينه عشرين ألف فارساً من كرمانشاه ، وعراق العجم ، ومثلهم من الأكراد وعربستان ، واستنجد بحسن خان رئيس الفيلية ، فأنجده بأثني عشر ألفاً وجاء بهم إليه ، فأمّر على سائر جنده ، وكان من المعروفين بالنجدة والسداد بالحرب والتدبير والخديعة في المواقف .

محاربة البغداديين لعسكر العجم

وجهز الوالي سعيد باشا من بغداد عشرين ألفاً ، وجمع شيوخ العشائر ورؤساء القبائل (كالمنتفج) و(جليحة) و(الخزاعل) ، ووعدهم بأعطاء الرُتب والمناصب ، على أن يسيروا معه تحت الكتائب ، فجاوزه بما يقرب من المائة ألف فارس .

فالتقى الفريقان قريباً من (خانقين) ، فلما وضعت الحرب أوزارها أظهر حسن خان أنَّهُ قَدْ غَضِبَ وتنافر مع رئيس عسكر العجم فسار عنه بعشرين ألفاً من المقاتلين ، وبقي أمير العجم منكسراً مع شرذمة قليلة . فطمع بهم أصحاب الپاشا وكان بقرب ذلك المكان كالوادي وقد أحاطت به الجبال من كُلِّ جانب . فانكسرت العجم ودخلت فيه ولحقتهم الأعراب وعسكر بغداد فيه . فما التفتوا إلاّ والمدافع تصبّ من فوق رؤوسهم ، والبنادق تنتثر من أعلاهم وكانوا عرباً لا يعرفون تلك الشعوب والمسالك من الأرض . فما قدرَ على الخروج والهزيمة من ذلك المكان إلاّ القليل منهم ، وما كان إلاّ كحلبة شاة حتى تفرق شمل الأعراب ، وعادوا بين قتيل وأسير ومنهزم والمدافع تضرب من فوقهم ومن مقابل وجوههم ومن خلفهم الى أن تفانوا عن آخرهم .

وأسرت العجم منهم خَلْقاً كثيراً ، منهم حمُوْد السعدون (شيخ المنتفج) ، وجماعة من رؤساء الخزاعل ، ومحمد پاشا ، وعلي بك أبو يحيى بك(الذي صار في أيامنا متصرفاً في الحلّة) ، ومنهم داود پاشا وهو من طائفة (الكولات) التي منهم (پَشوات) بغداد كما عرفت ، وكان يسمى داود أفندي .

فسيّر العجم بالأسرى الى مُحَمَّد علي مرزه وهو في كرمانشاه ، فجعل بعضهم (طبابيخ) ، وبعضهم (كوانيس) ، وبقي عسكر العجم قريباً من بغداد ينتظرون أمر مُحَمَّد علي مرزه في فتح البلد ، وقتل من فيها . وبقيت بغداد في شدة الحصار ، وأعظم الضيق والاضطرار ، فاستجار أهلها شيعةً وسنّةً بالشيخ موسى وكتبوا إليه : إن لم تُدْرِكنا عاجلاً أخذتنا المدافع ، وقُلعنا مع البلد ، وما فيها من الدور والجوامع .

فبعث موسى بن جعفر ابن عمه الشيخ موسى بن الشيخ عيسى بن الشيخ حسين بن الشيخ خضر[1] رحمهم اللّه أجمعين ، وكان حازماً سديداً .

حدثني عمي الأجل العباس بن علي عن موسى بن عيسى هذا أنَّهُ قال : أمرني مولانا وإمامنا موسى بن جعفر أن أسير بكتبه إلى مُحَمَّد علي مرزه ثم منه إلى فتح علي شاه ، فسرتُ حتى جئتُ بغداد فاستغاث بي أهلها ، والتمسوني السير سريعاً لرفع الضرّ عنهم ، فبعث معي سعيد پاشا كخوتة أحمد المعروف بأحمد أبو عقلين ، فسرت معه على طريق السليمانية لأحاطة العجم بطريق خانقين ، فكان (الكخوة) لا يعتني بي ولا يراني شيئاً ، وربّما نام في الأثناء فمدّ رجليه عليّ ، وإذا دخلتُ لا يقوم . فلمّا جئنا السليمانية نزلنا في

---

(١) تُوفي الشيخ موسى الخضري سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م .

دار محقّرة . فلما سمع عبد الرحمان پاشا وكان ملكاً عظيماً يحكم على ثلاثمائة ألف من العسكر الذين هم تحت السلاح ، وكان والي بغداد لا ينصب إلاّ برأيه ورأي رئيس (المنتفج) ، وكان يُمنّي نفسه بالسلطنة في تلك الأقطار . فلما سمع بقدومي بعث عليّ ، واستقبلني من الباب وقبّلني وجعل يسألني عن الشيخ موسى وأحواله وأهله ، ثم جعل يعاتبني على عدم نزولي عنده ، ثم بعث على راحلتي وعُدّةَ سفري . ثم جاء (الكخوة) وهوى إلى الأرض تعظيماً ثم وقف والپاشا لم يتحرك من مكانه فسأله عن أحوال سعيد پاشا وهو يجيبه بتمام الخضوع . ثم بقينا ثلاث أيام أتعشى معه وأتغدى معه و(الكخوة) مع الخدمة في كُلّ أوقاته .

وفي اليوم الثالث ودّعنا الپاشا وسرنا إلى كرمانشاه والكخوة على حاله من عدم الاعتناء بي . فلما قاربنا كرمانشاه أتتنا رسل الشيخ عبد الرحيم وكان المُبرِّز فيها فنزلنا داره ، ووصل الخبر إلى مُحَمَّد علي ميرزا ، فبعث إليّ أن لا تبتدئني بالمجئ وإذا جئته فلا يعتني بي ، ولا يقوم لي إجلالاً فأنْ فعل شيئاً من ذلك فلا نجاح لحوائجه عندي .

يقول موسى : فما كان إلاّ يسيراً حتى سمعتُ أصوات الطبول ونغمات المزامير وهمهمة الخيول ، وإذا بحَلْقة تناهز المائة من (الرجّالة) على نسق واحد من الأشكال والأسلحة واللباس ومثلها من (الخيّالة) . ولم تزل تدخل علينا المائة بعد المائة حتى إمتلأت الدار ، وهناك جاء الميرزا ، ودخل عليّ فسلم وجلس بين يدي ، وجعل يسألني عن كُلّ جزئية وكلّية ، ثم عطف يسألني عن باقي العلماء في النجف فرداً فرداً ، وطائفة طائفة وأنا أجيبه حتى قال لي : وكيف حكام بغداد معكم واعتناؤهم بكم ولا أظنهم يوفّون حق (الشيخ) وما يجب عليهم من مراعاته ، ثم التفت الى أحمد كخوة وكان متمثلاً مع الخدم في طرف المجلس فقال : يا أحمد كيف سعيد ، أمَا واللّه لقد غرّه حلمُنا عنه حتى أصبح شقياً وليعلمنّ نبأه بعد حين .

يقول موسى : بدت لوائح الغضب عليه ، فقلتُ : يا أمير جئتُكَ شفيعاً من لسان الشيخ وهذه مكاتيبه بعثها إليك ، فأخذها وقبّلها وقام على قدميه إجلالاً فقرأها وقال : حباً وكرامة ، أمّا أنا فقد عفوت ولكن ينبغي مراجعة والدي فتح علي شاه . فكتب معي مكاتيب وقال : اعطها لوالدي مع مكاتيب الشيخ ، ثم ودّعني .

وأردت أن أقوم تعظيماً فنظرني شزراً ، فعرفتُ أنّهُ يشير إلى الوصية التي أرسلها إليّ أولاً فجلستُ وفرائصي ترتعد من هيبته . وأمّا الكخوة فأنّه استقبله من شارع الطريق وودّعه كذلك والميرزا لم يعتنِ به في كُلّ ذلك .

ثم ارتحلنا فجئنا طهران وكان الشاه مخيّماً خارج البلد فأمر بخيم ضُربتْ لنا وأنزلَنا على الرحب والسعة ، وكان مع الكخوة هدايا للشاه من الپاشا ومثلها لمحمد علي مرزه لم يقبلها ، وقبلها أبوه ؛ منها ثلاث شمّامات عنبر ، وثلاث سبح من كهرب ، وكوهر ، وجوهر ، فبعثها إليه .

وجاء الشاه إلى خيمتي فأمر بأحضار الكخوة فكساه كسوةً فاخرة ، وأمر بأحسن منها وقال خذها معك للپاشا . وأمر لي بمال غزير فاستطعت من ذلك الحين لأنه كان يقوم بمؤن عشرين حجة ، ثم أمر بإطلاق الأسرى التي في كرمانشاه ، وانصراف العسكر عن بغداد . ثم مُهدت لنا الرواحل فارتحلنا راجعين الى أوطاننا .

فلما صرنا في الطريق رجع الكخوة إلى ما كان عليه من عدم الأعتناء بي ولم يزدني تعظيم السلاطين والأمراء عنده إلاّ ضعة وخمولاً ، وكنتُ أتأمل في وجه تسميته «بأبي عقلين» فعرفتُها ، وعرفتُ أنَّ الذي أرسله «أبو ثلاث عقول» .

وفي الأثناء جاءني كتاب من الشيخ يأمرني بعدم المرور ببغداد والنزول في الكاظمين (ع) ، فامتثلت . ولما سمع الپاشا جاء لزيارتي هو ، وعساكره وجعل يتشكّر للشيخ ولي على دفع هذه النائبة العظيمة عنهم ، وبعث معي مكاتيب تشكّر للشيخ ، فأخذتها وجئت النجف وتجهّزت من حيني الى الحج .

ثم قال العم أيّده الله : وأنا شاهدتُ يوسف بيك لمّا جاء في آخر عمره قائمقاماً للنجف وكان يومئذ طاعناً في السن فكان يقول للشيخ مُحَمَّد رضا بن الشيخ موسى : «أنا من كولاتكم ، أي عبيدكم ، لأني كنت في أسر العجم أتوقّع القتل ساعةً بعد ساعة وأني كنت قَدْ قتلت جملة من عسكرهم فلم أكن أشك في هلاكي حتى أدركني الفرج بموسى عن موسى» . إنتهى حديث الشيخ سلمه الله .

وكانت هذه الواقعة بعد أيام من نصب سعيد پاشا والياً(١) .

وسعى ملا مُحَمَّد حاكم النجف بالشيخ موسى إلى الوالي ثم ندم الرجل لعدم تاميّة الأمر له . وفي الأثناء صدرت هذه الواقعة فتحكم لدى الپاشا ما أخبره به ملا مُحَمَّد من جلالة الشيخ وعظمته وأنه هو المطاع ، في هذه الأصقاع ، فثقُلَ عليه الأمر كثيراً ، ولكنه لم يجد سبيلاً على الشيخ . وبقي ذلك في نفسه حتى جاء الأخباري وفعل ما فعل ، وقُتل في الأثناء . ثم اعتصم الشيخ بأهل الحلة إلى أن قُتل الوالي بعد أيام وأشهر .

---

(١)وُجهت وزارة بغداد ، والبصرة ، وشهرزور (السليمانية) الى سعيد پاشا غُرّة جمادى الآخرة سنة ١٢٢٨هـ .

وقيل إنَّ الشيخ لَمَّا غضب على ملا مُحَمَّد ، وخرج إلى (إستار) رئيس (الدغّارة) وبقي هنالك يراجع الأستانة ، واشتكى على سعيد پاشا ولم يرجع إلى النجف حتى أتى الأمر بالعزل عليه ، فرجع الشيخ إلى محله وقد حظى بأوليه .

والحاصل ما انقضت تلك السنة وأيامها إلاّ وسعيد پاشا معزولاً ، أو مقتولاً في بغداد ، وملا مُحَمَّد في النجف ، «فمكروا ومكر اللّه واللّه خير الماكرين» .

ثم تزوج ببنت السيد رضا شبّر في الكاظمية جذباً لقلوب أهلها ـ كما عرفت ـ بعد أن اتفق هو والعلماء المبرزون ، على قتل ذلك المذمم الملعون ، فوقع الحق وخسر هنالك المبطلون .

وبقي الشيخ قاطناً في الكاظمين عند زوجته (الشبّرية) ما يقرب من سنتين حتى توجه مُحَمَّد علي ميرزا الى بغداد ثانية ، وقد جاء بجميع جنده غازياً ؛ لكلام بلغه من حاكمها يتضمن التهديد والوعيد للعجم وأنه سيأخذ الثأر منهم ، فجآءهم على غفلة من أهلها فحاصر بغداد أشدّ الحصار ، فاستغاثوا بموسى بن جعفر فأتى مُحَمَّد علي مرزه ، وكان مُخيِّماً في سامراء لطيب هوائها . فقال له : إن إمامك موسى بن جعفر يقول لك إرجعْ ، وإلاّ أرجعتك بعصا موسى هذه ، (وهزّ عصا كانت بيده) فارتعدت فرائصه على عظمته وقال : سمعاً وطاعة .

وبعث الشيخ على داود پاشا فأصلحه مع مُحَمَّد علي مرزه بعد أن جرى بينهما عتب طويل ، ثم تحكّم في ذهن داود پاشا أن مُحَمَّد علي مرزه لا يترك العراق ما دام حياً إلاّ أن يأخذها ؛ فقيل أعطى مالاً غزيراً لميرزا هادي الجواهري (وكان يومئذ وكيلاً للميرزا وأمينه) فسمّه ، ولم يخبر الجند والعسكر خوف أن يتفرقوا حتى جاء به الى كرمانشاه فأظهر أنَّهُ مات حتف أنفه . وقيل أنَّهُ واقعاً كذلك ، واللّه أعلم .

هذا ما انتهى إلينا من هذه الوقائع مع غاية الضبط والجهد في الأختصار والتلخيص . وقد خلط بعض المؤرخين من المتأخرين خلطاً كثيراً ، عصمنا اللّه وإيّاهم من الزلل ، واتّباع الخطل ، إنه أرحم الراحمين .

ثم رجع الشيخ الى بلده بزوجته مؤيداً منصوراً ، وعدوّه مقهوراً ، ونهض مستقلاً بأعباء الرئاسة ، ومشمّراً لإعطاء طلبة العلم حقهم من الدراسة ، وتمهدت له الأمور ، وأذعن له الجمهور ، وبلغ أقصى ما يُتصوّر ، من مراتب العلم والرئاسة ؛ حتى حدثني بعض الشيبة الكبار ، من العلماء الأبرار ، أن جماعة في زمان الشيخ تخاوضوا الحديث في جلالة قدر الشيخ موسى وعظمته ، فقال رئيسهم : أني قَدْ تفحّصت وتتبّعت العلماء من أول صدر

الأمة إلى اليوم فلم أجد رجلاً ضمّ إلى أقصى ما يُتصور من العلم، أقصى ما يتصور من الرئاسة حتى الخواجة نصير الدين[1] فأنه لم يبلغ تلك الدرجة عند (هولاكو) التتار إلاّ بعد أن حُبس مراراً، وموسى بن جعفر كلّ من همّ بقتله وآذاه، عجّل اللّه عليه فأرداه، كما عرفت.

وكان رحمه اللّه كما هو مشهور عنه في زمانه الى اليوم أنّهُ ليس بينه وبين الحق سوى القبض على لحيته المباركة، ولذلك حكايات تشهد بذلك له.

منها: قضية مسائل الميرزا القمّي، فأنّه لمّا قال لأخيه: أكتب وأنا أملي عليك، حتي وصل الى المسألة الثالثة وكانت معركاً لأنظار العلماء لغموضها فقبض الشيخ موسى على كريمته الشريفة يسيراً ثم أجاب بما أبهر الميرزا وأعجبه.

ومنها: ما سمعتُه من جماعة من الثقات عن الشيخ العالم النحرير الشيخ مُحَمّد حسن الشروقي[2] وهو من تلامذة موسى وأبيه قال: كان لي صديق من فضلاء ذلك العصر، وكنا نحضر عند الشيخ موسى معاً، فلما توالت المزعجات عليه من أعداء أبيه التي أوجبت عدم استقراره في البلد جمع الفاضل شرذمة قليلة من الطلبة وصار يباحثهم حتى أتى يوماً يتبجّح ويفتخر بمسألة يدّعي ابتكار تحقيقها، والتفرّد بمأخذ أدلتها وطريقها، وبعد أن أملاها على الطلبة، وأزاد بها عُجُبَهُ وعَجَبَهُ، قال: أين الملوك وأبناء الملوك عن هذه اللذات، مُعرِّضاً بأستاذيه. فلما رجع الشيخ إلى وطنه، وبلغه اللّه بعد هلاك أعدائه الى مأمنه، وأزدحمت الناس والعلماء على بابه للتشرف برؤياه والمثول على أعتابه، جاءني ذلك الشيخ وقال لي: قُمْ نمضِ إلى الشيخ موسى فهذا يوم المباهلة، وسترى من أولى بالتقديم، وأحق بالتسليم.

فجئنا دار الشيخ الكبيرة الداخلة فوجدناه في الأيوان الكبير والعلماء حافّون به وهو متكئ على وسادة وُضعت له وكان يستلقي عليها ويضع إحدى رجليه على الأخرى، كُلّ ذلك (لبواسير) كانت لا يقدر أن يجلس منها على المعتاد.

فلما جلسنا قال له تلميذه الذي معي بعد التحية والسؤال عن أحواله: إنّا بحمد اللّه بعدك لم نفترْ عن التحصيل، والمحاشاة عن التعطيل، وقد حققنا كثيراً من الفروع الغامضة وقد أشكل علينا فرع منها لم نصل الى حقيّة واقعه ودليله. ثم ذكر الفرع والشيخ منصت له

---

(١) نصير الدين الطوسي من أعاظم فلاسفة الاسلام. ولد سنة ٥٩٧هـ/ ١٢٠٠م، وتُوفيَ سنة ٦٧٢هـ/ ١٢٧٣م، عيّنه هولاكو وزيراً للأوقاف. وكان شخصيّة علميّة مبرِّزة، لم يشتهر أنّه حُبسَ أو نُكِّلَ به في عهد المغول، وإنّما أصابه شيء من ذلك قبل هذه الفترة عند إقامته تحت ظل حكم الأسماعيليين في قِلاع (الموت).

(٢) الشيخ مُحَمّد حسن الشروقي (هو جدّ أسرة آل الشرقي)، تُوفي سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م.

وهو على حاله ، فنادى أن يُملى له (الشطب) ، فمُلئ وجيء به فشرب منه (نَفَسين) ثم رماه وقد احترق وصار كالفحمة ، ثم استوى جالساً وقبض على لحيته الشريفة يسيراً ثم رفع رأسه وأخذ يفرّع المسألة ويذكر شقوقها ومحتملاتها ويسرد أدلّتها ويملي كلمات القوم فيها ، ويتلو بعض ما أجيب به عن إيراداتها ، فذكر في ضمن ذلك ما حقّقه ذلك الفاضل لتلاميذه ، وأخذ يرد كُلّ ما أوردوا وما أجيب ، فأقسم باللّه الراوي أن الشيخ بقي ساعة وهو كالسيل المنحدر من أعلى الروابي والجبال وتلميذه ، وجميع من في المجلس من العلماء كالشيخ أسد اللّه ، والسيد عبداللّه شبّر منصتون له طائشةً ألبابهم ، ذاهلةً عقولهم من تلك القوة الخارجة عن حدّ الأعجاز . ثم قال : هذه رشحة ما ينبغي في المقام ، وهناك تحقيق فوق هذا يضيق عنه الوقت ، فانتهز فرصةً من أيامنا ، واستفده منا .

ثم خرج الفاضل من عنده يجرّ رجليه ، وخرجتُ معه وأنا أضحك عليه . ثم قلتُ له : يا شيخ ما صنعت اليوم بنفسك ، فقال : لا تلمني فواللّه ما كنتُ أدري أن ليس بين الحق وبين الشيخ سوى القبض على لحيته . ثم استمر على الحضور تحت منبره ، والأقتباس من إفادته ، إلى حين وفاته .

ورواها السيد البراقي في «معدن الشرف» عن عدّة من رجاله كحجة الأسلام ، في هذه الأيام ، الشيخ مُحَمَّد طه نجف ، والشيخ حسين نجف[1] ، وغيرهم من العلماء الأعلام أن بعض تلاميذ الشيخ موسى (وقد سمّاه في كتابه) جعل يباحث في أواخر أيام الشيخ جماعة من الطلبة حتى انتهى إلى مسألة اختار بها خلاف المشهور ، وبرهن على ما أفتي فيه من مخالفة إجماع الجمهور ، وأثبتها بزعمه ، وقطع من نازعه فيها بدرسه ، ثم قام مع حفدة من أصحابه ، ودخل على الشيخ موسى وهو مبتهج بتنقيح المسألة والفراغ منها والاستدلال قبال المشهور فيها ، فقال للشيخ موسى : ما رأي شيخنا في المسألة الفلانية ، فأجابه على ما عليه الشهرة ، فقال ذلك الفاضل : إنّا قَدْ شهرناهم واخترنا خلافهم وأثبتنا ذلك بالأدلة المعتبرة . ثم أراد أن يذكر دليله فأشار الشيخ عليه بالسكوت ، فسكت . ثم قبض على لحيته وأطرق برأسه مقداراً يسيراً ، ثم رفع رأسه وقال : أظنُّك تمسّكت (بكذا) و(كذا) وأخذ يذكر مستند تلميذه ثم دفعه بأمور ، وأخذ يؤيد حجج الجمهور ، ويأتي عليها بالشواهد والبراهين ، حتى أثبت أنها الحق على اليقين ، واندفع كالسيل المنحدر من الجبال إلى منخفض البقاع ، كُلّ ذلك وتلميذه ساكت إلى أن فرغ الشيخ . فقام الرجل يجرّ رجليه فدنا إليه بعض أصحابه ، وقال له : (بنيناها) وهي كلمة ردية تقال لمن أراد أن يَفْحم فأُفْحِم .

---

(١) الشيخ حسين بن الشيخ يعقوب بن جواد بن الشيخ حسين نجف الكبير . تُوفي سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م .

فقال : ويحك واللّه ما كنت أدري أن ليس بين هذا الشيخ وبين اللوح المحفوظ سوى القبض على لحيته . إنتهى .

وهذه القصة متواترة معنا وهو أول من قالها في حق الشيخ موسى . ثم استمر به .

وقد سمعتُ القصة أيضاً من حجة الأسلام والمسلمين ، وعمود الملة والدين ، الحاج ميرزا حسين ابن الحاج ميرزا خليل رحمه اللّه . وصاحب السؤال أيضاً هو من أساطين العلماء المصنّفين ، ومن أجلاّء مشايخ المسلمين ، عطّر اللّه مراقدهم أجمعين .

وفي ضمن هذه الوقائع تبيّن لك شيئاً من كرامات الشيخ وجلالته وعظمته . على أنّهُ قَدْ كفاك في ذلك كلمات أبيه فيه قال في «روضات الجنّات» بعد الثناء على الشيخ الأكبر ، وكذا أبناؤه الأجلّة الكرام ، ومشايخ الأسلام ، والفقهاء الأعلام ، وهم الشيخ الأكبر الأفخر ، موسى بن جعفر ، وكان خلاقاً للفقه بصيراً بقوانينه ، لم تُبصر بنظيره الأيام ، وكان أبوه يقدّمه في الفقه على مَنْ عدا المحقق والشهيد (ره) ، إنتهى[١] .

وفي «نقد العلماء» بعد أن قال : وللشيخ الكبير (ره) ثمانية أولاد كلهم علماء فضلاء ، وساق الكلام الى أن قال : منهم : إبنه الشيخ الجليل موسى عالم فاضل ، عامل كامل ، علامة عصره ، وفريد دهره ، فقيه مجتهد ، سأل بعضهم من أبيه : مَنْ أفقه الناس على الأطلاق ، فأجابه : أنا وولدي موسى والشهيد الأول ، إنتهى .

وهذا يكاد أن يكون فوق التواتر بمراتب ، ولو لم يكن ما قاله الشيخ في ولده حق لَما أُلقيتْ مقاليدُ الأمور إليه ، وعكفتْ همم طلاب العلم والعلماء عليه ، على كثرة من كان في زمانه مَنْ العلماء الجماهير ، والفقهاء المشاهير ، ممن لم تسمح الأيام لهم بنظير ، وكيف لا وفيهم مثل الحبر النحرير ، الشيخ أسد اللّه التستري ، والمقدّس السيد محسن ، والسيد السند حجة الأسلام السيد مُحَمَّد باقر الرشتي ، والشيخ مُحَمَّد تقي ، والميرزا القمّي ، والشيخ حسين نجف ، والسيد رضا الطبطبائي[٢] ، والسادة (القزاونة) السيد حسن ، والسيد باقر ، والسيد علي ، والشيخ محسن الأعسم وبني عمّه ، والشيخ خضر شلال ، والشيخ مهدي ملا كتاب ، والشيخ قاسم محيي الدين ، وأمثال هؤلاء من الجهابذة الأساطين .

وأمّا جوده وكرمه فمما يضيق عنه نطاق البيان ، وتحسر عن الوصول إلى إدراك حدّه

---

(١) روضات الجنّات ، ج٢ ، ص٢٠١ .

(٢) السيد رضا بن السيد مهدي بحر العلوم . وُلدَ سنة ١١٨٩هـ / ١٧٧٥م ، وتُوفي سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م . هو جدّ السادة آل بحر العلوم ، وآل الحكيم ، وآل الطباطبائي ـ أسرة السيد علي صاحب «الرياض» ـ .

الأذهان . وقد سمعتُ جماعةً من الشَيَبَة الكبار أن الشيخ موسى كان يعول بثلثي أهل النجف ، وكان يعيّن لكل بيت مقدار ما يكفيه كُلّ يوم من المصارف ، ومنهم العلامة الشيخ مُحَمَّد حسن صاحب «الجواهر» وعائلته ، فأنّه كان يأخذ كُلّ يوم من وكيل الشيخ موسى شاميين التي كانت مقدار أربع قرانات من نقد عصرنا . فمما ينقل عن الشيخ مُحَمَّد حسن (ره) أنّهُ كان يقول : «إني أرى الشيخ موسى في اليوم الذي يعطيني تعييني فوق ما هو فيه من العلم والتحقيق ، وفي اليوم الذي لا يعطيني أراه دون ذلك»!

وقد ذكر السيد البراقي في «معدن الشرف» حكايات باهرة في عطاياه وأياديه وقد تركناها على مقتضى ما شرطنا سابقاً . ولكنا نختمه بما حدثنا به السيد الزاهد العابد ، الراكع الساجد ، سيدنا المفضال السيد جعفر جلال ، أبقاه اللّه بركة في الأرض ، والدعاء له على كُلّ ندب فرض ، وهو اليوم من المُعَمرين في البلاد ، فإنه على ما سمعته منه وُلِدَ في سنة وفاة الشيخ الكبير ، فهو على هذا قَدْ أناف اليوم على التسعين . ومن منن اللّه تعالى عليه أنّهُ على هذا السنّ لم تضعف قوته ، ولم ينقص بصره ولا بصيرته ، ولم يقع شيء من أسنانه ، ولم تنهدّ قوى أركانه . قال : سافر والدي الى زيارة مولانا الرضا (ع) ، وكانت سنة مجدبة ذات قحط شديد فخلّف لنا مقداراً من المال فصرفناه في أيام يسيرة ، وبقينا في حاجة وحيرة ، فقالت لي والدتي وكنتُ يومئذ صغيراً لم أبلغ الحلم : قَدْ أضرّت بنا الحاجة فمالك لا تأتي موسى بن جعفر وهو من صفاته كذا وكذا ، فذكرت له حالنا وعرّفته بأبيك وسفره فعسى أن يرقّ لك فيعطيك نفحة من جوده تُحيي منّا من هلك . فشجّعتُ نفسي ومضيتُ المغرب فصليتُها خلفه في المسجد الجامع ، فلما فرغ من أداء المكتوبة ونوافلها قمتُ إلى محرابه فأردتُ الوصول إليه فما أمكنني ذلك لازحام الناس لديه ، وتهافتهم كالفُراش عليه ، فسبقته ووقفت بباب دان . فلما دخل قبّلت يديه ، وشرحت قصتي عليه ، فسألني عن أبي ، فعرّفته به وبنسبي ، فقال سيصلك المقدور ، وعلى اللّه تيسير الأمور ، ويبعث لنا ولك من إحسانه ، فامضِ على أمانه . ثم ودّعني ودخل الحرم ، وقد أزاح عنّي جميع ما بقلبي من الغمّ .

فلما كان الصباح دخل علينا وكيله الحاج إبراهيم شريف ، ومعه خمسة (حماميل) إثنان يحملان وزنتين من الحنطة ، وإثنان يحملان وزنتين من الأرز ، والخامس يحمل دناً كبيراً في منّان من السمن . فوضعوا الجميع في وسط الدار وناداني الحاج إبراهيم وقال لي : إن الشيخ يلتمس منك العذر وقد بعث معي هذه الشاميات ، ثم أخرج كيساً فيه مائة شامي ، ثم ودّعني ومضى . فناديتُ والدتي وأهلي فلمّا اطّلعوا على نوال الشيخ شهقوا

شهقة صعقوا فيها الى اللّه بالدعاء للشيخ موسى . فكان مجموع ما بعثه إليّ (قده) في تلك الدفعة على صغر سنّي وعظم قحط السنة مقدار ما يساوي ألفي قران في حساب هذا الزمان .

ثم ترقرقت عيناه بالدموع وقال : هكذا أدركنا علماءً وأئمة ، والآن دفعنا الدهر إلى قوم لا يعطفون على الصغير ، ولا يرحمون الفاني الكبير ، حتى آل الأمر إلى أني سمعت عند بعض العلماء الرؤساء في هذه الأيام ، حقوقاً للسادة الكرام ، فمضيتُ إليه وأنا على ما ترى من الكبر والشيبة ، والوقار والهيبة ، وقد قاربت المائة فشرحت له حالي ، وما ركبني من الديون والبؤس وكثرة عيالي ، وكثرتْ لديه شكواي ومقالي ، فوعدني وودّعني فخرجت منه وجاءني بعد أيام خادم له مع (مَنْكنَتَين) عبارة عن شاميين ، فقلت له : أرجع إليه وقل له فليسدّ خلّته ، فلا حاجة لي بعطائه ، فأخذها الخادم ، ولم يعتنِ بشيء أبداً .

ثم أخذ يشرح لي أحوال علماء ذلك الزمان وأياديهم ، وتغير هذا الزمان على الفقراء والسادة ، ووقعه فيهم ، وكيف أن الشيخ علي لجل الشيخ يعتني به ويشفق عليه ، وكيف تنكّر الدهر له بعدهم وجلب شره إليه . فما زال يذكر أحوالهم إلى أن امتلأت بالدموع عيناي ، وانعدمت قواي ، أجارنا اللّه من سوء الخاتمة ، وجعلنا في جنّة عاصمة .

وأمّا جلالةُ قدرهِ ورئاسته وفخرُه ، ونفوذ نهيه وأمره ، على جميع الأنام ، خصوصاً الأمراء والحُكّام ، فيكفيك منها الحكايات المتقدمة ، المشهورة المُسلّمَة ، فإنه ملك الدنيا غرباً وشرقاً ، واعتقد أهلها به أنّهُ الأمام حقاً ، حتى سمعت من جماعة منهم عمّي العباس (سلّمه اللّه) أنّهُ (قده) كان يقول مراراً لأصحابه : قَدْ قبضتُ على جميع دنياكم هذه بيدي اليسرى وقد بقيت اليُمنى خالية ، فلو كانت دنيا أعظم من هذه لقبضتها بيمناي . فقِيلَ له يوماً : وأين الآخرة؟

فقال : تلك قَبَضَتْ عليّ!!

وسمعتُ كثيراً أن داود پاشا لمّا تمهّدت له الأمور ببغداد إدّعى السلطنة فيها ، وعصى على الدولة العثمانية ، وضرب السكّة باسمه ، وأطاعته أغلب الأمصار ، فملك من باب البحر الى أواخر السليمانية والأكراد ، فكان يبعث إلى الأطراف ، ويأخذ ما شاء من أهلها ، ويجعلهم عسكراً وجنداً له . فبعث مرات إلى النجف بعض قواده والشيخ يدفعهم عن ذلك . فدفع مرة بعض أقربائه المعروفين بالبأس والأقدام فأتى النجف ، وجعل يقبض على كُلّ من وجده في الطرق ففزعت الناس إلى الشيخ فبعث إليه ؛ فجاءه مع ملا مُحَمَّد حاكم النجف ، فقال له : أمَا يخشى داود أن أخسف به بغداد داره ، وأرفعها عليه حجارة حجارة ،

فارتعش القائد وقال : نعوذ بالله من سخطك . ثم أمر بأطلاق من قبض عليه وخرج . فقال له ملا مُحَمَّد : مالك فزعتَ هذا الفزع من (طَلَبة) فقير ليس له إلاّ نفسه ، فقال : صه ، والله أنا أعْرَفُ منكَ ببغداد وبه ، إنه والله لو شاء لفعل .

وكان داود پاشا على ما عرفت من سلطنته يكتب في مكاتيبه الى الشيخ موسى : «قبلتي ومُصلاي ، وقدوتي ومولاي ، أطال الله بقاءك ، وجعلني فداءك» . كما وُجِدَ بخطه .

آثار الشيخ موسى

وأمّا آثاره فكثيرة :

منها : سور النجف الموجود الى الآن فأنّه أكمله بعد أن بنى منه جُملةً أبوه . ولما تُوفي ، راجعَ الشيخ موسى (أمين الدولة) ، فحَوّلَ له مائة ألف تومان فصرف منها خمسين ، وبقي الباقي حتى جاء أمين الدولة بعد فتح علي شاه الى العتبات معزولاً محجّراً على أمواله والقصة طويلة ، فأعطاه الشيخ تلك الأموال لحاجته إليها .

ومن آثاره : المسجد الكبير المحاذي لمقبرة الشيخ الكبير ومدرسته ، وهو اليوم من المساجد المعمورة المعروفة ، وقد أضاف إليه أخوه الشيخ علي داراً كبيرة .

ومن آثاره : الدور المشتملة على خمسة بيوت الواقعة قريباً من المسجد والمدرسة ، وذلك أن الشيخ جعفر بنى داراً صغيرة على شارع الطريق العام لبحثه وكتبه ومطالعته وعبادته ، وكان أولاده في دار خربة ضيقة ، ثم سار الشيخ في الأثناء إلى العجم فحوّل لولده الأكبر أموالاً غزيرة فبنى بها الدار الكبيرة التي وراء الصغيرة التي بناها أبوه وجعلها داخلة لدار أبيه الصغيرة . فلما جاء الشيخ الكبير وعلم بما صنع ابنه جعل يعاتبه ويقول له : ألم يكن بذله أولى وأبقى لك ، فقال له : يا أبه ألم تشهد باجتهادي ، فقال : نعم ، فقال : إنَّ اجتهادي أدّى إلى هذا الآن ، عزّنا اليوم عزّ للشريعة ، فقال له الشيخ : إذن نِعمَ ما صنعت ، ولكني لا أدخلها حتى تملكنيها . فملّكها له ، فقال : لا أدخلها حتى أوقفهَا قُربَةً إلى الله تعالى ، ثم أوقفها على النهج الخاص المذكور في وقفيّته لها . ثم لمّا دخلها ابتهج بحُسْنِها وتشييدها لأن الشيخ موسى بعث على أساتيذ العمال من العجم فعَمّروها على هيئة عجيبة ، وترتيب غريب وجعلوا فيها حماماً كامل اللوازم وداراً للطبخ ولوازمه ، وأخرى للخبز و(التنّور) ومقدماته من المطاحن والمدار ، وداراً (برّانية) بحَذاء دار أبيه الصغيرة فيها (طنبيّة) كبيرة مرتفعة تشتمل على ثلاثين ذراعاً طولاً وعشرةً عرضاً ، وفي الدار الداخلية التي نحن اليوم

فيها من منن الله المنان ما يزيد على العشرين (حِجْرَة) كُلّ (حِجْرة) قدر دار من دور هذا الزمان ، وبناء (حِجَرِها) على هيئة بناء (حِجر) الصحن الشريف في الأرتفاع والعلوّ والأحكام والطول والعرض . وأمّا أساسُها فمن بنائها إلى الآن لم يتضعضع منها شئ . وقد مضى لها مائة وعشرون سنة لأنّ تاريخ الدار الصغيرة :

«لا زال بيتُك جعفرٌ معموراً»[1]

وهي بعدها بسنتين . وفي هذه الدار من المكامن والخفايا فوقاً وتحتاً ما لا يهتدي الجنّ إليها .

فمن أسفلها سرداب الوهابي الذي مرت الأشارة إليه ، ومن أعلاها حجرتان كبيرتان في طرفيها ، وفي كُلّ حِجرة حجرةٌ صغيرة تسمى اليوم (بالصُنْدُقْخانة) ، وفي أعلاها حجرة كبيرة يُصعد إليها من سقف تلك (الصُنْدُقْخانة) بطريقٍ خاص لا يعرفه إلاّ من يعلمه ، كُلّ هذا لأجل ما كان في النجف من الخوف والغارات والنهب من الأعراب وغيرهم . وأمّا الآن فبحمد الله لا حاجة الى هذه الأشياء وأشباهها بواسطة الدولة العليّة العُثمانية ، والأيرانية .

ثم أنّ الشيخ الأكبر بعد أنْ دخلها وابتهج بها جعل يدور فيها ، ويكبِّرُ الله ويقدسه وبيده إناء فيه ماء وهو يقرأ عليه بعض الآيات والأدعية ويرشه على جدران الدار . فسئل عن ذلك فقال : أرجو بهذا أن لا تخلو دوري هذه من عالم يهدي الى الحق .

أقول : وقد حقّق الله رجاء الشيخ فأن هذه البقاع المقدسة والأمكنة ما خليت من عَلم يُرجعُ إليه منذ مائة سنة . ونحن نرجو أن يديم ذلك مدى الأبد ، بمحمد وآل مُحَمّد (ص) .

وسمعتُ من مشايخنا (أدام الله وجودهم) أنّ الشيخ رأى في المنام وهو بمكة المشرفة أنّهُ جالس تحت ميزاب الذهب يبول وتطير من بوله جذواتُ نور فتصعد وتعلو في السماء ، ثم تخمد وتهوي ، وتصعد قطرة أخرى فتستحيل جذوة نور مكانها ، وهكذا . فانتبه الشيخ مرعوباً وقصّ ، رؤياه على شريف مكة فقال : لا يزال من ذُريتك عَلَمٌ يقوم مقامك .

وفي «قصص العلماء» ما هذا نصه : «ومن كرامات الشيخ أنّه دعا الله أن يهبَ أولاده الفقاهة جيلاً بعد جيل . وقد مضى حتى الآن من يوم وفاته ستون عاماً وأولاده ، وأحفاده فقهاء بالفطرة مشغولين بالتدريس ، وكأنّ الفقه متوارثٌ عندهم» .

(١) تأريخ بناء الدار الصغيرة هو سنة ١٢١١هـ / ١٨٠٧م . وبناء الدار الكبيرة سنة ١٢١٣هـ / ١٨٠٩م . فيكون تأريخ بناء الدار الكبيرة حتى زمن تأليف الكتاب يقارب القرن من الزمن .

ولما بنى الشيخ موسى هذه الدار اتصلت له المدائح والتهاني . وسيأتي كثير من ذلك في محله وقد أرّخت الشعراء ذلك البناء الذي بناه الشيخ . فمنه ما قاله السيد الشاعر ، الأديب الماهر ، المرحوم السيد باقر إبن المرحوم المبرور سيد إبراهيم الكاظمي ، وكان من فحول الشعراء في ذلك الزمان ، الحائز مضمار الآداب والعلوم وقصب الرهان . وستأتي نبذة من شعره .

فمن ذلك قوله مؤرخاً بناء دار الشيخ (ره) :

تهنَّ واسعدْ أبا موسى بدارِ عُلىً	تحكي السما بمصابيح تزيّنُها
طابتْ مقاماً لناحيها فأرّخْها	(عمِّرتَ للمجدِ داراً طاب مسكنُها)

وله فيها أيضاً :

قَدْ عمَّر الشيخُ المُقدّسُ (جعفرٌ)	بيتاً به إزداد الوفودُ سرورا
واستقبلوهُ بالدعاء ، وأرّخوا	(لا زالَ بيتُك جعفرٌ معمورا)

وهذا دعاء للبرية شامل ، (فليرحم اللّه عبداً قال آميناً) .

رسالة الشيخ موسى إلى فتح علي شاه

وكان الشيخ موسى رحمه اللّه قَدْ ضمّ إلى نور علمه الساطع ، سنا أدب بارع ، وزيّن مشكاة فهمه الذكي ، بلآلىء آداب أزهار الروض الذكي[1] . فمن بعض ما عثرتُ عليه مما يدل على ذلك كتاب كتبه إلى الشاه فتح علي يعزّيه بالشيخ الأكبر ، ويطعن في آخره بميرزا مُحَمّد الأخباري لمّا أظهر من الشماتة ما أظهر ، وهو :

إنَّ غاية ما لهجتْ به ألسن الصحف والرسائل ، ونهاية ما تبجحتْ به خواطر أرباب الوسائل ، وأبهى ما ترقمهُ الأقلام بعنوان المعاني ، وأشهى ما يترجمه لسان الأملاء عن المعاني ، وأصدق ما حدثت به رواة آثار التسليمات السليمة ، وأوثق ما أعربت عنه دفاتر التحيات المستقيمة ، مقبول فقرات لا تمجّها الأسماع ، ومدلول عبارات لا تنبو منها الطباع ، وبليغ كلام تستنير نجوم الدعاء في سماء بلاغته ، وبديع سلام تستبين أنوار الثناء من مصباح براعته ، يسعد ذلك بالتوجّه إلى حضرة الماجد الذائد ، عن بيت ذمار الشرف بلسانه وسنانه ، وهاتك أستار العلم بثاقب بنان فكره وبيانه ، الذي تسامت أبكار مكارمه على عود

(١) الروض الذكي : العاطر .

المكارم وأبكارها ، وتعاظمت عظائم فواضله في عيون الأعاظم وكبارها ، المتفرّد بغزارة علمه ، وسعة حلمه ، وكمال زهده ، وورعه ورشده ، وجلال منزلته ، وجمال سيرته ، وطاعة أوامره ، وامتثال زواجره ، شعراً :

وتُغنيكَ عن مدحي شواهدُ فضلهِ وعَنْ ذكـرهِ آثار فـضل لـه تـهـدى

المولى الأعظم ، والعماد الأقوم ، لا زالت طلائع الأقبال عليه مقبله ، ومحاسن الأيام بوجوده متصلة ، بمحمد (ص) الأمين ، وآله الميامين .

أمّا بعد ، فأنّا نحمد الله الأحد ، الذي تقصر الأوهام عن تصوّر ذاته الصمد ، الذي تعجز الأفهام دون تحديد صفاته ، حمد متذلل لعظمته ، مفتقر إلى رحمته ، ونشكره شكر مفوّض إليه أمره ، مخلص له علانيته وسره ، على ما أبلانا وإياكم بحسن بلائه ، ومحتوم قضائه ، ونثني عليه بما أصابنا من دهشة هذه الداهية ، التي أصمّت كُلّ أذن واعية ، وبغتة هذه الرزية التي هانت لديها كُلّ بليّة ، فأنها التي تهزم مواكب الصبر ، وتثلم جوانب الصدر ، (وتلك وبيت الله قاصمةُ الظّهر) ، فتباً للدهر غادرنا فغادر منازل العلم موحشات وأجياده عواطل ، ورمانا بسهم أرزائه فلم يخط المقاتل ، وأدمى بوفاة حجة الله جرحاً لا تلتحم فطوره ، وأمات بموته قلباً لا يرجى نشوره ، فيا لها من رزيّة أوجبت على كُلّ منتم للدين أن يبكيه ، بدموع ساجمة ، ويرثيه بنفس واجمة ، وشوهاً لها من قارعة فتحت للاحزان باباً ، وضربت دون السلوان حجاباً ، وعمت وخصّت ، فلذا كان جناب (الملك) المؤيد جديراً بالتعزية ، وحقيقاً بالتسلية ، حيث أنّهُ في هذا المصاب ، من المتميّزين بشدة الوجد والأكتئاب ، لشدة اهتمامه بأمر الدين ، وإخلاصه لأركان شريعة سيد المرسلين ، فأحسن الله له العزاء ، وإن عزّ في هذا الخطب مطلبه ، وألهمه الصبر ، وإن انقطع في هذا الرزء سببه .

وحضرة (الملك) أولى من ينبذ الجزع وراء ظهره ، ويعتصم بعروة صبره ، ويستلزم لمحتوم قضاء الله وأمره ، لأنه الخبير بأن الانسان وإن تناهى بالوجد فمفزعه إلى الاستسلام والانقياد إلى ما تجري به حوادث الأيام ، وإن الجزع لا يعقب رشداً ، ولا يكسب حمداً ، لمّا أودعه الله من العلم المبين ، والرأي المتين ، ومعرفة مجاري الأقدار ، واختلاف أحوال الليل والنهار . رزقنا الله وإيّاكم لذة الشكر ، ووفّانا نصيبنا وإيّاكم من جميل الصبر .

هذا والله تعالى تطوّل وتفضل على مقتضى عادة إحسانه وامتنانه وأبى تعالى إلاّ أن يسبغ عليّ نعمه ، ولا يسلبني رحمته وكرمه ، فقضى على تلك المحن أن تهدأ شقاشقها ،

وتفتر صواعقها ، وتخمد نيرانها ، وتتهدّ أركانها ، فهيهات أن يفلّ (العدوّ) جانب صبري بغيلته ، أو يذلّ عزّة نفسي بحيلته ، أو تزعزعني رياح سبابه وإن كانت قاصفة ، أو تفزعني بروقُ شماتته وإنْ كانت خاطفة ، أو ينفر سرب عزمي بأيده ، أو ينغّص عليّ عيشي بكيده ، ولا واللّه لا أزال عن مقام التثبّت إنْ حالَ أمْر ، أو أزول عن مقام التجلّد إذا غالَ دهر ، كُلّ ذلك بأقبال سعود من أن مسّ العود أوراق ذابله ، وإن لحظ النجم طَلْعَ آفله ، قطب دائرة الجلال ، وسمط قلادة الكمال ، من لو تجسّم العقل لقبّل قدمه ، ولو تكلم الفلك لمدح قلمه ، المنشور عدله ، المشهور فضله ، معزّ الدين ، وأمان المسلمين ، الشاهنشاه ، المؤيد بالنصر فتح علي شاه :

مَلِكٌ عنتْ صيدُ الملوكِ لبأسه ... وشأى به (كسرى) مفاخر (قيصرِ)
مَلَكُ الرعايا والملوكُ بعزمه ... تنحطُّ عنها عزمةُ (الأسكندرِ)
ولدتْ به أمُّ المهابةِ أوحداً ... متضمناً معنى العديد الأكثرِ
فإذا وطأتَ جنابه قدّسته ... فكأنّما تمشي به في مشعرِ
وأغرّ أروع ملء سمع المنتقى ... حُرُّ الكلام وملء عينِ المُبْصِرِ
صفْ ما تشا منه سوى عزماته ... فهناكَ جذورةُ مارج متسعّرِ
تعدى علاهُ دياره فَلَها به ... في مرتقى (زُحلٍ) جمال (المُشتري)

لا زال مؤيداًمنصوراً ، وعدوّه مدى الأبد مقهوراً ، ولا برح ناكباً عن الدنيا غرورها ، ومائلاً الى تحصيل الفوز بنعيم الآخرة وقصورها ، باذلاً فيما عند اللّه رغبته ، عاقلاً على طلب الخيرات همّته ، ناشراً ثوب العدل والأيمان في الرعية ، سائراً في المُلْك بسيرة أولياء اللّه المرضية ، عالماً أن الدنيا وإن امتد حبلها فهي فانية ، وأن الآخرة وإن بعد أجلها فهي آتية ، بصيراً بأعقاب الأمور ، خبيراً بمآل الدهور ، فلا تغرّنه زهرة الحياة الدنيا ، علماً منه أن وراءه موقفاً لسؤال ، عن جوابه الفصيح يعيا ، فصار ممن يحاسب نفسه كُلّ يوم بنفسه ، قبل نزول رمسه ، ويفكر في عاقبة أمره ، قبل حلول قبره ، فاعتبروا يا أولي الأبصار ، قبل أن يعز عليكم الاعتبار ، ولا تقارفوا الظلم فيما ملكت أيديكم من الأمم ، فأنها واللّه الذنوب التي تُغيّر النِعم ، وترفعوا القسم ، وجانبوا الشقاء ، ومجالسة الأشقياء ، وتشييد أمر (السَحرة) أولي الافتراء ، فتلك واللّه الذنوب التي تحبس غيث السماء ، وتردّ الدعاء ، واعتصموا بحبل من اللّه وعظّموا أولياءه ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان وحزبه الغاوين الرافعين لواءه ، عصمنا

اللّه وإياكم من ذلك، وأعاننا على التحرّز من الوقوع بتلك المهالك.

ولا أدري الى أين إنتهى بالمحدّث النيشابوري الأمر، وفي أيّ أصقاع الأرض قَدْ استقرّ، فقد بلغتنا عنه حكايات وهنّات، واللّه وليّ الغيب في الأرض والسماوات. ولكني بحمد اللّه وسلامة (الملك) لا يزعجني تنمّر كاشح، ولا يجرح جانب شرفي قدح قادح، لِما عليه جناب (الشاه) من فرط قديم الشفقة، وكمال سابق المودّة والمحبّة، نسأل اللّه أن يقرن ذلك بدوام الدولة وتمام النعمة، وأن يجعل دعائم الدين محروسة بنظره، ومعالم الدنيا مسوسة بجميل خطره، والسلام.

جواب فتح علي شاه على رسالة الشيخ موسى

فأجابه الشاه بكتاب يقول فيه:

«بسم اللّه الرحمن الرحيم، والحمد للّه الملك العليم، مالك الملوك، علام الغيوب، لا يقبض ملك إلاّ بسلطانه، ولا يبسط علم إلاّ ببرهانه، والسلام بكماله، على مُحَمَّد (ص) وآله، وخلفائهم القائمين مقامهم، سيما مالك ملوك الولاية والوصاية، وعالم علوم البداية والنهاية، (شيخنا) المنتقل إلى رحمة ربه، المشتاق إلى جواره وقربه.

وبعد: فقد أتى أيُّها الشيخ الجليل، والحَبر النبيل، (متّع اللّه المسلمين ببقائك، وشرّفنا بلقائك)، منك كتابٌ كاشف حجاب الأرتياب، عن وجوه الألباب، حاوياً جملةً من الحكم والآداب، وأتيت بما لديك، وأدّيت ما عليك، من المواعظ والنصيحة، عن أخبار صحيحة بآثار صريحة، وعلى اللّه أن يوفّيك أجراً جميلاً، ويزيدك فضلاً جزيلاً، ونحن نرجو من اللّه المستعان أن يوفقنا لطاعته، وقضاء ما يجب علينا من العمل بتلك النصائح والحكم ويقربنا إلى ما يحبّه، ويبعدنا مما يبغضه، ويعصمنا من الذنوب، ويحفظنا من الخطوب، ويغيّر ما تغيّر النعم، ويرفع ما ترفع القسم، ويقطع ما يقطع الرجاء، ويرد ما تردّ الدعاء، ويحبس ما تحبس غيث السماء، وينصرنا من السماء بنصرته، ويُمَكِّننا في الأرض بقوته، «ولينصرنّ اللّه من ينصره إن اللّه لقويّ عزيز»، ونرجوه أن يبقيك مناراً للدين، وخلفاً للماضين، ويحيي بك كما أحيا بأبيك شريعة سيد المرسلين، ولك المنّة علينا التي أصبحت علينا كالغوادي مفيضة، وأمطار النصح منها مستفيضة، تواترت منها ريح القدس، وانتشرت بها فوائح الأنس، ضربتَ بيدك ينابيع المطالب، حتى صارت لها ملاعب. وتا اللّه لقد شوقّتنا إليك شوق ظمآن أشرف على الماء الى الورود، وشفيت غليلنا بأراقتك ريّق الأغتذاء في كأس العقود.

وأمّا العلامة الخبير، والنحرير البصير، محقق الدقائق، مدقق الحقائق، الحاج ميرزا مُحَمَّد (سلّمه اللّه) فهو ذاك نستفيض منه، ونستعين به، عمَّنْ سواك.

وأمّا عنك، فأنْ كان فكأقتران الفرقدين، وإفادة الخبر الواحد غير الأثنين، والسلام».

وهذا يدلّ على مكانة الرجل عند السلطان وحظوته لديه، ولكن اللّه أقوى بطشاً وأشد تنكيلاً، فما أغنى عنه سلطانه ولا ماله، يوم نزلت عليه آجاله، وما لبث إلاّ أن قال ما أغنى عني ماليه، هلك عني سلطانيه. وليجدنّ وشيكاً قوله تعالى: «خذوه فغلّوه، ثم الجحيم صلّوه».

ما قيل في الشيخ موسى، وأولاده من الشعر

وأمّا ما قيل في موسى بن جعفر من المدائح والتهاني فهي أكثر من أن تحصر، ولكنا نذكر نبذة تشتمل على بابين:

الأول: في مدائحه وتهانيه في أعراسه وأعراس بنيه.

والثاني: في مراثي أولاده ومراثيه.

أمّا الأول فيستدعي نُبذةً وهي: أني سمعتُ جملة من الثقات أن الشيخ موسى لم يتزوج حتى ارتقى مراتب الأجتهاد، وأقرّ له بذلك أغلب العلماء الأمجاد، ممن كان يحضر عليهم كالعلامة الطبطبائي وأبيه، وغيرهم من معاصريه. فعلى هذا يكون الشيخ قَدْ اجتهد وعمره سبعة عشر سنة لأن وفاته سنة ١٢٤١ وعمره قَدْ ناهز الستين، وكان أول زواجه ببنت (الوسواسي) وذلك في سنة ١١٩٧ كما تقدم في قصيدة النحوي وتأريخها، وما سيأتي من غيرها.

فالحاصل من ملاحظة المجموع أن ولادته في الثمانين[1]، واجتهاده وزواجه بعد سبعة عشر سنة[2]، ووفاته بعد أربعة وأربعين[3] الموافقة لسنة الواحد والأربعين بعد الألف والمائتين كما سيأتي (في تواريخ وفاته) في رثائه.

وهذا أمر وإن كان الناظر إليه من أهل هذا الزمان يراه من أعجب الأشياء لضعف الهمم، وقلة العزائم إلاّ أنّهُ غير عجيب بالنسبة إلى أصفياء اللّه وخلصائه. فقد قال الفاضل

(١) ١١٨٠هـ/ ١٧٦٦م.
(٢) أي سنة ١١٩٧هـ/١٧٨٣م.
(٣) سنة ١٢٤١هـ/١٨٢٦م.

الهندي[1] في «كشف اللثام» عند شرح ديباجة القواعد بعد نقل كلام فخر المحققين[2] مضمونه : أني لمّا اشتغلت على والدي بقراءة المعقول والمنقول إلتمستُ منه أن يصنع كتاباً جامعاً لقواعد الفقه وحقائقه ، فصنع القواعد . قال الفاضل : وقد يستبعد قراءته للمعقول والمنقول قبل تصنيف الكتاب فأنّ عمره على ما يظهر من تاريخ ولادته وتصنيف الكتاب إكماله أحد عشر سنة ، ولكن الفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء ، وقد فرغت من المعقول والمنقول ولم أكمل ثلاثة عشر سنة ، (إنتهى ملخصاً) .

ومثل هذا ينقل عن الشيخ أسد اللّه أيضاً ، وأظن ذلك في «مقابيسه» ولكن هذا الأمر في زماننا كاد أن يكون محالاً فإن نقطة العلم وسّعَها الجاهلون حتى صار الرجل يشتغل حتى يبلغ الأربعين والخمسين ، ولم يبلغ تلك القوة .

وقد رأيتُ على قرآن من موقوفات الشيخ الكبير وهو من فتح علي شاه ، وقد قوّم هامشة بما يزيد على ثلاثة آلاف (قِران) مكتوباً على ظهره بخط الشيخ الكبير صورة وقفيته ، وهي : «الحمد للّه الواقف على السرائر ، المطلّع على الضمائر ، والصلاة على مُحَمَّد وآله ، أشرف الأوائل والأواخر ، وبعد قَدْ أوقفت هذا الكتاب (القرآن المجيد) على ولدي الطاهر المطهر ، والعلامة الأكبر ، موسى بن جعفر ، أطال اللّه بقاءه ، وجعلني فداءه . . . الخ» ، وتأريخ الكتابة سنة ١١٩٩ . فهي تدل على أن في ذلك الوقت كان بالمرتبة القصوى من الفضيلة .

ولنرجع إلى ما كُنّا بصدده ، فنقول إنّ الشيخ لّما تزوج (بالوسواسية) ـ وهم عشيرة كانوا من مشتغلي أهل النجف ، ومن أعاظم تجّار بغداد ـ ، مدح بمدائح كثيرة منها ما تقدم . ومنها ما قاله بعض شعراء بني قفطان يهنئ الشيخ الأكبر أيضاً بذلك حيث قال :

سرورُ البرايا في سرورِكَ يا (موسى) ... وأفراحهم ما دمتَ باللّه محروسا
وعيشهمُ ما دمتَ بالعيش رافلاً ... وصفوهمُ ما دمتَ بالصفو مغموسا
وسرْ بالهنا حلو الجَنى منجح المُنى ... محلل نعمى لم يَشِبْ صفوُها بوسا
بدا طائر الأقبال من كُلّ وجهة ... يُغرّدُ تسبيحاً ويسجعُ تقديسا
أضاء لكم بدرُ السّعود ببرجه ... وذا طالعُ الحُسّاد أصبح منحوسا
تهنَّ بأفراحِ جَلبنَ لك الهنا ... وصيّرنَ وحشيَّ المُنى بك مأنوسا

(١) الفاضل الهندي هو الشيخ مُحَمَّد بن الحسن الأصفهاني المُتوفى سنة ١١٣٧هـ/ ١٧٢٥م .
(٢) فخر المُحققين هو ابن العلامة الحلّي تُوفي سنة ٧٧١هـ/ ١٣٧٠م ، قيلَ إنّه إجتهدَ قبل بلوغه الحُلم .

أعدَّ لكم ما تشتهي النفسُ حا ضرا ... فأصبحت الدنيا لديكم فراديسا
تغـذّيتَ علمـاً وارتديتَ معـارفـاً ... فطبْ فيه مطعوماً وطُلْ فيه ملبوسا
أخالك يا (موسى) سليمانَ عصرنا ... وإنْ كان عرشاً خلتُ عرشك بلقيسا
عـيـونٌ به تجلى وقلب له صحـا ... وداءٌ به يَبـرى وجـرحٌ بهِ يُوْسى
بَعثتَ لأمـواتِ القلوب حيـاتَهـا ... كأنَّك يا (موسى) بإحيائها (عيسى)
ومُـذْ أُطْلقتْ فـينا أعنَّةُ فضلِكمْ ... جعلنا علينا شارح المدح محبوسا
إذا كنتَ تُدعى اليوم (موسى بن جعفر) ... فحسبك يا (موسى) به اليوم ناموسا
لذا الشـرف العـالي أتاكَ مـهنيـاً ... على قدر سنٍّ في العلى جئتَ يا (موسى)
فيـا لفتىً قَدْ حيَّرَ الفكرَ وصفُهُ ... فلو كرَّ فيه الفكرُ لانصاعَ منكوسا
فَلَمْ أرَ عـقـلاً لم يَهِمْ في وداده ... ولم أرَ وداً لم يكنْ فيه مغروسا
خـدينُ العُلى زينُ الملا طاهرُ الأُلى ... عظيمُ الرجا لا يرجعُ الضيف ميؤوسا
رئيسُ منىً ما وجَّهَ اللطف لامرئٍ ... تجده رئيساً بعدما كان مرؤوسا
يفيدُ (صحاح) الدرّ (قاموس) علمه ... فينسيك هاتيك (الصحاح) القواميسا
يسـيـرُ بتـدريس العلوم نهـارَهُ ... ويسرى دجاهُ بالتهجد تغليسا
أخـو قـوة لم يُعْطِهـا اللّه غـيـرَهُ ... يداً ولسـاناً درَّسَ الناس تدريسـا
فكم مُـشْكل للعلم جلَّ بيـانُهُ ... وكم أسد إنْ صالَ تلقاهُ مفروسا
بذاك شـأى الأفـلاكَ قَـدراً وقُـدْرةً ... ولم يتـخـذْ إلاّ المجرةَ عـرّيسـا
إذا ما جرى في العلم فالبحرُ (جعفرٌ) ... و(جعفرُ) قاموس يمدّ القواميسا
فـيـالكَ فـضـلاً آخـراً وهو أولٌ ... وتُزجي إلى مغنى مغانمه العيسا
فـيـا أيُّها الشيخُ المُقدَّسُ خيـمُهُ ... تهنَ بموسى زادكَ اللّه تقـديسـا
فـمـا هو إلاّ فـرحـةُ الناسِ كُلِّهمْ ... فلا زال محفوظاً وما انفكَّ محروسا
ومُـذْ جاء (فرداً) قلتُ فيـه مؤرخاً ... (بحسبك أنْ أُوتيتَ سؤلَكَ يا موسى)

١١٩٧هـ

(يسقط واحد ويبقى الباقي هو التاريخ مع عدّ الواو في سؤلك همزة كما لا يخفى).

وأعقبتْ له زوجته (الوسواسية) ولدين ، وبنتاً .

الأول : **الشيخ علي** وكان على ما نُقِلَ من أعاجيب الزمان بالفهم والحفظ وشدة الذكاء مع صغره ، واجتهد في زمان أبيه وهو مراهق . وكان أبوه يُغالي فيه ، كما كان جده يُغالي بأبيه ، وزوّجه في زمانه . فقال السيد البغدادي السيد حسن الأصمّ (جد السادة المشهورين ببيت العطار في بغداد ، مدّ الله بسلسلتهم إلى يوم التناد) ، مهنئاً جناب الشيخ ، ومؤرخاً عام تزويج ولده المذكور :

بشرى فربعُ المعالي باتَ مأنوساً ... وكاد بالأُنس أنْ يسمو الفراديسا
والسعدُ رايتُهُ في الجو قَدْ خفقتْ ... وانجاب ما كان في الآفاق منحوسا
ودوحةُ المجد قَدْ ماست غداة شدا ... طيرُ التهاني بها يحكي الطواويسا
وقَيْنَةُ الأُنسِ قَدْ أضحتْ لها نَغَمٌ ... تطابقَ النايُ فيها والنواقيسا
وخندريسُ الهنا راقتْ لشاربها ... في يوم عرس سليل المُجتبى (موسى)
(موسى بن جعفر) فرقانُ الهداية مَنْ ... أضحى لعمر أبي بالفضلِ قاموسا
(مصباح) (منهاج) (مفتاح الفلاح) ومَنْ ... بدُرِّ تحريرهِ زانَ القراطيسا
فتىً سما ذروة العلياء مُنذُ نشا ... مؤسساً لبناء العلم تأسيسا
فكم أماتَ من الجهلِ الفصيح وكَمْ ... أحيا من الفضلِ ما قَدْ كانَ مرموسا
وكم بنى لبني الآمال بيتَ ندى ... يُطاولُ القمرَ الأعلى و(برجيسا)(1)
ما أمّهُ أبداً راجٍ يؤملُهُ ... إلاّ وآبَ بما يرجوهُ مأنوسا
غيثٌ ولكنْ بلا رعد أناملُهُ ... تهمى ولمّا يَعُدْ راجيهِ ميؤوسا
ليثٌ ولكنّهُ لم يتخذْ أبداً ... غيرَ المحاريب إنْ جنَّ الدُّجى خِيسا(2)
لا يرهب الشوس في يوم الوغى أبداً ... والليثُ يوم الوغى لا يرهب الشوسا

الى أن قال :

(عليٌّ) ، إرْقَ على عرشِ العلاء وطُلْ ... فخراً بعرسٍ حكى بالحُسنِ (بلقيسا)
من الأُلى جاءَ في القُرآن مدحهمُ ... وقدّسوا من مساوي الرجس تقديسا

---

(1) البرجيس : إسمٌ لأحد الكواكب .
(2) الخِيس : موضع الأسد .

واسحبْ ذيولَ التهاني ما حييتَ ولا	برحَت من أعينِ الحُسّادِ محروسا
ولتَهنَ أعمامك الغُرّ الأُلى أبداً	ما داخلوا بودادِ الفضلِ تدليسا
(مُحَمَّدٌ) (وعليٌّ) الطهر، و(الحسنُ) الـ	ـزكي لاسيَّما روحُ العُلى (عيسى)
ناهيكَ عرساً به تَمَّ السرورُ لنا	وأذهبَ اللّه فيه الهَمَّ والبُوسا
قَدْ عانقتْ ظبيةُ القنّاصِ ليثَ شرىً	لم يتخذْ غيرَ غابِ الفخرِ عرّيسا
وقارنَ البدرُ شمسَ المجدِ يالك منْ	قرآن سَعْدٍ جلا عنا الحناديسا
لا زلتَ (موسى) لعُمرٍ لا نفادَ له	دهراً وفي غمرةِ السرَّاء مغموسا
فأسعدْ بعُرسٍ لك الأقبال أرّخه	(زَوَّجتَ بدرَ الحِجى بالشمسِ يا موسى)

١٢٣٤هـ

وقال المرحوم السيد باقر بن السيد إبراهيم الكاظمي يهنئ الشيخ بعرس ولده، وقد أجاد كُلّ الأجادة، فقال:

بُشرى فقَدْ عمَّ الأنامَ بشائراً	تغريدُ طائرَ سعدنا الميمونِ
وافترَّ ثَغرُ الدهر مبتسماً وقَدْ	بتنا بعيش بالهنا مقرونِ
وزهتْ محافلُ أُنْسنا حتى غَدتْ	تحكي محافلَ جنّة وعيونِ
قَدْ قَدّرَ القمرُ المنيرُ منازلاً	للسَّعدِ لكنْ لسنَ كالعُرجونِ
ولقَدْ غدا كأسُ المسرَّةِ مُتْرَعاً	يُغني النديمَ عن ابنةِ الزرجونِ
ببناء ذي القدر العلي فتى الندى	مَنْ قَدْ غدا بالفضلِ خيرَ خدينِ
هو نجل صدر العلم تاج جُمانه	مُوْسَاهُ مُظْهِر سرِّه المخزونِ
هو روضةُ الأدبِ التي أفنانُها	غنَّتْ حمائم دوحها بفنونِ
قاموس فضل لم يَزلْ يغني الورى	بصحاح جوهر درّه المكنونِ
كشّاف غاشية الهموم بواضح	ينجابُ عنه ظلامُ كُلِّ دُجونِ
مصباح مشكاةِ العلوم وكوكب الـ	ـرشدِ الذي أغنى عن التبيينِ
مقباس أنوار المسالك من قذى	تحريره منهاج كُلّ يقينِ
(تنقيح) أحكام (الشرائع) (منتهى)	أمل الوصول إلى أصول الدينِ
ما عالم فضلاً وإن بلغ المدى	في بحره إلاّ كنقطة نُونِ

بدرٌ يودُّ البــدرُ بُرجَ سعـوده لو ساعـدتْهُ أزمّـةُ التكوينِ
للّه أيّةُ ظبيـة قَـدْ عـانقتْ في أجمـةِ العليـاء ليثَ عـرينِ
وقِـرانُ سَعـد قَـدْ جـلا ليلَ العَنا عنّـا بنـور مِنْ سناهُ مُـبينِ
فـتـهنَّ واسـعـدْ يا (عليُّ) بدُرَّةٍ مـكنـونـة مـن لـؤلـؤٍ مـكنـونِ
فكأنّمـا زُفّتْ بيـانـاً للذي أمـسى له شَكٌّ بحُـورِ العِينِ
وأسـعـدْ بما أرّختُـهُ (أعليُّ قَـدْ سُرَّ العُلى في عرسِكَ الميمونِ)

١٢٣٣هـ

ثم أن الشيخ بقي بعد زواجه سنتين، وانتقل إلى رحمة اللّه الواسعة وهو أصفى من المُدام، وأطهر من ماء الغمام، وهو بعد لم يبلغ الثلاثين. فقيل إنَّ أباهُ الى أن تُوفيَ كلما ذكره بكى وأُغشيَ عليه لفرط حبه له. وكان إذا ذكره يكرر قوله: «يا عليُّ يا عليُّ»، ثم يتمثل بقول القائل:

قَدْ كنتُ أرجوكَ للجُلّى لتنصُرَني فكيفَ تخذلُني في الحادثِ الجللِ

ثم يُغمى عليه.

وقال السيد باقر يؤرّخ وفاته ويرثيه وهو في الكاظم (ع)، وكان له مع المرحوم الشيخ علي مودة أكيدة. (ودُفن مع جده الشيخ خضر في الحرم المطهر بوصية منه). فقال السيد:

مـا بالُ دمـعيَ لا تُطفى به غُللي ومـا لِنَوْحِيَ لا تَشْـفَى به عللي
وللنوائب تـأتينـا على عـجلٍ كالسيلِ يأنف أنْ يأتي على مَهَلِ
للّه مـولى خـلا عَنْ كُلِّ مـثلبـةٍ سـارتْ مناقبُـهُ في الناس كالمَثَلِ
للّه بدرٌ على حـاو المحـاق به قَدْ بات أوج المعاني من سناهُ خلي
أودى فأشعلَ في الأحشاء نارَ جوى شـبّتْ لهـا شُعلٌ تعلو على شُعَلِ
يا عاذلي لا تلمني في مصيبته فأنَّ سـمعيَ لا يُصغي الى عَذلِ
كيف السبيلُ إلى نهج السُلوّ وقد قلَّ اصطباري وضاقتْ بعدَهُ سُبلي
رضـا أباهُ وصـبـراً في رزيّتـه فـالصبـرُ عند الرزايا سنّةُ الرُسُلِ
يا راكبـاً قاطعاً للبيد مَـهْـمَـهَـا يطوي الفَدافَد من سَهْلٍ إلى جبلِ
عرّجْ إذا جزتَ أعلامَ (الغريِّ) على قـبـرِ الوصيِّ مـلاذِ الخائفِ الوَجِلِ

وقفْ على مرقدٍ قَدْ ضمَّ خيرَ فتىً | به استجارَ وأعطى غايةَ السُّؤلِ
واتلُ المثاني لديهِ والكتابَ وسَلْ | له من اللّه نيلَ القصدِ والأملِ
وقُلْ له فُزتَ لَمّا أرّخوكَ (ألا | جاورتَ بابَ أميرِ المؤمنينِ علي)

١٢٣٥هـ

ولم يعقب من الولد شيئاً .

والثاني : **الشيخ مُحَمَّد حسن** عالم نبيل ، وفقيه جليل ، كان من المُبرِّزين بالفضيلة في أيام أبيه . ثم بعد أن تُوفيَ والده ارتحل إلى إصفهان ، لوفاء دين أبيه فعظُم قدره ، وانتشر ذكره ، وكبر أمره ، فأقام بها مدرِّساً معظَّماً ، وإماماً محركاً محترماً

وكل فتى يُولي الجميل مُحَبَّبٌ | وكُلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طيِّبُ

وكان من المعروفين بالهمة العالية ، والسمو الى المراتب السامية . فمما ينقل عن علوّ همته ، أن عمه الشيخ علي كان يقول إذا رآه لطفاً به وشفقة عليه : «أنا حامل همّك» ، لأنه كان يعول بعد أبيه بجميع نساء أبيه وعياله ، وكانوا قريب الثلاثين نَفْساً ، وكان على أبيه دَيْنٌ عظيم فتحمله هو . هذا كله وهو شاب لم يتجاوز الخامسة والعشرين سنة ، فيقول لعمه مجيباً له عن كلامه : يا عمّ إن كنتَ حامل همّي فأنا حامل همّك ، وهَمّ جميع العالم .

ثم عَنَّ عليه وطنه واشتاق الى أهله فارتحل متوجهاً إليهم حتى وصل إلى كرمانشاه فأجاب داعية الحمام ، واستسلم للملك العلام ، فجاؤا بجنازته الى النجف ، ودُفن مع أجداده وآبائه أولي الشرف .

ولم يُعْقبْ سوى بنت واحدة كانت تحت السيد راضي بن السيد حسن المايحچي ، فأعقبت منه ولداً تقياً نقياً ورعاً فاضلاً عالماً هو السيد عباس ، حفظه اللّه من كُلّ سوء وباس . ثم مات عنها السيد راضي ، وتزوجها الشيخ عبد الحسن إبن الشيخ راضي رحمه اللّه ، وسيأتي إن شاء اللّه تمام الخبر .

وأمّا البنت فهي (زلخة) ، وفي سنة ١٢٢٨ زوّجها بالسيد الجليل ، العالم النبيل ، سيد حسن المايحچي بن السيد مهدي ، وأخذ أخته (زمزم) له ، فقال السيد حسن الأصمّ المتقدم يهنيه بعرسه ، ويؤرخ ذاك العام المبارك ، حيث قال :

بُشرى فأنَّ شمسَ أُفق الجمالْ | زُفَّتْ الى بدرِ العُلى والكمالْ
وإنَّ بِكرَ المجدِ قَدْ أقبلتْ | مِنْ خِدْرِها تختالُ أيَّ اختيالْ

وقـــــد أديرتْ بين كُلّ الورى راحُ التـهـاني بكؤوس الوصالْ
ومنهل العيش صفا واغتدى رُواه للناهل عَـذْباً زُلالْ
وطائرُ السعدِ غدا شادياً وهزتِ الأغصانَ ريحُ الشَمالْ
وذاكَ في عرس فتى قَدْ سما بفخره أوجُ العُلا والجلالْ
(موسى) حليف الفضل مَنْ قَدْ غدا في العلم والحلم عديمَ المثالْ
علامة العصر ومَنْ قَدْ حوى علومَ آل المصطفى خير آلْ
فارس ميدان المعالي الذي تخافُهُ الآسادُ يومَ الجدالْ
تلقاهُ مثلَ الليثِ ذعراً إذا ما دُعيتْ يومَ نزالِ نزالْ
هو الكريمُ الأريحيُّ الذي طوّقَ بالجُود رقاب الرجالْ
له اليدُ البيضاء يوم الندى لكنّه الليثُ بيوم النِزالْ
أعظمْ به مولى له عزمةٌ تبرى العوالي والسيوف الصّقالْ
وهمّةٌ عاليةٌ هامُها نالَ من العلياء ما لا يُنالْ
مَنْ ذا يُضاهيه ويا طالما قَدْ لَثَمتْ منه الملوكُ النعالْ
تلقاهُ إنْ حفّتْ به صحبُهُ كهالة حفتْ ببدرِ الكمالْ
ناهيكَ عرساً فيه صحبُ الهنا زارَ وركْبُ الهَمِّ والغمِّ زالْ
قِرانُ سعد فيه عنّا انجلى حيثُ تجلّى كُلُّ خطب عضالْ
فيا لها مِنْ فرحة أصبحتْ تَبْسمُ عَنْ ثغرِ الهنا والوصالْ
يا طالبَ التاريخ أرّخهُ (يا بدرَ النُهى زُوِّجتَ شمسَ الجَمالْ)(١)

ثم تزوج أيام إقامته بالكاظمين (ع) ببنت عالمها وعلمها أستاذه النحرير السيد عبد الله شبّر تلميذ أبيه الشيخ الأكبر وذلك بعدما قتل الميرزا الأخباري، وكان قَدْ عقد عليها قبل قتله جذباً لقلوب الناس. وكانت تحت ابن عمها السيد مير أحمد فقال الأديب الماهر، والنحرير الباهر، الشيخ صالح التميمي الشاعر من قصيدة طويلة يشير فيها إلى قتل اللعين المذكور، ويهنئ الشيخ بزواجه بالعلوية، ويعرّض ببعض الشعراء المقربين عند الشيخ، ولم يقع من القصيدة بيدنا إلاّ قوله يخاطب الشيخ:

(١) حساب الجمل في هذا التاريخ تساوي (١٢٣٤هـ).

مُعيدَ الهُدى غضّاً وقد كانَ بُرهةً ... ذوى روضه من حاصبات المهالكِ
تداركتَ دين اللّه من بعد ما عَدتْ ... عليه مذاكي آخذ غير تاركِ
وعدن بحمد اللّه للناس منسكاً ... فزدتَ على ما أمّلوا في المناسكِ
تشاغلَ فكري في زفاف خريدةٍ ... تزفّ لملاك الثناء ومالكِ

الى أن قال :

ستزجرُ عمراً يدّعي النظم عائباً ... وما سلكتْ أفكارُهُ في مسالكي
وتخزي فتى يُبدي مودةَ صادق ... ويُظهرُ أفعالَ اللعين ابن (شاهكِ)
فليس لموسى في العلوم مشاركاً ... ولا في القوافي الغُرِّ شخصٌ مشاركي

وقال السيد المُتقِّدم يهنيه ، ويؤرخ عام زواجه :

قُمْ وانتهزها فرصةً يا أخا ... ودّيَ إنْ ترعَ ليَ الوُدّا
واسحبْ جديدَ البُردِ تيهاً فَقَدْ ... نلنا الأماني اليوم والقَصْدا
أمَا ترى الأفراحَ قَدْ أصبحتْ ... تشملُ منا الحُرَّ والعَبدا
وقَدْ أُديرتْ بيننا خمرةُ الـ ... أُنسِ تفوقُ المَنّ والشهدا
وفاحَ من روضِ التهاني لنا ... نَشْرٌ يفوقُ الغارَ والرّندا
وطائرُ الأفراح في شدْوِهِ ... حكى القيانَ الخُردَ المُلْدَا
وذاكَ في تزويج (موسى) الذي ... حازَ العُلى والفخرَ والمجدا
رَبُّ اليدِ البيضاء مَنْ لم يزلْ ... يمدُّ أبناء الرجا مَدّا
أندى الورى كفاً وأعلى الورى ... قَدْراً وأنجب الورى جدّا
لمعة أهل الفضل كافي الذي ... يطلبُ منه الرِفدَ والرُشْدا
ليس به علمٌ سوى أنّهُ ... في العِلم والحلمِ غدا فردا
مهذبٌ لم يتخذْ يافعاً ... يوماً سوى ظهر العُلى مَهْدا
ذو راحة تُشبهُ صَوبَ الحَيا ... بلْ هي مِنْ صَوب الحَيا أندى
للغيثِ رعدٌ وندى كفّهِ ... لم تلقَ فيه أبداً رعدا
يهتزُّ للوفدِ كما هزّتِ الـ ... ـنكباءُ مِنْ بانِ النَقى قدّا

مَنْ ذا يُدانيـــه ويومُ الوغى | له المعـالي تغتـدي جُنْدَا
قَـدْ شـدَّ في إخـوتهِ أزرَهُ | واللّه قَـدْ شـدَّ له عُـضْـدَا
هـمُ الألـى يُجْـلـى بأنوارهم | لـيلُ العـنا عنَّا إذا اسـودّا
فـاحـمـدْ إلهَ العـرش مـا زلتَ يا | (مـوسى) على آلائه حـمـدا
واسلمْ ودُمْ واسـعـدْ بعـرس لهـا | يدُ التُـقى قَـدْ نسـجتْ بُردا
مِنَ الميـامين الأُلى أنزل الـ | ـرحـمـانُ في مـدحـهمُ الحـمـدا
نَاهيكَ عـرسـاً مُـذْ تبدّى على | جـيـد الزمـان خلتُـهُ عـقـدا
فلمْ أخـلْ أنَّ ظبـاء النَقى | قَـدْ ألفتْ من قـبلك الأسـدا
قـرانُ سَـعـد قَـدْ تجلّى وقَـدْ | أذهـبَ منّـا الـهمَّ والـوجـدا
ألقِ العـصـا (مـوسى) فَقَدْ أرّخـوا | (قـارنتَ يا بدرَ السـمـا سـعـدا)

١٢٣٤هـ

ولم يكن للشيخ عقب من زوجته هذه، وأعقب من تلك العلوية (المايحچية) ولدين وهما: الشيخ مير أحمد، والشيخ مُحَمَّد رضا، وبنت، وهي (بيبي) التي كانت تحت ابن عمها شيخ مُحَمَّد بن الشيخ علي بن العلامة الأكبر، وتُوفيتْ في زمانه عن عدة بنين (سيأتي ذكرهم مفصلاً في محله).

فأمّا الشيخ مُحَمَّد رضا فلطول المقام فيه لكون عقب الشيخ موسى ليس إلاّ منه أفردنا باباً لذكره سيأتي في محلّه.

وأمّا الشيخ مير أحمد فتُوفيَ في زمان عمه الشيخ حسن وهو شابٌ لم يبلغ الثلاثين، وكان فاضلاً عالماً نحريراً مراهقاً، وقد رأيتُ له في كُتبنا بعض الحواشي والتعليقات الدالة على سعة باعه، وغزارة علمه واطلاعه، وأقرحَ مصابه الجفون، وأبكى العيون، لأنه كان قَدْ أشرف على الزواج، وقَدْ تهيأت له أسباب العرس والابتهاج، فمات فجأة قبل ذلك. فقال الشيخ إبراهيم قفطان يرثيه، ويذكر رزايا آبائه وأهليه، ويُعزّي عمه الشيخ حسن، والشيخ مُحَمَّد رضا أخيه، بقصيدة غراء، وهي:

حيّ المنازل بالدمـوع الذُّرّفِ | أفـلا تحـيـيهـا السحـاب بأوطفِ
وقـفـا عليـهـا صـاحـبيّ وإن عـفت | بعـد الأحـبـة وقـفـةَ المتـأسفِ
واسـتنشـد الأطلالَ عن سُكّانهـا | فـعسى تجُيبُ سَؤال صبٌّ مُدْنفِ

أين استـقلّوا ضـاعنين وخلّفـوا ... بين الجـوانح شـعلةً لا تنطفي
عَـجَـبـاً بَرَتْهُ النائبـاتُ وقبل ذا ... مَنْ جاء يستشفي السقام بها شُفي
ربعَ الوفـا لو سـال طرفي عَنْدَمـاً ... عُـمـرَ الزمـان على رسومك لم يفِ
حقاً تذوبُ على عِراصكَ مهجتي ... وتسـيلُ فـيـه عن الدمـوع الذُرّفِ
يا ربعُ أيـنَ تحـمّلوا عنك الأُلى ... كُلٌّ بدوح عـلائه مـوف وفي
عـاثت بهم غِـيَـرُ الزمـان كـأنّمـا ... نقـدتْهُمُ الأيامُ نقـدَ (الصـيّـرفي)
بدأتْ (بجعفرَ) قبل ذاك فهدّمتْ ... من دين أحـمـدَ كُلَّ طود مُشـرفِ
وأتتْ على (موسى) وكـان بعزمـه ... مـهـمـا انبـرى خطبٌ براهُ بمرهفِ
وقضتْ على زاكي النجار (عليِّها) ... ربُّ التُـقى ، والمجدِ ركنِ المُعْـتـفي
وتسنّمتْ فَـرْعـاً لموسى مـورقـاً ... رشـداً فـبـاتَ الرشـدُ حلفَ تلهّفِ
لهـفي لغـصن بعـد بهـجـتـهِ ذوى ... بـالرغم منّا بالتـراب مُكنّفِ
يا تربةً شـقّتْ فـوارتْ (أحـمـداً) ... مَنْ لا يشقُّ لكَ الحشـا لم يَنْصِفِ
لو شقَّ بـالزفـرات قلبي عندها ... أو خَـدَّ بالعـبـراتِ خـدي لم أفِ
عَجَـبـاً عـراهُ الخَسفُ قبلَ تمامه ... والبـدرُ قـبـل تمامـهِ لم يُخْـسَفِ
عَـجَـبـاً لورد المجـد يُقْطَفُ يانعـاً ... والوردُ قـبـل أوانـه لـم يُقْطَفِ
أسفي عليك وقـد طوتْكَ يدُ الردى ... لو كـان يُجدي الوجدَ فرطُ تأسّفي
صبـراً خـدين المكرمات رضـاً بها ... فـالصـبـرُ أنت من الأنام به حـفي
والصـبـرُ لا يسطيـعُـهُ أحدٌ سوى ... رجلٍ بكم يا بنَ الأكـارم يقـتـفي
فلك العـزاء بخـيـر مَنْ يمشي على ... وجـهِ الثـرى من ناعلٍ أو مُـحْـتَفِ
(حسنٍ) الفعـال إمام كُلِّ فضيلة ... مـولى بنيلِ ذُرى المعـالّي مُشْـغفِ
فـبـقى بقـاءَ الدهر كـهـفـاً مـانعـاً ... وبحُسنِ سـيـرتهِ الخـلائق تقـتـفي
وسقى ضريحاً ضمَّ (أحمد) وابلُ الـ ... ـرضـوان من بـاري الأنام بمُوْكِفِ

ثم أهدى بعض وزراء العجم للشيخ جاريتين من جواري الروم وكانتا في غاية الجمال ، وبقيتا بخدمته حتى تُوفيَ رحمه اللّه ، ولم يُعْقِبْ منهما إلاّ ولداً سمّاه إسماعيل تُوفي بحياة أبيه وهو صغير .

ولمّا توفيَ علم الأعلام ، وركن الأسلام ، العالم النبيل ، الشيخ أسد اللّه بن الحاج

إسماعيل[1] ، جعلت الشعراء ترثيه ، وتتخلّص بمدح الشيخ موسى كما كانت في رثاء العلامة الطبطبائي تتخلّص بأبيه . فممن رثى الشيخ المتقدم السيد باقر بن السيد إبراهيم الكاظمي بقصيدة غرّاء ، وهي :

أَلاَ تسألان الصبَّ ماذا يُكابدُ ... وماذا يقاسيه جوىً ويُجاهدُ
أفي كُلِّ يوم نكبةٌ تصدعُ الحشا ... فيشمتُ فيها حاسدٌ أو مكايدُ
رماني زماني عَنْ قسّى سهامُها ... فأصمتْ فؤادَ الدين ، والدينُ حاشدُ
إلى اللّه أشكو فَقْدَ أكرم ماجدٍ ... نمتْهُ إلى العلياء غرٌّ أماجدُ
لقد بكّرَ الناعي به فدهى الورى ... بقارعة تنهدُّ منها الجلامدُ
قضى العالمُ القدسيُّ والعَلَمُ الذي ... إليه المزايا تنتهي ، والمحامدُ
قضى نور مشكاة العلوم فضُعْضِعَتْ ... لذلك أركانُ الهدىُ والقَواعدُ
قضى شمس أحكام (الشرائع) فاغتدتْ ... (مداركها) تَنْعَى له و(المشاهدُ)
قضى كشف مكنون (السرائر) والذي ... ضمائرها بانتْ به و(العوائدُ)
فمن مُبلغنَّ العلم أنَّ رتاجَهُ ... قضى فبكاهُ (المُنتهى) و(القواعدُ)
وعطّل (منهاجُ) (الهداية) بعدَهُ ... وأَقْوَتْ من الدين القويم المحاشدُ
وأُخْمِدَ (مصباحُ) الهدى ولطالما ... بأنوارِه قدماً تُضيءُ المشاهدُ[2]
فمَنْ لذوي العلم الألهي كامل ... وما هو إلاّ فيهِ كفٌّ وساعدُ
إمام له في العالمين مناقبٌ ... تقضّى عليها الدهر وهي خَوالدُ
فللّه مَيْتٌ أيتمَ الناسَ فَقْدُهُ ... ولا غَروَ منهُ فهو للناسِ والدُ
فمَنْ بعدَهُ مَنْ ذا عليه ورودُها ... ويا طالما ساغت لديه المواردُ
فما خلتُ بدرَ التمِّ يهوي إلى الثرى ... ويُلحدُهُ في حوزة القبر لاحدُ
فيا آل (إسماعيل) صبراً على الأسى ... فما أحدٌ في الكون باقٍ وخالدُ
لَئنْ غابَ بدرُ العلم عنكم فأنتمُ ... بدورٌ تَراءى بينهنَّ الفراقدُ

---

(١) هو صهر الشيخ جعفر الكبير على بنته ، من كبار المجتهدين ، كانت وفاته سنة ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م . وقد سبق ذكره مرات عديدة .

(٢) الأسماء المُشار اليها هي عناوين مشهورة لكُتب أصبحتْ من مصادر الفقه الأمامي . وتضمينُها في القصيدة يدلُّ على مكانة الفقيد وشهرته في حقل الدراسات الفقهية .

لكم سلوةٌ عنه بموسى بن جعفر فتى العلم مَنْ تُلقى إليه المقالدُ
فلو أنَّ صرفَ البين يقنعُهُ الفدى فداهُ من الدنيا مَسُوْدٌ وسائدُ
أصرفَ رداهُ مَنْ هداكَ لنقده فما أنتَ إلاّ صيرفيٌّ وناقدُ
به استبشرتْ حوُر الجنان ومَنْ بها ولاسيَّما الحورُ الحسانُ الخرائدُ
بذا قضت الأيام ما بين أهلها (مصائب قوم عند قوم فوائدُ)
ومُذْ حلَّ (أقصى السوء) قلتُ مؤرخاً (بكتْ أسدَ اللّهِ التقيَّ المساجدُ)(١)

(بندٌ) في رثاء الشيخ أسد الله ومدح الشيخ موسى

وقال الشيخ إبراهيم قفطان يرثيه ويعزي الشيخ موسى وأخاه، وولد (الميت) رحمه اللّه. هكذا وجدت بخط ناثره ببند، وهو:

ليتني لا كنت إذ صار فؤادي غرضاً للدهر، ترميه دواهيه، بسهم الغدر حتى لست أصحو، كلما داويتُ جُرحاً سالَ جُرحُ، مَنْ مُجيري من ليالٍ قابلتني بزئير الأسد الغضبان، يغتال متى صال، نفوساً من سنا نور هداها أشرق الدهر، وفي سُمْكِ عُلاها إبتهج الفخر. لَعَمْرِيْ، لا رعى اللّه تعالى اللّه دهري، فلقد فأجاني ريبُ عواديه، وقد أزعجني صوت نواعيه، بخطب أوجر الصدر، ورزء قصمَ الظهر، فَنُوْحاً يا خليليَّ، على ما بي، من عظم مصابي، وارثياً العِلْمَ الألهي، بل الدين الحنيفي، فهاتيك ربوع العلم بعد الأنس، قَدْ عاجلها الطمس، بفقدان كميٍّ أسد اللّه، أمين اللّه، باب اللّه، عين اللّه، في الخلق، ومبدي سنن الحق، فآهاً ثم آهاً، من ليالٍ أترعت كأس جواها، يا لَحاها اللّه كم تجرح قلبي، بمواضٍ مزّقت أحناء خلبي، ورمتني بخطوب أورثتني كمداً فتّ بأعضائي، وأودى لهب الوجد بأحشائي، فذا جرح رزاياي فرته بصقيلات ضباها، وشجون طحنتني برحاها، مَنْ معيني، في عويلي وحنيني، مِنْ نعيٍّ قام ينعي صاحب الأمر، وعين الدهر، لا بكرٌ ينعاه، فقد طبّق بيت المجد أعلاه بأدناه، معاذ اللّه أن أنساه، ما دمتُ، وأن متُّ، وأنّى وبه قام عمود الدين، وانحطّ من الغيِّ مُعلاه، فيا سوء رشادي لافتقادي، سيد أَحَدْثُهُ خطّ فؤادي، غير أني أردع القلب وأنهاه، بحامي بيضة الأسلام محيي الملة الغرّاء، لا زال حليف المجد والحلم، كليم العلم (مُوْساه)، هو الناشر فوق الدين ثوب العزّ والسّمك، ومُردي

(١) حساب الجُمل يساوي ١٢٣٣هـ، وقوله (حلَّ أقصى السوء) إشارة إلى اضافة العدد (١) إلى مادة التاريخ. فيكون المجموع مساويا لسنة ١٢٣٤هـ، وهي سنة الوفاة المطلوبة.

فيلق الشرك مع الشك ، فأنّى مَن يضاهيه ، بما فيه ، وقد طهَّره اللّه وأولاه ، من الحكمة والآيات ما يرهب أعداه ، أبى اللّه تعالى إلاّ أن كساهُ بُردةَ العزّة والجاه ، وأعلاه بدنياه ، وآخراه ، ويتلوهُ حميد الفعل والحمد مسمّاه ، له السبقةُ والفضل ، على كُلّ عليم أحرز الفضل ، وصبراً أيُّها (المهديُّ) فينا ، فلأنت الخلف الصالح ، سعد الشرف الواضح ، هل مثلك من يؤمر بالصبر ، على نائبة الدهر ، وقد ألهمك اللّه وأولاك ، أيَا نُقطةَ إدراك فلا أحرمنا اللّه شذى طيب سجاياك ، ولا زال على خطة قبر الشيخ هطَّالُ الرضا يهمي غُدُّواً ورواحا .

وسيأتي له (بندٌ) آخر أحسن من هذا على حسنه في رثاء الشيخ موسى (رحمه اللّه) .

ورأيت في مجموعة أوراق أظنُّها للسيد صادق الفحام جمع فيها أشعاره التي قالها في بيت الشيخ ، وأشعار الشيخ إبراهيم قفطان فيهم أيضاً ما نصّه : وقد عزّيت جناب العلامة الشيخ موسى لجل المرحوم الشيخ الكبير (رحمه اللّه) ، وأخاه الشيخ مُحَمَّد بعمِّهما الشيخ محسن[1] بن الشيخ خضر (قدس اللّه سره) ، وولدهُ الشيخ مُحَمَّد (رحمهم الله) . والقصيدة هذه ، وقد أجاد كُلّ الأجادة :

هي لوعـةٌ تحتَ الضلوعِ زفيـرُها ... هَلْ كيفَ يطغى بالدموع سعيرُها
مِنْ وقْع حـادثة أراعَ بهـا القـضـا ... نَفْسـاً تحَلَّلَ سـرُّها وسـرورُها
باتتْ عَلى مضضِ الخُطوبِ سليمةً ... أمضى بهـا السُمُّ النقيعَ صريرُها
عـتـبت على دهر دوائر صـرفـه ... أبداً على هام الهُـمـام يديرُها
يلقى العُلى بكتـائب منصـورةٍ ... ودلاص بَين كـالحبـاب قـتيـرُها
مـا ضـرَّهُ لو كـانَ منٌّ على العُلى ... بمجيـرِها إنْ كـان عـزَّ مجيـرُها
ظفـرت كـتـائبُـهُ به فَـتَضعْضعَتْ ... في يومـه العليـا وهُدِّمَ سـورُها
نفسي الفدا ، و(أبي) لِمَنْ عبرتْ به ... ركبٌ يعـزّ على النفـوس عبـورُها
ضعنتْ (بُمحسنِها) المُطلُّ على الورى ... إحسـانُهُ فـتطوّقـتـه نحـورُها
كـشّـافُ مـعضلِها وربُّ كـمـالِهـا ... وجـسـورُها ووقـورُها وفـخـورُها
يا ليتَ لا هدرَ الركـابُ بنعـيـهِ ... فـقـد اسـتـفزَّ المكرمـات هديرُها

(١) الشيخ محسن بن الشيخ خضر هو جدّ أسرة (آل شيخ راضي) النجفية . والشيخ راضي هذا هو ابن الشيخ محمد بن الشيخ محسن . وقد تُوفي حدود سنة ١١٨٥هـ / ١٧٧١م .

هاتيك أعلام الشريعة بعدما ... جلبَ الهُدى للمُهتدينَ نشورُها

طُويَتْ على ساق الخمول لفقده ... وأُميلَ قائمُها وقرَّ ظفيرُها

مَنْ للأرامل كافلٌ أو ناصرٌ ... مَنْ بعدَهُ ـ مهما استعزَّ ـ نصيرُها

مَنْ للمؤمِّل بعد ضمِّ أنامل ... من كفِّ عارضة تُمَدُّ بُحورُها

ما للعلي والنائبات فطالماً ... أمسى يَصرُّ بجانبيه صريرُها

يا غائباً عنا وخطةُ قبره ... من كُلِّ ساحته الثناء ضميرُها

ومشيّعاً تبكي الشريعة خلفَهُ ... لمّا سرى بسُراهُ عنها نورُها

أو ما درتْ أعوادُ نعشكَ أنّها ... فوقَ الطباق السبع كان مسيرُها

لكنْ نزلتَ لكي تُشرّفَ تربةً ... جَلّتْ مزاراً حيثُ جلَّ مزورُها

فحنتْ عليك أماثلٌ وأراملٌ ... ثكلى تَنَشرُّ شعرُها وشعورُها

يبكي لُمتْربة عليك صغيرها ... ولدفع ريب الحادثات كبيرُها

سهّدتَ أجفاناً ببينك طالما ... بحماكَ يستامُ الرقاد قريرُها

وأغاضَ فقدُكَ بحر علمٍ زاخر ... وكبتْ مفاخرُ لا يُقالُ عثورُها

ورثى لكَ الشرفُ الرفيعُ وفاضَ من ... عبراته أسفاً عليك غزيرُها

لكنْ تُهوّنُ وجدَها بأماجد ... بزغتْ بأفلاكِ العَلاء بدورُها

أقمارُ رُشد يستضاءُ بنورها ... إنْ زالَ عن أُفق الهداية نورُها

أ(مُحمّدُ) صبراً فمثلُكَ إنْ دَهَتْ ... في الدهر غمّاءُ الخُطوب صبورُها

قَسَماً بقود يَرْتَقِصْنَ الى (مِنىً) ... أَلِفتْ شكائمها وأُوثِقَ كورُها

ما لاحَ في خلدي التجلّدُ والعزا ... عنه ولا عيني ينام سميرُها

لولا (الأمامُ) المستجارُ بعزّهِ ... حامي الذمار لدى العثار (أميرُها)

(موسى بن جعفر) ربُّ كُلِّ فضيلة ... وسفيرُها ونذيرُها وبشيرُها

لولاهُ ما وضحَ (الكتابُ) لناصرٍ ... فيه، ولا (إنجيلُها) و(زبورُها)

ميزانُ أعمال العباد وعندهُ ... تقديرُها وبحُكْمه تكويرُها

ومغيثُها وربيعُها ومريعُها ... إنْ شفَّ مربعُها وجفَّ مطيرُها

يا ناشرَ الأحكام بل يا ناصر الـ ... إسلام عزاً حيث عزَّ نصيرُها

أصّلتَ أصلاً في عُلاكَ فما ترى ... إكرومةً إلاّ ومنكَ ظهورُها

وضربتَ فوق المكرمات سرادقاً للمجد عزَّ على الملائك سورُها
وسمتْ بطلعتكَ الشريعةُ وارتدتْ حُللاً تَضوَّعَ نشرُها وعبيرُها
وأبانَ علمُكَ كُلَّ سرٍّ غامض فيها وأرسى في علاك سريرُها
وأمطتَ أستارَ الضلال وحُصِّنتْ بسديدِ رأيك في القضاء ثغورُها
ومتى استراب على البصائرِ مُعْضِلٌ فأليك دونَ العالمين مصيرُها

وهذا غاية ما يمكن أن تدركه الأوهام ، من عظم منزلة الشيخ ورفعة ذاك المقام ، لا لتلك المبالغات وإن أفرطت ، ولا لهاتيك الكلمات وإن عظمت ، إلاّ أن هذه عادة الشعراء في الممدوحين ، من قديم الزمان ، الى الآن . ولكن القائل يتفاوت حاله ، ويختلف مقاله ، فقول العظيم أعظم وأعلى ، من قول مَنْ لا تعرف له أصلاً ولا فصلاً ، ولا تقل هذا عكس ما قاله الأمير (ع) : «لا تنظروا إلى ما قال ، وانظروا إلى ما قيل» لظهور الفرق بين المقامين ، وتباين الوردين . وهذا السيد (قدس اللّه روحه الطاهرة) كما هو مشهور معلوم ، من أجلاء ذوي الشرف ، وأولي العلوم ، ومنزلته عند العلماء وغيرهم عظيمة ، وبيتهم من بيوت أشراف (النجف) القديمة ، وهو من طبقة العلامة الطبطبائي[1] ، والشيخ الكبير وشعرائهم ، فعلى هذا فهو في زمان الشيخ موسى طاعن في السن[2] . وذكر في «روضات الجنّات» ظآناً أن هذا السيد من أساتيذ الشيخ الكبير وهو وَهْمٌ ، إن كان فبالأجازة وكفى به شرفاً ، لكن اللّه أعلم حيث يجعل رسالته ، والفضل بيد اللّه يؤيته من يشاء .

ولم يزل على هذه الطريقة ، مُطلِقاً عنان القريحة ، فتصطاد له الشوارد ، وتقتاد له الأوابد ، حتى قال بعد أبيات كثيرة :

وأخ عُضِدتَ به عليم أروع هو درع ساعدك الرحيب وزيرُها
مصباحُ شرعتها وقيّمُ أمرها وعميدُها وخبيرُها وبصيرُها
ما خفَقتْ في الخافقين فضيلةٌ إلاَّ وأصبحَ مِنْ علاهُ صدورُها
يا فرقدي شرف ومجد شامخ وقصارَ مرمى الماجدين قصورُها
سَقْياً (لعمّكما) سحائب رحمة يجري على جَدَثٍ حواهُ عميرُها

(١) هو السيد مهدي بحر العلوم ، ويستخدم المؤلف لقب (الطبطبائي) مرّةً ، و(الطباطبائي) مرّة أخرى . والثاني هو اللقب المتداول في الأوساط بشكل عام .
(٢) ولد السيد صادق الفحّام سنة ١١٢٥هـ/ ١٧١٣م ، وتُوفي سنة ١٢٠٤هـ/ ١٧٩٠م .

ولو أردنا أن نذكر جميع مدائح هذا المولى الهمام ، لضاق العمر ونفذت القراطيس وفنيت الأقلام ، ولكنا نذكر منها نبذة يسيرة ، تدلك على مفاخر كثيرة ، لتتحلى هذه الرسالة بحليّ الآداب ، فعسى أن تقع بموقع القبول عند أولي الألباب .

فمن ذلك ما قاله السيد حسن البغدادي المتقدم يهنّيه ، في داره التي بناها في زمان أبيه :

دعني فقد ملك الغرامُ عناني ... والهجر من ريم الكُناس براني
للّه ساجي الطرف كم قبلي على ... أسد سطا بصوارم الأجفانِ
لم أدرِ إلاّ مُذْ بُليتُ بحبّه ... أنّ الأسوَد فريسةُ الغزلانِ
لا يخدعنّكمُ فتورُ لحاظه ... ففتورُ لحظ الغيد سحرُ بيانِ
لم أنسَهُ يختالُ في سفح (اللّوى) ... سَحَراً كما يختالُ خوطُ البانِ
مَعْ كُلِّ بدرٍ تحت فرعِ دُجنّة ... من فوق قضبانٍ على كُثْبانِ
عذب اللمى فكأن لؤلؤَ ثغره ... قَدْ ضمَّهُ صدفٌ من المرجانِ
فغدوت أرشفُ من كؤوس لثامه ... خمراً كمثل الأَرْي للصّديان[1]
راحٌ غداةَ شربتُ منها خلتُها ... دبّتْ مدبَّ الروحِ في جُثماني
وجنيتُ ورداً لاحَ في وجناته ... منه تغارُ شقائقُ النُعمانِ
قَدْ فاق بالحُسنِ الظباء كمثلما ... قَدْ فاقَ (موسى) الناس بالأحسانِ
فردُ الزمان وحيدُهُ المولى الذي ... تسطو به إن جار صرف زمانِ
(عمّارُ) هذا العصر مَنْ بصلاحه ... يسمو على كنز التُقى (سلمانِ)
محيي علوم أئمة لولاهمُ ... ما ميزَ بين الكُفر والأيمانِ
مولى تسامى في الفخار محلُّهُ ... كمحلّ بسم اللّه في القُرآنِ
الفخرُ منْ أدنى مراتب مجده ... والفخرُ أعلى رتبة الأنسانِ
والمجدُ قُسّمَ في الأنام ثلاثةً ... (ثلثٌ) لهم وله به (ثُلثانِ)
قَدْ شادَ مغنى للمصالح سامياً ... يحتل في أعلى ذرى كيوانِ
مغنى إذا ما أمّهُ باغي الندى ... يلقى به نَوْعَيْ مُنىً وأمانِ

(١) الأرْي : ماء السحاب .

يرتاحُ إنْ شـامَ الوفـود ببـابه فـتـخـالهُ غـصناً من الريحـانِ
لاعـيبَ فـيـه غـيـر أنَّ يمينَهُ تسـمـو على الهطّال والهـتّـانِ
فـسلِ الورى عن جُـودهِ ويمينه فـيـمـينُهُ والجـودُ مـقـتـرنانِ
يا (حافظَ) الجهل الوضيع ،و(ناصبَ) الـ ـعِلمِ الرفـيـعِ و(رافعَ) الأيمانِ
خـذها إليك أبا المكارم غـادةً تلقى بجيد الشعر عِقدَ جُمانِ
حسناء تهـزأُ (بالفـرزدق) إنْ بدتْ وتجـرُّ طمـريهـا على (حسّـانِ)

وقال الشيخ مُحَمَّد رضا النَّحوي مهنياً أباه الشيخ الكبير في زواجه ومادحاً له ومؤرخاً ذلك العام :

سَرَتْ تخبط البيداء بالوخد تفليسـا إلى مائهـا إنْ عرَّسَ الرَكـبُ تعريسـا
تقـيس العُـلا درعـاً بأخـفـاف أذرعٍ إذا اختلفتْ أعلى مـداها المقاييسا
تَلاعبُ بالألبـاب مـعنىً وصـورةً فطوراً بدتْ ورْقـاً وطوراً طواويسـا
تخوضُ عُبابَ الآلِ للقومس(١) الذي أفـاض نداه للعُـفـاة قـوامـيسـا
تجـوب الموامي والمفـاوزَ لا تني بمدح أبي (موسى) تُغنّي به العيسا
الى مَن غدا بعد النواميس من بني (عليٍّ) على سرّ المهـيـمن نامـوسـا
فـتى يدفعُ الجُلّى وتدنو به المُنى ويسـعـدُ حظٌّ كانَ مُذْ كـان منكوسـا
ويرأبُ مـا أثأتْ يدُ الدهر طبُّـهُ ويُوسى به كَلْمٌ على الدهر لا يُوسى
نُهنّيـه بالعـرس السـعـيـد الذي به بنى شبله (موسى) لدى العرس عريسا
فيـا لك بدراً ضمَّ شـمسـاً تبلّجتْ فما تركتْ من حندس الهمّ حنديسا
ويا لكَ شمساً شعشعتْ بُرجَ سعده وشـمـعـةَ أُنسٍ أسرجتْ منه فانوسـا
ويا لك نجمـاً لابسَ الشمسَ فضلهَ فـألبـسَـهـا منَّ فـاخـر المجد ملبوسـا
ويا لك عـرشـاً ضمَّ فـضلَ عـلائه من المجـد فـرعـاً بالعناية مـغـروسـا
ويا لهـمـا من مَـحْـتـدَيْنِ تأصّـلا عـلاء وكلٌّ أسّسَ المجـدَ تأسـيـسـا
فقُلْ في (سليمان) الزمانِ وقد بنى (ببلقيس) وانظمْ كُلَّ معنىً ببلقيسا

(١) هو الحاذق المُطّلع على خفايا الأسرار ، والمُصيب بحدسه (منه) .

تزوَّجَ موسى من شُعيبِ زمانهِ عقيلةَ نُعمى عندكم صرفتْ بوسا
وآنس من سيناْء بهجتها هدى وعيشاً بألطاف المهيمنِ مأنوسا
ونالَ بها سؤليه حُسْناً وعفّةً فأرّخْ (لقَدْ أوتيتَ سؤلكَ يا موسى)

ووجدت وريقات بخطّ عمّي المرحوم الشيخ موسى نقلها من مجموعة ألّفها ابن الشيخ صالح التميمي الحلّي الشاعر النحرير وقد جمع ابنه هذا ما قاله له أبوه في الشيخ موسى ، وأخيه الشيخ مُحَمَّد (قُدِّسَ سرّهما) . ولم أظفر بسوى يسير من تلك المجموعة . ولو لم يوفقنا اللّه تعالى لبذل الهمة بجمع شتات هذه المفاخر ، ولمّ شعث هذه القصائد لذهبت من كُلّ الدفاتر ، ولما رأيتَ لها ، ولهؤلاء الشعراء الفحول مدى الزمان ذاكر ، وهو خلاف الأنصاف ، من أهل الزمان ، ودون المروّة ، وإضاعة لصداقة الدين ومراعاة الأخوة . وأنا أسأل اللّه كما وفقّني للأبتداء أن يوفقني للأختتام والأنتهاء ، إنه حميد مجيد ، فعّال لّما يريد .

فمما قاله الشيخ صالح من قصيدة يلمح فيها بالأخباري وسحره المتقدّم ، ويمدح الشيخ موسى ويتنصّل من شيء نُقِلَ إليه ، أوجب غضب الشيخ عليه ، فقال مخاطباً له ، رفع اللّه تعالى في الخلد محلّه :

أكاسي الورى ثوبَ الهُدى بعد سلبهم ثيـاباً تحلّتْ بالضلالةِ والوزرِ
عجبتُ لقوم حاربوك بسحرِهم نفاقاً وهل (موسى) يُحاربُ بالسحرِ؟!
تُمدُّ اليدُ البيضاءُ منكَ وقَدْ غدتْ لموسى اليد البيضاء في محكم الذكرِ
فليتَكَ مذْ ميّزتَ حقاً وباطلاً برأيكَ ميّزتَ البريءَ من الكفرِ
وليتَكَ مذْ حزتَ العلوم جميعها علمتَ فقيرَ القوم فينا مِن المُثري

وقال يمدحه أيضاً ، وقد أحسن ما شاء ، بقصيدة غرّاء ، يهنّيه بمولودة هي :

أشقيقة القمرين عذراً فاسمعي لولا خيالُك ما صبوتُ لمضجع
بانَ المزارُ فبانَ طيفُكِ بعدَه أنّى يزورُ الطيف مَنْ لم يهجعَ
أمنازلَ الأحباب لا برح الهوى يسقيك من بعد السحاب بأدمعيَ
إن أقلعتْ جُونُ السحائب إنَّ في جفنيَّ طخيا عبرة لم تقلع
ومفنّد يبدي نصيحة مشفق ويسرّ حسو ملامةٍ لم تُسْمَعَ

هيـــهـــات رام تجلّداً من مُــغْــرم	سَـفَــهــاً وحــاول سلوةً من مُـوْلَع
كم ليلة غــفل الرقـيبُ وورقُــهــا	خـوف الخلي وسـجـعه لم تسـجعَ
زارت وقـد مـاست فـأخـجلَ قـدُّها	أغـصـان بانات (الغـوير) و(لعلعَ)
فكأنّهــا شـــمسٌ عــلاها بُرْقعٌ	وعجبتُ من شمس بدت في بُرقَع
حتى إذا سـفرتَ هناكَ تحجّبتْ	مـــا بين أطرافِ القَنا والأدرعَ
كُنْ يا زمـانُ وهجـرها أني فـتىً	لولا الغـرامُ لفـادح لم أخـضع
والدهرُ أمّـا في غِنىً يرمي الفـتى	يا ليـتَـهُ لي أو بفـقـرٍ مُـقْـذعَ
كـالعلم أمّــا سنّة من عــالم	تهـدى وأمّـا بدعـة من مـبـدعَ
برزتْ قناةُ الأجــتــهـاد وباطل	أنْ يدّعيها غيـرَ (موسى) مدّعَ
لولاهُ مـا ذُكـرَ الهُـدى في مـوطن	كــلا ولا نزلَ التُـقى في مـربعَ
والصـارخ الملهـوف عـاد الى الورى	مما يـؤملُـهُ بـأنف أجــدعَ
رُفِـعَتْ به أعـلامُ آل (مُـحَـمَّـد)	حـتى سـمتْ أعلى مـحلٍّ أرفع
ومـجـدداً للخَلقِ نهـجـاً واضحـاً	سلكوا عليـه في طريق مَـهْـيَعَ
بهـرتْ سـجـاياهُ الربيعَ بلطفـهـا	إنّ الربيعَ كـحُـسنهـا لم يصنعَ
وخـلائقٌ لو حـمّلوا نفس الصـبّا	من نَشْـرها لم تنقلب في زعـزعَ
ومكارمٌ قَــدْ طوّقَتْ كُلَّ الورى	طبـعـتْ على أجـيـادها لم تنزعِ
لو بثّ مـا في صـدره لرأى الورى	طَوْفـانَ علم قـال يا دُنيـا اقلعي
إن جـئـتَـهُ تَنظرْ كـميّـاً ناسكاً	ورعــاً تسـربل في بسـالةِ أروعَ
يومــاهُ يومٌ للعلوم يبــثُّــهـا	نفـعـاً ويومٌ كفُّ خطب مـفـضعَ
والـعـلـم أودية نـأتْ أقـطـارُهـا	منهـا تبـوّء في جناب مُـمْـرِعَ
هيـهـات أطلبُ للنوائبِ مَـفْـزَعـاً	وأبو (عليٍّ) في النوائبِ مـفـزعي
مولاي قَدْ سطعتْ بكم شمسُ الهدى	قَـسَـمـاً ولولا حكمُكم لم تسطع
هنّيت في شــمـس أتتْكَ وأنّ لي	علمـــاً بأنَّ المجـدَ هنّاكم مـعيَ
بعـقـيلة قَـدْ أشـرقتْ في خـدرها	فكأنّهـــا طلعتْ وإنْ لم تطلع
شيّدتَ يا (موسى بن جعفر) ما أتى	عن (جـعـفرٍ) ورفعتَ ما لم يُرْفَعَ

ويحتمل أن تكون هذه القصيدة تهنئةً بعرس . ولكن ابن الناظم يقول مدحه أبي بهذه القصيدة في الحلّة أيام جلوس الشيخ بها ، والشيخ لم نجد أنّهُ تزوج بالحلة ، فالأقرب أنها تهنئة بولادة بنت .

وقال يمدحه أيضاً أيام استقامته بالحلّة ويلمح بذم شخصين من الرؤساء أحدهما (سرور) ، والآخر (مهدي) ، وهي :

ألا قُلْ لمن رامَ سبقي جهارا ... رويدكَ كيف المذاكي تُجارى
جريتَ فقصّرتَ عن غاية ... بغلوائها قَدْ بلوتَ العثارا
وهل تستطيعُ الذئابُ الذهاب ... لأكلِ الفرائسِ والليثُ غارا؟!
لئنْ فاتكَ (الصفرُ) بالأنتقاد ... فلا عجبٌ أن جهلتَ (النُضارا)
وليس من الحزم أن ترتجي ... عماداً إذا ما وردتَ البحارا
وصغّرني معشرٌ باللسان ... هنيئاً لهم حين ذاقوا الصّغارا
أَمَا علموا أنني لو فقدتُ ... يميني لَما بتُّ أشكو اليسارا
لئن كنتُ أضمرتُ أفعالَهم ... لقد أظهر الحقد فيهم شرارا
كما أظهرَ اللّهُ فضلَ الذي ... يُجيرُ الأنام إذا الدهرُ جارا
سميّ الكليم بأسراره ... أضاءَ سراجَ الهُدى واستنارا
وعادتْ أفانينُهُ غضّةً ... وكانتْ هشيماً تئمُّ البوارا
ووافى به سعدنا زائراً ... وبالأمس قَدْ كان يبدي إزورارا
أمولايَ سمعاً فذي دعوةٌ ... لها جحفلٌ قَدْ أثارَ الغُبارا
(سرورٌ) و(مهديٌّ) في كُربةٍ ... لوجد عيال تشمُّ القَتَارا
يقول لهم إنّ هذا الذيَ ... بُلينا به سوف يُخلي الديارا
من (اللحم) رطل و(يقطينتان) ... بها (يونسٌ) قَدْ تعيّا مرارا
وسبعة أقراص في وزنها ... على حذر قَدْ ضبطتَ العيارا
و(منٌّ) من (الأرز) مَعْ (حُمّصٍ) ... ألا يا لَقوم الفرار الفرارا
ولا أدّعي (الدهن) أني فتىً ... فقيرٌ وعن قوتي (الدهن) طارا
فمن كان همتُهُ هذه ... أحقاً يبارى الرجال الكبارا
رجالٌ بهم حُلّتِ المشكلات ... وشدّت عُرى المجد فيهم مرارا

وإخـــوان صــــدق بأوجِ الوفــــا نجــــومٌ لـهم أبداً لَـنْ تُـبـــارى
فلو أحـــدٌ زارَ نادي صــــفــــا لحــقّ لــنـــاديــهـــمُ أنْ يُـزارا
فــلا زلت تـســمــو إلى ســؤدد ومن الـعـزّ يسـمـو لفكّ الأسـارى

قال ابن الشيخ صالح عن أبيه المرحوم أنّهُ قال: لّما سار المرحوم المبرور الشيخ (موسى) من الحلة إلى قصبة الكاظمين (ع) بقي أهلها بعد فقده في همّ مقيم، وداء مستقيم، من فعل الظلمة، وكان لهم كالسور المانع، فلذلك قلتُ بيتين في مدحه وهما:

بمن تفخر الفيحاء والفخرُ دأبُها قـديماً وعنهـا سار (مـوسى) بأهله
وغــادرها من بعــد عــزّ ومنْعــةٍ تحاذرُ كـيـدَ (السـامريّ) و(عـجله)

وكان الوالي على الحلة يومئذ سليمان أغا من أهل (أرويل) من قبل الوزير داود باشا، فنقل إليه بعض اللئام ما قلتُ، فأرسل عليّ وقال: ماقلتَ يوم خروج الشيخ؟ فقلتُ له: خير مقال.

قال: فأنشدنيه.

فعكستُ البيتين إرتجالاً والمجلس غاص بأهله:

زهــتْ بــأبــي داود حــلّــةُ بــابــلِ وألبـســهــا بالأمنِ بُردةَ عــدله
وكـانتْ قـديماً قبل (موسى) وقبلهُ تحـاذرُ كـيـدَ (السـامـريِّ) وعـجلهِ

وللسيد باقر الكاظمي المتقدم يستنجده في أداء مهر زواج وعده به، ويشير إلى قتل لأخباري بأمره (قده) مادحاً له بذلك. وضمنها بعض إعجاز قصيدة ابن الفارض، فقال:

يا أيُّهـا الشمسُ التي قَدْ أشرقتْ أنــوارُهــا فــي هــالــةِ الــزوراءِ
مــا أنتَ إلاّ سـيفُ علمٍ قـاطع يُبـــري سَنامَ الجـــهل والأهواءِ
أوتيتَ يا (موسى) الشريعةَ حكمة لـم يؤتهـا أحــدٌ من الحُكمــاءِ
وتلوتَ توراة الفـقــاهةِ في الورى وفلـقـتَ يمَّ العـلم للعُلمـــاءِ
وقـتلتَ (فـرعون) المظالمِ مُـذْ بنى صَـرْحـاً من الطُغـيـان والأغـواءِ
وقـذفتَ تابوتَ الفضـائلَ والهُدى في (قُلْزُمِ) الفـرقـانِ للأشـيـاءِ

وأبنتَ شرعةَ (جعفرٍ) وعلومه — إذ جئتَ في قدرٍ على استحياءِ
ونصرتَ هارون الأمامة بعدما — ناجيتَ ربّكَ في طُوى سيناءِ
وحملتَ ألواحَ الشريعةِ في الورى — ونسختَ سفرَ الدين للحُنفاءِ
خُذْها عروسَ الحمدِ إلاّ أنّها — ترجو لديك المهر أيَّ رجاءِ
أطمعتَها بالمهرِ قبلَ زفافِها — فأتتكَ ماشيةً على استحياءِ
لا زلتَ تفخرُ في ثيابِ الفخرِ ما — أرجُ النسيم سرى من الزوراءِ

وفاة الشيخ موسى ومراثي الشعراء له

ولمّا كانت سنة الواحد والأربعين بعد الألف والمائتين تزايد مرض الشيخ الذي تعلّق به قبل سنين من وفاته وهو مرض (البواسير) فصار يضعف يوماً فيوم لخروج الدم الكثير، وكان قَدْ قارب عمره الستين، سأم الحياة الدنيا وزينتها من الأموال والبنين واستام جوار ربه واشتاق إلى لقاه، فقربه إليه وأدناه، فسلّم نفسه الزكية الى باريها، وهوت دعائم الشريعة وتهدّمت مبانيها، فطفق الدين يندبه، والأرامل والعلماء تبكيه، وصعق الكتاب المبين ينشده، والشعراء والأدباء تنشد مراثيه.

فمن ذلك ما قاله الشيخ إبراهيم على ما أظن، أو السيد الفحام[1] رحمهما اللهّ، وهي:

برغم المعالي أنْ يُجبَّ سنامُها — ويجدب من نوء المكارم عامُها
نأى ونأى عنها حميُّ ذمارِها — فطأطأ طوعاً للحوادث هامُها
نعيٌّ نعى في العالمين فأخرست — ذهولاً وأنّى يُستطاعُ كلامُها
قفوا ليتنا نفديه موسى بن جعفر — فلا غرو أن يغشى النفوس حمامُها
رمتْهُ المنايا ليتَها طاشَ سهمُها — وأنَّ المنايا لا تطيشُ سهامُها
تجافى عن الدنيا فراراً وطالما — تصاغرُ في عينيه منها حطامُها
قَضى فقضى حُكْمُ الشريعةِ بعدَهُ — وأقفرَ مغناها وفُلَّ حسامُها

(١) السيد صادق الفحّام تُوفي سنة ١٢٠٤هـ/ ١٧٩٠م، ولم يُدرك وفاة الشيخ موسى عام ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م. والأقوى أنّ القصيدة للشيخ ابراهيم قفطان الذي تُوفي سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٢م. وقد أشار الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء أنّه ينقلُ عن مجموعة أوراق ظنّ أنّها للسيد صادق الفحّام، وقد فاته أنّ وفاة الفحّام كانت قبل وفاة الشيخ موسى بسبعة وثلاثين عاماً.

وزلـزلـتِ الأفـــــلاكُ يوم مماتـهِ ... وعُطِّلَ مـســراها وخـرَّ دعـامُـهـا
فيا بحر فضل غاض هيهات بعده ... يَبلُّ من الورّاد يومـــاً أُوامُــهـــا
وغيثُ ندى لا يكذبُ الناس ودْقُهُ ... إذا أخلفَ العافين يوماً جـهـامُـهـا
أنمتَ عـيـوناً لم تكنْ بك نوّمـاً ... وسـهّدتَ أجـفـاناً فـعـزَّ منامُـهـا
وغـادرتَهـا من بعـد عـزٍّ ومنعـة ... يعـزُّ عليـهـا صونُها واعـتـصـامُهـا
أتعلمُ يا حـصنَ الشـريعـة أنّهـا ... أُبيـحتْ وسامتـهـا هواناً سـوامُـهـا
رويداً فـمن خلّفتَ للدينِ حَـامـيـاً ... وللناسِ عزّاً حيثُ عزَّ احـترامُـهـا
فـتلكَ المعـالي والمدارسُ بعـدَمـا ... نظمنَ عـقـوداً فـيك سُلَّ نظامُـهـا
وأحـكامُ دينِ اللّه بعــدَكَ عُطّلتْ ... وجللَ آفــاقَ الرشــادِ ظلامُـــهـــا
وتلكَ رياضُ العزِّ بعدَكَ قَـدْ ذوتْ ... نضـارتُهـا والجابَ عنهـا غَـمـامُـهـا
سرى نعشُهُ في الناس مَسْرَى نوالهِ ... كما دبَّ في سلبِ العُقولِ مُدامُها
ولـم أرَ نَعْـشــاً قَــدْ تعلّقت الورى ... به ولدى جنبيـهِ طالَ ازدحـامُـهـا
وترفـعُـهُ الأمــلاكُ شـوقـاً ورغـبـةً ... إليـهِ ومن جنبيـهِ طالَ استـلامُـهـا

إلى أن قال مادحاً الشيخ مُحَمَّد ابن الشيخ الكبير :

مـصابٌ قضتْ منه النفوسُ فردَّها ... على الناس غوثُ العالمين همامُـهـا
إذا لمحتْ عينُ المعـالي (مـحـمَّـداً) ... يهـونُ عليـهـا وجـدُها وغـرامُـهـا
لتـبِكَ له السـبعُ الأقـاليم أنّهـا ... أُضيعتْ وكـانتْ في يديهِ زمامُهـا

إلى أن قال مادحاً أخاه الشيخ عليّ وقد رجع أمر التقليد والرئاسة إليه :

ولولا (عليٌّ) بعد (موسى) يسوسُها ... لمّا صحّ منهـا نسكُهـا وصـيـامُـهـا
إمـــامٌ تولتْــهُ العـبــادُ رضىً به ... من اللّه لمّا غـابَ عنهـا إمـامُـهـا
إليــه انتـهى أمـرُ العـبـادِ وعندَهُ ... مُناها وعنهُ حلُّهـا وحـرامُـهـا
فـهـا قَـدْ كـسـا اللّهُ الشريعـةَ عـزّةً ... بأيامـهِ إذْ كـان فـيـه قـوامُـهـا

وللسيد حسن (المتقدم ذكره مراراً) راثياً له ، ومؤرخاً عام وفاته :

رزءٌ ألمَّ فبـاتَ القلبُ مـأنوسـا — وحـالفتْ منّيَ النفسُ الوسـاويسـا
قال السحاب لطرفي حين سال دماً — غادرتَ صيّبَ دمعي ليس محسوسا
فـقلتُ قَـدْ بكَّر النّاعي وأسلمنا — إلى الرزايا بفقد المُجتبى (موسى)
(موسى بن جعفر) روضُ المكرمات ومَنْ — قَدْ كان معروفُهُ في الناس مغروسا
فـأيُّ قلب عليـه غـيـرُ منصـدع — وأيُّ يوم علينا ليسَ منحـوسـا
في الدين قَدْ أحدثت كَلْماً رزيتُهُ — لم يندمل لو غدا آسيُّهُ (عيسى)
اليـوم بيت الهدى مادتْ قواعدُهُ — وقـد غـدا مربعُ الآيات مطموسـا
اليـوم أندية التـدريس قَـدْ دَرَستْ — اليـوم أمسى لواءُ العلم منكوسـا
اليـوم جُبٌ من العليـاء غـاربُهـا — اليوم لحيـانها قَـدْ عـاد نكّيسـا
اليـوم قـوّضَ من كـانتْ له هممٌ — شمٌّ تطاول كـيـواناً و(برجـيسـا)
لهفي لليثِ الوغى من بعد صولته — له المنايا جـعلنَ اللحـدَ عـرّيسـا
قَـدْ كـانَ بحـر ندى مـا جـاء واردُهُ — إلاَّ وراحَ بلُجِّ الخـيـر مـغـمـوسـا
مَنْ للحوائج يقـضـيـهـا وطالبُـهـا — قَـدْ آبَ منقطعَ الآمـال مـيـؤوسـا
مَنْ لليتـامى ومَنْ للمُـعْـتَـفينَ وقَـدْ — أمسى رَتَاجُ النَدى والجودِ مطموسا
ومَنْ ترى لمحـاريب الصـلاة ومَنْ — ترى ينوّر بالـذكـر الحناديسـا
طُوْبَى لرمس ثوى فـيـه فـأنَّ به — أمسى عموداً من الأصباح مرموسا
سـقى الأله مـدى الأيام أعظمَـهُ — وزادَ مـثـواهُ تطهـيـراً وتقـديسـا
يا ظاعناً لم يَخبْ من نُبلهِ أحـدٌ — ولا كـسـا وجـهه الوضّاح تعبيسـا
هل عـودةٌ علَّ فيـهـا نفسنا وعسى — ترى لصبح وصـال منك تنفيسـا
(فرعون) حزنك يا (موسى) طَغى وبَغى — على الأنام ، وسرّ الرجس (إبليسا)
ليست وفاتُكَ نُعمى مثلَما زعموا — لكنْ على الناس أضحى يومها بوسا
إليّـةً بالعـتـاق القُـود سـائرةً — إلى (الغـريّ) كـراديسـاً كـراديسـا
لولا الغطارفـةُ الأمـجـادُ إخـوتُهُ الـ — أطهار مَنْ أصبحوا للفضل قاموسا
كــذاك أبناؤهُ الغــرُّ الأُلى بـهمُ — تُجلى الخطوب لمن قَدْ بات مخلوسا

لو ردَّ حتفَ امرء من قبله لَسَعى — في ردّه فتيةٌ لا تُرهبُ الشوسا
بيض الجباهِ إذا هزُّوا بمعركة — رماحَهمْ راحَ ليثُ الغاب مفروسا
لكنْ إذا حُمّ أمرُ اللّه لستَ ترى — فتىً من القدر المحتوم محروسا
وليهنه باتَ في الجنّات مغتبطاً — قَدْ آنس الحورَ فيها والفراديسا
يا راكباً ظهرَ نابِ سلعة أجد — تطوي إلى (النجف) البيدَ الأماليسا
بلّغ سلامي أميرَ المؤمنين إذا — أنختَ في بابه العيسَ القناعيسا
وَعجْ على قبر (موسى) حيثُ جئتَ وقُلْ — لا زلتَ يا قبر (موسى) فيه مأنوسا
ونادِ حيثُ العُلى قالتْ مؤرخةً — (في جانبِ الطُورِ ألقيتَ العَصا موسى)

١٢٤١هـ

ترجمة الشيخ موسى في «يتيمة الدهر»

وقال السيد في (يتيمته) :

ونحمدك يا من تفضّل علينا وعلى جيلنا بالرئيس المطاع ، ومن خرق صيته الأسماع ، موسى ابن جعفر ، من قَدْ طأطأت له العرب والعجم ، والكلام فيه يتم من جهات :

الأولى: في (أوصافه):

كان مهيباً جليلاً في الأنظار ، طويل القامة يرجع الطرف خاسئاً إذا رناه ، ولا يبلغ الناظر منه ما رناه ، في تحقيق معناه . وقور المسرى ، ثقيل وطء القدمين في الأرض ، بشوش الوجه ، يبسم عن درّ نظيم ، وتلوح بين عينيه سمات الكليم ، ولا يستطيع أحد النظر إليه لعظيم هيبته وسلطنته ، وليس في مجلسه غير الأمراء والوزراء وأساطين العلماء ، والكل مطرق مهابة لإجلاله ، منصت لمقاله .

الثانية في (صفاته):

وهو عالم علامة رئيس مطاع مقدّس أواه ، يقصر اللسان عن عدّ صفاته التي شاعت وذاعت في جميع الأقطار ، شيوع الشمس في رابعة النهار .

الثالثة في (أقواله):

كان إذا جرى لسانه في البحثِ والتدريس نثر اللؤلؤ النفيس ، وإذا تنحنح أزعج الجُلاس هديل صوته . وكان إذا قال : يا اللّه ارتعدت فرص الجالسين ، وكادت الجمادات تهتز مخافة منه . وكان إذا أمر أطيع في سائر الأمصار ، وإذا نهى خيف من مخالفته حتى الفجرة الكفار ، يقول فصلاً ويحكم عدلاً ، يزن مثاقيل الأدلة بميزان اعتدال ذاكرته ، ويجمع فيها بين ما تعارض وتناقض بحس سليقته ، يبدي في مجال الدروس ، ما تبشر به الأرواح وتنتعش به النفوس ، وكفاك (رسالته) المشتملة على فتاواه الرائعة ، وتعبيزاته الفائقة ، فأنّها متى أمعن النظر إليها من له أدنى معرفة في العلم يعلم قدر مميلها ومنشيها . فلعمري أنها لرسالة ما قصد بكواكب سطورها غير الهدى لمن ضلّ من العباد ، سيّان العاكف والباد . وطالما أتعب يراعه في المكاتبات والمراسلات ، للوزراء والحكام ، الذين كانوا في تلك الأيام ، كالمماليك واقفة بين يديه ، مطيعة في الأمر والنهي قوليه ، بدفع المهمات ، ورفع الملمات .

وكان ذا أقوال تُصْمي سهامها ، ويبعد مرامها ، إذا كتب أعجب ، وإذا قرّر أبهر وأغرب . وكان إذا سئل أجاب ، وإذا أجاب لم ينطق إلاّ بالصواب ، تنبتُ أقواله في فؤاد السامع ، كما ينبت الروض في المرابع ، فلا ناصب لمن هو رافع ، ولا ضار بالخفض من هو نافع ، وكم أزال مِن مُلمّةٍ ، عن علماء الأمة .

الرابعة في (أفعاله):

كان يصلي بالناس جماعة في الأوقات الخمسة ، وكان مع جلالة قدره ، ومزيد فخره ، يتواضع للشريف والوضيع ، وهو كأبيه ما كانت في أفعاله معاملات ، بل كلها عباذات ، مقرونة بالنيات . وكان يسمّى بمصلح الدولتين لمّا وقع له من الأصلاح بين دولتي الفرس والروم ، مذ جهّز الفرس عساكرهم على بغداد ، لمّا كان بينهم وبين الروم من النكاد ، فأصدر بالرد أجنادهم ، وأذلّ آسادهم .

ولو رأيت مذ نادى به منادي الرحيل إلى إيران ، ولما قاربها بنيف وسبعين نفر من صحبه وجّه إليه الخاقان وزيره الأعظم الحاج ميرزا أغاسي مختبراً أن الشيخ بأي درجة من العلم وقبل وصوله نظر الشيخ في دربين كان بيده فرأى غباراً في الأرض فأنبأ صحبه بذلك ، فاختلفوا فيه ، فقال (قده) بالحدس من غير اختبار وكان جالساً على سرير نصب له متكئاً على عصا بيده : كأنّي بهذا الغبار رسول من الخاقان يختبر مبلغي من الفضل . فأقبل الوزير يمشي الهوينا خاضعاً مطرقاً لهيبته ثم قبّل يديه ووقف متكتفاً على رأسه وهو يمعن النظر

فيه ، فقال : لا تمعن النظر ولا تجل الفكر أرسلك الخاقان بكيت وكيت ، فارجع إليه وقل له : ما وجدتُ موسى بل موسى وعصاه . فصدر على الأثر وأخبر الملك أنّهُ لم يطرق بلدان إيران من قديم الزمان إلى الآن اسطوانة علامة كهذا العلم العيلم . فأمر أهل طهران بالخروج لاستقباله . حتى إذا كان وقت الصباح ، ونادى منادي الرحيل بالفلاح ، هرعت لتقبيل يديه الأصاغر ، وهوت تلثم أقدامه الأكابر ، وكان يناول الناس للتقبيل إصبعيه ، وبعضهم يأخذ رجليه ، وأناخ ركابه في مرابع ذي البأس والصولة ، أمين الدولة . فجاء (المليك) إليه بعسكره وخدمه وحشمه من المغنى القريب وجرت بينهم الصحبة . فشكا الملك إليه عدم معرفة الناس بقدره ، فدعا الشيخ باستمرارهم على هذا ، فتعجبَ الملك ودعا الملك ليُعرب عمّا قاله الشيخ . فأجابه أنّهُ ناظر إلى قولهم «لا تعرف النعمة إلاّ بعد فقدانها» ومنى الشيخ دوام وجود الخاقان ، وإن كان مجهول القدر عند أبناء الزمان . فقال الشيخُ رَفْعاً لخجل الملك من عدم تنبهه لذلك ان الخاقان أراد اختبار الأمين وانه هل يصل فكرهُ إلى هذه المطالب أم لا فوجده كذلك ، ولمّا كان اليوم الثاني جاء الملك اليه من المَغْنى البعيد ، وأعلم الشيخ بذلك فقال الشيخ نفعه لك فتحير أيضاً في معناها ودعا الأمين وسأله عنها فقال إنّهُ ناظر إلى قوله تعالى «مَنْ عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها» ، وأيضاً بادر الشيخ ليرفع الخجل عن الملك بما مرَّ. ثم انَّ الملك سألَ الشيخ عن دَيْنِه فقال إنْ كنتَ تريد وفاءه فهو غير ممكن لك ولو بكل دولتك! فتعجّب ، وسأل الأمين عن ذلك فقال له إنَّ الشيخ ناظر إلى أن كُلّ ديون مَنْ تحت الخضراء من الأرامل والفقراء ديونه ، ووفاؤها غير ممكن لك فقال الشيخ لرفع خجل الملك أيضاً هذا من ذاك .

ثم قام الملك وأوصل إلى الشيخ مبلغاً ففرّقه على فقراء ايران فلمّا كان اليوم الثالث جاء الملك إليه وبيده (قرآن) خزنوي نفيس لا تُقدَّر قيمةٌ له ، وعصى كذلك بعنوان الهدية فقبل الشيخ ذلك .

ثم لّما رجع الشيخ إلى العتبات المشرفة أرسل الملك خلفه أموالاً كثيرة والتمسه أن ينفقها على نفسه فوصلته في الكاظمين (ع) وبغداد ففرّقها على القاطنين ولم يُبقِ لنفسه منها شيئاً ، وقال : الفقراء نفسي .

ثم عاد إلى ما كان عليه من التدريس بالعلوم البديعة ، والاشتغال بما يستوجب به في الدارين نيل الرتب الرفيعة ، حتى مضى إلى رحمة ربه إمامُ الشيعة وركن الشريعة فنصبت له مآتم العزاء بكل بلد وتلاحم عليه بالنوح كُلّ أحد .

إنتهى ما انتخبناه من ترجمة السيد (رحمه الله) وقد بلغتنا حكاية (الدين) التي

ذكرها انها من الشيخ الكبير فكتبناها سابقاً على ما سمعنا والسيد ذكرها عن الشيخ والله أعلم .

وقال الشيخ صالح التميمي كما نقل عن ولده انّي بعد وفاة المرحوم الشيخ موسى أنا لا ألتذُّ بطعام ، ولا أهجع بمنام من أليم المصاب ، وعظيم الحزن والاكتئاب لفقد تلك الأيادي الفضيلة ، والهمم الجزيلة ، فيا ويح نفسي لبقائها بعد وفاته ، وكيف لا تجزع عند فراق من عاشت على أقلّ هباته ، وأيم اللّه لقد صادفت في حياته المنزل الخصب ، والسلامة مع الأمن من كُلّ خطب ، ولما استقر الأمر لشقيقه الجد التقيّ سميّ ابن عمّ النبي (ص) ، الشيخ عليّ ، أرسل اليّ كتاباً مشتملاً على نوع سؤال وعتاب ، ويذكرني فيه ما مضى ، ويعرّفني ما به اللّه قضى ، فكتبتُ له الجواب ، وسألته العفو من كُلّ باب ، وكتبتُ في صدر الكتاب هذه الأبيات :

وهل يخضرُّ عيشُ فتىً ترامتْ ... به أيدي النوى عَنْ آل (خِضرِ)
وددتُ لو أنّني من قبلِ (موسى) ... نُقلتُ على رضىً منّي لقبري
ولم أكُ بعدَهُ حيّاً ولكنْ ... برغمِ إرادتي ، الأقدارُ تَجري!

وله أيضاً مؤرخاً عام وفاته (قده) من قصيدة :

هو الدَهرُ قِدْماً سلمُهُ مثلُ حربه ... ومنْ أمنه تُنْمى صوارمُ غربه
فأنْ كنتَ في شكٍّ من الدهر فاعتبرْ ... بموسى وقبرٌ قَدْ كساهُ بتُربه
أضاءَ كبدرِ التمّ فينا عشيَّةً ... وبالصُبح قَدْ سار المنونُ بركبه
لكُلِّ امرئٍ حِزْبٌ من الناسِ شائعٌ ... و(موسى) الندى والجود من بعضِ حزبه
تمسّك بقلبِ الصبرِ ساعةَ أرّخوا ... (جهاراً سعى مُوسى لميقاتِ ربهِ)

وقد حاول معنى جيداً فلم يساعده السّبك .

وأحسن ما يعجبني في هذا المقام من التواريخ قولٌ للشيخ مُحَمّد رضا النحوي مؤرّخاً عام ختان الشيخ موسى وهو :

تطهّر موسى بالختان وأنه ... فتى طاهرٌ من طاهر مُتَطهّرِ
وما كانَ مُحتاجاً لذلك إنما ... جرتْ سُنّةُ الهادي النَّبيّ المُطهّرِ
هنُالكَ قَدْ أنشدتُ فيهِ مؤرخاً ... (لقد طهّر الرحمنُ موسى بن جعفرِ)[1]

---

(١) وفي التاريخ إشارة إلى اسم الخاتن وهو عبد الرحمن . وذكر الشيخ اليعقوبي في البابليات ، ج٢ ، ص١٣ ، أنّ

وللشيخ صالح هذا في بيت الشيخ أشعار كثيرة خصوصاً في الشيخ موسى فأنه كان قَدْ استرقّه بنواله

ولا غروَ : (فمَنْ وجد الأحسان قيداً تقيّدا)

فإذا أعثرنا اللّه على شيء منها غير هذا أدرجناه إن شاء اللّه .

(بندٌ)[1] للشيخ ابراهيم قفطان في رثاء الشيخ موسى

ولنختم هذا المقام بالبند الذي وعدنا به ، وهو من أحسن ما رأيت في بابه ، قال الشيخ إبراهيم (ره) :

أخرس النّاعي لساني ، وشجاني ، فلعمري لست أدري ما مقالي ، والليالي ، قَدْ أراعتني بتخفيق لواها ، وعلتني بصقيلات ضُباها[2] ، فهي لا تصغي إلى طور عتابي ، وطوتني بالأسى طيّ جوابي ، يا لحا اللّه كم تجرح قلبي ، بمواضي مزّقت أحناء لبّي ، ورمتني كمداً فتّ بأعضائي ، وأودى قبس الوجد بأحشاي ، فسحب العين تهمي فوق خدّي ، كلما أبرق وجدي ، مَن معيني في حنيني ، وسؤالي من ضلالي ، أربعاً حادثة العهد ، بها للمجد أطلال تداعَين ، ونأيٌ خطّه البين ، فما أقصر ما أقفر ناديه ، وما أعجل ما أمحل واديه ، وعهدي بفنا الدار ، حمى كعبة زوّار ، ومن نور هداها ، ينجلى عَنْ أعين العُمي قذاها ، وبها مفعم جدوى ، ورياض أزهرت علماً وتقوى ، لمنى الآمل والعامل ، يا طول عنائي ، أي شيء أهتديه ، في رثائي لكليم اللّه ، عين اللّه ، باب اللّه ، جنب اللّه ، أذن اللّه ، علم اللّه ، أيم اللّه ، استحقر قولي فيه ، بحر غاض ، سيل فاض ، مجد خرّ ، لطف فرّ ، شرع حال ، عرش زال ، ركن مال ، غوث شفّ ، غيث جفّ ، رضوى خفّ ، دين خاب ، بدر غاب ، عن أفق سما علياه ، كنا بمحيّاه ، هدانا ، وبيمناه غنانا ، وبمغناه حمانا ، عجباً سرعان ما أضحى مناخاً لبناتِ الدهر ، حتى أعقب الآمال يأساً لا نجاحاً ، فعلى الدهر ، قناع الخسر ، أنّى اختطفت طير مَنايا ، إماماً درس الأسلام لولاه ، وأطفى قبس الدين ، وأخفى قمر الحق عن العين . رويداً أيها الظاعن عنّا ، واحبس الركب بمسراك ، لنهدي بسنا نيّر علياك ، فويلي ثم ويلي ، كيف لا يظلم يومي مثل ليلي ، أي عذر لي إذا لم أمس بالوجد حريقاً ، تحفز العين من الدمع

حساب التاريخ مطابق لعام ١١٩٨هـ ، وذلك أنّه عدّ الألف المقصورة بالعدد (١٠) . أمّا إذا عُدّت بالعدد (١) فانّ التاريخ سيكون مساوياً لسنة ١١٨٩هـ ، وهو الأقرب إلى الصواب .

(١) أطلقت تسمية (البند) على نوع من الأدب الذي يُعتبر حَلْقةً بين الشعر والنثر . وقد إستوفى دراسة هذا الفنّ الأستاذ عبد الكريم الدجيلي في كتابه (البند في الأدب العربي) المطبوع ببغداد سنة ١٩٥٩م .

(٢) وفي نسخة (نواها) .

عقيقاً ، وأنح نائحة (الخنسا) على (صخر) ، وما (صخر) و(خنساه) ، وفي عيني قذى عائر أجفاني ، وفي جفني سفا سنبل أحزاني ، معاذ اللّه أن أسلاه ما دمت ، وقد كنت ولا أعرف ما النكبةُ لولاه ، لي اللّه على ذاك لي اللّه ، ولكني وإن عزّ عزائي أردع القلب وأنهاه ، بأمجاد رقوا هام (السماكين) فخاراً ، وبنوا للمجد والعلم مناراً ، إخوة غُرٌّ ، وأقمار ندى زهر ، فمن تلقاه منهم يتلقّاك ، بوجه يستر البدر ، وكفّ يخجل البحر ، وأنس يثلج الصدر ، وبأس يفلق الصخر ، وقد أودعها اللّـه بلا ريب ، تعالى اللّه عن مكنون علم الغيب شطراً ، ومن الحكمة ستراً ، فهم أضحوا لنا غيثاً مريعاً ، وربيعاً ، ولشرع المصطفى حصناً منيعاً ، فسُلوّاً واصطباراً يا حماة الدين .

إبتداء تفصيل أحوال الشيخ علي بن الشيخ الكبير

ثم وقع الناس بالأضطراب الشديد ، في أمر التقليد ، وباؤا بالحيرة والخسران ، وجعل كُلّ يختار شيئاً ويتّفق عليه ثلاثة ثلاثة ، وإثنان إثنان ؛ حتى كثر الجدال ، وتزايد القيل والقال ، فاجتمع جماعة من العلماء الصالحين ، من الشَيَبة المُسنّين ، وجعلوا يوماً للاختيار والتعيين ، وكان الأمر قريب الانحصار بالشيخ عليّ . ولكن كان بعض العلماء الأساطين من تلامذة أبيه وأخيه يجاذبه لها ، وينافسه عليها ، الى أن اجتمع العلماء في المسجد الهندي . وكان أغلب من حضر من المبرّزين كالشيخ خضر شلال[1] ، والشيخ محسن خنفر[2] ، وبعض السادة القزاونة[3] ، ومشايخ الأعاسمة ، وغيره من أمثالهم فوقع اختيارهم على الشيخ عليّ بعد الترجيح وتميّز طرفي الترديد ، وأن لا يقلد أحد غيره في جميع الآفاق فخرجوا وأعلنوا بذلك وأرجعوا جميع الأطراف إلى الشيخ عليّ فيقال إنَّ بعض العلماء ممن لم يحضر المجلس ممن كان يتمناها لنفسه ، طيّب اللّه ضريح رمسه ، خرج إلى الحرم الشريف للزيارة فرأى في الرواق المطهر بعض من يعلم أنَّهُ ممن كان في المجلس وقيل هو الشيخ محسن خنفر ، فقال : ما صنع أهل (السقيفة) منذ اليوم ، فقال له مسرعاً بالجواب : نصّبوا (علياً)!!

ثم جعلت العلماء تختلف إلى درسه والحضور تحت منبره ، وتشييد أمره ومفخره ، لمّا رأوا

---

(١) الشيخ خضر شلاّل ، من كبار فقهاء عصره ، ولد حدود سنة ١١٧٦ هـ/ ١٧٦٣م ، وتُوفي سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م .

(٢) الشيخ محسن خنفر ، فقيه اصولي ومحدّث ، ولد سنة ١١٧٦هـ/ ١٧٦٣م ، وتُوفي سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م

(٣) وهم السيد باقر القزويني المتوفى في الطاعون سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م ، وابن أخيه السيد مهدي القزويني (الذي أصبحَ زعيماً للطائفة فيما بعد) ، والمتوفى سنة ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٣م .

من غزارة علمه وتبحّره ، وحسن هديه في اللّه والناس بسِيَرِه . فلم يزل يكشف لهم عن غامضات الأسرار ، والحجب والأستار ، وينثر من فوق أعواده على تلاميذه ما لم يعهد مثله بأساتيذه ، من عويصات يدق دونها الفكر الدقيق ، وتحقيق مشكلات يعجز عن الوصول الى أدنى مراتبها أولو التحقيق ، حتى سمّي بالمحقق الثالث[1] كما ذكره في «قصص العلماء» وهو بها دونهما حقيق ، وصارت كلمته باللّه هي العليا ، وكلمة أعدائه هي السفلى ، وانحصر أمر تقليد الأمامية به على الأطلاق ، خصوصاً العراق ، وصارت الأموال تجبى إليه من كُلِّ مكان ، وتتمنّى المثول بين يديه الوزراء والأعيان وجرى أمره عليهم ، ومضى حكمه فيهم .

ومجمل القول فيه ، أن الأمر رجع له كما كان لأبيه وأخيه ، ولم يضرّ بمعاليهِ بعض معارضيه في أمر ترقّيه ، ولكن قنعوا منها ، بالعزلة عنه وعنها ، وترشيح النفس لها :

(إذا صادفتْ نفسٌ عليّ أجلّها)

ولما كثر القول في المرجعية أولاً وعارض من عارض أخيراً أكثرت الشعراء بنظم ما ورد في حق أمير المؤمنين (ع) ، وجعلوها من باب التطبيق في الشيخ عليّ وأنه هو المقدم . فبعضهم نظم الحديث المشهور «عليّ مع الحق ، والحق مع عليّ» ، وبعضهم شبّه الواقعة بتلك (الواقعة) ، إلى غير ذلك . ولكني أحسن ما رأيتُ في هذا الباب من الفذلكة الحسنة المبتكرة ، مع عدم التشنيع على أحد العلماء ، فأنّا إنّما أعرضنا عن ذكر تلك الأشعار لِما فيها من الهجو الصريح لبعض حجج اللّه الأبرار ، فما أحببنا تلويث كتابنا بها . ولكن السيد باقر بن السيد إبراهيم الكاظمي سلك مسلكاً لطيفاً عفيفاً حيث قال من مقطوعة لم نجد منها إلاّ قوله :

أقول لطامحين لها أفيقوا ... فهذي (حبوّةُ) الشيخِ المُطَهَّرْ
ولاها (جعفرٌ) حتى إذا ما ... قضى ، قصرتْ على (موسى بن جعفرْ)
وبعدهما تولاها (عليُّ الـ ... ـرضا) أكرمْ بهم قوماً ومَعْشَرْ

---

(١) لقب (المحقّق) أُطلق لأول مرة على نجم الدين أبي القاسم جعفر بن الحسن الحلي الذي اشتهر بلقب المحقق الحلي ، المُتوفى سنة ٦٧٦هـ / ١٢٧٧م ، نتيجةً لجهوده الفقهية المتميزة ، ومحاولة إعادة ترتيب مباحث الفقه ، وتبويبها على خلاف الطريقة السائدة من خلال كتابه «شرائع الاسلام في معرفة الحلال والحرام» والذي أصبح موسوعة فقهية لا زالتْ مدار الدراسة في المراكز الدينية الشيعية حتى اليوم .

أمّا المحقّق الثاني فهو لقب لحق الشيخ نور الدين علي بن الحسين الكركي المُتوفى سنة ٩٤٠هـ / ١٥٣٣ـ ١٥٣٤م) الذي كان من كبار فقهاء الدولة الصفوية ، واشتهر بمؤلفه الفقهي «جامع المقاصد» .

بذا التـرتيب جاءَ النَصُّ فـيـهم   وأمـــرُ اللّهِ كـــانَ هو المُقـــدَّرْ

أحوال الشيخ مُحَمّد بن الشيخ الكبير

والحاصل لم يحل عام وفاة (موسى) إلاّ وتمهدت (لعليّ) أخيه الأمور، وأذعن له جميع الأعيان وسلّم به الجمهور، حتى أخوه الحَبْرُ النحرير، المتبحّر البصير، عديم المثيل والنظير، علم العلم المشهور، ولواء الشرف المنشور، الذي كان أكبر سنّاً من الشيخ عليّ، وأعظم قدراً عند الأعراب والعوام، وأطوع أمراً عند الملوك والحكام، وأبعد صيتاً في الأقطار، وأرسى قدماً لكبره في الفخار، وأكثر عطاء وبذلاً، وأغزر شهامة ونبلاً، ولكن هذا العلم العيلم، لم يبق له الآن اسم ولا رسم، قد خفي أمره، واندرس ذكره، فوآ لهفةَ الدّين والأيام عليه. وسبب ذلك عدم (النسل) أولاً، فأنّه لم يُعْقِبْ سوى بنت واحدة كانت تحت ابن عمها الشيخ جعفر بن الشيخ عليّ[1]، وسيأتي (إن شاء اللّه) باقي الخبر، وعدم (التصنيف) ثانياً.

ومجمل أحواله فأني أعلم منك أيها الناظر في هذه الرسالة، لا تحب التطويل في قضاياه، وذكر محاسن سجاياه، لعدم معرفتك له، وأنا ضربت عنها صفحاً لذلك. على أنها غرر وأوضاح، وريحان وأرواح.

والحاصل أنّهُ كان مجتهداً مبرّزاً في أيام والده، فلما توفي أبوه، وانتقل إلى الحلة بأهله وقومه (موسى) أخوه، ثم سار إلى الكاظمين (ع). فلما قتل اللّه عدوّه[2]، وكفاه شرّه، رجع إلى النجف وبعث إلى أهله وكانوا بالحلّة فرجعوا وبقي الشيخ مُحَمّد هنالك بالتماس رؤسائها وأشرافها، فأجابهم إلى ذلك لميل طبعه للبقاء، وعلمه أنّهُ لو رجع الى النجف فأنّما يكون تحت أوامر أخيه وهو يرى القابلية لنفسه استقلالاً، وأنه مثل أخيه في الفضيلة ولا يمكنه الاستقلال بالنجف لوصيّة أبيه واشتراطه على سائر أولاده طاعة ولده موسى كما رأيته صريحاً في (وَقْفيّة) الدور، وأن الخارج من طاعة موسى خارج من الموقوف عليهم.

فبقي الشيخ مُحَمّد بالحلة مطاعاً ناهياً آمراً عظيماً مقلّداً، فاستأنس بمقامه فيهم لكثرة إعزازهم له واحترامهم، وكان يحب النوادر واللطائف المضحكة والأشعار والتواريخ. وكان كثيرٌ من هذا القبيل في بلد الحلة فانضمّوا بخدمته وعاشوا على نواله ونعمته.

فمن أصحابه ملا حسين صاحب النوادر والنكات الغريبة، (وسيأتي كثير منها في

---

(١) من فقهاء هذه الطائفة، وأدبائها تُوفي سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م.

(٢) يعني به الميرزا مُحَمّد الاخباري الذي قُتل في بغداد (الكاظمية) عام ١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م.

ترجمة الشيخ حسن) . ومنهم الشيخ صالح التميمي وله فيه أشعار كثيرة ، منها ما نقله ابن الشيخ صالح ونصّه :

قال يمدح العلامة الفاضل المرحوم الشيخ مُحَمَّد آل الشيخ الكبير ، ومقدمة ذلك عقد امرأة من آل مالك أقربائه ، وهي :

هوى بين مُـخْط وعـده ومـصـيب	بهـذا غنىً عن سـائلٍ ومـجـيبِ
أمـا واللحـاظُ البـابليـةُ حلفـةً	ومـيـلاتُ مـهـزولِ القوام رطيبِ
وتغريدُ سجع الحِلْي في ساقٍ كاعب	بأصناف ألحـان الهـوى وضروبِ
لقـد فـاز فـيـمـا يملأُ العينَ قُـرَّةً	بِغـيض بعـيـد وابتـهـاج قـريبِ
أخو العَزَماتِ الغُرّ أعني (محمداً)	ربيع اليـتـامى أُنس كُلِّ غـريبِ
رأى درةً بيـضـاءَ في آل (مـالك)	تضيءُ لغـوّاصِ البـحـارِ رَكـوبِ
عـقـيلةَ زخّـاروإنْ نَضَبَ الحَـيـا	فـمـا كـفُّـهُ يوم العطا بنَضـوبِ
متى قاصراتُ الطَّرفِ أبصرنَ خدرَها	تيـقنّ شـمـسـاً حـجّبتْ بمغيبِ
غـزاها وأهل القـريتين شـواخص	بكل ملبٍّ طاعـــة ومـجـيبِ
رأى أنّه أولى بهـا لقـرابة	تضـمـهـمـا أصلاً لخير نجيبِ
فـأصلتَ رأيَ ابن النبيِّ وأنَّهُ	لأصْلَتُ من نار ذكتْ ولهـيبِ
ومـا خـافَ من واشٍ يرنّق وِرْدَهُ	ولا من مُـريب في ثياب قـريبِ
أخـا المجـد ، وابنَ المجد تعلم أنَّ لي	بديعـاً له قَـدْ دانَ كلُّ أديبِ
منحـتُكَ كنزاً لَوْ أجـودُ ببـعـضـه	سكنتَ بواد في الغناء رحـيبِ
وأني على بُخلي بِسَوْمِ بضاعتي	بَذلتُ كأنَّ البـذلَ كـانَ نصـيبي

إنتهى محل الحاجة منها .

ومنها : ما نقله ابنه أيضاً عن أبيه أنَّهُ قال : وشى بي قوم عند الشيخ مُحَمَّد ، وقالوا له : عرّضَ بذمِّكَ ، وحاشا وكلا أن يصدر ذلك مني وهيهات أن أسلك تلك المسالك ، وبالخصوص فضله عليّ لا يحصى ، وإحسانه لا يستقصى . فحين أخبرتُ بذلك أتيتُه معتذراً عما قيل ، واتفق ذلك اليوم يوم عيد الفطر . فأنشدته قصيدةً غرّاء في حرف (الراء) . (ولم يجد المؤلف منها سوى هذه الأبيات وتعذر الباقي) ، وهي :

وكيف تراني أرمي عرضَك جاهداً
وعرضُكَ ما يومٌ أُريش له سهمُ
فهَبني تعاطيتُ (المسبّةَ) عامداً
أليس الذي يُرجى بك الصفحُ والحِلمُ؟!
إذا كنتُ نَفْساً منك أُدعى فما الذي
يضرّ إذا يوماً أضرَّ بها الجسمُ
أبا (قاسم) سمعاً لما أنا قائلٌ
وإنْ لم يفِ فيما أقول به نَظْمُ
ودونَكَ قَدْ أوتيتُ علماً وحكمةً
ببعضهما تنقادُ قَسْراً لك الشمُّ
فكم سالَمَ الأنسان من هو حربُهُ
وحاربَ مَنْ قَدْ راح وهو له سِلمُ
وما آفةُ الأنسان إلاّ لسانه
وأفعاله أفعى له ، والهوى سُمُّ
وجَور ذوي القربى هو الجور والعنا
وظلم ذوي الودّ القديم هو الظلمُ
ولا خير فيمن لا يوقّره التُقى
ولا خير فيمن لا يصدّره العلمُ
وأذوك خَلْقٌ مَن يقدّم نفسه
وليس له في كُلّ مكرمة قدمُ
وأنّي امرؤٌ ما ضيّع الحزمَ ساعةً
ولكن لَعَمْرِ اللّه ضيّعني الحَزمُ
سموتُ بِجَدّي بل بجدّي وقلّما
من الناس يوم السَبْقِ مَنْ بهما يسمو
وما من فتىً حاز السباق إذا جرى
(بجدّيهِ) إلاّ والأنامُ له خَصْمُ

وكانت شعراء النجف تراسله الى الحلة وتستجديه ، فيبعث لهم بالأموال والهدايا . فمن ذلك ما بعثة الشيخ ابراهيم قفطان سنة ١٢٤٤ متعرضاً لمدح أبي حسن بيك داود پاشا[١] وقد قتل بعض طوائف العرب ، معرّضاً بأعدائه وحُسّاده ، وهي :

ربوع (الجامعَيْنِ) استوقفيني
سقاكِ مضاعف الغيث الهتونِ
أُجدِّد للهوى عَهْداً وأقضي
على رغم العذول بها شؤوني
يحرِّكُني الهوى شوقاً إليها
فيُمسي في معاهدها سكوني
أَلا مَنْ مبلغاً عنّي سلاماً
إلى حيٍّ بجانبها قطينِ
أنستُ بأهله وأقمتُ فيه
زماناً أتقيهِ ويتقيني
وأطمعني الهوى شهداً وغنّتْ
بهِ وِرقٌ[٢] السرورِ على الغُصونِ

---

(١) الوالي داود پاشا من كبار ولاة بغداد حكمَ منذ عام ١٢٣٢هـ / ١٨١٦م حتى عام ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م ، وكان من العلماء الأدباء ، تولّى أواخر حياته مشيخة الحرم النبوي ، وتُوفي سنة ١٢٦٧هـ / ١٨٥١م في المدينة المنورة ، ودُفِنَ بمقبرة (البقيع) . وبه انتهى الحكم المملوكي في العراق .
(٢) الوِرق : الحَمام .

أهيمُ إذا سـمـعتُ حنينَ (ليلى) إليّ فـأبلغـوا ليلى حنيني
وحـيّوا حـيَّـهـا عَنْ مُـسْـتَـهام تحـيـةَ مُـوْلَع فـيـهـا ظنينِ
وردّي يا أمـيـمـةُ لي بقـايا فـؤادٍ في منـازلهـا رهينِ
جنونُ (العـامـريِّ) يدورُ حـيناً وأطبقَ في الهـوى (ليلى) جنوني
أمـيـمـةُ عند ذاكَ الحيّ رَبْعٌ تنازعنا به سـفك الدّنونِ
مُـدامـاً دبَّ في رأسي هواها كـمـا دبَّ الرقـادُ على جفوني
تذكـرني فـقـاقـعُـهـا أكـفـاً فـقـاقـعـهـا من الدُرِّ الثـمينِ
وتُشْبِهُ في تشعشعـهـا لُجيْناً يذبُّ به ابنُ (جعفـرَ) عن ديوني
(مـحـمـدُها) وأحْمَـدُها صفـات وأرشـدُها إلى نهجِ اليـقينِ
وأمـجـدها وأجـملهـا ثناء وأنداها بكـالحـةِ السنينِ
وهل عَـذْبَ الثنا في كُلِّ فـرد تَعـالى عن نظيـرٍ أو قـرينِ
غنيٌّ في العُلى عن رسم حـدٍّ مُـطاع فـي الملا ملك مـكينِ
عليم ينتـهـي في كُلِّ علم إلى نفثـات (جبـريل) الأمينِ
يفـيضُ العلمُ من بحـر غـزير وينـفـق منـه عن كـنـز دفينِ
مناقبُ قَـدْ عَـقَـدْنَ عليكَ عـزّاً تكلُّ لديه باصـرةُ العُـيونِ
سـمت في دولة الملك المُفـدّى حـسام الدين والعضب اليمينِ
ورُبَّ طوائف مـالتْ سـفـاهاً مـعـاطفُـهـا على عِلْج خـؤونِ
يزخـرفُ منَ وسـاوسـهِ أماني تَمـرُّ على المسامع كـالطّعينِ
فـعـالَجَـهـا (أبو حسن) بجيش يثجّ صـواعقَ الحـرْبِ الزبونِ(١)
وأغمـد في جماجمها حساماً أقلّتْـهُ يدا ليثِ العَـرينِ
حُساماً في لظى الهيجاء يتلو على فُرْسـانِهـا «يا نار كـوني»!
فـتلكَ رجـالُهمْ صَـرْعى وأسـرى تُجـزّرُ في السـهـول وفي الحزونِ
وسـامَ حصونَهمْ رَدْماً فـأمستْ تُنادى أينَ سكانُ الحُـصـونِ
فـيـا مَنْ طالتِ الأفـلاكُ فـيـهِ وخـبَّـرها عن الرسم المُبينِ

---

(١) يَثجُّ: يُطلق عليهم صواعق الحرب.

رجـوتُكَ والكليمُ أخـاك عَـوْناً على (دَيْني) المبرّح بي ، و(دِيْنِي)
فـحـالَ الدهرُ دون أخـيكَ عني فـيـا للدهرِ صـاعـقـة المنونِ
وأبـقـاكَ الزمـانُ عليَّ ظلاً ظليـلاً عن نوائبـه تقـيني
لكَ السَبقُ الجليُّ بكُلِّ مـجـد على حلبـاتِ أسلافِ القُرونِ
ظننتُ بكَ الجميلَ فـلا تُخيِّبْ وحـقـقْ أيُّهـا المولى ظنوني
إليكمْ أيُّهـا الغُـرمـاء عني دعـوني أنَّ لي أمـلاً دعـوني
ركنتُ إلى النَدى كـهـلاً وطفـلاً فكانَ إليكَ في أملي ركـوني

والحاصل أنَّهُ كان (رحمه اللّه) ممن ألقى إليه الدهر مقاليده ، وأعطاه الشرف والفخر طارفه وتليده .

وكان أهل تلك الأطراف يسمونه بالذي (يفكّ من الصلب) ، وهو مَثَلٌ يُضرب لمن تنتهي إليه رئاسة الأمر والنهي ، ولكن كان الشيخ مُحَمَّد هذا منطبقاً عليه هذا المثل في الواقع . وذلك أن بيك الحلّة ، وواليها كان ناصباً على باب محكمته جذعاً ، وكل من سخط عليه أمر جلاوزته فصلبوه عليه ، فكان أهل المصلوب تستجير بالشيخ مُحَمَّد فيبعث وكيله إلى بيك الحلة يأمره بأطلاق المصلوب ، فأنْ أدركه قبل هلاكه أطلقه وإلاّ أخذ من البيك ديّته وأعطاها لأهله . وكان كُلّ ذلك ببركة وجود الشيخ موسى وجلالة قدره ونفوذ أمره على سلطان العراق الذي ضُربت (السكّة) باسمه (داود پاشا) منصوب الشيخ موسى[1] . فكان الشيخ مُحَمَّد يصول بساعد أخيه ، وكانت أهل الحلّة تخشاه وترجوه أشد مما تخشى حكامها ، وكانوا إذا مدحوه ذكروه في مرتبة أخيه خوفاً من بأسه .

فمن ذلك ما قاله الشيخ صالح التميمي أيضاً يمدحه مع أخيه الشيخ موسى (رحمهما اللّه) :

مَنْ لي بوصف (مُحمد) ، وصفاتُهُ طارتْ بقـادمـتي عـقـابِ طائرِ
في الجَدْب تُسْتَسْقى مواهب كفّه فـتـصـوب تبـراً عن ملثٍّ هامـرِ
هو رحـمـةُ اللّه التي هي نعـمـةٌ للمـؤمنين ، ونقـمـةٌ للكافـرِ

(٢) يُشير المؤلف بهذه العبارة الى وساطة الشيخ موسى كاشف الغطاء لدى الشاه مُحَمَّد علي القاجاري في تسوية الخلاف بين الدولتين الفارسية والعثمانية وإطلاق سراح المُعتقلين الذين أسرتْهُمْ قواته إثر واقعة عسكرية .

إن كانَ (مُوسى) فيه قامتْ حجّةٌ (بمُحمـدٍ) حـججٌ بدتْ للناظرِ
والفرقدانِ كلاهُما في رُتْبَةٍ ما فيهما حيثُ العُلى مِنْ قاصرِ
فاسلمْ ودُمْ حيثُ الأراملُ ما لها مِنْ كافلٍ كلا ولا مِنْ ناصرِ

وقال السيد في (يتيمته) :

ونحمدك يا من تفضل علينا بالبدر الأنور ، مُحَمَّد بن جعفر . والكلام فيه في مقامات .

الأول في أقواله : كان لا يفوه إلاّ حقاً ، ولا ينطق إلاّ صدقاً ، الى غير ذلك من الصفات التي عرفتها بأبيه وأخيه ، إلاّ أنّهُ ينقص عنهما بدرجة وهو عدم إلتزامه بحالتيهما من الضبط عن الملاطفة والمداعبة وإنشاء الشعر وإنشاده ، حيث كان ساكناً في الحلة الفيحاء ولازم ماءها وهواءها ذلك .

الثاني في أفعاله : وكان كثير المساعي في الخيرات ، والأعانة لأرباب الحاجات ، كثير السهر في الليال ، بعبادة ذي الجلال ، وكان أكثر أفعاله الواجبات والمندوبات .

الثالث في علمه : وكان مدرساً بشرذمة قليلة من صحبه ، مفتياً فيمن كان بين أظهرهم ، حاكماً بما أنزله اللّه عليهم ، ولكن لم يبلغ مراتب أبيه وأخوته على ما نقل . وما برزت له إلى الخارج مؤلفات معتنى بها ، ومسألةٌ يُعوَّل في التقليد عليها ، ولكن الاجتهاد فيه محقق ثابت ، بل هو قليل في حقه ، فقد وفى بإيجاز العلوم وتطويلها ، وأحاط خُبْراً بكثيرٍ وقليلها .

الرابع في حالاته وعزّته وعلوّ قدره : وكان جليلاً في الأنظار ولاسيّما في أنظار ذوي المناصب والحكام ، فكم من أسير أطلق ، وكم من مطلق أسر ، وكم من طريدٍ آواه ، وعار كساه . وكان مهاباً كأبيه تُخشى سطوته ، وتُرجى نعمته ، ولا تُؤمّن نقمته ، وما انطوت على غير الارتباط مع جبار السماوات سريرته ، ولا يفخر وإن فعل ما فيه الفخر ، ولا يأخذه العُجب من نفسه فيما جلب من نفع أو دفع من ضرّ . وكانت له هيبة في القلوب ورهبة تخشى منها الأسود ، وسطوة تنجلي بها الكروب ، وكان ذا مزايا كأمثال الشهب ، يحق أن ترسم في صدر الكتب ، ولكن منع من ذكرها قصد الأختصار ، ومنافاة الغرض الذي عرفت ، وإنا لسنا ممن عاصره .

الخامس في مساعيه : أمّا في السرّ فأرضاء باريه ، وأمّا في العلن فقضاء أمور المسلمين والاهتمام بمطالبهم ، وإنجاز مآربهم ، وفك المسجونين ، ودفع مظالم الجائرين ، وتشييد أركان الشريعة ، وتأييد الشيعة ، كُلّ ذلك ابتغاء مرضاة اللّه تعالى .

السادس في عقبه : ولم يعقب سوى بنت هي حليلة البرّ الشيخ جعفر ، ابن عمها الشيخ علي نجل الشيخ الأكبر .

واجتمع عليه عدة من المشتغلين من أهالي الحلّة وغيرها ، فكان يباحثهم فقهاً وأصولاً . فمما يُنقل من نوادر ملا حسين أنَّهُ قال للشيخ مُحَمَّد ، وكان الشيخ عازماً على المسير إلى النجف للزيارة : أعطني (كذا) مقدار لأعطيه لعيالي مَصْرَفاً وامضِ للزيارة وإلاّ (خجلتُكَ) في النجف ، فأعطاه الشيخ نصف طلبته . فلما جاؤا إلى النجف نزلوا عند الشيخ علي ابن الشيخ الكبير ، فلّما صار العصر واجتمع العلماء عند الشيخ مُحَمَّد ، (والشيخ عليٌّ حاضر) إلتفتَ ملا حسين وقال للشيخ علي : يا شيخنا إن الشيخ مُحَمَّد يباحث في الحلّة ، فقال له : سمعتُ ذلك وفقكم اللّه ، فقال : ولكن ما أظنك سمعتَ بأنه لم يُبقِ سوقاً لكم بكثرة التفريع والتشقيق والأستنباط حتى أنسى ذكر أبيه وأخيه . فتعجب الشيخ علي والعلماء وقالوا : كيف ذلك؟ فقال : إنه كان يباحثنا في كتاب الوقف فقال عند الشروع به بسم اللّه الرحمن الرحيم ، (بحماسة وصوت عال) : لو قال الواقفُ (قوق) لم ينعقد الوقف ولو قال (قيق) لم ينعقد ولو قال (قاق) لم ينعقد أيضاً . وكذا صنع في كتاب الطلاق فأنه قال بعد البسملة لو قال : (طيط) لا طلاق ، ولو قال : (طوط) أيضاً لا طلاق ، ولو قال (طط) أو (طاط) لا طلاق .

فلم يزل ملا حسين يحرك يده ويهزّ جسده ويده ويأتي بهذه المهملات وأمثالها حتى (أهلكَ) الحاضرين من (الضحك) حتى الشيخ مُحَمَّد . ثم إلتفتَ إليه وقال : هذا عوض المقدار الذي خلفته لك من طلبتي .

وفاته ومراثيه

ولما تُوفيتْ زوجتُهُ بنت أزخار (رئيس عشيرة من الأعراب) إجتمع عليها ما يزيد على العشرة آلاف فارساً من الحلّة ونواحيها وجاؤا بها إلى النجف ، وتُوفي هو في الطاعون سنة الألف والمائتين والسبعة والثلاثين ، وذلك في الوباء الكبير الذي أفنى أهل العراق ، فجاء بجنازته ثلاثة أنفار من خدمه فخرج الشيخ علي مع من بقي في النجف إلى خارج البلد واستقبلوه ، وجاؤا به إلى مقبرة أبيه فدفنوه . فرثته الشعراء بمراثٍ كثيرة ، وأحسنها ما قال الشيخ إبراهيم حيث قال يعزّي أخاه ويرثيه :

طالعتُ نعشَكَ والقَرينُ الفَرْقَدُ　　　لا تعجبوا فالنعشُ فيه (محمدُ)

رفعتْهُ أملاكُ السماء مظنّةً ... أنْ في السماءِ لها إمامٌ يُلْحَدُ
وهبطتَ في وادي الغريّ لتربة ... لك في صفائحها مزارٌ يُعبدُ
في مشهد ضجّت مآتمُ أهله ... أسفاً عليك فكُلُّ دار مَشْهدُ
للّه تربتك الزكية كم بها ... ـ عكفتْ ملائكُ ـ ركّعٌ أو سُجَّدُ
وتضمّنتْ علْماً وحلماً راسخاً ... وندى وبدرَ هُدىً وفيها السؤددُ
واستنزلت فلك المكارم وانطوى ... فيها خضَمٌّ بالفضائلِ مُزْبِدُ
عَجَباً لها ضمّت مآثرَكَ التي ... من دون عُدّتها الرمالُ تعدّدُ
يا ظاعناً عنّا وخلّفَ جذوةً ... في قلب كُلِّ موحّد تتوقدُ
أبداً فلا نارٌ تبوخ ولا حشا ... منا تقرّ ولا عيون تَجْمَدُ[1]
كَبِدٌ مُقرّحةٌ وطرفٌ أرمدُ ... وحشاً مؤججةٌ وعيشٌ أنكدُ
وأضالعٌ مسجورةٌ بلظى جوى ... وحشاشة طاحتْ ، ووجدٌ سرمدُ
أ(مُحمّدٌ) ومَنْ الذي خلّفتَهُ ... فينا يغيثُ المُسْتَغيثَ ويُنْجِدُ
مَنْ للأماثلِ في شواكل دينها ... مَنْ للأراملِ بعد يومك يَرْفِدُ
مَنْ للسداد وقد تعفّى نهجُهُ ... فأغارَ أقوامٌ وقومٌ أنجدوا
مَنْ للعباد وقد أضاعتْ رشدَها ... في الدين والدنيا وأنت المُرْشِدُ
مَنْ لليتامى كالئٌ أو كافلٌ ... مَنْ للأيامى مسعف أو مسعدُ
مَنْ للأنام من المهالك منقذ ... مَنْ للمروع من الحوادث مُنجِدُ
مَنْ للممالك ساعدٌ ومُساعدٌ ... ولأنتَ طالعُها السعيدُ الأسعدُ
مَنْ في ثغور المسلمين مُرابطٌ ... رَصَداً وأنتَ لها الرصيدُ المُرْصِدُ
مَنْ للشريعةِ جامعٌ لشَتاتها ... فالشملُ منها إذْ نَعَتكَ مبدّدُ
مَنْ للمَحاريب التي أحييتَها ... متبتّلاً في ليلها تتهجدُ
أُقبِرتَ بعد مفاخر بك قدْ زهتْ ... والسيفُ منْ بعد الضريبة يُغمدُ
ومرحت في سَعَةِ الجنان ، ومَضّنا ... سجنٌ بحافته الصواعقُ تَرْعدُ
ماذا أقولُ معزّياً إخوانَهُ ... ولهم حجى رأس عُلاهُ ومحتدُ
قُلْ يا أبا (المهديّ) لا تجزعْ فما ... حيٌّ وإنْ طال البقاءُ يُخلّدُ

(١) تبوخُ النار بمعنى ينطفي لهبُها .

وهو العليمُ بأنَّ عـاقـبـةَ الأسى في النشأتين على العواقب تُحمدُ
وبعــزّهِ سلوانُ آل (مـحـمّـد) وبغـيـر شـرعـتـهِ الورى لم يقـتـدوا
رمــز الكتــاب بأنّهُ النجمُ الذيً لولا سناهُ عليــهم لـم يهـتــدوا
ضَـرَبَ الجـلالُ عليـه رائقَ روقـه وعلى شـمـائله الخناصـرُ تُعْـقَـدُ
يا آل (جـعـفرَ) أنتمُ البحـرُ الذي هو للعـــوالم فـي العلوم المورِدُ
ولأنتمُ البـيـتُ الحـرامُ لنا به أمنٌ وينجحُ في فناهُ المَقـصـدُ
لكمُ المسـاعي الغُـرُّ والمِدَحُ التي فــيــهُنَّ ألسنةُ الثناء تُغـرّدُ
لـكم الأيادي المالكات رقــابنا طُرّاً فنحنُ لكم جـمـيـعـاً أعـبـدُ
شـيـدتمُ الأسـلامَ وانتـقـضتْ بكمْ مِلَلُ الضـلال تنصّـرٌ وتهـوّدُ
وإذا ادّعـيت لكم مـقـامـاً دونهُ (زُحلٌ) فـأقلامُ القضـا لي تَشْـهَـدُ
لا يسـتــهلُّ وليـدُكُمْ إلاّ بما فـيـه شـعـارُ الدينِ سـاعـةَ يُولدُ
أثرُ المفـاخـرِ في سـواكم (مُـرْسَلٌ) وحديثُ فَخْرِكُمُ (صَحيحٌ) مُسْنَدُ
إنْ غـابَ منكم (سـيّـدٌ) عنّا يَقمْ فـينا بأعـبـاءِ الأمـامـة (سـيّـدُ)
(أصلٌ) لكُلِّ فضيلة ، (فصلٌ) بكُلِّ (قـضـيـة) ملك مطاعٌ أصـيـدُ
فَــرْعٌ قــويمٌ ، بابُ علم جُنَّة مـسـتـحـقبٌ نقل الشـريعـةَ سـيّـدُ
بالرأي في فـصل الخطاب مُـؤيدُ بالـوحيّ في علم الكـتـاب مـسـددُ
يا مُـفْـرَداً في حـفـرة أنسَتْ به وكــذاك مَنْ سَكَنَ المقـابرَ مُـفـرَدُ
كم لي على مثـواك وقـفَـة ناشـد لو كــان يسـمعُ مَـيِّتٌ مَنْ ينشـدُ
أرثـيـك يـا مَـنْ لم أحُطْ بـثنـائـه ومَنْ المحـيـط بعَـدِّ مـا لا يَنْفَـدُ
في زفـرة حَنَتِ الضلوعَ على حـشـا ذابتْ فـهـا هي لي قـذىً تتـصـعّدُ
أو حـسـرة تزجى سـواجم عـبـرة في أجـرعـيـه فَـمُـبْرِقٌ أو مُـرْعِـدُ
منّي إليكَ تحـيـــةً مــوصــولةً مـا أنْ تزالَ بهـا الملائكُ تَصـعـدُ

وكان رحمه الله على جلالة قدره وهيبته خفيف الأطراف حلو الشمائل يحب الهزل والمجون ، بالضد من أخيه الشيخ عليّ فأنه كان وقوراً جهماً شرساً قليل الضحك كثير التفكر ، فلذا كان رجوع الأمر إليه دون أخيه الأكبر زيادة على عدم جلوسه في النجف ، فكان مسلك الشيخ علي أدخل في العلم وأوقع في نفوس العلماء .

ولنختم هذا المقام بكتاب رأيتُه في بعض المجاميع وأنه من الشيخ مُحَمَّد إلى الصدر لَمَّا عُزل ثم أرجع إلى محلّه ، وهو يدل أنّ صاحبه له النصيب الأوفر من البلاغة والأدب ، وهو :

إنّ أزهى درر تخرج من بحار الأشواق ، وأبهى غرر تقذفها الأفكار بسواحل الأوراق ، وأحسن رياض زهت في حدائقها لوامع الأنوار ، وألطف رياض تفتقت من بواسقها كمائم سواطع الأزهار ، وأعلى ما يتراسل به أرباب الوداد والوفا ، وأحلى ما تتوشح به طروس الأتحاد والصفا ، سلام صفت موارده ، فأشعر بالوداد القديم ، وعذبت مناهله ، فأعرب عن عذوبة حب مستديم ، وثناء أشرقت شمس جماله في جميع الآفاق ، وبزغت كواكب إقباله مقرونة بجزيل الأشواق ، ودعاء تزاهرت لئالئ أبكاره في صحائف الأوراق ، وتفتحت أكمام نَوّاره بنسيم لطائف الأشواق ، إلى قطب دائرة الجلال ، وسمط قلادة الكمال ، سليل الفخار ، رفيع بناء المجد عالي المنار :

(بسيط) اليدين (سريع) الأيادِ (مديد) النِجار (طويل) النجادِ

الأريحيّ الذي يهتزّ للعطاء ، (كما إهتزَّ تحت البارح الغصنُ الرطبُ) ، ويلتحف ببهجة السخاء ، (كما التقت الصهباءُ والباردُ العذبُ) ، الألمعيُّ الذي يستقرب الأقصى بأقرب إيحاء ، وأوجز إيماء[1] ، كيف لا وهو من كرم الأخلاق ، في ملابس لا يقدر الدهر على إخلاق جدّتها ، ومن طيب الأعراق ، في مغارس لا يستطيع الزمان إبلاء بُردتها ، مولى ألقت إليه العباد مقاليدها ، ومَلَكَ من المعالي طارفها وتليدها ، مدّ اللّه أطناب ظلاله في دولة راسية الأوتاد ، ونعمة متصلة الأمداد ، إلى يوم التناد ، بمحمد (ص) وآله .

أمّا بعد : فأنّه لّما اتصلت البشائر بما جدّد اللّه من المجد ، لقرين السؤدد والسّعد ، من النعمى ، وأضاف إليه من السعادة الكبرى ، كان جديراً بالتهنئة الرائقة ، والدعوة الصادقة ، فهنّاكَ اللّه بهذه المناقب التي لم يَحُزْها مَنْ نقّب في الأرض وطوّف ، ولم يحظ بها من طلبها ولو تكلّف :

ما كُلُّ مَنْ طلبَ المعالي نالَها كَلا ولا كُلُّ الرجـال فحـولُ

وأسعده اللّه بهذه المنزلة التي كانت مشتاقةً إليه شوق الصادي الى الماء ، والعليل إلى الشفاء ، والمهجور إلى الوصل واللقاء ، فمرحباً بذي المساعي الغرّ وأهلاً ، وسقياً لمن سقانا من سحاب ودّه علاً ونهلاً ، وبشرى سعادة ترجى من اللّه أن يصل أولاها بأخراها ، وجلالة

(١) علّق المؤلف على هذا الموضوع بقوله «هذه الفقرتان على ما ببالي لبديع الزمان» .

نؤمّل أن يبلغ سدرة منتهاها ، ونعمة أدام اللّه أيام جمالها ، وأفاض عليها صافي سجالها ، والسلام .

باقي أحوال الشيخ علي نجل الشيخ الكبير

ولنرجع إلى إتمام أحوال الشيخ عليّ فنقول :

هو أجلّ من أن يذكره الذاكر بأطراء ، وأعظم من أن يفرط فيه المادح بالثناء . أمّا جوده فقد كان (رحمه اللّه) له في كُلّ قطر من الأقطار (وكيلٌ) يقبض الأموال والحقوق ويقسّمها في فقراء تلك البلد ، فأنْ أعوز الوكيل ما في يديه ، بعث الشيخ مما عنده إليه ، لبذله على المساكين ، وأغنائهم أجمعين . حتى أنّهُ لمّا تُوفي كان عليه من الدّيْن ، ما يبلغ الخمسة آلاف تومان والمائتين ، فلم يوضع جسده الطاهر في حفرته ، حتي نقلها ولده الشيخ مُحَمَّد[1] برضاء الغرماء الى ذمته .

ولم يخرج لبنيه من التركة إلاّ شيء يسير لا يفي بمعيشة سنة . فقد حدثني خلفه عمي العباس أن حظه من تركة أبيه أربعمائة قران ، وهكذا باقي إخوته الأعيان .

ونقل السيد البراقي في «معدن الشرف» عن السيد حسين[2] بن العلم المهدي عن أبيه هذا ، (وكان من أعيان أصحاب الشيخ وأجلاّء تلامذته ، وهو مع ذلك زوج ابنته) ، أن الشيخ كان إذا هدأت العيون ، ونامت الهواجس والظنون ، جعل الشيخ يطوف بنفسه على دور الفقراء والمساكين ، خصوصاً العلويين ، ويدفع لهم (صُرَر) الدراهم والدنانير ، فكانت (العَلَويّة) تقول له إذا دفع لها نصيبها : من أنت؟ فيقول لها : «أنا بعض خدّامكم الراجي شفاعتكم» .

ونقل أيضاً أن الحاج إبراهيم شريف (أبو حاج قنبر شريف) كان هو محل اعتماده ، وموضع أسراره ، ومدار جميع أموره ، وكان هو يقبض الحقوق والشيخ يحوّل مستحقيها عليه . فجاء الحاج إلى الشيخ وقال : يا شيخنا جئت أشكو إليك ضيق أمورنا ، ونفاد ما عندنا ، لكثرة من تحيله حتى نفدت جميع الحقوق ، واستقرضت حتى خجلت ، وبعت أسبابي وأغلب ما ملكت ، فقال الشيخ : إني البارحة عزمت على زيارة إمام خراسان ، فدبّر لنا ما يوصلنا الى كربلاء واللّه كريم ، فعسى الأمام الرضا ، أن يلحظنا بعين الرضا ، فيقضي

---

(١) الشيخ مُحَمَّد بن الشيخ علي تُوفي سنة ١٢٦٨هـ / ١٨٥٢م .

(٢) السيد حسين بن السيد مهدي القزويني تُوفي سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م ، وكان من كبار فقهاء الأسرة القزوينية الحليّة ، وأدبائها ، والشيخ علي كاشف الغطاء هو جدّه لأمّه .

ديوننا . ففعلت ، وركبنا مع بعض الخواص حتى جئنا كربلاء فجاءتنا الأموال تترى ، فجعل الشيخ يحوّل عليها حتى نفدت ولم يبق للطريق كراء ، فمضيت الى بعض من لي معه معرفة فنقلت له توقّفنا وحيرتنا بأمر الكراء ، فبذل لنا ما يوصلنا إلى البلد التي نحن متوجهون إليها .

فلم يزل الشيخ على هذه الطريقة حتى صرتُ أردُّ (الحوالة) فجعل يقبض الأموال بنفسه ويفرّقها بيده ، وجعلت نفسي تتقطع من الأسى والوجد على الشيخ وفعله وعدم التفاته للحال الذي خرجنا به ، حتى صرنا في أمصار العجم فجعلوا يأتوننا بالأواني والأجن الكبار ، وهي مملوءة بالدرهم والدينار ، والشيخ يفعل بها فعله في سائر الأمصار . حتى جاؤونا بعض الأيام بستّ (صواني) مملوءة بالتوامين ، فدخلت على الشيخ وقد وضعت بين يديه وهو منفرد ، فقلت له بغضب : إنّا واللّه أفقر الفقراء ، وأعدم المعدومين ، أفما آن أن تلتفت لحالنا مع المساكين؟! فقال لي بانخفاض : مهلاً يا إبراهيم ، الى أين ذهبت عن قوله تعالى : «ومَنْ يقرض اللّه قرضاً حَسَناً يضاعفه له»؟ فقلت : وهلم جرا ، فمتى الاستيفاء؟ فقال : خذ نصفها ودع الباقي للفقراء وارفعها عاجلاً قبل أن يأتي بعض المستحقين ، فواّ اللّه لن ترى حينئذٍ لها أثراً .

وأمّا علمُهُ وعلوّ درجته في مراتبه فما أدري ما أقول لك فيمن خرَّجَ من تحت منبره مثل شريف العلماء[1] ، والسيد إبراهيم[2] صاحب «الضوابط» ، والشيخ مرتضى[3] ، والسيد مهدي القزويني[4] ، ومير فتاح[5] جامع «العناوين» ، وغير هؤلاء من العلماء الأساطين ، ممن لا يخفى عليك علوّ قدرهم ، وتناهي مفخرهم ، وكلّهم يَردونَ من عُباب بحره ، ويصدرون عن نهيه في التدريس وأمره . وكان اشتهاره بالتحقيق والفضيلة والاجتهاد وعلو المنزلة في زمان أبيه ، وكان كلما ذكره أوسمع بذكره يقول : أطال اللّه بقاءه ، وجعلني فداءه . فمن ذلك ما في رسالته المسماة بـ «الحق المبين في ردّ الأخباريين وتصحيح عمل المجتهدين» ،

---

(١) شريف العلماء هو الشيخ مُحَمَّد شريف المازندراني الحائري كان من أكابر فقهاء زمانه ، تخرَّج على يديه جيل كبير من المجتهدين . تُوفي سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م .

(٢) هو السيد ابراهيم الموسوي القزويني الحائري المُتوفى سنة ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م . وقد اشتهر بكتابه «ضوابط الأصول» المطبوع طباعة حجرية ضمن مجلد كبير .

(٣) هو الشيخ مرتضى الأنصاري فقيه الأمامية في عصره ، ومجدد مناهج الأصول ، المُتوفى سنة ١٢٨٢هـ / ١٨٦٥م .

(٤) السيد مهدي القزويني زعيم الأمامية في عصره ، تولّى المرجعية الدينية بعد وفاة الشيخ الأنصاري ، وأصبح (المرجع) المطلق لطائفة الأمامية في السنين العشرة الأخيرة من القرن الثالث عشر الهجري . تُوفيَ عام ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م .

(٥) المير فتّاح بن السيد علي المراغي .

حيث قال في مقام سبب تصنيفها بعد كلام طويل ماهو هذا : لكن دعاني إليه ، وأوجب عليّ القدوم عليه ، إلتماس ولدي الطاهر المطهر ، علي بن جعفر ، أطال اللّه بقاءه ، وجعلني فداءه ، مع كثرة ما رأيت من طعن الجهلاء ، على ورثة علوم خاتم الأنبياء . (إنتهى محل الحاجة) .

ونقل البُراقي عن العلامة القزويني[1] أن درس الشيخ عليّ كان مشتملاً على ثمانمائة تلميذ كلهم ما بين مجتهد ومراهق ، وكل هذه التحقيقات والتدقيقات والأصول التي هي اليوم بين أيدي الناس هو أصلها ، وعنه مصدرها ، تداولتها تلاميذه فنثرتها على جباه الأوراق ، ورتبتها حتى رقّ مشربُها وراق ، كما يدل على هذا ما في «قصص العلماء» ، حيث قال (وهذا نص عبارته) :

وبعد وفاة الشيخ الكبير جلس ولده الأكبر الشيخ موسى مكانه للتدريس ، وكان فقيهاً وحيداً متفرّداً بعد أبيه . ونُقلت عنه تحقيقات هي في غاية الدقة والمتانة . وعندما تُوفي الشيخ موسى حلَّ الولد الثاني الشيخ علي محلّه ، وكان تلامذته الكثيرون قَدْ أطلقوا عليه لقب (المحقق) الثالث نظراً لانفراده بتأسيس القواعد الكلية ، وتفريع الفروع في جميع الأعصار ، ويشهد على ذلك كتاب (العناوين) الذي ألّفه تلميذه (وتلميذ أخيه الشيخ موسى) السيد فتّاح بن السيد علي المراغي الذي أختصّ بالقواعد الفقهية الكلية مع أدلتها وتفريعاتها . ويُعتبرُ كتاب «العناوين» أفضل من كتاب «القواعد» للشهيد الأول ، لأنّ كتاب القواعد وإنْ وردت فيه القواعد الكليّة والفروع إلاّ أنَّ الشهيد لم يذكرْ أدلتها بل اقتصر على ايراد المصالح والحكم .

كما يُعتبر كتاب «العناوين» أفضل من كتاب «عوائد الأيام» للملا أحمد النراقي . فبالرغم من أنّ كتاب «العوائد» فيه منافع عدّة إلاّ أنَّ :

١ ـ فروع هذا الكتاب قليلة .

٢ ـ لم يحو إلاّ نصف القواعد التي حواها كتاب «العناوين» .

٣ ـ أورد مؤلفه الكثير من التحقيقات الفلسفية في المسائل الفقهية الموروثة عن الاسلاف من الفقهاء التي هي بعيدة عن مذاق الفقه ، والفَهم العُرفي .

وقد أدخَلَ بعضُ الأصوليين كذلك في مباحث أصول الفقه (بالنسبة لأصل البراءة ، والاستصحاب ، وحجيّة الظنّ) مصطلحات فلسفية بعيداً عن مذاق فهم العُرف . كما

(١) هو السيد مهدي القزويني المُتوفي سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م .

حدث ذلك في القواعد الفقهية .

إنَّ كتاب «العناوين» تميّز عن هذه الكتب بتحقيقاته ومنهجه حيث ذُكرت فيه قواعدٌ كثيرة مُحكمةً بالأدلة ، كما وردت فيه فروع كثيرة . مضافاً أنّه لم يبتعد عن ذوق الفقاهة ، والفهم العُرفي . وأكثر تحقيقات هذا الكتاب هي تحقيقات للشيخ عليّ ، (وبعضُها للشيخ موسى) ، كما أقرّ بذلك مؤلف «العناوين» نفسه(١) .

وهذا التفصيل والأطناب يكفيك في هذا الباب .

وحُدّثت عن بنته(٢) الحاجة (أم السّادة العظام) ، وكانت المتولية لخدمات أبيها ، من دون أهليها ، أنها تقول : كان طريق مطالعة الشيخ أن يأتي بعد الصلاة إلى حجرته فتشعل له الشموع ، ويقرّب له العشاء فيتناول منه أقل ما يكسر سورة الجوع ، حتى إذا فرغ أمرنا بالخروج وعدم الدخول عليه ، ثم أطفأ السراج وجعل رأسه بين ركبتيه .

وتقول الكوكبة الزهراء : فيمضي على هذا أكثر من نصف الليل ، وكنتُ أنام وأنتبه وأدنو من باب الحجرة وبيدي السراج ، فلا يلتفت ، فأقول لي الويل ، قَدْ أخذ الشيخ النعاس فراح على هذا الحال نائماً أو مهوّم ، وأنا لا آمن هجوم البرد عليه بأمّ مِلْدم(٣) ، فأناديه : يا أبا مُحَمَّد ، قُم وادخل تحت ملحفتك ، فقد أضر البرد والنعاس بمهجتك ، فيرفع رأسه ويقول : دعيني فو اللّه إني لمنتبه عالم ، أنْ لا حظَّ في إقتناء المجد لنائم ، (ودون المذاق الحلو مرُّ العلاقم) .

فأرجع إلى حجرتي ، وأدخل تحت ملحفتي ، وقد أخذني الأرق ، وأزعجني القلق ، حتى إذا صار الثلث الأخير من الليل ، قام الشيخ وأسبغ الوضوء ووقف للمناجاة والدعاء على نفسه بالثبور والويل ، حتى يطلع الفجر فيؤدي الفريضة ، ويكمل نافلته . ثم يأوي إلى مضجعه وينزع رداءه لانغماره بأدمعه ، حتى أنام ريثما يحل العاقد حبوته ، وأرسل النور على بساط الأفق غزالته ، ونشرَ عَصْفَرُ(٤) الشعاع على رؤوس الحيطان أرديته ، فيقوم الشيخ عندها ويتطهّر ، ويخرج إلى الدار الخارجة ويرقى المنبر ، ونحن نسمع همهمة الرجال ، وخفق

---

(١) قصص العلماء ، ص١٨٤ . وقد نقلَ المؤلف النصّ باللغة التي كُتبَ بها ، وما ورد في (المتن) هو ترجمة للنصّ الفارسي .

(٢) هي بنت الشيخ علي كاشف الغطاء ، وزوجة العلاّمة السيد مهدي القزويني . وقد أنجبت أربعة أولاد كلهّم نالوا درجة علمية وأدبية واجتماعية سامية بين علماء عصرهم ، وأدبائه وهم : الميرزا جعفر القزويني ، المتوفى سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م ، والميرزا صالح القزويني المُتوفى سنة ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م ، والسيد مُحَمَّد القزويني المتوفى سنة ١٣٣٥هـ / ١٩١٦م ، والسيد حسين القزويني المُتوفى سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م .

(٣) أمّ مِلْدَم : كنايةٌ عن الحُمّى .

(٤) العَصْفَر : اللون والضوء .

النعال ، وازدحام الأمثال ، حتى يمتلئ الدار والأيوان . ويجلس الباقون بعض الأيام في دهليز الباب وبعض في (الطويلة) ، فتتدافع الناس إلى سامي فناه أفواجاً أفواجاً ، وهو ينحدر كالسيل عباباً ثجاجاً ، بما يبهر الألباب ويحير العقول ، ويعود كُلّ من أولئك الأساطين المحققين يقول : يا سبحان اللّه العلي العظيم ، ما هذا بشراً إن هذا إلاّ ملك كريم :

فهناك ما شاء الهُدى من مُبْهِرٍ   عين الحقيقة مِلءُ سمع السامعِ
كُشِفَ الغطاءُ له فحقَّقَ للورى   أنّ العليّ (محقِّقٌ) بشرائعِ

وكان يُصلي إماماً بالناس بمسجده الذي بناه أخوه الشيخ موسى وأكمله هو بعده ، وهو من المساجد العظيمة الواسعة ، فكان (رحمه اللّه) إذا جاء ورآه غاصّاً بالناس أجال طرفيه فيهم حتى يقع على بعض من يعتمد عليه فيقيمه إماماً للناس ويمضى هو إلى الحرم فيصلي منفرداً ، ولم يعلم ما السبب .

ومثله ما حكي عن السيد مُحَمَّد[1] ابن صاحب الرياض أنّهُ لم يصلِّ جماعةً بالناس مدى عمره .

ومن كراماته العجيبة ما نقله البراقي في كتابه عن تأريخ الشيخ عيسى المعروف بالأخرس ، وهو من مؤرخي المتأخرين ، وجمعَ في كتابه هذا جملة من كرامات العلماء ، ويرويها السيد البراقي عن عدة من رجاله من الفضلاء الثقات ، وقد أشبع فيها الكلام وأطال بها التفصيل . ومجملها أن الشيخ كانت عادته الخروج كُلّ ليلة (أربعاء) إلى مسجد (سهيل) للأستجارة ، فكان يدفع إلى بعض خدمه درهماً يبتاع له شيئاً من الخبز والتمر يأخذه أمام الشيخ عشاء له ، ويخرج إليه الشيخ بعد ذلك . فاتفق أن الشيخ خرج على جاري عادته فلم يُصب الذي بعثه أمامه ، وكان قَدْ أصابه عارض منعه عن الخروج وبقي الشيخ وحده في المسجد . وكان يومئذٍ موحشاً ، عليه سور مهدوم فلا يسكنه أحد . فوقف الشيخ يصلي في بعض المقامات ، فبينما هو كذلك وإذا يهجس حافر الفرس خلفه . يقول : فلما فرغتُ فأذا بفارس وبيده رمح فألقاه وتقدّم أمامي فصلّى . فأخذني مثل الأفكل فأبهرني بحسن قراءته وخشوع هيأته وخضوع صوته ، فقلتُ في نفسي : إن كانت صلاة يقبلها اللّه فهي هذه!!

ثم قام فركب وقال : أتحبّ يا عليّ الرواح إلى الكوفة؟

---

(١) هو السيد مُحَمَّد بن السيد علي الطباطبائي ، المُلقب بالسيد المجاهد لتصديه قيادة الثوار في مواجهة الغزو الروسي لايران ،لكنّه فشل في هذه المواجهة ،وانسحب عن الحرب ،ومات سنة ١٢٤٢هـ/١٨٢٧م .

يقول: فسكتُ من هيبته، وارتعدتْ فرائصي وقد أشرق المسجد بنوره، فتناولني وأردفني خلفه، فما ظننتُ أنّا خرجنا من السّهلة حتى جئنا الكوفة فجعل يتقدم أمامي إلى كُلّ محراب وإسطوانة ولم يقف إلى جنبي أو ورائي أبداً.

ثم بعد أن أكمل الأعمال قال: لنمضِ إلى زيارة الحسين (ع)، فأردفني. وما كان غير كثير وإذا نحن في الحائر المشرف، فطفنا وصلينا وأنا أرى بعض الطلبة وأعرفهم وهم يعرفوني ولكن لم يكن ليسلّم أحد منهم عليّ.

ثم ركب وأردفني وقال: هلمّ للإمامين الكاظمين الجوادين (ع)، وإذا بالفرس تمشي في الصحن المنوّر وإلى أحد جوانبها حاج مُحَمَّد صالح كبّة[1] ولكنه غير ملتفت إلينا كأنه لم يرنا، فأدينا المسنون.

وركبنا وأردفني، وإذا نحن بصحن العسكريين (ع) فدخلنا وزرنا.

ثم ركب وأردفني حتى وصلتُ مكاناً فيه على طرف اليمين بستان وعلى الشمال دار، فسرنا على ذلك حتى دخلنا صحناً عظيماً، فعرفتُ بالقرائن أنَّهُ حرم الأمام عليّ بن موسى الرضا (عليه السلام). فلما فرغنا جعلتُ أنظر في كيفية بناء الصحن وتزيينه وحفظ بعض صفاته.

ثم أردفني ورجعنا على ما جئنا منه، كُلّ ذلك ونحن سكوت وأنا أسري على رسلي، ولم أحدّث نفسي بسيرنا هذا كله في ليلة واحدة، ومَنْ هذا الفارس.

حتى قال: إنزل فأنت قريب أهلك، فتركني ومضى. والتفتُ وإذا أنا على جبل وادي السلام، وشيخ فضل (وهو جدّ بيت فضل المعروفين الآن) يمجّد ويهلل على (المنارة)، وإذا الوقت قريب الفجر فندمتُ على إهمالي وإرسالي وعدم سؤالي منه وهو أمامي وبقيت أبكي حيث لا يجدي.

وبعثتُ على السيد مهدي (أبي السيد شفيع) وكان (كالچاووش) للعرب يزور بهم الرضا (ع) كُلّ سنة فسألتُه عما حفظتُه من العلائم والأوصاف فقال: كلها موجودة بالمشهد الرضوي. فلما وفقني اللّه للتشرف به رأيت ذلك حقاً. (إنتهى مجملاً).

فاعتبروا يا أولي الأبصار، فهذه سير عباد اللّه الأبرار.

---

(١) محمد صالح كُبَّة: هو جدّ أسرة آل كُبَّة البغداديَّة، تُوفي سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م. وسيأتي التعريف به مرّة أخرى.

وقد أهملنا جملة من مآثره ومناقبه اكتفاء عن ذكرها باشتهار أمرها . وهذا الذي ذكرناه بالنسبة إلى ما أهملناه غيض من فيض ، ولمحة من أنوار ، وقطرة من بحار .

شعرُهُ وشاعريته

وكان له (رحمه الله) بكل علم يد طُوْلى ، وكلمة عليا . ومن ذلك علم الأدب ، فأنّه أخذ رؤوسه ، وترك لغيره الأذناب ، وقد أبدع فيه غاية الأبداع ، وجاء منه بما يسترق العقول ويسحر الطباع ، حتى أنّ من رأى أشعاره ، قال هذا شعر مَنْ عكفَ على تحصيل الأدب ليله ونهاره ، لقوّته ومتانته ، مع رقته وجزالته . هذا على أن الشيخ إنما كان ينظمه أيام صباه على صِرْفِ القريحة ، وبديهة الخاطر ومقتضى الطبيعة ، من غير كدّ فيه ولا تعب بتحصيل قواعده ، ومبانيه ، وكان مكثراً مجيداً ، طويل الباع به ، كثير الاتساع والتصرف فيه ، ولم يأت في بيت الشيخ مجيد مكثر ، اللهم إلاّ ولده الشيخ جعفر (كما سيأتي) .

وأنا مورد لك هنا بعض قصائده لتكون شاهد صدق بما ادّعيته لك وتُنبهك عليه وتدلّك . وكان أكثر شعره في الأئمة (ع) رثاء ومدحاً . فمما قاله يمدح الأمام سميّه (عليه السلام) بقصيدة وهي من الحسن بأعلى مكان ، وهي :

أهاجك بَرْقٌ في دُجى الليلِ لامعُ ... نَعَمْ واستخفتْكَ الربوعُ البلاقعُ
أضاءَ فجلبابُ الظلام ممزّقٌ ... كما مزّقَ النَقْعَ السيوفُ القوارعُ
أمَا وامتطاء العيس في كُلّ مَهْمَهٍ ... مواضٍ كما شاء الهوى ورواجعُ
وركبٌ تعاطوا في الدُجى دلجَ السُرى ... يقودونَ داجي الليل والليل طالعُ
يحيدون عن طعم الكرى فجنوبهم ... جنوب خيول ما لَهُنّ مطامعُ
لقد ذكرتني سالف العهد بالحمى ... حمائمُ أيك في ذراهُ سواجعُ
ذكرتُكمُ والخيلُ تعثرُ بالقَنا ... وبيضُ المواضي والرماحُ شوارعُ
فبتُّ كأني ساورتني ضئيلةٌ ... (من الرقشِ في أنيابِها السُمُّ ناقعُ)(١)
وبين جفوني والسّهاد تواصلٌ ... وبين ضلوعي والهمومُ تقارعُ
ولم يستطعْ كتمَ الهوى ذو صبابةٍ ... له فيض دمع بالتباريح صادعُ

---

(١) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله : «هذا تضمينٌ ، وهو للنابغة» .

إذا سألوا عن سِّره فهو كاتمٌ وإنْ سألوا عن وَجْدِه فهو ذائعُ
وما الحُبُّ إلاّ عَبْرةٌ مستهلّةٌ ونارُ جَوىً تُطوى عليها الأضالعُ
وقَدْ زارني طيفُ الخيال فزادني إلى الوجدِ وجداً والعيونُ هواجعُ
فطيفٌ للذّات التواصلِ مانحٌ وخلٌ لأهداء التحية مانعُ
أكان حراماً لو تَداركَ مهجة لئن لم تُمتْ في الحُبّ فهي تُنازعُ
ألم يأن أنْ تُروى قلوبٌ من الصدى وأنْ يجمعَ الشملَ المُشتتَ جامعُ
حلفتُ بمَنْ وارى الستار وما هوتْ إليه رقابُ العيس وهي خواشعُ
لئن بعدتْ منا الجسومُ عن الحِمى ففي ربعه منّا القلوب ودائعُ
وليل بجنب الحيّ لا أستعيدُهُ جنيتُ به حلوَ الجَنا وهو يانعُ
يُخادعُني فيه رسيسٌ من الهوى ومن عجب الأيام مثلي يُخادعُ
ألا ليتَ شعري هل أرى ذلك الحمى وهل فيه أيامٌ مضينَ رواجعُ
عن الدار لا شوقي القديم بناقص إليها ولا قلبي من البين جازعُ
ولولا احمرارُ الدمع لانبعثتْ لها سحائبُ من دمعي هوام هوامعُ
هجرتُ الحمى لا أنني قَدْ سلوتُهُ وكيف ولي قلب إليه ينازعُ
ولكنّما جانبتُ قوماً كأنني لآنافهم لمّا يروني جادعُ
أُقلّبُ طرفي لا أرى غير ناكث يماذقُني في ودّه ويصانعُ
قذفتُ إخاء كدّر المذق صفوَهُ ولاحت عليه للضغون طلائعُ
يُصافي أخاه إنْ بدا منه مَطْمَعٌ ويهجُرُهُ إن جانبته المطامعُ
سأشكوهم والعين يسفح ماؤها وطيرُ الجَوى بين الجوانح واقعُ
إلى مَنْ إذا ما قيلَ مِنْ نفس (أحمد) (أشارتْ كليبٌ بالأكف الأصابعُ)
وروح هدى في جسم نور بمدّه شعاعٌ من النور الألهي ساطعُ
وكنز عن العلم الربوبي إنْ تشا يخبّرْكَ ظهر الغيب ما أنت صانعُ
مليكٌ تجلّى في سما المجد رفعةً شمائلُهُ فيها النجومُ الطوالعُ
دنا فتدلى للعقول وأنّها لتقصُر عن إدراكه فهو شاسعُ
يريكَ الندى في البأس والبأس في التقى صفات لأضداد المَعالي جوامعُ
يهمُّ بمقدامٍ على كُلِّ فتكةٍ يضيقُ بها رحبُ الفَضا وهو واسعُ

مضت حيثُ لا لُدْنُ المُثقَّف شائكٌ ... فيخشى ، ولا السيفُ المُهَنَّدُ قاطعُ
خِلالٌ يضوعُ الشعرُ من طِيبِ نشرها ... ألا كُلُّ مدح في سواكَ لضائعُ
وكم جحفل قَدْ دَكَّ منه صفاتَه ... له فوق أصوات الحديد صواقعُ
سبقت المنايا واقعاً بنفوسهم ... إذا الحربُ سوق والنفوس بضائعُ
فليسَ لهم إلاّ الدماء مدارعُ ... وليس لهم إلاّ القبورُ مضاجعُ
أراعَ فؤادَ الدهر بطشُكَ فانطوتْ ... على وجلٍ أحشاؤه والأضالعُ
حسامُك في الأعمار أمضى من الردى ... وحلمُكَ يومَ الصفح للصفح شافعُ
وأنت أمينُ اللّه بعد أمينه ... وأنتَ له صهرٌ وصنوٌ وتابعُ
لعَمْري لقد أيّدتُهُ في حُروبه ... كما أيّدتْ كفيه منه الأصابعُ
فلا واصلٌ إلاّ الذي هو واصل ... ولا قاطعٌ إلاّ الذي هو قاطعُ
أقولُ لقوم أخرّوكَ سفاهةً ... وللذكر نصٌّ فيك ليس يُدافَعُ
دَعوا الناس ردّوهم إلى مَن يسوسُهم ... فهل يستوي شُمُّ الذرى والأجارعُ
وهل يستوي السيفُ اليمانيُّ والعَصا ... وهل تستوي أُسدُ الشَرى والضفادعُ
ألا إنَّ هذا الدين لولا حسامُهُ ... لمّا شرعت للناس منه الشرائعُ
ألا إنّما الأقدارُ طوعَ بنانه ... إذا ما دعا للأمر وافتْ تُسارعُ
ألا إنّما الأرزاقُ عنه اقتسامُها ... فهذا له معطٍ وذلك مانعُ
ألا إنّما التوحيدُ لولا علومُهُ ... لمّا كُشفتْ للناسِ عنه البراقعُ
لكَ المعجزاتُ الباهراتُ أقلُّها ... لك الميت يحيى والضلوع جراشعُ
وفيك استغاثَ اللّهَ للذنب (آدمٌ) ... فلاحَ له برقٌ من العفوِ لامعُ
وفيك التجا في اليمِّ (نوحٌ) وقد طغى ... على كُلّ طود لُجُّهُ المتدافعُ
وفيك افتدى في السجن (يوسفُ) راجياً ... نجاةً وقد سُدّتْ عليه المطالعُ
وآنس منك النار (موسى) بذي طوى ... فسار إليها وهو للنعل خالعُ
وباسمك قَدْ نادى الخليل فلم يخفْ ... من النار هولاً وهو في النار واقعُ
ومغناك كم أبدى لذي اللبّ معجزاً ... وكم ردّ وقع الخطبِ ، والخطب قاطعُ
وماهي إلاّ آيةٌ بعد آية ... تُسكُّ بها للملحدين مسامعُ
حمى لا يريع الليث ظبي كُناسهِ ... فيذعُرُهُ عن سربه وهو راتعُ

وجـارُكَ لا يُعطي الزمـان مـقـاده ومنكَ لـه ركنٌ شـديدٌ مـدافعُ
ولا فـاضعـاً للدهر خوفاً وإن مضى على الناس جوراً صرفُهُ المُتـتـابعُ

وقال قدس سرّه ، وعطّر قبره ، راثياً سيد الشهداء ، عليه آلاف التحية والثناء :

سـهـامُ المنايا للأنام قـواصـدُ وليس لهـا إلاّ النفـوسُ مـصـائدُ
أتأمل أن يصفو لنا العيش ، والردى له سـائق لـم يلوِ عنّا وقـائدُ
وتطمعُ في حُبِّ البـقـاء وطوله وتعلم أنَّ الدهرَ للعُـمـرِ فـاقـدُ
ومـا هذه الأيامُ إلاّ أسـاود تلمّض في أنيـابهـا السمّ راقـدُ
وتلك الليـالي لا يغـرّك سلمُـهـا ومـا هُنَّ إلاّ الثـاكـلاتُ الفـواقـدُ
ألـم ترَ أنّا كُلَّ يوم إلى الثـرى نُشـيِّعُ مـولوداً مـضى عنه والدُ
وحسبك بالأشراف من (آل هاشم) فـقـد أقـفـرتْ أطلالُهم والمعـاهدُ
حـدا بهمُ الحـادي فـتلك ديارُهمْ خـواشعُ مـا بين الديار هوامـدُ
وقـفتُ بهـا مـستنشـقـاً لعبيـرها ودمـعيَ مـسكوبٌ وقلبيَ واجـدُ
أسـائلُهـا مـا بالُهـا حَكمَ البِلى عليهـا وكـيفَ استوطنتها الأوابدُ
مهـابط (وحيٍّ) دارسـات رسومُـهـا (معاهدُ) ذكر أُوحشتْ و(مساجدُ)
وعـهـدي بها للوفـد كـعبة قـاصـد فـذا صـادرٌ عنهـا وذلك واردُ
فـأينَ الأُلى لا يُسـتـضـامُ نزيلُهمْ إليـهـم وإلاّ ليس تلقى المقـاودُ
ذوي الجَبَهات المستنيرات في العُلى تَقاصرُ عنها (المُشتري) و(عطاردُ)
سـمى بهمُ في العـزِّ جَـدٌّ ووالدُ ومـجـدٌ طريفٌ في الفـخـار وتالدُ
ومـا قـصـبـاتُ السَبق إلاّ لماجـد نمتْـهُ إلـى العليـاء غـرٌّ أمـاجـدُ
مـعـادنُ علم اللّه حكّام شـرعـه لديهم وإلاّ ليس تُرجى المقـاصـدُ
تسـودُ بني الدنيـا وليس تسودُهمْ وهل في الورى إلاّ مـسود وسـائدُ
لتغدو المنايا بعـدهم حيث تبتغي فـمـا أنا من رُزء وإنْ جلَّ واجـدُ
سأبكيهمُ ما فاضَ دمعي فأنْ يَغضْ فلي كَبِـدٌ مـا عشتُ للوجد كـامدُ
وأعظم أحـداث الزمـان رزية بكتهـا الصخورُ الصمُّ وهي جلامدُ
وداهيـة دهـمـاء غُمَّ نهـارُها وطار بهـا نَقْعٌ إلى الأرضِ صـاعدُ

بها رقدتْ عينُ الضلال وسُهّدت عيونُ حُماة الحق وهي رواقدُ
سلامٌ على الأسلام من بعد يومها فليسَ له راعٍ عن الضيم ذائدُ
سهدت وقد نامت لذي البغي أعين وما أنا لولا يومٌ (عاشور) ساهدُ
سَلِ الليلَ عنّي هل مللتُ سهادَهُ وهل ألفتْ جنبيّ فيه المراقدُ
ولي مقلةٌ محلولة الجَفنِ بالبكا وقلبٌ على فرط الصبابةِ عاقدُ

للّه درّه، وتغمّد بالرضوان قبره، فما ألطف قوله: محلولة الجفن بالبكا، وأعذب وأبدع وأغرب:

وفي القلب أشجانٌ وفي الصدرِ غلّةٌ إذا رمتُ إبراداً لها تتزايدُ
فلا وجد إلاّ وهو عندي مخيّمٌ ولا صبرُ إلاّ وهو عنّيَ شاردُ
أيُمسي (حسينٌ) بالطفوف مروّعاً وطرفي ريّان من الأمنِ راقدُ
ويُمسي صريعاً بالعراء على الثرى وتوضعُ لي فوق الحشايا الوسائدُ
فلا عَذُبَ الماءُ المعينُ لشارب وقد مُنعتْ ظُلماً عليه المواردُ
ولا حَملتْ أيدي الرجال سيوفَها وقد نهلتْ منه الرقاقُ البواردُ
وما أنس لا أنساه وهو مروّعٌ يكابدُ من أشجانه ما يكابدُ
بنفسي أبيُّ الضيم لم يُلْفَ ضارعاً وقد أسلمتْهُ للمنون الشدائدُ
ولم يُرَ مقهوراً أبيدتْ حماتُهُ وعزَّ مواسيه وقلَّ المُساعدُ
بأربط جأشاً منه في حومة الوغى إذ البيضُ فيها باديات عوائدُ
ينادي بهم هَلْ مِنْ مُجير يجيرُنَا وما فيهمُ إلاّ قريبٌ وجاحدُ
وينشدُهمْ هل تعرفونيَ مَنْ أنا وكيف وهَلْ يستنطق العُجمَ ناشدُ
فَشَمَّرَ لا يلوي الى الحرب والردى يمانعُهُ عن نفسه ويراودُ
امام يردّ الجيش وهو كتائبٌ بسطوته يوم الوغى وهو واحدُ
إذا (ركعَ) الهنديُّ يوماً بكفه لدى الحرب فالهامات فيها (سواجدُ)
يلوح الردى في شفرتيه كأنّهُ شهابٌ هوى لمّا تطرّق ماردُ
وإن ظمِأَ الخطيُّ بُلَّ أوامُهُ لدى الروع من فيض الطلا فهو واردُ
قريبُ الندى، نائي المدى، مورد العدى حياضَ الردى، والضربُ في الهامِ شاهدُ

يصولُ عليهم صَوْلةً حيدريَّةً يُقيمُ لواءَ الدينِ ، واللّهُ عاقدُ
يخوضُ بهم بحرَ الوغى وهو طافحٌ ويوردهم حوضَ الردى وهو راكدُ
الى أنْ هوى فوق الصعيد مُجدّلاً بنفسي ، وبي ثاوٍ على الأرض ساجدُ
فلا اخضرَّ عُودُ المجد بعدَكَ والعُلى ولا رادَ روضُ الدين بعدك رائدُ
ولا جانب الدنيا بسهل ولا الضُحى بطلْقٍ ولا غصنُ المسرّةِ مائدُ
بنفسي وبي ملقى ثلاثاً على الثرى تهبُّ عليه العاصفات الصواردُ
ويا أسفي للرأس سامٍ على القنا يرتّلُ آيَ الذكرِ والركبُ هاجدُ
ولم أرَ يوماً سِيمَ خَسْفاً به العدى وهدّتْ به أركانُهُ والقواعدُ
كيوم حسينٍ والسبايا حواسرٌ تُشاهدُ مِنْ أسرِ العدى ما تُشاهدُ
وتُضربُ قَسْراً بالسياط متونُها وتُنْزَع أقراطاً لها وقلائدُ
بنفسي أبو الفضل المواسي بنفسهِ أخاه و(بازُ) الحرب للموت (صائدُ)
أخ ماجد لم يخزه يوم مشهد له عضد في الحادثات وساعدُ
بنفسي (زين العابدين) معللاً سقيماً له الوجد المبرّح عائدُ
فوآ لهفتا كم من نفوس كريمة إليها وإلاّ ليس تُلقى المحامدُ
تسيل على زرق الأسنّة والضبا ويشمت فيها مبغضٌ ومُعاندُ
بنفسي وبي تلك الجسوم كأنّما لهم بالمنايا في الطفوف مواعدُ
وللّه أقوامٌ فَدَتْهُ نفوُسهُم فكان لهم عزٌّ على الدهر خالدُ
كأنّهمُ والخيلُ تعثّرُ بالقَنا أُسودُ رعتْ أشبالها وأساودُ
وفرسانُ موت مقدمون كأنّما قناها لآجالِ الرجالِ مقاودُ
وما كُلُّ مفتول الذراعين باسلٌ ولا كُلُّ سامٍ في السماء فراقدُ
لتذهبْ بها مثل الجبال محامداً على الدهر أطواقٌ لها وقلائدُ
عسى الغائبُ الموتورُ قَدْ حانَ وقتُهُ فيُجْبَرُ مكسورٌ ويُصلحُ فاسدُ
ويُصبحُ عُودُ الدين بعد ذبوله يميسُ قواماً وهو ريّانُ مائدُ
فدَيناكَ قَدْ ضاقَ الخناق ولم يَزلْ يعنّفُنا فيك العدوُّ المُعاندُ
ودونكموها من (عتيق) ولائكم قوافٍ على جيدِ الزمان فرائدُ
جواهُر لم تَعْلَقْ بها كفُّ ناظم ولا لامستْهُنَّ الحسانُ الخرائدُ

ولولاكمُ ما فاهَ بالشعر مقولي ... ولا شاعَ لي بين الأنام قصائدُ
عليكمْ سلامُ اللّه ما اهتزّتِ الرُبى ... وسحّتْ عليه البارقاتُ الرواعدُ

وقال يرثيه أيضاً رحمه اللّه :

دموع ليس تنقعُ مِنْ أُوام ... وإنْ سحّت كماء المُزنِ هامي
ووجدٌ كلّما حاولتُ أنّي ... أبرّدُهُ تَلهّبَ بالضرام
مررتُ بكربلاءَ فهاجَ وجدي ... مصارع فتية غُرٌّ كرامَ
حماة لا يُضامُ لهم نزيلٌ ... أماجد بُرّؤا من كُلّ ذامَ
وقفتُ بها لألثمَ من ثراها ... أريجَ العَرفِ مفضوضَ الختامَ
وضعت يدي وقد ضمّت لصدري ... كلوم لا يقوم بها كلامي
أُسائلُ رَبْعَها عن ساكنيه ... ولاةَ العِزِّ والرُتبَ السَوامي
ومُثّلَ لي (الحسينُ) بها غريباً ... عنائي لَلغريب المستضام[1]
يُحامي عن حقيقته وحيداً ... بنفسي ذلك البطلُ المُحامي
بعين للعدى ترنو وأخرى ... بها يرنو الى نحو الخيامَ
سعى للحرب يهتزُّ ارتياحاً ... ونارُ الحربِ موقدة الضرامَ
همت كفّاهُ في سلم وحربٍ ... على العافين بالمنن الجسامَ
فلا يُسراهُ يُشْغلُها لِجامٌ ... ولا يمناهُ تُشْغَلُ بالحسامَ
تُسلُّ من الرقاب له سيوفٌ ... فتغمد في المفارق واللّمامَ
إذا ركعتْ رأيتَ لها الأعادي ... سجوداً في التراب بغير هامَ
كأنّ عداهُ يومَ الروع نبتٌ ... وبيضُ ضباهُ كالنّعم السّوامَ
الى أنْ خرّ فوقَ التُربِ مُلْقىً ... على الرمضاء عزَّ له المُحامي
برغمي إنْ خلا نادي المعالي ... وخرَّ عن الهدى سامي الدّعام
ولم أرَ مِثلَ يومِكَ والسبايا ... على (الأقتاب) تُهدى للشآمَ
هو الرزء الذي ابتدع الرزايا ... وقال لأعين الأعداء نامي

---

(١) لم ترد تكملة هذا البيت في النسخة المخطوطة ، وقد أكملتُه عن شعراء الغري ، جـ٦ ، ص٢٧١ . وقد أثبت الاستاذ علي الخاقاني ، ـ نقلاً عن مجموعة مخطوطة للسيد عبد الحسين الحجّار ـ عشرين بيتاً زيادة على ما وردَ هنا من القصيدة .

ألا يا (كـربلا) كم فـيكِ بدرٌ … عـلاهُ الخسفُ من قبل التَمـام
وكم غُصْنٍ بأرضكِ جُبَّ غضـاً … يُفـدّى بالنفـوس من الكرام
ويا لك عـصبـة لم ترع إلاًّ … لآل اللّه في الشـهـر الحـرام(١)
فـهـذا مـوثق عـان، وهذا … عليلٌ لا يُفـيق من السـقـام
ألا مَنْ مـبلغٌ عني (قـريشـاً) … ببطحـاء المشـاعـر والحـرام
لأنتمْ أطولُ الثـقلين باعـاً … وأبعـدُ مـوطناً عن كُلِّ ذامِ
فـلا حملتْ عواتقُكمْ سيوفاً … ورأس السبط فوق الرمح سامي
ولا ركبتْ فوارسُكم خيولاً … وصدر السبط مرضوض العظام
ولا حجبتْ كرائمَكمْ خيامٌ … ورَحلُ السبط منهوبُ الخيام
ولا نَقعَ الغليلَ لكم رواءٌ … ونجل (مُحمّد) في الطفّ ظامي
ولا بلغَ الفطامُ لكمْ صبيٌّ … ويذبح طفلُهُ قبل الفطام
وأنصارٌ له في اللّه باعوا … حياةَ النفس بالموت الزؤام
لقد ألفوا الوغى قِدْماً وحنّوا … إلى الهيجا حنينَ المُستهام
إذا شبّت لظى الهيجاء كانوا … أمام الدارعين لدى الأمام
حَمُوا وسَمُوا فما حام وسام … سواهم من بني (حام) و(سام)
لقد نالوا المُنى وجنوا ثماراً … من الشرف الرفيع المستدام
أيا بنَ القادمينَ على المنايا … إذا ما الصيدُ تحجمُ في الصِّدام
وهم حججُ الإلهِ على البرايا … بهم عُرِفَ الحلالُ من الحرام
تحلّى بالعُلى قومٌ سواهم … فكان نصيبُهم منها الأسامي
متى أنا قائم أعلى مقام … ولاق ضوءَ وجهكَ بالسلام
وقد نُشرتْ لك الراياتُ تبدو … خوافقُها بمكةَ فالمُقام
تقودُ جوامح الأقدار حتى … جرت بيديك طيّعةَ اللجام
وأشرقت البلادُ بجيش نصر … رماحهم أخفّ من السهام
تديرُ السّمر فيه عيون زرقٌ … فلا ينظرنَ إلاّ عن جَمام

(١) الآل: العهد أو الذمة.

وبيض في سواد النقع تهوي إلى فيضِ الدّما أبداً ضوامي
هنالك يشتفي الصّادي ويحظى وليّكمُ بإدراك المرامِ

وله أشعار كثيرة في الرثاء والحماسة والغزل والمراسلات يضيق المقام عن بيانها . فمن ذلك قوله متغزلاً في أيام صباه :

لعلَّ ليالياً ذهبتْ تعودُ فيُورقُ من زمان الوصل عُودُ
ويرجع لي بها زمنُ التصابي ويدنو لي بها الأملُ البعيدُ
وكنتُ بقربها أختالُ تيهاً وغصنُ شبيبتي خَضلٌ يميدُ
أبيتُ وفي الحشا داءٌ دفينٌ يؤرقني وأصحابي هُجودُ
ووجدٌ كُلَّما حاولتُ أنّي أبرّدُه يشبُّ له وقودُ
وعتبُ كحيلة العينين رُود يذوبُ لعتْبِها الحَجرُ الصلودُ
بألفاظ قَطَعنَ نياطَ قلبي إذا تُليتْ يشيبُ لها الوليدُ
فمثلي لا يخونُ عهودَ خلٍّ ومثلُك لا تُخانُ له عهودُ
وراعي حقَّ مَنْ أولاك علماً تفيدُ به سواك وتستفيدُ
ولا تجزعْ لهجرٍ بعد وصلٍ فأيامُ الهوى بيضٌ وسودُ

وله أيضاً :

قل للمليحةِ من بنات الصّيدِ قَولاً يذوبُ له صفا الجُلمودِ
أفلا ترقّي في الهوى لمتيّمٍ أم بين جانحتيكِ قلبُ حديدِ
أمرضتُ جُثماني عليك صبابةً وكحلتُ جَفنَ العين بالتسهيدِ
ما غرّدتْ فوقَ الغُصونِ حمامةٌ إلاّ وهمتُ إليكِ بالتغريدِ
كم أعينٍ لكِ صعّدَتْها زفرة عن حرّ قلب ذاب بالتصعيدِ
ومفنّدٍ لي في هواكِ سفاهةً قَدْ ضلّ نهج الحق بالتفنيدِ
لو كانَ يُبصرُ بعضَ ما أبصرتُهُ ألقى الزمامَ إليَّ بالتقليدِ
يا بنتَ مَنْ تروي حديث فخارها عن خير آباء لها وجُدودِ
كم سارَ للعُشاق خلفَك موكبٌ والحُسنُ تحتَ لوائك المعقودِ
هَلْ شملُنا بعد التفرّقِ جامعٌ فأرى بعيدَ الوصلِ غيرَ بعيدِ

مـا زلتُ في بحـر الكآبةِ طافـحـاً فمتى استوائي فوقَ متن الجُودي

وأما ما مُدحَ به وهنِّئ فيه ، فأكثر من أن يحيط به جامع فيمليه . ونحن نقتصر من ذاك على قصيدتين أو ثلاث ، تكون لوجه الأدب والكمال أشنافاً ورعاث[1] .

فمن ذلك ما رأيته بخط الشاعر المُفْلِق الشيخ إبراهيم قفطان في أوراق أظنها فُصِلَت من ديوانه الذي جمعه في أيامه ، وكان مرسوماً في صدر القصيدة ما هذا نصّه :

«وقلتُ مهنّئاً بها جناب الشيخ شيخ علي بن المرحوم الشيخ جعفر (ره) بعيد الفطر متعرضاً لذكر الوزير داود پاشا معرّضاً ببعض حاسديهم المقابلين لهم في دعوى الأجتهاد ، وهي هذه :

يا جامعاً بين شمل العلم والعملِ عـادتْ علينا بك الأيامُ في جَذلِ
واستعذب الدهر راحاً من عُلاكَ به فـصـارَ عـيداً عليـه نشوة الثـملِ
ومـاسَ عـصـرُكَ تيـهـاً إنَّ زينتَـهُ مناقب لك في جيـد الزمان حُلي
بكَ الزمـانُ ربيعٌ في شـقـائقـه حُسْناً فما أنت إلاّ الشمسُ في الحَملِ
أحلَّكَ المجـدُ دون الناس مـقلتـه فـأنت في عـينه الأنـسانُ في المُقلِ
تؤمُّكَ الناسُ في قصديْ هُدىً وندىً ولا ترى منك كَـلا وحـشـةَ المَللِ
فتنثني عن حـياض منك مُتْرَعة بالقـصـد مـا بينَ وِرْدِ العَلِّ والنَهلِ
لبستَ مِن كُلِّ علم ثوبَ بهجـتـه غضّاً وغيرُكَ مقصورٌ على السملِ
وإنّ بحـراً سـقـاك اللّه أعـذبَهُ مـا نال غـيرُكَ منه مـصَّـةَ الوَشَلِ
مـا نهنهـتْكَ بحـارٌ عن لئـالئـهـا غَـوْصـاً تصّـرف منه جـامـد الرملِ
ولا تجـرَّدتَ للتـجـريدِ في نظر إلاّ أصـبـتَ برأيٍ منكَ مُـعْـتَـدلِ
ولا شـرحتَ من التـشـريحِ أشْكَلَهُ إلاّ وأوضـحتَ منهُ غـامضَ الجُملِ
ولا أمـدَّ لـكَ الرحـمـانُ نعـمـتَـهُ إلاّ مـددتَ إليـه كفَّ مُـبْـتَـهِلِ
وخاطبتْكَ العقولُ العشرُ مصدرها وسـالمتْكَ بجـأش منك منذهلِ
وزادَكَ اللّهُ من ألطافـه نعَـمـاً في دولة غـبّـرتْ في أوجـه الدُولِ
في دولة حكمُ (داودٍ) لهـا رَصَـدٌ يصونُها عن هوى الأوغاد والسَفَلِ

---

(١) الشِنف نوع من حلي الأذن ، وجمعها (شُنُوف) . والرَعاث : الأقراط .

حتى أفاضَ عليها من غلائله   عزّاً وزرَّ عليها حُليةَ الحُللِ
إنَّ الخلافةَ فيه افترَّ مبسمُها   عن بهجة بسرور فيه متصلِ
خليفة فرض الرحمانُ طاعتَهُ   على البرية من حافٍ ومُنْتَعِلِ
هوتْهُ بِكرُ العُلى حتى تبعَّلها   والناسُ عن طلب العلياء في شغلِ
إذا استغاثَ به العاني يروضُهُ   بواكفٍ من كِلا كَفّيهِ مُنْهَمِلِ
رمى الزمانَ بجيشٍ من عزائمه   بالسُمر معتقل بالبيض مشتملِ
فأصبح الدهرُ يسعى طوعَ راحته   كالنصر مسعى غلام مُشْفِقٍ عَجِلِ
ورُبَّ منتحل أمراً يعاكسُهُ   واللّه مبطل دعوى كُلِّ منتحلِ
نهاهُ بالصفح فامتدَّ الغرورُ به   إلاّ ببيض صفاح أو قنا ذُبُلِ
فصالَ والنصرُ حاديه وقائدُهُ   على جنود تمدّ الحربَ بالحيلِ
في فيلقٍ أسفرتْ عنه بوارقُهُ   بعثْيَرٍ كظلام الليل منسدلِ
أطلَّ فارتعدتْ منهُ فرائصُها   رُعْباً أعارته قلبَ الخائنِ الوَجِلِ
أخنى عليها فلم تألفْ مساكنها   إلاّ ندى الطلِّ أو إلاّ صدى الطللِ
وفلَّ منها جموعاً وهي شامخةٌ   بِلُهْذُمٍ ألحقَ الأشلاء بالشللِ
تهافتتْ في شعاع السيفِ فاحترقتْ   مثلَ الفُراش مناياها على الشُعلِ(1)
وكُلّما شبَّ نارَ الحرب موقدُها   سعى لها غيرَ رعديد ولا فَشِلِ
له مواض وزرق قطُّ ما وجَدتْ   إلاّ دمَ القلب يرويها عن الغللِ
فعش بظلّ نعيم من صداقته   فيضٌ يدومُ وظلٌّ غيرُ منتقلِ
بِمَ اعتذار أناسٍ في غوايتها   ومنهجُ الحقِّ للمُسْتَرشدينَ جلي
ظلّتْ أدلتُها مَنْ ذا تقدّمهُ   والحقُّ ما دار إلاّ حيث دارَ (علي)
ومَنْ يُضاهي (عليّاً) حيثُما التبستْ   بَهْماءُ حُكم ولَدَّ الخَصمُ في الجدلِ
وثوّرتْ فتنُ الأيام عِثْيَرَها   وزلزلَ الأرضَ وقعُ الحادثِ الجللِ
خطيب قوم إذا أصغى النديُ بدتْ   له شقائقُ فيها رعدةُ الزجلِ
تَفجّرتْ فيه عينُ الصمتِ عن حِكَمٍ   وفي الأنامِ أُفيضتْ وصمةُ الخَطلِ

(1) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله «معنى بديعٌ جداً».

ومُـوهم أنّهُ مـسـتـودَع حِكَمـاً وأنّـهُ لأمـــورِ المسلمين ولـي
وباذل لـقـضـاءِ الحكم خـاتمه جهلاً وفي نشر سر الكائنات ملي
رام التَّحلّي بهـا جـهـلاً بفطرتهِ وهلْ تسـوغُ لأنثى حليـةُ الرجلِ
واستطعمَ النحلَ مما تجتني فَجَنى لسعاً وغذّتك منها شهدةُ العَسَلِ
ليتَ الأكفَّ التي أومتْ أناملُهـا إلى سـواكَ رمـاها اللّه بالشللِ
بلّغتهم أملاً في كُلٍّ ما اقترحوا وإنّ غـيـرَكَ مما يأملون خلي
واستعطفوك لصفح عن جنايتهم حتى صفحتَ وهذا غايةُ الأملِ
وما كفى الصفح حتّى زدتَهم كَرَماً من فيضِ كفِّكَ فيض العارض الهَطِلِ[1]
لا تَحْسبنَّ خضاباً في عوارضها لكنّهُ أثرٌ من حُـمـرةِ الخَـجلِ[2]
وقد يكونُ دوام الصفح مفسدةً فامزج فديتُكَ صفوَ الجدِّ بالهزلِ
وعـالجنَّ نفـاقـاً في ضَـمـائرها بلفتـةٍ منكَ تبري كـامنَ العللِ
واجدعْ بعضبك آنافاً شمخنَ على عُلاكَ من جهل مفتونٍ بها خَطِلِ

ولم يزل خابطاً بهذه الطريقة الرديّة ، بما لا ينبغي نظمه والتفوه به منه ومن غيره بالكلية ، إلى أن قال متخلصاً بمدح الشيخ حسن أخيه إبن الشيخ الكبير (ره) :

ولا يدانيكَ في حُكم وفي حِكم إلاّ شقيقُكَ في علم وفي عملِ
نهضتُما والعُلى والمجدُ طوعكماً كـالظلِّ يتبعُ في حلٍّ ومرتحلِ
لا يهتدي الناس إلاّ فيكما ومتى أغنى عن النيّرين الضوءُ من زُحلِ
يا أهلَ بيت وليِّ اللّه رفعتُهُ ما فيكمُ غيرُ معصوم من الزللِ
أنتمْ عن اللّه أسستمْ شرائعَهُ كأنّكم أنبياءُ (العَزمِ) في الرُسلِ
صنـ ـوتمْ فاصطفاكم ربكُمْ حَرَساً لدينه ، وولاةَ الأمـر في الأزلِ
لا رَوّعَتْ لكمُ الأيامُ سِربَ حِجىً بلى إذا ريعَ منهـا قُنّة الجبلِ

إنتهى محل الحاجة منها وهي طويلة ، وقد أسقطنا ثلثها .

---

(١) يُشيرُ بهذا البيت إلى ما كان يصنعُهُ الشيخ علي (رحمه اللّه) مع معارضيه ؛ حيث أنّه كان يهدي لهم الأموال الجزيلة . (تعليقة المؤلف) .
(٢) كان المعارض المُشار إليه يخضب لحيتَهُ بالحنّاء . (تعليقة المؤلف) .

ومثلها بالمتانة والحُسن والأطراء والغلو ما رأيته مرسوماً عندنا ولا أدري لمن هي ، ولكن مكتوب في صدرها هكذا :

في مدح الشيخ شيخ علي قصيدة تنطبق على عليّ سميّه (عليه السلام) ، وفي آخرها تعريض بمعارضيه ، (ولكنه أهون من الأول) ، وهي :

بزغتْ شموسُ علاكَ في آفاقها / حتى استضاءَ الدهرُ من إشراقها
واستعذبتْ فيك المكارمُ مِدْحَةً / في غيرِ ذاتكَ علقمٌ بمذاقِها
واشتاقت العلياء أنّكَ بعلُها / طَمَعاً بمجدك في سياق صداقِها
ولحظت جامعة الكمال بأعين / نُشِرَتْ محاسنها على أحداقِها
وبعزّكَ السامي تحلّى جيدُها / حيثُ الرقابُ تُزانُ في أطواقِها
وبنتْ عليكَ من الفخار رواقَها / وسواكَ أُبعِدُ عن حريم رواقِها
وابتعتَ بالثمنِ النفيس محامداً / مرّت عليك تُسامُ في أسواقِها
وزهدتَ بالدنيا التي طلقتَها / مُتعفِّفاً عن رجعةٍ بطلاقِها
وأقمتَ في ربع العلوم لك البقا / وسواك ممنوعٌ عن استطراقِها
وكنوزُ علم في ضميركَ أُودِعَتْ / يزدادُ جوهرها لدى إنفاقِها
يا خيرَ مَنْ زرّتْ عليه قميصها / العليا وخيرَ مَنْ احتبى بنطاقِها
لولاكَ حرّفتِ الشريعةَ فتيةٌ / ساقت حدود اللّه غيرَ مساقِها
فكشفتَ عن دين النبيِّ ضلالةً / شحذتْ عليه بارقات رقاقِها
واستوهبت فيك المعالي سيداً / سارَ الثناءُ عليه في آفاقِها
وإليك أحكامُ العباد تسوسُ في / أديانها ، أبدانها ، أرزاقِها
وبك استقرَّ الأمرُ في تكليفها / ولكَ استمرَّ العهدُ في أعناقِها
و(عرجتَ) عرفاناً لربكَ عندما / أبتِ المشيئةُ عن رقيٍّ (بُراقِها)
وعرفتَ أسرارَ القضا ودقائقَ الـ / أشياءِ في أفلاك سبع طباقِها
وحقائق الأسما وآثار السما / عن شبهها بقرانها ومحاقِها
وإذا جرتْ حلباتُ كُلٍّ فضيلة / فَلَكَ المجلّى فائزاً بسباقِها
وعليكَ ألسنةُ الثنا مَقْصُورةٌ / وبذاتكَ التقييدُ في إطلاقِها

وشققت جسمك من صفات أشكلتْ ... معنى سوى التعريف عن مصداقِها
وزجرتَ عن وادي (الغريّ) حوادثاً ... ونشرتَ ثوبَ العدل فوق (عراقِها)
وصفحتَ فضلاً عن جرائم فتيةٍ ... جهدتْ عليك بغيِّها ونفاقِها
فوهبتَهُ وهو (المذمُ) باسمه ... غوث المروعةِ في كرى آماقِها[1]
تهواكَ ألسنُها فأنْ هي أبصرتْ ... فُرَصاً لحربك شمّرتْ عن ساقِها
يا مُنيةَ الراجين بَلْ يا جنَّةَ الـ ... ـلاجين حيثُ تُراعُ من أملاقِها
لمّا رأتْكَ عروسُ فكري كفوها ... زُفّتْ إليكَ تميسُ في أشواقِها
وسقتْكَ رقتُّها قواريرُ الهوى ... فلها الهنا أصبحتَ من عُشّاقِها

ومنها ما قاله السيد حسن الأصم البغدادي يهنيه ، ويؤرخ عام زواج ولده الشيخ مُحمَّد بنت عمه الشيخ موسى (رحمهم الله) أجمعين :

خليليَّ مِنْ شُربِ المُدام تزوّدا ... فأنَّ حسامَ الصُبحِ أضحى مُجرَّدا
هي الأثمُ لا إثمٌ على مَنْ يديرُها ... ولكن على من راحَ فيها مفنَّدا
معتقةٌ كادْت تطيُر بكأسها ... ولكن لها أضحى المزاجُ مُقيَّدا
مورّدة لو ذاقَها شيخُ تسعةٍ ... وتسعينَ أضحى الخدّ منه مورّدا
فلو مرَّ بالحانوت ينظرُ كأسَها ... يطوفُ عليها راهبُ القوم عربدا
ولو شَربَ النُسّاكُ فَضْلَ زجاجِها ... لخرّوا لهاتيك الزجاجة سَجّدا
ولو صافحتْ خمّارَها كفُّ (مادر) ... لراحَ من (الطائيِّ) بالجُودِ أجودا
ولو (باقلٌ) منها احتسى راحَ قائلاً ... (أنا الصائحُ المحكيُّ والآخرُ الصدى)
ولو قُرّبتْ مِن أكمه عادَ مُبْصِراً ... ولو شَامها رَكبٌ وقد ضلَّ لاهتدى
ألا فأشرباها ثم عودا لشربها ... فأني أرى في شربها (العَودَ أحمدا)
وقولا لساقي القوم يأتي لشادن ... مغنٌ بلحنِ القولِ يُخجلُ (مَعْبَدا)
وإنْ لم يكنْ طفلٌ فخُودٌ مليحةٌ ... تُحاكي ثنَاياها الجُمانَ المُنضَّدا
حَوَتْ حاجباً شحط المخطّ وناظراً ... يُعيرُ الظبا فتكاً وفرعاً مجعّدا

(١) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله : «إنطباق هذا البيت في المرحوم الشيخ علي واضح ، وأمّا في أمير المؤمنين (ع) فغير معلوم لأنه ليس في أعدائه ومعارضيه مَنْ إسمُهُ مذم» .

تتيهُ على الغزلان في لفتاتها ... وتزري بخُوط البان مَهْما تأوّدا
فَقُوما إلى شُربِ الحُميّا عجالةً ... ومن عادة المحروم أنْ يتزوّدا
سروراً بعرس الألمعيّ (مُحمّد) ... سليل (عليٍّ) من عَلا الناس مَحْتِدا
ربيبُ الهُدى ربُّ الصلاح أخو التقى ... حليفُ النُهى خدنُ الكمال أبو الندى
هُمامٌ رقى هامَ (السّماك) بهمّة ... تعالتْ ولَمْ تبرحْ تُحاولُ مصعدا
تربّى بحجر المجد طفلاً ويافعاً ... تقمّص جلباب المفاخر وارتدى
براهُ إلهُ العرشِ منْ نور علمه ... وأحيا لنا فيه شريعةَ (أحمدا)
وكوّنهُ من عالم اللطف (عالماً) ... فأصبحَ شيخَ الكُلِّ في الكُلِّ واغتدى
هو العالِمُ القدسيُّ والفاضلُ الذي ... توحّدَ في خلق التقى وتفرّدا
هو العالِمُ القدسيُّ والفاضلُ الذي ... بجمع العلوم الغامضات توحّدا
هو البحر لكن لا تجود يمينُهُ ... غَداة الندى إلاّ لجيناً وعسجدا
تَعوَّدَ بسطَ الكفِّ طفلاً وإنّما ... (لكُلِّ امرئ من دهرهِ ما تَعوّدا)
فَمَنْ ذا يُدانيه علاً وشقيقُهُ ... (مُحَمَّدٌ) مَنْ في غيره ليس يُقتدى
كذا (الحسنُ) الأخلاق والمجتبى الذي ... به منزلُ الفخر الأثيل تشيّدا
هُمُ القومُ طاروا بالمفاخر والعُلى ... وجازَ عُلاهمْ كُلَّ أفخرَ أمجدا
وفاقوا الورى علماً وحلماً وعفةً ... وجُوداً ومجداً وافتخاراً وسؤددا
وهم طوّقوا بالمجد جيدَ بني الرجا ... فما ابنُ رجا إلاّ وأسدوا له يدا
غيوثُ ندى إن أجدبَ العامُ يغتدي ... إليهم حديثُ الجود في الناس مُسْنَدا
فمن تلقَ منهم تلقَ بحرَ سماحة ... إذا أمّهُ ذو حاجة لم يَقُلْ غدا
بني (جعفر) ، يا جامعينَ مكارماً ... غدا شملُها بين الأنام مُبَدَّدا
ليُهنكمُ عرسٌ غدا الدهرَ لابساً ... به من صنيع السَعد ثوباً مجددا
وما خلت قدْماً أنَّ غزلانَ (رامة) ... تعانقُ أُسْداً لا تَهابُ من الردى
(قرانُ) سعود قَدْ جلا بسنائه ... دياجي العنا عنّا غداة توقّدا
فقُمْ يا أخا ودّي ونادي مؤرخاً ... (وقُلْ زُوّجَتْ شمسُ البها قمر الهدى)(١)

---

(١) حساب الجُمل في هذا التاريخ يُوافق سنة (١٣١٨هـ) ، وهو غير صحيح . وذكر الشيخ محبوبة في ماضي النجف وحاضرها ، جـ٣ ، ص١٩٥ : أنَّ هذا التاريخ يكمل اذا لم تُحسب كلمة (وقل) التي يساوي مجموع حروفها (١٣٦) ، وهو خلاف قاعدة فنّ التاريخ الشعري المُطردة في حساب كُلّ ما يقع بعد مُشْتَقّات كلمة (التاريخ) .

وأما مراثيه ، وتعازي إخوانه وبنيه فيه ، فتكاد أن تكون ديواناً لكثرتها . ونحن ننتخب منها نبذة كافية ، في أداء حقه .

فمن ذلك ما رأيته في المجموعة (القفطانية) وفي صدرها ما هذا نصه : مما قال المرحوم الشيخ إبراهيم نجل الشيخ حسن قفطان (رحمه الله) في رثاء العلامة المحقق خاتمة المجتهدين ، وعميد الفضلاء المدرسين ، وعماد الحق وعميد الملّة والدين ، المرحوم جناب الشيخ علي نجل الأستاذ الأكبر ، الشيخ جعفر ، (قدّس الله روحهما) معزياً أخاه وولده ، وهي :

توسّمتُ بعد المستقلّين أَرْبُعا ... فأسقيتُها من وابل العين أدمعا
محاها البلى حتى ظننتُ رسومَها ... ركائبَ زارتْها عواكفُ خشّعا
أسائلُها عن فخرها أين أزمعا ... فيثني الصدى ما قلتُهُ أين أزمعا
عَفَتْ مُذْ مَضى عنها (عليٌّ بن جعفر) ... وأقلع عنها السعدُ ليلةَ أقلعا
مصاب على الأسلام حلَّ كلاكلاً ... فأزعج أربابَ الحفاظ وروّعا
ليوم (عليٍّ) تذرفُ العينُ أدمعاً ... فأنّهما سيّان رُزْءً ومصرعا
فذلكَ مادَ العرش من وقعِ صدعه ... وهذا له ركنُ الهُدى قَدْ تصدّعا
لئن جاءت الأيام شنعاءَ في الورى ... فيوم (عليٍّ) كان أدهى وأشنعا
فلا بكّر الناعي على الناس ويحهُ ... بفيه الثرى هَلْ يدريْ أيَّ فتىً نعى
نَعى فالمساعي الغُرُّ تندبُ خلْفَهُ ... وغادر أحشاءَ المكارمِ وُقّعا
نَعى سيداً لم يلحظ الدهر مغضباً ... بعينيه إلاّ انصاعَ منه مروّعا
إماماً له ألقى الزمانُ قيادَهُ ... فجاء على وفق الأرادة طيّعا
وغوثاً لنا في فادح الخطب مفزعاً ... وغيثاً لنا في كالح الجَدْبِ مربعا
سرى نعشُهُ في الناس مَسْرى نواله ... وخطّ له في قلبه المجدُ مضجعا
فيا طودَ عزٍّ قَدْ أمنّا بظلّه ... تكنّفه ريبُ الردى فتزعزعا
ومرتكماً نُسقى بصيّب وَبْلِهِ ... جَلَتْهُ عقيمُ النائبات فأقشعا
وبدراً تعوّدنا اهتداءً بنوره ... فأشرقَ لكنْ صيّر النعشَ مطلعا
فيا حاملَ النعش اتّئد فلعلَّهُ ... يُزودُنا دُرَّ الحديث فنسمعا

رويداً فهذي المكرمات نوائح ... وراءك تسترعيك حسرى وظلّعا
فَقُلْ لبني الآمال خلّوا عن السُرى ... فقد أُودعَ المجدُ الثَرى يومَ ودَّعا
وما كنتُ أدري قبلَ دفنكَ أنَّهُ ... يكونُ الثرى من ساحة الكون أوسعا
ولا قبل أعواد حملنكَ أملاً ... بشامخ رضوى أن يقلّ ويوضعا
هدأتَ فصيّرتَ القلوبَ خوافقاً ... ذهبتَ فخلّفتَ الحوادثَ رُجَّعا
وأُنزلتَ قبراً قَدْ سما بك رفعةً ... كأنّكَ ما أُنزلتَ إلاّ لتُرفَعا
تساميتَ فاستبدلتَ منّا ملائكاً ... تطوفُ على مثواك مثنىً ومربعا
فللّه رزءٌ كوّر الشمس في الضُحى ... وأوهى قوى الدين القويم وضعضعا
وألبسَ وجهَ البدر إذْ حيل بينَهُ ... وبين سنا شمس المعالم برقعا
ونعشٌ هوى والمجد فيه إلى الثرى ... فقل في الرواسي الشامخات هوتْ معا
أقام لنا ركبُ التحسّر والجوى ... وودَّعَ ركبُ المجدِ ساعة ودّعا
ففي كبدي داءٌ إذا ما شكوتُهُ ... لتنفعه الشكوى يزيدُ توجّعا
وقائلة هيهاتَ تأملُ سلوةً ... ولم يبق في قوس التصبّر مَنْزَعا
فقلتُ بلى إنَّ السلوَّ بسيد ... أعزُّ وأزكى العالمين وأورعا
هو (الحسنُ) الفعل الجميل به العزا ... وإنْ عَظُمَتْ تلك الرزيةُ مَوْقعا
فلولاهُ ما قامتْ شريعةُ (أحمد) ... ولم نَدرِ منها واجباً مَنْ تطوّعا
تسلّ معيد الدين غضاً فأنّما ... شعار الليالي أن تُريعَ وتُفزِعا
تفيأتُ من روق الفخار سرادقاً ... سمتْ فغدتْ من شامخ (النَسرِ) أرفعا
ولي سلوةٌ في فرعه الماجد الذي ... عُفاةُ الورى تأوي لمغناهُ شُرّعا
(مُحمَّدُ) وصف عزَّ كهفاً ممنّعاً ... وزاخر علم ثابت العزم ألمعا
ومنْ بعده (المهديُّ) فينا ومَن حوى ... شمائلَ أضحتْ من شذا المسكَ أضوعا
فيا أهلَ بيت قَدْ أبى اللّه أن ترى ... بهمْ غيرَ حام للشريعة أروعا
إذا غابَ منكم ماجدٌ قام ماجدٌ ... به أورقَ الأسلام عوداً وأينعا
سقى جَدَثاً وآرى (عليّاً) من الرضا ... سحاباً بعفو اللّه يهمي مدعدعا(1)

---

(١) السَحاب المُدعدع: المطر النازل بانتظام، الذي يُعبّر به عن الرحمة والرضوان.

ولعمري أن الشيخ إبراهيم في هذا المقام ما أجاد ، ولا وافق السداد ، حيث أنَّهُ توسّم بدار المرثيّ العفا والبلاء ووصفها بالمحول ، وجعلها طلول ، وهو توسّم قبيح ووصف غير جيد ، خصوصاً إذا كان الميت له من يقوم مقامه ويجلس في محله . فأنْ قلت لم تزل الشعراء تشبب بالدار أمام الرثاء ، قلتُ لك نعم هو كما قلتَ ، ولكن يتخلّصون من التشبيب بها إلى الرثاء ، ولا يجعلونها دار المرثي ، ولو جعلوها فأنّما يصفوها بالعزّ والمنعة كما قال الشريف : ألا ناشداً ذاك الجناب الممنّعا .

والحاصل أن هذا أمر تعرفه بذوقك ، وتجد حسنه وقبحه بسليقتك ، وقد كان المتقدمون يتخلّصون من التشبيب بها إلى الرثاء بواسطة الدمع كما صنع الشريف في قصيدته الدالية التي أولها :

هذي المنازلُ بالغميم فَنادِها

وكقول البُحتري :

ولا تسألي عمّا بكيتُ فأنَّهُ ... على ماء عيني جادَ ماءُ جفوني

أو بواسطة الأمر بالكفّ عن البكاء على الدار وجعله للميت كما قال الخطّي :

«ولكن هلمّ الخطب في رزء سيد»

وقد شرك الشيخ إبراهيم بعدم التفاته إلى هذا العيب السيد الأديب سيد جعفر[1] إبن العالم النحرير سيد باقر القزويني ، حيث قال يرثي الشيخ علي أيضاً ، ولكن تفرّد عنه بشيء آخر وهو أن قصيدته هذه تعاون (السيد ، والبُحتري) عليها ، ومع ذلك ما جاءت على ما ينبغي ، وسأنبهك على ذلك . والقصيدة هذه :

هَلْ بالديارِ لواجدٍ إلمامُ ... هيهاتَ غيّرَ رَسْمَها الأيامُ
ضُربتْ عليها للزمان كلاكلٌ ... فمحتْ محاسنَها التي تستامُ
قفْ بي أُسائلُ ربْعَها عن أهلهِ ... أين استقلّوا بعدنا وأقاموا
وأُكلّمُ الدرسَ الدواثرَ بعدهم ... لو كان يُجدي الواجدين كلامُ
يا دارُ ما لَكِ للنوائبِ كُلّما ... رُفّعت فذاً صبحتك توامُ
أوَ ما كفى صرفَ الحوادث ما مضى ... من قبل في أهليك منه سهامُ

(١) من علماء الأُسرة القزوينية ، وأُدبائها تُوفي سنة ١٢٦٥هـ/ ١٨٤٩م .

حـتى دهى بمجلجل لو أنّهُ   بأطام رضـوى خـرّ منه أطامُ
اللّه أكـبـر مـا أجلّ مـصـيـبـةً   عَظُمتْ فـقلّ لقـدرها الأعظامُ
نفضتْ على وجه الصباح رداءها   فـغـدا ضـيـاءُ الصبح وهو ظلامُ
ورزية حـمل الأئمّة شطرها   والمسلمـون وشطرها الأسـلامُ[1]
هدّت ذرى الدين القويم فـمـا له   أبداً إلى يوم القـيـام قـيـامُ
جَلَلٌ عـدت فيـه الحوادث طورها   وتجـاوزت مـقـدارها الأيامُ[2]
حـتى أطلّ به على الأنام بمُدْهش   ذهـبتْ بـه الآراءُ والأحـلامُ
فـقـدوا عليـاً ذاهلينَ ولم يكنْ   خَلقتْ لهم فـقـدانه الأوهامُ
فـتـراهمُ مِنْ سكر حـيـرتهم به   لا ســاهرونَ ولا هُمُ نُوّامُ[3]
مَنْ ذا يعـزّيه عليـه وكُلُّ مَنْ   فـوقَ البسيطةِ بعدَهُ أيتامُ
لكنْ نُعـزّي المكرمات بفـقـدِ مَنْ   بدوامـه للمكرمـات دوامُ
ونُعـزّي دينَ اللّه بالمولى الذي   لولاهُ مـا رفـعتْ له أعلامُ
يا أيُّهـا المولى الذي عن وصفـه   قَـصُـرَ الكلامُ وكلّتِ الأفـهـامُ
ما كنتُ أحسبُ لا ومَنْ قَدْ خصّه   بمراتب في المجـد لـيس تُرامُ
أن الليـالي تسـتطيعُ لهـاتُهـا   مـضـغـاً لصِلّ لَهْـوَتَيه سـهـامُ
لكنّهـا قـدمتْ عليـه فـهـالَهـا   من جـانبـيـه العزّ والأعظامُ
حـتى إذا قـدمت كـبتْ أقدامُها   فـأعنّهـا الأقـدار لا الأقـلامُ
بأبي وآبائي الكرام جـمـيـعـهم   جَـدَثٌ تَجَـمّعُ فـيـه منكَ عظامُ
وبـرغـم أنـف الـديـن أنّكَ نـائمٌ   في حـفـرةٍ والشامـتون قـيـامُ[4]
أسـفي عليك وهل يفيـد تأسّفي   قلبـاً عليـه الصـبـرُ عنكَ حـرامُ

---

(١) قال البُحتري :
ورزيـة حـمـل الخليفـة شطرها   والمسـلمـون وشطـرها الأسـلامُ
(٢) هذا بعينه للبُحتري . (تعليقة المؤلف) .
(٣) نظر إلى قول الشاعر الأموي :
والركبُ من دهش النوى في حيرةٍ   لا نـائمـون ولا هُـمُ أيـقـاظُ
(٤) مأخوذ من قول البُحتري :
وبـرغـم أنـفـي أنْ أراكَ موسّـداً   يـدَ هـالك والـشـامـتون قيامُ
وأنتَ ترى التفاوت ما بين قوله : موسّداً يدَ هالكٍ ، وحسن التّعبير عن الموت ، وبين قوله : نائم في حفرة .

(فعليكَ يا حِلْفَ الندى وعلى الندى   من ذاهبين تحيـةٌ وسـلامُ)[1]

وللشيخ الأديب، المفلق الأريب، الشيخ عبد الحسين محيي الدين قصيدة في رثاء الشيخ عليّ أيضاً على هذا الوزن والقافية، إلاّ أنَّهُ لم يلمّ من قصيدة أبي عبادة، وهي:

جللٌ له بذوي العُلى إلمامُ   لم تأتنا بنظيره الأيامُ
وعظيمُ رُزء في عظيم قدره   إن الرزايا في العظام عِظامُ
قَدْ أعولتْ فيه الملائكُ بالبُكا   والمسلمونَ تعجُّ والأسلامُ
قُلْ للردى لا تجري بَعدُ فلمْ تكنْ   بعدَ ابنِ (جعفرَ) غايةٌ فتُرامُ
يا ناشدَ الشرفِ الرفيع تعزّياً   أهوى إليكَ من الشريف شمامُ
يا ناشدَ العلياء أقفرَ ربعُها   وخَبَا لزند المُكرمات ضِرامُ
فلتَجرِ عينُ العلم فيه دموعها   حُزْناً وتندبُ يومَهُ الأحكامُ
يا راحلاً أقوى له ربع الهدى   وجداً وجُبَّ من الرشاد سَنَامُ
مُذْ بِنْتَ بانَ من العُيون رقادُها   والصَبرُ عزَّ فعادَ وهو حرامُ
أنّى نُطيقُ أسى وكنتَ لنا الأسى   إنْ نابنا خطبٌ وأجدبَ عامُ
كُنَّا نردُّ بكَ الزمانَ إذا سطا   فرمتْكَ من أيدي الزمان سهامُ
يا بدرَ تمّ يُستنارُ بنورهِ   فرماهُ خسفٌ واعتراهُ ظلامُ
وأشمُّ طأطأ للمنون وكمْ له   مِنْ كُلِّ ذي شرف تطأطأ هَامُ
ماذا على الأيام بعدَكَ لو بدتْ   سود الوجوه برودهنّ قَتامُ
قل للمعيِّر بالحِمام له فما   في الخَلقِ مَنْ قَدْ أخطأتْهُ حِمامُ
ما في الردى للشامتينَ شماتةٌ   لم يَبقَ إلاّ الواحدُ العَلاّمُ
فلئن قضى الحَبرُ (العليُّ) فبعدما   أدّى شرائعَ فرضهنّ لِزامُ
وقضى حقوقَ مكارم ملءُ الفضا   لم تُبلِها الأحقابُ والأعوامُ
إنْ فلَّ منه الدهرُ غرب حسامه   فلَكم به للدهر فُلَّ حُسامُ
ما ماتَ مَنْ قَدْ ماتَ إذ أبقى لنا   خُلَفا بأعباء (الخلافة) قاموا
أبقى لنا (حَسَناً) (عليٌّ) بعدَهُ   يقضي بفصل إنْ ألدَّ خِصامُ

(١) هو للبحتري برمته، وهو من محاسن شعره. (كل التعليقات التي وردت على القصيدة هي للمؤلف).

مـولى أقـرَّ له الأنام فـمـا ترى ... إلاّ علـيــه تَسـالـمٌ وسـلامُ
وسليلُهُ الزاكي النجار (مُحمَّد) ... فـهـو المهـذبُ والفـتى القُمْقَامُ
والماجـدُ (المهـديُّ) أكـرمْ ذا عُـلاً ... بسـنـا هـداهُ تـنـجـلـي الأظـلامُ
فـئـةٌ ولا صـغـرٌ صـغـيـر بينهم ... تـسـلـو بـه آبـاءهـا الأيـتـامُ
وأئمـة إنْ غـابَ منهم واحـدٌ ... فـرضـاً يقـوم مـقـام ذاك (إمامُ)
يا (باقـرَ) العلم المُهـذّب والذي ... خـفـقت عليـه للعُلى أعـلامُ[1]
يكفـيكَ سلواناً بأكـرم فـتـيـة ... سـمكتْ لهم فـوق السـهى أقـدامُ
ولهم بك السلوان عمن قَدْ مضى ... إذْ أدركـوا بكَ كُلَّ مـا قَـدْ رامـوا

وله أيضاً يرثيه، ويؤرخ العام الذي تُوفيَ فيه:

أيرجو الفتى في الدهر عيشاً مُخلَّدا ... وسهمُ الردى ما انفكَّ منه مُسَدَّدا
وكم شنّتِ الأيام في الناس غـارةً ... أحالتْ بياضَ الصُبح في العين أسودا
وهيهـاتَ ما للمرء من طارق الردى ... مناصٌ إذا سـهمُ المنيـة أقـصـدا
فلو أخلدت أيامنا الدهر واحـداً ... لأخلدنَ خيرَ الناس طراً (مُحمَّدا)
ولكنّمـا خطّ المنون على الورى ... جميعـاً فمـا جيدٌ به ما تقلّدا[2]
وناع نَعى أصـمى المسامع نعيُـهُ ... وقـرَّحَ أجـفـانـاً وصـدَّعَ أكـبـدا
نعيَ ماجـداً لو كـانَ ينعى نفوسَنا ... لنا دونه مـا كـانَ أدهى وأوجـدا
فتىً كـانَ أحيا شرعةَ الحقّ علمُهُ ... وَمَـهَّـد آيات الرشـاد وشـيّـدا
أبو عذرها السامي الفروع ومَنْ سما ... بما قـدْ حـواهُ مَنْ أغـارَ وأنجـدا
وكُنّـا بـه والـدهـرُ يُـرهـبُ بـأسَنا ... فَعُـدْنا لغارات النوائب مَـقْـصَـدا
فـمَنْ ذا يُرجَّى للحـوادث بعـدَهُ ... إذا مـا دجى ليلُ الحوادث أو هدى
بني (جعفر) لا أخمدَ الدهرُ ذكرَكمْ ... ولا منكمُ أخلى ندياً وَمَحْشَـدا
فما حُسْنُ دهرٍ فات أو يأتي لم تُزَنْ ... سمـا فخـره فـيكم بأنجم للهـدى
سلوّاً ومـا السلوانُ منّا بمثله ... مطاق ولكنْ سُنَّةُ الطُهر (أحمدا)

---

(١) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله: «ما أدري أيَّ باقر هذا، وليس في بيت الشيخ مَنْ اسمُهُ باقر»!
(٢) علّق المؤلف على المعنى بقوله: «هذا مضمون الحديث المشهور».

فما خصّكم ذا الرزء حيثُ أصابكمْ ... ولكنَّهُ لم يُخطِ منّا موحّدا
وإني وإنْ شاطرتُكمْ فادحَ الشجى ... أرى أنَّ حظي في الشجى كان أزيدا
أجَلْ رَحِمُ الأيمان بيني وبينكم ... يقرّب ما رَحْمُ القرابةِ أبعدا
فلا يشمت الشاني (عليّاً) بموته ... فما عاش في الأيام حيٌ فأخلدا
وما غابَ مَنْ أبقى بدوراً طوالعاً ... بأنوارها في حالك الخطب يُهتَدى
وأنَّ لنا فيهم عزاءً فكُلُّ مَنْ ... ترى منهمُ تلقى كريماً وسيدا
أرى (حَسَناً) يحذو (عليّاً) بفعله ... أجلْ (بعليٍّ) المرتضى (الحَسَنُ) اقتدى
وهاتيك أبناءٌ له حاولوا العُلى ... وإن شئتَ مولى الكل فاذكرْ (مُحمَّدا)
وأرقبُ (للمهديِّ) وثبةَ خادرٍ ... يُقوِّمُ من دين الهدى ما تأوّدا
يُسددُ فيه اللّه مذهب (جعفرٍ) ... وروّاه صوبُ العفو أوطف مرعدا
ولما دعاهُ اللّه للخُلدِ أرّخوا ... (عليٌّ محاذي في النعيمِ مُحمَّدا)

١٢٥٣هـ

هذا ما حضر لديّ من مراثيه حال الكتابة .

وقد حدثني خلفه العَلمُ العبّاس أن الشيخ إبراهيم قفطان ، أو الشيخ حسن قفطان[1] رثى الشيخ (ببند) طويل في غاية الجودة والمتانة ، وفي آخره تاريخ لعام وفاة الشيخ . وكان تأريخُهُ : (ورفعناه مكاناً في السماوات علياً) .

وهو كما ترى في أعلى مراتب الحسن وله به تمام الفذلكة الأدبية . ولكني عددتُهُ فخرج زائداً بثلاثة على ذلك العام . فأنْ كان كما خرج عندي فلعلَّهُ كان مشيراً قبله إلى زيادة هذا المقدار[2] ، واللّه أعلم .

---

(١) البند هو للشيخ حسن قفطان المُتوفى سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م . وقد أثبتْهُ الاستاذ علي الخاقاني في «شعراء الغري» ، ج٣ ، ص١٣ (نقلاً عن مجموعة السيد جعفر الخرسان المخطوطة) ، وأولُهُ : أخرسَ الناعي لساني ، وشجاني ما شجاني ، إذْ دهاني ، بنعيَ أوجرَ الصدرَ ، ورُزء أقصمَ الظهر . حتى يقول «مَنْ تُرى مِنْ بعدك اليومَ أنادي لشؤوني ، خابت الآمال مِنْ بعدِ إمام ذاب أقصى كبد العلياء لمّا قام جبريل شجيّا ، دونَ عرش اللّه ينعاهُ بتاريخ «رفعناهُ مكاناً في السّماواتِ عليّا» ، ولي الله على ذاكَ ،لي الله لقد كنتُ ،ولا أعرفُ بالنكبة لولاه . . .» .

(٢) حساب التاريخ هو كالآتي :
(رفعناهُ مكاناً في السماوات عليّا)
رفعناهُ : ٢٠٠ + ٨٠ + ٧٠ + ٥٠ + ١ + ٥ = ٤١٢
مكاناً : ٤٠ + ٢٠ + ١ + ٥٠ + ١ = ١١٢

وقال الشيخ صالح التميمي يرثي الشيخ علي (قده) بقصيدة يتذكر فيها رُزءَ أخويه موسى ومحمد ، ويتخلّص فيها بمدح أخيه الحسن وولده الشيخ مُحمَّد (رحمهم الله أجمعين) ، وهي :

رحيلُكَ أبقى لوعةً ليس تَرحلُ ... وموتُكَ أحيا قُرحةً ليس تُدْمَلُ
وناعيك أولانا ذهولاً وكم بنا ... بفادح خَطْبٍ ما نُساءُ ونُذْهَلُ
ولكنَّها وافتْ إلى الخَلقِ نكبةً ... إلى اللّه منها المُشتكى والمُعوَّلُ
إذا ما قضى حَبْرٌ أغرُّ مُحجّلٌ ... أتى حزنُهُ حزنٌ أغرُّ مُحَجَّلُ
فيا طالباً بالدمع إطفاء جمرةٍ ... معوّدة في واكفِ الدمع تُشْعَلُ
تُحاولُ أنْ يطفي الجوى فيض مقلةٍ ... ولو أنها تهمي الدماءَ وتهملُ
ويا قمراً وارى ضياءك برزخٌ ... ويا عيلماً أخفى معاليكَ جدولُ
أرى الناس أضحتْ بعد فقدكَ كُلُّها ... كذود بلا راعٍ غدا وهو مُهْمَلُ
تقلّص ظِلُّ العلم عنهم وقَدْ سطا ... بهم بعدَ ذاكَ الظلِّ دهرٌ مُضللُ
منحتَهمُ رشداً وألبستَهُمْ أسى ... فكُلٌّ لكُلٍّ بالأسى متكفّلُ
إذا ما ليوثُ الغابِ غيَّبها الثرى ... فلم تُغْنِ في يوم الكريهة أشبلُ
وإنْ غاضَ بحرٌ أوسعَ الخلقَ سيبُهُ ... فهيهاتَ أنْ يروي البرية مَنْهَلُ
بنفسيَ مَنْ تشكو المدارسُ فقدَهُ ... إذا عمَّ أربابَ المدارسِ مُشْكِلُ
وقَدْ أقفرتْ منه المساجدُ واغتدتْ ... محاريبُها مِنْ وَحْشَةٍ عنهُ تسألُ
وما مِنْ فتىً أحيا شريعةَ مُرْسَلٍ ... كأحيائهِ إلاّ له الدمعُ مُرْسَلُ
أتى آخراً ثُمَّ ارتقى غاربَ العُلى ... من العلم حتى عمّ بالفضل أوّلُ

في : ٨٠ + ١٠ = ٩٠
السماوات : ١ + ٣٠ + ٦٠ + ٤٠ + ١ + ٦ + ١ + ٤٠٠ = ٥٣٩
عليًا : ٧٠ + ٣٠ + ١٠ + ١ = ١١١
المجموع هو : (٤١٢ + ١١٢ + ٩٠ + ٥٣٩ + ١١١) = ١٢٥٧

وفي قوله : «ذابَ أقصى كبد الغلياء» إشارة الى حذف حرف (الدال) من كلمة كبد ـ من مجموع التأريخ . ولمّا كان حرف (الدال) يساوي الرقم (٤) في تسلسل حساب الجُمل المعروف «بأبجد ، هوّز ، حُطّي ، كلمن» ، فيكون التأريخ بعد إخراج المحذوف هو سنة ١٢٥٣هـ» .

أمّا ما ذكره المؤلف في (المتن) من وقوع الزيادة في حساب الجُمل ، فذلك راجعٌ الى عدّ حرف (الواو) ضمن التأريخ .

لفقد (عليٍّ) قَدْ تجرّعتُ غُصّةً
وإنّي على (موسى) أحنُّ وأعْولُ

يعاجلُني في برِّهِ يومَ فاقتي
ويُوسعُني في حلمه حينَ أجهلُ

ولستُ بناسٍ لو ذكرتُ (مُحمَّداً)
كأني سليمٌ ليلَهُ يتململُ

هُمُ القومُ لا يُبْلي الزمانُ جميلَهم
ولا الصبرُ في تلك الرزية يجملُ

ألا قُلْ لِمَنْ أخفى الشماتةَ جاهلا
يؤمّلُ في أيامه ما يؤمّلُ

بفيكَ الثرى فالحظُّ ليس بِمُدْبِرٍ
ولكنَّهُ والحمدُ للّه مُقْبِلُ

هو (الحسنُ) البحرُ الخِضَمُّ ومَنْ نرى
بطلعته وجهَ التُّقى يتهللُ

يؤازرُهُ الحَبرُ المُصابُ (مُحَمَّدٌ)
فتىً سورُ عزٍّ للأنام ومَعْقلُ

هما فرقدا علمٍ وجُودٍ كلاهُما
فذا فاضلٌ فينا وذا متفضّلُ

وكانت وفاته عقيب وفاة السيد السّند السيد رضا[1] نجل العلامة الطبطبائي (قده)، فقال الشيخ حسين مبارك[2]، وهو من شعراء العلماء، يرثيهما (قُدِّسَ سرُّهما) ويتذكر مصائب العلماء كالسيد مهدي نجل السيد مير علي الطبطبائي والشيخ موسى (ره) وكانوا متقاربي الوفيات، ويتخلّص بمدح الشيخ حسن أخيه، ويعزّيه مع باقي بنيه:

خَدَّدَ الدمعُ على خَدّي خَدّا
ووهتْ منّي القُوى حُزْناً ووَجْدا

وعراني ما عراني من أسى
أورثَ القلبَ شجى والعينَ سُهْدا

ووهى ركنُ اصطباري أسفاً
ولقد كنتُ على الأرزاء جَلْدا

حين وافى نَعْيُ مَنْ ألبسني
فقدُهُ ثوباً من الحُزن وبُرْدا

ما لصَرْفِ البينِ لم يتركْ لنا
طودَ عزٍّ شامخٍ إلاَّ وهدّا

ما نسينا موتَ (موسى) و(الرضا)
بَعدُ، و(المهديِّ) خيرِ الخَلق جدّا

إذْ سطا فاغتالَ منّا أسداً
يُرهبُ الأُسدَ إذا صالَ وشدّا

وتقيّاً يقطعُ الليلَ إذا
ما دجا للّه تسبيحاً وحمدا

وجَواداً يُوسعُ الوفدَ إذا
نزلوا في رَبْعِهِ علماً ورِفْدا

(١) السيد رضا نجل العلامة السيد مهدي بحر العلوم ولد سنة ١١٨٩هـ/ ١٧٧٥م، وتُوفي سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م ومنه تتفرّع أسرة آل بحر العلوم.

(٢) الشيخ حسين بن الشيخ محمد بن مبارك من فقهاء عصره، تُوفيَ سنة ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م.

ليتني متُّ بوجدي قبلَهُ — وتوسّدتُ كما وُسِّدَ لحدا
أحمُدُ اللّه فقد أبقى لنا — مَنْ سما للفَلكِ الأطلسِ مَجْدا
(حسنَ) الأفعال ، والأقوالِ مَنْ — برداءِ العلم والتقوى تردّى
هو في الأرض منارٌ يهتدي — بسنا أنواره من ضَلَّ قَصْدا
نابَ عمّن قَدْ مضى عنّا إلى — جنّة الفردوس أخلاقاً وزُهْدا
ولنا في وُلْدِهِ أكرمْ بهِ — وبِهِمْ خيرِ أبٍ بَرّاً وولدا

وحدثني جنابه العالي أيضاً عن المحقق القزويني[1] (رحمه اللّه) ، (وكان من بطانة الشيخ أبيه وخاصته ، ونسيبه وزوج ابنته) ، أنّهُ قال : كانتْ للشيخ أشعار كثيرة في التغزّل والتشبيب نظمها في أيام صباه ، ولما بلغ العشرين أو الثلاثين جعل يتّبعها ويفتّش عليها ليحرقها ويمحو وجودها ، فظفر بمقدار مائة ألف بيت[2] فأحرقها جميعاً ، إلاّ ما كان في مدح الأئمة (ع) ورثائهم ، وجعل يقتصّ أثر الباقي فيصنع ما صنع بالأول ، ولكني ظفرتُ بأوراق فيها كثير من شعره غزلاً وغيره فأخفيتُها عنه وحفظتها عن خاطري ، فمن ذلك :

بنفسي نديماً باتَ يُقْري مسامعي — حديثاً لمَطْويِّ الغرام به نَشرُ
إذا ما تلا صُحفَ ابن مريم صادعاً — بألحان داود وقد هجع السمرُ
وهبتُ نفسي وقلتُ له احتكمْ — فأنتَ بما تهوى لكَ النهيُ والأمرُ

ومنها قصيدة غرّاء أولها :

إلى كم ذا تُدانُ ولا تدينُ — وحتى ما أخانُ ولا أخونُ
أمَا عاهدتني والعَهْدُ دَيْنٌ — ومثلي لا تُضاع له ديونُ

إلى أن قال :

إذا ما جاء يسحبُ بُرْدَتَيهِ — وفي أعطافه هيفٌ ولينُ
بوجه رقّ ماءُ الحُسن فيهِ — فَرَاقَ الخدُّ منهُ والجَبينُ
وألحاظ مواض كالمواضي — قلوبُ العاشقين لها جفونُ
سقطتُ على (جُهينتهِ) فَسَلْهُ — (فعندَ جهينةَ الخَبرُ اليقينُ)

---

(١) هو السيد مهدي القزويني المُتوفى سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م .
(٢) يبدو أنَّ هذا الرقم تُرادُ به الدلالة على غزارة الأشعار التي نظمها الشيخ علي في صباه ، وإلاّ فهو لا يخلو من مُبالغة!

ومنها القصيدتان الداليّتان التي تقدّم ذكرهما .

وكان ينقل عن الشيخ أنَّهُ يقول : ما غُلِبتُ في الشعر إلاّ مرة واحدة وهي أني كتبتُ إلى الشيخ نصّار[1] ـ وهو بالنجف وأنا بالحلّة ـ قصيدة أولها :

سلوتُ عن (الغريّ) فذكّرتني — نوائحُ غرّدتْ فوقَ الغُصونِ
ذكرتُ أحبّةً فيها كراماً — عليَّ وإنْ هُمُ لم يُكْرِموني

فكتب إليّ في جواب قصيدة أولها :

لعَمْرُكَ ما سلوتُ فذكّرتني — نوائحُ غرّدتْ فوقَ الغُصونِ
بلى أسمعتُها لنواكَ نَوْحاً — فحنّتْ عندما سَمِعتْ حنيني

ولّما جاء السيد المتبحّر السيد صدر الدين العاملي من (العجم) إلى (النجف) رأى جماعة من الفضلاء المجتهدين يتعاطون كؤوس الآداب ، ومنهم الشيخ نصّار وبعض (الأعاسمة) ، وهم يختلفون إلى الشيخ عليّ ويرجعون إليه ، وذلك قبل وصول النّوبة له ، فأعاب السيد عليهم وقبّح فعلهم ، وأنه قَدْ يؤدي إلى محرّم كالتشبيب وغيره . على أن السيد كان عريقاً بالأدب وله ديوان شعر كبير . وكلّ أجابه بقصيدة .

فمنهم الشيخ علي وقد أملى عليّ هذه الأبيات خلفه المطهّر ، أدام اللّه له العمر والأمر ، وقال : لا أحفظ الباقي ، وهي :

بأيِّ كتابٍ أم بأيَّةِ سُنّةٍ — يحلُّ لديها نَقْضُ عهدي وذمّتي[2]
وتَنْسِبُ للتشبيبِ مثليَ ضُلَّةً — وكمْ لِيْ عليها من يد مستهلّتِ
ولا أعرِفُ التشبيبَ إلاّ بوصفه — ولا كان يوماً في الغرام تعلّتي
وهل لأمرئ بعد (الثلاثينَ) ملعبٌ — وقد أدبرتْ أيامُهُ وتولّتِ
ألَمْ ترني في كُلِّ يوم مشيّعاً — إلى القبر منهم ميتاً إثر ميتِ
فكم خلطوا حُلْوَ الكلام بمرِّهِ — وكم عرّضوا بي مرةً بعد مرةِ
ألم يعلموا أنّي أبو (عذرها) الذي — غدا طالعاً بالفضلِ كلّ ثنيّةِ
ويعرفُ فضلي كُلُّ غادٍ ورائحٍ — ويعمى حسودي عن بيان فضيلتي

---

(١) الشيخ نصّار بن الشيخ حمد بن زيرج العَبْسي . كان أحد كبار الفقهاء ، تُوفي سنة ١٢٤٠هـ/ ١٨٢٥م .
(٢) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله : «الشطر الأول من قصيدة للرضيّ على ما أذكرُهُ» .

وما أنا إلاّ الشمسُ يسطعُ نورُها | وإنْ أنكرتْها كُلُّ عينٍ مريضةِ
أنا ابنُ الأُلى قَدْ طبقَ الأرضَ فَضْلُهمْ | ولاذت بنو العليا بهم واستظلّتِ
بهاليل في أبياتهم حطّت العُلى | وألقتْ لديهمْ رَحْلَها فاطمأنّتِ
فأيَّةُ رِجْلٍ بالسباقِ ولم تكنْ | لهم سابقتْ يومَ الفخارِ فَشُلَّتِ
(أناملُهمْ في الجُودِ عشرٌ غمائمٍ | ولكنَّها في الحربِ عَشرُ أسنّةِ)

وهذا نوع من التضمين في تمام الحسن ، (والبيت للشريف رحمه اللّه) .

وأحسن من هذا كله ما حدَّثني به خلفه وبقيّته أطال اللّه عمره ، وشيّد أمره ، عن المحقق القزويني تغمدّه الباري برحمته : أنَّهُ لَمّا دهمنا الوباء العظيم ، الذي هبّت قواصفه على النوع الأنساني فجعلته كالرميم ، الموافق ابتداؤه سنة ١٢٤٧ ، ـ وفيه توفى الشيخ مُحمَّد نجل الشيخ الكبير ، وفي آخره تُوفي صفي اللّه ونجيّه السيد العارف السيد باقر القزويني[1] ـ (رحمه اللّه) ، تُوفيَ فيمن انتابه الوباء ثلاثة من تلامذة الشيخ علي ؛ وهم الشيخ عبد اللّه ، والشيخ قاسم ، والشيخ محسن ، وكلهم مس بيت خنفر[2] ، وكانوا من أجلاّء تلامذة الشيخ المبرزين بالفضيلة ، وكان يحبهم حباً شديداً . فلما وصل إليه نعيهم خرج إلى الدرس وقد اجتمعت الناس وبيده ورقة ، فرقى المنبر ، وقرأ علينا هذه الأبيات يرثيهم بها ، وهي :

قُلْ لقريبِ الدار في بُعدِهِ | ما بالهُ قَدْ حال عن عَهْدِهِ
وما له لم يرعَ حقَّ الوفا | ويُنجز المأمول من وَعْدِهِ
أخنى (بعبد اللّه) صَرْفُ[3] الردى | وابتزَّنا (القاسمُ) من بعدِهِ
واليوم قَدْ أخنى على (مُحسن) | ندبٍ رحيب الباع ممتدِّهِ
وردة مَجْدٍ قُطِفَتْ غضّةً | والَهفةَ المجدِ على وَرْدِهِ

إنتهى ما وصل إلينا من أخباره وأشعاره ، تغمّده اللّه برحمته في جواره .

(١) السيد باقر القزويني هو أصغر أولاد السيد أحمد القزويني الخمسة (جدّ أسرة آل القزويني الحلية ، المُتوفى سنة ١١٩٩هـ / ١٧٨٥م) . وكان السيد باقر من تلامذة العلامة السيد مهدي بحر العلوم ، ومن كبار فقهاء النجف في عصره . له ترجمة في مستدرك وسائل الشيعة ، المجلد الثالث ، ص٤٠٠ من (الطبعة الحجرية) .
(٢) آل خنفر هم أولاد خنفر بن حمزة بن كتاب العَفْكاوي ، والأسرة ترجع بنسبتها إلى قبيلة (باهلة) .
(٣) صَرْفُ الردى : نوائبه .

ظهور الفرقة الشيخية (الكشفيّة)

وفي أيامه ظهرت الفتنة العمياء ، والداهمة الدهيَّة الدهماء ، واشتهر وانتشر أمر الفرقة الشيخية ، المُعبَّر به عنهم تارةً ، وتارةً بالكشفية ، ، وذلك أن جماعة من فضلاء النجف عثروا على بعض رسائل السيد كاظم الرّشتي[1] القاطن بكربلاء فرأوا بها مما ظاهره الكفر أشياء لا تحصى ولا تعد ، وشنائع أقوال لم يأت بها عمر الزمان أحد ، فاجتمعوا وكان رئيسهم الشيخ موسى بن الشيخ عيسى بن الشيخ خضر[2] ، وكلموا الشيخ في الحكم بكفره فأبى وامتنع ، وقال : إن أمر الدماء عندي من أعظم الأشياء ، وحقن دماء المسلمين من أعظم المهمات ، كيف والحدود تدرأ بالشبهات .

فلما أيسوا منه مَضَوا إلى الشيخ مُحمَّد حسن صاحب الجواهر ، وكان قَدْ استقلّ بعد الشيخ موسى واستغنى عن الرجوع والحضور إلى أحد ، فأطلعوه على الرسائل وأشهدوا جماعة من الثقات أن السيد كاظم الرّشتي يدين اللّه بما فيها من الأقوال . فقال الشيخ مُحمَّد حسن : إن حكمي لا يفيد مع وجود مثل الشيخ علي فيكم ، والناس منه أسمع وأطوع . فذهبوا إلى الشيخ علي وقالوا له : إذا حكم الشيخ مُحمَّد حسن فما تصنع أنت؟ قال : أمضي حكومته .

فَحَكَمَ الشيخ مُحمَّد حسن بكفر السيد كاظم ومن اتّبعه وأحرق جميع رسائله بعد انتزاع الآيات والأحاديث والأسماء المشرَّفة منها ، وأمر بأن تُمحى من زيارة (شيشم) وغيرها الفقرات الموهمة للربوبية في حق (الأمير) كقوله : «السلام عليك يا منزل المنّ والسلوى» ، وغيرها مما ظاهره الغلوّ .

وأما السيد كاظم فإنَّه لمَّا أُخبِر بامتناع الشيخ علي عن الحكم بكفره أخلص له ، وتمكّن حبّ الشيخ في قلبه ، وكان إذا جاء إلى النجف للزيارة تهددوه بالقتل فيستجير ببعض السادة الأشراف[3] فيدفع عنه البلاء لعدم تحقق كفره وضلاله .

---

(١) السيد كاظم الرشتي ولد سنة ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م ، وتُوفي سنة ١٢٥٩هـ / ١٨٤٣م . وكان من تلامذة الشيخ أحمد الأحسائي المتوفى سنة ١٢٤٢هـ / ١٨٢٦م والذي تُنسبُ إليه الفرقة (الشيخيّة) . ويُعبَّر أيضاً عن أتباعه بـ (الرشتيّة) نسبة إليه .

(٢) الشيخ موسى بن الشيخ عيسى بن الشيخ حسين بن الشيخ خضر (جدّ أسرة آل الخضري) تُوفي في وباء الطاعون الذي حلَّ بالعراق عام ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م .

(٣) يقصد المؤلف بهذه العبارة السيد مهدي القزويني المتوفى سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٣م (وهو صهر الشيخ علي على بنته) . وكان القزويني يرفض معالجة ظاهرة السيد كاظم الرشتي بالعنف ، وقد أقنع أستاذه كاشف الغطاء بسحب الفتوى التي كان أصدرها في تكفير الرشتي . إستدعى القزويني قوة من القبائل الفراتية بقيادة أخيه السيد جواد القزويني لحماية الرشتي ـ الذي كان محاصراً في النجف ـ ، وإرجاعه الى مدينة (كربلاء) .

حدثني السيد المفضال السيد جعفر جلال ، وكان من الملازمين لخدمة الشيخ علي (قده) قال : كنتُ في أثناء هيجان تلك الفتن يوماً بخدمة الشيخ وحدي ، فبينا نحن جالسون إذ دخل علينا حسن أغا بن صادق أغا ، وكان من أعاظم رؤساء الشيعة ، ذا ثروة مشهورة مرفوعة ، وكلمة مطاعة مسموعة ، وكان الشيخ علي (قده) إذا دخل عليه الأسد فزع من هيبته وعنا لسطوته ، حتى أنَّهُ كان يجلس العصر في دار أبيه الكبيرة وتزدحم الأعاظم عليه ، وترتعش عند الدخول والجلوس بين يديه ، ويجعلون بينه وبينهم حريماً[1] مقدار أربعة أذرع عن يمينه وأربعة عن شماله ، ولا يقدر أحد على الجلوس ملاصقاً له مهابة منه وبأساً .

وبعد أن استقر بحسن أغا الجلوس واطمأنَّ به المقام ، وسكن جأشه من فزع ذلك الأمام ، قال له : يا مولاي جئتك في أمرٍ مهم .

فقال : لا أهمّك اللّه ، وما هو؟

فقال : أنا في حيرة وتردد في أمر السيد كاظم الرّشتي ، وما تكليفنا معه ، فأنَّ بعضكم يكفّره ، وبعضكم يؤيّده ، وبعضكم يسكت عنه .

فقال الشيخ : أنا من القسم الثالث .

فقال : لا بدّ من أن تكشف لي عن حاله ، فأنْ كان كافراً قتلته ، وإلاَّ مُنعتُ عنه .

فقال الشيخ : أنا لا خبرة لي به ، ولا يجوز لي الحكم بكفره على الأفواه .

فقال حسن أغا : إبعث عليه وامتحنه وانظر كيف هو .

فقال الشيخ : إن العلم الذي عنده ليس عندنا والذي عندنا ليس عنده ، وإن كان عنده فهو لا يجديه .

فقال له : وهل يكون علم عند أحد أنت لا تعلم به؟

فقال : نعم ، هذا اشتغلنا به أول عمرنا فأمَرنا مشايخُنا بتركه وعدم التوغّل فيه ، لأنَّ مزالقه مهلكة .

فقال : إذاً فهل يجوز لنا الصلاة خلفه وأخذ الأحكام منه؟

فقال : الأحوط العدم ، واشتباه حاله كافٍ في ضلاله .

ثم خرج على حيرته يجرّ رجليه ، بعد لثم قدمي الشيخ ويديه .

كانت هذه الحادثة في مقتبل شباب القزويني . ويبدو أنَّ موقفه السلمي من السيد كاظم الرشتي ألصق به الاتهام بـ «الكشفية» . نقل المؤرخ الشيخ محمد حرز الدين في معارف الرجال ، جـ٣ ، ص١١٣ : أنَّ القزويني عندما حضرته الوفاة قال : «أبرأتُ ذمّة كلٍّ مَنْ ظلمني الاّ من رماني بالكشفية»!

(١) الحريم هو المانع الذي يفصلُ بينه وبين الجالسين .

وكثر القيل في هذه المسألة وطال النزاع ، حتى شدّ الرحال السيد المطاع ، ذو الحشم والأتباع ، والرياسة والامتناع ، السيد سعيد ثابت[1] ، (وكان كليدار كربلاء وحاكمها) . فجمع الشيخ علي والشيخ مُحمَّد حسن والتمسهم وأصرّ عليهم بالمسير إلى كربلاء والاجتماع مع السيد كاظم وتحقيق حاله ، فأجابوه إلى ذلك وساروا جميعاً .

وجمعهم السيد سعيد مع السيد كاظم وأتباعه في الصحن (الحسيني) ، ووقف السيد سعيد وبيده سيف مسلول ، وقال لهم : بيني وبينه هذا المجلس ، فأنْ حكمتم بكفره ضربتُ عنقه من حينه وأخمدت نائرة هذه الفتن ، وإلاّ ضربتُ عنق المخالف .

فقال الشيخ علي : يا سعيد ، مَنْ المُتحاكم ، ومَنْ الحكم؟

فقال السيد : أنتَ المُحاكم والحَكم .

فقال الشيخ للشيخ مُحمَّد حسن : سَلْهُ عمّا في نفسك منه .

فقال الشيخ مُحمَّد حسن للسيد كاظم : أنا أسألُك عن فقرتين في رسائلك صريحة بالكفر وهي هذه : (فأخرج رسالة كانت تحت ردائه وفتحها) وقال : هذه الأولى ، وهذه الثانية ، فأنْ كنتَ تعتقد بهما فأنت ضالّ ، وإلا فأنت مضلّ فتان .

فقال السيد كاظم ، (وعيناه تدوران في أُمّ رأسه يتوقع كُلّ حين وقوع السيف على عنقه) ، مخاطباً الشيخ علي (غير ملتفت إلى الشيخ مُحمَّد حسن) : يا شيخنا أنا أعتقد بهاتين الفقرتين ، ولكن ليست هي كما يفهمون من ظاهرها ، فأنّ الأولى لها تعلّق بما قبلها ، فهي كقوله تعالى : «عُزير ابن اللّه» فالقائل بها ما لم يقدّم : «وقالت اليهود» يُظنّ أنَّهُ كافر ، فأذا ضمّ إليها ما قبلها زال ذلك الأشتباه . وكذا الثانية فأنّ لها تعلّقاً بما بعدها ، فهي كقول القائل : لا إله ، فإذا قال : إلاّ اللّه ، تم الكلام ، وارتفع الأبهام .

فلما سمع الشيخ علي ذلك نفض ثيابه وقال : «يا سيد سعيد ، الحدود تُدْرَأ بالشبهات ، وحفظ النفوس في شرعنا من أعظم المهمات» ، فاترك الناس على غفلاتهم ولا تكشف عن سوآتهم ، وأن أبيتم فاتركوني واصنعوا ما شئتم ، فأنا لا ألقى اللّه وفي عنقي دم المدّعي للأسلام .

فتفرق الحاضرون ، ونجا السيد كاظم . ثم قيل أنَّهُ لبس كفناً وخرج إلى الصحن الحسيني ، وصعد المنبر واشتكى ، وبكى وطلب المباهلة بأنواع عديدة مع من حكم بكفره ،

---

(١) تُوفي السيد سعيد ثابت سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م .

إلى غير ذلك من وقائع الدهور، وعند الله عاقبة الأمور .

تنبؤ الشيخ علي بالفتنة البابيّة

هذا ، ومن كراماته المشهودة ، التي كادت أن تكون في الأخبار بالملاحم معدودة ، ما حدثنا به جماعة من الثقات أن الشيخ علي (قده) قصد زيارة الكاظمين (ع) بعض السنين ، فلما دخل الحرم المطهّر بعد لثم أعتابه ، ووقف على الباب مستأذناً للدخول رأى داخل الحرك سيداً وقوراً مهاباً واقفاً مقابل القبلة عند الرأسين الشريفين وهو يبكي ويتضرّع ، على حالة منها الصخر يتصدّع . فلما تأمله الشيخ قليلاً رجع القهقرى ، وجلس في إيوان الحرم يبكي ويتأوّه ويطيل الفكر والنظر .

فاجتمع عليه أصحابه وذووه ، وجماعة من أهل البلد وسألوه ، عن سبب بكائه ، فقال : أبكي لشيء لا تحيطون علماً فيه ، ولو أخبرتكم به لا تُصدِّقونه ولو أنبأتكم عنه .

فأصروا عليه ، فقال : أبكي لحال هذا السيد الخاشع وما يؤول إليه أمره من تلبيس إبليس فيه ، وتصييره آلة لأظهار باطله ودعاويه ، وتتبعه من العوام أمة تتخذه وأولياءه أئمة ، فقيل له : ومن هو؟ فقال : والله لا أعرفه وما رأيته سوى هذه الدّفعة ، ففتشوا عن السيد وإذا هو ميرزا مُحمَّد علي الشيرازي[1] الذي اشتهر أخيراً بالباب وكان يومئذ لم يظهر دعوته .

فقالوا للشيخ : إن هذا رجل من المعروفين بالعلم والزهد وليس فيه مما قلتَ شيء .

فقال لهم : أطيعوني وأخرجوه من العراق التي هي بيضة الأسلام اليوم وإلاّ سوَّدَها ، ولولا أن العقوبة قبل الذنب لا تجوز لأمرتكم بقتله .

فلما عرف مقالة الشيخ خرج إلى تلك الأطراف ، وما مضت إلاّ سنوات قليلة حتى تُوفي الشيخ ، وأظهر (السيد) دعوته ونشر طريقته ، وأطاعته جماعة تسمّوا (بالبابية) نسبة إليه . وما مضى إلاّ قليل حتى انتشروا في أغلب بلاد المسلمين . ولهم وقائع كثيرة مع الشيعة وعلمائهم سيأتي بعضها عند ذكر علماء إصفهان .

---

(١) (الباب) هو الميرزا علي مُحمَّد الشيرازي ، وهذا اللقب إقتُبس من حديث للنبي (ص) يقول فيه «أنا مدينة العلم وعلي بابها» . وقد أعلن الميرزا علي مُحمَّد عن دعوته حدود عام ١٢٥٩هـ / ١٨٤٣م (أي بعد وفاة الشيخ علي بخمس سنوات) ، وانه الباب للأمام الغائب (الثاني عشر) ، ثم ادّعى أنّه هو الأمام الثاني عشر . وقد قُتِلَ في ايران رمياً بالرصاص سنة ١٢٦٦هـ / ١٨٥٠م مِنْ قِبلِ الحكومة القاجارية وهو في أوائل الثلاثين من عمره . وكانت ولادته سنة ١٢٣٥هـ / ١٨١٩م . وقد تحوّل أغلبَ أتباعه إلى الفرقة (البهائية) .

المزايا الثلاثة

والحاصل إن الشيخ علي (قدّس سرّه) ممن يضيق نطاق البيان عن إحصاء مزاياه ومآثره، وأياديه في الدين ومفاخره. وكان (رحمه الله) ممن جمع بين ثلاثة أمور قلّما اجتمعت لغيره، فأنه أخذ من (العلم) أعلاه وأرفعه، ومن (الكمال) والأدب أنفعه، ومن (التُقى) والزهد أجلّه وأوسعه.

وتشهد بالأول تصنيفاته خصوصاً كتابه المعروف «بالخيارات» المسمى «بشرح اللُمعَتين»، فأنّه شرح متن (اللُمْعَة)[1] من أول بيع الثمار إلى آخر الخيارات، بكمال البسط والتحقيق ونقل الأقوال، والجمع بين الأخبار والقواعد والأحوال.

وله رسالة مختصرة صنفها بكربلاء في سويعات قليلة بالتماس بعض الفضلاء، وهي في (حُجّية الظنّ) مفصّلاً، وتعرّض فيها لحال (القَطْع) أولاً ولأحوال (الشك) وأحكامه من البراءة والأحتياط أخيراً. وآخر مختصراً على الطريقة التي تابعه عليها تلميذه العلامة الأنصاري، قدس سريهما الباري، في كتابه المعروف[2].

وللشيخ رسائل كثيرة في مسائل متفرقة إلاّ أنها قليلة التداول في أيدي الناس لقلة نسخها. ومن أراد أن يطّلع على كمال فضله وتبحّره وتدقيقاته فليراجع تقريرات درسه بقلم المحقق المدقق السيد مير فتّاح المراغي (رحمه الله) في أغلب كتب الفقه مع تقريرات درس أخيه الشيخ موسى في الفقه أيضاً. ونسخة الأصل موجودة اليوم عند بعض (طائفتنا)[3].

ويشهد على الباقي ما تقدم أولاً.

ولم نعثر على مدة عمره (رحمه الله)، ولكن الأغلب في هذه (الطائفة) الذي يُرْجَعُ إليه عند الشك هو الستون، وقلَّ مَنْ تجاوز السبعين، بَلْ لم يوجد (سوى الشيخ منهم) أحد تجاوزها، وكلهم بين الستين والسبعين.

وتُوفيَ (قدّس سرّه) في كربلاء في بعض زياراته فجأةً، فأنّه في أثناء الطريق جلس و(تَشاهَدَ) وقضى. وحُمل على الأعناق من حينه إلى النجف، ولم يبق أحد في كربلاء لم

---

(١) اللمعة الدمشقية من المُتون الفقهية التي ألّفها الشيخ مُحمَّد بن مكي العاملي المعروف بالشهيد الأول المقتول على يد مماليك الشام عام ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م. وقد شرح هذا المتن بعد قرنين من تأليفه الشيخ زين الدين بن علي العاملي المعروف بالشهيد الثاني المقتول على يد العثمانيين عام ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م.

(٢) وهو كتاب «رسائل الأصول»، الذي أصبح من الكتب الدراسية المُقرّرة في المراكز الدينية والحوزات العلمية للطلبة المُقاربين لدراسة البحوث العالية المُصطلح عليها «بالبحث الخارج».

(٣) ويقصد بهم أسرته (آل كاشف الغطاء).

يأت إلى النجف مع جنازته حافياً . ودفن في جنب مقبرة أبيه المعروفة ، وقد سبق تأريخ عام وفاته في الشعر فراجع .

وقال السيد في (يتيمته) : «ونحمدك يا من تفضّل علينا وعلى جيلنا بالسراج الأنور ، وعيلم العصر ، وفريد الدهر ، عليّ بن جعفر ، فذاك من عنانه في ميادين العلم أطلق ، فكان به المجتهد المطلق ، وصارت إليه الناس بالتقليد وألقت إليه قيادها ، وقاد بالفضل آسادها ، وأصبح رئيس الكل في الكل ، فقيد الشبيه بجزء وكل ، مستوياً على كرسي القضاء والفتوى ، مبيّناً في الفقه ما عمّت به البلوى ، جالساً بمغنى التدريس ، ناثراً به جوهر العلم النفيس ، والسامعون بين فاضل محقق ، ونحرير مدقق ، تلقاهم مذ وردوا بحور علمه سكارى ، وما هم بسكارى ، لكنهم بما يبديه هذا العيلم من مخفيّات العلم حيارى ، فطوراً ترى له نفائس كلم جدد ، وطوراً فروعاً ما جاء بمثلها أحد . فكم أثبت المُدَّعى الخفي باستدلال واضح ، فامتاز به المرجوح من الراجح ، يحكي أبيه في النهج ، ويقفو إثره في النسج ، ذو رئاسة علمية ، لم تحوها جلّ أجلاء البرية ، تحدثتْ بسنا فضله الركبان ، من قاصٍ ودان . فمن أصوله الممهدة ، كم من ركن للحُكم مهّده ، ومن علومه الزهيّة ، كم بانت غوامضٌ خفيّة ، رئيس مطاع ، ذو حشم وأتباع ، وكان ازدحام الناس ما بين جنبيه وحواليه ، هذا يؤمّ مطلبه ، وذاك يرجو أن يقضي مأربه ، ولِمْ لا وهو الموكل من المليك العلام ، بحسم مادة الخصام ، وقضاء أمور الأنام ، وحفظ بيضة الأسلام ، يخطب باسمه فوق المنابر ، ويتحدث به المقيم والمسافر ، وانقادت الناس من المغاني الوحيدة إليه ، وعولّت في جميع الأحكام المرعيّة عليه ، مع إعراضه عن تطلّب المرامات الدنيوية ، والاشتغال بالأمور الدينية . ولكن التأييدات الربانية ، لا تنقاد إلاّ لمن أعرض عنها ، وراح يخشى اللّه في التصدي لها والقرب منها ، كم من نار ضلال أخمد ، ونور هدى أوقد . وكان (ره) متّكئاً على وسادته ، جالساً فوق سرير حكومته ، والناس من داخل وخارج شاهقة الأبصار إلى علا قدره ، وسامي فخره» .

فما زال على هذا النمط من التسجيعات والفقرات ، التي توجب الملل والتطويل . وأنت خبير أن مثل هذا الشيخ المحقق الذي إنتشرت تلاميذُه في جميع الآفاق ، وعنهُ صدرتْ هذه التحقيقات التي هي اليوم في أيدي الناس غنيّ عن مثل هذا القبيل ، الذي سلكه هذا (السيد) النبيل ، بَلْ الواجب ذكر كراماته ، وبعض وقائعه وحكاياته ، ومساعيه وحالاته ، وليأنس الناظر بمطالعته ، ويستفيد بمراجعته . وإلا فكون الناس رجعت إليه ، وعولّت في الأحكام عليه ، ممّا لم يكد ، أن يخفى على أحد ، في كُلّ صقع وبلد .

وقد إلتفتَ إلى ما قلناه ولكن اعتذر باعتذارات واهية ، غير شافية ، فقال بعد كلام في تفصيل وفاة الشيخ (ره) :

وقد أقام في (نينوى)[1] بُرْهَةً من الزمان فناداه رائد المنيّة ، المتردد في البرية ، فأجابه مُجداً بسُراه ، فشايعه أهل (كربلاء) كافة حتى وصلوا به إلى منتصف الطريق ، فتلقاهم القاطنون في (النجف) وحملوه على الأيدي والرؤوس كافة الطريق . حتى وضعوه في حفرته قرب أبيه ، وصار له يوم مهول كيوم مقتل الحسين (ع) ، وكَثُر فيه البكاء والعويل والنوح والضجيج ، وهتك الستور ، ونشر الشعور ، من ربّات الخدور .

ثم قال : «وكان الواجب علينا تعداد مناقب هذا الأسطوانة الوحيد ، والعلامة الفريد ، منقبةً منقبة ليكون المتتبع ذا خبرة ودرية ، بما كان له منه وعنه ، من جزئي وكلي ، ولكن منع ذلك :

أولاً : منافاته غرض الأتمام ، في يسير من الأيام .

وثانياً : كون صفاته لا تعدّ ، ولا يوقف لها على حدّ .

وثالثاً :كونه غنيّ عن ذلك بما تشهد له الشمس في رابعة النهار .

ورابعاً : أني لستُ من المعاصرين له .

إلى أن قال : وقد أعقب خمسة أولاد ذكور ، هم للعلوم بحور ، العلامة مُحمّد ، والمهدي الأوحد ، وجعفر الفضل المؤيد ، السابق ذكرهم ، والحبيب ، والعباس الآتي ذكرهما» . إنتهى .

في أحوال الشيخ مُحمّد ابن الشيخ الكبير

ثم رجع الأمر والتقليد ، والنهوض بتأييد أمر الدين والتشييد ، إلى أخيه فريد الدهر وعلامة الزمن ، حجة الأسلام والمسلمين ، مؤيد الملّة والدين ، شيخنا الشيخ حسن .

كان بحر علم ثجّاج ، متدافع الأمواج ، بعيدة سواحله ، كثيرة جداوله ، يتراكم موجه ، ولا يدرك لجّه ، بعيد الصيت ، قريب النائل ، متعب المناضل والمساجل ، مع زهد وتقوى ،

---

(١) كانت مدينة (كربلاء) عبارة عن مجموعة قُرى في العصر البابلي ؛ منها : نينوى ، الغاضريّة ، النواويس ، وعقر بابل . وقد غلب اسم إحدى هذه القُرى وهي (كربلاء) على المدينة . وأُلحق اسم (الحائر) عليها بعد مدفن الأمام الحسين (ع) فيها .

وحلم يعجز عنهما (يذبل) و(رضوى) ، إجتهد في أيام أبيه ، وجعل يجهد في تحصيل مساعيه ومعاليه ، فنال منها الغاية القصوى ، والمنزلة العليا ، والكلمة الحسنى .

ثم حضر بعد وفاة أبيه ، على موسى أخيه . فلما تُوفي رأى بنفسه الأستغناء من الحضور على أحد ، وقابلية الاستقلال إذا انفرد ، فهاجر إلى الحلة ، احتراماً لأخيه الذي أجمعت على تقديمه على سائر الناس علماء الملّة . وينسب له ، (ولا أظن صحته) ، أنَّهُ قال لأخيه : أنا أولى منك بهذا المقام ، والجلوس بمحل آبائي الكرام ، لأنَّ (والدنا) قَدْ اشترط الأعلم ، وأنا اليوم هو ذاك . فقال له أخوه : لا ينبغي المجادلة والمنازعة ، ولكني أسير إلى كربلاء ، وقم أنت مقامي ، فأنْ ارتضتك الطلبة فبها ، وإلا فأنت أعلم بتكليفك .

فلما إرتحل الشيخ لم يبق في النجف مشتغل واحد وارتحلوا خلفه ، فصار يباحثهم في كربلاء . فسار الشيخ حسن إليه ، وأرجعه إلى محلّه ، وهاجر إلى الحلّة .

فما زالت تظهر منه لأهلها الكرامات الباهرات ، والآيات المعجزات ، على يده حتى اعتقدوا فيه رتبة الأمامة ، وأحلّوه بتلك المنزلة والمقامة . إلى أن تُوفي أخوه ، فرجع إلى القيام براسم (المرجعية) ، والتحلي بهاتيك المراتب العليّة .

وانحصر أمر الأمامة به ، وبسميّه صاحب «الجواهر» ، وكان قَدْ استقل بعد الشيخ موسى واشتهر أمره ، وذاع ذكره ، وبَعُدَ صيته بعد الشيخ عليّ ، فبقيا للشريعة عَلَمين منصوبين ، حافظين مسدّدين ، حارسين لها ، مانعين الأذى عنها . كان رجوع العجم إلى سميّه أكثر ، وهو عند (العرب) أعظم قدراً وأشهر .

في أحوال الشيخ حسن بن الشيخ جعفر

وقد صَنَفَّ في أحواله خلفُهُ الطاهر المطهر ، العباس بن الحسن بن جعفر رسالة في (نُبذة) من أحوال أبيه[1] ، شكر اللّه مساعيه .

وقد ذكر فيها له من الكرامات ما يُبهرُ الألباب والعقول ، وتتحير به العلماء الفحول . وقد أجاز لي أيده اللّه وأبقاه ، رواية ما ذكر فيها عنه ، عن رجاله (مُحمَّد والمهدي) ، وعن السيد عبد الباقي (تلميذ أبيه وخاصته) ، وعن عبد الغمري ، وملا حسين ، وملا حمزة (من أهل الحلة) ، وغيرهم ممن عاصره وسمع منه من الثقات الذين يطمئنّ بهم . وقد ذكر في صدر رسالته «مسائل علمية وتحقيقات فقهية» مما إستُفتيَ بها من آفاق الأرض فأجاب عنها على

---

(١) سمّاها «نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري» .

البديهة . ضربنا عنها صفحاً لأن فقاهته لا تحتاج إلى بيان ، وإنما ذكرها العم ، أدام الباري وجوده ، لارتباط لها جزئي بأحوال الشيخ (عطّر اللّه مرقده) ، ولم يكن فضله ليخفى على أحد . كيف وقد قال صاحب «قصص العلماء» ما هذا نصّه :

كان الشيخ حسن فقيهاً كاملاً ، وقد حضرتُ بعض مجالس درسه . وباعتقادي أنّه كان مُتقدّماً بالفقه على الشيخ مُحمَّد حسن ، مضافاً إلى إحاطته بعلم الأصول ، ويده الطُولى في علم الكلام[1] .

وقال السيد المحيط المتبحّر صاحب كتاب «روضات الجنّات» في كتابه هذا ، (ما هذا نصّه) :

مفخر فقهاء الدهور ، الشيخ حسن بن الشيخ جعفر النجفي الفقيه المتفرد المشهور ، هو أيضاً من أجلّاء علماء زماننا ، وكبراء نبلاء أواننا ، منتهياً إليه أمر الفقاهة في الدين ، ورياسة سلسلة العلماء المجتهدين ، سهيماً لسميّه المتقدم[2] فيما قَدْ أشير إليه من المراتب ، وقسيماً في غالب ما أقيم عليه من المناصب ، بَلْ هو عند العرب الشيعة أكثر احتراماً ، وأجلّ مقاما ، ويقيم الجماعة في مسجد والده المرحوم ، ويصلي خلفه الخلق الكثير ، ويدرّس الفقه في منزله المقدس بالنجف الأشرف بلسانه العربي المبين ، وحوزته الباهرة في هذه الأواخر أجمع ، وأوسع وأسدّ ، وأنفع من سائر مدارس الفقهاء ، ومن غاية تسلّطه في (الفن) ومهاراته العجيبة ، أنّهُ ليس يتأمل في مسألة كثيراً ، بَلْ يمشي سريعاً ، ويطوي مراحل الفقه ، بأهون ما يكون ، وأحسن ما يهون .

وكان قبل وفاة أخيه الشيخ علي قاطناً في الحلّة المحروسة ، ثم انتقل من بعده إلى ذلك المقام المحمود لخلافة الماضين ، والقيام بحق الرئاسة في الدين ، إلاّ أن مرجع فتاوى الأقطار ، وتقليدات أهالي الديار ، من بعد ارتحال نيّري العجم المرحومين إلى (سميّه) المتقدم أكثر منه .

وله من المصنفات الفاخرة كتاب في الفقه كبير استوفى فيه الأدلة والأحكام ، وظفرتُ ببعض مصنفاته بأصبهان[3] ، فكأنَّ عيناً لم تر مثله في كثرة التفريع ، والأحاطة بنوادر الفقه ، والأستقامة بطريق الاستدلال[4] . إنتهى محل الحاجة منه .

ولنذكر قبل كراماته ، ما ذكره خلفه ، (أدام اللّه وجوده) ، في صدر (نبذته) من أحواله .

---

(١) قصص العلماء ، ص١٨٥ .

(٢) هو الشيخ مُحمَّد حسن النجفي صاحب «الجواهر» . وكان الخونساري قَدْ أوردَ ترجمته قبل ترجمة الشيخ حسن كاشف الغطاء في كتابه روضات الجنّات .

(٣) في نسخة «روضات الجنات» المطبوعة : «وظفرتُ على بعض مجلدات له في أبواب المعاملات بأصفهان» .

(٤) روضات الجنّات ، ج٢ ، ص٣٠٦ .

نُبْذَةُ الغَري
في أحوال الحسن الجعفري(*)

للشيخ عباس بن الشيخ حسن كاشف الغطاء المُتوفى سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م

قال (أيّده اللّه) ما هذا نصّه :

هو ركنُ الشريعة ، ومغيث الشيعة ، العلم المؤتمن ، بحر الهداية الشيخ حسن . ولد في النجف ، وأرّخه النحوي[1] بأمر والده بقوله :

أهلاً بمولود له التاريخُ (قَدْ　　أنبتَهُ اللّهُ نباتاً حَسَنا)[2]

وأحرز المعقول والمنقول في صباه ، حتى صار فقيه عصره ، وعلامة دهره . كان فاضلاً ورعاً زاهداً ، على خلق عظيم ، لا تُحصى مفاخره ، ولا تُستقصى مآثره .

قال الشيخ محسن الملقب بخنفر[3] (من العلماء المجتهدين المقلّدين) : إن الشيخ حسن لا

(*) «نبذة الغري» رسالة تأريخية تضمنت (من خلال ترجمة سيرة أحد أعلام الأمامية مترجماً بقلم ولده) إثبات وقائع تأريخية لم تُدوَّنْ في أيّ مصدر آخر . وأهميّة هذه الرسالة أنَّ مؤلفها إستقى هذه الوقائع من منابعها الأصلية التي شهدها ، وعاصرها . وقد فرغ منها سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م ، كما وضع لها تكملة سنة ١٣١٨هـ/ ١٩٠٠م .

ويُلاحظ أنَّ مؤلف «العبقات» بعد أنْ أثبتَ هذه الرسالة فأنّه إستغنى عن الأستطرادات التي لا تمتُّ إلى مؤلفه بصلة . وقد أشار إليها ضمناً ، واقتصرَ على تسجيل الوقائع التأريخية فقط . كما علّق على الرسالة بتعليقات نافعة ، وأضافَ إلى بعض الحوادث مسموعاته ، ومروياته عنها .

(١) هو الشيخ محمد رضا النحوي المُتوفى سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م .

(٢) سنة ولادة الشيخ حسن كاشف الغطاء هي ١٢٠١هـ/ ١٧٨٧م .

(٣) تُوفيَ سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م .

أرى أفضل منه في المتقدمين ولا في المتأخرين . وسئل يوماً عنه وعن أبيه كاشف الغطاء ، فأجاب : هو أفضل .

ومختصراً أقول : هو كما قال القائل :

سَلْ عنهُ واخبرْ به وانظرْ إليه تَجدْ ... مِلءَ المسامع والأفواه والمقلِ
وأنَّ قوليَ هذا عيلمٌ عَلَمٌ ... ضَربُ الزجاجَ لنور اللّه في المثلِ

إجتهد وعمل برأيه قبل أن يكمل العشرين ، وتلمذ على عدة مشايخ أجازوه في الرواية ، وحكموا له بالاجتهاد ، منهم : والده الشيخ الأكبر ، وأخوه موسى بن جعفر ، والسيد جواد العاملي ، والشيخ أسد اللّه التُسْتُري ، والمحدِّث السيد عبد اللّه شبّر ، والشيخ علي البحراني ، والشيخ سليمان القطيفي ، وغيرهم ممن ذكرهم إجمالاً .

نشأ في النجف وأكبَّ على تحصيل العلوم حتى استغنى ، واجتهد في العبادة حتى نال منها القدح المهنّا ، وأقام برهة في الحلة الفيحاء لّما كان أخوه الشيخ علي هو المرجع في النجف .

ولما انتقل الشيخ علي إلى دار القرار رجع إلى النجف ، واشتغل بالتدريس واجتمع عليه العلماء والفضلاء . تتملذ عليه واستجازه كثير من العلماء المُعْتَبرين كالسيد مهدي القزويني ، والشيخ مشكور الحولاوي[(١)] ، والشيخ جواد نجف[(٢)] ، والحاج مُلاّ علي ابن المرحوم ميرزا خليل الطبيب[(٣)] ، وأخوه الحاج ميرزا حسين سلمه اللّه ، (وأظن أنّهُ لم يبق في عصرنا ممن تلمذ عليه غيره)[(٤)] ، وشيخنا المرتضى الأنصاري ، والملا مُحمَّد الأيرواني[(٥)] ، والشيخ عبد الحسين الطهراني[(٦)] ، والسيد حسين بحر العلوم[(٧)] ، والسيد علي نقي الحائري[(٨)] (نجل

(١) الشيخ مشكور الحولاوي ولد سنة ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م ، وتُوفيَ سنة ١٢٧٣هـ/ ١٨٥٧م .
(٢) الشيخ جواد بن الشيخ حسين نجف ، كان مشتهراً بالزهادة توفي سنة ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م .
(٣) المُلا علي بن الميرزا خليل من كبار علماء زمانه ، وُلد سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م ، وتُوفي سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م .
(٤) الميرزا حسين الميرزا خليل من كبار المجتهدين . تُوفيَ سنة ١٣٢٦هـ/ ١٩٠٨م .
(٥) الشيخ مُحمَّد الأيرواني ولد سنة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م ، وتُوفي سنة ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م .
(٦) الشيخ عبد الحسين الطهراني تُوفي سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م .
(٧) السيد حسين بن السيد رضا بن السيد مهدي بحر العلوم . وُلد سنة ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م ، وتُوفي سنة ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م .
(٨) السيد علي نقي بن السيد حسين بن السيد مُحمَّد المُجاهد بن السيد مير علي الطباطبائي صاحب «الرياض» . تُوفي سنة ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م .

صاحب الرياض) ، والشيخ جعفر الشوشتري الدزفولي[1] ، وغيرهم من لُحْمَته .

وأدنى الناس منه ممن تبنّاه : الشيخ مُحمَّد والشيخ مهدي (ولدا أخيه الشيخ علي) ، والشيخ راضي إبن أخته وإبن عمه ، (وكان أقرب الناس إليه سفراً وحضراً) ، ومؤتمنه على ما في يده ، ووصيّه من بعده الشيخ مهدي إبن أخيه ، وأكثر ما أروي مِنْ كراماته ومعجزاته (غير ما شاهدتُه) عنه ، وعن ابن أخته الشيخ راضي .

عاش أكثر من ستين سنة وتوفّي ليلة الأربعاء لثمان وعشرين خلون من شهر شوال سنة ١٢٦٢[2] ، وافتجع له الصغير والكبير وكان يوماً لم يُرَ في النجف أعظم منه فجعة .

وله مِن التصانيف كتاب «أنوار الفقاهة» في كُلّ الفقه (إلاّ الصيد ، والذباحة ، والحدود ، والديّات ، والسّبْق ، والرماية) ، وشرح مقدمة كشف الغطاء ، ورسائل عملية ، ورسالة في الأمامة ، وأخرى في علوم متفرقة ، لكن لم يخرجا إلى البياض ، وله شرح القواعد على نهج شرح والده في البيع .

وحدثني المهدي قال : وردتْ على عمّي الحسن عدة مسائل من آذربيجان ، فقال لي : يا مهدي إقرأها لي مسألة مسألة وأنا أجيب عليها وأنت أكتب . قال : فو اللّه لقد قرأتها وهو يذكر الجواب وأنا أكتب حتى انتهت بأقل من ساعة ولم يتفكّر ولا تأمل بَلْ يجيب على رسله ، وهي من أشكل المسائل ، فرسمتها عندي . (ثم أخذ جناب العم أبقاه اللّه يذكر المسائل) .

أقول[3] : وأظن أنّ مراد الشيخ محسن خنفر بقوله : إنّ الشيخ حسن أفضل من أبيه ما هو المشهور من أن (ولدُ العالِم نصف العالم) ، فكان الشيخ حسن (عالم ونصف) ، وإن كان والد الشيخ الكبير أيضاً (عالِم) ، ولكن الفرق نسبي .

ثم أن العمّ يروي أيضاً عن تلميذ أبيه وخاصته الملازمين لخدمته ليلاً ونهاراً العالم النحرير الشيخ مُحمَّد باقر إبن أخته خلف المرحوم الشيخ مُحمَّد تقي (صاحب الحاشية) ، والثاني السيد عبد الباقي الجيلاني الرشتي .

---

(١) الشيخ جعفر الشوشتري الدزفولي ، من كبار الواعظين ، تُوفي سنة ١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م .
(٢) الموافقة لسنة ١٨٤٦م .
(٣) الكلام هنا للشيخ مُحمَّد حسين كاشف الغطاء مُعلّقاً على رسالة الشيخ عباس .

أجوبة المسائل الاعتقادية

ولا بأس من أن نذكر بعض ما ذكره العم مما سُئل به والده (عطَّر اللّه مرقده) من المسائل الأعتقادية .

المعاد الجسماني

فمنها : سُئِل عن المعاد الجسماني ، أجاب بتحقيقه وأن منكره كافر يحكم عليه بالارتداد .

الاعتقاد بالحشر

وسُئِلَ عن العلم أو الظن بالحشر والنشر والبرزخ وأمثالها إجمالاً يجب أم تفصيلاً مهما أمكن .

أجاب : إن الأجمال كاف والخوض في تفاصيلها قَدْ يحرم .

العصمة والاختيار

وسُئِلَ أن العصمة في النبي (ص) والأمام (ع) تنفي الاختيار لهم ، أجاب : إنها لا تسلب الاختيار وإنما هي بمعنى عدم صدور خلاف الراجح منهم مما هو مختار فيه .

علم النبيّ والأئمة بالغيب

وسُئِلَ عن علمهم بالغيب أحضوري أم إرادي؟

أجاب : أن علمهم بالأحكام حتى إرش الخَدْش لا ريب في كونه حضورياً ، وأما ما سوى ذلك فلي فيه تردد ، ولا يبعد أن العلم الذي لا يساوق علم اللّه تعالى ويساويه ثابت لهم لوجوب اتصافهم بأحسن الأوصاف مما يمكن اتصاف الممكن فيه .

في سهو النبيّ (ص)

وسُئِلَ عن سهو النبي (ص) أجاب : إن كان السهو بمعنى أنَّهُ قَدْ يتغافل عنه وهو مركوز في خزانة خاطره فهو مما لا مانع منه كالنوم الذي يعرض له ، وإن كان بمعنى خروجه عنها أو فعله لعمل يطابقه فالأجماع على خلافه ، بَلْ العقل يمنعه ، نعم صيرورته كالناسي من جهة أغراضه أو لغرض شرعي آخر لا مانع منه وعليه ينزل كلام الصدوق[1] لأنه يقول

---

(١) الشيخ الصدوق هو مُحمَّد بن علي بن الحسين بن بابويه القمي ، أحد مُحدثي الشيعة له مؤلفات غزيرة أهمّها كتابه «مَنْ لا يحضرُهُ الفقيه» الذي هو أحد كتب الحديث المُعتبرة عند الأمامية . تُوفي سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م .

(سهوه كسهو البشر) فأنّه مخالف لِما تعتقده الأمامية ، وحاشاه من ذلك . وكيف تؤخذ الأحكام الشرعية ممن يسهو أو ينسى ولا تنفع أصالة عدم السهو فيه إذ لو ثبت في حقه لأورث العلم الأجمالي بوقوع ما طابقه في التكاليف فيجب الفحص ولا يمكن التعبّد بما قبله وهو خلاف مذهبنا ، أعاذنا اللّه تعالى من ذلك . وإن كان كالتقية في الأخبار والنسيان أيضاً كذلك . ومما ورد مما يوهم ذلك يلزم التصرف فيه أو الاعراض عنه وهو غير عزيز في السُنّة .

روايات المبالغة في التعزية

وسُئِلَ عما يقوله الذاكرون في تعزية سيد الشهداء مما يظن كذبه أيجوز الردع .

أجاب : يجوز مع العلم أو الظن المتاخم له .

العمل بالطلسمات

وسُئِلَ عن الطلّسمات والأوراد والأختام الموجودة عند المرتاضين والدراويش المتصوفين يجوز العمل بها أم لا؟

أجاب : يلزمُ الرجوع في كُلّ واقعة إلى حاكم الشرع ولا يجوز العمل بحكم من الأحكام إلاّ عن اجتهاد أو تقليد إلاّ ما كان ضروري المشروعية كزيارة الأئمة (ع) وأمثالها .

الصلاة خلف الأخباري

وسُئِلَ عن الصلاة خلف (الأخباري) ، وبعض مَنْ يُقال له (شيخيّ) مع إحراز العدالة .

أجاب : أمّا الأخباري فلا بأس بها خلفه إذا طابق علمه رأي مجتهد من الأحياء ، وأما (الشيخي) فهو مجهول الحال عندي ، فأنْ صحّ ما ينسب إليه مما يخالف ضروري الدين فلا صحة للصلاة خلفه ، بَلْ لا يجوز مخالطته واستماع شبهه ، وإن لم يصحّ ذلك فلا تجدي التسمية في المنع عن الصلاة .

في أحوال الشيخ أحمد الأحسائي

وسُئِلَ عن حال الشيخ أحمد زين الدين[1] وبعض من تبعه من المقدسين وما ينسب له .

---

(١) الشيخ أحمد بن زين الدين الأحسائي ولد سنة ١١٦٦هـ/ ١٧٥٣م ، وتُوفي سنة ١٢٤١هـ/ ١٨٢٦م . وإليه تُنسبُ الفرقة (الشيخيّة) .

أجاب : بأني أدركتُ الشيخ المرقوم وكان تقياً ورعاً زاهداً مواضباً على الطاعات ، ورأيتُ جماعة من العلماء الفحول يقتدون به في النجف . ولما انتقل إلى دار القرار نُسبتْ إليه بعض المزخرفات وبعض الاعتقادات الفاسدة في بعض رسائله ، (ولم تثبت النسبة عندنا) فلا يصحّ ثلبه وانتقاصه إلاّ بعد القطع بصدور ما ينافي الدين منه . وإذا وهم ذلك من بعض رسائله فأنْ قطع بأنها له وأنها ليست مما ينسب إليه لغرض دنيوي فإن أمكن حملها على معنى يطابق الشرع يلزم ذلك عملاً بقوله (ص) : «إحمل أخاكَ المؤمن على أحسنه» ، وإن لم يمكن الحمل ولم يمكن إجراء الشبهة في حقه عمل القاطع فيما بينه وبين ربه بما يقطع به لا عن عناد وعصبية إذا توقف على معرفة ما هو عليه أثر شرعي يلزم العمل به ، وإلا فقد رفع اللّه عنكم أشياء فلا تتكلفوها .

وأما بعض من تبعه فلا يبعد القول بأنهم مضلّون لا ضالّين لأجل تحصيل قليل من حطام العيش وعدم قابليتهم لتحصيل العلوم الدينية فأخذوا يتوصلون إلى العوام بأشياء في حق أئمتهم (ع) بما يدخلهم في المغالين .

وعوام الشيعة من فرط حبهم لأهل البيت (ع) يقبلون كلما يقال فيهم فصار ذلك شَرَكاً وفخاً لأمر معاشهم ورئاستهم ، فكان ذلك من حبائل الشيطان ، وقد أوقع فيه كثيراً من الناس من حيث لا يشعرون (أعاذنا اللّه من ذلك) .

فأوصي إخواني أن يحرروا أنفسهم من الغوائل ، ويطلبوا الحق حثيثاً ولا تأخذهم العصبية وأن يسلكوا الطريقة الوسطى التي عليها عامة الشيعة من عهد الأئمة (ع) إلى زماننا هذا ، فأنّ السلف الصالح من أصحاب الأئمة (ع) وحواريهم والعلماء الراشدين من عهد الكُليني[1] إلى الآن لم يتركوا شيئاً في الأخلاق ، ولا في الأصول والفروع إلاّ وذكروه ، والى أئمتهم أسندوه ، فالسعيد من نهج منهجهم واقتفى أثرهم ورفض الشاذ النادر ولم يحتفل به كما ورد ذلك عنهم (ع) . وما جاء مروياً عنهم من الألغاز والمعميّات أُوكلَ أمره إليهم . ألا وإن الشيطان قيّض بمكره وخدعه جماعة من أهل الفساد والخديعة إلى أن دسّوا في الأخبار أخباراً كثيرة ورووها عن الثقات ، فصارت سبباً لعروض الشبهات ، فلابُدَّ للناقد البصير أن يبذل جهده في الرجوع إلى من عرف لسانهم ويُبحّر فيما ورد عنهم ممن أدركوا

(١) مُحمَّد بن يعقوب الكُلَيْني من كبار العلماء والمحدثين ، وكتابه «الكافي» في علم الحديث أول كتاب جمع الأحاديث الشيعية الأثنا عشرية . وهو أحد الكتب الحديثية الأربعة التي أُلِّفتْ في أوائل القرن الرابع الهجري / العاشر الميلادي .

شرف الحضور كزرارة[1] وغيره من أهل الأجماع وأن ينظر في الأصول الأربعمائة[2] ويلاحظ ما جمعه العلماء المتقدمون ممن قارب عصر الأئمة وما حرره المتأخرون ممن والاهم وتلاهم من عهد المفيد[3] ، والشيخ[4] إلى زماننا فيدين اللّه بما دانوا به .

ولقد إطلعتُ على رسالة لبعض أهل هذه النسبة ممن تبعه خَلْقٌ كثير ، واشتهر بينهم بالفضل والعلم فتصفّحتها لأنظر ما فيها فإذا هي تشتمل على ثلاثة آلاف بيت كبيرة الحجم ، كثيرة الألفاظ في تفسير قوله تعالى : « ويسألونك عن الرُّوح قُلِ الروح من أمر ربي» فذكر فيها ما لا يليق ذكره من المهملات والمزخرفات إلى أن انتهى قوله إلى أن الروح روح مطلق الوجود ، وروح الهيولى والجسم اللاهوتي وروح الملكوت والقدس ، ومجمعها النفس القدسية ، وروح في الأزل ، وإليه الأشارة بقول الأمير (ع) لكُميل بن زياد : « الحقيقة نورٌ أشرقَ مِنْ صُبح الأزل فبدتْ على هياكل التوحيد أنواره» فقلتُ : زدني بياناً ، فقال : «كَشْفُ سُبُحاتِ الجَلال مِنْ غيرِ إشارة» . . . إلخ ، حتى قال : إنَّ القليل المستثنى في الآية منحنا اللّه تعالى به وأخرج روح الملكوت منه لأنها والجسم قامت به من شؤون العالم التخييلي وهو من العوالم السبع وكم ادّعى البصيرة أعمى :

وكُلٌّ يدّعي وصلاً بليلى ... وليلى لا تَقرُّ لهم بذاكا
إذا اشتبكتْ دموعٌ في خُدودٍ ... تبيّنَ مَنْ بكى مِمَّنْ تباكى

(إنتهى) .

فأقسمُ أني لم أفهم من هاتيك الرسالة على طولها إلاّ البيتين ، وكثيراً من العوام إذا تُليَ له منها شئ يهتز طرباً كأنَّهُ شرب السُلاف ووقف على الحقيقة . والحال يبقى مدة لا يمكنه تعلّم (الفاتحة) ولا يفهم شيئاً من الرسالة حتى بالمعلم ، فانظر إلى كيد الشيطان ومكره حيث أهلك في هذا ومثله خلقاً كثيراً .

والحاصل أن المنحرف عما عليه عامة العلماء إن اعتقده فهو ضالّ مضلّ ، وإن لم يعتقده بَلْ للدنيا فهو مضلّ غير ضالّ . وعلى كُلّ حال فتجنّب هؤلاء وشبههم المخالفة للجم الغفير

---

(١) زرارة آل أعْين من كبار علماء الشيعة ومحدثيهم ، تُوفيَ سنة ١٥٠هـ/ ٧٦٧م .

(٢) الأصول الأربعمائة : مجاميع حديثيّة كتبها تلامذة الأمامين الباقر والصادق (ع) ، قيل : إنّها أربعمائة كتاب لأربعمائة مؤلف . وهي من إملاءات الأمامين الباقرين (ع) ولا تُوجد منها إلاّ (٣٦) أصلاً ، وأغلبها ضُمَّ إلى كتب الحديث الشيعيّة كالكافي .

(٣) الشيخ المُفيد تُوفي سنة ٤١٣هـ/ ١٠٢٢م .

(٤) (الشيخ) هو الشيخ الطُوسي المُلقب بشيخ الطائفة المُتوفى سنة ٤٦٠هـ/ ١٠٦٨م .

من الفرقة المحقة أسلم للدين والدنيا . إنتهى .

الجَبر في أفعال العباد

وسئل عن مسألة الجبر في أفعال العباد .

فأجاب : إنَّ الاختيار الذي يكون سبباً لترتب الآثار الشرعية هو عدم القهر المحسوس ومقالة أن هناك قهراً غير محسوس ومقهورية لا يدركها الفاعل المختار في أفعاله حساً فلا نفهم له معنى محصّلاً ولا دخل لعلة العلل ، وانتهاء الأسباب بالمسبب وسبق العلم في أفعال العباد في ذلك أصلاً ، وإلا للزم الجبر في المبدأ وهو باطل .

في كراماته

ولنشرع في ذكر كراماته ، وهي (كما ذكر العم سلّمهُ اللّه) لا تحصى ، ونحن نذكر عنه نبذة منها .

فمن ذلك ما رواه عن السيد عبد الباقي الجيلاني وهو من العلماء الفحول قال : إنقطع عني ما كنتُ أقتات به مما كان يأتيني من (كيلان) حتى ضاق صدري ، وكثر ديني واشتدّ عليّ الأمر ، وكنت مبتلى بعيال وأولاد ، فزارني الأستاذ الحسن بن جعفر يوماً ورأى أني لست كما كنت عليه أولاً ، وأنا كالمبهوت ، فاستشعر ذلك مني ، وكنت أخفي عليه وعلى غيره ، فقال : مادهاك؟ فأصرّ عليّ حتى كشفت له ستري وأخبرته بأمري . فقال : لِمَ لم تخبرني فأدعو لك ، قلت : الحياء .

فبسط راحتيه وقال : «اللّهم أكشف ضرّه بمحمد وآله» ، كررها ثلاثاً ولم يُزِدْ .

قال : فبقيتُ يومين فصادف الجمعة فخرجت إلى الحرم الشريف للزيارة فشاهدت بعض الغرباء من الأعاجم ، فتصفحتهم فلم أجد فيهم مَنْ هو من بلدي . فلما أكملت الزيارة وإذا بقاصد منهم لي فسلّم عليّ سلام العارف ، فقلت : ممن الرجل؟ قال : من حوالي (رشت) ، قلت : أتعرفني؟ قال : نعم .

ثم سألته عن تفصيل أحواله حتى قال : لي إليك حاجة فخذني إلى دارك ففعلت . فلما استقر قال : إني سافرت إلى بغداد تاجراً وما نضّ العروض وقبضت بدله إلاّ هذه الأيام ، فأردت الرجوع إلى أهلي إلاّ أني زرت الأمير (ع) أول توجّهي فاستوحشت من الطريق وبقيت أنتظر مسير قافلة فيها منعة فلم يتيسر لي ، فوقع في نفسي المجئ إلى النجف

لأدفع الدراهم لمن يتيسر لي ممن أعتمد عليه بطريق الحوالة .

فسألته : عن عروض ذلك له وفي أي وقت كان .

قال : يوم الأربعاء عند الدلوك .

فإذا هو الوقت الذي دعا لي فيه الأستاذ ، فبهتّ وتعجبت وحمدت الله وشكرته إذ منحني القرب من مثل هذا المولى المشابه فعله لِما ينقل لنا عن الأئمة (ع) .

ثم قلت : أتعطيني مالك وأنا أُحيلُك؟

قال : ومَنْ أحسن منك . فاستخرج المال من (هميانه) فكان أكثر من ستمائة تومان . فوفّيتُ ديني وصلح حالي ، ثم أني لم أجد بعدها فاقة أبداً حتى تزوجتُ العلوية الطاهرة بنت بحر العلوم ، ورجعت بعد وفاته إلى أهلي ووطني فأمدّني الله بسعة الرزق ، ووفقّني لأحياء السنن . فما برحت أتلو أحاديث فضله حتى الساعة .

ومنها : ما حدَّثَ به الحاج الملقب بأبي صفقات من أخيار الحلّة الملازمين للشيخ ، قال : تولّى أمرنا ظالم غشوم من (البيگات) فأفرط في الظلم وسامنا الخَسْفَ حتى صَلَبَ من أهالي الحلّة جماعة على الجسر ، وألقى منهم في الفرات آخرين . وشكوناه إلى (الوالي) فلم يسمع ، والشيخ إذ ذاك في الحلة ، فأسرع الناس أفواجاً إلى بيته وشكوا إليه حاكمهم .

فقال : هوّنوا عليكم الليلة أدعوا الله عليه .

فسكتوا كأنهم يأسوا مما أرادوه أن يكتب إلى الوالي بعزله ، وذهبوا غير راضين . فلما أصبحنا سألت الشيخ عن دعائه على الرجل ، قال : نعم .

فوالله ما دارت الجمعة حتى سمعنا الواعية في داره ، فسألنا فقيل : (بيك) الحلة أصبح مقتولاً . فبحث عن قاتله فكان أمرد شرب معه الخمر فقتله وهو سكران . فلم يبتلِ بقتله أحد من الناس .

وذكر له جناب العم من هذا القبيل أشياء كثيرة . منها أن الأنهار جفّت ويبست المزارع ، فشكت الأعراب إليه ذلك ، فضربها بعصاه وتوسّل بالحجة (ع) ، فما أمسى المساء إلاّ والماء قَدْ ملأ المصانع والأنهار .

إلى غير ذلك من الكرامات ، حتى قال : ومن كراماته بالحلّة قضيته المشهورة المنقولة عن لسان جم غفير من أهاليها .

قالوا : إجتمعنا ليلة عند الحسن بن جعفر ونحن عدة ثلاثين فنادى على العشاء فجئ له بطبق فيه آنية بها قليل من الأرز فقط وبياضه يخطف بالأبصار كأنَّه بياض مصر أو بحيرة ساوة . فقال : أتعلمون مما بياضه؟

فقلنا : اللّه ووليّه أعلم .

قال : لأن الناس تكسو طبيخها بالدهن ، وأظن أن والدة عبّاس تستخرج دهن طبيخها .

فضحكنا خفياً هيبة له .

ثم قال : يا شيخ عبد هذا لا يؤكل بلا إدام . فقال الغمري وهو من خدام الشيخ : واللّه ما عندنا شئ من الأدام .

فقال الشيخ : خذ (الأجانة)[1] وائتنا بلبن من السوق .

قال الغمري : يا مولانا عادة أهل الحلة تغلق دكاكينها قبل الغروب ولا يبقى في السوق أحد ، والآن ذهب ثلث الليل . واستشهد بنا فشهدنا على ذلك ، فشهدنا جميعاً .

فقال الشيخ : إمض يا غمري لِما أمرتُكَ به .

قال الغمري : فأخذتُ (الأجانة) ومضيت إلى السوق المحاذي لمرقد إبن طاووس (ره) وأنا متعجب من إصرار (مولاى) بما يعلم أنَّهُ على خلاف العادة .

فمضيت إلى السوق فوجدت الحارس في أوله . قال : ما وراءك؟ قلت : أرسلني الشيخ على لبن . فضحك وقال : إن كان الشيخ لا يدري بعادة أهل الحلة فأنت تدري . قلت : لم يسمع مني ولا من الحاضرين .

فدخلنا السوق وإذا بدكان موسى العجّام آخر السوق فيه سراج . فقال الحارس : لا شك أن الشيخ أرسل إلى موسى العجّام بذلك ففتح حانوته ، فامضِ إليه . ورجع الحارس عني .

فجـ ـتُ ، وقبل أن أصل إليه نادى : يا غمري جئتَ لتأخذ اللبن؟

قلتُ : نعم .

فلما دنوتُ منه لم أعرفه ، فأضمرت أنَّهُ من بيت العجّام بعثه رئيسهم الحاج حسن وله مع الشيخ خصوصية وإخلاص . فوضع في أجانتي زهاء ستة (أرطال) بالعراقي من دون

---

(١) وردَ في هامش المخطوطة : الأجانة (هي الأناء الكبير) .

وزن .

فقلتُ : كم ثمنه؟

قال : أدرك الحسن قبل أن يتعشّى .

وحيث ظننتُ أنَّ ذلك بأمر الشيخ لم أُطِلْ معه الكلام .

فلما انصرفتُ قال : «إقرأ الحسن عني السلام» . فقلت إن بيت (العجّام) عوام العوام فمن أين له هذه العبارة ، وهم يقولون : «قبّلْ لي أيدي الشيخ» .

وأدركتُ الشيخ ينتظر فوضعته بين يديه فقال : هذا كثير . فقلت : دفعه إليّ مَنْ أرسلتَ إليه وسألتَهُ اللبن ولم يأخذ مني بدله .

فقال : ويحك ، لَمْ أرسل على أحد بذلك وما اختلج في بالي هذا حتى أتيتني بالعشاء .

فسكتّ ، وتناجى القوم بينهم . فلما أصبحنا أسرعتُ مع مَنْ أسرع إلى بيت (العجّام) فسألناه فأقسم أني لم أُرسل إلى أحد ، ولم أر الشيخ من مدة ولا في حانوت (موسى) لبن .

فاشتهرت هذه الكرامة عن الشيخ ، وعلمنا أنَّهُ مؤيد بروح القدس ، وأن صاحب اللبن هو صاحب الأمر (ع) أو أحد غلمانه . إنتهى .

ومنها : ما ملخصُهُ أن زيارة (الغدير) شارفتْ ، والشيخ عندنا في الحلّة ، فسأله بعض أصحابه عن تشرّفه بأعتاب الأمير (ع) ، فأجاب : إني أهوى ذلك ولا زاد عندي ولا راحلة .

وكان ممن يحضر مجلسه أغلب الأوقات الأديبان مُلا حسين ، والشيخ حمز ة مريزة ، فقالا : نستقرض لك ما يكفيك بمن معك ما يوصلك إلى النجف من الدراهم ، وهناك أخوك العلي بن جعفر وهو اليوم عمود الأسلام ، ومرجع الأنام ، فنرد عليه ونستجديه فلا ريب أن يجود علينا بأكثر مما نصرفه ذهاباً وإياباً ، فما يمنعك من السير .

فقبل الشيخ ، ونهض المُلاّ وهيأ له ما يحتاجه هو ومن معه ذهاباً وإياباً من حمولة وغيرها . وركب الشيخ ومن معه ، حتى دخلوا (الغريّ) وتفرق الجماعة وكانوا عشرة ، ومضى كُلّ إلى من يعتاد النزول عنده ، ومضى الشيخ إلى دارهم وليس معه غير الشيخ عباس الطهمازي كاتبه ، والغمري خادمه .

فلما صار العصر وكان من عادة أولاد الشيخ جعفر أنَّ العَلَمَ منهم يدرس صبحاً في مدرسة أبيه ويجلس قبل المغرب بها فتجتمع الناس ثمَّ للقضاء والمرافعة والقيام بحوائج

الناس . فدخل أصحاب الشيخ جميعاً لزيارة أخيه العليّ ، وبعد أن تمسّكوا بلثم يديه ابتدر الملا حسين وكان أديباً لَسِناً صحب العلماء ، ساعياً بالخير مع الأمراء ، له شعرٌ رائقٌ ولطائف مستحسنة . فخاطب الشيخ علي : يا مولانا أتينا مع أخيك وله ولنا حق عليك فاقض علينا مما في يدك وأحْسِنْ كما أحسنَ اللّه إليك ، فلقد ملكت زمام الأمور ، وأنت العليّ الذي يدور معك الجود والفضل حيثما تدور .

فالتفت الشيخ إليه مبتسماً وقال : إنعكس الأمر فأني ظننت أنكم جلبتم لي (الحقوق) التي أستعين بها على إعانة الفقراء والسادات من ذوي الحاجات فلقد حفّت بي حتى صرت أستدين لهم ، وقد تركت الحلّة وما فيها لأخي . ويكفيكم أني أضفتُ شيخكم مع ما بي من الحاجة .

فقال المُلا : يا مولانا أتقول ذلك هزلاً أم جداً؟

قال : هزل في جَد ، وجَدٌ في هزل ، فابعث لنا ما أتيتنا به من الحلّة من (الصَّوغة) فأنَّ النبي (ص) كان يقبل الهدية .

وأذّن المؤذن في الأثناء للأعلام ، فقام إلى جامعه وقمنا مع أخيه فصلّينا خلفه والجامع ممتلئ بالعلماء . فلما انفتل من صلاته ، وأتم تعقيبه نهض وناداني وقال : إمضِ معنا إلى الدار لتنظر كيف ضيافة الأخ وتنال من طعامنا . فقلت : وأصحابي معي . قال : لا يكفي على ما أظن فأن بنوا على القناعة ، فحيّهلَ .

فجلسنا وخرج الطعام ووُضع بين أيدينا ، فتأملت وإذا هو بمقدار من طبخ لأجله ، فقال : تقدموا وبسمِلوا ، فقلت : لِمَ نبسمل فأنَّ الجنّ لا تلج داركم وكم ولجت فلم تلق شيئاً حتى العظام التي هي طعامها كما في الخبر .

ثم غسلتُ وتقدمتُ وإذا فيه (أجانة) مملوءة بالمرق المعروف بالآش فطمعت بأن ألقى قطعة من لحم ، فأدرت فيه المغرفة فلم ألق إلاّ يسيراً لا يشفي علة ، ولا ينجع غُلَّة ، فقال : أخرج اللحم وكل . فقلت : هو عند القصاب . فضحك وكان وقوراً مُهاباً قليل الكلام ، عديم الضحك فأخرجتُ (الحُسينيّة) من جيبي وسجدتُ فقال : إنَّ السجود لحسن فلم سجدت ، فقلت : الحمد للّه الذي أراني نواجذك ، فقال : كُنتَ تظنني أدرداً[1]؟ فقلت : نعم إلاّ سنّ الطمع ، فضحك فقال : كلا لا يفوتك المرق أيضاً .

فلما رُفِعت المائدة صاح : يا حاج إبراهيم الندّاف ، (وكان المُنادى بيده تمام أموره ، غير أنَّهُ

(١) الأدْرَد هو الشخص الذي ذهبتْ أسنانُهُ ، فلا يستطيعُ النُطق .

قليل الأنصاف) ، فأجابه ، فقال : جئني بالصرّة التي دفعتُها إليك البارحة . فتململ ، فغمزْتُهُ برجلي ، فنفر . قال الشيخ : ما دهاك؟

فقلتُ : غمزْتُه أنا لأشير له أني أعطيك منها . فقال الشيخ : لا هذه طبيعته ، لكنك عارف بالمسالك .

ثم ألح عليه فمضى وأتى بالصرة وإذا فيها قدر مائة دينار توازي ألف درهم ، فقال : خذها لك ولفقراء أصحابك . فالتفتُ إلى شيخنا الحسن فقلتُ : ما لك بهذا نصيب لأني استنقذته بكدّ اليمين وعرق الجبين . فقال : نعم أسأل اللّه من فضله . ثم قبّلت يديهما وذهبت إلى مكاني .

فلما أصبحتُ تزوّدت لي ولأصحابي كسوة الشتاء حتى نفذت ولم أدفع للمكاري منها شيئاً ولا راجعت الشيخ في شئ منها ظناً بأنَّ أخاه سيعطيه ما يكفيه . فلم أدرِ أعطاهُ ، أو لم يقبل ، أو لم يُعْطِه .

حتى صار يوم المسير ، فأرسل إليَّ الشيخ أنْ خُذْ لنا من الزاد ما يكفينا لنبيت الليلة في المسجد الأعظم . فسرنا إلى الكوفة وكان عندي وعند أصحابي من زاد أرباب الضيافة ما يكفينا ويزيد ، ولم أسأل الشيخ عن شئ حياءً .

حتى وافينا (الكِفل) ، فطالب المكاري بكراه[1] . فقال الشيخ : حتى نصل الحلة . قلت : وليس عندك شيء . قال : لا . فاستقرضت من بعض أهل (الكِفل) ودفعت له . فلما أصبحنا سرنا على بركة اللّه ساعتين .

وكان معنا حبيب تاج من أجلاّء الحلة غير أنَّهُ قليل المعرفة (عامي صِرف) . فأشرفنا على نهر (الرارنجيّة) وكان نهراً عميقاً ليس له قنطرة والماء منقطع عنه فتشاغلنا بالعبور . وكان حبيب تاج مع بعض أصحابنا على خيل لهم ، وفرس حبيب من جيادها .

فلما صعد به الفرس على تل (الرارنجية) قَبْلَنا وجد إعرابياً على ظهر جواده بسفح التل فقال له الأعرابي : هذا الذي أنتم معه الحسن بن جعفر؟

قال حبيب : نعم .

قال : خذ هذا (الكِيْس) وادفعه إليه .

فتناول (الكيس) منه ورجع إلينا مسرعاً ولم يسأله عن شيء . فوَجَدَنا شارعين بصعود

---

(١) أي أجرتهُ .

التلّ . فقال : يا شيخ هذا الأعرابي ناولني كيساً أرفعه إليك .

فأخذه الشيخ وقال : إرجع إليه وسَلْهُ مَنْ أنت وما في هذا الكيس ، أهديّة للشيخ أم حقٌّ من الحقوق هو؟

فرجع حبيب فلم يجد الأعرابي بمكانه وغمز فرسه وصاح : ما وجدته . فتبعه الفوارس فلم يجدوه . فتصفحوه من الجهات الأربع فلم يكن له أثر كأنّما صعد إلى السماء أو دخل في جوف الأرض . وبقينا نتخبط الآكام والعوالي حتى وصل بعضنا الحلة .

فحرّك الشيخ دابته وقال : سيروا على بركة اللّه تعالى ، فهذا رزق ساقه اللّه إلينا . ووضع (الكيس) بجيبه ولم يُعْلِمْنا بما فيه .

فلما وصلنا دفع إلينا ما استقرضناه ودفع غيره هدية وأوصانا بأخفاء هذا الأمر عن الناس . والحمد للّه أولاً وآخراً .

واقعة نجيب پاشا في كربلاء (عام ١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م)

ومن كراماته على أهل النجف وأياديه السنية ، حيث أنجاهم من الهلكة وقد نشبت بهم أظفار المنية ، وذلك في واقعة نجيب پاشا[1] ، الذي أهلك أهل كربلاء جميعاً وأنعش اللّه أهل النجف بوجود الشيخ إنعاشاً .

ونحن نذكر عبارة العمّ (أيّده اللّه) عند ذكرها فقد أداها بأحسن أسلوب وأبلغ عبارة ببيانه ، حتى كأنَّ ينابيع الحكمة والبلاغة ضربت على لسانه . فأُقسمُ أنْ لو اجتمعت الأنس والجن على أنْ يأتوا بمثله لأقرّوا بالعجز ، ولما جاؤا بأبلغ مما جاء به ولا أوجز . قال (أدام اللّه أيام فيوضاته) ما نصّه :

ومن صنعه الحسن الجميل الذي وفّقه اللّه تعالى له أنَّهُ دفع الضيم عن أهل النجف بِقِراهُ لوزير بغداد في السنة المؤرخة بغدير دم (١٢٥٨) . وخلاصة القصة أنَّهُ لّما انتقل أخوه الشيخ علي إلى دار القرار فجأة في كربلاء المشرفة عند المغرب وحُمِلَ على الأعناق إلى النجف انتقل الوالد من الحلة بأهله ، وجلس بمقام أبيه وأخويه ، وانتهى أمر التقليد إليه ، في سنة ١٢٥٣ ، وجمع بين العلم والرئاسة واشتغل بالتدريس وقطع بحزمه وجزمه نائرة

(١) تولّى منصب ولاية بغداد سنة ١٢٥٨هـ / ١٨٤٢م ، وعُزِلَ سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م . وكانت وفاته سنة ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م . وكان قَدْ هجم على مدينة (كربلاء) بعد ثلاثة شهور من تولّيه منصبه وأوقَعَ فيها القتل ليلة عرفة من شهر ذي الحجة ١٢٥٨هـ الموافق ليوم العاشر من شهر كانون الثاني سنة ١٨٤٢م .

الفرقتين الشريرتين الزقرت والشمرت ، وأمنَ به المهاجرون في طلب العلم حتى مضى له على ذلك مقدار من الزمن فعُزِلَ والي بغداد علي پاشا[1] لبعض الحوادث التي أوجبت ذلك .

وتولّى بعده نجيب پاشا وكان مُسِّناً ذا حزم وتدبير وهو الذي محا الفرقة الأنكجرية في (قسطنطينة) بعد أن جهدت في ذلك الدولة العثمانية . فلما وصل إلى العراق واستقر بدار السلام مع العساكر الكثيرة ، وكان أول تنظيم العساكر بالطريق الذي هم عليه الآن أرسل أمراءه إلى الأطراف .

فأول من أظهر العصيان عليه أهالي كربلاء وهم (اليرمازية)[2] وعميدهم السيد الزعفراني[3] ، ويرجعون إلى السيد الصالح الداماد (من علماء كربلاء) ، ولهم شوكة وتبع ، فلما تحقق الوزير ذلك منهم استمالهم باللين ، فلم ينفع حتى قتلوا من أتباع الحكومة ثلاثة رجال . فصمّم رأيه أن يرسل عليهم من يسومهم الخسف . فأرسل لهم (سَرِيّةً) تبلغ الخمسة آلاف ، وأميرهم مصطفى پاشا فضّ غليظ القلب جرئ فتّاك ناصبي فخرج بعسكرهِ من بغداد قاصداً كربلاء .

فلما أيقن ذلك رؤساء كربلاء استفزوا من حولهم من أهالي العراق فجاء بعض وتقاعد آخرون ، وتحصنوا بسورهم وعزموا على القتال . وفي كربلاء من الغرباء والمجاورين والعلماء خلق كثير . وثارت الحرب بينهم يومين أو ثلاث بعد حصارهم أياماً بلا حرب . ومنع عنهم (الميرة) من جميع الأطراف وهم يرمونهم من أعلى السور والعسكر من البادية من طرف الجنوب مما يلي الغريّ في المكان الذي ضربوا أبنيتهم به .

وخرج إلى العسكر بعض الأشراف ودخلوا على الفريق واستأمنوه فأبى إلاّ أن يفتح الأبواب ويسلّموا ويدخل العسكر البلد . فلما رجعوا إلى أصحابهم امتنعوا عليهم لحبّهم الفساد . وعَظُمَ الأمر فقُتِل من العسكر من طرف الغرب واحد من أهل المناصب غيلة ، وأخذ القوم يسبّون السلطان من أعلى الحصن .

---

(١) عُزِلَ والي بغداد علي رضا پاشا اللاز سنة ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م ، وأصبحَ والياً في بلاد الشام . وتُوفي سنة ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م .

(٢) اليرمازية : كلمة تُركية تعني طبقة (الأشرار) في المجتمع .

(٣) السيد ابراهيم الزعفراني هو زعيم الطبقة المُتمرِّدة ضد الوجود التركي ، وولاة بغداد ، أُلقيَ القبض عليه بعد سقوط (كربلاء) هو والسيد صالح الداماد ، ونُقلَ إلى بغداد وقُتِلَ فيها ، ونُفي السيد صالح إلى كركوك .

وأسرته آل الزعفراني من الأسر الهاشمية الرضوية تولّى بعض أفرادها منصب (سدانة) الحضرة الحسينيّة في القرن الثاني عشر حتى بداية القرن الثالث عشر الميلادي .

وجاء جماعة من الأعراب من طرف الشمال لنصرة أهل كربلاء فأخبر (العَينُ) العسكر فأخذوا طريقهم ورموهم (بالتُفَك)[1] فانكفؤا راجعين بعد أنْ قُتِلَ منهم جماعة بالبنادق ومثّلوا بهم ورفعوا رؤوسهم على الرماح .

فلما اشتد الأمر وجّه العسكر المدافع على الضياع والنخيل التي حولهم فقلعوها جميعاً ولم تبق نخلة واحدة بينهم وبين السور . ورام الهرب من كربلاء بعض المعتبرين من العجم والهنود فمنعهم (اليرمازية) عن ذلك إلاّ قليل منهم بلطائف الحيل وبذل المال الخطير . واشتد بهم الحصار حتى صاروا يشربون ماء الآبار وانقطع الداخل عن الخروج ، والخارج عن الولوج .

وورد الأمر بالأمهال تلك الليلة إلى الصباح إنْ لم يُسلّموا البلد يوجّهوا عليها (الطوب)[2] والمدافع ، وكان ذلك في ذي الحجة الحرام سنة ١٢٥٨[3] . فلما أصبحوا وارتفع النهار أطلق العسكر مدافعه النارية على (الحصن) وصار يضرب بلا مهلة وهم يضربون من أعلاه ، فارتفع الدخان إلى السماء وأصوات المدافع كالرعد المتراكم وأصاب الرصاص في أعلى الحصن وأسفله وأخذهم الهلع والجزع ودخان البارود حتى كانوا لا يُبصرون شيئاً ، وانهدم من السور مائة ذراع أو أكثر ، فما شعروا إلاّ والسور قَدْ انهدم بهم فذهبوا من تلك الجهة الأخرى بأقل من ساعة فسَكَنَ (الطوب) هنيئة . وتحقق الجند خلوّ المكان مما يلي (خيمكاه) ، فصاح الفريق بالعسكر ائتِ ، فمشى العسكر والفريق أمامهم حتى ولجوا البلد من تلك الجهة . فانقسموا نصفين ، فنصف ارتقى السور وأخذ يمشي فوقه ويضرب مَنْ كان أمامه ، والآخر يمشي داخل السور محاذياً للدور . فوقعت البنادق عليهم ودخل في الرؤوس والأرجل فراحوا ما بين ميت وجريح وانهزموا ، ووقع بعضهم على بعض وأخذوا يرمون بأنفسهم من أعلى السور والعسكر يقتل كُلّ من وجده حتى قتل مقتلة عظيمة .

ثم أُمروا بالدخول في الأزقّة والدور فاستباحوا مَنْ وجدوه فيها بالقتل والتمثيل والنهب والغارة حتى بلغ أميرهم مصطفى پاشا إلى باب الحرم الحسيني (ع) ومعه طائفة من الجند . وكان إذ ذاك الحاج مهدي الشهير بكمكمة نائب من بيده مقاليد الروضة المنورة ففتح الباب وخرج مع جماعة من الخدمة وعمتُهُ برقبته ينادي : «الأمان . . الأمان» ، ويبكي ويلطم ؛ والحرم مملوء من المستجيرين به حتى قَتَلَ بعضُهم بعضاً من الضيق ، فأمسك الپاشا هنيئة ،

---

(١) التُفك : البنادق .

(٢) الطوب بمعنى (المدفع) .

(٣) في (ليلة عرفة) ، الموافق لليوم العاشر من شهر كانون الثاني عام ١٨٤٢م .

ثم رفع يده فأمسك الجند عن الضرب .

ودخل الصحن الشريف وجلس بباب القبلة ، والعسكر وقوف حوله ، وصاح الحاج مهدي باللسان (التركي) مخاطباً للفريق : أفندم إنّا لم نخلع الطاعة ، ولم نفارق الجماعة فلا تأخذنا بذنوب المُفْسِدين ، وترحّم علينا بالأمان ، فعفى . ولكن بقية العسكر لم يتركوا النهب والقتل خارج الحرم ووضع (الفريقُ) على أبواب الصحن من يحرسها عن هجوم الجند على الحرم لأنه عفا عمّن فيه . ولحق هو ومن معه العسكر وهم مشغولون بالقتل والنهب حتى بلغوا حرم العباس (روحي فداه) فلم يهتدِ مَنْ كان فيه من (الخَدَمة) إلى ما اهتدى له الحاج مهدي فقلع الجند الباب وأخذوا يضربون في (الصَحن) ومن شبابيك الحرم وكانا ممتلئين نساءً ورجالاً حتى ملأ الدم الحرم والصحن وأخذ يجري كأنّما سقط من شاهق .

وكَثُر في البلد القتل والأسر للنساء والغلمان وبقيت على هذه الحالة أربع ساعات من النهار ولم يسلم إلاّ الحرم الحسيني (ع) ودار السيد كاظم الرشتي منع عنه بعض الأمراء ممن آمن به من أهالي بغداد ، وسلمَ في داره خَلْقٌ كثير .

وكان هذا السيد سخياً جداً رئيساً مسموع الكلمة ، ومحبوباً عند السنّة ، بزيّ أهل العلم ، له حاشيةٌ وتُبّعٌ تقول فيه أقاويلاً عظاماً وتنسب له بعض الخصال الممدوحة ، ولكن كانت تُنسبُ له أشياء في العقائد غير ما عليه عموم الأمامية ، وله بعض التصانيف المهملة لا يُفْهَمُ معناها ، والتخليط عليها ظاهر ، ولذلك مجّته العلماء .

وبقي الأمر على هذه الكيفية حتى أشرفت الشمس أن تجبّ ، فأمر الپاشا بضرب (طبل) الأمان ومزماره ، فلما سمع العسكر سكتوا عن الضرب (بالتُفك) وانكفؤا إلى الخيم ، ودخل الوزير الكبير من باب بغداد والواقعة في جهة الشمال ومر كالبرق الخاطف إلى معسكره . وأمسى المساء والناس بين قتيل وجريح ومفقود وهارب إلاّ من استجار بالحرم ، ودار السيد كاظم . وباتوا تلك الليلة ولم يهدأ للسالم الباقي جفن ، والحاج مهدي ومن معه يحرس الحرم ويتعاهد من فيه .

فلما أصبح الصباح دخل الوالي رأد الضحى إلى البلد ومعه رؤساء عسكره يقدمهم (الفريق) ممتطياً جواده متقلّداً سيفه والعسكر خلفه وأمامه ، فاضطرب الباقون حتى وافى (الصحن) فترجّل هو ومن كان راكباً ودخل من باب الجنوب ، واستقبله الحاج مهدي ومن معه وأخذ (اليَتَك) فقبّلهُ فدخل الصحن بهيئة مرهبة وأبهة حسنة و(الطبل) يُضْرَبُ أمامه ، ومضى على رسله وأمراؤه خلفه وامتلأ الصحن بالعسكر ، والى جنبه الأيمن السيد كاظم

والأيسر الحاج مهدي ، والخدمة بيدهم القرآن العظيم وأعلام الروضة حتى دخل الحرم ، وقد أخلي له ، فدار في الروضة بتمام الأدب ، ثم خرج مما يلي حبيب بن مظاهر (ره) وأمّ (التكية) وصاحبها السيد مُحمَّد الدرويش . وكان معه من مشايخ الأعراب وادي الشفلّح[1] رئيس زبيد ، والملاّ علي الخصي الظالم الظلوم الغشوم وغيرهم ، ومن معتبري بغداد جماعة .

فلما إستقرَّ به الجلوس أمر مناديه أن ينادي بالأمان في الأزقة والأسواق . ثم إلتفتَ إلى الحاج مهدي وأظهر الرضا منه . ثم سأل عن (الكليدار) فقيل : هَرَبَ ، فعزله في الوقت ونصب الحاج مهدي كليداراً . ثم استخرج ورقة فيها أسماء العصاة ممن سعى بهم إليه الناس بالفساد ، فقيل : هربوا ، فأمر بالتفتيش عليهم . وقبض على السيد صالح الداماد وكبّله بالحديد وقبض على جماعة أخر ممن أتهم بالخروج على الدولة ، ثم ركب إلى مخيّمه وبات الليلة الأخرى .

فلما أصبح صنع كما صنع اليوم الماضي . فلما استقر في (التكية) نَصَّبَ حاكماً على البلد ، وعيَّنَ للقلعة مكاناً ولمحل الحكومة أيضاً ، وعيَّن من العسكر قدر ستمائة يبقى في كربلاء . وبقي يُنظّم أمور البلد ، ثم رجع وأمر بالرحيل .

فحدثني ممن شهد الوقعة من المعتبرين قال : لمّا أقفل العسكر أحصينا القتلى وسألنا (الحفارين) ، وتحققنا عن ذلك فكان ما يزيد على عشرين ألفاً من رجل وإمرأة وصبيّ . وكان يوضع في القبر الأربعة والخمسة إلى العشرة فيهال عليهم التراب بلا غُسل ولا كفن . وتفقدنا القتلى فوجدنا منهم كثيراً في الدور والآبار ومنهم في السراديب حتف أنفهم . ورأيت امرأة في (البئر) ميتة وابنها ملتقمٌ ثديها وهما ميتان . والحاج مهدي معنا ندخل داراً داراً ونستخرج منها الموتى مقدار عشرين يوماً .

وأعجبُ ما رأيتُ أن دخلنا في مرفوعة فيها (دالان) أظلم يزيد على عشرين ذراعاً لا يُبْصَرُ فيه بالنهار مما يلي الجنوب ويحادد دار النقيب ، بعد خمسة أيام من الواقعة وكان فيه عدة رجال ونساء مختفين ، ولم يصل العسكر إليهم . فلما سمعوا أصواتنا حسبونا من الجند فزهق ثلاثة منهم وماتوا من ساعتهم خوفاً ، وغشي على الباقين . حتى إذا عرفونا رجع إليهم روعُهم ، وحمدوا اللّه على السلامة .

وحدثني أيضاً قال : وجدنا بالسرداب الذي تحت رواق سيدنا العباس من القتلى أكثر

---

(١) رئيس عشائر زبيد ، وكانت تحت سيطرته مناطق فُراتيّة واسعة . تُوفيَ سنة ١٢٧١هـ / ١٨٥٥م . وقد ازدادتْ قوتُه بعد تعيينه منْ قبل الوالي داود باشا حاكماً على منطقة الفرات ، وبمثلاً لحكم بغداد سنة ١٢٥٢هـ / ١٨٣٦م . كما اعتمد عليهِ الوالي علي رضا باشا أيضاً نظراً لنفوذه الكبير .

من ثلاثمائة ، فوآ عَجَباً من حلم اللّه تعالى ، ولا عجب . فأنَّ بابَ نجاة الأمة ، وأبا الأئمة لم يزل مظلوماً حيّاً وميتاً .

عَجَباً لحلمه ، ولصبره عن هذه الواقعة الكاضّة ، والفادحة الماضّة . وقبلها واقعة (المناخور)[1] . وقبلها الداهية الدهماء واقعة إبن سعود . ولكن انعكس الأمر فسَلِمَ بتلك الحادثة حرم العباس (ع) ، وصار النهب والقتل بحرم سيد الشهداء (ع) ، حتى اشتهر أن الملعون دخل بفرسه إلى (الحَرَم) ، وقلع قبر حبيب ابن مظاهر وأمرَ بهدم الحرم فجاءه خَبَرٌ أزعجهُ فانصرف عن ذلك . واشتهر أنهم لّما عزموا على هتك حرمة العباس ومعهم الوهابي الملحد الكافر ، وهم على متون خيولهم . قال الوهابي : دعوا حرم أبي الفضل فهو ابن أختنا . فانعطفوا على الروضة الحسينية وفعلوا ما فعلوا .

وقبلها حادثة المتوكل لّما أدار الماء على قبره فَحارَ ، وعلوّه على القبر الشريف فوق القامة ، والقبر وسط الماء وهو لا يجري عليه .

ولم أعثر على غير هذه الحوادث المذكورة في الظلم على مرقده المطهّر .

توجّه نجيب باشا إلى النجف

فلما أصبح العسكر والوالي معهم ارتحل على طريق البرّ كأنّهُ يريد النجف ، ووصل الخبرُ إلى (الغريّ) ، فاضطرب مَنْ فيها اضطراباً شديداً وارتاعوا وأقبلوا يهرعون من كُلّ فجّ عظيم إلى دار المشايخ العامرة ، حتى اجتمع ملأُهُم فيها ، و(الوالد)[2] جالسٌ بينهم والعلماء حوله كصاحب الجواهر وغيره من علماء النجف ، وآل بحر العلوم كلهم ، وأشراف النجف جميعاً وبقية الناس ، حتى امتلأت الدار والزقاق ، وهجمت النساء على بقيَّة الدور وهي ستة ، فيها عيالات المشايخ حتى امتلأت بالنساء والأوعية وضاقت الدور التي حولنا ، والعلماء يتجاولون الرأي بينهم .

وجاء الخبر أن الوالي بلغ نصف الطريق فقال الوالد ، ووافقه الجماعة : إنّا نفتح الباب ونُخرِجُ الناس لاستقباله ونُظْهِر الطاعة والأنقياد ، وأنا أدعوه بعسكره أن ينزل عندي ، فأنْ أجاب فيا حبذا إذا دُفعَ البلاء بذلك عن أهل النجف ، وإن امتنع خرجنا إليه واستملناه

---

(١) واقعة (المناخور) وقعت عام ١٢٤٤هـ / ١٨٢٨م في زمن الوالي داود باشا بعد تمرّد أهالي كربلاء على حكمه . وسُمّيت الواقعة بهذا الأسم مُحرَّفةً عن كلمة (مير آخور) ـ الفارسيّة ـ التي تعني رئيس (الخيّالة) الذي قاد الحملة العسكرية ضد المتمردين من أهالي المدينة .

(٢) الشيخ حسن كاشف الغطاء .

واستعنّا باللّه تعالى عليه .

وتفرّق العلماء وبقيت الناس تحمل أسبابها وتبعث نساءها إلى بيت الشيخ وإلى البيوت التي حوله حتى مُلِئت البيوت والسراديب كأنّما حُشِرَ الناس في صعيد واحد .

وأصبح الصباح فجاء الخبر أن الوالي قصد المسجد الأعظم ومنه يأتي إلى النجف . فجمع الشيخ لُحْمَتَهُ والعلماء الباقين وعرض على كُلّ واحد المسير إلى الوزير بكتاب يدعوه فيه إلى النزول عنده قبل أن يدهمهم العسكر ، فتقاعدوا وتململوا وظهرت أمارات الكراهة فيهم إلاّ السيد جواد شبّر الذي كان أكثر إقامته في الحلة وقد يأتي إلى النجف وهو من الأجلاء جرئ جسور ، فقال للشيخ الوالد (ره) : أنا أحمل رسالتك إليه وأدعوه إلى النزول عندك فضمَّه الوالدُ إلى صدره ، وقال : سِرْ على بركة اللّه . وأتى له بفاره من الخيل فركبه وأخذ الكتاب وسار منفرداً إلى مسجد الكوفة فحَجَبَ اللّه عنه أبصار العسكر حتى وافى المسجد ، فرأى الوزير قَدْ دخله قبله بيسير .

فقال : أنا رسول الحسن بن جعفر إليكم لأدعو الوزير إلى النزول عنده . ففهموا الأسم ، ووقفوا على المعنى وأوصلوا الخبر إلى الوالي . فسأل من كان معه عن الشيخ مثل شيخ زبيد فعرّفوه به وبأخويه وأبيه وعظّموا أمره عنده ، وذلك مِنْ نِعم اللّه تعالى ، وخلوص نية الوالد في حفظ (الروضة) المُنوَّرة ، وباقي الناس . فأذِنَ للسيد بالدخول عليه .

فلما دخل حيّاه بالتحية الحسنة ، وأمره بالجلوس وقام إجلالاً له ، ثم قدّم له الكتاب ، وقال : أتيتك من قبل وليّ من أولياء اللّه تعالى مطيع للدولة العلية داع لها ، أدعوك إلى بيته ، وأنْ تكون في ضيافته .

فقال له : وهل يحصل في النجف من المفسدين أحد؟

قال السيد : لا ، بَلْ كُلّ مفسد ولّى هارباً من سطوتك .

وقال له الملا علي الخصي ، ووادي ومَنْ معه من (أفندية) بغداد : أجب الشيخ وانزل عنده فأنّه أصلح لك من كُلّ مكان . وتكلم كُلّ من يعرف من المشايخ بهذا ومثله ، فأنعم وكتب الجواب معلناً بالقبول . وأمر بعض الجند أن يذهبوا إلى دار الوالد وهو على الأثر .

فنهض السيد جواد مسرعاً وامتطى فرسه وطار بها قبل العسكر الذي معه فوافى الدار بأيسر زمان فوجدهم يتوقعون قدومه والناس تهرع خلفه ، فترجّل ودخل ووجد الوالي والعلماء حوله أفواجاً ، فدفع الكتاب إلى الشيخ وقال : هُم على الأثر .

فأمر الشيخ بالخروج لاستقبالهم ، ونَدَبَ ابني أخيه العليّ (محمدا والمهدي) ، ومعهم طائفة من المؤمنين ، وأخرى من الأشراف ، ومعهم العَلَمُ الحيدريُّ والقرآن المجيد . وكان الشيخ مُحمَّد ابن أخيه جَسُوراً لسِناً لا يخشى من أحد مع ما اشتمل عليه من العلم وسائر المعارف ، فخرج مع الناس بأبَّهَةٍ حسنة وجلال عظيم . واشتغل الوالد بتهيئة ما يحتاج إليه من الضيافة ، وكان العسكر أكثر من ثلاثة آلاف ، وفيهم عدة من الأمراء الذي لا بُدَّ لكل واحد منهم مكان مخصوص .

ودخلت هوادي الخيل ورجّالة العسكر زمراً زمراً ، فوجّه الوالد من ينزلهم في الدور التي أعدها لهم . فنزلوا ولم يزالوا كذلك حتى أشرف الوالي على الباب ، وقرب منها وأمامه العسكر وخلفه الشرطة . فلما وقع نظره على العلم الحيدريّ والمستقبلون من العلماء والأشراف حافّون به ألقى الله في قلبه الرعب :

إذا ما رأتْهُ من بعيد ترجّلتْ وإنْ هي لَمْ تَفعلْ ترجَّلَ هامُها

فترجّل وأسرع إلى العَلَم فقبَّلَهُ وسلّم على العلماء ، والأشراف وبسط مُحمَّد بن عليّ يديه بالدعاء وكان جهوري الصوت ، فدعا بدعاء أهل الثغور من الصحيفة ، ومشى راجلاً حتى دخل البلد الأمين . فضُرِبَتْ له المدافع ، ومشى في السوق .

وسأل عن الشيخ فقال ابن أخيه : أرسلنا خلفه .

قال : لا تفعلوا ، نحن نمضي إليه . ثم إلتفتَ وقال : لأي شيء الدكاكين مغلقة؟

فقيل : إحتراماً لحضرتكم . قال : فليفتحوها .

حتى إذا وصل باب (الصحن) ، ونظر الروضة والضريح أخذته الهيبة فخرّ ساجداً وأناب ، ثم قبّل الأعتاب :

تَزاحمُ تيجانُ الملوكِ ببابِهِ ويكثرُ عن الأستلام ازدحامُها

ثم دخل الحرم والعَلَمُ المجوهر والعلماء حافَّة به ، وزار . فبلغ الوالد الخبر فخرج إلى (الصحن) ، ومعه ما يقرب من خمسمائة من السادات والعلماء والطلبة وقد ملأوا (الصحن) الشريف .

فلما خرج الوزير من الروضة المقدسة ونظر تلك الهيئة سأل ، فقيل له : هذا الشيخ . فلما أبصره أكبره ، واستعظمه ، وأسرع إليه ، وقبّل يديه ، ومشى معه والناس خلفهم إلى الدار . وجعل الأمراء يشيرون إلى الشيخ بالأصابع ولا يقربون منه هيبة ، فأودع الله ذلك اليوم وكل

يوم الهيبة والجلالة فيه .

ولما بلغوا المنزل صعد به الشيخ إلى مدرسة والده فامتلأ البيت بالعلماء الوزراء والأشراف حتى أشرفت الغزالة أن تَجِب ، فقدّمت الموائد ، وأخذوا في وضعها ، واستأذنَهُ الشيخ للصلاة فأذن له .

وأمر الشيخ بوضع الشعير في الأزقة فكان كالروابي في ساحة السور لأجل صامت الخيل الذي معهم . ومضى الشيخ إلى الجامع فأدى المكتوبة ، وكان خفيف الصلاة يبادر بها في أول الوقت حتى ظن أنَّهُ يفتي بدخول المغرب عند الأفول .

ورجع الشيخ فوضعت أواني العشاء . ولما قضوا منه الوطر جلسوا بعد هنيئة . ثم ذهب الشيخ إلى حرمه وقام الوالي إلى منامه ، وأمر أن لا يحرسه أحد من الجند فأنَّهُ في حرم من دخله كان آمناً . وأمر الشيخ المؤمنين وبعض أهالي النجف بحراسته ، فجلسوا في جوانب الدار وعلى سطحها .

فلما أصبحوا خرج الوالد للصلاة فأبى مَنْ بالباب من الجند أن يفتحها فجراً . فنادى الشيخ بأعلى صوته : «مرهم يفتحوا لنا الباب لأخرج إلى الجامع» .

فانتبه الوالي مرعوباً ، وخرج من الأسطوانة التي هو فيها إلى السكّة ، وناداهم بذلك ، وسأله الدعاء مبتهجاً به . فخرج الشيخ وأدى صلاته ورجع . فجلسوا على الصباح في المدرسة واجتمع الملأ من الأمراء والعلماء ، وأخذ الوزير يعتذر من وقعة كربلاء وأنهم هم حملونا على العقوق فوقع ما وقع .

ثم قال : عَجَباً لأهل العراق جاءهم ابن زياد (لعنه اللّه) وهو ابن أَمَةٍ ولم يبلغ الثلاثين بلا جند ولا عسكر فاستولى عليهم وفعل ما فعل ، وإني ذرفتُ على الثمانين ومعي ما رأيتموه من الجند والمدافع والتفك ، فكيف يخيل لهم الغلب على وليّ الأمر . ويا شيخ حسن أفندي : لِمْ لَمْ تعظهم وتُظهِرْ لهم فوائد الطاعة وما يترتب على العصيان من الآثار التي أهونها ما وقع؟

فقال الشيخ : إنّ مَبْنى الدنيا منذ خلق اللّه الخلق على ذلك ، واللّه حتَّم على نفسه الرحمة والعفو على المذنب ، وأمر الأمراء بالعدل والأنصاف ، وفي الخبر : «مَنْ وُلّيَ أمرَ عشرة أُعطيَ عقلهم» ، والآن أسترحم منك أن تطلق من أسرته من أهل كربلاء ، وتُعطي الأمان للمنهزمين ليرجعوا إلى أهلهم .

فأنعمَ ، وأمر بذلك . غير أنَّهُ قال : أربعة أو خمسة لا يدخلون كربلاء ، ولا يبقون بالعراق

منهم السيد صالح الداماد .

ثم وجد الشيخ إن عزم الوزير أن يطوف بالعراق فخشي على الشيعة من فتكه فصرف رأيه عن ذلك وقال له : ينبغي أن تعود إلى دار السلام فأنّه أبلغ في العظمة وأخاف أن ينقلب الأمر فيفسد العراق وأنا أحذرهم بطشك وآمرهم بالطاعة .

فقال الوزير : نعم ، هُمْ لكَ أطوع ومنك أسمع ، ومن خافك خاف اللّه .

وقد أودع اللّه الحُبَّ للشيخ في قلبه وقلوب أمرائه وامتثال أوامره ، فكلما قال سمع . فمكث الوزير في النجف ثلاثة أيام بلياليها عند الشيخ وضيافته تتزايد . ثم أقفل راجعاً متعجباً هو ومن معه بتلك الضيافة مؤمناً بالشيخ مُريداً كمال الأرادة .

قال المهدي : فظهرت بهذه الكرامة للشيخ فوائد للناس من الأمن واستقامة الأمور ، فكأنّ الشيخ هو الوزير . وأمِنَ به الخائف ، وانكمد المخالف ، ورفعت الشيعة حوائجها إليه فيقضيها بالمراسلة ، ورفع المؤذن صوته (بالحيعلات) على المأذنة وأمنت الناس في الصلاة على(الحسينية) جماعة في الحرم . إلى غير ذلك من الفوائد العامة لعموم المسلمين بهذا التحبّب والضيافة فكأنَّه المعنى والموضوع للحكم في قول أحدهما (ع) لعلي بن يقطين : «إن للّه تبارك وتعالى مع السلطان مَنْ يدفع بهم عن أوليائه أولئك عتقاء اللّه من النار» . وفي ترجمة ابن بزيع عن أبي الحسن (ع) : «إنَّ مَنْ يُؤمّنُ اللّه روعة المؤمنين به في دار الظلم أولئك المؤمنون حقاً ، أولئك منار اللّه في أرضه ، أولئك نور اللّه في رعيتهم ، يزهر نورهم لأهل السماوات كما يزهر لأهل الأرض نور الكواكب ، أولئك من نورهم تُضيء القيامة ، خُلِقوا للجنة وخُلِقت الجنة لهم ، ما على أحدكم لو شاء لنال هذا كله» . قلتُ بماذا جُعلت فداك؟ قال : «يكون معهم فيسرنا بأدخال السرور على شيعتنا ، فكُنْ معهم يا مُحَمَّد» .

ولا شك أن الوالد (قده) وأمثاله ممن شمله الحديث ممن أدخل السرور على الحجة (ع) روحنا فداه بقضاء حوائج الشيعة . ولا ريب برضاه وشمول نظره وإمداده لمن ذكرنا من نوّابه . فكم شيّدوا للدين ، ورفعوا قواعده على أساس ثابت بالدخول معهم ومباراتهم ومخالطتهم على النهج الذي أمرهم به سيدهم ، وقبول جوائزهم وصِلاتهم وأخذ بعض أراضي الخراج منهم ، بَلْ وبعض الولايات ليتوصلوا به إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإظهار كلمة الحق وحراسة الأمامية عن المكاره التي تحل بهم لولا ذلك .

وعلى هذا جرت عادة السلف الغابر منذ غاب الأمام إلى زمن المشايخ لكنهم لم نرَ منهم التعدّي عما ورد به النص من المعاشرة والمُداراة بعيادة مرضاهم وتشييع جنائزهم والصلاة

بمساجدهم وقبول جوائزهم . وربَّما تعدى إلى غير ذلك بتنقيح المناط ، والخبر أن (التقيَّة) ليس شئ منها إلاّ وصاحبها مأجور عليه والأجود عدمه . فالواجب على العلماء خصوصاً بعد وفاة الشيخ المرحوم أن يسيروا بسيرة أئمتهم (ع) وأن لا يرشدوا العوام إلى غير ذلك ، ويذيعوا أمر التقيَّة التي وجبت عليهم على النحو المعهود ، والطريقة المستقيمة . قال (ع) : «ليس منا من لم يجعل التقيَّة شعاره ودثاره» .

ثم أخذ العمّ أيده اللّه بتحقيق مسألة التقية ، وأخبارها فأطنب الكلام فيها بما لا مزيد عليه . فأنْ شئتَ فراجع رسالته هذه تجدْها وافيةً بتحقيقها في الفروع والأصول .

مناظرة الشيخ حسن
مع مُفتي بغداد السيد أبي الثناء الآلوسي
حول البابيّة ومسائل أخرى

ثم قال ، أيَّدَهُ اللّه ، عود على بدء : ومما وقع للحسن بن جعفر من الكرامة الواقعة المعروفة لمّا جُلِبَ مع جماعة من العلماء إلى دار السلام للمباحثة مع أهل السنة والجماعة في خصوص مسألة الفرقة المعروفة بالبابيّة . وتفصيل الحادثة على ما نرويه مرفوعاً إلى المهدي ، والى غيره ممن شاهد ذلك الأمر العظيم ، وهم عدة من أصحابنا من أهل الزوراء ، والغريّ ، وكربلاء مع ترتيب مني لأسلوب ما سمعته كعادتي في جميع ما نقلته هنا .

قالوا : لمّا أهلَّ الشهر المبارك ، وتصرّم ثلثه ، أو أكثر في سنة (. . . .)[1] كان عادة بعض تلامذة الوالد المرحوم أن يجتمعوا عند العصر في إيوان الدار الخارجة التي هي محل درسه ، وتدريس أبيه وإخوته وينتظروا خروجه إليهم . حتى إذا ما أشرقت عليهم شموس أنواره حفّوا به وخرج بهم إلى الحرم الغروي . وبعد إكمال الزيارة يجلس في (الرواق) الشريف لتلاوة كتاب اللّه والمذاكرة ببعض الآيات المشكلة ، ويجتمع عليه الملأ من العلماء المبرزين حتى يدخل وقت العُتمة فيودّعُ بالمَسْنُون ، وينصرف مع مَنْ معه إلى مسجده فيصلي جماعة ، ثم ينصرف إلى محله وتفارقه الناس إلاّ الأقربون ممن يحضر معه الأفطار ، وهذا ديدنه .

فخرج يوماً على عادته فوجد جماعة جلوساً في الأيوان وفيهم المهديّ وجعفر (ولدا أخيه) ومعهما ما يقرب من عشرة من أهل العلم المنتظرين له ، فلما أحسّوا به قاموا إجلالاً واستقبلوه على جري العادة . فنظر وإذا فيهم رجلٌ قصيرٌ أعجميٌّ ملحم ، ذو عمّة كبيرة (أكثر من ثلاثين طيّة) ، ومنطقة بيضاء قَدْ أدارها على وسطه تبلغ (أُسته) ، وهو أحمر اللون

(١) لم تُذكر السنة في النسخة المخطوطة ، ومن خلال سياق الأحداث فمن المؤكّد أنّها سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م .

ذو لحية سوداء وعينين يميلان إلى الزُّرْقَة ، فابتدر إلى الشيخ وقبّل يده ، ووقف وأطلق لساناً عربياً بالدعاء والثناء قليل اللكنة ذلق حسن التأدية .

فقال الشيخ : من أي البلاد أنت؟

فقال المهدي : يا عمّ إنّ لهذا الرجل حكاية غريبة .

فقال الشيخ : وما ذاك؟

فقال : يا مولانا كأنّ به جنون يزعم أنَّهُ مُرْسَل من (الباب) إليكم وعنده كتاب يزعم أنّهُ من اللّه تعالى غير الكتاب المرسل ، وكانت بيد المهدي تلك الأسفار فقال لعمِّهِ : هذه هي يزعم أنها قرآن ورأينا فيها من المهملات والمزخرفات ما يضحك الثكلى ، ولو شئت يا عم لكتبت إلى المغرب صحفاً أحسن منها .

فتبسّم الشيخ وهزّ يده وخرج ، وقال للجماعة : هذا شهر عظيم فلا تفنوا زمانه بما لا ثمرة فيه .

فخرجوا بأثره وأخذ (العجميّ)(١) أسفاره ومضى لشأنه .

وذهب الشيخ ومَنْ معه إلى الحرم على عادتهم فلما تصرّم اليوم وجلس الشيخ لفطوره والمهدي معه قال المهدي : أتدري ما صنع اللّه تعالى بالعجمي؟ قال : لا .

قال : إنه دخل الحرم وجلس بقبر مُحمَّد خان القاجاري وهو صفة في الرواق الشريف ، واجتمع عليه خلق من الطغام وأخرج أسفاره فهزؤا به ، وانتهبوا ما عنده من تلك الأوراق وصحبوه إلى أن خرج إلى الصحن فقالوا له : أدع الناس إليك وعرّفهم الباب ، فصاح : أيها الناس ، (وكان جهوري الصوت) ، فاجتمع عليه الصبيان من كُلّ الجهات وحسبوه مجنوناً وصفّقوا له وصنعوا معه ما يُصْنَعُ مع المجانين . فلما رأى ذلك استوحش فنزل من المنبر الذي كان في الصحن قَدْ ارتقاه وتبعه الصبيان إلى أن خرج إلى السوق وهم في أثره فالتفّت بهم الصبيان الذين في السوق حتى صاروا أكثر من مائتين صبياً وكهلاً كالصبي وهم يرمونه بما في السوق من الكسافات والأشياء النجسة الملقاة وهو قدّامهم يركض وهم يَعْدُون خلفه ، حتى بلغ قريباً من القلعة التي فيها الجند والعسكر فخرج إليهم بعض الجند وحالوا بينهم وبينه ، ولم أعلم بعدُ ما صنع اللّه به .

فتبسّم الشيخ وقال : (إلى حيثُ ألقتْ)(٢) ، فلكم رأينا مثله .

---

(١) هو مُحمَّد بن شبل العجمي .
(٢) إشارة إلى بيت الشعر : «إلى حيث ألقتْ رَحْلَها أُمُّ قشعمِ»!

وبقي الأمر على ذلك برهة . فلما انقضى من ذي الحجة الحرام من تلك السنة نصفهُ فلم نشعر إلاّ وقد ورد الأمر من الوالي المتقدم نجيب باشا ويصحبه مكتوب إلى الشيخ يتضمّن الأرادة بأرسال الأسفار التي نهبوها من ذاك (اللُكَع) التي يدّعي أنها الكتاب الجديد والتفتيش عليها ، فمن كان عنده شيءٌ منها ولم يدفعه يحصل له الجزاء بالحبس والتنكيل ؛ ففتشوا عليها وبحثوا عنها فألفوا منها ما يزيد على الخمسين ورقة متفرقة عند الناس من ورقة واثنتين وأرسلوها إلى محل الولاية مع بعض القُوّاد . فمضى على ذلك زمان حتى دخلت سنة الواحد والستين[1] وتصرّم من المحرم ثلثه ، فعندها ورد إلى الغريّ من خاصة أصحاب الوزير المذكور نفر معه خدم وحشم وبيده أمر مؤكد على جلب علماء النجف إلى بغداد عموماً ، وخصوصاً العالِمَين المنحصر فيهما أمر التقليد صاحب الجواهر (ره) والشيخ الوالد (ره) .

فاضطربت الشيعة وكثر الهرج والمرج وتشعبت الآراء وشاع بين الناس أن الذين يذهبون في كمال الخطر على أنفسهم ، وأن المفتي أفتى بذلك والقاضي حكم به ، والأذن به صدرت من السلطان . والحال أنهم بعد واقعة كربلاء السابقة في كمال القوة والاقتدار حتى عادت أوامرهم بين (الكاف) و(النون) . فبقوا على ذلك يوماً أو يومين وخافوا على أنفسهم من المخالفة أن يؤخذوا تحت الحفظ ، فاجتمعتْ طائفة من العلماء والأشراف في قبر الشيخ جعفر (ره) بعد صلاة العشاء وحضر الوالد ، وصاحب الجواهر وأجالوا الفكر ، فقال الوالد (ره) مخاطباً له : يا شيخنا لا محيص عن المسير وامتثال الأمر ولا يُرخَّصُ لنا في التخلف ، فغايته إنْ أُقتلْ فأكون الشهيد الثالث[2] وتقتل فتكون الرابع .

وتخاوضوا الحديث فاستقر رأيهم على مسير الشيخ الوالد ومعه عشرون شخصاً من لُحْمَتِهِ وغيرهم وأن يتخلف صاحب الجواهر (ره) لمصالح عديدة من كون الشيخ أشد ارتباطاً بالوالي لنزوله عنده كما مر ذكره ، فعساه أن يأخذه الحياء منه . وعمدة المصالح أن لا تبقى الشيعة بلا عميد ترجع إليه في التقليد وغيره خوفاً من عروض الحادث على أحدهما فتبقى الأمامية غَنَماً بلا راع ، والذئاب محيطة بها . وعزم الشيخ على المسير متوكلاً ومفوضاً أموره إلى المبدئ الفيّاض ، ومقدماً للتوسل إليه بأقرب الخلق منه النبي (ص) والعترة الطاهرة ومن معه ، وكان ذلك لثلاث وعشرين من محرم تلك السنة غبّ صلاة الظهرين . فخرج

---

(١) ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م .

(٢) الشهيد الأول هو مُحمَّد بن مكي العاملي المقتول على يد مماليك الشام سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م ، وهو صاحب كتاب «اللُمعة الدمشقية» . أمّا الشهيد الثاني فهو زين الدين بن علي العاملي المقتول على يد العثمانيين سنة ٩٦٥هـ/ ١٥٥٧م .

بعد التمسك بأعتاب أسد اللّه الغالب وتوديعه ومعه المشيّعون من جميع الأصناف إلى خارج البلد ، وأثر ما التقط الحصى المروي به السلامة . وودع المُشيّعين وقدّم له التخت الذي أرسله أمين الدولة الأيرانية سابقاً ، وكان في الغريّ مجاوراً بعد انفصاله ، فاتخذه مركباً ، وركب من معه دوابهم كُلّ على حَسْبه .

فركبوا الطريق إلى باب نجاة الأمة سيد الشهداء (ع) بهيئة يلوح عليها النصر والظفر وهم يتلفّتون إلى المرقد العلويّ حتى اختفى :

فتلفّتتْ عيني ومُذْ خفيتْ   عني الطلولُ تلفّتَ القلبُ

ثم أقاموا ليلة في الطريق ودخلوا قبيل المغرب إلى البلد الأمين على حين غفلة من أهلها وترجّلوا يهرعون حتى هجموا على الحرم الحسيني ، ودخلوا بتمام السكينة حافّين بالشيخ حفاة الأقدام . ولما قضوا وطراً منه طاروا بأجنحة الشوق إلى مثوى أبي الفضل وهم ينشدون :

أبا الفضل أنتَ البابُ للسبطِ مثلما   أبوكَ عليٌّ كـانَ باباً لأحـمـدا

إذا أنتَ لم تشفعْ بمقصدِ وافدٍ   إلى السبطِ لم يُنْجحْ له السِبطُ مقصدا

وبعدها انكفأوا إلى محل استراحتهم .

وزارهم ليلاً الكثير من أشراف البلد وطلبة العلوم ، وأخبروهم أن علماء كربلاء جُلِبوا بالأمر من الوالي إلى الزوراء منذ أيام ، منهم السيد إبراهيم القزويني (صاحب النتائج والضوابط) ، والملا حسن كوهر ، والميرزا محيط ، وجماعة غيرهم لأجل هذه المسألة وأقاموا ليلتهم . ولما أصبحوا همّوا بالرحيل فعاقهم تزاحم الزائرين إلى عميدهم ، إلى أن دنا وقت الزوال . فلما راموا التحرك سألوهم البقاء لليلة القابلة ليتزوّدوا منهم ، ولأن الشتاء أناخ بكلكله ولا وصول إلى المنزل إلاّ ليلاً ، وفي السماء غيم خفيف وطلٌّ كرؤوس الأبر ، وقالوا : نخشى أن يشتد ويثقُلَ والشيخ ضعيف المزاج . فأجابوا مسألتهم وأقاموا ليلتهم الثانية وصنعوا كصنيعهم في الأولى .

ولم يزر الشيخ (ره) أحداً ممن زاره لضيق الوقت عن ذلك . فلما انكشف النهار وقضوا ما عليهم من تكرار الزيارة والوداع للأئمة ساروا عند ارتفاع الشمس رأد الضحى ، وأخذوا الطريق السلطاني حتى أشرفوا على (المُسيّب) ، قرية على كتف الفرات تشتمل على أكثر من مائة بيت أغلبهم إمامية ، وفيهم بعض الفرق ، فاستقبلوا الشيخ (ره) ومن معه ،

وأضافوهم وأحسنوا ضيافتهم . فأقام بمن معه عندهم ليلة .

وسألوه عن قبري ولديّ سيدنا مسلم بن عقيل فأجابهم : أن الظاهر ذلك ، فالعمل عليه للمسموع .

ولما أصبح صلّى في المسجد ، وبعد أن أتم تعقيبه أمر بالرحيل ، فقُرّبتْ إليهم رواحلهم وأركبوا الوالد في (تخته) ، وشيّعهم أهل القرية ميلاً أو أكثر فلزموا جادّة الطريق الأعظم إلى أن وصلوا إلى (خان زاد) محلّ أُعدّ للعابرين يشتمل على (إصطبل) واسع للدواب ، وعلى عدة (أواوين) للمسافرين فنزلوا وأدّوا الفرض وباتوا ليلتهم ، واستراحوا وأراحوا دوابهم ، إلى أن خرج العصفور من وُكْره ، وتلألأ في الأفق ذنب السرحان ، ومحا ظلمة الليل ضوء النهار ، نادى منادي الرحيل . ولما همّ الخدم أن يضعوا الأوعية على الدواب إذ طلع عليهم فرس أشقر عليه رجل محتبي بجُبّة سنجابية لا يبين منه شئ من شدة البرد ، ومعه خدم وحشم . فلما أماط النقاب عن وجهه وإذا به التقي النقي الحاج مُحمّد صالح نجل الحاج مصطفى كبّة[1] من أعاظم تجار الأمامية ، مسلم صدقه وصداقته عند المؤالف والمخالف لحسن سيرته وتقواه ، وقد ورد لاستقبال الشيخ ومعه بعض قرابته ، ويصحبه الحاج أحمد الششتري أحد المعتمدين من تجار الشيعة ، وأخيراً سكن النجف إلى أن تُوفي بها سنة (الثالثة والثمانين)[2] . فمُذْ ترجّل (الصالح) ، ومن معه وسلموا على الشيخ وقبّلوا يديه جلسوا عنده .

وبعد المفاوضة سأله الصالح عن عزمه ، فقال : الساعة أركب وأجعل الزوراء يميني حتى أهجم على إماميّ (الجوادين) ، وأقضي وطري من التمسك بأعتابهما ، ثم أعود إلى دار السلام ، ويقضي الله أمراً كان مفعولاً . فأجابه الحاج الصالح بأني أرى أن تمضي بمن معك رأساً إلى الزوراء فيظهر للوالي أن قصدك إليه ، فعسى أن يكون ذلك أوفق بالمصلحة وأدعى لقضاء الأمر الذي دُعيتم إليه ، وأرضى لمواليك وأئمتك . وساعده الحاضرون على ذلك ، فاستصوب الشيخ رأيهم . لكن قال لهم : مع ذلك أتفاءلُ بكتاب الله . فخرجت الآية : «أبشرْ ولا تَخفْ إنّكَ من الآمنين» . فانكشف عن الشيخ ومن معه بهذه الآية أكثر ما يجدونه من الحذر ، وهبوا خِفافاً وامتطوا ظهور دوابهم يقتفون تخت رئيسهم ، والعبد

(١) مُحمّد صالح كبّة هو جدّ أُسرة آل كُبّة البغدادية ، تُوفي سنة ١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م . وقد اشتهر ولداه الحاج مصطفى كُبّة المُتوفى سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م ، والشيخ مُحمّد حسن كُبّة المُتوفى ١٣٣٦هـ/ ١٩١٧م . وكان هؤلاء الأفاضل من الأسر الثريّة في العراق ، ولهم الفضل في إنشاء (الخانات) المخصصة لأستراحة المسافرين بين المدن العراقية عندما كانت وسائل النقل لا تزال بدائية ، وتقديم الرعاية لهم .

(٢) ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦م .

(الصالح) معهم وقد توجّهوا تلقاء مَدْيَن دار السلام .

ومُذْ صاروا عن الخان ميلاً أو أكثر فإذا بجماعة من الشيعة جآؤا لاستقبال الشيخ فترجّلوا وحيّوه وقبّلوا يديه وركبوا ورجعوا القهقرى . وأخذ الشيخ وصحبه كلما قطعوا وادياً أو ارتقوا ربوة وجدوا جماعة من وجوه الشيعة خرجوا لاستقبالهم من عشرة عشرة وعشرين عشرين ، وهم مستبشرون بقدومهم مع عميدهم :

ولـو أنَّ البطـاحَ تملكُ نطقـاً لسمعتَ التأهيلَ والترحيبـا

حتى أشرفوا على الكرخ وقد تكمّلوا جمّاً غفيراً من العرب والعجم والهند وغيرهم من الأمامية إلى أن بلغوا دار باب السلام مما يلي الرصافة بعدما عبروا (المسعودي)[1] . فدخلوا على تلك الصفة ، وقطعوا الأزقّة إلى الجسر بهيئة حسنة وأبهة كاملة .

وترجّل من أكابرهم جماعة وأحاطوا (بالتخت) وقادوه إعظاماً وإكراماً حتى عبروا به الجسر ، وكان دار الأمارة مشرفاً عليه ، فأخرج الأمراء والكتاب ورؤساء الجند رؤوسهم من (الرواشن) ينظرون إليهم فتعجبوا من تكاثرهم على موئل رئيسهم ومبين أحكامهم واستعظموه .

فلما اكتملوا بالجانب الآخر أخذوا ذات اليمين على السوق إلى دار العبد الصالح كبة ، فانحاز الناس عنهم ، وأخلوا لهم الطريق وهم ينظرون شيئاً لم يروا مثله من تسديد الحجة (ع) ، ودخل الرعب في قلوب أعداء الدين لمّا لاح مَنْ :

إنْ عُـدَّ أهـلُ النُهى كانـوا أئمتَهُـمْ أو قِيلَ مَنْ خيرُ أهلِ الأرضِ قِيلَ هُمُ

فقطعوا الأزقة والأسواق إلى أن وصلوا إلى دار العبد الصالح ، وكانت من عهد أبيه معدّاً للضيوف خصوصاً العلماء .

وبلغني عن حجة الأسلام المرتضى الأنصاري (رُفعَ مقامُهُ) أنَّهُ لمّا زار الجوادين (ع) سأله العبد الصالح أن يدخل دار السلام ويشرف داره فأجاب : إني عازم على زيارة النوّاب فأجعلك منهم . ولما زار الأربعة جعله خامساً . فانظر إلى جلالة قدر هذا الرجل لدى علماء الدين .

وحينئذٍ نزل الشيخ ودخل الدار وارتقى إلى المكان الذي أعدّ له وكذا أصحابه ، وتفرّق

---

(١) جسر المسعودي : أحد جسور بغداد ، ويُسمّى في العصر الحاضر بجسر (الخرّ) .

الناس إلى مضاربهم وأدى المكتوبة ، واستراح هو ومَنْ معه من وَعْثاء السفر :

فألقتْ عصاها واستقرَّ بها النوى

وأذّن مؤذن المغرب فتهيّأوا للصلاة . ولما فرغوا قدّمت لهم الموائد فأكلوا وشربوا وحمدوا اللّه وشكروه ، وباتوا بأهنأ ليلة .

فلما أصبحوا وارتفع قرص الشمس إلى ثلث الأفق جلس الشيخ للزائرين . وبلغ خبر وروده إلى علماء كربلاء ممن دعاهم الوزير فأسرعوا قادمين وكانوا بحظيرة القدس في مقابر قريش ، فدخلوا على الشيخ . فلما استقر بهم المجلس وكان غاصاً بأهله من وجوه الأمامية في بغداد إلاّ ودخل قائد من قوّاد الوزير ذو خدم وحشم حتى ورد المجلس وحيّا الشيخ بالمعتاد .

ثم رحب بالشيخ وقال : إنّ الوالي أرسلني وهو يخصّك بالسلام ويقول لم تلق إن شاء اللّه من سفرك هذا نصباً .

فقال الشيخ : أبلغه عنّي السلام والتحية وقل له : امتثال أمر الدولة مطاعٌ ، والعناء يذهب ونلتقي إن شاء اللّه ، فإذا رأى ما بي من ضعف البنية عرف أني كيف قادني الشوق إليه وبادرتُ لامتثال أمره .

فطلب القائد الأذن بالأنصراف ، فأذن له الشيخ فانصرف ولم يحتفل به . لكن اللّه تعالى أودع حبّه في قلبه ، فأنّهُ لّما شيعه الصالح قال له : «هنيئاً لك قَدْ أدخلت وليّاً من أولياء اللّه تعالى دارك ، وأن اللّه أودع حبّه في قلبي لّما رأيته في (الغريّ) حينما نزلنا داره بخدمة الوالي» . ثم مضى لشأنه .

وما ولّى حتى دخل على إثره أربعة أنفار معممين على هيئة طلبة السُنَّة والجماعة وفيهم رجل أبيض اللحية طاعن السن والباقي كهول ، فسلّموا وجلسوا . وأسرَّ الصالح للشيخ بأن هذا أمين الفتوى فرحب به وأدنى مجلسه . ولما استقر به الجلوس أخرج من كُمّه ورقة طويلة الحجم سلّمها إلى الشيخ بتأدب ، ففتحها وتلاها على أصحابه فإذا فيها ، على ما بلغني ممن كان مع الوالد مع اختلاف يسير :

بسم اللّه الرحمن الرحيم ، (وفيها بعد خطبة لم أتحقق ألفاظها) :

س : ما قول أئمة الدين ، وعلماء المسلمين ، ومرشدي الطريقة ، وجامعي الشريعة والحقيقة ، من ساكني دار السلام ، وغيرهم من الأعلام في جماعة يقولون كلمة الأسلام ،

ويدّعون أن لهم قائداً يطلقون عليه (الباب) ، ويزعمون أن له أركاناً وله كتاب ، غير الكتاب العزيز ، فما حكمه وحكم متابعيه ، وما يجب على ولي الأمر فيهم وفيه ، ويلحقون بدار الحرب أم لا؟

ج : جمهور أهل السنة بَلْ المسلمون كافة أن خرق الأجماع القطعي الذي صار من ضروريات الدين كفر ، وبه صرح في خزانة الجرجاني والمحيط البرهاني وأحكام الجوزي وأصول البزدوي ، ولا كتاب بعد الكتاب المنزل فلا شك في إلحاق هؤلاء وشبههم من أهل البدع بدار الكفر بنص الكتاب ، قال تعالى : «والذين يَسْعَوْنَ في الأرض فساداً أنْ يُقتلوا أو يصلبوا أو ينفوا من الأرض» وليس الفساد إلاّ خلاف ما عليه المسلمون قاطبة ، فهم من أهل الردّة وقد استباح الصديق (رض) إلحاقهم بدار الحرب بمنعهم الزكاة ، فكيف بمثل هذه الدعاوى الفظيعة . ولا ريب في إكفار من قال بالربط العادي ، والتشبيه والتجسيم ، والجهة ، والأصول الثلاثة ، وقدم العالم ، والجواهر ، وتلازم الأسباب الطبيعية في التوليد ، والعقول المجرّدة والنفوس الفلكية والقوى المتخيلة في الأنسان من حيث استيلاؤها على القوة العاقلة وصرفها عن جانب القدس إلى الشهوات واللذات الحسية الوهمية ، فنسبة ذلك إلى بعضه كفر أو إكفار واللّه تعالى أكمل الدين بآية الأكمال . وغير أهل الكتاب من اليهود والنصارى والمجوس لم يعهد ولم نسمع به ، فأكفار هذه الفرقة من المبدعين ومتابعيهم والراضين بفعلهم والمساعدين لهم وإلحاقهم بدار الحرب مما عليه الفتوى . ومن (مختارات النوازل)(١) تبجيل الكافر كفر ، فمن سلّم على الذمّي تبجيلاً كفر .

وفي آخرها نسبة الكفر لجماعة معلومين مشخّصين وجعلهم من التابعين لهم ، منهم العجمي السابق الذي أتى بالأسفار .

وآخرها : حُرِّرَ بيراع أبي الثنا شهاب الدين المفتي ببغداد(٢) (عُفِيَ عنه) .

وفي هامشها : خطوط جماعة من علماء أهل السّنة بتصحيح ذلك كله ، ولا تحضرني أسماؤهم .

فلما أحاط الحسن ومن معه بها خُبراً التفت إلى أمين الفتوى مستفهماً عمّا جاء به ، فقال له : زيّن هذا (الطّرس) بقلمك ، واختمه بخاتمك بأمر حضرة المفتي ليكون العمل عليه

---

(١) ورد في هامش النسخة المخطوطة «الظاهر أنّه اسم كتاب» .

(٢) أبو الثناء السيد محمود بن عبد الله الآلوسي : وُلدَ سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م . وتقلّدَ منصب (الأفتاء) سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م في زمن الوالي علي رضا باشا اللاز (الذي حكم من سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م حتى سنة ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م) . وقد تُوفي سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م .

بإجماع علماء الأسلام .

فقبض الشيخ على كريمته متأملاً ، ثم قال له : إن ما عليه الجمهور لا ينكر غير أن المتسرّع بالفتوى في خطر عظيم ما لم يتبصّر ويجدّ ويجتهد فيما يدين اللّه به ، وقد اشتملت الورقة على مسائل ينبغي أن تلحظ ، ونحن على جناح سفر فأنْ استقرّ بنا المقام نظرنا في نتائج هذا الكلام ، (وعند الصباح يحمد القوم السرى) .

فسكت أمين الفتوى وطوى ورقته وخرج مع من صحبه .

فلما توارى شخصه أقبل الشيخ بوجهه على الجماعة وقال : هذا أمر لا ينبغي لي أن أعترف بشئ منه أو أمضيه وأخشى أن يكون مقدمة لأمر آخر ، فأنّا إن وافقناهم ولو على الضروري وقعنا في أمر لا يسعنا إنكاره وهو خطر عظيم . فقال الجماعة : وماذا ترى؟

قال : أرى ما يكون إليه المآل ، فإذا بلغت التقية الدماء فلا تقية ونستعين باللّه وصاحب الشرع عليهم .

فقال الجماعة : الرأي رأيك ، إلاّ الميرزا حسن كوهر[1] قال : نفارقهم إلى إيران ،

وكُلُّ مكانٍ يُنْبِتُ العِزَّ طيّبُ

فلم يستصوب الشيخ ولا الجماعة رأيه .

وقال بعضهم : الرأي أن نوافقهم حسب الأمكان كما أُمِرنا بذلك ولا نُدْخِل سبيلاً على أنفسنا . فقال الشيخ : ذاك أدهى وأمرّ ، معنا من يعيننا عليهم :

فعارٌ على حامي الحِمى وهو في الحِمى إذا ضــلَّ فـي البـيـدا عِقــالُ بعـيــرِ

ثم أمسكوا وبقوا يومهم وليلتهم في تشويش وتفكّر . فلما أصبحوا وتصرّم بعض اليوم والشيخ في مجلسه ، والشيعة تختلف إليه ، حتى من كان في القرى المحيطة ببغداد ، فدخل عليهم القائد الذي جاء سابقاً فقبّل يد الشيخ وأخرج رقعة ودفعها إليه ، وإذا مرسوم فيها استدعاء الشيخ ومن معه إلى قصر الأمارة غداً أول النهار من الوالي . فأنعم الحسن بالقبول وخرج القائد .

ولما انقضى زمن المهلة وحان حين الوقت واجتمعت الجماعة نزل الشيخ من المكان المعدّ

(١) الميرزا حسن گوهر من تلامذة السيد كاظم الرشتي ، وكان من دُعاة الحركة الكشفيّة في كربلاء ، تُوفيَ عام ١٢٦١هـ/ ١٨٤٥م . وقد اتّبعت الحركة بعده الميرزا مُحمّد باقر الأسْكوْئي المُتوفى سنة ١٣٠١هـ/ ١٨٨٣م .

له محتبي بجُبَّةِ خزٍ ضافية عليه أهداها إليه بعض أمراء إيران ، معتمٌ بعمّة بيضاء من وبر مخصوص غالي الثمن وعلى وسطه مثلها ، وقباؤه من (البرك) الخراساني ، وهو طلق المُحيّا بأبهى ما يُتَصوَّر :

ولولا قدرةُ الباري لقُلنـا   لمثلك قطُّ لم تلدِ النسـاءُ

غير أن عمّته متصلةٌ بحزامه ففطن له أصحابه وقالوا : يا مولانا العمامة متصلة بالحزام ، قال : نعم مهما أمكن ، الاتصال لا يجوز العدول عنه إلى الانفصال ؛ قاعدة مسلّمة والحنك بينهما ، ولم أجد في السنة عدم صدق الأسم على المتصل ، فتبسموا خفيفاً ولم يعرّضوا تأدبّاً . ثم قال : إنْ وضعتُ الكل على رأسي صارت مستهجنة في الكبر ، وإن قطعتها نصفين أخل ذلك بها ، وهي من ذوات القيم ، فطريق الجمع هذا ، فأنْ رجعتُ سالماً نزعتها ، وداعبهم بمثل هذا حتى رفع توحّشهم .

قال المهدي : فانحدرنا ونزلنا خلفه عازمين على ما دُعِيْنا له متوكّلين على الحيّ القيوم مستغيثين بوليّ الأمر (ع) ، وحينئذٍ قُدِّمَتْ له (بغلةُ) الصالح الشهباء ، وأحاطت به العلماء بمن صحبه وغيرهم ، فخرجوا وإمامهم أمامهم ، ومرّ بمن معه في الأزقّة والأسواق لا يلوي على أحد إلاّ قامَ تعظيماً له ، ورمقتهم الأبصار وتبعهم من الأمامية خَلْقٌ كثير . حتى إذا بلغوا دار الأمارة وجدوا الحجّاب صفّين ببابه كالبنيان المرصوص ، فدخل الشيخ (الصراي) الأول وإذا به مملوءٌ من الناس نساء ورجالاً من كُلّ ملّةٍ ، وأهل النوبة مصطفون إلى باب (الصراي) الآخر يحولون بين الناس والطريق .

فلما دخل الثاني وهو على بغلته ، وصحبه خلفه وإذا به كالأول في الخلق ، ورأوا القُوّاد ، والشرَطة ، وأهل النوبة ، وأمراء الجند كُلاً على مرتبته واقفين ينظرون إليه من طرف خفي ، والشيخ في أُبّهة حسنة تسرّ الصديق وتسئ العدو . فلما توسّط دار الأمارة (صلّى) بعض الشيعة رافعاً صوته فصلّى من حضر من الناس كذلك ، وارتفعت الأصوات بالصلوات .

وقبل أن يحاذي المقصورة العظمى التي هي محل الأمر والنهي ، والفتق والرتق ، والمجلس العمومي فيها خرج من غرفةٍ مجاورة رجلٌ إلى الطول أميل خفيف العارضين متقلداً سيفه مسدلاً على صدره نيشانه المرصّع ، فأسرع إلى الشيخ وأخذ بلجام بغلته وسأله النزول بباب غرفته . وذاك الرجل يدعى بصادق بك (مدار أمور الولاية) ويطلق عليه (الكهية) . فترجّل الحسن ودخل بمن معه الغرفة ، وأمر لهم الكهية بما يناسب من الأكرامات .

وكان طريق المقصورة العظمى على تلك الغرفة ، فنظر الجماعة إلى علماء السُنّة يمرون ولا

يمنعون إلى مقصورة الوالي الكبرى ، فأخبروا الشيخ رمزاً بذلك ، فانزعج وخاطب الكهية بأنك حبستني عندك وعلماؤكم تمرّ علينا ولم تحبسهم أمَا والله تعالى إن وجدت المكان المعدّ لنا في مقصورة الولاية غير لائق رجعت على أثري بمن معي فأنَّ العزّة لله ولرسوله وللمؤمنين . فقال الكهية : خفض عليك يا شيخ أفندي فلعل لك في هذا تمام الصلاح فأنَّ الدستور الكبير لا يبغي بك بدلاً ولا يقدّم عليك أحداً فأبشر .

وما تمَّ كلامه حتى صدر الأذن بدخول الشيخ وصحبه إلى المقصورة العظمى المسمّاة بالجمّالي . فنهض والجماعة في أثره وكانوا أكثر من ثلاثين ، فدخلوا وإذا به محلّ واسع طوله أكثر من ستين ذراعاً باليد في عرض خمسة وعشرين ذراعاً ، والوزير في صدره في وسط القبّة ، وعلى شماله مما يلي (دجلة) ، علماؤهم جلوس إلى آخره يزيدون على المائة والعشرين . وفي طرف اليمين لم يكن أحد سوى إسماعيل خان (وكيل شاه ايران) لحراسة رعيته ، وهو جالس في عرض المقصورة .

فلما أبصر الوزير الشيخ نهض قائماً وقام كُلُّ مَنْ حضرَ ، ومضى الحسن على رِسْلِه إلى أن وصل إليه بعد أن استقبله بخطوات وجلس إلى جنبه ، وجلسَ أصحابه بحذائه كلّ على مرتبته . وكان أقربهم إليه السيد إبراهيم القزويني وابن أخيه الشيخ مُحمَّد ، وهكذا إلى أن إنتهى مجلسهم بالخان المزبور فلم يستوفوا بالجلوس ثلث المقصورة وقليل ما هُمْ «وكم مِنْ فئةٍ» . ومذ اطمئن بهم المجلس ارتدّت من الناس الأنفاس ، وسكنت الحواس ممن هو في ساحتهم . فرحب الوزير بهم وحيّاهم وعطف على الشيخ وقال : أزعجناك وأزحمناك في كانون ، والمجلى إن شاء الله ما تجد .

فأجابه : إني كثيراً ما يختلج في بالي أن أزورك غير أنَّ ضعف البُنية يمنعني منه فأجتزئ عنه بالدعاء للدولة العلية ولوكلائها خصوصاً حضرتكم في روضة أسد الله الغالب علي بن أبي طالب (ع) ، ولا شك إن دعائي وسائر أهل التحصيل مستجاب عند الباري لأنه غير منوط بطمع ، ولا مأخوذ عليه الأجر وإن كنا في أمن واستراحة فأنَّ الدعاء لحفظ الثغور من الواجبات العينية .

وكان المُفتي أبو الثناء شهاب الدين السيد محمود أفندي آلوسي زاده ذا علم ومعرفة وربط بالمعقول والمنقول وله التفسير الكبير المعروف (بروح المعاني)[1] يُزْعَمُ أنَّهُ لم يُكتَبْ مثله ، فقال للشيخ ، وكان ثالث ثلاثة عن شمال الوزير : يا حسن أفندي : إن الدعاء مع

(١) روح المعاني من التفاسير الشهيرة للقرآن الكريم ، وهو مطبوع ومُتداول في (٩) مجلدات ضخام .

الأحسان أشد إخلاصاً وأقرب للأجابة .

فضحك الحسن وقال : «أين ظلّتْ مطيتُكَ يا حسّان؟!» . إنَّ الدعاء لوليّ الأمر عبادة تناط بالأخلاص والقُربة ، وأخذ (الجعل) و(الأجارة) ينافيه ، ولذا تركتْهُ الأولياء ، وكان المتعفف منهم أوقع في النفوس مثل إبن عربي ، والغزالي ، والبسطامي ، وغيرهم . أوَ ما بلغك أن عمر ابن عبيد لمّا استدعاه الخليفة المنصور إليه من البصرة قال : أتدعو لي ، قال : نعم ، قال : سَلْ حاجتك ، قال : مالي سوى واحدة وهي أن لا تدعوني حتى آتيك . فقال : إذن لا نلتقي .

وهذه سمة الأولياء والسلف الماضي .

فقال : الدعاء للأحسان لا للأجر المنافي للأخلاص ، قال : وترك القبول أولى وأخلص كيلا يُجزع إن انقطع فيكون ممن قال اللّه تعالى فيهم : «ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطي منها رضي» فأنّا نرى بالوجدان أنّهُ متى تأخر نجم من نجوم معاش الرجل المقرر له فضلاً عن قَطْعِهِ ينقلب المدح ذمّاً فضلاً عن ترك الدعاء .

ثم التفت إلى الوزير ودعا بأعلى صوته بما يقتضيه المقام للسلطان إلى أن أعلن بآمين ، فأمّنت الناس جميعاً . فسرّ الوزير بذلك ولاح البشر في وجهه . ثم إلتفت وراءه فتناول عِيْبَةً فيها قراطيس وألقاها بين يدي الحسن ففتحها وأخرج ما فيها ، فوجدها أسفار العجمي ، فألقاها في الأرض وهزّ يده .

أقول : وقد أطلعني بعض الأصدقاء بعد مدة على ورقة منها فوجدت فيها : «أمّا والنجم السيار ، والفلك الدوار ، واختلاف الليل والنهار ، ما في العالم العلوي ولا السفلي ، سوى الباب اللاهوتي ، والشأن الملكوتي ، أُقفُ أثر من كان قبلك من النبيين ، فأنَّ المبدأ الأزل ، فاقمع زيغَ مَنْ ألحدَ وظلَّ عن الطريق بما كان ويكون» . إنتهى ما ببالي من تلك الورقة .

وكنتُ أحضر (المطوّل) عند الشيخ إبراهيم قفطان (ره) فمررتُ بترجمة المتنبّي في (معاهد التنصيص) فوجدتُ هذه الفقرات بتغيير يسير فيما ادّعى النبوة فيه فعرفتُ أنها ملفقات بلا معنى ولا مبنى أعاذنا اللّه من الجنون الأبليسي .

ثم قال الحسن : (أفندم) ، نحن في جوار المرقد العلويّ وهو قصر بوادٍ غير ذي زرع ، وحرم تقصده الناس من كُلِّ فجّ عميق على اختلاف مللها وطرائقها ، ومن سائر أصناف الدراويش وأرباب الفال ، وأغلب من يأتي من هذه المقولة نجده على خلاف ما عليه المسلمون ، فواحد بيده (طوط) ، وله مردة يزعمون أنّهُ مرشد ، وآخر له بساط فيه أسباب يزعمُ أنّه يفرِّقُ بين

المرء وزوجه وأنه يسخّر الجنّ وأنه يجلب الحبّ ، فتجتمع عليه نواقص العقول ويتوصل بذلك إلى معاشه ، وبعض يلعب بالدفوف وبيده حديدة محماة يضرب صدره وبطنه ويخرجها من جانب لآخر[1] ، ويدّعي أنَّهُ من نسل سيدنا الرفاعي ، وإن هذه سجيته افتراء عليه فيما حرم اللّه تعالى ، وبعض يصفق ويغنّي وينشر شعره ويغيّب نفسه عن الوجود ويدّعي أنَّهُ من الأقطاب بالجنون ، وبعض يترك الواجبات بأسرها ويدّعي أنَّهُ وصل إلى اليقين ، فلو اعتُرِضَ عليه يقول : «واعبد ربك حتى يأتيك اليقين» ، وأمثال هؤلاء أكثر من أن يحصى . فلو أنا نعاقب كُلّ من يدخل إلينا من هذا ، أو من أرباب العقائد الفاسدة ويسألنا الوالي عنهم لَمّا قرّ لنا قرار ، ولكن لكل مرض دواء ، ودواء مثل هذا الأعراض عنه وعدم الأحتفال به فيتلاشى بالطبع ويضمحلّ ولا يبقى له أثر ، وإذا أتبعناهم تزايدوا (والمرء حريصٌ على ما مُنع) ، ولو كشف لي الغطاء أنك استدعيتنا لذلك لذكرتُ لحضرتكم الرأي المصيب فيه . لكن الخير فيما وقع .

فدخل ذلك في عقل الوزير واستصوبه ، والتفت إلى (المُفتى) بالأشارة وكان المفتي لسناً أديباً فصيحاً بارعاً في النحو والصرف والبيان جدلاً وقاحاً ألدّاً ، فبرز قليلاً عن أصحابه بحيث تميّز تقدمه ونادى : يا حسن أفندي ، هذه بدعة ، و(كُلُّ بدعة ضلالة) ونخشى بسببها إكفار خلق كثير ، فيجب على وليّ الأمر ونوّابه وسائر العلماء أن يجتهدوا في محوها ويعاقبوا عليها بالقتل والحرق والتمثيل وليس هذا من ذكرتَ . والمقيس غير المقيس عليه للفرق الواضح بينهما مع بطلان (القياس) عندكم ، وكون ذلك مما يقضي به الأعتبار فيكون المستند في الأعراض منهم العقل أيضاً لا يجدي لتوقّفه على تجريده من شوائب الأوهام والألف والعادة والأحتراز عن الخطأ في الترتيب والعلم بخلوصه مما يَخلُّ ، وكُلُّ ذلك مفقود فيما نحن فيه إن لم يقضِ العقل للزوم الفساد فما تقول؟

ثم سكت ، (وترجم ذلك للوزير بالتركية) .

فتقدم الحسن حتى ترك الوزير خلفه فقال : إن مجلسنا لا ينتظم إلاّ أن تُعيّنوا منّا رجلاً ومنكم رجلاً للمباحثة .

فوقع الرضا منهم على (المفتي) ، ومن الشيعة على (الحسن) . فالتفتَ إلى المفتي وقال له : (لقد طاش سهمك) ، إنّا لا ننكر لزوم إزالة ومحو (البِدَع) عيناً وكفاية فأنَّهُ من الضروريات ، ولا يحتاج إلى برهان ، وكذا ما يتوقّف عليه ، غير أنَّ المقدمات مختلفة .

---

(١) وردَ في هامش النسخة المخطوطة تعليقاً على هذه الفقرة : «يشيرُ بهذا إلى أهل الطرائق المُدّعين للتصوُّف من أهل السُنَّة والجماعة» ـ منه ـ .

فمنها : ما يحصل به الفساد (ذو المقدّمة) من دون ترتّب فساد آخر من نهب أو قتل أو أضرار ، ومنها : ما يحصل به المطلوب بسهولة ، ومتى انحصرت لُوحِظَ الأهم ما بين الضرر الناشئ من فعل (المقدمة) وإن حصل به المطلوب وما بين الناشئ من تركها والأعراض عن المأمور به . والى ذلك ينظر إلى فعل النبي (ص) لمّا صالح بعض الكفرة المأمور بنص الكتاب بقتالهم في قوله تعالى : «فاقتلوا المشركين كافة» إلخ . ولا يناسب في ذلك المصالحة وأخذ الفداء ، والهدنة حتى ترك الحج ، ورجع . كُلّ ذلك بمرأى من الصحابة ومسمع . وسببه أن الأسلام إذا ضَرَبَ بجرانه[1] وقويتْ أهله ضَعُفَ الجانب الآخر .

وفيما نحن فيه إذا أمكن محو هذه (الفرقة) المنحوسة بغير القتل ، والتمثيل من لطائف الحيل وجب ارتكابه لِما في الأول من الضرر وأقلّه أخذ البرئ بالمذنب والحمل على الحقوق فيُعْرِضُ وليُّ الأمر عنهم كأن لم يكونوا ويضع (المراصيد) عليهم ، ويغتالهم ، ولا يجعلهم طرفاً مقابلاً فيتعاظم أمرهم ويلحق بهم غيرهم فأنَّ النفوس للطمع مجبولة على حب الفساد ، فلا ريب أنَّهُ أولى وله أسوة حسنة بمن سبق .

قولك : «إنَّ المقيس عليه غير المقيس» فيه تمام المؤاخذة ضرورة أن القائل يرى أن أصل الحكم إذا كان مأخوذاً من الشرع يقاس عليه ولا ريب أن الحكم فيمن ذكرنا مأخوذ من الشرع فهو من موضوع (القياس) ، وأي فرق بينهما . وإني أحذرك بطش اللّه تعالى في تأجج نائرة عظيمة يهلك بها خلق كثير . ألم تَدرِ أن الشيعة كلهم في حَيْصَ بَيْصَ[2] من إرسالكم على علمائهم وقد خيّلت لهم بعض الخيالات ، فأخماد هذه الفتنة وأخذها بالأمور السياسية أولى .

ثم أمسك وترجم للوزير ذلك . فلما تمّ قال المفتي : دع عنك يا حسن أفندي هذا ، فأنّا قَدْ أفتينا بارتدادهم ، وسفك دمائهم وقد نصبنا السلطان لذلك فيجب على القاضي أن يحكم طبق الفتوى ، ويلزم إجراء الحكم ولا يجوز الردّ والنّقض .

فأجابَهُ إنْ كان الأمر كما تذكر فما وجه إحضارنا؟! فأنَّ فصل الحكومة يحصل من قاض واحد وجمع الحكام في مسألة إمّا لأعانة الحاكم في مقدّمات الحكم ، وإمّا لأنفاذ الحكم فيما لو حكم به أحدهم . وما ذكرته يتوقّف على أمور ينبغي أن تُلْحَظ كيلا يكون الحُكم بغير ما أنزل اللّه تعالى خصوصاً في مسألة (الدماء) .

---

(١) ضَرَبَ بجرانه : استقرَّ وثبتَ .

(٢) حَيْصَ بَيْصَ : ضيق وشدّة .

منها : التفكر في أصل المسألة التي صدرت الفتوى بها في أنها محلّ خلاف ، أم وفاق ؛ وعلى الأول يُنظرُ في قول وهن المخالف وعدمه .

ومنها : لزوم إحراز الموضوع فقد تكونُ المناقشة في الصغرى ، ومنها أن السلطان إذا نصَّب مفتياً أو عين قاضياً وأفتى المفتي على طبق مذهبه مع مخالفته لباقي المذاهب أو بعضها فهل يجب على من خالفه إنفاذ تلك الفتوى ، ويلزم القاضي الحكم بها أو للمخالف أن يرد الفتوى حتى يظهر رجحانها على غيرها يكون الأكثر عليها ، أو صدور النص الصحيح بها أو غيره من المرجّحات . فأذا ترجحتْ تلك الفتوى بمرجّحها لزم القاضي الحكم بها ، وإلا توقّف أو حكم بضدّها حيث يكونُ له الرجحان . ولا فرق في ذلك بين أنواع المسائل وأصنافها عدا الضروريات . وبناءً عليه يلزمنا التدبّر في خصوص هذه الفتوى من جميع أطرافها فأنْ وجدنا فيها موضعاً للاشتباه سألناك إما الرجوع عنها أو رفع الشُبهة .

ثم أمسكَ وتُرجمَ ذلك للوالي .

ولما رأى المُفتي توسّط ذكر (السلطان) انتهزها فرصة فقال : نعم السلطان وليّ أمور المسلمين فإذا نصب مفتياً أو قاضياً وعين له مذهباً خاصاً تعيّن قبول تلك الفتوى من جهة أمره ، ولزم القاضي الحكم بما تضمنته . (وسكت وحصلت الترجمة) .

ثم قال الحسن : هذه مسألة طويلة ، ولكن الذي أُمرنا به العمل بما وافق الكتاب والسُنّة وتطبيق الفروع على الأصول في غير المنصوص أو الرجوع إلى الأعلم ، الأعرف فيه لكونه أقرب إلى الواقع ، ويلزم امتثال أوامر ولاة الأمر في السياسات وتقوية الأسلام ، وأما فيما كان المرجع فيه الكتاب والسُنّة فلا يأمر السلطان بخلافه ، وإنْ أمر لا يجوز اتباعه وليس الحكم الشرعي دائراً مدار أمره ونهيه بَلْ يدور مدار السُنّة ، وإلا لَما دوّنت الكتب وحفظت السُنّة . وعلى ما ترى أوامر السلطان بلزوم متابعة الأمام الأعظم كما هو مذهبه الآن يقتضي أنْ لا يُجَوِّزَ العمل بباقي المذاهب ويحرم التديّن بغير ذلك وهذا خلاف ما عليه الملة الأسلامية . نعمْ يلزم ترك الشاذّ النادر والتدبّر بما اختلفت فيه أهل المذاهب ، والحكم بأقوى الأمارتين ، لكن بشرط أن لا يكون مذهباً محدثاً بحيث يلزم منه الخروج عن الأجماع ، فأنَّ مارآه المؤمنون حسناً فهو عند اللّه حسن .

وفي كتاب «المواعظ» أن الظاهر بيبرس[1] سنة خمسة وستين وستمائة لمّا رأى مذاهب

(١) الملك الظاهر بيبرس ولد سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٨م ، وتولّى حكم مصر والشام سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م ، وفي سنة ٦٥٩هـ/ ١٢٦٠م إنتقلت الخلافة إلى الديار المصريّة . تُوفي بدمشق سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م . وأُقيمت حول مرقده المكتبة الظاهرية الشهيرة .

الناس متشعّبة لهنات كانت في أيام السلطان صلاح الدين حمل الناس على المذاهب الأربعة وولّى في مصرٍ أربعة قضاة لكل مذهب قاض وعُملَتْ لأهلها المدارس، و(الخوانك)[1] في الزوايا والربط إلى آخر ما حكى فيه، لا يجب العمل بما طابق أحد المذاهب حتى لو عيَّنَ السلطان لمن يضعه للأفتاء ذلك بَلْ يكفي أن لا تخرج الفتوى عن جملة المذاهب. وأمسك.

والتفتَ المُفتي إلى أصحاب الشيخ وقال لهم: إن جميعكم تقولون بهذا، وتوافقون الشيخ حسن أفندي؟ قالوا: نعم، والمترجم يترجم للوالي وهو يقول: (أيوت)، أي نعم.

فقال المفتي: يا حسن أفندي تشيَّعَ شطراك حيث حصرت المذاهب بالأربعة فالمذهب (الجعفري) محدث؟

فجلس الحسن على ركبتيه واحمرّ وجهه، وخرج بكلّه عن المجلس وقال: إسمع وَع، إنَّ المذاهب كلها مرجعها إلى المذهب (الجعفري) لأنها لا تخرج عن السُنّة وهو أصل جلّهاَ وقد أجمع علماء الأسلام على قبول رواية جعفر بن مُحمَّد (ع) عن آبائه عن النبي (ص) عن جبرئيل عن اللّه تعالى ولم يطعن طاعن في سلسلة روايته، وعبّر الكل عنها بسلسلة الذهب، ولا ذكر أحد عدم جامعية من يروي عنهم لجميع ما اشترط في قبول الرواية كما ذكر أهل الرجال في غيره من الأقاويل، فأنَّ الكتب تنبّهك عن توثيقه، ووفور علمه المتلقّي يداً بيد عن آبائه، وأهل البيت أدرى بما في البيت، والمنتخب من علماء السنة والأمامية إنما يتميز لأنه أخذ منه أو من آبائه وأبنائه فهو أصل لهذه المذاهب، وحكمه حكم النبي (ص) بالنسبة إلى العلماء لا أنَّهُ مذهب في عرض هذه المذاهب فيكون المقلّد مختاراً بين الرجوع إلى روايته، ورواية غيره بَلْ هم كلهم طرق إلى الوصول إليه والى أحد آبائه. نعم إن لم تكن له أو لأحد آبائه رواية في حكم يرجع فيها إلى أحد أعيان الصحابة ويؤخذ بالأوثق الأعرف منهم، بَلْ إذا دار الأمر بين رواية أحد الصحابة وبين رواية علي (ع) عن النبي (ص) في مقام الأختلاف يلزم الأخذ برواية علي (ع) لأنه أقرب إلى النبي (ص) في خلواته كما نصّ عليه ابنُ حَجر.

والعجب منك مع وفور علمك، وجودة فهمك وإحاطتك بالسنن أن تتفوه بأن المذهب الجعفري مذهب في عرض المذاهب ثم تقول أنَّهُ مُحْدَث، ولو ادّعيت الحدوث في غيره لكان أولى فأنّا اجتهدنا كثيراً في الاستدلال على لزوم حصر الرجوع إلى هؤلاء العلماء الأربعة فلم نجد دليلاً وافياً بذلك بحيث لو ردّ عليه سوى الأجماع المُدّعى مع إمكان

---

(1) الخوانك: جمع خانكاه. والزوايا هي التكايا التي تصنع للدراويش، ـ منه ـ، (عن هامش المخطوطة).

المناقشة فيه ، كونهم أقرب طرق الأيصال إلى معرفة حكم اللّه تعالى لا دليل عليها من عقل ولا نقل لأنَّ العلماء لا تتناهى ، فلعلّ في الناس من هو أعلم منهم بخلاف الأقربية التي ندّعيها لأن منشأها الوثوق بالراوي في الرواية بالحكم المتضمنة له فكأنها مسموعة شفاهاً من النبي (ص) فنرجع إلى اللغة والعُرف في المعنى ونجتهد في ذلك وهذا معنى (فتحنا لباب الأجتهاد) . ثم نجتهد أيضاً في توثيق من يروى عنهم بالطرق المألوفة ، ومن هنا حرّمنا (القياس) لعدم احتياجنا إليه مع إمكان أخذ الحُكم من طريقه ومعدنه .

وما كان يمرّ ببالي أو يختلج بخاطري أن مثلك وأشباهك من ذوي المعرفة ترى أن ما تتعبّد به الأمامية مذهباً كسائر المذاهب ، كأنك لا تدري أن المذاهب ترجع إليه . ولا تَقُلْ إنَّ السابقين من ولاة الأمر لأي شيء لم تحمل الناس عليه فأنَّ سببه واضح لأن (الوُلاةَ) حملوا الناس على التديّن بدين النبي (ص) وعلى الرجوع إلى من يروى عنه بطريق موثّق . وحيث كان العلماء الأربعة من أهل المناصب في عهد سلاطين بني العباس فأوجبت شهرتهم بين الناس ، وأن من يروي عن الصادق (ع) وآبائه من المنزوين في زوايا الخمول ولا تعرفهم الولاة ولم يتعرضوا لمنصب فلذا لم يرشدوا الناس إليهم . ولو أنهم عرفوهم وبأن لهم فضلهم لأرشدوا الناس إليهم ، فأنَّ الرواة عن الصادق (ع) وآبائه (ع) فيهم من لا ينقص عن العلماء الأربعة بَلْ يزيد ، وناهيك بذلك كتبهم ومصنّفاتهم في الأصول والفروع والحكمة والكلام . نعم لا ننكر أنَّ الأربعة من أجلاّء علماء الأسلام جدّوا واجتهدوا وأفضلهم على الظاهر الأمام الأعظم[1] لأنه قرأ على جعفر بن مُحمّد (ع) كما ذكروا في ترجمته ، وهذا من ذاك .

ولما بلغ الحسن إلى هنا اتكأ واستراح وكانت تقع (جبّته) في أثناء الكلام عن كتفه فيرجعها الوزير إلى متنه وهو يقول : بارد . ومذ هدأت شقشقته وتُرجمت للوزير وقعت منه موقع القبول وقال بالتركي ما ظهر منه لعلماء السنة الميل إلى الشيخ . ولما كان من أول المجلس قَدْ أمر أن المباحثة تكون بين اثنين وأن كُلّ واحد من الفريقين يعيّن واحداً منهم لذلك ، إن كُلّ واحد من الاثنين المعيّنين لا يجيبه الآخر حتى ينتهي كلامه ويُتَرجَم للوالي ، فلذلك إنتظم المجلس كما ذكرنا .

قال أبو الحسن العلوي وهو ممن حضر ذلك المجلس وهو من أصحاب الشيخ (ره) : أمَا واللّه لقد رأيتُ الحسن بن جعفر يتزايد جرأة وإقداماً كأنَّهُ في مجلس تدريسه ، ورأيتُ الطرف المقابل يتناقص شيئاً فشيئاً :

---

(١) هو أبو حنيفة النعمان بن ثابت ، ولد سنة ٨٠هـ / ٦٩٩م ، وتُوفيَ سنة ١٥٠ / ٧٦٧م .

وَهَلْ تصفحُ الأفعى إذا ما تلاقيا على تِرَةٍ كـفٌ السليمِ ونابهـا

ثم قال المُفتي : يا شيخ أفندي إني الآن أُثبتُ عند القاضي إرتداد هذا الرجل المحبوس الذي جاء بالأسفار ، وآخذهُ بأقراره فيحكم القاضي وأهدر دمه ، ثم أنثني وأُقيمُ البينة العادلة على ارتداد متابعيه فيحكم القاضي بما يدين الله فيه ، وأنتم تنظرون فأنْ وجدتم نقصاً في مقدمات الحُكم ، أو عيباً في الفتوى اذكروه لننظر أنَّهُ عن أصل ثابت ، أو من فضول الكلام .

فقال الشيخ : لا بأس بذلك .

ثم سأله : مَنْ هذا الرجل المحبوس؟

قال : هو رجل يدّعي أن اسمه الداعي إلى (الباب) وأنه من (النُوّاب) .

ثم إلتفتَ إلى باب المقصورة وقال : عليّ بالشهود . فحضر رجلان أحدهما معمّم بعمامة سوداء عظيم الجثة وقد حلق لحيته ، والآخر من أواسط الناس على رأسه عقال .

فقال : كنتُ بالأمس مع هذا الرجل في الحبس فسألته ما سبب حبسك فقال : أنا الداعي إلى (الباب) وأني مؤمن به وبكتابه . ثم تنحّى وسأل الآخر فأجاب بما أجاب به الأول . فعطف الحسن على أصحاب المفتي وقال لهم : أتعرفون الشاهدين وتوثقونهما؟

فسبق المُفتي وقال للشاهدين :إستغفرا ربكما وتوبا ثم اشهدا ثانياً . ففعلا .

فقال الشيخ : أحببتُ أن أعلم أنَّ حبسهما كان ظلماً أو أنهما ارتكبا خلاف المشروع فاستحقّا ذلك ، ولكني الآن أعرضتُ عنهما . نعم ينبغي أن تقام البيّنة عليه بحضوره فعساه أن يتعلق بشئ يزيل الحكم . ولما فهمَ الوزير بالترجمة ذلك أشار بيده .

قال أبو الحسن العلوي : والله لقد كان جلوسي بحذاء باب مفتوح من المقصورة مشرف على الساحة فرأيت الناس قاموا وهي تموج بعضها في بعض واختلط الرجال بالنساء وهجم من كان خارجاً على القصر وهي تترى ، وما شعرنا إلاّ وقد قادوا رجلاً معمماً بسلسلة من حديد وهو مقيّد وأمامه أربعة من الشرطة وخلفه مثلهم وهم يُنَحّوْنَ الناس عنه بأعمدة من حديد حتى صعدوا به إلى المقصورة .وتداكت الإناس عليها حتى وطأ بعضهم بعضاً . وانتهى بالرجل إلى وسط المقصورة ووقفت أهل النّوبة تحجز الناس عن الدخول .

فلما نظر الحسن قال : دعوه حتى يرتد إليه روعه .

قال المهدي : وتأمّلته وإذا هو صاحبنا العجميّ الذي جاء بالأسفار . ولقد لحظتُهُ وهو مدعوّ به إلى القتل فما تغيّر لونه ولا اصفرّ وجهه ولا أخذه الرعب ، ورأيتُ به (سبعيّة) ما وجدتُها في أحد .

فاستأذن الحسنُ المفتي فأذن له ، فقال له : مَنْ أنتَ ، ومن أين أتيت؟

أجاب : إني من (فارس) من توابع عراق العجم ، وأرسلني (الباب) إلى هذا الطرف لأدعوهم إليه .

فقال الشيخ : وما الباب؟

قال : رجل مثلك يدّعي أنَّهُ قطب العالم وأن به قوام الأفلاك ، وأنا مع جماعة صدّقنا مقالته .

قال : وما أرسل معك؟

قال : الأسفار التي انتهبتموها في (الغريّ) .

فالتفتَ الشيخ إلينا وقال : أهذا صاحبكم العجمي؟ قلنا : نعم ، قال : سبحان اللّه خلته بما وقع عليه ولّى هارباً إلى أهله .

ثم عطف الشيخ عليه وقال : أنت مؤمن بالذي أرسلك وبتلك الأسفار ومصدّق بما يدّعيه من خلاف المذهب وما عليه عامة المسلمين؟

فقال بلسان عربي مبين : نعم قَدْ كنت كما ذكرتُ من الأعتقاد به ولكن قبل يومين تفكّرت في أمري وأنا من أهل العلم وراجعت نفسي واستعذت من الشيطان فوجدت أني على ضلالة وأني في الهاوية وانكشف لي بطلان ذلك كله ، فقمت وأسبغت الوضوء وصلّيت صلاة التوبة وندمتُ على ما كان مني وتبتُ إلى اللّه توبة نصوحاً . فهل ترى لي يا شيخ من توبة وأنت إمام الملّة الأسلامية؟

فقال الشيخ : نعم يتوب اللّه عليك ، ويدرأ عنك .

فأسفر المفتي عن ذراعه وقال : مهلاً يا حسن أفندي إن توبة المرتدّ الفطري غير مقبولة عند الأمام الأعظم ، وتجري عليه أحكام الكفر تابَ أو لم يَتُبْ .

فقال الشيخ : العدل يمنع من عدم قبولها للزوم تكليف ما لا يطاق لبقاء التكليف وامتناعه في حق المرتد ، وآية «ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً» لم تخصص

مع أنها مقبولة عنده .

قال المفتي : أنت مشتبه ، هي غير مقبولة عنده .

قال الشيخ : بَلْ أنت لا تدري .

فترادًا ثلاثاً والعجميُّ واقف ، والجلاد منتظر الأمر ، والناس على ما وصفنا ، فرفع الوزير يديه فأمسكوا جميعاً عن الكلام ، ثم أشار إلى المترجم فلخص له المقالة والمنازعة ، فقال : وما يقطع ذلك؟ قالوا : الكتب . فقال بالتركية : (كيترن) أي أحضروها .

فصاح المفتي : تعال ، فأمره أن يأتيه بفتاوى أبي حنيفة ، فأسرع الرسول وجاء بالكتاب .

فقال الحسن : هاته . فظن المفتي أنَّهُ يعجز عن إخراج الفتوى منه ، قال : إدفعه إليه ، فناوله إيّاه .

قال جميع من حضر : فَوَاللّه لقد فتحه ولم يقلب منه ورقة كأن له به علامة ، ونحن ندعو ونبتهل أن لا يخجل الشيخ فيذهب مجلسنا كأمس الدابر ويكون الغَلَبُ له ، ولكن الباري هو المعين .

فقرأ الشيخ : «الخامس : المرتد عن فطرة يقتل ما لم يتب فأنْ تاب درأ عنه الحد كغيره من الكفرة» .

فألقى الحسن الكتاب من يده ، والتفت إلى الوزير وقال : أفندم تُنصِّبونَ للفتوى مَنْ لا يدري بمذهبه فيستبيح نفوس الناس وأموالهم ، إن هذا لظلم عظيم!!

ففهم الوزير ذلك ودَخَلنا من السرور والفرح ما يضيق عن وصفه نطاق اليراع .

ولما انتهى الحال إلى هنا والخلق بتلك الكيفية رفع الوالي رأسه وأشار . فأطلقوا العجميّ ، وعَلَتْ أصوات الشيعة بالصلوات . ثم أشار إلى علماء السنة فنهضوا جميعاً دفعة واحدة لا يبصر أحدهم موضع قدمه مما عراهم من الخجل والدهشة وتسابقوا إلى الباب كُلٌ يريد الخروج قبل صاحبه تزاحم الأبل يوم خِمسها لورود الماء ، وتفرّق الناس وجلسوا في الأزقة والأسواق على طريق الشيخ ليروه .

فلما خلا المكان والحسن وأصحابه جلوس إلتفتَ الوالي إلى الشيخ فقال : ينبغي للعلماء وسائر المسلمين إذا ظفروا بمثل ذلك أن يقطعوا شأفته بكل ما يمكن ويمحوا أثره . والتفت إلى علماء كربلاء وكان السيد إبراهيم ، وأصحابه زهاء العشرة وقال : ما معنى بقاء هذا الرجل

بين أظهركم أكثر من شهرين ولم تعلموا به ولا صنعتم معه صنيع أهل (الغريّ) حتى بلغني أنَّهُ يرتقي الأعواد في صحن (الروضتين)، فما هذا. وأكثرَ عتابهم، فاعتذروا، واعتذر الحسن لهم بما هوّن غضبه. وكان المفتي قَدْ أفتى بقتلهم مع (البابي).

ثم استأذنوا الوالي بالخروج فأذن لهم. فلما نهض الحسن نهض الوالي مُشَيِّعاً له إلى نصف المقصورة وقال: إن شاء الله نجتمع مرة أخرى. ثم ودعه وانحدر الحسن بمن معه، وقدمت له بغلته فركبها ورجع مؤيداً منصوراً وكلما مرّ بملأ من الناس أشاروا إليه بالأصابع:

له من (عليّ) القـدر بُردةَ فخـره وفصل قضاً من (جعفر) ما له ردُّ
تَوَّرثَ من (موسى) عصاهُ فأصبحتْ لنا يدُهُ البيـضـاء مِنْ يدِه تبـدو

وكان زمان مجلسهم يوم الثلاثاء بعد مضيّ ثلاث ساعات منه إلى الساعة العاشرة.

وسُئِلَ الشيخ بعد خروجه: إنك كنت تعلم بفتوى أبي حنيفة؟ فقال: لا واللّه ولكن سبرت أقوال الفقهاء جميعاً في المسألة فذكرتُ قول ابن الجُنَيْد[1] وأنه يقول به، لذلك جزمت به فكان ما رأيتم.

أقول: هذه الواقعة وإن وقفتُ على أغلبها ممن حضر خصوصاً ابن العم المهدي (ره) غير أن انتظامها لم يتهيأ لأنها مشوّشة حتى لثمت أعتاب أبي الأئمة (ع) في سنة الثلاثمائة[2] وزرتُ بعض الطلبة يوماً فوافيتُ جماعة هناك فتذاكرنا أحوال العلماء حتى انتهينا إلى ذكر الوالد (ره) فذكرنا هذه الواقعة بحسب المسموع. فقال رجل من أهل المجلس ممن ينتسب إلى الميرزا حسن كُوهر: إنها مرسومة عندنا بالفارسية تماماً. فسألته أن يأتيني بها تلك الساعة فجاء بها فوجدنا كما ذكر، لكن فيها رؤوس المطالب مع التطويل فأخذت منها ما لم أسمعه وشفّعته بما سمعته وأديته بهذا الأسلوب.

ومما ذكر مؤلفها العجمي فيها أنَّهُ بعد دخولهم على الوزير وجلوسهم زماناً يسيراً دخل المجلس رجل على زيّنا وجلس بصفّنا، ولم نعرفْهُ فحسبناه من أصحاب الشيخ، وهم حسبوه منّا. فلما خرجنا واجتمعت أصحابنا لم أره، فتفقدته فلم أعرف له خبراً.

وغبّ ما رجع الحسن إلى دار (الصالح) وبات ليلته، وأصبح طلب الأذن من الوزير على

---

(١) ابن الجُنَيْد: مُحمّد بن أحمد بن الجُنَيْد الأسكافي تُوفي سنة ٣٨١هـ/ ٩٩١م. هو استاذ الشيخ المفيد، وقد إتُّهم مِنْ قِبل فقهاء الأمامية المُعاصرين له بأنَّهُ تأثّر بالمناهج السُّنيّة في استنباط الأحكام الشرعيّة وقد فقدَ إعتبارَهُ على يد فقهاء بغداد في القرن الرابع الهجري.
(٢) يعني سنة (١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م).

الرجوع لأهله فأبى وقال : بعد غد حتى نجتمع ثانية . ثم زار الحسن بن جعفر في ذلك اليوم والليلة جميع الأشراف والأعيان من السُنّة والأمامية وانكفأت الناس عليه . ونهض صبح الخميس ومضى لزيارة النوّاب الأربعة ، والشيعة محدقة به . وبعد أنْ قضى وطره منها مضى إلى الوزير في داره فدخل عليه مع المُبرَّزين من أصحابه وتخلّفَ الباقون وكنت أنا معهم ولي من العمر تسع سنين ، فاستدعاني الوزير إليه وقبّلني ووضعني في حجره ثم أخرج لي (قاباً) كأنّهُ كتاب صغير فدفعه إليّ ففرحت به ووضعته في جيبي .

ثم سأله الشيخ مسترحماً بالعفو عن جماعة كثيرة غَضِب عليهم خارج الزوراء وداخلها ، فأنعم ، وصار خلاص جملة من الشيعة بذلك عمّا هم فيه من الحبس والتشريد . ثم استأذنه بالمسير إلى (الغريّ) فأذن له ، وقام الحسن ونهض الوزير فشيّعه إلى باب الدار ، وودّعه ومضى إلى مكانه .

ولما استقر قالت لي الجماعة إنَّ كتابك نعمَ الكتاب فناولْهُ لنا فأخذوه مني وإذا فيه ساعة ذهب مثمنة فأخذوها ودفعوا لي (القاب) خالياً وقد وضعوا فيه بعض الدراهم ، وبعدما عرفت ذلك من (لالتي) بكيت فلم ينفع ، وذهبت مني (الساعة) إلى الساعة .

ولما أصبحَ ، قَصدَ باب الحوائج ومنتهى الأرب :

موسى بن جعفر والجواد ... ومَنْ هُما سرُّ الوجودِ
هـذا أمانُ الخائفينَ ... وذاك أمنٌ للوفودِ

فاستقبلهُ العلماء وهنّوه بالنصر والظفر ، وأثر ما عفّر جبينه بتلك الأعتاب طاف بكعبته ، واكتحل بأثمد تربته ، وأطلق لسان الحمد والشكر في حضرته ، سار صبيحة اليوم الثاني إلى (الغريّ) ، قاصداً ذلك المقام الحيدري :

مقام (عليّ) كرَّمَ اللّهُ وجهَهُ ... مقام (عليّ) ردّ طرف السُها حسرى

حتى إذا بلغه بصحة وسلامة خرج إليه مَنْ فيه صغيراً وكبيراً ينادون :

بمقدمكَ الميمون قَدْ قدمَ السَعدُ ... لأهل الحِمى فالشكرُ للّه والحَمدُ

ومذ لاح لهم مشكاة الكوكب الدري ، وذبالة الصحن الحيدري ، سجدوا للّه تعظيماً ، وهجموا على لثم أعتابه تكريماً ، ورجعوا إلى أهلهم مأجورين في إعانة الدين ، فأدرجوا في اللوح المحفوظ ، الذي ضمَّ أسماء الشهداء المجاهدين :

ذي المعالي فليعلونْ مَنْ تعالى ... هكذا وإلاّ فلا لا

هذا ما انتهى إلينا من هذه الكرامة ، وتركنا بعضها خوف الأسهاب .

يقول مؤلف الكتاب : إنتهى ما ذكره العم أيده اللّه في هذا المقام ، وأنا قَدْ سمعت أشياء منه ، ومن سميّه العلم العباس نجل العليّ بن جعفر مما لم يذكرها في الرسالة . ونحن نذكر لك بعضها تتميماً للقصة وأخذاً بكل أطرافها حتى لا تحتاج بعدها إلى شيء إن شاء اللّه .

فمنها : أن المفتي لمّا جلس في مقصورة الوالي هو وأصحابه قبل أن يجيئ الشيخ قال للوزير ما مضمونه إنَّ الدين اليوم سيستقر ويتفق على كلمة واحدة وهي كلمة السنّة والجماعة ومن أبى ذلك قتلناه ، ولو كان رئيسهم . فقال الوالي : إن أفحمتهم كان لك عليّ ذلك . فقال له : سترى بعينك .

وكان المفتي شديد التعصب على الشيعة مُصِراً على محوهم من الأرض وإتلافهم . ولعلّه بلغتْكَ (رسالته)[1] التي حلّل فيها دماءهم وأموالهم ، وقد ردّ عليها عمنا العباس ابن الحسن (أيّده اللّه) رداً شافياً كافياً ، وغيره من علماء الشيعة (كثَّرَ اللّه أمثالهم) . والحاصل أن تعصبه على هذه الفرقة غير خفي .

ومن ذلك : حكمه في تلك الواقعة المتقدمة بقتل جماعة من علماء الشيعة زعماً منه أنهم صدّقوا صاحب الأسفار وآمنوا به فهم كفرة مُرْتَدّون ، على أنهم عنده قبل ذلك كافرون . فَمِمَّنْ حكم بقتله قبل المباحثة السيد السند والركن المعتمد السيد إبراهيم القزويني صاحب المصنّفات المشهورة ، والعلم الأجلّ الميرزا محيط المبجّل ، والميرزا حسن كوهري (وهو من أركان الفرقة المعروفة بالكشفية ، وقد تقلّد أمورهم بعد عميدهم السيد كاظم وانتهت إليه الرئاسة فيهم بعده) ، إلى غير ذلك من الأساطين حتى بلغني أنَّهُ أفتى بقتل سبعين رجلاً من شيعة كربلاء فانهزم أغلبهم ومضى الباقون تحت الحفظ مستسلمين إلى بغداد وحتى أنجاهم اللّه على يدي الشيخ . ولولا تأييد اللّه للشيخ في ذلك اليوم لم يبق للشيعة لا أثر ولا عين .

ولما عرف ذلك شيعة بغداد اضطربوا اضطراباً شديداً وظنوا أنَّهُ واقع بهم حتى تواتر أن رؤساءهم كالحاج مُحمَّد صالح كبّة المتقدم ، والميرزا هادي الجواهري ، وجماعة من أقرانهما جعلوا في ذلك اليوم يدورون في الأسواق والأزقّة وهم حفاة الأقدام مكشّفو الرؤوس وبيد كُلّ واحد منهم كيس كبير فيه مال غزير وهو يقول للفقراء والسادات : تضرّعوا إلى اللّه

(١) ألَّفَ الآلوسي «الرسالة اللاهوتية في ردّ أمهات مسائل الأمامية» ، و«النفحات القُدسية في الردّ على الأماميّة» ، وغيرهما .

تعالى وتوسّلوا بجدّكم إليه في أن ينصر الشيخ ولا يفضحنا عند القوم ، فأنّا قَدْ نذرنا لكم هذه الأموال إنْ كان الغُلبُ له . فكان الناس جميعاً أطفالاً ورجالاً ونساءً سادات وموالي يضجّون إلى اللّه تعالى ، ويبتهلون إليه في ذلك حتى هتف بهم بشير النصر بانقضاء الأمر ففرقت الأموال ، في تلك الحال ، وزال العناء والترح ، وكثر الابتهاج والفرح ، وكان يوماً مشهوداً .

ومنها : أن الشيخ لمّا دخل إلى المقصورة وجلس على النهج الذي مرّ سأل أصحاب المفتي عن المفتي وكان لا يعرفه ، فابتدر المفتي وأنشد بيت المتنبي المشهور وهو :

وإذا خفيتُ على الغبيّ فعاذرٌ   أنْ لا تـراني مُقْلَـةٌ عمـيـاءُ

فسكت الشيخ إلى أن جرى ما جرى من المباحثة ، وأُفحِمَ المفتي ، تناول الشيخ الورقة التي فيها الحكم بوجوب قتل (البابي) ، وأصحابه وجعل يمزقها بيده بعد أن تلا : «بسم اللّه الرحمن الرحيم ، وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباءً منثوراً» ثم ذرّاها في الريح ، والمفتي ينظر إليه .

ومنها : أن الشيخ لمّا خرج إلى (الصراي) ، ولبس عمامته على تلك الهيئة الخاصة من إيصالها بالحزام لاموه أصحابه ، فاعتذر إليهم بما مرّ إلى أنْ دخلوا إلى (الصراي) فكان في الباب (بسمار) قَدْ خرج طرفه الأسفل في سقفها ، فلما مرَّ تعلّق بعمامته فمدّ يده وانتزعه منها وسار على حالته ولم تبق عمامته معلقة بالبسمار لاتصالها بالحزام ، فلما تعدّى عن ذلك المحل سمع الضحك خلفه ، فالتفت وإذا بعمامة معلّقة بذلك (البسمار) ، والناس تضحك على صاحبها لأنه مرّ عنها مكشوف الرأس غير ملتفت ، وكان هو من أصحاب الشيخ فرجع وانتزعها وأرجعها على رأسه وتنحّى الباقون عن ذلك الموضع وتعجّبوا من فعل الشيخ ، وعلموا أنّهُ مؤيد بتأييدات إلهية وتسديدات رحمانية .

ومنها : أن الشيخ بعد أن زار الوالي في داره وخرج عكف به أصحابه على دار المفتي فزاروه هناك ، وكان قَدْ زارهم قبل ذلك اليوم . فمكث الشيخ هنالك طويلاً وجرت بينهم مسائل علمية كثيرة إلى أن قال المفتي : يا شيخ حسن أفندي هَلْ تجد في القرآن نصّاً على إمامة علي (ع)؟

فقال : نعم .

قال : فأين هو؟

قال : قال اللّه تعالى : «قل تعالوا ندعُ أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسَنا

وأنفسكم» الخ .

فهزَّ المُفتي يده وقال : وأيُّ دلالةٍ بها؟

فقال الشيخ : ألم يُطْلِقِ اللّه تعالى ونبيه (ص) على نفس علي (ع) أنها نفس الرسول (ص)؟

قال : نعم .

قال : وقد قال تعالى : «وما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يتخلّفوا عن رسول اللّه ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه» وقد رغب أهل المدينة بأنفسهم عن نفسه وهو علي (ع) . ولو لم يكن هو المراد لَما عبّر بهذا التعبير ، ولقال بأنفسهم عنه ، وخصوص المورد لا يخصّصه .

فكان من الأجوبة المُسْكِتَة ، والتنبيهات الحَسَنة المبتكرة . فيا رحمه اللّه وطيّب مضجعه ومثواه .

قال العمُّ (أدام اللّه فيوضاته علينا) : وأما ما كان من المفتي فقد نكبه الوزير وأعرض عنه ، وبقي بعد ذلك مقدار ثلاثة أشهر وعزله عن الأفتاء[1] . وبقي معزولاً حتى مات . ومضى إلى (دار السعادة) لأنْ يرجع فما أمكن كما ذكر في (رحلته) . وكأنَّ تلك القصة كانت وبالاً عليه .

وأما العجمي فما وقفتُ له على أثر ، ولم أعرف ما صنع اللّه به .

واتفق أن عُزِل المُفتي في السنة التي قتلَ الوزير المذكور فيها (صفوق) وهو شيخ شمر وآل ضفير طائفة معروفة قتله غيلة . ولكيفية قتله حكاية غريبة ليس هنا محلّها . وقد هنّأه عبد

---

(١) جرتْ المُناقشة في محضر الوالي نجيب پاشا أواخر شهر محرّم الحرام سنة ١٢٦١هـ / ١٨٤٥م . وقد عُزل المُفتي السيد أبو الثناء الآلوسي عن منصب (الأفتاء) في شهر رمضان سنة ١٢٦٣هـ / ١٨٤٧م ، وليس لعزله علاقة بموضوع المناقشة التي دارت بينه وبين زعيم الشيعة الشيخ حسن كاشف الغطاء . وما ذُكِرَ في (المتن) أنه عُزِلَ بعد ثلاثة أشهر لم يكن صحيحاً من خلال سلسلة تتابع الأحداث ، وإنّما كان عزْلُهُ بعدما يقارب الـ (٣٢) شهراً من ذلك الاجتماع الديني السياسي في محضر والي بغداد .

وقد سافر الآلوسي الى القسطنطينية في شهر جمادى الثانية عام ١٢٦٧هـ / ١٨٥١م آملاً أنْ يعود الى منصبه في (الأفتاء) لكنّ شيئاً من ذلك لم يحدث . وقد رجع الى بغداد سنة ١٢٦٨هـ / ١٨٥٢م ، وتُوفي بعدها عام ١٢٧٠هـ / ١٨٥٤م . وقد عاصر فترة حكم ولاية عبد الكريم نادر پاشا (١٢٦٥هـ / ١٨٤٨م حتى شهر صفر سنة ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م) ، وولاية مُحمَّد وجيه پاشا (شهر صفر الى شهر ربيع الأول سنة ١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م) ، وولاية مُحمَّد نامق پاشا (١٢٦٧هـ / ١٨٥٠م حتى سنة ١٢٦٨هـ / ١٨٥٢م) ، ولم يقرِّبْهُ أحدٌ منهم الى أيِّ منصب دينيّ .

الباقي أفندي العمري بقصيدة منها :

قَدْ أرحتَ الدُنيا بقتلِ (صفوقٍ) وبعزلِ (المُفتي) أرحتَ الدينا

فعاتبه المفتي المذكور على ذلك ، فقال : وأيُّ إساءة صدرت منّي؟ فقرأ البيت . فأجابه : إنَّ «أرحتَ» الثانية بالزاء المُنقّطة لا بالراء المهملة ، والقارئ غَلطَ فما أصنع ، فأعجب الحاضرين ذلك .

وللشيخ مع الجماعة مجلس آخر وأظنه في (الحلّة) ، وحاصله : أنهم تمسّكوا في خلافة الصديق وعدالته بأمر النبي (ص) له بالصلاة عند مرضه والصلاة عمود الدين ولا يُسْتَناب بها غير العادل خصوصاً عند الأمامية .

فأجاب : بأنه صلى اللّه عليه وآله قَدْ ثبتَ (الهُجر)[1] عليه في مرضه ، فلا يمكن التمسّك بأفعاله في ذلك الوقت ، وهو عندكم غير ممتنع .

ثم قال (أيّده اللّه تعالى) بعد كلام طويل : وذكر لي من يوثق به أنَّهُ ورد إلى النجف الأشرف سنة ستين[2] مفتي مصر القاهرة بجلالة عظيمة ، ومعه بعض طلبته وهو يدّعي دعاوى كثيرة . فسأل عن علماء النجف وقال أريد أن ألقاهم فأُفحِمُهم في بعض المسائل ، فأُرشِدَ إلى الشيخ ، وذكر له ما يدّعي . (فهزّ الشيخ يده) . فزار الشيخَ المفتي عصراً في محل تدريسه (وهي الدار المعدّة لذلك من عهد أبيه وإخوته) ، ومع المفتي جماعة وعند الشيخ جماعة من تلامذته . فلما استقر به الجلوس وأنس بمفاكهة الشيخ ، وجرت بينهما أسئلة في العقائد حتى انتهى الأمر إلى ذكر الصحابة وشيعتهم ، وعلي (ع) وشيعته ، فقال الحسن : علي (ع) وشيعته هم الناجون وغيرهم مُرَجّونَ لأمر اللّه .

فقال المفتي : تلك قِسمةٌ ضِيزى .

فقال الشيخ : ما تقول في إبن الأثير أهو محدّث صادق؟

قال : نعم .

قال : فإنه أرسل ، وقال : وفي حديث علي (ع) قال له النبي (ص) : «ستقدم أنت وشيعتك على اللّه راضين مرضيين ويقدم عليه أعداؤك غضاباً مقمحين» إنتهى . ولا ريب

---

(١) وردَ في هامش المخطوطة ما يلي : إشارة إلى قول الثاني «انَّ نبيّكم ليهجر» . ويُقصدُ بالثاني الخليفة الراشد عمر بن الخطّاب (رض) .

(٢) ١٢٦٠هـ / ١٨٤٤م .

أن شيعة عليّ صار علماً لأناس مخصوصين كما نصّ عليه غير واحد من علمائكم .

فقال المفتي : لم أرَ هذا الحديث .

فاستدعى الشيخ بالنهاية وأخرجها له . فسكت وقام يجرّ رجليه وخرج ولم يعتنِ الشيخ به . (إنتهى) .

أقول : ومن أجوبته اللطيفة المستحسنة المنسوبة إليه ما وقع له مع نظام الدولة[1] وكان من الفضلاء المبرّزين في أغلب العلوم ، وذلك أنهما مرّا معاً في طريق (وكانت أيام زيارة) ، والأعراب تتغوّط في الطرق والأزقّة ، وكان ذلك الطريق الذي مرّا به من جانبيه فيه غائط من أوله إلى آخره على نهج مستقيم . فقال نظام الدولة للشيخ مداعباً بالفارسية : «آقا شيخ ببين عربا ريدن . فقال الشيخ : لكن بنظام ريدن»[2]!

وكان الشيخ حسن (قده) حسن الأخلاق لطيف الشمائل ، جميل المُحيّا ، صبيح الوجه متشعشع الجبين كأنَّهُ شعلة نور وكان من خفّة روحه ورقّة طبعه يُنْسَبُ إلى (البَلَه) . ولهم حكايات في ذلك وأنا لا أتجاسر على نقل شيء منها . نعم الأولى والأنسب نقل ما ذكره خلفه الزاكي في «نبذته» المتقدمة حيث قال في باب مداعباته : وخطب إمرأة فامتنع أهلها فقال يوماً للساعي : ما صنعت؟ قال : سيأتيك الفَرَج ، فقال له : ويحك سكّن الوسط! وليس في هذا دلالة على نسبة البله وهي على ما ذكرنا من خفة الطبع أدلّ .

قال العمُّ : وكان تأتمُّ به بعض النساء في المسجد ودخل يوماً فسأل عن الوقت فقالت له واحدة منهنَّ : إن ذلك الثقب الذي في الجدار إذا بلغت الشمس إليه دخل الوقت . ودخل الشيخ من غد فجعل ينادي أين صاحبة (الثُقب) ، هَلْ دخلت الشمس في ثقبها أم لا؟!!

---

(١) نظام الدولة هو الميرزا علي مُحمَّد خان ولد سنة ١٢٢٢هـ / ١٨٠٧م ، وتُوفي سنة ١٢٧٦هـ / ١٨٦٠م ، كان من كبار العلماء ، وترجع شهرة الأسرة اليه حيث لُقِّبتْ باسمه . وهو ابن عبد الله خان المُلقّب بأمين الدولة المُتوفى سنة ١٢٦٣هـ / ١٨٤٧م . وجدُّه الحاج مُحمَّد حسين خان المُتوفى سنة ١٢٣٩هـ / ١٨٢٤م وكان الصدر الأعظم في سلطنة الشاه فتح علي القاجاري وزوج إبنته (شمس الدولة) ، وإليه يرجع الفضل في بناء سور النجف أوائل القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي .

ولنظام الدولة أولاد لهم ثقلهم الأجتماعي والديني مثل أسد خان المُتوفى سنة ١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م المُلقّب بنظام العلماء ، وعلي أغا المُتوفى سنة ١٣٣٠هـ / ١٩١٢م ، وإبنتهُ الحاجّة بيبي خانم هي زوجة علي شاه ابن الأغا خان (زعيم الأسماعيلية) ، وابنُها زعيم الأسماعيلية .

(٢) وتعريب هذه (الطُرفة) : أنَّ نظام الدولة لمّا رأى ما فعله الأعراب من (التغوّط) المُنظّم على حافتي الطريق (بسبب عدم وجود المرافق الصحية في ذلك الوقت) أرادَ مداعبة الشيخ بقوله : إنَّ العرب لا يُحسِنونَ إلاّ فنَّ (التغوّط)!!

فأجابَهُ الشيخ : لكنْ (تغوطهم) كانَ على (نظام)!!

وصدرت يوماً من بعض النساء بادرة ريح فأمرهنَّ جميعاً بالخروج من المسجد ، والوضوء وقال هذا طريق الجمع .

وسلَّم عليه (بعض جيرانه من الملالي) رجلٌ وقبَّلَ يده فسأله الشيخ عن اسمه واسم أبيه ، فذكرهما له . وسلّم عليه من غد فسأله كذلك ، وكذا فعل ثالثاً ، ورابعاً وهو يجيبه في كُلِّ مرة ، وكان ذلك لضعف في عينه . فلم يزل يسأل الجار حتى سأم الجار من سؤاله ، فقال له يوماً بعدما سأله عن اسمه : أنا شيخ ثعلب ، قال : ابن مَنْ؟ ، قال : إبن شيخ بومة ، ومضى . فلما كان من غد سلم على الشيخ فقال الشيخ له : أهلاً بشيخ ثعلب ابن الشيخ بومة ، فقال الجار : ويلٌ لمَنْ يقلّدُكَ ، ويزعم أنك من أهل اللّه تعالى ، قال : وَلِمَ ذلك ؟ قال : أخبرتُك عن اسمي ، واسم أبي مراراً عديدة فكيف حفظت هذا الأسم من أمس إلى اليوم؟ فقال له : ويلك لأنَّهُ مستغرب ولو سمّيت بالمألوف لنسيته .

قال العم (أدام اللّه أيامه) ، وله من اللطائف والمداعبات شيءٌ كثير من هذا القبيل ، وقد ضربتُ عنها صَفْحاً لأني وجدت في بعض التراجم لبعض العلماء مثلها ، فلم ألفَ لها كرامة ، وعسى إذا وقف أعداؤنا على مثلها نسبوا صاحبها إلى البله كما نسب ذلك للوالد (قده) وهو قليل في حق نوّاب الحجة (ع) . ولذلك النواصب كلما بحثوا وفتشوا الآن ليذكروا نقصاً في حجة اللّه أمير المؤمنين (ع) فلم يتيسر لهم ذلك فقالوا فيه دعابة ، فهي إذن مما لا تتعلق بسادات الناس .

في وفاته

قال العمّ (سلّمه اللّه تعالى) وما دخلت السنة الثانية والستين بعد الألف والمائتين وتصرَّمتْ منها تسعة أشهر ظهر الوباء في نواحي العراق حتى حلَّ بالغريِّ في العشر الأواخر من شهر رمضان المبارك ، فثَقُل أمره وفشا خبره . وقيلَ فيه خطاباً للأمير (ع) :

شيعٌ لك اتخذتْ حماكَ حمىً لها كيفَ اصطلتْ لهبَ الوباء الواري؟!

فنفر أكثر مَنْ في الغريّ إلى خارج البلد لكنهم لم يجوزوا الحمى ، ولا تجاوزوا محل الترخّص بَلْ أقفلوا منه إليه :

هَلْ يعلمُ البين أنّي بعد فرقتـهِ ما سرتُ من حرمٍ إلاّ إلى حرمِ

ولم يبق في البلد أحد من العلماء وضربوا خيامهم على البحيرة المحيطة بالنجف مما يلي

الجنوب ، وينتهي بالمغرب حتى أن ماءها يتصل بسفح طور سيناء المرقد الحيدري ، وكان عليها بعض الحدائق غير المتصلة . ومن جملتها حديقة السيد العلوي السيد صقر جريو ، وكان محلها قريباً من مرسى السفن الواردة من الشرق . فجاء السيد المذكور إلى الوالد (ره) وذكر له حسن تلك الروضة ، ولطف أرض بيضاء غير مشكلة متصلة بها ، وأنها ليس فيها شئ من الهوام ، وفي الأرض قِطَعٌ متجاورات ، وسأله أن يخرج إليها حتى يرتفع الوباء . وألحّ عليه غاية الألحاح وإجتمعتْ عليه أسرته ولُحْمَتُهُ وأصرّوا عليه بالانتقال وزيّنوا له ذلك وهو يماطلهم .

وكان من سجاياه الاستخارة في أكثر أموره ، فكرر الأستخارة على ذلك مثنى فخرجت (نهياً) ، فلم يقنع أصحابه وعشيرته بذلك من حبّهم له وخوفهم عليه . فأحاطوا به أخرى وذكروا له أن المرجوح لا تقع (الخِيرة) عليه ، ثم نرفع (نهيَها) بالألتماس المسنون إجابته ؛ فلم يجد بُدّاً من إجابتهم ، وعزم على الانتقال إلى المحل المزبور يوم الخميس ثاني عشر شوال . فخرج بعياله وأطفاله وحشمه وخدمه وأسرته ولحمته

ساروا وجدّوا بالمسير ضُحىً والموتُ خلفهمُ يسري على الأثرِ[١]

حتى بلغ النادي المذكور فعرّس بفِنائه ، وضرب فيه قبابه وأخبيته ونصب فساطيطه ، وبنى فيه بيوتاً من القصب لمن يعول به من أهله . وأحاطت به قبيلته وأسرته ، وحلا لهم النادي بوجوده :

فكأنَّ الغُصونَ تدعوهُ ميساً وتناديه فوقها (الورقاءُ)
وبنى للوفود بيتاً رفيعاً تحسدُ الأرضَ مُذْ بناهُ السماءُ

وكان فيه الرائح والغادي ، والحاضر والبادي . ويؤدي الخمس والسنن به ويزورُهُ النافرون من البلد على طبقاتهم حتى يؤدوا المكتوبة خلفه جماعة ، ثم ينكفئوا إلى مضاربهم غانمين . فأذا أمسى المساء وفرغوا من العشاء جلس عنده الأدنون من أهله يقرأون له الأنباء التي تزيّن بها المحافل من آثار الأئمة الهداة إلى أن يميل سيّار الكواكب ويقطع البدر الثلث من مسراه نهض إلى محل استراحته ، وقام القوم إلى مراكزهم ، فأغمضت عيناه حتى انتفض كأنّهُ نشط من عقال[٢] ، واشتغل بنافلة الليل والدعاء المأثور إلى أن ينزع الليل جلبابه ، ويلبس

---

(١) هكذا وردَ هذا البيت في الأصل . ويُلاحظُ الأختلاف بين الشطرين في الوزن .
(٢) يقال نشطتُ العقدة إذا عقدتُها ، وأنشطتُها إذا حللتُها . وورد في الحديث «كأنّما أنشط مِنْ عقال» ، وروي (نشط) وهو غير صحيح .

النهار أثوابه ، ويضرب الفجر نسيم عنبريّ إشراقه بخياشيمه ، فيبادر لصلاة الصبح ويوقظ الوسنان بالأذان ، فيسرعوا لثواب الجماعة . فأذا سلَّم عقّب بالوارد حتى تبزغ الشمس فيُغني الوقت إلى الدلوك بنشر العلوم وقضاء حوائج الناس .

وكان هذا دأبه في تلك البقعة وتلك حالاته ، إلى أن مضى له فيها أربعة عشر يوماً من انتقاله ، وأصبح صبيحة الأثنين فشكا من ضعف اعتراه حتى تصرّم يومه ولم يغيّر ما كان عليه من عبادته . فلما كان من الغد ابتلى بعلّة المؤمنين والأولياء وأحس بالمغص في بطنه لكنه لم يحتفل به ومشى بدائه . حتى إذا صلى الظهر وانفتل من صلاته ، وقبل ما ينهض لنافلة العصر أخذه المغص ، فقام للنجو ، وعراهُ الأطلاق ، فلما فرغ أحس ببلل في ثيابه وعلى فخذيه فأسرع إلى حوض الحديقة وطهَّر ثوبه وجسده ورجع إلى مصلاه وألمّ به الضعف فأدى النافلة ، ثم صلى العصر خفيفاً .

ومذ فرغ زادت به العلّة ونحف جسمه ومضى (للخلاء) ثلاثاً أو أكثر . فعندها عجز عن القيام فبُسطت له الفرش والحشايا ووضعوا عليه مطارفه ، ونقلوه إلى مصلاه واتخذوا له مُتّكأً ، وحُجبت العوّاد عنه إلى آخر النهار إلاّ الأقربون . وأدى العتمة وهو مستلق ، غير أنّهُ لم يُغْلَب على عقله ولم ينقطع الذكر من لسانه مسلّماً أمره إلى اللّه تعالى يلهج بكلمات الفرج والتوحيد ويتلو سورة (ياسين) ، وغيرها مما سُنّ للمحتضر . حتى مضى من الليل شطره فأدركته صحوة الموت فذكر النبي (ص) والأئمة واحداً واحداً ويستغيث بالحجة (ع) وتولّى وتبرّأ ، ثم دعا بي وضمني إلى صدره وخلّفني عند ربه ، ودعا لي بالخير ، وكنت أقرأ (القطر) في النحو يومئذ .

ثم استلقى وقد أحس بالأمر ، فأمر أن يوضع فراشه على (القِبْلَة) ، ووجهه إلى علي (ع) . ثم استدعى ابن أخيه المهدي وأوصاه بوصاياه ، ودفع إليه مفاتيح غرفه ومقاصيره وعرّفه الصندوق الذي فيه كفنه وصحيفته وحَبْرَتُهُ وحُنُوْطُهُ . ثم اشتغل بالذكر وقال : إقرأوا دعاء (العديلة) .

ومكث هنيئة وقد انقضى من الليل أكثره ، وثارت في ذلك الوقت ريح عاصفة سوداء فيها صرّ ، فكان الشخص لا يبصر فيها موضع قدمه . فثقل لسانه وبلغت روحه التراقي ، فمدّ رجليه وغمّض عينيه وقضى نحبه ولقي ربه هادياً مهدياً من كُلّ درن .

فنشج مَنْ في البيت نشيجاً خفيفاً إلاّ بعض خدمه فأنّهم صرخوا واتصلت الصيحة بالنساء فصرخن ، فاتصل الصياح بالصياح إلى الصباح . حتى سُمِعت الضجة من النجف كأنّما هتف بهم هاتف ، ففُتِّحَت أبواب (الحصن) ، وجاءت الناس كعُرف الفرس من

النجف ، وما أحاط به ممن خرج ، يطأ بعضهم بعضاً ، وبأيديهم الأعلام السود ، وهم ينادون بالويل والثبور .

وجاء الجواد ابن أخيه عيسى بما أودعه في الصندوق مما يحتاج إليه الميت فرضاً وسنّة قبل عشرين سنة ، وضُرِبت له قبة على تلك البحيرة ، وغسّل فيها ، وأدرج في أكفانه عند ارتفاع النهار يوم (الأربعاء) :

إنَّـمـا الأربـعـاءُ أثـبـتُ حُـزْنـاً   لا استمرتْ في دهرنا (الأربعاءُ)

وقُدِّمَ له التخت الذي عليه بردة ضريح أسد اللّه الغالب (ع) ، فوُضِعَ فيه وحُمِلَ على الأعناق ، وقد إمتلأت تلك البسيطة إلى النجف بالرجال والنساء صغاراً وكباراً مما لا يُحصي عددهم إلاّ اللّه تعالى . وأحدقوا (بالتخت) من جوانبه حتى كانت الأيدي من المزاحمة لا تصل إليه :

تحركتْ فيهِ محمولاً فقيلَ لها   زاحمتِ تحتَ لوائه جبريلا(1)

وما دخلوا النجف إلاّ وقد بلغ (الفيء) أربعة أقدام فوضعوه في الصحن الشريف للصلاة عليه . فصلى عليه ابن (أخيه العليّ) مُحمَّد بتقديم العلماء له ، ثم هجموا به على الأمير (ع) ليجددوا به عهداً ، ثم تحركوا به إلى تربته في المدرسة إلى جنب أبيه وإخوته . ثم أدلوه في مرقده ، وأهالوا التراب عليه ، وأشرجوا اللبن ، ونفضوا أناملهم من ثراه ، وهم ينشدون :

مَنْ للصلاة وللصِلات وقد قضى   أوفـى الـعـبـاد عبادةً ونـوالا

وحمل عياله وعيال لحمته في المحامل وعليها الستور وهم ينوحون ويبكون . وأركبوني على فرس ، فذكّر الناس دخول حرم النبي (ص) الكوفة والشام فاشتد حزنهم وعلا صريخهم وصوّر لهم دخولهنّ سوافر :

وتلك الرفـيـعـات الجـلال عـواثرُ   بأذيالهـا لكنمـا الدهر عـاثرُ
يلوحُ على ظهـر البـراقع نورُها   فـيـحـسـبُ راءٍ أنهنّ سـوافـرُ

وأقيمت الفواتح والمآتم في النجف وخارجه من أصقاع الأمامية ، حتى بلغني أن مجالس العزاء في خصوص الحلة ارتفعت إلى عشرين يوماً .

وجلس بمقامه ابن أخيه المحمود مُحمَّد ، واشتغل بالتدريس واجتمع عليه عدة من

(1) هكذا ورد في الأصل ، واختلاف (الوزن) ظاهرٌ بين الشطرين .

أصحاب عمّه حتى انتشر أمره وعلا صيته . فأسأل اللّه أن لا يخلي دار الشيخ الأكبر من عامل عليها بخير أو دليل إلى سبيل نجاة .

وكان ذلك في يوم الأربعاء لثمان وعشرين من شوّال سنة ١٢٦٢ . ودخل يوم الخميس نجل محيي الدين الشيخ عبد الحسين ؛ الأديب الذي بلغ النهاية وتجاوز الغاية ، فأنشد في مجلس العزاء بعدما أُحْصِرَ لعظم مصابه :

ليتَ شعري لِمَنْ يَحقُّ العزاءُ　　　شَـرَعٌ كـلُّـنـا بـذاكَ سـواءُ

إلى آخر الندبة . وستأتي بقية الشعر بالمراثي المسطورة في دواوينهم جزاهم اللّه عنّا خيراً . «ومَنْ يُعظِّمُ شعائرَ اللّه فأنّها من تقوى القلوب» .

لا تنوحي إلاّ عليه جزوعاً　　　ما على كُلِّ مَنْ يموتُ يُناحُ

هذا ما وسعني رسمُهُ من أحوال الوالد البرّ مع تشتيت البال وضيق المجال :

تنكّر لي دهري ولَمْ يَدرِ أنني　　　أعـزُّ وأحـداث الزمـان تـهـونُ

فقامَ يُريني الخَطبَ كيف اعتداؤهُ　　　وبـتُّ أُريهِ الصبرَ كيفَ يكونُ؟!

والحمد للّه أولاً وآخراً .

هذا ما أردنا ذكره من (النبذة) التي جمعها العم في أحوال أبيه[1] .

ولعمري لقد أبدع بما جاء ، وحيّر الألباب والآراء ، بتعبيره الرائق ، وأسلوبه الحسن الفائق . وتاللّه أنه لقد كفى وشفى ما في النفوس ، ولم يدع لذي أرباب القول جداً ولا هزلاً . فجزاه اللّه عن أبيه وأهليه وعنّا وعن سائر العلماء خير الجزاء ، على هذه اليد البيضاء ، التي ليس لحسنها إحصاء ، وأبقاه اللّه ناشراً أثواب العلوم ، منطوقاً ومفهوم .

وقال السيد في (يتيمته) : ونحمدك يا من تفضّل علينا وعلى جيلنا بعيلم العلم الأغرّ ، الحسن بن جعفر ، بحر لم يزل تقذفُ الدرر أمواجه ، وبدر يزهو به فلكه وأبراجه ، تهدي المضلّ سماته ، وتُعيي أولي الفصاحة والبلاغة كلماته . أحاط بالعلوم البديعة ، ونال في النشأتين بها الرتب الرفيعة . لم يزل يدرّس بمدرسة أبيه ، ويبدي من العلم خافيه ، وكم وكم حضر عنده من فئة فضل ما بهم غير محقق باهر بتحقيقاته ، وأئمة علم ما بهم غير ما يبهر

(١) إلى هنا إنتهتْ رسالة (نبذة الغري في أحوال الحسن الجعفري) التي كتبها الشيخ عباس كاشف الغطاء في ترجمة أبيه الشيخ حسن .

العقول بتدقيقاته . وكان (ره) كثير التسلّط على (التقرير) ، وله كمال التسلّط على (التحرير) . ولقد ألّف في الفقه «أنوار الفقاهة» المنطوية ، على فروع محكمة المآخذ من أصول ممهّدة . وكان خشناً في الله لا تأخذه لومة لائم في الدين ، رئيساً في جميع الأمصار ، جليلاً في الأنظار ، كثير المساعي للفقراء والمساكين .

وكان يقوم في أوقات الأسحار ، يناجي المليك الجبار بالتضرّع والخشوع ، والأنابة والخضوع . حتى إذا ما أشرقت الشمس قام لصحبه مدرساً بهم بما يشنّف المسامع ، فإذا فرغ من ذلك زار إخوانه في الدين ، وتعاهد بالعيادة مرضى المسلمين ، وأدّى حقوق القادمين . فإذا ما كان وقت الظهيرة صلى بالناس جماعة ، وأرشدهم إلى مناهج الطاعة ، وعرّفهم بأقواله وأفعاله أنها خير بضاعة ، ثم آوى إلى مأواه فرقد هنيئة . فإذا جاء العصر جلس في مجلسه ، مع أهل سِنِّه ، وتوالت عليه أرباب الخصومات وأرباب التقليد ورؤساء البلاد ، وأجلاؤهم ، وعلماؤهم قاصدين الأستنارة بأنوار طلعته ، والأغتراف من بحار حكمته . حتى إذا غربت الشمس ونادى منادي الفلاح بالصلاة جماعة ، مضى لمسجد أُسسَ على التقوى بنيانه ، وأقيمت على الطاعة جدرانه ، وصلّى بالناس المغرب والعشاء مع غاية الخضوع والبكاء .

وكان يستدين غالباً على نفسه للمسلمين ما يكفيهم من قُوتٍ واجب ، وبرود ومن تكفين أمواتهم وتجهيزهم ورفع للظلم من الجائرين . حتى بلغه أن الوزيرِ (النجيب) ، يريد بأهل النجف سوءً ، وقد توجه إليهم بعساكره ، حتى إذا قارب أن يصل البلد أخرج إليه من صحبه من له قابلية استدعائه للنزول عنده ، فاستدعاه فأجاب ، وصرف الأموال الكلية عليه وعلى أتباعه من الجيوش الموفورة ، والعساكر المنصورة ، فخدعه بذلك ، ونجا أهل النجف من المهالك .

وكم له من أمثالها ولو سمعت إذ دعاه (النجيب) الموما إليه بالمسرى لبغداد ، في داعية من الضلال ماله من هاد ، ادّعى النيابة عن القائم (المهديّ) للعباد ، فأجاب دعوته ، وسرى إليه وحفّت به الأكابر من أهل النجف ، فدخل مجلس الوزير ووآساه في الجلوس على سرير مملكته ، وجرى البحث بينه وبين المحمود الآلوسي المفتي كيف كان له التسلط عليهم في التقرير والتعبير والاستدلال ، حتى اتضح له الفلج ، بواضح الحجج ، وإفحام كُلّ محتج . وكان مرامه إطلاق مدّعي (النيابة) من السجن ، وتخليصه من القتل ، حيث أنكر ذلك وادّعى التوبة ، ففاز بمرامه وعاد قرير الناظر ، مبتهج الخاطر ، بما أنجح اللّه من قصده .

ولو سمعت إذ حقّت على يده بعض الحقوق الغزيرة من صفحات الهند أنفقها وأنفق

مثليها دَيْناً على ذمته .

وكان مسلّماً له في عصره بالأفضلية ، على كافة علماء الشريعة المحمدية . وكان المناوئ له في العلم علامة الزمن ، مُحمَّد حسن[1] . وهيهات أن يصل إلى ما يصل إليه فكره ، وإن ألّف ما ألّف ، وخلّف في الفقه ما خلّف .

وكان (ره) يُحَيِّرُ العشرَ العقول نُهاه ، ويُعجب الملوك مع فرط (بلاهته) دُهاه ، ويُخجل الشمس المنيرة سناه ، ويزري بالبدر بهاه ، ويحكي مُنْهَلَّ السحاب نداه ، يرى أن المسلمين عياله ، فيبلغ كُلاً منهم حسب الجهد آماله .

خلّده الله في علّيين ، مع مُحمَّد وأهل بيته الطاهرين ، ومتّعنا ببقاء نجله (العباس) فهو له نعم الخلف ، وغيره من البنين ما خلّف ، وها هو الآن مُجدّ في تحصيل العلم ، سالك منهاج أبيه في الورع والحلم ، ورُبّما تعاطى الشعر أحياناً ثم تركه ، غداة سرى بنهج العلم وسلكه . بلّغه الله مراده ، وأولاه ما أولى أبيه وزيادة . (إنتهى) .

فصل: فيما قال وما قيلَ فيه من الشعر

وقد كان (ره) جيد النظم جداً . ولهذا كان مقلاً منه ، وإن كانت له أشعار كثيرة في أيام صباه ، إلاّ أنها ليست بمثابة من الحسن ، ولذا أعرضنا عن ذكرها . نعم له قصيدة بعثها من الحلة أيام إقامته فيها إلى أخيه الشيخ عليّ (ره) يتشوّق إلى أهله وأوطانه ، وأولها هذا البيت :

أرضُ الغريّ وبوركتْ أرضا أرضي ، ولستُ بغيرها أرضى

ولم أعثر على الباقي حال الكتابة فأرسمه . وكلها على هذا النمط من الحسن[2] .

---

(١) الشيخ مُحمَّد حسن صاحب «الجواهر» .

(٢) بقية أبيات القصيدة هي :

شطّتْ فعيني بعد فرقتها لم تستطعْ أجفانها الغمضا
خلّفتُ فيها مَنْ شُغفتُ به ومحضتُهُ صفو الهوى محضا
فرضٌ على قلبي مودّتُهُ ويرى عليه مودتي فرضا
عجّلْ فديتُكَ باللقا فلقدْ ذهبَ البعادُ بأنفس مرضى
إنْ جدتَ قدْماً بالوداد فقد صيَّرنهُ في ذمتي قرضا
قلبي قبضتُ زمامه حذراً منْ أنْ يميل فأحسنَ القبضا
إنْ شطَّ جسمي عن حماكَ ، فلي قَلبٌ بغير حماكَ لا يرضى

أوردها الخاقاني في شعراء الغري ، جـ٣ ، ص٦٠ .

وأما ما قيل فيه فغير معدود ولا محدود . ولكن كان أخصّ الشعراء به ، وأكثرهم مدحاً له الأديب الماهر ، والشاعر (المُحرم) من الآداب بأعظم (مشاعر) ، ذو الأدب البارع والفضل المبين ، الشيخ عبد الحسين محيي الدين ، رحمه اللّه . فكم له في الشيخ من قصيدة فريدة ، يتمنّى الكمال أن يحلّي بها نحره وجيده . فمن ذلك قوله يهنّيه بعيد الفطر ، قال :

أغنى ابن جعفر عن معناك يا عيدُ ... فحَسْبُنا أنَّهُ في الدهر موجودُ
تمرُّ في كُلِّ عامٍ مرتين بنا ... وكُلُّ يوم لنا من يُمنه عيدُ
زانتْ ببهجته أيامُنا وغدتْ ... بيضاً بطلعته ليلاتُنا السودُ
ها نحنُ عيلتُهُ الباقون يشملُنا ... ظِلٌّ مدى الدهر من نعماهُ ممدودُ
ذو غرّة يستهلُّ الناس طالعَها ... فيستبينُ أبو (العباس) والجُودُ
خلاّن أوفاهما المُوفي بصاحبهِ ... على الورى وهو مشكورٌ ومحمودُ
علامةُ الدهر والهادي بنهج هدى ... وبحرُ علم لأهل الفضل موروُدُ
ومُدركٌ في مراقي العلم مرتبةً ... أضحى بها وهو مغبوطٌ ومحسودُ
مؤيدٌ بالهُدى من ربِّه وبهِ ... لشرعة الملّة الغرّاء تأييدُ
أهوى لكشف الغطا عن كُلِّ غامضةٍ ... في الشرع يقرنُهُ نصٌّ وتسديدُ
فكم له فيهِ توضيحُ (البيان) وفي ... (قواعد) العلم و(الأحكام) تمهيدُ
آثارُهُ غُررٌ في الدهر واضحةٌ ... ويوم معجزهِ في الناس مَشْهُودُ
ذو همة في مناط النجم أخمصُها ... يسمو بها فوق قَرنِ الشمسِ تشييدُ
هذا بقيّة (موسى) والعصا بيد ... بيضاء منه تعاطى لَثمَها الصيدُ
من (جعفر) الفضل إلاّ أنَّ رحمتَهُ ... بحرٌ وفيها لذكر (الخضر) تخليدُ
ذلّت أكاسرةُ الفُرسِ الكرام له ... مهابةً والتوى من (قيصر) جيدُ
والعالمون تحاموا قدره فَعَلا ... أعناقَهم منه إقليدٌ وتقليدُ
وأمَّهُم منه معقوداً عليه لوا ... عزٍّ على قومه الماضين معقودُ
ومذ رآه الورى أهلاً ليكفلهم ... أُلقي من الكُلِّ في كفّيه إقليدُ
يا كعبةَ الوافد الراجي وأكرمَ مَن ... أمّت لساحته المُهريّةُ القُودُ
سمعاً وُقيتَ الردى منّي لئالئ ما ... زِينتْ بأمثالها البيضُ الرعاديدُ

أقضى بها حقّ نعماء مننتَ بها ... يزينُها فيك إطراءٌ وتمجيدُ
فاسلمْ على أمد الأيام في دِعةٍ ... ما شابَ خالصَها ريبٌ وتنكيدُ

وأحسن من هذه قوله يمدحه، وهي من البلاغة والجودة بمكان. وقد خمّسها الشيخ إبراهيم العاملي، فقال:

ماهرٌ صادقُ المقالة سَمْحُ ... شأنُه عَنْ مشار داعيه صفحُ
قال قولاً ما شامَ ناديه قَدْحُ ... كُلُّ قول فيه ثناءٌ ومدحُ
في سوى آل (جعفر) لا يَصحُّ

هُمْ غيوثُ الأيسار والدهر عُسرُ ... وكُفاةُ العُفاة إنْ شحَّ يُسرُ
كُلُّ مدحٍ حبسٌ عليهم وقَصرُ ... وقُصارى تجارة الشعر خُسرُ
وهو في مدحهم زكاة وربحُ

ورثوا طارف العلى عن أبيهم ... وهمُ أورثوا الفخار بنيهم
معشرٌ طاولَ السُّهى مقتفيهم ... فئةٌ فيؤهم ظِلالٌ وفيهم
كُلُّ مَن عامَ في الضلالة يصحو

هم بحورٌ فليس يُدْرَكُ غَوْرُ ... لهمُ ما استطالَ للدهر دَورُ
هم لروض السماح نور ونَوْرُ ... يعدلون القضاء والكون جورُ
ويجودون والزمان يشحُّ

ما خلا عن جميلهم في المَلا حَيْ ... وبهم ميّت الندى قدْ غدا حيْ
فصلاحُ صنيعهم حيّ على حيْ ... جنحوا للعلى فراشَوا (جناحيْ
ها) فهاهم لأمل الدهر نُجْحُ

كُلُّ نَدْبٍ منهم على الناس سادا ... فجواد يقفو بفضلٍ جوادا
ولهم والذّي تولّى العبادا ... شَرفٌ يفرشُ الثريا مهادا
وله (الأطلسُ) المُبجّلُ سطحُ

هُمْ بدورٌ يُجْلى بها كُلُّ غيهبْ ... ذهبتْ في سما العُلى كُلَّ مذهبْ
وبحورٌ زخّارها بالندى عبْ ... وسماءٌ يُزينها من أبي (العَبْ
باس) غرٌّ من المكارم صُبحُ

ثاقبُ الفكر لم يكن قطُّ أخطا   غَرضَ المجدِ والعُلى حين شطّا
ماجدٌ في ذُرى العُلى قَدْ تمطّى   سابقٌ كُلّ حلبةٍ ما تخطّى
لمدى شَأوهِ جَوادٌ ملحُّ

بجدود سادَ الورى وجدودِ   وبتقوى فاقَ الأنامَ وجودِ
وعلى رغم كُلِّ شأن حسودِ   قَرنَ اللّهُ نجمَه بسعودِ
فهو قرن به مع الدهر صلحُ

مدَّ باعاً للفضل غيرَ قصيرٍ   فاعتلى هامَ كُلِّ حَبْرٍ شهيرٍ
فهو غيثٌ لكُلِّ عافٍ فقيرٍ   وهو غَوْثٌ لخائفٍ مستجيرٍ
وبه للهُدى وللّه صُلْحُ

إنْ أُغالي فما أنا بملوم   في مديح امرئٍ رؤوف رحوم
ذي أيادٍ تحكي الحَيا في سُجومٍ   شرحَ اللّه صدرَهُ لعلومٍ
وبمعنى صفاته طال شرحُ

عالم بالقضاءِ والحُكم عادلْ   ما لعلياء مجده مِنْ مُعادلْ
قاطعٌ في الخصام كُلَّ مجادلْ   ومهابٌ مؤيدٌ بسدادِ (إلْ
لّه) فيما يأتي إليهِ وينحو

(حسَنُ) الفعلِ كُلَّ حين نَراهُ   نعمةٌ مُسْبغُ العطاءِ بَراهُ
ذو فخار بادٍ منيعٍ ذُراهُ   مُتحَف بالسداد فيما يراهُ
وله أينما توجّه فَتحُ

كُلُّ صعب عن حلّ معناه ينَكّلْ   أنفس القول عندَهُ ليس يُشْكلْ
فهو عَضْبٌ ماضٍ على الهول ما كلْ   وإذا ما خبا زنادٌ ففي كلْ
لِ زمانٍ لزندِ علياهُ قَدحُ

كم روينا له مناقبَ حمدٍ   ملأتْ رحب كُلِّ غَور بنجدٍ
.................[1]   وإذا أسندت أحاديث مَجدٍ
فلآبائه الحديثُ الأصحُّ

---

(١) بياض في الأصل .

يا عـمـادي الذي اعـتـمـادي عليهِ ومـــلاذي الـذي فـــراري إلـيـــهِ
ويَســاري يفـيـضُ من راحـتـيــهِ يا بني (جـعـفـرَ) الذي مِنْ يديهِ
كُلُّ غـــيـثٍ بكُلِّ جُـــودٍ يسحُّ

هاكَ عِـقْداً في جيدِ عذراء يُجْلى زانَها فاغتدتْ من الشمسِ أحلى
وتـهــادتْ إليك مُــذْ كنتَ أهلا مِلَحٌ من قـصـائدي فـيكَ تتلى
ولعـــمـــري مـــا في ســواهُنَّ مِلْحُ

لك مــجـدٌ من الكواكب حــالٍ ومـــقـــامٌ على المَجَـــرَّةِ عـــالٍ
أنـا شـــآنٍ لِمَنْ شناك وقـــالٍ أنـا وآلٍ وفـي ودادك غـــــــالٍ
لا أُبالي بعـــاذلٍ فـــيك يلحـــو

أنت يا واحــدَ الأكــارم ضــامنْ صرف بؤس ما زال في النفسِ كامنْ
يا غـــيـــاثاً مَنْ أمَّـــهُ كـــان آمنْ لك منّي حُـــسنُ الثنا ولنا منْ
عـــزمك المستطيل ســـيفٌ ورمحُ

وقال من أخرى يرثيه ، وقد أبدع غاية الأبداع ، وجاء بما لم تسمع بمثله الأسماع :

لـستُ أدري لمنْ يحقّ العـــزاءُ شَـــرَعٌ كلُّنا بذاك ســـواءُ
عــمّنا الثُكلُ والمُصـابُ كـأنْ قـدْ فُـقـدتْ من جـمـيـعنا الآباءُ
أيُّ حـيٍّ مـنّـا ومن ســـوانا لم تَسِـمْـهُ له يدٌ بيـضــاءُ
عـــاشَ أباؤنا بنعـــمى أبيـــهِ وبأبـنـاهُ عـــاشـت الأبـنـاءُ
ورقـــدنا من ظلّهِ في أمـــانٍ لـم تـروّع ســـرباً لـنـا الأرزاءُ
ما برحنا في الأمنِ من حَربِ الدهـ ـرِ جـمـيـعـاً حتى دهاهُ القـضـاءُ
فـلـنـا لا لـه يـحـقُّ الـرثـاءُ وعلينا ولا عليـــه البكـاءُ
يا بلادَ اللّه البـســيطة مــوري أسـفـاً واسـقطي له يا سـمـاءُ
يا بحـارَ الأرضِ الزواخـرِ غُـوْري قُـضيَ الأمـر ثم غِـيضَ الماءُ
يا نجومَ السماءِ في الأرض خُـرّي والبـسي حُلَّةَ الأسى يا ذُكـاءُ
يا جـبـالُ اخـضـعي ، ويا ريحُ هبّي يا عُـلاً أقـصـري وَطُلْ يا عناءُ

يا عيون الشرع اسكبي ، يا رجال الـ ـشرع هبّوا ، وابكينهُ يا نساءُ
إنَّ يوماً أودى ابنَ (جعفرَ) فيه دهت الدينَ فتنةٌ عمياءُ
إن يوماً قضى به الحسنُ الـ ـزاكي ، بكاهُ (الحُسينُ) و(الزهراءُ)
يا إمامَ الهُدى ليومك يبكي (أحمدُ) ، والأئمةُ الأمناءُ
إنَّ يوماً به نُعيتَ إلينا يومَ شؤم هَلْ ذاكَ (عاشوراءُ)؟!
يا سراجاً ويا رتاجاً تَداعى فاتَ منّا سدادهُ والضياءُ
حالَ لونُ النهارِ بعدَكِ يا شمسُ ضحاءً كأنْ أطلَّ المساءُ
أنتَ لي (مالكٌ) وأني بوجدي وشجوني (متيّمٌ)[1] بكّاءُ
أنا أولى بأن أعزّى بمولى أنعشتني من جُوده النعماءُ
مَنْ نرى بعدَكَ المقيلَ عِثاراً إن كبتْ نكبةٌ بنا صمّاءُ
مَنْ إليه يُلجا ويُرجى نداهُ أمْحَلَ العامُ أو دهت لَثْواءُ
فبرغمي قولي سقتْكَ الغَوادي بعد قولي لك استطالَ البقاءُ
وبرغمي أني أفيكَ رثاءً بعدما طال فيك منّي الثناءُ
غير أني أقضي ولستُ أوفّي بعضَ حقّ وأينَ منّي الوفاءُ
يا بني (جعفرَ) الكرام عزاء لُمصابٍ قَدْ عزَّ فيه العزاءُ
ما فقدنا وجُلّ من قَدْ فقدنا هُ ، وأنتمْ منْ بعده الخُلفاءُ
إنّما أنتمُ البقيةُ في الأرض بدوراً تُجلّى بها الظلماءُ
ولنا في بني (عليّ) جميعاً وابن موسى بن جعفر الأقتداءُ
يا بني عمّي الكرام اخطبوها مالها الدهر غيركمْ أكفاءُ
يا ثرى ضمّ لابن (جعفر) جسماً إنّما أنتَ روضةٌ غنّاءُ

ولبعض الشعراء يرثيه ويمدح الشيخ مهدي رحمهما اللّه أجمعين :

خليليّ كُفّا فاصطباريَ مغلوبُ وعذلكما فيه لقلبي تَعذيبُ
قِفا بي على ربع الأُلى قَدْ ترحّلوا نَحنُّ عليهم مثلما حنّتِ (النِيبُ)

---

(١) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله : «ينبغي أنْ يكون (مُتمم) لكي تتم التوريّة» .

قـفـا نسـأل الـدارَ التي خفَّ أهلُهـا وَخُسرٌ سؤالُ العُجم عنهم وتتبيبُ
تروحُ عليّ النائبـاتُ وتغـتـدي وللهمِّ تصعـيـدٌ بقَلبي وتصـويبُ
وقـفـتُ على الدار التي كُنتمُ بهـا فـبلّتْ ثراها من عـيوني شـآبيبُ
وقـد درستْ عنا الرسـومُ ، وطالما بهـا عَلمُ الدينِ الحنيـفيّ منصـوبُ
نأى (حَسَنٌ) عنها فغُيِّبَ في الثرى فدُكْدِكَ من حُزنٍ عليه الأخاشيبُ
فـأودى عـمـاد الدين فـقـد عـمـيـده وناحَ عليـه نوحَ (يوسفَ) يعـقـوبُ
فـأيُّ شـمـوس للهـداية كُـوِّرتْ فكانَ لـهـا تحتَ الصّفائح تحجيبُ
وأيُّ حـيـاة بعـد فـقـدكَ تُرْتَجى وأيُّ فـؤاد لـم يكنْ فـيـه إلـهـوبُ
لقـد كنتَ غَوثَ الُمجْدبينَ وغَوْثَهُمْ إذا نشـبتْ للدهرِ فيـه مـخـاليبُ
أُديلتْ لكَ العلياء إذْ حلَّ فـوقَـهـا رواقٌ لأنوارِ (الفقـاهةِ) مَضْـرُوبُ

إلى أن قال :

ولو لم يكُ (المهديُّ) بعدَكَ قائماً عمادَ هُدىً ما كان للدينِ تطنيبُ
هو العَلَمُ المنصـوبُ والجـوهرُ الذي تكوَّنَ من نور لدى اللّه مـحجـوبُ

وهي طويلة اقتصرنا على هذا القدر منها .

ورأيتُ ببعض المجاميع ما هذا نصّه : وقال الشيخ إبراهيم قفطان : أرَّخَ السيد مُحمّد نجل السيد معصوم[1] عام وفاة أخي المرحوم حسين ، ووفاة المرحوم المبرور العلامة الشيخ حسن نجل الشيخ الأكبر ، فقلتُ على القافية راثياً لهما ، وهي :

إلى كم تُرينا صُـروفُ الزَمنْ بفـقـد الخليط صنوفَ المحنْ
قـضتْ في الورى بلزوم الرّدى كـأنّا وصـرفُ الردى في قـرنْ
أحنُّ وهَلْ نافعٌ بعـدَمـا تنأءى الأحـبّـاءُ أنّي أحنْ
وهَلْ مسـعـدٌ غير ورْقِ الحمـام تحنّ التـيـاعـاً بأعلى فَنَنْ
وقـائلـة لي ألا تخـلعنّ ثيـابَ المُصاب إذا مـا أرجحنْ
تـعـزّ فكم لـكَ مِـنْ سلوةٍ تفـرّجُ عنكَ كـروبَ الحَـزنْ

(١) السيد مُحمّد معصوم القطيفي ، تُوفيَ حدود سنة ١٢٧١هـ/ ١٨٥٥م .

بموت النبيّ وقـــتل الوصيّ ... وذبح (الحسين) وَسُمّ (الحسَنْ)
فقلتُ أجلْ ليسَ سكبُ الدموعِ ... لغير مصاب (الحُسين) الحَسنْ
شـبـاباً قضى لم يفز بالمُنى ... ولا قرَّ في عيشة واطمأنْ

ثم أخذ في رثاء أخيه ، إلى أن قال ، عليهما رحمة اللّه المتعال :

كأنَّ الرزايا تجسُّ الخلال ... تفتّشُ عن أوحديّ الزَمنْ
إلى أن أناختْ برغمي الركاب ... بجنب عميد الهُدى المؤتمنْ
هو (الحسنُ) اسماً ومعنىً ومَنْ ... غدا أجودَ الخَلْقِ كفّا ومَنْ
بحامي الذّمار بربِّ الفخار ... بشمس النهار ببدر الدّجنْ
فلا تركننَّ لسلم الليالي ... فقد ضلَّ مَنْ لليالي ركنْ
ولا تأمننَّ صروفَ الزمان ... فشيمتُهُ الغدرُ فيمَنْ أمنْ
فيا لرزايا أذبنَ الفؤاد ... فكم غارةٍ في البرايا تُشَنْ
وواسى ابنُ (معصوم) في وقعها ... فأرّخ وهو الخطيبُ اللسنْ
فجعنا بفقد (الحسين) كما ... فجعنا بفقد الأمام (الحَسنْ)

وقال الأديب الأوحد ، ذو الشرف الذي ليس له حدّ ، الحسيب النسيب السيد صالح القزويني البغدادي[1] (رحمه اللّه) يرثي الشيخ حسن (قُدِّسَ سرُّهُ) ، ويهنئ الشيخ مُحمَّد بجلوسه بمحل آبائه الكرام ، ورجوع الخاص إليه والعام ، ويعدّد مساعي المشايخ العظام ، وأياديهم الجليلة في الأسلام . وقد أجاد تمام الأجادة ، وحوى من تمام الحسن وزيادة ، وقد ضمّن أكثر أبياتها نوع الاِقتِنار ، الذي هو من الحسن بمكان ، فقال مخاطباً للشيخ مُحمَّد رحمه اللّه :

أقامَكَ (الحَسَنُ) الزاكي لنا خَلَفا ... فقمتَ بالأمر عن آبائك الخُلفا
قرّتْ بك العينُ من بعد القذى بهمُ ... والقلبُ بُردَ الأُسى بعد الأَسى التَحَفا
لم يصفُ عيشٌ لنا مِنْ بعدِ فرقَتِهمْ ... لكنّما العيشُ عمر الدهر فيك صفا
إنْ ناحَ وِرْقُ المُنى شجواً لبينهمُ ... ففيكَ وِرْقُ الهَنا في دوحةٍ هَتَفا

(١) السيد صالح القزويني البغدادي ولد سنة ١٢٠٨هـ / ١٧٩٣م ، وتُوفي سنة ١٣٠٦هـ / ١٨٨٨م .

أنستَ مربعَهمْ من بعدِ وحشته ... فكنتَ ممرعَهُ عَرْفاً لمن عكفا
إنَّ المكارمَ كانتْ عينهم نبأً ... ومنكَ صارتْ عَياناً شاهداً وكفى
لم يغفُ طرفُ العُلى لمّا نووا ضَعَناً ... وَجْداً عليهم ولكنْ مُذْ راكَ غفا
والدهرُ جارَ علينا يومَ ظنَّ بهمْ ... وفيكَ لو لم يَحدْ للدهرِ قُلتُ عَفا
أنا المُعزّي المُهنّي والورى فلنا ... نُعمى وبؤسى سواء جاوز السرفا
ما شاهدتْكَ الورى إلاّ وقدْ شهدتْ ... آثار كُلِّ فتىً منهم بما اتصفا
فأنَّهمْ في الورى كالدرِّ في صَدَفٍ ... فاستخرج الدرّ منهم واقذفِ الصَدَفا
(موسى) (عليٌّ) المعالي والفَتى (حَسَنٌ) ... (مُحمّدٌ) من مجاري (جعفر) غرفا
هُمُ الأئمةُ عِلْماً نائلاً ورعاً ... هُدى تقى سنداً حلماً حجىً كنَفا
جِبِلَّةٌ شَغَفي فيهم ولا عَجبٌ ... لآل (جعفرَ) إنْ أخلصتُهمْ شَغَفا
لم يجحدِ الناسُ نعماهم ولو جَحَدتْ ... فَنورُ شمس الضُحى ما كانَ فيه خفا
لولا أبو (مُحْسِنٍ) والعِزُّ عصبتُهُ ... كدنا لما نالهم نقضي أسىً ووفا
وفوقَ ما أمّلتْهُ الناسُ أدركه ... والكُلُّ كانوا بحمد اللّه مُعْتَرِفا
فافخرْ بهم فلعَمْري لم تَجدْ أحداً ... إلاّ مُقرّاً ومَن يأتي كَمَنْ سلفا
ما أسّستْهُ لك الآباء منْ شرف ... شَيَّدتَهُ فتسامى (المشتري) شَرَفا
لم يستطعْ أحدٌ وصفاً لمجدهمُ ... كلاّ وقدْ كَلَّ عنهُ كُلُّ مَنْ وَصَفا
كفى المؤمل ما أوليتَ من مِنَحٍ ... أغنتْ عن العارضِ الوسميِّ إذْ وَكَفا
فأنتمُ الشُمُّ حِلْماً والبحورُ ندىً ... والشهبُ سَعْداً مدى الأيام ما اختلفا
لا عيبَ فيهم سوى أنَّ الزمانَ لهم ... من الرعايا ومَنْ في ظلّه اكتنفا
وكُلّما تُليتْ أياتُ مجدهُمُ ... كانتْ شفاهاً لَمنْ أعيا شفاهُ شفا
طوّقتُمُ بعدَ كسرى قيصراً مِنَناً ... بالُصلحِ بينهما مِن بعد ما زَحَفا

وسيأتي مثل هذا البيت ألفاظاً ومعنى للشيخ عبد الحسين محيي الدين من قصيدة يمدح بها الشيخ مُحمّد، ويعدد مساعي المشايخ (رضوان اللّه عليهم)، وهي على هذا الوزن والقافية، وهما متعاصران، فما أدري من أخذ من الآخر. وعلى كُلّ حال فقد بسطنا الكلام في تفسيره ومحاسنه البديعة هناك فراجعه، فهو من الأبيات المشيّدة، والمعاني

وكم صفحتم عن الجانين مكرمةً — وكم منحتمْ على جرم مَنْ اقترفا
وكم أجرتم جواراً راعَهُ زمنٌ — وكم أقلتم عثاراً منّةً ووفا
لم تزهُ روضةُ علم بعدَ بُعْدِهُمُ — لولاكَ كلاً ولا منها الجَنَى قُطِفا
فكم (كشفتم) عن الرّمز الخفيّ (غِطا) — ورمزُ (كشف الغطا) لولاكَ ما انكشفا
مولى إذا سألْتُهُ الوفد عطفَ ندى — فقبل ما سألْتُهُ بالذُرى عَطَفا
يزدادُ بِشْراً ولُطفاً في مواهبهِ — والدهرُ يزدادُ غيظاً وجهُهُ وجَفا
أثنى عليه الحمى واللطف إذْ بهما — قَدْ أثبتَ الأمنُ منّا والحذار كفا
فَدُمْ لنا (حَرَماً) نأوي (لكعبتهِ) — إنْ سامنا الدهرُ هُوْناً أو بنا جَنَفا

ثم إن هؤلاء الذين ذكرناهم من أولاد الشيخ الكبير من أمّ واحدة ، وحيث أنهم هم العُمدة من أولاده ، ومحل وثوقه واعتماده ، الذين قاموا مقامه ، وأحيوا ذكره ، ورفعوا في العلم أعلامه ، فلهذا اقتصرنا عليهم . وإن كان له غيرهم من الأولاد من أمهات متعددة ، وكأنهم لم يكونوا بشئ عند أبيهم ، ولهذا أوقف دوره على موسى ، ومحمد ، وعليّ ، والحسن ، وذريتهم ، ولم يُشْرِك من أولاده معهم في ذلك أحد إلاّ الشيخ عيسى فأنّه اشترط له السكنى مدة حياته معهم ، ولا يتعدى إلى عقبه .

ترجمة الشيخ عيسى بن الشيخ الكبير

وكان الشيخ عيسى هذا من العلماء البررة على ما سمعنا ووجدنا في بعض الأشعار ذكره ومدحه بذلك ، وأنه من السالكين بتلك الشعوب والمسالك . منها أبيات للسيد مُحمَّد علي بن السيد أبي الحسن العاملي ، وهي :

(عيسى) بن (جعفر) في الفضائل مُفْرَدُ — فكأنَّهُ (موسى) بها ، و(مُحمَّدُ)
حسنتْ قضايا حسنه وكأنَّهُ — دون الأنام هو المنادى المُفْرَدُ
مِنْ مَعْشَرٍ بيضُ الوجوهِ كأنَّهمْ — شُهُبٌ بآفاق العُلى تتوقّدُ
ما فيهمُ إلاّ أغرٌّ ماجدٌ — زاكي الأرومة أو أغرّ أصيَدُ

ولم أعثر على مدة حياته وزمان وفاته . وظنّي أنَّهُ تُوفيَ أيام أخيه الشيخ حسن . وأعقب ولداً يسمّى جواد الأقرع . وله حكايات ونوادر لا يسع المقام ذكرها ، ومات ولم يُعْقِب . وكذا باقي أولاد الشيخ (ره) ليس لهم اليوم عقب . وعقب الشيخ منحصر من موسى ، وعليّ ، والحسن (ره) .

الباب الثالث

في الطبقة الثالثة من هذه الطائفة

لا زالت العُلى بها حافّة ، والمفاخرطائفة .

وها نحن بعون اللّه تعالى نذكر كُلّ واحدٍ واحد منهم على سبيل الأجمال ونرتّبهم على حسب السنّ والفضيلة ، وانتهاء النوبة له ، والجلوس في مسند آبائه الكرام ، والنهوض بتقلّد أمور الناس في المهمات العظام .

ترجمة الشيخ محمد بن الشيخ علي (رحمهما الله تعالى)

فأول مَن جلس بذلك المسند العظيم ، وحُبس عليه أمرُ الرئاسة الجسيم ، بعد أولاد الشيخ الأربعة موسى ، ومحمد ، وعليّ ، والحسن ، الرئيس المطاع ، والموئل الذي وقع عليه الأجماع ، قنّة[1] الشرف الراسية ، وقبّة المجد العالية ، مؤيّد الملّة والدين ، ومظهر شوكة الأسلام والمسلمين ، الفريد الأوحد ، بقيّة العلماء الراشدين أبو محسن مُحَمَّد ، نجل المحقق المعتبر ، زين المحققين العليّ بن جعفر ، طيب اللّه بالرضوان مراقدهم ، وسقى بصيّب الغفران معاهدهم .

ذاع صيته واشتهر ، وتولّى زمام الأمر ، بعد عمّه الحسن بن جعفر ، حتى أذعنت له رقاب سائر الأمم من المسلمين ، وألقت إليه مقاليدها رئاسة الدنيا والدين ، على كثرة مَن كان في زمانه من الأساطين المعارضين ، والعلماء المبرّزين . فلما تجلّى صُبحُ فضله لمن له عينان ، لم يشذّ عنه شاذ ولم يختلف فيه إثنان .

وكان تعاطيه لأمور الرئاسة وفصل الخصومات في زمان أبيه وعمّه أكثر من التعاطي بأمر التحصيل والتدريس . فلهذا لم يكن يُعرَفُ بتلك الفضيلة ، ولا يُظن أنّهُ ممن يفوز بتلك المنزلة الجليلة ، من النهوض بمراسم العلوم ، والقيام بتشييد هاتيك الرسوم . إلى أن تُوفّيَ عمّه[2] بعد أبيه ، وأحرز اللّه تعالى مع الناس القابلية فيه ، جلس بمسند آبائه الكرام ،

---

(١) قُنّة الشرف : أعلاه .

(٢) هو الشيخ حسن كاشف الغطاء ، ووفاته كانت سنة ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م .

وتقلّد ما كانوا يتقلدون من المهمات العظام ، اللازمة على رؤساء الأسلام فاشتهر ذكره شرقاً وغرب ، ورقى منبر التدريس في (الطنبيّة) الكبيرة فامتلأت بالفضلاء والعلماء عجماً وعرب . فكان مَمْنْ حضر تحت منبره ، واغترف من فيض أبحره ، على أنّهُ من المجتهدين ، والعلماء المُسلَّمين ، أخواه الشيخ مهدي[1] والشيخ جعفر[2] وابن عمّته العيلم الفقيه المشهور الشيخ راضي[3] بن الشيخ مُحَمَّد بن الشيخ خضر (ره) ، وكثير من أمثالهم لا ينتسبون إليه بشيء ، ومنهم العالم الفاضل ، والنحرير الكامل الشيخ مُحَمَّد علي عزّ الدين العاملي[4] رحمه اللّه تعالى ، وقَدْ ذكره في رجاله المسمّى بـ «ضوء المشكاة الكاشف عن وجوه الرواية والرواة» ، حيث قال في ترجمة الشيخ الكبير :

«الشيخ الأكبر ، إبن الشيخ خضر جعفر ، شيخ الطائفة في عصره المتصل بعصرنا ورئيس المذهب ، بلغ الغاية علماً وعملاً ، وجلالة وقدراً ، وشهرة وذكراً ، لدى الخاص والعام ، والعرب والعجم ، وملأت الدنيا تلامذته وصنّف كتباً كثيرة منها كشف الغطا ، وبغية الطالب وغيرها ، وبيته من أجلّ بيوت النجف وأولاده كلهم علماء فضلاء مجتهدون ، منهم الشيخ موسى ، والشيخ عليّ ، والشيخ مُحَمَّد ، والشيخ حسن ، كلّ تنتهي إليه الرئاسة في عصره واحداً بعد واحد . وقَدْ شاهدت منهم الشيخ حسن (ره)» . إلى أن قال :

«وأولادهم إلى الآن مشهورون بالفضل مبرّزون بالعلم ، والشيخ مهدي ابن الشيخ عليّ أحد العلماء المبرّزين اليوم في النجف ، وأخوه الشيخ مُحَمَّد كان قبله كذلك ، وقَدْ حضرتُ درسه بُرهةً من الزمان . وبالجملة فهم بيت مجد وشرف وعلم قلّما يوجد في البيوت مثله» . إنتهى كلامه ، رفع مقامه .

وفي «قصص العلماء» بعدما ذكر وفاة الشيخ حسن (ره) قال ما نصّه :

«وجلسَ الشيخ محمد مكان الشيخ جعفر ، وكان ماهراً في الفقه»[5] .

وقال الفاضل البادكوبي في «نقد العُلماء» ما نصّه :

الثالث : الشيخ مُحَمَّد ، وهو الآن في النجف الأشرف من المجتهدين المعروفين والعلماء

---

(١) ولد سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م ، وتُوفي سنة ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م .

(٢) ولد حدود سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م ، وتُوفيَ سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م .

(٣) هو جدّ أُسرة آل الشيخ راضي الشهيرة . تُوفي سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣ .

(٤) من أعاظم العُلماء ، تُوفيَ سنة ١٣٠٣هـ / ١٨٨٦م . وكتابُهُ «ضوء المُشكاة» لا يزال مخطوطاً . وله مؤلفات مطبوعة : الردّ على الماسونيّة ، وتحفة الألباب في المُفاخرة بين الشيب والشباب .

(٥) قصص العلماء ، ص١٨٧ .

المشهورين المُبرَّزين ، وحوزة درسه مملوءة من الطلبة والفضلاء والعلماء . إنتهى .

والحاصل إنَّ أمره غنيّ عن البيان ، غير محتاج إلى برهان ، وقَدْ كان مطاعاً مراعى ، مهاباً مجاباً ، وقوراً جسوراً ، خصوصاً عند الحكام ، ووزراء الدولتين العظام . وكانت تحته أجلّ بنات عمّه الشيخ موسى وهي أم أولاده الأربعة الآتي ذكرهم (إن شاء اللّه تعالى) . وهي ذات شأن وقدر وثروة واسعة وحليّ وحلل . وكثيراً ما كانت تتقاصدها الشعراء فتسمع من وراء الستر مدائحهم وتُجيزهم بجوائز الملوك . وكان الشيخ كثيراً ما يأخذ من حليّها وحُللها فيصرفه ويبذله على الفقراء والمتوقّعين لعدم كفاية ما يصل إليه من الحقوق .

وكان أول أمره يتولّى مفاتيح الحرم الحيدري والتصرف فيه ، وكان السيد رضا الرفيعي[1] نائبه . ثم بعد ذلك ألقى أمرها كله إليه وجعله (كليداراً) ، واستمرت حتى اليوم في بنيه .

وكان (رحمه اللّه) جهوري الصوت رفيع الهمّة ، كبير الجثة والجمّة ، سمحاً جواد ، عليه سيماء العبّاد والزهّاد . وكان كثيراً ما يخرج إليه خدمه بطبق فيه خبز وإناء فيه خلّ وملح فيتغدّى به ، وتخرج الموائد لأضيافه وخدمه وملازميه . ولم يمرّ عليه يوم لا يُبذل فيه نائلهُ الجزل إلاَّ مرّ ، ولا رأى زيغاً في قناة الدين إلاَّ عالجه بالجبر ، ومازال أمره يعلو ، وشرفه يسمو ، شيئاً فشيئاً حتى رجعت إليه الناس بالتقليد ، بعد العلامة الوحيد ، الماهر الباهر ، صاحب «الجواهر»[2] ، فانحصر أمر الشريعة الغراء به ، وبعَلم الهُدى الثاني كتاب اللّه الناطق بفصل الخطاب ، شيخنا الشيخ مرتضى الأنصاري تغمدهما اللّه برحمته . فبقيا علمين لها ، يردّان عنها كُلّ باغ وطاغ ، ويقوّمان منها ما زاغ ، إلى أن تُوفيَ الشيخ مُحَمَّد في الأثناء ، واستقل الشيخ مرتضى بالأمر فدبّر فيه ما شاء ، من تشييد وإحياء ، فجزاهم اللّه عنّا أحسن الجزاء .

وتُوفيَ الشيخ مُحَمَّد سنة ١٢٦٨ بعدما بلغ من الجلالة والرفعة ما لا يفي به بيان ، دون العيان ، وفي أيامه كثرت الآداب والأشعار ، وصار لها به أحسن موقع وشعار ، حتى راج سوق الأدب ونبه خامله ، وطلع بالسعد آفله ، لأنَّهُ كان يجيز عليه الجوائز السنيّة ، والمواهب البهية ، فكانوا يجيدون له في مدائحهم ، ويجيد لهم في منائحهم ، و(اللُّهى تفتح اللّهى) .

وهو أكثر مَن وقعتُ على مدائحه وتهانيه من هذه الطائفة ، مع تمام الجودة ونهاية

---

(١) قُتلَ السيد رضا الرُفيعي سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م .

(٢) هو الشيخ محمد حسن النجفي المُتوفى سنة ١٢٦٢هـ / ١٨٤٦م .

الحسن . ولنذكر لك شيئاً مما تيّسر لنا فيه .

الفصل الأول: في مدائحه وتهانيه

فمن ذلك ما قاله الشيخ موسى بن الشيخ شريف[1] ، وهو من ظرفاء الشعراء ، وفحول الأدباء ، وله حكايات ظريفة لا يسع المقام نقلها ، وله مدائح كثيرة في الشيخ مُحَمَّد المذكور ، وهو من خواصّه وملازميه . قال رحمه اللّه يهنيه في ختان ولده الشيخ محسن[2] (رحمهما اللّه جميعاً) :

أسفرَ الحيُّ حينَ زارتْ نوارُ ... فتجلّتْ منها لنا الأنوارُ
أسفرتْ في الظلام عن صُبح وجه ... ليس تحكي أنوارَهُ الأقمارُ
حبّذا زورة لظمياءَ فيها ... عاد ليلُ الصّدود وهو نهارُ
وبنفسي أفدي بديعةَ حُسْنٍ ... كُلُّ حُسن مِنْ حُسْنها مُسْتَعارُ
حارَ فكري مُذْ حاورتني ولكن ... بلحاظ قَدْ زانَهُنَّ إحورارُ
أنا في الحب مُفْرَدٌ ولغيري ... غير ما اخترت في الغرام اختيارُ
مُتْهِمٌ في هوى (نوار) إذا ما ... أنجدوا في هواهمُ وأغاروا
شيمتي الصبرُ في الهوى وهو صبرٌ ... وشعاري كتمُ الأسى وهو نارُ
هكذا في الهوى مقامي إلى أنْ ... أظهرتْ سرّيَ الدموعُ الغزارُ
فترّديتُ بالمزاح وأضحى ... لي ترك الوقار وهو وقارُ
(سَعدُ) ، غنِّ لنا بذكر الغواني ... فالليالي طوالهنَ قصارُ
واسقني قَهْوةً كذوبِ نُضارٍ ... طَمَحتْ نحو دنّها النُضّارُ
بنتُ كَرْم تُضيءُ كالشمس في الكاسِ ... فَتَعشو لضوئها الأبصارُ
من فتاة كأنّها خُوطُ بانٍ ... ذات خدّ كأنّهُ جُلّنارُ
أوَ ما تُبصرُ الرياض اللواتي ... سجعتْ في أراكها الأطيارُ
ونسيم الصّبا يهبّ فتكسي ... كُلَّ أرض من طيبها الأزهارُ
والقوافي وافتك تختالُ تيهاً ... تتهادى كأنّها أقمارُ

(١) الشيخ موسى محيي الدين تُوفيَ سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م .
(٢) تُوفي الشيخ محسن سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م .

مطربات في ختن غضّ المعـالي (مـحـسن) مَنْ له الفـخـار أزارُ
يا بنَ مَـنْ للورى بيُـمناهُ يُمْـنٌ وبـيـسـراهُ للعُـفـاةَ يَسـارُ
لك دامَ السـرورُ في ظلّ مـولى هو للجـود في الوجـود المنارُ
ذاك مولى الورى (مُحَمَّدُ) مَنْ قَدْ شـهـدتْ في العُلى له الآثارُ
ذو مـزايا أذكى من المسك طيبـاً وسجـايا فـيـهـا العـقـولُ تحارُ
حـزتَ مـجـداً سـامي المحل وعـزاً أقـعـسـا لا يُشقُ منهُ الغُـبـارُ
عــالمٌ عــاملٌ وبرٌّ جَـوادٌ لوذعيٌّ مـقـدمٌ مـسـتـشـارُ
بأبي (مُـحسن) أقـيـمتْ قناةُ الـ ـدين مِنْ بعـد مـا عـراها إنكسارُ
و(بمهـدي) الورى لنهج المعـالي لم يُصِبْ خطةَ الفَـخـار بَوارُ
وبأوصـاف (جـعـفـر) تتـحلّى إيْ وآبـائـه الـكـرام ، الـديـارُ
لاحَ سَـمْتُ التـقى عليـه وليـداً وزكى منه مَـحْـتـدٌ ونِجـارُ
ولقـد طابَ للورى منهُ خُلقٌ وبدتْ فـيـه عـفّـةٌ ووقـارُ
أيُّ مـجـد وسـؤدد وفـخـار يا بني (جـعـفـر) لكم لا يصـارُ
كم لكم في الوجود من مكرمـاتٍ هي كـالشـمس مـا عليـهـا غـبـارُ
سـادةٌ قـادةٌ ولاةٌ حـمـاةٌ علـمـاءٌ أئمـةٌ أبـرارُ
فـإذا مـا اسـتُنيلَ منهم أنالوا وإذا مـا اسـتُجـيـرَ منهم أجـاروا
فـأنعـموا راغدين في ظلّ عيشٍ مـا جـلا ظُلمـةَ الليـالي نهـارُ

ومن ذلك الروضة الزاهرة ، والحديقة الباهرة ، للأديبين الأريبين ، الشيخ إبراهيم العاملي ، والشيخ عبد الحسين ، نظماها على الأرتجال ، في تهنئة عرس الكمال ، الشيخ محسن بن الشيخ مُحَمَّد (طاب ثراهم) يمدحون أبيه ، و(النون) علامة الشيخ عبد الحسين و(الميم) للشيخ إبراهيم . وكلٌّ قَدْ أجاد .

قال الشيخ عبد الحسين محيي الدين يخاطب الشيخ مُحَمَّد :

ن ألقتْ إليكَ زمـامَـهـا العليـاءُ فلهـا لديكَ مـودّةٌ وولاءُ
م أنتَ الذي طالتْ مـراتبُ مـجـدهِ فتقاصرتْ عن مدحه الشعـراءُ
ن أدركتَ سابقةَ الفخار عقيب ما شقّ السـبـاق وشطّت الغلواءُ

م أنّى يُقاسُ الناسُ فيكَ وأنتَ يا ربَّ العُلى معنى وهم أسماءُ
ن أَفَتى الكرام الطيبين ومَن لهم جنب تظللنا له أفياءُ
م أَوَ هَلْ يطاولُ كنهَ مجدكَ في العُلى قومٌ وهُمْ أرضٌ وأنتَ سماءُ
ن إنَّ الرئاسةَ لم تكنْ معقودةً إلاّ ورفَّ لها عليكَ لواءُ
م أنتم بحورُ فضائلٍ وفواضلٍ وكواكبُ تُجلى بها الظلماءُ
ن أبناء (جعفر) والأنامُ شهودُكم في شرع (جعفر) أنتمُ الخلفاءُ
م أصبحتمُ للخَلقِ كعبةَ آملٍ طافتْ بركن مقامها العُلماءُ
ن أكْفاء كُلِّ كريمةٍ فقديمُكم وحديثُكم شَرَعٌ بذاك سواءُ
م أهلُ الرئاسةِ أنتمُ وبفضلكمْ بين البريةِ سادتِ الأبناءُ
ن آباؤكم أبناءُ كُلِّ فضيلةٍ وبنوكمُ لفواضلٍ آباءُ
م أضحى (مُحَمَّدُ) قائماً من بعدكم بالأمر وهو (الحُجَّةُ) البيضاءُ
ن أحيا مآثر أهله من بعدهم ذكراً فكلُّهمُ به أحياءُ
م أوفى الأنام ندى وأعلاهم يداً وأعزّ من تُجلى به الغمّاءُ
ن أقسمتُ بالخوص النجائب فوقها من (هاشم) بيضُ الوجوه وضاءُ
م أَلفوا مناكب يعملات شقّها وَخْدُ المسير ومسّها الأعياءُ
ن أهوتْ إلى بطحاء (مكةَ) حسبةً تُطوى بها الهضباتُ والبيداءُ
ن أني أرى أهنا الليالي ليلةً يبدو بها لمسرّةٍ لألاءُ
م أزمان قَدْ زُفّتْ لنجلكَ (مُحسن) من آل (أحمد) غادةٌ حسناءُ
م حيّي فتاةً جدُّها خيرُ الورى مولى الأنام وأمُّها الزهراءُ
م ألقت زمام قيادها لمهذّبٍ بالعلم قَدْ شهدت له الفضلاءُ
م أمسى الزمان غداةَ زُوّجَ (مُحسنٌ) طرباً عليه من السرور بهاءُ
ن أ(مُحَمَّد) الحاوي محامد جمّةً لم يُحْصِها عَدٌّ، ولا إملاءُ
ن أصخ المسامعَ سامعاً فوريّةً ما شأنَ مدّة نظمها إبطاءُ
ن أَمَّتْكَ من حلفي وفاء أخلصا لهما يدومُ مدى الزمان وفاءُ
ن أقصى مرامهما رضاؤك عنهما فرضاك جائزةٌ لها وجزاءُ
ن أَرَجاً تضوّعَ بَدؤها وختامُها فلها ببابكَ قَدْ أقامَ رجاءُ

قافية الباء

م بدت تختالُ مِنْ فلكِ الحجابِ ... يموجُ بوجهها ماءُ الشبابِ
م بديعة طلعة تجلو الدّياجي ... كما يجلو الظلام سنا الشهابِ
ن بمبسمها الشهيّ لنا مُدامٌ ... لذيذ الطعم يُعْصَرُ مِنْ رضابِ
م برا اللّهُ البديعُ لها جمالاً ... به تاهتْ على الرود الكعابِ
ن بهاءٌ زان رونقهُ حياءٌ ... يُقنِّعُ وجنتيها عن نقابِ
م بوارقُ لحظها قَدْ جرّدْتها ... فراحَ لها فؤادي كالقرابِ
ن بغتْ تَلَفِي وقَدْ نصبتْ لقتلي ... حبائلَ غير بالغة النّصابِ
ن بُليتُ بها بسنّ صبا فشابتْ ... وما أقلعتُ عن سُنَنِ التّصابي
م برى جسدي وأنحلني هواها ... وصيّرَ مُهجتي رهنَ العذابِ
ن بما في وجنتيها من ورود ... وخمر في ثناياها العِذابِ
م بللتُ غليلَ أحشائي بريق ... ترقرقَ عندما رقّتْ لِما بي[1]
ن برحت بسكر ريقتها خليعاً ... أخا مرح أجرُّ لها ثيابي
م برود هنا جررتُ غداةَ زفّتْ ... فتاةُ الجدِ للندبِ المُهابِ
ن بريءٌ عن مدانس كُلِّ عارٍ ... فليس يُذمُّ في زيّ مُعابِ
م بهيّ خلائق ينمى لمولىً ... عريض الجاه متّسع الرّحابِ
ن بعيد عن مواطئ كُلِّ ضيم ... فتى بحماهُ ينزلُ في جنابِ
م بنى فوق المجرّة بيتَ مجدٍ ... له تأوي العُلى مِنْ كُلِّ بابِ
ن بقية آل (جعفر) في البرايا ... وأكرمُ مَنْ حثثتُ له ركابي
م بحار المدّ تجزر وهو بَحرٌ ... بموج الفضل زخّار العُبابِ
ن بوادر من نداه جرت فأزرتْ ... بوادِرها بأخلاف السحابِ
م بلى وعلاهُ قَدْ أسدتْ يداهُ ... أيادي هُنَّ أطواق الرّقابِ
ن بصائرُهُ إذا تُليتْ تراها ... بصائرُهُنَّ في أُمِّ الكتابِ
م بلغتُ به مناي ولا عجيبٌ ... بلوغي من أبي (حسنٍ) طِلابي

(١) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله : «لا تغفل عمّا في هذا البيت ، وعثرة الشيخ إبراهيم فيه»

بـكـرتُ لـه و(إبـراهـيـمُ) يُـثْـنـي		بنظم من خطاب مـــســتطابِ
بليغ كـابنِ (مُـحـيي الدين) يأتي		من المنظوم بالعَـجبِ العُـجـابِ
بـرزنـا فـي خـطابـة كُلٍّ قــــوم		فلم تَقْـصُـرْ خُطانا في خِطابِ
بقـيـتُم آل (جـعـفـرَ) والمعـالي		بـواقٍ لـيـسَ تـأذنُ فـي ذهـابِ

وأحسن من هذا ما اشتركا فيه أيضاً، فالأصل للشيخ عبد الحسين محيي الدين رحمه الله يذكر السالفين من بيت الشيخ ويعدّد مساعيهم ومناقبهم ويتأسف على فراقهم وفواتهم، ويتخلّص إلى مدح الشيخ مُحَمَّد (قُدِّسَ سرُّه). وقَدْ خمّسها الشيخ إبراهيم العاملي (ره) فأحسنا وأجادا، وبلغا من البلاغة ما أرادا، وهي من محاسن الشعر وجيّده. فجزاهم الله عن أوليائه خير الجزاء، أنَّهُ فعّال لما يشاء، وهي:

الفضلُ حيثُ الأولى من (جعفر) وَقَفا		مضـوا كـرامـاً وعـاشـوا سـادةً حُنَفـا
فـلا تَخَلْ بعـدهم ربعَ الفخـار عـفـا		أحـيـا أبـو (حـسـنٍ) آثارَ مَنْ سلفـا
وناب عن جـدّهِ أكـرمْ به خَلَفـا

أولى به أنْ يُنادى باسـمـه عَلَنا		محيي الشريعة والكشّاف معضلنا
قَـدْ عمَّ آخـرنا جُـوداً وأولـنا		بقـيّـة الله فـينا والمعـاذ لنا
إنْ أعـوزتنا رزايا دهرنا كَنَفـا

إذا ذكـرنا قـضـايا أعظم عظمتْ		من أهله وسـجـايا أنفس كـرُمَتْ
نعضّ أيدي لنا من جـودهم فُطِمَتْ		كُنّا على مَنْ مضى نأسى ومُذْ نجمت
فـينا شـعـائره الحُسنى فـلا أسـفـا

يا (قـائمـاً) بعـد أهليـه لنا ظهـرا		في طبقِ ما قَدْ جروا في المكرمات جرى
خبـا ضـيـاهم ولكنْ في عُلاكَ ورى		كـأنّنا بك يا بن الأكـرمين نرى
أباك والحَـبْـرَ (مـوسى) ذمَّـةً ووفـا

منزّهُ النـفس عن ذمّ يحـوب ولَنْ		يمسّ ثوبك من رجس العـيـوب دَرَنْ
أحـرزت مـا أحـرزاه سـؤدداً وعـلاً[1]		وجـعـفـراً عَـزْمَـةً والله يشـهـد أنْ
شاهدتُ فيك أبا (العباس) والشرَفا

---

(١) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله: «الظاهر أنَّ التنوين ليس بقافية للنون».

وردتَ صفو العُلى من صفو موردهمْ وقَدْ زكوتَ بزاكي طيب مَحْتَدِهِمْ
كـأننا فـيك نلقـاهم بمشـهـدهمْ عليك من بعدهم سيماءُ سؤددهمْ
لم تعدُ من مجدهم حدّاً ولا طرفا

مناقبٌ لك في وجـه الزمـان بَدَتْ مـثلَ الكواكبِ في أنوارها اتقـدتْ
محـاسنٌ في سواهم قَطُّ ما وُجِدَتْ علمٌ يكادُ يمسّ الغيب قَدْ شـهـدتْ
بفـضله علمـاءُ الدهر والعُـرفـا

وبشــره وذكــاهُ في ظرافـتـــهِ يسدي عن الخطب إذْ يسطو بآفته
وعـفّـة الذيل في زاكي نظافـتـه وخـيـر خلق كـريم من لطافـتـه
ترى الزمـان ومَنْ في ضـمنه لَطُفا

والفعل للخير إثرَ السـير في سننِ والصَبْرُ في الخطب والتسليم في محنِ
والصفح في الذنب والأعفاء عن أجنِ وخـشـيـة اللّه في سـرّ وفي علنِ
لم تختلفْ حـالتـاهُ جـهـرةً وخـفـا

خليفة الكل مأوى الكُلّ مقصدهم إنْ حـاولوا نائلاً أو حـاذروا تَلَفـا[1]

إن الخـلافـةَ عنكمْ غـيـرُ راغـبـة وقَـدْ تهادت لكم في زيّ خـاطبـة
سهـامُهـا في سـواكم غيرُ صائبةً بني (عليّ) يميناً غـيــر كــاذبةٍ
في دين (جـعـفر) حـقـاً أنتمُ الخُلَفا

وفي الزمـان ملوكُ الأرض منْ قِـدمِ وسـعـتمُ الناسَ في حلم وفي كـرمِ
لم يلجأوا من عـلاكم مـرتقى قَـدمٍ إنَّ البـرية من عُـربٍ ومنْ عَـجَمٍ
لكم رعـايا إذا مَـا أعطوا النَصَـفـا

عليكمُ للهُـدى طالتْ وفـادتُهـا ومِنْ علوم لكم عـمَّتْ إفـادتُهـا
وفي سـعـادتكم دامتْ سـعـادتُهـا أنتم أئمّـتُـهـا رشـداً وقـادتُهـا
قصـداً وسـادتُهـا الأمجـادُ والشـرفـا

قَـدْ أظهـرَ اللّهُ بالحُسنى شعـاركمُ وحـول قطب مـعـاليـهـا أداركـمُ
أنتمْ سَـبَكْتُمْ بكسبِ العلم داركـمُ والمانعـون طروق الضّـيم جـاركـمُ

(١) كتبَ المؤلف هنا : «ليس لهذا البيتِ تخميس» .

والمنعمون إذا ما وافدٌ عَكَفا

أنجحتموا ببلوغ القصدِ آملنا وقَدْ فجرتُمْ بجدواكم جداولنا

وكم أجرتُمْ وما جرتم عقائلنا ولا يزالُ على غيظ الزمان لنا

منكم صَدُوقٌ إذا خانَ الزمانُ وفا

وكم لنا من أهاليكم فتى شرفا أجرى من الليث إمّا صارخٌ هَتَفا

ودونَهُ الغيثُ إمّا وبلُهُ ذُرِفا إذا استجرنا به في النائبات كفى

أو استمحنا ندى إحسانه وَكَفا

تخشى بناتُ الليالي من فوادحهمْ أورى شرارَ المعالي زَندُ قادحهمْ

أعيا لسانُ ثنائي عن بمادحهمْ من فتية ما تخطّى وصفُ مادحهمْ

إلاَّ ومن دون أدنى شأوهم وَقَفا

كانوا كواكبَ ألطاف ومرحمة فكم جلوا غيهباً مِنْ كُلِّ مظلمةٍ

فما لغيرهمُ نارٌ بِمضرمةٍ هم آل (جعفر) عنهم كلّ مكرمةٍ

تُروى ومنهم جنيُّ الوردِ قَدْ قُطِفا

هم غوثُ مَنْ بهمُ يُلْجا بكلّ زمنْ وغيثُ مَن منهمُ يرجو بوادر مَّنْ

يفدون يندون إنْ جارَ الزمانُ ومَنْ سَلْ مَنْ أجارَ سواهم مَنْ أنالَ ومَنْ

أقالَ منّا عثاراً غيرهم وكفى

ما استوطنَ المجدُ إلاَّ في مواطنهمْ فهو الرديف لساريهم وقاطنهمْ

همُ الميامين فاسعدْ في ميامنهمْ دَعْ مَنْ سواهمْ وحدّثْ عن محاسنهمْ

أخبارَ صدق لأدواء القلوب شفا

أماجدٌ لم ينل من غيرهم تَرِبٌ وليس يُنهى إلى ما دونهم طَلَبُ

هم في الندى سُحُبٌ هم في البلا حُجبٌ مَنْ لليتيم أبٌ والمجتدي نَشَبُ

مَن للعدى حَرَبٌ مَنْ للسقيم شَفا

مَنْ جدُّهم أسسَ المعروف غيرهم مَنْ غيرُهَمْ سارَ في آثاره وَقَفا[1]

مَنْ سنَّ للخير آثاراً كسنّتهمْ فاستدفعَ الناسَ أخطاراً بجُنّتهمْ

---

(١) قال المؤلف: «لم نقفْ على تخميسه».

ويستقيلون أوطاناً بجنّتهمْ مَنْ راحَ (قيصر) مشمولاً بمنّتهمْ
مَنْ غيرُهمْ ردَّ (كسرى) بعدما رَجَفا[1]

لا تغفل عن هذا البيت فأنَّ فيه ضربة شاعر، وفذلكة ماهر، يحقّ أن تخرّ لها البلغاء إلى الأذقان سُجّداً، وتتخذها الفصحاء في مغاني الأدب والبيان معبداً، حيث أنَّهُ أشار إلى قصة صلح الشيخ موسى بين الدولتين، ودفع العسكر والحصار عن أهل العراق (كما مرّ آنفاً ذكره). وقَدْ كنّى بقيصر الذي هو ملك(الروم) عن وزراء سلاطين الدولة العلية العثمانية، وكنّى بكسرى الذي هو ملك (الفرس) عن وزراء الدولة السميّة الأيرانية. وإنما شملهم بمنّه لأنَّهُ دفع مُحَمَّد علي مرزة وعسكره عن بغداد وواليها سعيد پاشا وداود پاشا (كما عرفت). وهذا نوع من الأبهام والتورية، فأنَّ ظاهره المبالغة في عظمة الشيخ، وباطنه الأشارة إلى ما ذكرناه. وقَدْ صرّح بالبيت الذي بعده وهو قوله:

مَنْ الذي ركب العلياء ساهمةً مَنْ الذي وهبَ النعماء دائمةً
مَنْ الذي فرَّجَ البلوى مزاحمةً مَنْ الذي كشَّفَ الغمّاء داهمةً
عن (العراق) ومَنْ جلّى لها سدفا
هم المصابيحُ لا تطفى مشاعلهمْ تهْدى بها الناس حافيهم وناعلهمْ
كأنَّما اللّه أمنَ الأرضِ جاعلهمْ مَنْ راح للناس أمن لا يراع لهمْ
في الدهر سرب كأنْ طرفُ الخُطوب غفا
حقٌّ لهم قَطُّ ما قمنا بواجبهِ ولا فعلنا قَليلاً من مواجبهِ
مَنْ بيتُهم كعبةٌ طافَ الهجانُ بهِ مَنْ ظَلُّهم حَرَمٌ يُلجا لجانبهِ
إذ الرعيةُ لاقتْ شدةً وجَفا
جدُّ الأكاسر سَلْ ما جاز حدَّهُمُ لَّما لقى جدُّ (كسرى) الوقت جدَّهم[2]
به اقتدى واهتدى والرشدُ عندَهُمُ مَنْ تستمدُ ملوكُ الأرضِ رشدَهُمُ
إذا لَقَتْ من سياسات الورى كَلَفا
لهم قلوب لعمري غير غائبةٍ عن ألسن بادّكارِ اللّه دائبةٍ

(١) وفي نسخة أخرى: «وَرَدَّ عسكرَ (كسرى) بعدما رَجَفا».
(٢) قال المؤلف معلّقاً على هذا الموضوع «هذا أيضاً إشارة صريحة لما ذكرناه لك. ويعني بـ (جدّ كسرى الوقت) مُحَمَّد علي مرزة، ويعني (بجدّهم) هو الشيخ موسى (ره)».

ومَنْ أجـاروا الورى في كُلِّ نائبـةٍ صـفـا الزمانُ بهم عن كُلِّ شـائبـةٍ
لذاك أعـيـا عُـلاهمْ كُلَّ مَنْ وَصَـفـا

إذا اسـتـمـحنا روِيّاً من سـحـائبـهم فـقـد شـربنا هنيـاً من مـشـاربهم
وإنْ أرتنا الأمــاني مِن رغــائبــهم بهـم نعـشـنا وعـشنا في مـواهـبـهم
وكلُّنا مِنْ مـجـاري جُـودهم غـرَفـا

كـم من رياض لـهـم بالزهر مُمرعــةٍ وكـم حـيـاض بفيض الجُود مُـتْرَعةٍ
كُنّا بهـم في سنيِّ الجدبِ في سَـعَـةٍ ونحنُ ، واللّهُ يولي الفضلَ في دِعةٍ
بظلّ فـرعِـهـمُ الزاكي وقـدْ عَـطَفـا

حــرٌّ كــريم وفيٌّ بالعـــداة مليّ أحـيـا مُحيّاً من الحوراء في الكُللِ
مُـهـذب بِثـيـابِ الفـضلِ مشـتـملٍ (مُحَمَّد) بن (عليّ) مُنتـهى أملي
وعـصـمـتي من عنيـد الدهر إنْ عَنَفـا

لا زال ذا الفـضل يلقى كُلّ ذي شرفٍ له وللعــزِّ من أهليــه مــعــتـرفـا[1]

وقـال الشـيخ عـبـد الحسين رحـمـه اللّه يمدحه أيضاً ويعدّد مناقب أعمامه وأجداده وجلوس الشيخ مُحَمَّد بمكانهم ، ويعرّض بحسّاده ومعارضيه ، ويمدح ابن عمّه جدّنا العلم الأعلم الشيخ مُحَمَّد رضا بن الشيخ موسى . وهي من القصائد الفريدة التي لا نظير لها في بابها[2] ، وهي :

---

(١) قال المؤلف : «لم نقفْ على تخميسه» .

(٢) قال المؤلف : وللشيخ ابراهيم العاملي أيضاً تخميسٌ غريبٌ عليها (ولكنّه لم يحضرني الآن) ، ولكنْ رأيتُهُ عند (ولده) قبل هذا الوقت لمّا سرى الى بلده جبل عامل .

والحاصل أنَّ الشيخ عبد الحسين ، والشيخ ابراهيم (رحمهما الله تعالى) كانا فَرْسَيْ رهان ، ورَضيعَيْ لُبان ، في هذا الميدان ، دائمي الحضور في دار (المشايخ) . وكان شعرهما مقصوراً عليهم . وكان شأن الشيخ عبد الحسين أنْ يقول (الأصل) ، والشيخ إبراهيم (يُخمِّسهُ) . هكذا كان دأبهُما مدّة عُمرهما إلى أنْ تُوفي الشيخ عبد الحسين ، وسار الشيخ إبراهيم إلى بلده بعد وفاة الشيخ محمد (رحمهم الله جميعاً) . -إنتهى قول المؤلف- .

وقد أورد الخاقاني تخميس الشيخ إبراهيم صادق العاملي المُتوفى سنة ١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م ، (شعراء الغري ، ج١ ، ص١١٠) ، أولهُ :

بني (عليّ) نرى الأفصال مجملها فيكم ، وعنكم بكم نروي مُفَصّلها
يا أبحرا يـمّمَ العافـونَ منهلهـا إنَّ الرئاسةَ أنتمْ أهلُها ولهـا
همتم بها مثلما هامتْ بكم ولها

أمّا ولد الشيخ إبراهيم العاملي الذي أشار اليه المؤلف فهو العلامة الشيخ عبد الحسين صادق العاملي المُتوفى سنة ١٣٦١هـ/ ١٩٤٢م ، وكان من كبار الشعراء .

إنَّ الرئاسةَ أنتمْ أهلُها ولَها ... همتم بها مثلما هامتْ بكم وَلَها[1]

والعالمون إذا ما الناس قَدْ جهلوا ... والعاملون إذا ضلَّ امروٌّ ولها[2]

بني (عليّ) وما للأمر غيركمُ ... ملكتمُ من أمور الناس أوّلها

هذي العلوم لكم (كشفُ الغطاء) بها ... وكم فتحتمْ بعون اللّه مُقْفَلَها

وذي المعالي إليكم وردها ولقد ... رويتم عن أهاليكم مسلسلَها

أخبارُها صرّحت فيكم، وغيرُكم ... تكلّفَ الأمرَ لمَّا أنْ تأولَها[3]

لو أنزلَ اللّهُ مِنْ بعد النبيّ على ... سواهُ آيا إليكمْ كانَ أنزلَها

إذا افتخرتم ذكرتم (جعفراً) وكفى ... ما انفكَّ يفرج للنّعماء مشكلَها

وكم (لموسى) يدٌ بيضاء لآنَ لها ... صَعْبٌ ونالَ الأماني مَنْ تأمَّلها

له عصا حكمة الباري مؤيدة ... بأيِّها نفثات السحر أبطلَها

ومِنْ (عليٍّ) معال لو جهدتَ لها ... والعالمون جميعاً لن نفصّلَها

وما تفاضل أهلُ العلم في شرف ... إلاّ وكانَ أبو (العباس) أفضلَها

أماجدٌ تَهبُ النعماء أنملها ... من قبل أنْ ترد المُغْنَى لتسألها

مضوا كراماً فلا عينُ العلوم لهم ... ترقى ولم تتركِ العليا تولولها

ومُذْ قضى (الحسنُ) الزاكي تخيّل أنْ ... ما للشريعة عنهم مَنْ يقومُ لها

وما دروا قَدْ أعدَّ اللّهُ قائمَها ... (مُحَمَّداً) والفتى (المهديَّ) موئلَها

وفي ابن موسى (الرضا) عمَّنْ مضى خَلَفٌ ... تلقاهُ ما بين أهليه مبجّلَها

أكرم بهم فئة أوصافهم شرَع ... في الفضل إنْ تردَ الورّاد منهلَها

حسبي وحسب البرايا بعدهم خَلَفٌ ... أعباء أهليه طُرَّاً قَدْ تحمّلَها

بقيّة السلف الماضين والخلف ... الذي عليه الورى ألقتْ معوّلَها

(مُحَمَّد) بن (عليّ) خير من رَقَلتْ ... له المطيّ وشدّ الوفدُ أرحلَها

سرت إلى (قيصر) الأقصى محامده ... وجاوزت مسمَعَيْ (كسرى) فبجّلَها

---

(١) وَلَها: (هو من الوله) وهو شدّةُ الشوق (تعليقة المؤلف).

(٢) هو من (اللهو). (تعليقة المؤلف).

(٣) قال المؤلف الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء مُعلّقاً على هذا البيت بقوله: «حدثني العلم الصالح لجل الخلف المهدي: أنّه لمّا قرئتْ هذه القصيدة كان في المجلس بعضُ المُعارضين للشيخ محمد من (الأساطين)، فلمّا وصلَ القارئ إلى هذا البيت قام غضباناً، وقال: «أنا المُتكلّف لها»، ثم خرج.

يا مُحْرزاً جُملَ الحمد الجزيل له   وحائزاً من صفات المجد أجملَها
إليكَ منّي ولا مَنٌّ مــحـبّـرةٌ   ألقتْ بجنبِ حماكَ الرحبِ كلكلَها
طالتْ نظاماً وعن علياك قَدْ قَصُرَتْ   فـهـا لتـقـصـيرها تبـدي تظلّلَهـا

وقال الشيخ إبراهيم قفطان[1] يمدَحُهُ ويهنّيه في بعض أعياده ، ولم أجد إلاَّ قوله :

إنَّ الذي سـمكَ العُلى وبَنى على   أفـلاكـهـا المجـدَ الأعـزَّ الأمنعـا
وحـوى النُهى طفـلاً وأوطأ هامَـهـا   كـهـلاً ونالَ الدينَ والدُنيـا مـعـا
ذاك العليّ (مُـحَـمَّـد) علم الهُـدى   غيث الندى غوث الصّريخ إذا دعا
شمس المعارف بدرها السّاري الذي   مـلأتْ أشعـتُـهُ الجـهـاتَ الأربعـا
وَسعَ الملا فـضـلاً فـأصـبحَ جـاهُهُ   من هذه الـدنـيـا أجلَّ وأوسـعـا
وسـعى إلى إدراك غـايات العُلى   سعي الكرام فكانَ أسبقَ مَنْ سَعَى
ورعى الشـريعـة باذلاً في حـفظِهـا   جُـهدَ العليم فكانَ أحـفظَ مَنْ رعى
وأقـامَ مِنْ أركـان دين اللّه مـا   لولا عـلاهُ كـادَ أنْ يتـزعـزعـا
وحـمى حـقـيـقـة شـرع آل مُـحَـمَّـد   فَغَـدا لأشتـات المفاخر مجـمـعـا
سـرُّ الأله وكم له في نفـسـه   حـجج على مـا قلتُـهُ لن تدفـعـا
ومـهـذب سـادَ البـرية مُـذْ رقى   دوحَ التقى وحوى الفضائلَ أجمعا
فليـفـخـرنْ بوجـوده دهرٌ غـدا   أذناً لرائق مـا يقـولُ ومـسـمَـعـا
وليـهـنأنْ بوجـوده العـيـدُ الذي   من أجله فـيـه الـسـرورُ تجـمَّـعـا
مـا العـيـدُ لولا أنْ يشـام هلالُهُ   بجـبـينه مـتطلّعاً مـتـشـعـشـعـا
أخـذت عليّ صـفـاته ونعـوتهُ   سبل المديح فمـا عسى أنْ أصنعا
هي كـالكواكب لا يقومُ بحصرها   نظمي وإنْ كنتُ الخطيبَ المُصْقعا
يا واحـدَ الدنيـا وأفـضلَ مَنْ غـدا   بحـراً بأمـواج الفـضـائلِ مُـتْـرَعـا
وأجلّ مَنْ حـازَ العلوم بأسـرها   فـغـدا لطُلاّبِ المعـارف مَـفْـزَعـا
إنّي قَـصَرْتُ على عُلاكَ مـدائحي   وعلى ودادكَ قَـدْ طويتُ الأضلعـا
إنْ يَمْتَـدحْ غيـري سواكَ ويرتكبْ   نهجَ الغُلوّ فـقـد أصبتُ وضيَّـعـا

(١) تُوفي سنة ١٢٧٩هـ / ١٨٦٢م .

الفصل الثاني: في مراثيه وما قيل في تعزية إخوانه وبنيه فيه

قال السيد الأديب، والشاعر الحسيب، السيد أبو الحسن العاملي رحمه الله يرثيه (قدّس سره)، ويمدح المهدي ويعزّيه، مع إخوانه وبنيه، ويذكر جلوسه بمحل آبائه الكرام وهي:

كُنْ من زمانك في حَذَرْ ... وذر التنعُّمَ فيه ذَرْ
ما الدهرُ إلاَّ بغتة ... يَقضي به البشرُ الوطرْ
فيه تفوّق أسهماً ... للحادثات يدُ القَدرْ
ترمي بهُنَّ من الورى ... حُججَ الأله على البَشرْ
وتشنّ غارات الردى ... فيه فتحظى بالظَفَرْ
كم أعين سهرتْ به ... ولكم قذفن به الدُّررْ
من بعدً فقدِ أخي عُلاً ... دينُ النبيِّ به اعتمرْ
متكفّل أمرَ اليتامى ... غابَ منهم أم حَضَرْ
بحرٌ خِضَمٌ منهُ ما ... نبغتْ سوى الدررُ الغُررْ
والبحرُ يَجْزرُ مدُّهُ ... ونداهُ مدٌ وما جَزَرْ
إنْ مرّ بي عيشٌ حلا ... بوجوده فاليوم مرّْ
وأهانَ رزءكَ أننا ... لكَ في اللحوق على الأثرْ
إذْ لا محيصَ من القضاء ... ولا مناص ولاَ مَفَرْ
ما ضرٌ فقدُ (مُحَمّد) ... وإمامنا (المهدي) ظَهرْ
حَبْرٌ أبرٌّ فوق كرسيٍّ ... القضاء قَدْ استقرْ
حاوي فضائل (جعفر) ... والمقتفي منه الأثرْ
ولنا العزاءُ (بمُحسنٍ) ... عَلم أبيّ الضيم برْ
والماجد (الحسن) الخليقةً ... مَنْ بهِ الدهر ابتَهرْ

ولــنـــا الـــسـلــوُّ بـــآلـــه　　الصـيـــدِ الميـــامين الغُــرزْ
و(بجــعــفــرِ) الفـضل الذي　　بظهــورهِ البـــشـــرُ ابتـــشــرْ
حــيّـــا الحــيـــاء ضـريحَـــهُ　　مـــا اخـــضـــرَّ نبتٌ أو زَهرْ
أو رنّحت بمديحـــه الورقـــا　　عـلى وَرقِ الشَـــجـــــرْ[1]
أو مـــرَّ ذِكـــرُ (مُـــحَـــمَّـــدٍ)　　بين البـــريةِ والبَـــشـــرْ

وقال المرحوم الشيخ عبد الحسين ابن الشيخ نعمة الطريحي[2] يرثيه رحمه الله ويعزّي أخاه وبنيه (رحمه الله) :

أطلِ النوحَ إنْ شـهـدتَ الطُلولا　　واسكبِ الدمعَ بكرةً وأصـيـلا
أصـبـحتْ بلقعَ الديارِ وكـانتْ　　للمنوبين ملجـأً ومـقـيـلا
وعلى رغم أنفِـها استبدلتْ عن　　قـاطنيـها وحش الفـلا والغُـولا
واستنابتْ عن النشيد ونشر الـ　　ـمدح فيـها للفـاقـداتِ هديلا
وبحُكم الزمـان للذُلّ فـيـهـا　　جرَّ عـادي الخطوب عـمـداً ذيولا
ويحَ تلكَ الصروف كم جرّعـتنا　　غُـصَـصَـاً للفـراق أورثْ غليـلا
ذاكَ مِنْ عـادةِ الليالي فـعيشُ الـ　　ـحُـرِّ لو طابَ كـانَ فـيـهـا وبيـلا
فلذا كم رأى التـرحّل عنهـا　　ذو مـعـال سرى فـجدَّ الرحيـلا
ومضى مُسْرِعـاً فـحلَّ مـقـامـاً　　ومـحـلاً عند الأله جليـلا
أيُّ ركن للمكرمـات وحُـصـن　　للمـعـالي يا للرجـالِ أُمـيـلا
يا بني العلم إنَّ حـقّـاً عليكم　　إنْ تُطيلوا على العلوم العـويلا
قَـدْ فـقـدتمُ ربَّ الفـواضل والـ　　ـفضل ومَنْ كانَ للجميع كـفـيـلا
قَـدْ فـقَـدتُم بحرَ النوال وغيثَ الـ　　ـجُـودِ والطودَ الذي فـأت طُولا
قَـدْ فَـقَـدتُمْ مَنْ كـانَ أمنعَ كـهـفـاً　　لليـتـامى وكـانَ ظلاً ظليـلا
وربيـعـاً في النائبـات وغـيـثـاً　　وحُساماً في المعضلات صقيـلا

(١) الورقاء هي الحمامة . وعلّق المؤلف على هذا البيت بقوله : «تورية حسَنَة» .
(٢) ولد سنة ١٢٣٥هـ / ١٨١٠م ، وتُوفيَ سنة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م .

أحرزَ الفضلَ في العلوم فأضحى ... عندَهُ كُلُّ فاضل مَفْضُولا
وإليه ألقى الجميعُ قياداً ... وله أذعنتْ قبيلاً قبيلا
ما رجاهُ راجٍ وأمَّلَ إلاَّ ... نالَ منه المرجوَّ والمأمولا
مَنْ شَجَا فقدُهُ بني العلمِ والحلـ ... ـم وأبكى فراقُهُ التنزيلا
والهمام الذي بعلياه سادَ الخلق ... طُرّاً شيوخَها والكهولا
حسبُها عن كفيلها البرِّ (با ... لمهديّ) إنْ جارتِ الليالي كفيلا
واحد الدهر عالم العصر مَنْ ... أوضحَ للناسِ في الرشادِ سبيلا
بأبي (صالح) رأينا سجايا ... أهلهِ الغُرّ والقرون الأولى
وإذا سامَنا الزمانُ مصاباً ... فبهِ كشفُنا المصاب الجليلا
واغترفنا من (جعفرِ) الفضلِ علماً ... واغتنمنا قبل السؤال السُولا
أدركتْ عندَهُ المعالي مُناها ... حيثُ قَدْ كان عضبَها المصقولا
لم يَمُتْ مَنْ له غدا (محسنٌ) و(الـ ... ـحسنُ) الفعلِ في البرايا سليلا
وسَقى قبرَهُ الحيا كُلَّ يومٍ ... من سَحابِ الرضا أجشا هطولا

وقال الشيخ إبراهيم العاملي(1) يرثيه ، ويُعزّي ذويه ، ويمدح الشيخ مرتضى الأنصاري (رحمه الله ، وقدّس سرّه) :

هو البينُ لم يستبقِ في القَوسِ مَنْزَعا ... ولم يُبْقِ للعاني من الوجدِ مَفْزَعا
غداةَ أبو المجد الأثيل (مُحَمَّد) ... ملاذ النهى والعلم بالرغم أزمعا
نوى ضَعَناً والمجدُ باق مكانَهُ ... له جلدي يوم الرحيل مشيّعا
ولي كَبِدٌ قَدْ شفَّها بعدَهُ النوى ... وقلبٌ براهُ الحزنُ حتى تقطّعا
وأحشاءُ ملهوف معنّى أذابها ... جرى البينُ فانهالتْ من العين أدمعا
فيا ضاعناً لا مسَّكَ السوء إنني ... لفقدكَ لا أنفكُّ مضنى مروّعا
ويا هاجراً حاشاهُ لا عَنْ ملالةٍ ... ومُودَعنا نار الجوى يوم ودّعا

---

(1) نقل الخاقاني هذه القصيدة ،وذكر أنّها قُرِئتْ في رثاء السيد محسن بن السيد أمين الحسيني في مجلسِ الفاتحة الذي أُقيم في النجف ، (شعراء الغري ،ج١ ،ص٩٤) ،ويُمكنُ مطابقة النصّين ففيهما بعض التغيير ،علماً أنَّ عددَ الأبيات التي وردتْ في شعراء الغري (٢٠) بيتاً فقط .

علمنا بأنَّ العلمَ قُـوِّضَ والتُّـقى ... وركن الهُدى والمكرمات تضعضعا
وأنَّ العُلى أقْـوَتْ مـبـانيـهِ والأسى ... تزايدُ والسلوانُ أضحى مُـضـيّـعـا
إذا هتـفـتْ بي غـرّ أوصـافك التي ... سـمتْ أنجمَ الأفـلاك نوراً ومطلعـا
تأوهتُ منْ وجدي وأمسيتُ مِنْ جوى ... نحيلَ القُوى أطوي على الجمر أضلعا
أكـفكفُ أسـراب الدمـوع براحـة ... فتَهْمي كفيَّاضِ الغوادي تَدفُّعا
ولا عــجبٌ أنْ بتُّ حلفَ كــآبة ... أخا حسرات ناحلَ الجسم موجعا
فـأني أرى السلوانَ بعـد (مُـحَـمَّـد) ... حـرامـاً وإدمـانَ البُكاء تطوّعـا
فـيـا واحـدَ الدنيـا ويا غـوثَ أهلهـا ... ويا خيرَ مَنْ قَدْ كان للخَلق مَفْزَعا
سـعيتَ لنيل المكرمات وكـسـبهـا ... فكنتَ بحمد اللّه أسبقَ مَنْ سعى
لئن غـالبتْكَ النائباتُ وأصـبـحتْ ... ديارُ المعـالي يوم أزمـعتَ بلقـعـا
فكم قَـدْ غلبت الحـادثات وكـم غـدا ... بجدواك روضُ العلم والفضـل ممرعا
وإنْ تُمسِ رَهْنَاً في الـتـراب مغـيّـباً ... وشمسُ الهُدى والدين يمسي موزّعا
فكم كنتَ للدنيـا وللدين بهـجـةً ... وللفضلِ والتقوى محـلاً ومجمعا
لك الخير هَلْ من أوبة تُثْلجُ الحشا ... وتُطفي لَهـيـبـاً بين جنبيّ مُـودَعـا
ولولا سليـــلاكَ اللذان تسنّمـــا ... ذُراكَ ومِنْ سـامي عُـلاكَ تفـرَّعـا
هما (الحسنان) (المُحْسنان) كلاهُما ... به والمعـالي والفـخـار تلفّـعـا
لأفنيتُ آنائي نـحـيـبـاً ونحتُ مـا ... بقيتُ ولم أصرفْ إلى العذل مسمعا
وحسبي هما من بعد صنويكَ مَنْ هُما ... شـريكا عنانِ الفضل إنْ جَـرَيا مـعـا
رضيـعـا لُـبـان أحـرزا كُلَّ مـفـخـرٍ ... قديماً وقَدْ سادا ذوي العلم أجمعا
همـا حـافظا شَـرع النبيّ وحـامـيـاً ... حمى ملّة الأسلام من أنْ تُضَيّعا
همـــا ورثا علم النبيّ وشـــيّـــدا ... من الدين ركناً كاد أنْ يتضعضعا
هما أوضحا سُبْلَ الهُدى للورى وفي ... جبينيهما نورُ الهُدى قَدْ تشعشعا
هما للورى كهفٌ ولي بعد مَنْ مضى ... مـحلٌّ رجـاً لا أبتـغي عنه منزعـا
وبالخَلف (المهـــديّ) للناسِ سلوةٌ ... تغادر جمـر الوجـد بالثلج منقعـا
فـتى قـامَ بالأمـر الجليل وقَـدْ رقى ... محلاً غدا من مركز الشهب أرفعا
و(جعفر) بدر الفضل والعلم من غدا ... خِضَـمّـاً بأمواج المعارف مُتْرَعَا

فيا أيُّها الأمجادُ صَبْراً على الرّدى | وإن كان خطباً هائل الوقع مُفْزِعا
فأنَّ لكم بعد افتقاد (مُحَمَّد) | عزاءً بمَنْ قَدْ شادَ للدين أربعا
هو (المرتضى) بدرُ الهُدى حجّةُ الورى | منارُ التُقى مَنْ راحَ للفضل منبعا
إمامٌ له عقد الولاء وقَدْ غدتْ | لعلياهُ أعناقُ البرية خُضّعا
وحيّا الحيا رمساً بلطف سحابة | أبى مُدَّةَ الأيامِ أنْ يتقشّعا

وقَدْ أجاد غاية الأجادة، وأحسن غاية الحسن وزيادة، الشيخ صالح الشهير بالكوّاز(1)، يرثيه ويُعزّي السيد مهدي القزويني (ره):

نعى فشجا قلبَ الشريعةِ إذْ نعى | فعادَ لديه أحلمُ الناسِ أجزعا
وضيّع أهل العزم قوَّةَ عزمهم | كما أنَّ حُسنَ الحزمِ أضحى مضيّعا
فلم تلقَ هذا الكون إلاَّ بدهشة | كأنَّ الفنا في الناسِ نادى فأسمعا
لِفقد حليف المكرمات (مُحَمَّد) | لقَدْ كادَ قلبُ الدين أنْ يتقطّعا
فتىً كانَ في ألفاظه ولحاظه | حسامان كانا من شَبا الموتِ أقطعا
أبا (مُحْسن) قَدْ كنتَ للدهرِ مهجةً | فأوحشَ منها البينُ للرُزءِ أضلعا
وقَدْ كنتَ عرنينَ الزمانِ الذي به | يُزانُ له وجهٌ فأصبحَ أجدعا
وكُنتَ لعينيهِ الضياءَ فما الذي | أزالَ الضيّا عنها فأبدلَ أدمعا
فما أظلمَ المحرابُ بعدَكَ وحدَهُ | نَعمْ مشرقُ الدنيا ومغربُها معا(2)
كأنَّ ضياءَ الصُبح قَدْ حالَ لونه | أو الليل قَدْ أرخى على الصبح بُرقعا
فما أنتَ مَنْ خصَّ الأقاربَ رزؤهُ | ولكنَّهُ عمَّ البرايا أجمعا
ألم ترَ هذا الكون كالفُلكِ قَدْ غدا | يعومُ بموجٍ كالجبالِ تدفّعا

---

(1) الشيخ صالح الكوّاز من كبار شعراء الحلّة المُجيدين تُوفيَ سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م. وقد جمع بعض شعره المؤرّخ الكبير الشيخ محمد علي اليعقوبي، ونشره في ديوان مستقل عام ١٩٦٢م.

ويُلاحظ أنَّ الكثير من قصائد الرثاء في هذه الفترة تنتهي الى تعزية السيد مهدي القزويني، وهي لشعراء حليين. حيث شهدتْ الحلّة منذُ منتصف القرن التاسع عشر الميلادي إزدهاراً أدبيا لم تشهده هذه الحاضرة العلمية منْ قَبل بفضل جهود السيد مهدي القزويني الثقافية، حيث نزح إلى الحلّة سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م، وأمضى حياتهَ فيها، ولم يرجع إلى النجف إلاّ عام ١٢٩٤هـ/ ١٨٧٧م لتوليهِ مهام (المرجعيّة) الدينية حتى وفاته عام ١٣٠٠هـ/ ١٨٨٢م.

(2) علّق المؤلف على هذا البيت قائلاً: «هذا بيت القصيد».

بنفسيَ طَوْداً ضعضعَ الموتُ جنبَهُ ... وما خلتُ ذاكَ الطود أنْ يتضعضعا
فما خلتُ أقمارَ الهداية في الثرى ... تَغيبُ وقَدْ كانتْ لدى الأُفق لُمَّعا
أبا (جـعـفـر) أنتَ المُرجّى لمحنة ... إذا أشكلتْ أضحى بك الحقُّ مشرعا(١)
وأعلمُ خلق اللّه في كُلِّ مـوطنٍ ... وأرسـاهمُ في الخَطبِ رُكْناً وأمنعـا
كـأنَّكَ أعطيتَ الجـبـالَ وقـارَهاً ... وأوصيتَها في الخَطبِ أنْ لا تَزعزعا
فـمـا أنتَ إلاَّ عَـيْـبَـةٌ (لمُحَـمَّـدٍ) ... بهـا كُلُّ آياتِ النُبـوةِ أَودعـا

ولبعضهم من قصيدة طويلة في رثائه رحمه اللّه :

للّه أيُّ عظيم خَطْبِ قَـدْ عـرا ... أو أيّ داهيـة بهـا دُهي الورى
هدَّ الحِمامُ لآل (جعـفر) أخشباً ... وأجفَّ من بحر المفاخر (جعفرا)
أودى بأبلجَ من ذؤابة (جـعـفـر) ... رحب الفنا وقّـاد نيـران القِـرى
أودى بحـامي شـرعة الهادي إذاً ... مـا نابَهـا أمـرٌ حـمى وتنكّرا
أودى فـأمـسى الدينُ بعـدَ ذهابه ... متساقطَ الأطراف محلولَ العُرى
أبنـي (علـيٍّ) إنَّ طـودَكُـمُ هـوى ... وعمـادُكُمْ في الرّوع عادَ مُعَفَّرا
مَنْ لم يزلْ مِنْ علمـه ونوالـهِ ... للطالبين يمدُّ ثَمَّـةَ أبحـرا
يا مَنْ إذا وآفى العُـفـاةُ لبـابه ... ألفوهُ كالغيثِ الهطول على الورى
لو قلتُ فقتَ السابقين جميعَهُمْ ... واللاحـقين إذن لكنتُ مُقصِّرا
ما إنْ يخصّ مصابك القربى بلى ... قَدْ عمَّ مَنْ حلَّ (الغريَّ) بَلْ الثرى
عادتْ بحارُ العلم بعدكَ والهُدى ... يَبَسـاً وآذنَ مـدُّها أنْ يُجْـزَرا
فلتـجـرينَّ العينُ يا بحـرَ الندى ... من بعد فـقـدكَ مِن دماها أبحرا
إنْ كفّنوكَ فـأنَّ جسمَكَ لم يَزلْ ... يختـالُ في بُردِ التُقى متـأزّرا
أو غسّلوكَ فلن تزالُ منزّهَ الـ ... أقوال محمودَ الفعال مُطهّرا
أو حنّطوك فلن تزالَ مطيّـبـاً ... طيباً تَضُوْعُ به الصحارى والقُرى
ما ماتَ مَنْ أبقى لنا (المهديَّ) مَنْ ... يهدي - إلى نهجِ الهُدى - المتحيّرا

(١) أبو جعفر : هو السيد مهدي القزويني . وقد تُليتْ هذه القصيدة في مجلس التأبين الذي أقامه القزويني في مدينة (الحلّة) للشيخ محمد كاشف الغطاء .

علامةُ العلماء مَنْ أضحى التقى ... والعلمُ في إقباله مستبشرا
ذو رتبةٍ لو شاءَ أنْ يرقى لها ... فوق الثُريا لم يكنْ متعذّرا
شمسُ الشريعةِ قطبُ دائرة الهُدى ... مَنْ قَدْ تردّى بالتُقى وتأزّرا
وكذاكَ (جعفرٌ) الذي فاقَ الورى ... بفضائل وفواضلٍ لن تُحْصَرا
حيّا ضريح (مُحَمَّدٍ) صوبُ الحَيا ... ما مَرَّ ذكرُ (مُحَمَّدٍ) بين الورى

وأحسن من هذا كله ما قاله وحيد زمانه ، وأديب العراق على الأطلاق في أوانه ، السيد صالح القزويني البغدادي[1] (ره) :

جلل أطلَّ على (العراق) فمادا ... منه (الحجازُ) وزلزلَ الأطوادا
هوتِ النجومُ وكُوِّرتْ شمسُ الهُدى ... وترفَّعَ القمرُ المنيرُ سوادا
وعلى الضُحى خلعَ الدُجى جلبابَهُ ... فتجلببا من حَنْدَسٍ أبرادا
اليوم قادَ مُحمَّداً صرفُ الردى ... من بعدما ألقى إليه قيادا
اليوم صُدِّعَ شرعُ آل (مُحَمَّدٍ) ... والراشدين وضعضعَ الأرشادا
اليوم غارَ على المكارم والعُلى ... وعلى الهُدى والدين ذَرَّ رمادا
اليوم أدركت النوائبُ وِتْرَها ... مِن واترٍ جرعت به الأنكادا
اليوم أبرقَ بَغْتَةً غيث الأسى ... فينا وأرعد بالشجى إرعادا
اليوم أورى المجد واري زنده ... فطوى الظلوعَ وفتّتَ الأكبادا
اليوم قَدْ سُلِبَ الرقادُ فلم تَذُقْ ... أبداً عيونُ المسلمين رقادا
اليوم كُفَّ المعتقون وطالما ... قطعوا له الأغوارَ والأنجادا
اليوم غادي الجود أقلعَ بعدما ... بالجود راوحَ مرتجيه وغادا
اليوم ثلّم سيفُ أربابِ النُهى ... قَسْراً وحطّم رمحها الميّادا
اليوم قَدْ أردى (عَليّاً) والفتى ... (حَسَناً) و(موسى) القادةَ الأمجادا
اليوم جرّع (جعفراً) و(مُحمّداً) ... و(الخضرَ) كأسَ الحتف والأنكادا
اليوم بدّد شملهم مِنْ بعدما ... فيهم غدا شمسُ الضلال بدادا

---

(١) من كبار شعراء العراق ، وعلمائه تُوفي سنة ١٣٠٦هـ / ١٨٨٩م . ومعاصرٌ له السيد صالح القزويني الحلّي (ابن السيد مهدي القزويني) المتوفى سنة ١٣٠٤هـ / ١٨٨٧م .

كم قادَ أجنادَ الرّدى من بأسهم ... فرَقاً فردّوا القَهْقَرى الأجنادا[1]
اليوم جُبَّ سَنامُ كُلِّ فضيلة ... بهرتْ وكُلِّ عماد مجد مادا
اليوم أرقد أعيناً لم تكتحلْ ... حَسَداً له إلاَّ قَذىً وسهادا
بدرَ الهُدى ما حلتَ عن أُفقِ الهُدى ... تستبدلُ الأجداثَ والألحادا
بحرَ الندى ما خلتُ تصدرُ بالظما ... من بعد ردِّك بالرّوى الورّادا
روض العُلى ما بال وردك يانعاً ... أَلِفَ الذبولَ فأفجعَ الرُوّادا
نجمَ السعودِ أراكَ غبتَ ولم تكنْ ... تجلى النفوس فنجتلي الأعيادا
ربعَ المعالي الغُرِّ مالكَ مُوْحِشاً ... من بعد أنسك تصدعُ الوفّادا
نجحَ الأماني قَدْ قضيتَ وما قَضَتْ ... فيكَ الأماني الجامحات مُرادا
عينَ العوالم كيف سامَكَ بالقَذى ... زمنٌ وكنتَ لناظَريه سوادا
طودَ النُهى مَنْ دكَّ شامخَكَ الذي ... أرسى البلادَ وطاولَ الأطوادا
غوثَ العبادِ أراكَ لا تُصغي إلى ... شكوى العباد وقَدْ نويتَ بعادا
كهفَ الأراملِ كيفَ أحرمتَ الأرامل ... في النوازل برَّكَ المُعْتَادا
حلَّيتَ جيدَ الدهرِ ثم تركتَهُ ... عَطِلاً بأيد حلّت الأجيادا
كيف الحِمامُ عدا عليك ولم يَزلْ ... لجليل قدركَ خاضعاً مُنْقَادا
شمتتْ حواسدُنا ببعدكَ بعدما ... كُنَّا بقربكَ نُرغِمُ الحُسّادا
يا دهرُ قَدْ آليتَ ويلكَ عامداً ... أنْ لا تُبَقّي للرشاد عمادا
لك كُلَّ يوم غارةٌ شعواءُ عُدْ ... وآناً تُشَنُّ على الكرام طرادا
حتى استثرتَ من ابن (جعفرَ) قاتلاً ... شفرَ المنون شوازباً وَورادا
فتركتَ دينَ (الجعفريّ) على شفا ... جُرف عليه العادياتُ تَعادى
هَبْ قُوِّضَ الدهرُ المريعُ بفردهِ ... أوَ ما أقامَ مقامَهُ أفرادا
العالم (المهديّ) والعلم الذي ... حازَ المفاخرَ طارفاً وتلادا
نَقدَ المعالي صارفاً صرف الردى ... عنها فكان الصّيرفَ النّقادا
مَلِكٌ يُجَلُّ عن النظير كجدِّهِ ... وكذا أخوه فضيلةً وسَدادا

---

(١) قال المؤلف معلّقاً على هذا المعنى بقوله: «إشارة إلى ما تقدّم من ردّ عسكر الفُرس عن بغداد».

عذب المناهل (جعفر) الفضل الذي ... قصرَ الفواضل والفضائل شادا
قمران للعلياء قَدْ جرًّا على ... هام المجرة للعُلى أبرادا
المحييانِ من المكارم ما عَفا ... والهاديانِ إلى الهُدى مَنْ حادا
صبراً شقيقيه اللذين تسابقا ... للمكرمات فسابقا الأمجادا
وتزوّدا زادَ السلوِّ فأنّما ... زادُ السلوِّ عليه أجملُ زادا
لكُما الأسى بابنيه مَنْ فاقا الورى ... سَبْقاً وطالا في الفخارِ وسادا
مَنْ روّجا للعلم بعد أبيهما ... سُوقاً شكا بعد الرواج كسادا
ما منهما تلقاهُ إلاّ (محسناً) ... (حَسَناً) وَبَراً بالعُفاة جوادا
حيَّا الحَيا جَدَثاً تَضمَّنَ كوكباً ... من آل (جعفر) بالهُدى وقّادا
لا (جدّ) للآمال ساعةَ أرّخوا ... (كمُحَمَّدٍ صرف الرّدى ما اقتادا)

١٢٦٨

يُخْرَجُ سبعة ويبقى التاريخ[1].

ويليه في الحسن ما قاله الأديب المفلق، والأريب الذي هو في سماء الفخر محلّق، ذو الشرف الجليّ، السيد مهدي[2] بن السيد داود الحلّي، من بني عم السيد حيدر (رحمهم اللّه جميعاً)، وهي:

أرى الأرضَ مَعْ هضبها تضطربْ ... فتُوشَكُ في أهلها تنقلبْ
وهذي السماوات مِنْ مَوْرِها ... تكادُ تَساقطُ منها السُحُبْ
وساطعُ أنوارها شاحباً ... فأيُّ كواكبها قَدْ غربْ
وطبّقت الأرض ندباً تكاد ... تُدكُّ له راسياتُ الهضبْ
وناحَ القريبُ بها والبعيدُ ... يُجاوبُ في نَوْحِه مَنْ قَرُبْ
ونادتْ شريعةُ دينِ الهُدى ... أسىً عن حشى واجدٍ مُلْتَهِبْ
لِمَنْ ثكلَ الدينُ قالَ النُعاة ... (مُحَمَّدٌ) المصطفى المنتجَبْ
فيا أرضُ سيخي فما فيكَ مَنْ ... تُجلّى بها داجياتُ النُوبْ

(١) واخراج العدد (٧) من التاريخ هو مجموع الحرفين (ج) و(د) في قوله (جدٌّ) حيث أشار الشاعر الى اسقاطها من مادة التأريخ.

(٢) ولد سنة ١٢٢٢هـ/١٨٠٧م. وتوفيَ سنة ١٢٨٩هـ/١٨٧٢م.

ويا عَجَباً مِن صُروف الردى بقيّة مخرسها تَستلبْ
وكيف الذي فضّ ثغرَ المنو ن به نابُ حادثة قَدْ نَشَبْ
وكيفَ الذي غَلبَ النائبات يكونُ لَهُنَّ عليهِ الغَلبْ
وأنّى دنت منه وهي التي لُمعظم هيبتهِ تضطربْ
أفي زيّ عاف أتتْهُ فجاد بحوبائه حيثُ أفنى النَشبْ
وإلاّ فكيفَ تنالُ الذي بهيبة غُرّته محتجبْ
فَوَا لهفتا لِخضَمٍّ العقاب بصرف حوادثه قَدْ نَضَبْ
لِتَنْعَ الأراملُ والمرملون كافلها في السنين الشهبْ
وتبكي بصيّب أحداقها الـ يتامى على مَنْ لها كان أبْ
لقد كابدتْ بعدَهُ فادِحَين عُظمَ رزيّتهِ والسَغَبْ
ويا حاملي نعشه خلفه ملائكُ ربٍّ السما تَنْتَحِبْ
قفوا ساعدوها ولو مُتُّموا فلم يُقْضَ منْ حقّه ما وَجَبْ
ولا تحسبوا أنَّكمْ حاملونَ إلى القبر نَعْشاً رفيع الحَسَبْ
فأنَّ ملائكَ عرش الأله قَدْ رفعته لأعلى الرُتَبْ
وسارتْ به ونفوسُ الأنام معلّقةٌ فيه تخشى العَطبْ
إلى رتبة لم ينلْهَا سواهُ مِنْ دونها عالياتُ الشُهبْ
وأمسى بملك عظيم وقام (إمامان) فيما به قَدْ وَثَبْ
عليمان بالأمر قبل الوقوع كأنْ عِلْمُهُ عنهما لم يَغبْ
(فمهديْ) البريةِ هذا وذاكَ (جعفرُ) علم يُريها العَجبْ
ومِنْ خلق ذلك رقَّ النسيم وتعصر من كفّ هذا السُحُبْ
فلو ذاق خُلقَهما كاشحٌ لشكَّ وقالَ طِلاً أم ضَرَبْ[1]
نشتْ أولَ الدهرِ عليَاهما وشابَ ولكنها لم تَشبْ
لَئَنْ نُسبا (لعليّ) فَكُلٌّ أكرومة لهما تنتسبْ
لسانا منابرِ دينِ الهُدى ينوبان عن مُرْهَفات القُضبْ

(١) الطِلا : الخمرة ، والضَرَب : العسل .

إذا انعـقـدَ القـولُ في مـجـمع	وأعـيـا لـسـان الفـصـيح الذربْ
ترى في النديّ لسـانيـهـمـا	يفـلان بيض الضُـبـا بالخُطَبْ
بقـاء لعلم الورى كـتـبـهم	وعلمـهـمـا فـيـه تبـقى الكتبْ
وإرثهـمـا المجـدُ والمكرمـات	إذا كـان إرثُ الأنـام النَـشـبْ
ألا يا سـمـائيَّ علومِ الهُـدى	وبدريهِ في ظلمـات الرِيَبْ
بعليـاكـمـا بنت رأيِ المُصـيب	قَـدْ برزتْ من سـتـور الحُـجبْ
أتتْ بمعـان دقـاق تبينُ	بهـا مـا على أختِـهـا مِنْ عَـتبْ
فلو تنظران لهـا في عـيـون	آبائكم عظمـاء الـرتبْ
لأبصـرتما أنَّهـا منكمـا	أحقّ لأخـلاصـهـا بالعَـتَبْ
قـضتْ من حقـوقكمـا ما نَدبْ	ولم تقـضـيا بعضَ ما قَـدْ وَجَبْ
وحـبلُ وداد كـمـا أحكمتْ	وعندكـمـا حبلها منقـضِبْ
ومَنْ ذام عن ودّ مَنْ قَـدْ أحبَّ	وحُـرِّكَ في بعض ذا العـتب هبْ
وعند اللبـيب خليص الوداد	أحقّ به من خليص النَسبْ
بني (جـعـفـرٍ) لا جرى بعـد ذا	المصـاب لكم مـدمعٌ مُنْسَكبْ
ولا زال بيـتكـمُ آمـنـاً	ولا تتـخطى إليـهِ النُوبْ

وأظنه رحمه اللّه عنى بأختها المعتوب عليها قصيدته الثانية في رثائه (ره) وهي قصيرة ليس فيها أداء ما ينبغي من الأحترام والتعظيم . والظنُّ أنَّ هذا هو سبب العتب عليها ، وهي قوله :

كُلَّ يوم للهـدى طودٌ يُهَـدّْ	وذكا يحجبُها في التُرب لحدُ[1]
وحـسـامٌ من سـيوفِ اللّهِ في	مُـرهفِ الموتِ له ينفلُّ حـدُّ
مـا لنا بالأمس كُنَّا في حـمى	الدين عنّا تَدفعُ الأعـداء أُسـدُ
وعلينا نثـرةٌ من حـفظهم	للضّـبـا مـثلومـة الحـدّ تُردُّ
كـيف أضـحـوا للمنايا غَـرَضـاً	مـا لهم عن مسكن الأجداث بُدُّ

(١) ذُكاء : الشمس .

فبقينا لا بقينا بعدهم ما لنا عن قُربِ وسم الضيم بُعدُ
فيأسنا أنْ نرى ثلمتَهم بسواهم أبد الدهر تُسَدُّ
فتلافاها هَصُوْرٌ منهمُ لحفاظ الملّة الغرّا مُعَدُّ
ردّ أفواهَ زمانٍ بعدما حكّمَ العضّة فينا وهي دردُ
دوّخَ الدهر وفي أحشائه مِنْ لظى عزمتهِ رُعبٌ ووقَدُ
حوّلٌ ما حُلّ يوماً حقدُه ولما قَدْ حلَّهُ لم يكُ عقدُ
ملأ العالمَ علماً باهراً ما له في حيّز العالم حَدُّ
رطب المنطق والأفواهُ يبسٌ وهي عمّا سألوها لا تُردُّ
وبه اعتاضَ الهُدى عن قومه وكأنْ فيه من الأجداث ردّوا
بينما الأسلام فيه باسمُ الثغرِ قَدْ وآفاهُ بعد النَحسِ سَعْدُ
إذ رمتْهُ قاصماتُ الدهرِ في حادث منه الأخاشيب تُهدُّ
أفجعتْهُ بفتى في مجدِهِ ما له في سائر الأمجادِ ندُّ
فبقي مِن بعدِهِ في مُقلٍ مكمهاتٍ من بُكاها هي رمدُ
ما رآهُ أحدٌ في النعش إلاّ ظنّ أنْ في نعشِهِ يُحملُ (أُحدُ)
وله قَدْ شَقّ قبرٌ تُربَه من شذا مفخره ندٌّ ورندُ
دفنوا في لحده العالمَ يا عَجَباً هَلْ يجمعُ العالمَ لحدُ
يا بني الأسلام صَبْراً في خطوب شُلّ فيها من يد الأسلام زندُ
فالأمام المُجتبى (المهديّ) أضحى إزرَ دينِ المصطفى فيهِ يُشدُّ
سيّد في نفسه عن علماء الـ أرضِ والسبع السماوات يسدُّ
فأذا ما الشُبهاتُ استحكمتْ فله في كشفها حلٌّ وعَقدُ
عدّة للخَلقِ في الجُلّى وقَدْ رُفعتْ فيه إلى العرش (مَعَدُّ)
فلئن جاء أخيراً في الورى مجدُهُ قبلٌ ومجدُ الناسِ بَعدُ
ولئن ماتَ سميّ (المصطفى) فله ما مات طول الدهر حمدُ
يخلق الدهر ويبلى وله بلسان الدهر ذكرٌ مستجدُّ
وبه فليهنأ القبرُ فما هو إلاّ لحسامِ اللّه غِمدُ

وقال الشيخ حمّادي بن سلمان بن نوح[1] الحلّي يرثيه ويعزّي السيد مهدي القزويني رحمه اللّه :

بفـيض الدمـوع أذلتَ المُقلْ ... أفـأجـأكَ المُصْـمـألُ الجَلَلْ
وأفنيتَ صـبـرَكَ طوعَ الأسى ... وجـهـدُ الأسى منكَ عنه تجلْ
نعم وهو في العـهـد لم ينتصفْ ... بحـقـكَ لكنْ بمعناهُ ضَلْ
لقد كنتَ حلْيَةَ جيد الجلال ... فـمـا بالُهُ منكَ أمسى عَطِلْ
لقَدْ عـثـرَ الدينُ يا مَنْ عَـذلْ ... برغم الهُـدى عـثـرةً لم تُقَلْ
وبدرُ الشـريعـة حينَ الكمـال ... عليـه المحـاق سـريعـاً أطلْ
فـيا شـدَّ مـا لاحَ في أفـقـهـا ... ويا شـدَّ مـا عَنْ سـمـاها أفلْ
لمن برزتْ ناشـرات الشـعـور ... حـسـانُ الشـرائع تُبدي الثَكلْ
أغلنَ أبا (الحـسـن) النائبـاتُ ... أم الشـركُ باللّه في الكونِ حَلْ
بلى ضـمّت التـربُ جـثـمـانَهُ ... ومـغنى الهُـدى منه أمسى طَلَلْ
لتُـبـد الهـداية نَوْحَـاً له ... ألاَ كُلُّ شيءٍ سـواهُ جَـلَلْ
وتُلقِ الملوك بوجـه الثـرى ... عـمـائمـهـا وحُـبـاها تُحلْ
فـقـد كـان منهـا لسـانَ المقـال ... وباعـاً طويلاً إنِ الأمـرُ جَلْ
فـجـذّ الردى فـيـه منهـا اللسـان ... وغـال سـواعـدها بالشـللْ
أعـاذلتي إنَّ حُـسـنَ العـزاء ... إذا مـدمع بالدمـوع اتّصلْ
تَعـالَيْ أُعْلِمـكِ أوصـافَـهُ ... لنرفـعَـهُ رتبـةً لم تُنلْ
فـفي في حـضـيض ذُرى رتبـة ... رناهـا بطـرف كـليـل (زُحلْ)
ونَادَيْ هنـاكَ أبا (جـعـفـر) ... سـموتَ على ذاك أعلى مَـحلْ
ألستَ الـذي فـوق مـا ندّعي ... حـجـاكَ إذا خفَّ (رضـوى) ثقُلْ
لقـد قـيلَ فـيكَ بدا جـازعـاً ... أينـفعُ بعـد انقطاع الأملْ

وقال يرثيه لسان بني هاشم ، وجذوة المكارم ، الذي سارت بحسن ذكره الركبان ، ولهجت برائق شعره ألسنة القاصي والداني ، الأديب الحسيب ، ذو الشرف الجليّ ، السيد

---

(١) ولد سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م ، وتوفي سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م .

حيدر[1] بن السيد سليمان الحلّي . وستأتي عليك (إن شاء الله) كثير من أشعاره ، وقصائده وغرره ، ويعزّي فيها سيد سادات (لوي) ، وعلم فخار (قحطان) و(قصيّ) ، إنسان حدقة الشريعة ، وعماد قباب عزّ الشيعة ، سيدنا أبا صالح السيد مهدي القزويني (قُدّس سره) ، وهي :

طرقتْ فالأنامُ منها سكارى ... تملأُ الكونَ دهشةً وانذعارا
بِكرُ خطب لا يُنشد الصبر فيها ... قَدْ أتانا بها الزمانُ ابتكارا
في حديثٍ الأحقاب لم يأتِ فيها ... وقديماً لمثلها ما أثارا
قَدْ هَفتْ عندها الحُلومُ ومنها ... أنجدَ الوجدُ في الصدور وَغارا
برّدتْ سائرُ القلوب ردىً منها ... وعادتْ من الغليل حِرارا
ولها كادت المدامعُ ـ لولا ... حَرُّ أنفاسنا ـ تكونُ بحارا[2]
نكبةٌ تملأُ الوجودَ مُصاباً ... يملأُ الأرض والسما استعبارا
يا نفوسَ اللاجين طيري شُعاعاً ... أدركَ الدهرُ عندك الأوتارا
وأبردي يا حشاشةَ الشرك أمناً ... ماتَ مَنْ كانَ بين جنبيك نارا
فبمَنْ يغتدي الهُدى مستجيراً ... فَقَدتْ كعبةُ الهُدى المُسْتَجَارا
ولها أصبحَ الحطيمُ حطيماً ... يتوارى في التُربِ حين توارى
ودَجَا الأُفقُ في دجى غيهب الحُزنِ ... وهبّتْ ريحُ الصَبا إعصارا
سوّمي يا خطوبُ خيلكِ فينا ... تغنمي أينَمَا قصدت المغارا
وارتعي في حِمى الورى فالمنايا ... أنشبتْ في هِزَبْرِها الأظفارا[3]
مَنْ حماها عن أنْ تُراعَ وقسراً ... ردَّ أيدي الأيام عنها قصارا
همَمٌ حيثُ لا يُرى البدُر سرّاً ... مصعداتٌ لا تعرف الأنحدارا
كيف تخلو لهُ من الحُزنِ دارٌ ... والندى منهُ لم يفتْ ديّارا
ملكَ الناسَ بالسّماح عبيداً ... فغدوا بعد فقدهِ أحرارا[4]
أبُغاةَ الأسلام لا تتناجوا ... بانتقاص الدين الحنيف سِرارا

---

(١) من أعاظم شعراء العراق في عصره ولد سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٣٠م ، وتوفي سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م .
(٢) حذف المؤلف ثلاثة أبيات من هذه القصيدة ، وهي مثبتة في ديوان السيد حيدر الحلّي ، ج٢ ، ص١٠٨ .
(٣) الهزبْرُ : الليث .
(٤) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله : «هذا البيت أمّا حسن جداً إنْ تمّتْ تورية (أحرار) ، وإلاّ فلا معنى له» .

فالأمامُ (المهديُّ)[1] قَدْ قامَ فينا | عَلَماً يُرشدُ الورى ومنارا
ما بنى اللّه من سماءِ علوم | فهو بدرٌ في أفقها قَدْ أنارا
لازمَ الحقَّ في هُداهُ فأضحى | مَعَهُ الحَقُّ حيثما دارَ دارا
منهُ ملءُ الأبرام عدلٌ وتوحيدٌ | وفخرٌ من (هاشم) لا يُجارى
فترى الناس هيبةً منه خُرْساً | يتناوجون بالحديث سِرارا
يا أجلَّ الورى علاءً وَقَدْراً | وأعزَّ الأنام نَفْساً وجارا
عَقَدَ العيُّ منطقي أنْ أُعزِّيكَ | فمنكَ العَزا غدا مستعارا
وقبيح منّي إذا قلتُ صَبْراً | للذي علَّمَ الورى الأصطبارا

وهذه كما ترى ، وإن كانت جيدة ، إلاَّ أنها ليست من منظوماته الفريدة ، وقصائده المعدودة ، كما ستعرف هذا بالنسبة إلى ما سيرد عليك من أشعاره . وبمقتضى القاعدة أنَّ (السيد)[2] كان يومئذ صغير السنّ ، فتكون إذن من محاسن الشعر .

ولنكفّ عنان القلم عن سرد مراثيه فأنّه يستلزم عدم (التناهي) .

واعلم أن الشيخ مُحَمَّد هذا ، وأخوه العلم المهديّ (الآتي ذكره قريباً إنْ شاء اللّه) مما لا يمكن حصر ما قيل فيهم خصوصاً في المراثي لعظَم فقدهما على الناس ، ووقوع الهرج والمرج والالتباس ، حيث كان كُلّ واحد منهما بعد الآخر رئيس الأسلام ، وكفيل جميع الناس خصوصاً الأرامل والأيتام . ولهذا بقيت العرب تلطم بعد وفاة كلّ واحد منهما حولاً كاملاً في أغلب الليالي .

وسيأتي في الشيخ مهدي ما هو أعظم من ذلك . وقَدْ ذكرنا لك في مراثيه ما يكفيك في عظمته .

فلنختم المقال ، بما يدلّك على غاية من الشرف تقف دونها الأوهام ، وهي قصيدة الأديب الأوحد ، وعلم الكمال المفرد ، نادرة زمانه ، وفذلكة أوانه ، عُمريّ النسبة ، علويّ الوداد والمحبّة ، المَوْصِلي العراقي ، الشاعر المُفْلِق الأديب عبد الباقي[3] ، كان من أعاظم أهل

---

(١) هو السيد مهدي القزويني .

(٢) كان عمر السيد حيدر الحلّي (٢٢) عاماً عندما نظم هذه القصيدة ؛ حيث أنَّ ولادتهُ كانت سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م ، ووفاة الشيخ محمد كاشف الغطاء سنة ١٢٦٨هـ / ١٨٥٢م .

(٣) عبد الباقي العُمري الفاروقي ولد سنة ١٢٠٤هـ / ١٧٨٩م في الموصل ، وتُوفيَ سنة ١٢٧٨هـ / ١٨٦١م . وقد شغلَ في شبابه منصب (نائب) والي الموصل ، ثم (نائب) ولاية بغداد ، وكانت له صلات واسعة مع أدباء عصره ، وعلمائه في عهد الوالي داود باشا ، ثم في عهد الوالي علي باشا اللاز .

السنة والجماعة ، وأولي الشرف بينهم والزماعة . هاجر من (المَوْصل) إلى بغداد ، واتّصل بوزرائها ، وعظم في أعين عظمائها ، فرثى ومدح ، وأخذ الجوائز والمنح ، إلى أن طار ذكره في الآفاق ، وملأ صيته العراق ، وكانت الولاة والأمراء تستصحبه في أسفارها ، وتحبّ منادمته في ليلها ونهارها . وله كتاب «الباقيات الصالحات» ، كله في مديح أهل البيت (ع) . وله ديوان شعر كبير ، وشعره متداول معروف فلا حاجة إلى ذكره .

وكانت له مودّة أكيدة ، وصحبة شديدة مع هذه (الطائفة) لمّا عرف من جلالة قدرهم ، في العراق ، وانتشار ذكرهم ، في سائر الآفاق . وكان قَدْ جاء زائراً مراراً عديدة إلى النجف ، منها : عند مجيء علي پاشا الذي جاء لأهلاك طائفتي الزقرت والشمرت ، ونزل في دار الشيخ الكبير ، ضيفاً عند الشيخ علي بن الشيخ جعفر (ره) .

ومنها : مع نجيب پاشا (المتقدم ذكره آنفاً) الذي نزل ضيفاً عند الشيخ حسن بن الشيخ الكبير ، هو مع جميع جنده وعساكره (على ما سبق) .

ومنها : مع نوري بيك الذي جاء في زمان الشيخ مُحَمَّد هذا (رحمه اللّه) ، إلى غير ذلك . وكان صاحب نوادر ونكات ، لا تحتملها هذه الوريقات ، ولم تزل مودّته تتأكد ، وصحبته تشتدّ ، ويراسل كُلّ من (يتخلّف) من هذه (الطائفة) رئيساً وإماماً .

وله فيهم مدائح ومراث ، منها هذه القصيدة التي أودعها فذلكة بديعة ، ونكتة فيما أظن مبتكرة ،حيث أنّهُ ضمَّنَ (أعجاز) قصيدة امرئ القيس ، وجعل لها (صدوراً) منه ، وقلبها في رثائه وتعزيّة أخيه الشيخ مهدي . وقَدْ بعثها إليه من بغداد ، وهي قوله :

أ(مهدي) الورى صبراً على فَقْدِ فَرْقدِ ... تنقَّلَ من بُرجٍ لأشرفِ منزلِ
كأنّي إذا جرّعت صابَ مُصابهِ ... لدى سمراتِ الحيِّ ناقف حنظلِ
وسيلُ جفوني من دموعيَ قَدْ جرى ... على النّحر حتّى بلّ دمعيَ محملي
ومنه أقل النعش ربوة سؤدد ... فيا عَجَباً من كُوْرِها المتحمّلِ
رأتْ مقلتي دمعي تعثّرَ بالأسى ... فقالتْ لكَ الويلات أنّك مرجلي
فيا حسراتي من فؤادي تَقَرّبي ... ولا تبعديني من جَناك المُعلّلِ
ويا كَبِدي ذُوبي عليه صبابةً ... وإنْ كنتِ قَدْ أزمعتِ صَرْماً فأجملي
وقَدْ حرَّمتْ من بعدِهِ النومَ مُقلتي ... عليّ وآلتْ حلفةً لم تحلّلِ

وأجرت فجرّت يوم تشييع نعشه على أثْرنا أذيال مـرطٍ مُـرحّلِ[1]
وإن كنت يا نفسي سئمتِ رفاقتي فسلّي ثيابي من ثيابك تنسلي
أفاجاكِ من قلبي سُلوُّ أحبّتي وأنّكِ مهما تأمري القلب يفعلِ
وعينيكِ يا أمَّ الدواهي لقد رمتْ بسهميك في أعشار قلب مفتّلِ
فللّه أيامٌ مضتْ لي بقربه تمتعتُ من لهوٍ بها غير معجلِ
وما كنتُ أخشى يومَ كنتُ جوارَهُ عليّ حراساً أو يسرّون مقتلي
تعرّض من دمعي على الخدّ عارضٌ تعرّضَ أثناء الوشاح المُفصّلِ
عليه المعالي طابَ خلعُ عَذارِهَا لدى الستر إلاّ لبسة المتفضّلِ
فيا دهرُ فاتتكَ الهدايةُ بعدَهُ وما أنْ رأى عنك الغواية تنجلي
فللّه نَعْشٌ من جنازته انتحى بنا بطنَ خبت ذي حِقاف عقنقلِ[2]
يقولُ من العليا ستُبدى نواحَها عليّ هضيم الكشح ريّا المخلخلِ
وكم من صدور غبّرتها مصيبتي ترائبها مصقولة كالسّجنجلِ[3]
وأضحى قلوباً كان من سحب كفّه غذاها نميرُ الماء غير محلّلِ
وأمُّ العُلى راحتْ تُلاحظُ نعشَهُ بناظرة من وحش وجرة مُطفلِ
وجيد إليه يلتوي غير منثن إذا هي نصتّهُ ولا بمعطّلِ
وقَدْ نكثتْ من شَعْرِها أيَّ مندف أثيث كقنو النخلة المتعثكلِ
إذا نثرتْهُ في العزاء يدُ الأسى تضلّ العقاص في مثنّى ومرسَلِ
وكم (جعفر) من مدمع لابنهِ جرى وساق كأنبوب السقيّ المذلّلِ
ومن بعده أضحت مدارس فضلهِ نؤومَ الضُحى لم تنتطقْ عن تفضّلِ
ومنْ أثرِ التخديش يحكي بنانها أساريع ظبي في مساويك أسحلِ[4]
حكتْ بعده في وقدها كُلُّ مهجةٍ منارة ممسي راهب متبتّلِ
تهيجُ صباباتي عليه لواعجي إذا ما اسبكرّت بيْن درع ومحولِ
فيا بهجةَ الدنيا سلا عنكَ مَنْ سلا وليس فؤادي عن هواكَ بمنسلي

(١) المرط هو الكساء.
(٢) العُقنقُل: الرمل المُتلبّد، والحقاف: الرمل المعوّج.
(٣) السجنجل: المرآة، (وهي كلمة روميّة مُعرّبة).
(٤) الأساريع: نوع من الديدان يكثر في (البقول)، والمساويك: جمع المسواك، والأسحل: نوع من الأشجار.

وكم عـاذلٍ لي في العويلِ زجـرتُهُ نَصيْحُ على تعـذارهِ غـيـر مـؤتلِ
ولـيل همـــوم قَـــدْ أناخَ جـــرانُهُ عليّ بأنواع الهـــمـــوم ليــبــتـلي
وأعــرق من قُطرِ العــراق عظامُـــهُ وأردف أعـــجـــازاً وناءَ بكلكلِ
ومَنْ كان ذا يأسٍ من الصُبح لم يَقُلْ ألا أيُّهـــا الليلُ الطويلُ ألاْ انجلي
ومِنْ عـجب بَحـرٌ غـدا مـتـدليـاً بأمــراسِ كـتّــان إلى صُمٍّ جندلِ
فـيـا ليـتني كنتُ المشيّعُ نعشَـهُ على كــاهلٍ منّي ذلول مُــرحّلِ
فَمِنْ بعدِه وادي (الغريّ) لقد غدا به الذئبُ يعـويّ كـالخليع المعـوّلِ
وغــارتْ علينا النائبـاتُ لفـقـده بمُنْجَــرد قــيـــد الأوابدَ هيكلِ
من (النجف) الأعلى أتى لي نعيُهُ كجُلمودِ صخر حطَّهُ السيلُ مِنْ عَلِ
وزلّت عـقـولٌ عن مـراكـز دركـهـا كـــمـــا زلّت الصـــفـــراء بالمتنزّلِ
وكُلُّ فـؤاد باتَ يغلي من الجـوى إذا جـاشَ فـيـه غَلْيُـهُ غليُ مـرْجَلِ
وكم مِنْ عوّاد عـاديات بضـبـحـهـا أثرنَ الغُـــبـــارَ بالكديد المُركّلِ
طويل عنائي في يد الحـزن مـثله تتـابعُ كـفـيّـه بخـيط مُـوَّصلِ
مضى مُشْبعُ الضيفان إنْ نزلوا به ضـعـيف شـواء أو قـديد مـعـجّلِ
أقـامَ بقلبي شـخـصُـهُ بعـدمـا نأى وباتَ بعـيني قـائمـاً غـيرَ مـرسلِ
إذا انفـتلتْ لي مـهـجـةٌ عند ذكـره أمـــال السليط بالذبال المفـــتّلِ
وقَـــدْ سحَّ من عينِ العـوارف وابلٌ يكبّ على الأذقان دوح الكُنهبلِ[1]
ومـدَّ الأسى كـفّـاً إلى وعل العُلى فــأنزلَ منه العـصم من كُلِّ منزلِ

وقال السيد في (يتيمته) :

ونحمدك يا من تفضّل علينا وعلى جيلنا بذي القدر العليّ ، (مُحَمَّد) بن (عليّ) ، وهو مبدأُ إخوته ، وخاتمة عمومته ، وصدر الطبقة من إخوته ، والمرتفعة بتصاعد النسب إلى المنصب العلي ، المتولّي منصب القضاء والفتوى بعد عمومته ، والمُجْلي غيهبَ المشكلات ، بأقمار فكرته ، وأنوار طلعته ، والغائص في بحار العلم والكاشف عن حقيقته ، المنيع كنفه ، ومن انجبت به سلفه ، نبعة دوحة جود ومجد ، وقطب دائرة سعد ، صارم بأس به ظهور الأعادي تنقصم ، وعروة علم لا تنفصم ، وسنان حزم جرحه لا يلتئم ، يلوح تبيان

(١) الكُنهبل : نوع من الأشجار ، يكثر في البادية .

الغوامض من بنانه ، وتبدو ثمار الفضل من دَوْح بيانه ، مولى قَدْ انغرس في قلبه شجر الهداية ، فزهت بها أغصان الدراية ، وسقتها ينابيع الحكم المتفجّرة من جميع جوانبه بما يبهر العشر العقول ، ولقحتها أيدي غرائبه في الفقه بما حيّر الأساطين الفحول ، بحر تزبد بالفضل أمواجه ، ولا تُدرَك فجاجه ، ولا يضلّ منهاجه ، فلق منير ، وفيلق نحرير ، وغدير يمدّ بحار العلم بحرُ علمه الغزير ، توازن به الجمال والجلال ، وأقبلت عليه الدنيا كمال الأقبال .

وليس هو من حزبنا وسربنا المعاصرين لنا من أول العمر فنوفّق لأيراد بعض صفاته غير أنا نشأنا عليه وهو يدرّس بحزب من المحصّلين ، في غير مدرسة آبائه وأجداده ، لوجود عمه (الحسن) بن (جعفر) . ولمّا إفتُقد صارت الناس إليه ، وصار مُعوّلهم في الأحكام الشرعية عليه ، وجلس في مجلس القضاء ، ودرّس في مدرسة آبائه جمّاً من الفضلاء والفقهاء ، واستجازه كثير من ذوي الوصول ، في الفقه والأصول .

ولقد قرأتُ عليه برهة من الزمان ، حتى ألّفتُ في القراءة عليه (التجارات) إلى آخرها ولم أكن إذ ذاك من أكابر العلماء . نعم غاية ما يصل إليه الذهن القاصر ، من (تقريرات) هذا الأستاذ الماهر ، أودعه في بطون الطروس ، بنمط تبتهج به النفوس ، وألّفت بها كتاب «الرّبا» ، الذي تنفح عباراته بأرج العبير نفح نسائم الصبا . ولقد كان يلتقط حبّ الفتوى من معادنه بفكرته ، ويُودِعُها في (رسالته) ، وهي الرسالة المألوفة بين الناس .

وكثيراً ما قيل فيه من المدائح بالشعر الرائق مما لا يحضرني الآن . وقال بعض الأفاضل بحضرته مخاطباً أمير المؤمنين عليّ (ع) :

فأمّا (الولايةُ) في النشأتين ... وإمّا (الحكومةُ) فيها (فَلَكْ)

فقال هو (ره) :

وقَدْ كُنتَ نوراً بعرش الأله ... إلى الأرض سبحانَ مَنْ أنزلكْ

وقَدْ تأتّى له ما لم يتأتَ لأحدٍ من نفع الفقراء والمساكين ، والأصلاح بين الناس والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وفرطُ السّخاء والكرم ، على العرب والعجم ، حتى أدّى به إلى رهانة كتبه ، وبيع جملة من أملاكه ، لترويج المشتغلين ، وإعانة الفقراء من المحصّلين ، ورفعه ما ألمّ ، وكشفه ما أهمّ ، بما حازه من علوّ الرفعة ، والحماية والمنفعة عند الحكام والأكابر ، والملوك والعساكر ، ومن فرط جدّه وجهده بأصلاح الدين ، وتشييد أركان شريعة سيد المرسلين ، حَفَظَ ما حوته (روضة) قائد الغرّ المحجّلين ، مذ ولاّه عليها (كليتداراً) أرشد

الوزراء والحكام الوزير المحترم ، الپاشا نجيب المعظم ، فنَصَّبَ من قبله بكمال سداده السيد اللوذعي ، السيد رضا الرفيعي .

إلى غير ذلك مما خصّه اللّه تعالى من الرتب الشامخة ، والنعوت التي هي كالكواكب باذخة ، والمساعي والرتب التي لم تنلها عجم ولا عرب ، ولا عجب ، فهو شيخي وأستاذي ، بَلْ وشيخ الطائفة (الجعفرية) ، ورئيس الفرقة الأثني عشرية ، تحضر مجلس درسه في كُلّ صباح (خمسمائة) وأزيد ما بهم غير عالم ماهر .

وكان صدوق اللهجة ، حسن التخاصم في الحجّة ، مفلج في المحجّة ، تُنمى إليه القضايا الغرائب ، وما المُحدّثُ بها عنه كاذب ، فلا تجحد أيها الجاحد قدره ، وإن اختصرتُ ذكره ، حيث لا يسعني استقصاء نعوته وصفاته ، وما حواه من الشرف بذاته . ولو أردتُ ذلك لاحتجتُ كتاباً وافياً ، ومصنّفاً شافياً ، لا يتم مدة دهور وأعوام ، وهو ينافي قصد الأتمام بيسير من الأيام .

ومن ثم طالما بتّ أقاسي في الليل الهموم ، وأراعي مسرى النجوم ، لا أرى للنوم لذة ، بَلْ هو السهاد حذو النعل بالنعل والقذّة بالقذّة ، أتقلب تقلّب السليم الحيران ، وأتململ تململ الولهان ، أجيل أبكار الأفكار ، في الآصال والأبكار ، مُجداً في تحصيل عبائر تجدي كيما أستعين بها على رسم قضايا زاهيات ، وعلوم باهرات ، فأصوغها فقرات ، يفتقر إلى ألفاظها الفقيه الماهر ، والى معانيها كُلّ جامع وصف باهر ، فأبدى البعض من محامد ذاته ، مستوعباً ما خفي وبان من صفاته ، فغادرتني أيدي العجز والهوان مستقلاً بنفسي ، عن أبناء جنسي ، مرتجاً عليّ لا أميّز يومي من أمسي . فلم أزل أشقّ أنواع البديع ، بسفن أنواع التوشيع والتلميع ، ببيان علوّ قدره ، والتلذذ بذكره ، وأنه البحر الخِضمّ ، ومُحمّد الأمم :

إلى أن قال بعدما أطنب بما لا طائل تحته وأطال : ولمّا كان بيان صفاته على ما عرفت ، ينافي الغرض الذي أردت ، رأيت أن الصفح أجدر ، والأهمال لا بالكلية هو الأيسر ، على أن شهرته في الأقطار ، ومعلوميّته بالفضل في سائر الأمصار ، كفتنا تبيان ما وقفنا عليه من فضائله وفواضله ، مضافاً إلى أن صدّتني عنه الصّواد ، وحالت الموانع والروّاد ، التي من جملتها أني غدوت في الناس ممن تشتت شمله ، وأُلغي قوله وفعله ، وشاع جهله ، ولست مَنْ يزري بالعقول العشر عقله ، وحيد المنثور والمنظوم ، ولا غرض لنا بذكره .

ثم ذكر أولاده وهم : المحسن[1] ، والحسن[2] ، وعبد الحسين[3] . وإن أوصلنا التوفيق إلى محل ذكرهم ذكرناهم إن شاء اللّه .

من وقائع فرقتي الزقرت والشمرت

والحاصل : أنّ الشيخ مُحَمَّد (ره) كان أعظم ما فيه علوّ همّته ، فأنّهُ بعد وفاة عمّه المرحوم الشيخ حسن ، عارض الأساطين الذين كانوا يترشحون لمعارضة آبائه وأعمامه فعارضهم وساواهم ، إن لم يكن فاتهم وتعدّاهم ، على كثرة ما كان مبتلى به وممتحناً فيه من أمر فرقتي (الزقرت) و(الشمرت) ، حتى أنّهُ لشدة ما وقع فيه منهم من البلاء والمحن عزم مراراً على الهجرة من النجف والأقامة في نواحي إيران إلى أن تسكن حركة غائلتهم ، وتخمد نيران فتنتهم . حتى أنّهُ في بعض وقائعهم سار بجملة من أهله ، ولما وصل إلى بغداد عرفت ذلك منه ولاتها وأمراؤها فأصرّوا عليه بعدم المسير وخشي منه المنع إن امتنع من إجابتهم فأجابهم ، ورجعوا معه بعدّة وافرة من العسكر . فأنزل الشيخ مُحَمَّد الزقرت والشمرت من (صناكرهم)[4] ، وأخذ العهد من رؤسائهم على عدم العود إلى تقاتلهم وتناكرهم ، وأحلفهم على هذا بالقرآن الشريف عند رأس الأمير (ع) بحضور الوزراء والأمراء . حتى إذا سارت العساكر والجند وفُتحت الحوانيت ، وأمنت السارية والماشية واطمأنّت الناس ، ثارت المدافع بغتة وإذا بهم عادوا لِما نهوا عنه ، ولم يفدهم ذلك شيئاً . ولم يزالوا على ذلك ومثله إلى أن صاروا السبب في تعجيل موت الشيخ مُحَمَّد ، وذلك حرقة أصابته ، وفادحة أزعجته ، فخرجت من أنفه جراحة وطال مكثها وعلاجها وأذاها ، وبعثوا على أطباء العراق فعالجوها بأنواع العلاجات ، فلم يفد شيئاً حتى مات ، رضوان اللّه عليه ، وقرّب محله إليه .

هجوم العسكر على دار الشيخ محمد

وسبب تلك الحرقة طويل حاصلها : أن دار الشيخ الكبير (ره) لم تزل حَرَماً يأمن من دخله ، ولو كانت الثقلان خصماً له ، وكان بلاء (الزقرت) و(الشمرت) بلاء عظيماً ، وداؤهما داء جسيماً ، والنجف من ذلك في اضطراب وتشويش لا ينفك سائر الأيام ،

---

(١) تُوفي الشيخ محسن سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م .
(٢) تُوفي الشيخ حسن سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م .
(٣) تُوفي الشيخ عبد الحسين سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م .
(٤) هي أماكن القتال المُحصّنة . وأصل الكلمة مأخوذ من كلمة (سَنْگر) الفارسية .

ومدى الأعوام . وكانت الدولة تجهّز كُلّ حين جيشاً جراراً لقطع مادّتهم فيأتي الجيش ويقبض على بعض رؤسائهم ويقتل الآخر ثم يُرتّحل بالأسرى إلى (حبس) بغداد فتستقرّ البلد أياماً يسيرة . ثم يعود الأمر على أشدّ مما كان أولاً إمّا بأن يقوم بأمرهم غير السابقين أو ينفلتون من السجون . فاستمر الأمر على هذا البلاء مدة من الزمان حتى أن أغلب الناس كانت تحاصر في دورها أسبوعاً أو شهراً كاملاً بلا ماء ولا طعام حتى تموت أطفالهم من الجوع والعطش ولا يتمكنون من التماس شئ لهم خوفاً من المكاحل والبنادق من الرصاص الآخذة بجميع الأزقة والطرقات ، إلى أن يضيق الأمر بالطائفتين ، ويكثر القتل الذريع في البين ، ويهلك أغلب الناس من المحاصرة ، فعندها يخرج ولي المسند من بيت الشيخ الكبير كالشيخ حسن في أيامه أو الشيخ مُحَمَّد عند انتهاء الأمر إليه ، أو غيرهما منها فيأتي إلى (صناكرهم) ، وهي إسم للأماكن المرتفعة الحصينة المقابلة لأعدائهم كالمنارتين الشريفتين والمسجد الهندي وبعض سطوح الصحن الشريف إلى غير ذلك من الدور الجامعة لتلك الصفات ، فيقف وينادي كُلّ واحد واحد من رؤسائهم بأسمه ، فيلقون أسلحتهم ويسرعون إليه ويتهافتون على تقبيل يديه ويعرضون أعذارهم عليه ، ويقولون : إنّا لو لم نقف ونقاتل لهجموا علينا في دورنا وقتلونا مع أطفالنا ، ونحن إنما ندافع عن حرمنا وأنفسنا ، وهو يوبّخهم ويعذلهم ويحذّرهم سطوته بهم وانتقامه منهم حتى تقع (الهُدنة) بينهم ، وتضع الحرب أوزارها عنهم ، فتستقر الناس وتخرج في الطرقات والأسواق وتتطلّب معايشها وتسعى في مكاسبها .

وبينما هم على ذلك إذ سمعوا أصوات (المكاحل) و(التفك) فوقعوا في الهرج والمرج وغلّقوا الحوانيت وعلموا أن القوم عادوا لِما نُهوا عنه ، فيبقى على هذا أياماً حتى أنّ الناس لا تأمن على أعراضها وأموالها منهم ، إلى أن يصل الخبر إلى وزير بغداد ، فأمّا أن يأتي بنفسه مع طوابير العسكر في عدّة من (الأطواب) والسلاح . فإذا قربوا من النجف وسمعت (الفرقتان) بهم فمنهم من ينهزم ، ومنهم من يخفي نفسه في الآبار و(السراديب) ، ومنهم من يلجأ إلى دار المشايخ الكبيرة لأن سائر الناس كانت تفزع إليها خوفاً من أن يأخذهم العسكر بذنب المفسدين فيصبحوا هالكين . فأذا دخلوا تلك الدار أمنوا حتى أنهم كانوا يلبسون المقانع والخمار ويتزيّون بزيّ النساء ويدخلون في حرم المشايخ لئلا يتعرض لهم أحد .

فإذا جاء الوزير أو نائبه دخل البلد وجعل يمشي في الأزقّة في هيئة المحاربين والطبول والدفوف تُضْربُ أمامهم ، و(المدافع) تندفع بينهم إلى أن يدخلوا (القلعة) ، ثم يذهب

العسكر في طلب رؤساء المفسدين ، فأمّا القتل أو النفي ، ولكن لا يقبضون إلاّ على الواحد من العشرة ، ويخبرهم حاكم البلد أو غيرهم من أعداء (المشايخ) أنّ رؤساء (الزقرت) و(الشمرت) في الدار (الفلانية) وقَدْ آواهُمْ شيخ (فلان) ، و(فلان) فيبعثونَ إليه يطلبونهم منه فينكر ذلك ويدفعه إلى أن تحكّم في أذهان الولاة والوزراء وسائر أمراء العراق أن فساد هاتين الفرقتين وعدم إمكان إهلاكهم مِنْ آل الشيخ الأكبر ، فاحتملوا الأذى منهم والحقد عليهم فجعلوهم هم المطالبين بذنوب هؤلاء المفسدين .

والحاصل أن مشايخنا السالفين (ره) بعد الشيخ الأكبر مازالوا مبتلين بهذا البلاء الذي تهدّ وقائعه السماء . لكن الشيخ موسى نجا من مزعجاته وكدوراته برئاسته وعظمته لأنّ العراق كان بين قوليه ، والحكومة والرعية جميعاً طوع يديه . ونجا الشيخ عليّ منها بتقدسّه وانعزاله عن الناس بتدريسه وعلمه ، وإن أصابه شيء يسير منها آخر الأمر في أيام علي باشا ، وفي القصة طول لا يسعه المقام . وأما الشيخ مُحَمَّد (ره) فنجا منها بجلوسه في الحلة .

وأما الشيخ حسن (ره) فلم يسمع في أيامه لا صوت (مكحلة) واحدة ولا شُهِرَ شيء من السلاح أبداً ، وذلك بواسطة الوزير الحازم نجيب باشا . فأنّه بعد أن فتح (كربلاء) وقتل من قتل منها (على ما سبق) تأدّب كُلّ شقيّ في العراق حتى كأنّ الموت على رأسه . ثم توالت المزعجات والبليّات بسببهم من الحكومة ، ومنهم على الشيخ مُحَمَّد ، وجدّنا الشيخ مُحَمَّد رضا[1] ، والشيخ مهدي ، وهو أقلهم فيها عناء ، وأيسرهم بها بلاء .

ثم لم يزل الشيخ مُحَمَّد يدفع بلاء العسكر عن أهل النجف مصلحين ومفسدين حتى كانت سنة ١٢٤٨ ، جاء سليم باشا مع خمسة آلاف نفر من العسكر مع عدّة كثيرة من الأسلحة والأطواب فدخل النجف والطبول والمدافع تُضرَب أمامه ، وكان معه نقيب الأشراف السيد علي نقيب بغداد[2] ، فمروا على دار الشيخ الكبيرة ، فخرج الشيخ مُحَمَّد ووقف بباب مستقبلاً لهم . ثم أتوا (القلعة) ونزلوا بها . ونزل السيد علي النقيب عند الشيخ مُحَمَّد ضيفاً هو وجماعة من الضباط . ثم تراكمت الناس وتدافعت الرجال على دار الشيخ مُحَمَّد ، واستجاروا بها واختفوا في الحجرات والسراديب حتى اجتمع في الدار ما يزيد على الألف رجلٍ وامرأة .

---

(١) الشيخ محمد رضا بن الشيخ موسى بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء ولد سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م ، وتُوفيَ سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م .

(٢) السيد علي النقيب توفيَ سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨٠م .

فلما صار العصر جاء سليم باشا في جميع هيئته إلى الشيخ مُحَمَّد ، فجلسوا يتحادثان في تدبير الأمر وعلاج هذا الفساد ، فقال سليم باشا : يا شيخ مُحَمَّد أفندي ليس الفساد إلاّ منك ، فأنّك تؤمن المفسدين وتؤويهم إليك .

فقال الشيخ مُحَمَّد له : يا وزير ليس هو إلاّ منكم .

فقال له النقيب : يا شيخ مُحَمَّد أسأت جواباً .

فقال له الشيخ : أسأتَ فهماً .

وطال التشاجر بينهما إلى أن خرج الپاشا على أن لا تتعرّض دار الشيخ الكبيرة ، وأنْ ليس فيها إلاّ الفقراء والمساكين .

فلما صار اليوم الثاني كان مع الپاشا بعض خواصّه وأصحابه ، وهو بكري أفندي ، فقال للپاشا : إن الفُسَّاد كلُّهم في دار الشيخ مُحَمَّد فابعثني إلى داره حتى أخرجهم منها .

فبعثه مع عدة من العسكر فهجموا على حرم دار الشيخ الكبيرة وفيها عيالات (المشايخ) أجمع ، ففرّوا إلى الدار الخارجة ولاذوا برجالهم ، وأخذ العسكر جملة من الناس تنيف عدّتهم على المائة ، وجاؤوا بهم إلى القلعة ونفوهم إلى بغداد ، والبصرة ، وغيرها من الأماكن .

فلما رأى الپاشا ذلك غضب وقال للعسكر : إمضوا وفتشوا كُلّ مكان من الدار ولا تبقوا فيها أحداً فقد ثبت أنها مجمع المفسدين ، وائتوني بالشيخ مُحَمَّد .

فجاء العسكر مرة ثانية فوقعت الصيحة في الدار ، وكان النقيب نائماً في سرداب الدار الخارجة فانتبه وأخبروه بالقصة فخرج ومنع العسكر من الهجوم ثانياً . ثم ركب (بغلته) ومضى إلى الوزير وأزعجه في الكلام وأن هذا فعل شنيع لم يقع قبل هذا على هذه (الطائفة) المعظمة ، فكفّ عن ذلك .

ثم أصبح اليوم وإذا بجماعة من شرفاء النجف كالسيد علي[1] ، والسيد مُحَمَّد تقي[2] الطبطبائيين وجماعة من أقرانهم قَدْ أُخِذوا مكبّلين ، وحُبسوا في (القلعة) .

---

(١) السيد علي بن السيد رضا بن السيد مهدي بحر العلوم المولود سنة ١٢٢٤هـ/ ١٨٠٩م ، والمُتوفى سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م .

(٢) السيد محمد تقي بن السيد رضا بن السيد مهدي بحر العلوم ولد سنة ١٢١٩هـ/ ١٨٠٤م ، وتُوفي سنة ١٢٨٩هـ / ١٨٧٢م .

وكان مجيءُ الپاشا والعسكر أوائل ذي القعدة الحرام ، وبقي قريباً من آخره . وأما الشيخ مُحَمَّد فأنَّهُ لم يزل من غصّة هجوم العسكر على داره وروعة ذلك في تفكّر وتحيّر وانزعاج وتكدّر لأن مثل هذا لم يكن يقع على هذه (الدار) المحميّة الجوار . إلى أن خرجت الجراحة في فمه وأنفه وبقي إلى أواخر ذي الحجة وتُوفيَ رحمه اللّه من ذلك ، فكان قتيل همّته العالية ، وعزمته السامية ، في يوم الثاني والعشرين منه .

وهذا يسير من وقائع هاتين الفرقتين ذكرناه إستطراداً . وقَدْ حدّثنا به العلم العباس ابن الحجة الحسن (ره) . ولو رمنا نقل جميع أخبارهم وأحوالهم لأفنيت الأقلام ، وذهبت دونه الأيام ، وليس فيها ثمرة سوى تهييج الأحزان والآلام . ونحن نسأل اللّه العفو والعافية ، ودوام هذه النعمة الوافية ، مع الهداية والتوفيق ، أنَّهُ خير رفيق .

ترجمة الشيخ مهدي بن الشيخ علي

ثم حل من بعده (ره) بتلك المقامة ، وجلس بمسند الأمامة ، ناهجاً سبيل الهُدى ، ناشراً في جميع الأندية أبراد الندى ، أمين اللّه في أرضه ، وحجّته على خلقه ، وميّز حلاله من حرامه ، وباطله من حقّه ، برهانه القاطع ، وبحر علمه المتدافع ، مشكاة اللّه السنيّة ، وواسطة القلادة (الجعفرية) ، الحاوي لشرف آبائه ، والمشرق بدراً في سمائه ، نور اللّه في الظُلَم ، ونيّره الذي راح بعلمه ناراً على علم ، الهادي إلى سبيل الرشاد : أبو صالح (مهديّ) الأم ، نجل المحقق الأكبر ، عليّ بن جعفر ، قُدِّسَ سرّهم المطهّر .

كان (رحمه اللّه) بمرتبة من العلم عظيمة ، وقدم فيه قديمة ، حضر أياماً على أبيه (المُحقّق) الثالث ، وأخذ من علومه القديم والحادث . ثم حضر بعد ذلك على عمّه العلم المؤتمن ، علامة الزمن ، ابن جعفر (الحسن) ، وكان عمدة حضوره عليه ، وتلمذه بين يديه ، وكان عنده مقرباً إلى الغاية ، ومُحَبّباً إلى النهاية ، لا يفوّق عليه من عشيرته أحد حتى أخوه الأكبر الشيخ مُحَمَّد ، وكان هو وصيه على ثلثه وأمواله ، وقيّمه على أطفاله . واجتهد وحصّل في أيامه تمام التحصيل ، حتى أصبح في مدرسته بلا مثيل ولا عديل ، على كثر ما عرفت فيها من العلماء المبرّزين .

ثم لمّا تُوفيَ عمُّه العلاّمة الحسن كانت بعض الناس تتوقع توشحُهُ للأمر ، وتقدمه على أخيه وإن كان أكبر . فما انكشفت الغُبرة إلاّ وهو تحت منبر أخيه ، معظّماً له مُشيِّداً فيه ، حتى صار بحضوره وحضور الشيخ راضي عَلَم العلم المشهور ومعتمد بنيه . وتراكمت الطلاب والمشتغلون على الحضور في درسه والمثول في ناديه ، وبقيَ الشيخ مهدي على

غزارة علمه واستغنائه عن الحضور، ملازماً لأخيه درساً وصلاة وتأييداً حتى صار ذلك لهما نوراً على نور.

فلما تُوفيَ الشيخ مُحَمَّد ظهر (المهدي) بآية علمه، ونهض بأمر رئاسة الدين والدنيا مدبّراً فيها بعزمه وحزمه، وكان له بعض الطلبة المريدين له المتعصّبين في أمره، وكان أكثرهم من (الترك) فجعلوا يسعون في نشر ذكره، وتشييد مجده وفخره. فما مضت إلاّ أيام قليلة حتى رجعت إليه (آذربيجان) و(القفقازية) و(قرباغ) وجميع هاتيك الأطراف إلاّ اليسير، وطبعت رسالته العملية في تبريز بأمر السلطان مظفر الدين شاه[1]، أيّد اللّه ملكه، وكان يومئذ ولي العهد فيها فجاءت منها نسخ عديدة إلى الآفاق جميعاً.

ثم أجمعت العرب عليه، وأرجعت أمورها إليه، و(قلّدته) أغلب الأعراب، وانتشرت (رسالته) في أغلب بقاع الأرض كُلّ ذلك في زمان الشيخ الأعظم، وعماد الدين الأقوم، بحر الهداية، وآية اللّه في بني الدّراية، شيخنا الشيخ مرتضى الأنصاري، عليه رحمة الباري. وكان الشيخ مرتضى يومئذ حجّة اللّه على الأطلاق، وخليفته في سائر الآفاق. ولكنه كان يُرجع أغلب الأشياء إليه، ويعتمد في سائر الأمور عليه، ويشيد أمره، وينشر ذكره، ويعلن اجتهاده، وأفضليته على سائر فضلاء بلاده. وكان الشيخ مهدي كلما رأى الشيخ مرتضى أخذ يده بالعنف والجبر وجعل يقبّلها والشيخ يمتنع وينكرعليه ذلك.

والحاصل: أن أمر الشيخ مهدي لم يَزَلْ يسمو، وذكره يعلو، وصارت الحقوق من أغلب الأطراف تُجلب إليه، والأموال تُجبى إليه. وكانت بعض (الحقوق) تأتي باسمهما، والطلاب تغترف من علمهما. إلى أن صارت سنة الألف والمائتين والواحد والثمانين، فعرج الشيخ مرتضى بجسده المقدس، إلى حظيرة القدس، واتصل بجوار الملك الأقدس، فاستقل الشيخ مهدي بالأمر، ونهض بأعباء الرئاسة والفخر، فألقى إليه إقليد التقليد كُلّ مكان، ولم يختلف في فضله إثنان، ورقى منبر التدريس، على المرؤوس والرئيس، فحقق فيه ما شاء، وأبدع بما أبهر به الأسماع والآراء. وإن شئت تصديق ذلك فاطلب كتابه الذي كتبه في (الخيارات) على نهج الشرائع، وقَدْ خرج إلى المبيضّة وهو يوجد الآن عند أولاده[2] (حفظهم اللّه).

وله أيضاً رسالة في حرمة العصير العنبي ونجاسته مستقلاً، وله قطعة من المكاسب وما

---

(١) تولّي مظفر الدين الحكم سنة ١٣١٤هـ/١٨٩٧م، وتُوفي سنة ١٣٢٥هـ/١٩٠٧م.

(٢) أولاد الشيخ مهدي أربعة هم الشيخ صالح المُتوفى سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م، والشيخ أمين المُتوفى سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م، والشيخ مولى، والشيخ موسى.

يَحْرُم التكسّب به ، وله قطعة في البيع والمعاطاة ، فانظره فأنّكَ ستجده بما أقول ضمين .

والحاصل أن علوّ أمره ، وتناهي شرفه وفخره ، لا يحتاج إلى بيان ، وقَدْ بلغ حتى تجاوز حدّ الشهرة والأعلان .

ومن آثاره المشيدة ، الدالة على علوّ رتبته المتفرّدة ، المدارس العظيمة التي بناها ، منها : المدرسة الكبيرة الواقعة في النجف الأشرف مقابل قبر الشيخ الطوسي (ره) وهي من المدارس التي ليس لها نظير في النجف ، ومنها : مدرسته الواقعة في كربلاء وهي من المدارس المعروفة ، ومنها : مدرسة المعتمد فأنّه هو الذي بناها على هذا النهج والترتيب في الطبقات والحسن . وهو الذي بنى القبة البيضاء والرواق على قبر أجداده وآبائه المقدّسين . وهذه الأمور مما لم تتفق حتى لآبائه وأجداده على ما عرفت من عظم أمرهم .

شعرُهُ وشاعريته

وكان رحمه اللّه معروفاً بطلاقة اللسان ، والقدرة على التقرير والبيان ، إلى غاية تقف دونه الأذهان ، وكان له مع ذلك شعر رائق ، ونظم فائق . فمن ذلك ما قاله على الأرتجال في مدير النجف مُحَمَّد أمين أفندي لمّا رجع إلى محله بعدما كاد أن يُعزل ، وقَدْ خمّسها الشيخ أحمد قفطان[1] :

شمسُ الهنا في أفقنا أسفرتْ ... وروضةُ البشرِ لنا أزهرتْ
وفي أبي (نشأت) إذ بشّرتْ ... أكناف كوفان قَدْ استبشرتْ
مُذْ حلّ فيها طودُ حلم رزينْ

أضحى الحِمى يزهو بكُثْبانهِ ... غزلانُهُ تعطو على بانهِ
ترعى المسرّات بأغصانهِ ... وغرّد الورْقُ بأفنانهِ
يقول بُشرى بمديرٍ (أمينْ)

فتى بألبانِ العُلى مغتذي ... ليس بفظّ لا ولا بالبذي
إنْ بعدَهُ بتنا بطرف قَذي ... فقد أتى اللّه بذاكَ الذي
نعلمُ منه العدلَ علمَ اليقينْ

وادي الحمى سُرَّ بأتيانهِ ... وابتهجَ الكونُ بأنسانهِ

(١) الشيخ أحمد قفطان ولد سنة ١٢١٧هـ / ١٨٠٢م ، وتوفي سنة ١٢٩٣هـ / ١٨٧٦م .

من فـــــرط تقــــواه وإيمانهِ   مــــازالَ يرعــــانا بأحـــســــانهِ
وإنّـمـــــا اللّهُ مع المُحــــــسنينْ

وشطّرها فقال :

(أكنافُ كوفان قَدْ استبشرتْ)   دامت لـهـا البـشـرى دوامَ السنينْ
وابتــهــجتْ ممّا بهِ اســتـمكنتْ   (مُـذْ حلّ فـيـهـا طودُ حلم رزينْ)
(وغــــــــرّد الـورقُ بـأفـنـانـه)   لحناً فلحناً عن ســـرور مّـبين
أفــصحَ في تغـريدهِ منطقــاً   (يقـــول بُشـــرى بمديرٍ أمـينْ)
(فــقـــد أتى اللّه بذاك الذي)   كُلُّ فـــــؤادٍ لنـواهُ حـــــزينْ
أهلاً به مِنْ عـــاملٍ عــادلٍ   (نعلمُ فـيـه العـدلَ علمَ اليـقينْ)
(مــازالَ يرعــانا بأحـســانه)   عـدلاً وفـضـلاً منهُ في كُلِّ حينْ
وأيَّـــدَ الـــلّــهُ بـــهِ ديـنَــهُ   (وإنّـمـــا اللّهُ مع المحـــسنينْ)

وقال يخمّسها مع الأصل :

فـــتـى لـه أهل الـنهى أذعنتْ   لمّا به أنـظارُها أمـــــــعنتْ
فـــمـــا رأت إلاّ الذي أحـــسنتْ   فـابتـهـجتْ ممّا به اسـتـمكنتْ
مـــذ حلّ فـــيـــهـا طود حلم رزينْ

لمّا رأى دوحَ الـهنا مـــورقـــاً   والغـصن غـضّاً تحتـه مطرقـاً
والبـدرُ في أفقِ الحِـمى مـشـرقـاً   أفـــصحَ في تغـــريدهِ منطقـــاً
يقـــــول بُشـــــرى بمديرٍ أمـينْ

أنعِمْ بهِ مِنْ حـــاكم عـــادلٍ   على (الغـــريّين) على (بابلٍ)
لم تلقَ إذْ جـاء ســوى قـــائلٍ   أهلاً به مِنْ عـــادلٍ عـــاملٍ
تعلمُ عنه العــدل علمَ اليــقينْ

يا نفسُ أيُّ الفـضلِ تحصـينَهُ   لا يســـتطيعُ النَظمُ تدوينَهُ
أبـدتْ أيـاديـه بـراهـيـنَـهُ   وأيّـــدَ الـلّــهُ بــهِ ديـنــهُ
وإنّـمـــــا اللّهُ مع المُحــــسنينْ

ومن ذلك ما قاله بعدما كان قَدْ وعد الشيخ أحمد قفطان بشيء فتأخر إنجازه ، فكتب له الشيخ (قُدّس سره) :

أبشـــرْ ببـــر وافـــر يأتيك منّي عـــاجـــلا
إنْ مَنَّ غيـــريّ بالعطاً فــــأنَّه منّـي (بـلا)

ومنه ما مدح به عبد الباقي أفندي الفاروقي[1] وقَدْ جاء إلى النجف في زمان عمه الشيخ حسن (ره) ، فأمره عمه المرحوم بمدحه ، فقال :

قُلْ لِمَنْ ينظمُ القريضَ مُجيداً أنتَ (عبدٌ) لعبد (عبد الباقي)
إنَّهُ أشعـرُ الأنامِ جميعـاً في نواحي (الشئآم) بَلْ و(العراقِ)

فأجابه عبد الباقي :

يا واصفي بخصائص محمودة هذي صفـاتُكَ والألهُ الباقي
عاينت شكلَكَ في سجنجلِ[2] صورتي فظننتـهُ شكلي وذي أخلاقي
لا زلتَ يا (مهدي) البريةِ قائماً ولكَ البقا بحقوق (عبد الباقي)

فكتب له الشيخ مهدي (ره) أيضاً ببيتين لا تحضرني فوصلت وهو على الجبل خارج البلد فكتب تحتها :

ظهرتَ ظهورَ البدر في فلك السّعدِ وقَدْ يخرجُ الدجّال إذْ ظهرَ (المهدي)

وللشيخ أيضاً بعض اللطائف مع عمّه المرحوم الشيخ حسن (ره) وذلك أن المرحوم أخذ له (صاية) جديدة ، وكان عندهم رجل يخدمهم اسمه الشيخ عبد الحميد ، فأراد الشيخ عبد الحميد (صاية) الشيخ العتيقة ، فقال الشيخ مهدي على لسانه :

عبد الحميد أتاكَ يرجو كسوةً ولَكَمْ كسوتَ سواهُ مولى عاريا
والفورُ (أحوطُ) في امتثال أوامري فانزعْ قميصَكَ لا تكنْ متوانيا

(١) مرَّ التعريفُ به ، ووفاته ١٢٧٨هـ / ١٨٦١م .
(٢) السجنجل : المرآة .

ما قيل في الشيخ مهدي من التهاني والمدائح

وأمَّا ما قيل فيه تهانياً ومدح ، فمما لا يمكن له على متون الطروس شرح ، كيف لا وهو (قُدّس سرّه) لم يزل من المقلّدين المجتهدين ، المتقلدين رئاسة الدنيا والدين ، لا تعقد الخناصر إلاّ عليه ، ولا تُجْبى الحقوق والأموال إلاّ إليه ، مدة واحد وعشرين سنة ، وكان يُحبُّ الشعر ويعرف محلّه ، ويجيز عليه أهله . ونحن نذكر لك ما تيسّر لنا من ذلك ، سالكين في الانتخاب والاختصار أحسن المسالك .

فمنه : ما رثى به بعض شعراء النجف[1] المرحوم ميرزا أبو القاسم (إمام جمعة طهران) ، ويعزّي الشيخ مهدي وقدْ نصب له مجلس العزاء في النجف الأشرف ، وأولها :

هو البينُ كم أصمى حشاشةَ مغرمِ ... فعادتْ بنارِ الوجدِ ذاتَ تضرُّمِ
هو الدهرُ لا تنفكُّ ترمي سهامُهُ ... كرامَ البرايا عيلم بعد عيلمِ
فَكَمْ شنَّ فيهم غارةً بعدَ غارةٍ ... يحاولُ فيها مَغْنَماً إثرَ مَغْنَمِ
إلى أنْ عَدَتْ عدواً عوادي صُروفهِ ... على الماجد المولى الأمام المُعظَّمِ

إلى أن قال :

فصبراً بنيه في المصاب وإنْ غدا ... عليه عظيمُ الصبرِ غير معظّمِ
لكم ولنا السلوانُ عَنْ كُلِّ فائت ... بأكرم مولى في البرية مُنْعِمِ
هو العلمُ (المهديُّ) مَنْ عمَّ فضلُهُ ... جميعَ البرايا منْ فصيح وأعجمِ
فتى (جعفرٍ) ربّ العلوم وكهفها ... عليم بدين اللّه غير مُعَلَّمِ
مليكٌ له صيدُ الملوك خواضعٌ ... لعلياهُ منهمْ قيد كُلّ غشمشمِ
لقد طاول (العيّوق) إذْ وطئتْ له ... على هامة العيّوق أشرفَ مَنْسَمِ
به سَعُدتْ أيامُنَا وبيُمنه ... نردّ صروفاً للقضاءِ المُحتّمِ
أقامَ لنا الدين الحنيف ولا نرى ... سواهُ لتقويم الهُدى من مقوّمِ
له ضُربتْ دونَ الأنام سُرادقٌ ... من المجد والعلياء من فوق أنجمِ
فيا كعبةَ الوُفّاد بحرَ مواهب ... يجودُ على العافين قبل التكلّمِ

---

(١) نسبها الخاقاني إلى الشيخ محسن الخضري المُتوفى سنة ١٣٠٢هـ / ١٨٨٥م . وقد أثبتها كاملةً في شعراء الغري ، ج٧ ، ص٢٣٣ ، وقال : هي مما لم يُنشرْ من شعره .

خـذوها ولا منٌّ عليكم فـرائداً   من النظمِ مـثل اللؤلؤ المتنظّمِ

ومثلها بَلْ أحسن بكثير ما لبعض شعراء بني قفطان، يرثي السيد مُحَمَّد مهدي (إمام الجمعة)، (وهو أبو السيد أبو القاسم المرثي في القصيدة السابقة)، ويعزّي الشيخ مُحَمَّد أخا الشيخ مهدي وقَدْ جلسا للعزاء، وأولها:

لي اللّه كم مِنْ فادح كنتُ أخشاهُ   دهى بَغْتَـةً قلبي المُعنّى لي اللّهُ
مصاب بأرضِ (الريّ) ألقى جِرانَهُ   فـزعـزعَ أقـصـاهُ وروّع أدناهُ

إلى أن قال:

ولولا قـرينُ المكرمات (مُحَمَّـد)   لأضناني الوجـدُ المبـرّحُ لولاهُ
فتى جُلَّ أنْ تُحصى مناقبُ فضلهِ   وكـيفَ وعـدُّ الرملِ دونَ مـزاياهُ
يُصَـرِّفُ في الدهر المعـاند عـزمـه   فـيأمـرُهُ فـيمـا يشاءُ وينهـاهُ
فيا مَنْ جرى في المكرمات لغاية   شأى في مداها كُلَّ مَنْ كان جاراهُ
حللتَ من المجـدِ المؤثلِ منزلاً   تمنّت ثراهُ في الفـخـار ثُريَّاهُ
وأدركتَ من لطف الأله خـفـيّةً   فأوضحتَ من شرع النبيّ خفاياهُ
وأيّدتَ مجداً أنتَ أحكمتَ أصلَهُ   بفـرد نرى بدرَ الدُجى بمحـيّـاهُ
(بمهديِّها) سَمْتَاً بأسمحها يداً   نرى المجد لفظاً وهو في الحقّ معناهُ
تسنَّمَ مـجـداً لا يطاولُهُ الورى   ترى النسرَ فيه واقعاً دون مَرْقَاهُ
هو الغـوث للعـاني إذا عـزّ غـوثه   هو الغيث إنْ ظنَّ السحاب بجدواهُ
وواحدُ فضل لم أجدْ غيرَ (جعفر)   من الناس شخصاً في البرية ثنّاهُ
ورثتم منارَ العلم والحلم عن أبٍ   (عليٍّ) وعمٌّ عمّت الخَلقَ (حُسْناهُ)
و(جدٍّ) كفى في فضله أنْ أقامكم   أدلة حقٍّ شـاهدين لدعـواهُ
لنا ولكم عنه السلوّ بسـيّـد   (أبي القاسم) السّامي السّماك بعلياهُ
تفـيّـأَ دوحَ العـزّ والمجـد والعُلى   وجازَ مـحـلاً قَـدْ تمنّتـهُ جـوزاهُ
إذا نُشِرتْ أخلاقُهُ الغُرُّ في الورى   نَشَرنَ عبيق المِسكِ مِنْ طيب ريّاهُ

وهي طويلة يكفيك منها هذا.

وقال السيد مُحَمَّد علي بن سيد أبي الحسن العاملي يستجديه ويستميح من فضيل أياديه :

ألا يا أيُّهــا المولى المســاوي ... بكُلٍّ صـفـاتِه المولى (العليّـا)
لقـد حُـزتَ المفـاخـرَ والمعـالي ... ونلت بفـضلكَ القـدرَ العليّـا
جـمعتَ فضـائلاً كـانتْ (لموسى) ... فكنتَ بجمعِها (الحسن) الزكيّا
ومـا حــازوهُ من مكنونِ علـم ... كـشـفـتَ غطاءهُ فـغـدا جليّـا
لكَ المجـدُ الذي أرسى خـبـاه ... على هام المجــرّة والثـــريّا
فلو بَعَثَ الألهُ بكُلِّ عـصـر ... نبـيـاً كنتَ أنتَ لنا نبـيّـا
أكفٌّ سـواكَ لو أجـرتْ عُـيوناً ... أرى شــرفي لنائلهــا أبيّــا
وكـفُّكَ لو أقلَّ فـيـومَ أظمى ... أراهُ لمهـــجـــتي رِيَّاً رويّا

وله أبيات كتبها إلى أخيه العلم العباس نجل الشيخ علي (ره) يمدحه في آخرها، وهي :

ألا يا ربيبَ الفضلِ والفخرِ والمجدِ ... وراقي ذُرى العليـاءِ بالجَـدِّ والجِـدِّ
تعلّق في قلبي الضنى يومَ بينكم ... فـبتُّ حليفَ الهمِّ والحزن والوجـدِ
أرى الوردَ في خـديك أينعَ دوحُـهُ ... فأنْ يُجْتَنى وردٌ فمنْ خدِّكَ الوردي
هويتُكَ يا (عبّاسُ) طفلا أمَا ترى ... بآل الهوى أني خُصصتُ به وحدي
وقـبل بلوغ الحُلم خُصَّ بك النّهى ... وجاوزتَ في علياكَ أعلى ذُرى المجدِ
وقـدْ فـقتَ كُلَّ الناسِ جـداً ووالداً ... كما فاقهم في مهدِهِ العَلَمُ (المهدي)
فتىً قَدْ تسامى للمعالي فأصبحتْ ... تُجلُّ مـعـاليـه عنِ الحـصرِ والعـدِّ
هُمـامٌ به كُلُّ الفضـائل جـمّعتْ ... ومنـهل علـم للورى ســائغ الوِردِ
تفـرَّدَ في الدنيـا بكُلٍّ فـضـيلةً ... وأصبحِ بين الناس كـالجوهر الفـردِ
وسـحّتْ بلا بَرْق غـوادي أكـفّـهِ ... على كُلِّ أبناء الزمـانِ ولا رعـدِ
فَخُودُ تحيّاتي مدى الدهر والمدى ... تُزَفُّ إليـهِ بالثنا البـاهرِ الوقـدِ

وقال السيد جعفر[1] بن السيد السند العلم الباهر السيد باقر القزويني (رحمه اللّه)

---

(١) تُوفي سنة ١٢٦٥هـ / ١٨٤٩م .

يهنّي الشيخ مهدي في زواجه وأجاد ، وهي :

مالي من الشوق يدعوني إلى الغزلِ ... وإنْ كبرتُ وجَدَّ الجَدُّ في هزلي
فكُلَّما غـرّدتْ ورقـاءُ في فنن ... ثنتْ فؤادي لذكر الأعصر الأُولِ
أزمانُ إنْ قطَّعتْ (سُعْدَى) زيارتَها ... عنّي إلى الليل أشكوها فيشفعُ لي
وإنْ حذرتُ عليها عينَ جارتِها ... جعلت غَمْزَ حواجيبي لها رُسلي
نصبتُ سود تماسيحي لها شركاً ... فليس تفلتُ إلاّ من يدي أملي
وقائدايَ إلى مَنْ قَدْ علقتُ بها ... زهوُ الشباب وعزٌّ غير مبتذل
فكم طرقتُ فتاةَ الحي يصحبني ... مهندٌ غيرَ هيّابٍ ولا وكُلٍ
وكم قضيتُ لُبانات بكاظمةٍ ... مَعْ أهيفِ القدّ رامي من بني (ثُعلِ)
أصمى فؤادي بسهم منْ لواحظهِ ... والموتُ أيسر خطب الأعينِ النُجلِ
فكم خلعتُ وقاري للعقار وكم ... حاك العناق لنا ثوباً من القُبلِ
وآهاً لقلبيَ كم تُحيي صبابتَهُ ... بيضُ الخُدودِ وسودُ الشعرِ والمُقلِ
منْ كُلِّ ما يسترُ الأعطاف مثقلة الـ ... أرداف تخطو بأقدام الوَحَى الوجلِ
تثني على جيدها وشياً معصفرةً ... والحُسنُ يُظهرُ حُسنَ الحليّ والحُللِ
ماست بقدّ كخُوطِ البان والتفتتْ ... إليَّ ترنو بعينيْ جُوذرٍ وَجِلِ
فَقُلْ لعاذلتي في حُبِّ قاتلتي ... كفى معاتبتي ما العذلُ من شُغلي
أنّى يصيح لتأنيب أخو فرح ... طارتْ بأحزانه خفّاقةُ الجَذلِ
في عرس مَنْ غرستْ نُعماهُ عارفةً ... عندي مدى الدهر ما حالتْ ولم تَحُلِ
(مهدي) الخليفةِ محمود الطريقة ... ميمون النقيبة مأمون من الزللِ
من عنصر شرُفتَ قُدْماً أرومتُهُ ... ومِنْ نجار بأصل المجد مُتصلِ
من آلِ (جعفرَ) خيرِ الناس قاطبةً ... ومن بني الجود والعلياء آلُ (علي)
(المهديْ) إبنِ (عليّ) كُلُّ مكرمة ... لو رامَ أخْمَصَها العَيُّوقُ لم يَنلِ
مهذب كرمتْ أخلاقُهُ وزكتْ ... أعراقُهُ فتعدّى رتبة المثل
وكيف لا يَسْمُوَنْ مَنْ كانَ والدُهُ ... عليٌّ قدر على كُلّ الأنام (علي)
غيثُ العُفاةِ ونكّال العُتاةِ ورغـ ... ـام العداة برأيٍ منهُ معتدلِ

إذا رأيتَ سـجـاياهُ وعـفّـتَـهُ عن الدنيّ وعن الخيـلاء والخـولِ
ورمتَ وفـــرَ عطاياهُ ونائـلَهُ خلتَ الأمـامـة لم تُفْقَـدْ ولم تزلِ
فـاهنأْ أُخيَّ بمَنْ زفّتْ إليكَ ولا برحتَ ترمي أكفَّ الدهر بالشللِ
ولم تزلْ تُرغم الأعدا فضائلك الـ ـلاتي تسامتْ على الجوزاءِ والحَملِ

وقال السيد الأديب، الفائق بنظام البديع على حبيب، زند الكمال القادح، جناب السيد صالح القزويني[1] يهنّيه في العيد. وقَدْ خمّسها حسام الأدب الماضي، شبله السيد راضي، صاحب التخميسات المشهورة، والمقاطيع التي هي كاللئالئ منثورة، وهي مع التخميس:

ملكتَ يا ذا المعـالي كُلَّ مـوجـودِ جُوداً وحلّيتَ فيـه عـاطلَ الجيـدِ
إلـيَّـــةً[2] بعُلى آبائك الصـيـدِ ما العيـدُ لو لم تقم بالأمرِ بالعيـدِ
مِن بعـدِ أهليكَ أهلِ العلم والجُـودِ
مُذْ سامَ صرف الردى بالجور مدَّهمُ صـرفـتَـهُ ونديً جـاوزتَ حـدَّهمُ
ومُذ قصرتَ على علياكَ مجدَهُمُ مـددتَ ظلاً على الأسـلام بعـدهمُ
فـالمسلمـون بظلّ منك ممدود
فكم بأبحُـرِ علم بالندى التطمتْ سقيتَ روضةَ سامي مجدِهمْ فَنَمتْ
وكم براحـةِ جُـود للوفـود هَمَتْ أعدتَ روحَ عُلاهمْ بعدما هشمتْ
أعـواده في البـرايا مـورق العُـودِ
أثبتَّ للناسِ من دانٍ ومنتـــزحٍ لك العُلى بدليلٍ منكَ مـتّـضـحِ
أخلقت ما عمَّ أهلَ الأرضِ مِنْ تَرحٍ جـدّدتَ للناس مـاً قـدّرتَ من فـرحٍ
فـمنك لم يبـرحوا منه بتـجـديد
بكَ الزمـانُ صـفـا ودّاً وطاب جَنى وجـاء مـعـتـذراً عـمّـا أسـا وَجَنَى
وفيكَ مُذْ أشرقتْ شمسُ السُعودِ سنا زهتْ رياضُ التهـاني في عُـلاكَ لنا
كـمـا زهتْ بعُلى آبائكَ الصِيـدِ

---

(١) السيد صالح القزويني البغدادي تُوفيَ سنة ١٣٠٦هـ/ ١٨٨٩م. وهو من مواليد ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٤م. وولده الشاعر راضي القزويني ولد سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م، وتُوفيَ في حياة أبيه سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م.
(٢) الأليّة: القَسَم.

حذّرتَ جامحةَ الآمال إذْ بَعُدَتْ   عنّا وأصدَرْتَها بالريّ إذْ وردتْ
ففي فخارك أهلُ الفخر قَدْ شَهدتْ   وفي سُعودِكَ أهلُ العلمِ قَدْ سَعُدَتْ

كما بجودكَ أثرى كُلُّ موجود

نجومُ مجدكَ لا يُحْصى تعدّدُها   فكيف أستطيعُ في نَظْم أُحددُها
جمعتَ عزّ مقال أنتَ مفردُها   أترعتَ أبحر علم ساغَ موردُها

فَكُلُّ بحرٍ سواها غيرُ مورود

سعيتَ للعلمِ شوقاً في تطلبهِ   حتى غدوتَ به فرداً بلا شَبَهِ
وكم بمشكور سَعيٍ غيرُ مشتبهِ   أحرزتَ حمداً بسعي قَدْ شُكِرتَ بهِ

فما سواك بمشكورٍ ومحمود

ثنتْ إليك بنو العليا وسائدَها   وعَادَ حاسدُها بالفضل شاهدَها
فيا فريدَ بني العليا وواحدَها   إنَّ الأقاليمَ قَدْ ألقتْ مقالدَها

إلى معاليكَ إلقاءُ المقاليد

سبقتَ مَنْ فاقَ قَدْراً بالعُلى وسما   مراتباً فيُرى أرضاً وأنتَ سما
وقَدْ ملكت إغراء الملوك بما   طوّقتَ أجيادَها طوق الحَمامِ كما

طبَّقتَ أقطارَها بالفضلِ والجود

وقال الأديب عبق البلاغة من ثغره يفوح، جناب الأكمل الأنبل الشيخ حمادي نوح[1]، يمدحه أيضاً:

أَ نسيمَ (كاظمةٍ) هواه تَنَسَّما   فأذال أدمعَهُ (ببابلَ) عَنْدَمَا
وخيال جائلة الوشاح كخصرها   إذ زارَهُ وهناً قضى أنْ تُهْضَما
يا طيفَ ناعسةِ اللحاظ ولا كرى   وبها النفوس ردىً تُفاضُ ولا دما
أطرقتَ عن كثب لِصَبِّكَ زائراً   أم شقّة طولاً أتيت ميمّما
فلقلّما وافيت في ظَبْي الحِمى   ولقلّما فيه أنثنيت لقلّما
أنشقت نكهته المشوق ولا شذى   وسقيته الريق البرود ولا لمى

---

(١) من كبار شعراء الحلّة، ولد سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م، وتوفي سنة ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م.

فشميمُهُ استلبَ السّقامَ ولا ظنى	ورِوى لُماهُ شفا الأُوام ولا ظمى
مَنْ لي بزورته عياناً ريثما	يقضي الرضيع لبانتيه ريثما
وهي المحالُ فَرُبَّ قوم حاولتْ	مِنْ آل (جعفر) المحلَ الأعظما
المجتلين غياهبَ الدُنيا إذا	رقت الدسوت فرائداً أو توأما
وإذا احتبى فيها سواهم خلتها	شمسَ النهار تُقلُّ ليلاً مظلما
يستجمعُ ابنُ عليّ شمل مكارم(١)	زانوا بفطرتها الزمان الأقدما
المستضاء به إذا سَفَعَ الدُجى	والمستجارُ به إذا نَزَلَ العمى
والمستعانُ به إذا جَلَلٌ رَهَا	والمُستغاثُ به إذا عامٌ حمى
قَدْ تضمنُ الأبراد فوق أسرّة	منه وُقَارَيْ (يذبل) و(يلملما)
وتلفُّ منهُ إذا المسائلُ أعوصتْ	قمر الهداية بالعلوم متيّما
قَدْ قلتُ يا مَنْ في أبي الحسن اقتدى	أعددتَه مِنْ كسبِ حظَك مغنما
فأذا حَمى (المهديّ) دين (مُحَمَّدٍ)	شركَ الألهِ فَهَبْهُ ديناً قيّما

وقال الأديب الأوحد، ومتنبي الكمال الذي لا إحصاء لآياتِ مجده ولا حدّ، عود الفخر النضر، الشيخ محسن آل شيخ خضر، يهنّيه بزواج أبن أخيه، الشيخ حسن بن الشيخ مُحَمّد (رحمهم اللّه أجمعين)، قال موشّحاً:

طاف بالكأس غريرٌ أحورُ	غَنجُ الألحاظ ممشوق القوامْ

طافَ يجلوها على ندمانه
والشذى يَعْبَقُ مِنْ أردانه
فرأيتُ السحرَ في أجفانه
آيةٌ للحُبِّ ليستْ تُنكَرُ	فغراماً يا بني (حامٍ) و(سامْ)

فشربنا الراحَ إذْ ولّى الصباحْ
وانتشينا طَرَباً والدهرُ صاحْ
ويحَ ديكُ الصُبحِ لَمّا حسّ صاحْ
فانتشرنا كجُمانٍ يُنشرُ	بعدما راقَ لئالي ونظامْ

---

(١) هكذا ورد في الأصل.

إلى أن يقول :

يا لـه عـــصــرٌ تَصَــابى سَلَفَــا
بين أكنافِ (المُصلّى) و(الصّــفــا)
طابَ فـيــه الـعــيشُ والوِرْدُ صَـفَـا
وانجلى الـهــمُّ بــه والـكــدرُ إذ تعاطينا الطِـلا جَاماً فَجَامْ

كليـــال نالَ فـــيــهُنَّ المُنى
خَلَفُ الـغُــرّ الـهُـــداة الأُمَنَا
(حَـسَنٌ) مــا انفكَّ يولي الحَـسَنا
وكـفى حُسناهُ مـهـما تذكـرُ عـبقٌ في طيّهِ نشرُ الخُزامْ

من بني (جـعـفرَ) أعـلام الهُـدى
وشـــقـيـق (المحـسن) المولى الندى
منهــمـــا لـم ألفَ إلاَّ ســيــداً
عرّف المعروف فيه (جعفرُ) ولِما أسسَ قَدْ شــادَ دعــامْ

قُمْ نُهنّي بهـــمـــا (المهـــديَّ) مَنْ
طوّقَ الأجـــيـــادَ في جُـــود وَمَنْ
وعـلـى الـدهـر لـه كـم مِـنْ مِـنَـنْ
كُلُّ حيٍّ مِـنْ بنيـهِ يشكـرُ بعض ما تولي أياديه الجسامْ

هو شــــيخُ الـكُلِّ في الكُلِّ الـذي
لم يَزَلْ يجلو قــذى الطرف القــذي
وإذا شـــئـتَ فـــدعْ ذاكَ وذي
وانتظرْ ما سوفَ منه يظهـرُ فهو (المهديُّ) إنْ لدَّ الخصامْ

يا أبـا المولـى ومـــولى المولويـنْ
مَنْ ســرتْ آلاؤهُ في الخــافــقينْ

بكَ قـــرّت عن قـــريب كُـلُّ عَينْ
فلكُـلٍّ فيــكَ يُـرجى وطَـرُ مثلما قرّتْ بأهليـكَ الكرامْ

عــيلمٌ في العلم زخّـــار خــضَمْ
منه كم من (جـعــفـر) فـاضَ وَكَمْ
هو في الأعـــلام كـــالْفـــرد العَلَمْ
كُلُّ موصـولٍ لــه مفتِـقـرُ مـستعيـدٌ صِلة في كُلِّ عامْ

فـــبكم لازال يـرتاحُ الـوجـــودْ
كُلُّ عـصـرٍ فـيــه منكم ضاعَ عُـودْ
دون أدنـى نَشّــره نَشــرُ الـورودْ
كنظـامـي وهـو فيكـم عَطِـرُ حيثُ قَدْ كانَ لـه المِسك الختامْ

وله أيضاً يهنيه بزواجه ، وهي من القصائد البديعة :

أكـأسُــهُ مِنْ وجنتيــه التـهـبـا أم من دم العُنقـودِ مـا تخـضّـبـا
وبالـشــقــيقِ خــدُّهُ مــذهَّبٌ أم بدمي لَمّا أطلَّ اخــتــضــبـا
وتلك شـمسٌ بالنجـوم احـتبكتْ أمّـا الحُـمـيّا مـا أرى والحَـبَـبـا
ولستُ أدري أرضــابـاً أحــتـسي من سلسـبـيلٍ ثغـرُهُ أم ضَـرَبا
ومــا دريتُ بشــذى أنفــاســهِ أم بشذى المسكِ ذكتْ ريحُ الصَبا
وفـوق عرش خـدّه الخالُ استوى أم ذاكَ زنجٌ حلَّ دسـتـاً مـذْهَـبـا
يسبي الضبى في لفتات جيده في لفتات جيـده يسبي الضِبى
فـلـو تـراهُ إذْ تـهــــادى طَرَبـاً رأيتَ في برديهِ غــصـناً رطبــا
ولـو تـرى الأكـــوابَ إذْ يديـرُها لقلتَ مــا رأيتُ إلاَّ كـــوكـبــا
ودون أنْ يمزجَــهـــا بريقــــه هيـهـاتَ أنْ أشـربَهـا أو يشـرَبا
والراحُ مـا أشـرقَ منهـا كـوكـبٌ إلاَّ وفي فـم النَدامـى غَـــرَبا
عـتّـقَـهـا (عـادٌ) وعندمـا نَشـا حَبابُهـا في الكأسِ عـادتْ عِنَبـا
قَـدْ سابَ أفـعى جـعـدِهِ في خـدّهِ لكنَّهُ أفــلاذ قلبي لَسَــبــا

وعندمـا أوجسَ منه خـيـفـةً ... ألقى من الصّدغ عليه عـقـربا
زارَ فنبّـهَ الرقـيـبَ جـرسُـهُ ... مـا خلتُ أنَّ الجرسَ بعضُ الرُقبا
فلم أزلْ أهصـرُ فُـوداً أبلجـاً ... ولـم أزلْ أرشفُ ثغـراً أشنبـا

إلى أن قال في مدحه :

فـقُلْ لِمَنْ جـاراهُ في مـضـمـارهِ ... أقـصـرْ فـقَـدْ غـالبتَ ليـثـاً أغلبـا
إلى (عليّ) إنتـمى و(فـاطم) ... فكانَ خـيـرَ الناس أُمّـاً وأبا
يسـبـقني اليـراعُ مـدحـاً فـأرى ... من اليـراع مـا يريني العَـجَـبـا
من عُـصـبـة سـمـا بهـا إلى العُلى ... (عليُّـهـا) أبو الهُـداة النُجـبـا
إنْ (مـرَّ) طعمُ الشعـرِ في سـواهمُ ... فـمـا (أحـيـلاهُ) بهم وأعـذبا
رووا حديثَ مجدِهمْ عَنْ (جعفرٍ) ... و(جعـفـرٌ) يرويه عن (أهلِ العَبا)

وقال العالم الأديب ، والفاضل اللبيب ، الشيخ حسين الدجيلي[1] يهنّيه بزواج أخيه ذي النجدة والباس ، عيلم العلوم العباس ، أدام الله أيامه ، موشحاً :

أيُّها الرَكبُ على رملِ الحِمى ... وقفةٌ أقضي بها حقَّ الغَـرامْ

ثم حـيّـوا من مـغـانيـه الربى
فـيـه مـرّتْ لِلُليـلات الصبـا
زَمـنٌ إتّـخــــذَ الـراحَ أبـا
ونديمي في الدُجى إنْ أظلمـا ... قَـمـرٌ يجلو حناديسَ الظـلامْ

أحـورٌ أحـوى رشـيـقٌ أهيفُ
كـادَ منْ مَـرِّ الصَـبـا ينقطفُ
إنَّ أرباب الـهـوى لـو أنصـفـوا
يمـوا (نَجـداً) إذا مـا يمّـا ... وإذا أتْهَمَ فـالمثـوى (تهـامْ)

فـغـدا يجلو الطلا مـثلَ العَـروسْ

(١) الشيخ حسين الدجيلي ولد سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م ،وتُوفي سنة ١٣٠٥هـ/ ١٨٨٨م .

زفَّــهــا صِــرْفــاً بتــبــريٍّ الكؤوسْ
نفــستْ حــتى وهبناها النفــوسْ
تجمعُ الشملَ وتبري السقما وحريٌّ مثلُها يبري السقامْ

هي تِبْــرٌ والجُــمــانُ الحَــبَبُ
بَلْ شــهــابٌ في الدُجى ملتــهبُ
قَــدْ ســقــانيــهــا أغنٌّ رَبْرَبُ
فغــدتْ تدبو إلى العقلِ كما دبَّ لصُ الحيِّ في جُنحِ الظَلامْ

هي روحُ الخــمــر لا جــسمٌ لهــا
فكأنَّ الكأسَ قَــدْ مــثَّلهــا
سلســبــيلٌ والنُهى علَّلهــا
تُنعشُ الحيَّ وتُحيي الرِمَما مُقْعَدٌ لو كانَ يحسوها لقامْ

زمنٌ مَــرَّ على ســفح الغــضــا
قَــدْ زعــمناهُ تولَّى وانقــضى
عــادَ لي غــضّــاً كــمــا كــانَ مضى
حيثُ زفتْ مَنْ تسامتْ كرمــا من بني (طه) بني المجد الكرامْ

لخــدين المجــدِ في رتبــتــه
شــبَّ إذْ شــبَّ وفــي حــــوزتــهِ
قــصبُ السبقِ وفي قــبــضــتــه
سلّمٌ يرقى به أوجِ السّــمــا وكــذا أهلوهُ شــيــخــاً وغُــلامْ

بيتُ مــجــد ظاهر فــيــه الفــخــارْ
كظهــورِ الشــمسِ في قلبِ النهــارْ
كم أقــالوا عن بني العلم عــثــارْ
وجلوا عن مقلةِ الدينِ العَمى مِنْ حلالٍ أوضحوهُ وحرامْ

لهمُ في كُلِّ عصرٍ معجزاتْ
بفروع نشروها غامضاتْ
جمعوا شملَ الهُدى بعد الشَتاتْ
فضلاءُ أتقياءُ عُلَمَا بترقّي فضلهم عاماً فعَامْ

رتبةٌ شامخةٌ في الرُتَبِ
في سماء المجد مثلَ الكوكبِ
لو يكنْ قامَ بنا اليوم نبي
وثبوا كُلاً إلى ذاكَ فما فيهمُ مِنْ واحدٍ إلاَّ وَقامْ

لو ترى (المهديَّ) ما كُنتَ ترى
غيرَ مَنْ تلوي عليه الخُنْصُرا
يملأُ السمعَ عُلاً والبَصَرا
فهو في الجُلّى عمادٌ وحِمى وعصامٌ لبني (حامٍ) و(سامْ)

أبحرٌ فاضتْ لِمَنْ أمَّ النَدى
ما صَدَ إلاَّ وكانَ الموردا
طود علم طالَ أطوادَ الهُدى
في ذُرى شامِخها قَدْ خَيَّما وله في ذروةِ المجدِ خيامْ

سبرَ العلمَ كتاباً فكتابْ
مُحْكماً أبوابَهُ باباً فَبَابْ
ألمعيٌّ فكرُهُ مثلُ الشهابْ
ثاقبٌ ما طاشَ سهماً إنْ رَمَى ولأهلِ الفضل كم طاشتْ سِهامْ

كم يد بيضاء قَدْ طوّقها
عنقاً والمَنُّ لن يطرقَها

حـــازَ من خـــيل الندى أســبــقَــهــا

يُخْجِلُ الغيثَ إذا الغيثُ هَمَى ولـه في الفضـل مثـوى ومَقـامْ

دمــتُمْ عُــمــرَ الليــالي والدهورْ

لكـمُ العـــيشُ المُهنَّى والسُــرورْ

كُلَّمـــا غنّتْ على الدوح الطيـــورْ

نشـرتْ أيدي التـهـاني عَلَمـا لكمُ بالبِشـرِ في كُـلِّ مـقـامْ

وقال الأوحد الفريد، الشيخ مُحَمَّد سعيد، ابن محمود سعيد[1]، أيضاً يهنّيه بزواج العلم العباس أخيه (سلّمه اللّه):

برزتْ فـــلاحَ البـــدرُ وهو تمامُ وَرَنَتْ فَـغَـضَّتْ طرفَـهـا الآرامُ

هيـفـاء يهـزأُ بالغُـصـونِ قـوامـهـا إنْ مـاسَ من خُـوطِ الأراكِ قـوامُ

أولتْكَ مـرشـفَـهـا فَعُـدتَ برشـفـة ثَمـلاً ومـا غـيـرُ الرضـاب مُـدامُ

حيَّا الغَـمـامُ ربى الغـميم ولا عداً وادي الغـمـيـم إذا اسـتـهلَّ غَـمـامُ

تحكي ليـاليـه ليـالي عـرس مَنْ شـرقت ببـهـجـة عـرسـه الأيامُ

ذاك الفـتـى العـبــاس إلاّ أنّهُ طلق المُحـيَّــا ثغـرُهُ بسّــامُ

شــهمٌ تسنَّم ذروةً هي في العُلى مِنْ غــاربِ المجـد الأثيلِ سَنَامُ

كم مِنْ رُموز قَـدْ أمـاط لثـامَـهـا في العِلم لم يُكشفْ لهُنَّ لثـــامُ

عَلَمٌ حــديثُ علومـــه وعـــلاؤهُ شـــهـدتْ به علمـاؤها الأعـلامُ

بعـمـيـدها (المهديّ) قـامتْ للورى عَـمَـدُ الهُـدى ولَهُنَّ قـامَ دَعـامُ

مـقدامُـها الجاري إلى الأمدِ الذي عَنْ شـأوه يتـقـاعسُ المُقـدامُ

حَـبـرٌ يلوذُ الشـرعُ منه بحـاكم وَضُـحَـتْ بنيّـرِ حُكمـه الأحكامُ

مــازالَ يحـمي ربعَ شـرع شـادَهُ وكـذاكَ يحـمي غيْلَهُ (الضرغـامُ)

ولَكَم لهُ في الفضل مِنْ قدمٍ رَسَتْ في مـــوطنٍ زلَّتْ به الأقـــدامُ

وكفى (بجعفرَ) في الفضائل بارعاً عن فـضلهِ تتــقــاصـرُ الأوهامُ

(١) الشيخ محمد سعيد بن الشيخ محمود بن سعيد الأسكافي، ولد سنة ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م، وتوفي سنة ١٣١٩هـ/ ١٩٠١م.

سـروات مـجـد لا تطاولُهُ الورى | أتطاولُ الشُمَّ الرعـان أُكـامُ
هُمْ أهلُ بيت لا يُضامُ نزيلُهمْ | ونزيلُ بيت المجد ليسَ يُضامُ
وهُمُ الأُلى كُشفَ الغطاء لجدّهم | عَمًّا به قَدْ حارت الأفهامُ
شَرَفاً كضوءِ الشمس أسفرَ مشرقاً | والصُبحُ لا يخفي سناهُ ظلامُ
قوّام شرعة أحمد وقوامها | وقوامُ شرعتهِ هم القُوامُ
لم يستبنْ لو لم تقمْ بحدودها | منها حلالٌ للورى وحَرامُ
أعلامُ علم للرئاسة لم تَزلْ | أبداً عليهم تخفقُ الأعلامُ
أطوادُ حلم لا تطيشُ علومُها | يوماً إذا ما طاشتِ الأحلامُ
ولَكَمْ على الأسلام منْ أيد لها | مازالَ يشكر فضلها الأسلامُ
بهمُ ربوعُ العلم شُيِّدَ سُمْكُها | وبهم لهذا الدين قامَ دَعامُ
فضلوا الأنام وإنَّما فَضلُ الورى | كَسْبٌ وبارعُ فضلِهم إلهامُ
جُبلتْ على الكرم العميم طباعُهم | ومعادنُ الكرم العميم كرامُ
يا أُسرةَ الشرف الذي عَنْ شأوهِ | يكبو بأقدام الورى إحجامُ
قَدْ هُنِّيتْ أيامُنا فيكم فلا | بَرِحتْ تُهنّي فيكمُ الأيامُ

وله أيضاً يهنيه مع أخيه الشيخ جعفر بزواج أخيهما المتقدم (سلَّمَهُ اللّه) ، وهي :

لاحَ فجلّى حنادسَ الظُلم | بارقُ ثغر بالبِشر مُبْتَسمِ
يا باسماً ريقُ ثغرهِ شَبَمُ | وآ حرَّ قلبي من ريقكَ الشَبِمِ
محرّم وصلُهُ عليّ وقَدْ | أحلّ شرعُ الهوى لديه دمي
يلومني فيهِ عاذلي سَفَهاً | وإنَّ مثلي عليه لم يُلَمِ
ولو يرى منهُ ما رأيتُ صَبَا | وظلَّ يُدْمي الأكفَّ بالندمِ
فليعذل العاذلون فيه فلي | سمع عن العاذلين في صَمَمِ
يا ليلةً بالغريّ مشرقةً | يجلو سناها غياهبَ الظُلَمِ
ليلة أُنسٍ أبدت ببهجتها | في عُرسِ (عبّاس) ثغرَ مبتسمِ
فتى إلى المجد قَدْ نماهُ أبٌ | إليه يُنمى الفخار حيثُ نمي
يستلّ للدهر من عزائمهِ | رهيفَ عَضْبٍ مصمّمٍ خُذُمِ

مَنْ كـانَ بالغـانيـات هامَ هوىً ... فـفي سـوى المكرمـات لم يَهِمِ
قُمْ لي فـهنّي عـميـدَها العَلَمَ (الـ ... ـمـهـديَّ) أكْـرِمْ بذاكَ منْ عَلمِ
حـاكمُ شـرع تأبى الشـريعـة أنْ ... ترضى بحَـبـرٍ سـواهُ مِنْ حَكمِ
كـهفٌ به الدينُ لاذَ مـعـتـصـماً ... فكان للدين خـيـرَ مـعـتـصم
يـا بنَ الـغطاريف والـكرام ومَنْ ... طوَّقَ جِـيـدَ الزمـانِ بالكرمِ
يقـيـسُكَ الدهرُ في سـواك وهَلْ ... تُقـاس شُمُّ الرعـان بالأكـمِ
وهنِّ رب الـفـخـار (جـعـفـر) مَنْ ... تقـاصـرتْ دونَ مـدحـهِ هممي
تأوي أولو الـفـضـل إنْ أتتْـهُ إلى ... خـضَمّ بحـر بالـفـضلِ ملتطمِ
مِنْ مـعـشـر لا يُضـامُ جـارهمُ ... وإنَّ جـارَ الـكرام لـم يـضـمِ
الماجـدون الـهُـداة مَنْ وطأوا ... هامَ الـثُـريا بأخـمص القَـدمِ
لا برَّحَ الـدهرُ مـشـرقـاً بهم ... مـا نسَّمَ الريحَ بارئُ النَسمِ

وقال الأديب الأوحد، وعلم الكمال المفرد، الشاعر المبرّز الشيخ أحمد[1]، إبن الشيخ عبد الحسين شكر زاده يهنيهما أيضاً بعرس أخيهما (أبقاه اللّه تعالى):

إليكِ تنحّي يا ابنة القوم عَنْ عذلي ... فلي باقتناءِ المجد شُغلٌ عن الوصلِ
وأني بتـفـجـيري عـيون مكارمي ... لعـمـرك في لهو عن الأعين النُجلِ
فـأنْ تعـقل الخودُ الحسانُ بحيِّها ... قلاصيَ عن طيِّ العُلى ومعي عقلي
تركتُ عَـفَـافـاً مـا يَمـرُ طلابُهُ ... وأعنقتُ جُردَ العزم أطلبُ ما يحلي
تسنّمتُ عزمي شاحذاً حدَّ فكرتي ... عن الأدهم الشملال والأبيض النصلِ
ولي مقولٌ كالسيفِ أجرتْ فرندَهُ ... يدُ القين يرمي الأخطلَ الفحلَ بالخطلِ
يصـدّقني النظم البـديع بأنني ... فـتى قـوله فـصلٌ ومـا هو بالهـزلِ
ولستُ الذي بالنظم يفخرُ بعدما ... تعرّفتُ لولا يومُ عرسِ أبي (الفَضلِ)
فذلك أجرى من لساني مطهّماً ... يريكَ مجاري السيل عن صيّب الوبلِ
له اللّه يومـاً أنحلَ المجـد والعُلى ... مُداماً حلا طعماً فأوحى إلى النحلِ

---
(١) توفي بعد سنة ١٢٨٦هـ/ ١٨٦٩م.

بعرس فتى إنْ أمتدحْهُ فأنّما تخطّ بناني ما مكارمُه تُملي
تَخالُ على آبائه في جبينه فِرَنداً جلاهُ القين في صفحة النَصلِ
له الفضلُ والعلياء عنهم وراثةٌ وحُسنُ فعالِ المرء طيبٌ عن الأصلِ
ليهنى به (المهديُّ) والعيلمُ الذي قضايا الهُدى كم فيه (انتجنَ) مِنْ (شكلِ)
أخو هِمم ترمى الجبال بمثلها وتُخرسُ أصواتَ الرعودِ عن الزجلِ
وكم من يد بيضاء نُهْدَى بومضِها بها شُرِّعتْ للشرعِ واضحةُ السُبْلِ
أعِرْ سمعَكَ الداعي الصَدُوْق لكي ترى بفيه ازدحامُ المدحَ في قولهِ الفصلِ
به عقد الشرعُ المبينُ لواءهُ وقادَ إليه الأمرَ في العقدِ والحَلِّ
يُكذِّبُ بالصفحِ الوعيد وأنّهُ إذا قالَ وعداً صدَّقَ القولَ بالفعلِ
تطاولُ وَكْفَ السُحَبِ جُوداً أكفُّهُ فتُدركُ عامَ الخِصْبِ في سنة المَحْلِ
ليُهنِ ويهني الصادق القولَ (جعفر) أخو مكرمات كُلُّ جزئيّها كُلّي
تسنّم من قبّ المعالي مطهّماً به حاز من دون الورى قصب النضلِ
تذكرنا أيديه في الناس (هاشماً) وتُنسي ابنَ (مام) وابنَ (سهل) أخا الفضلِ
جداول مدّت من شريعة (جعفر) فكم صادر عنهُنَّ بالعَلِّ والنَهلِ
مناقبُ لا تُحْصَى عِدَاداً وهل ترى فتى رام قبليَ حصرَ منقطع الرملِ
فلا برحتْ أنواؤهُ مستهلةً تُطاولُ مُنهلَّ الغمائمِ في الهَطْلِ

ترجمة الشيخ مهدي في «يتيمة الدهر»

وقال السيد في (يتيمته) :

ونحمدك يا مَنْ تفضّل علينا بالوحيد الربّاني ، والوحيد الذي ليس له ثاني ، البدر الجليّ ، المهدي بن عليّ ، المهدي بسنا أنواره من ضلّ مناهج الهُدى ، والمبدد بجيوش أبكار أفكاره جيوش أولي الزيغ والردى ، المحيط خُبْراً بجميع العلوم ، والجامع بين المنثور والمنظوم ، سلطان العلماء الفحول ، والمنتج الفروع من الأصول ، من لو لَبَسَتْ حليتَهُ الليالي لقامت لها الحرباء تترقب ، ولو حاز الفجر شيئاً من سنا أنواره لَما وجد ـ وحياة جدّه ـ غيهب ، البحر الذي أمواجه ما برحت تمورُ وتزيد ، والعَضْبُ الذي ماانفكّت صفاح متونه من برقِها قلب المعاند يرعد ، مَنْ سادتْ أحكام الشريعة تميس بأردان (محضورها) و(مباحها) مطرزة

بنقوش قوله في رياض القبول ، وصارت أعلام الحنيفية البيضاء تنوس ذوائب سرورها وأفراحها بنسائم إشاراته على أعلام معقول لا يزلزله المنقول ، من لا ينطق الحق إلاّ على لسانه ، ولا يلوح الصدق إلاّ من بيانه :

ملك ترى شمّ الأنوف منْ الورى ... قَدْ طأطأتْ لرفيع قَدرِ جنابهِ
تلقى الوفودَ مقيمةً في بيته ... وترى الركائبَ في فَسيح رحابهِ
متكفّلٌ أمرَ الأراملِ كُلِّها ... بحضوره ما بينها وغيابهِ
يشفي بشهدة وصله كُلَّ الورى ... مِنْ لسع غادرةِ الزمان ونابهِ
يُعطي ويمنعُ مَنْ يشاءُ مِن الورى ... ويسبب الأسباب في أسبابهِ
حيّاهُ ربُّ العالمين تحيةً ... في اللوحِ قَدْ كُتبتْ على أبوابهِ

فقد استلّ من غمد فكره العاملات من النصول ، في جميع المعقول والمنقول ، لا سيَّما الفقه والأصول ، فلم يدع جيش إيراد إلاّ بدّده ، بما أصدره وأورده ، وجمعه وأفرده :

هُمامٌ بظهرِ الغيبِ للغيبِ حافظٌ ... ومَنْ لم يَفِهْ بالغيبِ في نُطْقِهِ رَجْما
وكم مِنْ مراق في الفخار عليَّةً ... رقاها ولم يحملْ غداة الرقى هَمَّا
حباهُ إلهُ الناسِ في العلم بَسْطَةً ... وأولاهُ مُذْ قَدْ كانَ في مهدِهِ حُكْمَا

فهو العلم المنادى المفرد ، والعلامة المؤيد ، وبحر العلم الذي لا يجزر في المدّ ، ولا يوقف له على حدّ ، ساد الأنام ، وفاق بالأتفاق من غير نكير ولا جاحد ، ولم يحتج مدّعي فضله إلى اليمين والشاهد ، وشاهد الوجدان له مساعد :

ولَكَمْ رَوتْ في الجُودِ عنهُ مسلسلاً ... قومٌ إليهم كُلُّ فَضل يُسندُ
بيضُ الوجوهِ شريفَةٌ أحسابُهمْ ... ما فيهمُ إلاّ الأغرُّ الأصيدُ

هذا ، وصِلاتُهُ العائدة ، على موصلها شاهدة ، وأياديه الجزيلة ، تستجدي بها العُفاة الفائدة ، وترى بعينيك ما برزت من مؤلفاته المنطوية على تحقيقاته ، المعربة عن وقوفه على الصحيح من روايات الحكم وآياته ، وتبحّره في المعارف ، فكل ذي فضل من غزير أبحر علمه غارف ، وبما له في الدرجات عارف ، ومن ثمّ لم تزل له النفوس شائقة ، والأبصار وامقة ، مع قربه منها ، وعدم بعده عنها ، هذا همام ، وذاك إمام ، وهذا عظيم ، وهذا عليم ، وتلك طائفة ، وأخرى عاكفة ، مصغية العقول والأسماع ، مبتهجة القلوب والطباع ، بما

يمهّده هذا الأستاذ الوحيد ، والسناد الفريد ، من أصول القواعد ، وجليل الفرائد ، فتغدو بالأذهان منتقشة ، وبها الأرواح منتعشة ، فنأى من نأى من مستمعي ذلك منه ، ورواته عنه ، يجوب القفار ، قاصداً أقاصي الديار ، ومعلناً في جميع الأمصار ، أن أستاذه إمام أئمة علماء عصره على الأطلاق ، حتى قام على ذلك الأجماع والوفاق ، فأنشأتُ فيه مخاطباً له :

ألاَ يا أيُّهـــا المولى المســـاوي ... بكُلٍّ صـــفــاته المولى العليّــا
لقـد حـزتَ المفـاخـرَ والمعـالي ... ونلتَ بفــضلكَ القَـدْرَ العليّــا
جـمعتَ فضائلاً كـانتْ (لموسى) ... فكنتَ بجمعها (الحَسَنَ) الزكيّا
ومـــا حـــازوهُ من مكنونِ علم ... كــشـفتَ غطاءَهُ فـغـدا جليّــا
لكَ المجــدُ الذي أرسى خـِـبــاهُ ... على هام المجــرَّة والثُــريّا
فلو بَعَثَ الألهُ بكُلِّ عـــصـــرٍ ... نبـــيًّـــاً كنتَ أنتَ به نبـــيّـــا

وأنشأتُ فيه أيضاً :

كـــيفَ تحكي أكـــفَّكَ الأنواءُ ... أو مــا يأخـذ الحـيـاءَ الحَـيـاءُ؟!
ولئن ضـــاقت البســـيطةُ منّا ... فلقَـدْ ضـاقَ منْ نُهـاكَ الفَـضـاءُ
فـتـيـــةٌ حـاولتْ مـديحَكَ لّما ... طفـــحت في ذواتهـــا الأهواءُ
ويحـهـا مـا درتْ بما قـيلَ قـدمـاً ... (غـايةُ المدح في عُـلاكَ ابتـداءُ)
وصــفتْ بالعطا أكــفَّكَ مَـدْحـاً ... والعطا يُستَـمـدُّ منكَ العطاءُ
لكَ يا بنَ الأُلى مـــرابعُ جُــود ... حَـبَـست ركـبَـهـا بهـا الأمـراءُ
مـا درى مَنْ غـداً يُجـاريكَ فـخـراً ... أنَّهُ الأرضُ والمقـــامُ الســـمـــاءُ
قَـد أطعتَ الألهَ سـرّاً وَجَـهـراً ... فـاغـتـدتْ طوعَ أمـركَ الأشـيـاءُ
لِمَ لا والرؤوسُ تُطْرِقُ خـفـضـاً ... لعـــلاهُ وتخــضعُ الرؤســـاءُ
وبنصبِ الرشـادِ مِنْ بعدِ خـفضٍ ... رَفَـعَـتْ رأسَـهـا بكَ الشُـرفـاءُ

وقَدْ بنى مدائن الفضل وشاد أركانها ، وأسس على التقى حيطانها ، وهو مالك تلك المدائن وبابها ، وبرّها وبحرها ، وربيب حجر أمّ علاها ، وشمس صباحها ، وسناء مصباحها ، فهل يستطيع الطير المحصوص باللقط إذا حلّق وسقط ، التقاط مثل هذه الصورة ، وهي بهذا النمط ، وعمد إلى ما ينبت في رياض التحقيق والتدقيق ، وصيّره ما

بين دقيق وسحيق ، وكوّن منه ذاتاً (غلاها) في (قِدْر) مُخيّلته فأحالها درّة وقذفها في جوفه فما لجوف غيره أن يحويها ، وما لدرّاكة سواه أن تدرك قدر غاليها ، كلا فلقد كَلَّ عن ذلك العقل الكلّي ، ولن يصل إلى الجزئي منه فضلاً عن الكُلّي ، وغاص ملك آرائه السديدة في بطحاء الوجود إلى التخوم ، وحلّق شاهقاً إلى الحيّ القيوم ، ورمى بقوس فكرته سهمَ الجَوَلان به ، من شرق الفضاء وغربه ، وخبطه بأيدي أفكاره ، بحسن استبصاره ، فوضعه في قالب الغلي بالنار ، وغلاه بنار الأوار حتى فار ، فصبّه صبّ السبائك سبيكة تلهث بالوقد ، فصفّاها بمصفى الغش والنحوس من الذهب العسجد .

ومن ثم إغتدى في عصره الأوحد ، وفي العلم المنادى المُفْرَد ، والأمام في الأبيض والأسود ، وابتدأ كما انتهى إليه النهي والسؤدد ، وجاء بما لم يَجِئْ به أحد ، من أفعال كريمة ، وأحوال مستقيمة ، وأياد عميمة ، ودرر في العلم لا تقابل بقيمة ، وراحت تزري بالنسيم أخلاقه ، وبالبدر إشراقه ، وصارت في الأجياد أطواقه ، وانتشرت أحاديث جوده ، وبزغت أقمار سعوده ، وبدت لوائح المسرّات لكافة البريّات مِن وَكْفِ غمائم كفيه بجوده ، ورنَّحتْ بلابل السعد فوق يانعات الغصون بحديث صدره ووِرده ، وخَطَبَتْهُ أمّ المعالي صغيراً ، وراودته بنات المكرمات شيخاً كبيراً ، وزفّت له عرائس الرتب الفائقة بلا صداق ، واستنارت به بنو العصر على الأطلاق ، واحتجب بدر كماله عن سائم الخسوف والمحاق ، وتحجّبت شمس مقاله أن يطيبها الكسوف باستطراق .

ثم أن السيد[1] (ره) ذكر جملة من مدائح الشعراء في حق الشيخ مهدي ثم أعقبه بجملة من شعره في حقه . وحيث أنّا قَدْ ألزمنا أنفسنا بأن لا نذكر إلاّ (السمين) من الأشعار وشعر هذا (السيد) يكثر عليه الغثّ غاية الأكثار ، على أنّهُ قَدْ مرّتْ عليك جملة انتخبناها من شعره .

إلى أن قال : ثم أن المعنيّ بالخطاب ، ومن غدت قصراً عليه هذه الألقاب ، ممن تقصر دونه البلاغة ، وتضعف عن جليّ حسامه في الفنون الصياغة ، لم يترك طريقاً من البلاغة إلاّ طرقه ، ولا معنى من الفصاحة ذا حجاب إلاّ إخترقه ، بسهام فكره ، ونبال عقود ألفاظه بنهيه وأمره ، ولم يدع لمتكلم في قوس المعاني منزعا ، ولا لمنطيق في موطن المباني موقعاً ، بَلْ إذا نطق فبقول جامع ، يأخذ من جميع الطرق بالمجامع . فهيهات أن يجيز لي واجد المعرفة بكل ذات وصفه أن (أُنقّحَ) بينه وبين علماء عصره (مناط) التقابل ، حيث لا يرى في غيره التماثل معه والتشاكل ، فأنّا بالتتبع والأستقراء ، من الأبتداء إلى الأنتهاء ، لم

(١) هو السيد محمد علي العاملي المُتوفى سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م صاحب كتاب «يتيمة الدهر» .

نجد أحسن منه عملاً بما وصفه أهل العصمة ، وأولياء النعمة ، على طبق ما وقّتوا ، ووفق ما نعتوا ، ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، ولا خيراً منه تدريساً وإيقافاً للأسماع على العلم النافع ، والمطلوب الجامع ، لملبس الاقتصاد ومشي التواضع ، ولم لا وهو فتى يُبعدُ قلمه إذا كتب عن الزيف ، وينحيه عن الميل والحيف ، فأنْ أوجز أعجز وأغرب ، وأن أطنب أعجب .

ولم يزل السيد (ره) في هذا وأمثاله معجباً مطيلاً في وصف أحوال هذا الأمام (المهدي) بأفعاله وأقواله ، إلى أن ختم الترجمة بقصيدة طويلة في مدحه ، أولها :

يا مَنْ له ألقى الزمانُ المُقْودا وبجوده جُودُ الوجودِ تقلّدا

وحيث أنها من شعره (الذي عرفت) أعرضنا عنها .

ولكنه ذكر من شعر غيره قصيدة في مدح الشيخ مهدي (ره) مع تخميسها ، وهي في غاية المتانة والقوة . ولكنه لم يذكر صاحب الأصل وصاحب التخميس . ولكنني أظن ظناً قوياً أن الأصل للسيد صالح القزويني البغدادي المتقدم ذكره مراراً والتخميس لولده السيد راضي القزويني صاحب التخمسيات المشهورة . والذي يدل على ذلك زيادة على كون النَفسُ واحداً بملاحظة شعرهما المعلوم أنَّهُ لهما ، أن السيد مُحَمَّد علي هذا قال : وأنشأ به غيري ، ثم ذكر هذه القصيدة مع تخميسها ، ثم ذكر بعدها : وأنشأ به أيضاً ، ثم ذكر القصيدة التي يهنّيه بها في العيد وهي للسيد صالح القزويني وتخميسها لولده السيد راضي ، وهي قوله :

ملكتَ يا ذا المعالي كُلَّ موجودِ جُوداً وحلّيتَ فيه عاطل الجيدِ

إليّةً بعُلى آبائك الصيد ما العيدُ لو لم تقم بالأمرِ بالعيدِ

مِنْ بعدِ أهليكَ أهلِ العلمِ والجُودِ

وقَدْ مرَّتْ القصيدة مع تخميسها . فكأنَّهُ يظهر من تعبيره أنَّهما لواحد .

وكأنَّ السيد مُحَمَّد علي لم يذكر اسمهما عدم اعتناء بهما كما هو شأن المتعاصرين غالباً . والأنصاف أنَّهُ مدة عمره ما اهتدى إلى إنشاء بيت واحد مثل بيت من أبياتها المشيّدة التي هي كاللئالئ منضّدة . وهي مع التخميس هذه ، ولم يذكرها من أولها ، قال :

فتىً طالَ أهل الدهر طُرّاً بفخرهِ وطوّقَ أعناقَ البرايا ببرّهِ

كريمٌ غدا المعروفُ طَوْعاً لأمرهِ له من (عليّ) القَدْرِ شامخ قدرهِ

وفصل قضاً من (جعفرٍ) ما له رَدُّ

به مقفلاتُ العلم للنـاس فتّحـــتْ وفيــه أحاديـثُ العلـوم تصحَّحـتْ
ومُذْ ماتَ (موسىَ) والأمانيُّ طلحتْ تورّث من (مُوسى) عصاهُ فأصبحت
لنا يدُهُ البيضاء من يدهِ تبدو

فللّه من مـولى بـه العـلم قـائـمٌ قـيامَ المعالي والنّهى فيـه هائـمٌ
له كـالبـدور التمّ سـارتْ مكارمٌ وسـادتْ بأفقِ المكرمـاتِ عَـزائمٌ
له كالنجومِ النيّرات لها وَقْدُ

لقَدْ عمَّ أهلَ الأرضِ طُرّاً عطـاؤهُ وطـالَ على شُـهبِ السمـاء علاؤهُ
ودامَ بـلا حصـرٍ وعـدٍّ حـبـاؤهُ وفاضَ بلا رعـدٍ وبـرقٍ حيـاؤهُ
حيِّياً ومن شأن الحيا البرقُ والرعدُ

به تهـتـدي أهل الضـلالة للهُـدى وفيـه نكيـد الدهر إنْ كـاد بالردى
فتى ضيّق الدنيا ببطش على العدى وأوسعَ رحبَ الأرضِ في واسع الندى
فلم يخلُ غورٌ من نداهُ ولا نَجْدُ

رفعتَ بنصب في الورى كُلَّ مُنْكرٍ وعـرّفتَ بـالمعـروف كُـلَّ مُنكّـرٍ
ومُذْ شيبَ جُوداً صفـوهم بمكـدّرٍ أعدتَ عليهم عهدَ جدِّكَ (جعفرٍ)
بتجديدكَ النُّعمى وإنْ قدُم العهدُ

وفيتَ لهم فـي كُـلّ عـهد ولـم تَخُـنْ وجـُـدتَ عليهـم في النوالِ ولَمْ تَمُنْ
وصنتَ الورى فضلاً وغيرك لم يَصُنْ وآمنتـهم مـنْ كُـلِّ خـوفٍ ولـم يكـنْ
سواكَ الورى للخوف في الأمن قَدْ عدُّوا

فيا مَنْ يُجيرُ الناسَ مِنْ كُلِّ نكبةٍ ومن ينـجلي فيه دُجى كُلِّ كربةٍ
سمـوتَ بني العلياء في كُلِّ رتبـةٍ وحُزتَ رهانَ السبق في كُلِّ حَلْبَةٍ
فكنتَ المُجَلّى ، والمُجلَّى له المجدُ

أقمتَ على المعروف فضلكَ شاهداً وسـدت بني العليا وليـداً ووالـداً
وصلتَ بعـزم للردى كـان ذائـداً وأقدمـتَ إقدامَ الغطـاريفِ وارداً

مواردَ عنها يَحجمُ الأسدُ الوردُ

لكَ العلمُ أضحى مجملاً ومفصَّــلاً وعنكَ حديثُ الفضل يُرْوَى مُسَلْسَلاً
ولّمـا إليك الصيدُ رامـوا توصُّــلاً بَعُدتَ فلم تقربْ لكَ الصيدُ منزلاً
على أنَّهمْ في القُربِ منكَ لهم بُعدُ

لقد كنتَ للآجينَ في الخوف مأمنـا تُبـعّدُ عنـهم كُلّ سـوء لهـم دنـا
و(بالجزمِ) بعد (النَصبِ) مُذْ (خُفّضَ) العنا (رفـعتَ) لـهم بعـد العنا عَلَّمَ الـهَنـا
فأنتَ المُنادى فيه والعَلَمُ الفَردُ

سَحابُ الندى مِنْ فيضِ بحركَ ممطـرٌ وصُبحُ الهُدى مِنْ صُبح مجدكَ مُسْفرٌ
ووجه العُلى مِنْ نـورِ وجهِـكَ نيّـرٌ وروضُ الهنا من فيضِ جُودِكَ مزهـرٌ
وطائرُهُ من فوق دوحِ الهنا يشدو

وكم صلْتَ في عَضْبٍ من العزم مُصْلِتٍ وأحييـتَ جُـوداً للعُلــى كُلّ ميِّــتٍ
فـفيــكَ لنا المعـروفُ قـامَ بمُثْبـتٍ وفـيكَ الـعُلى والعلمُ بعد تشتّــتٍ
قَدْ انتظما شملاً كما انتظمَ العِقْدُ

سبقتَ بنـي العليا بكُـلِّ سجيّــة وكُنـتَ على أهل الحمى ذا حـميّة
إذا أطَّردتْ في النــاس كُـلُّ بليّــةً عكستَ شتـاتاً طرد كُلّ (قـضيّـةٍ)
ولولاكَ عند الطردِ ما انعكسَ (الطّردُ)

وحـيــدٌ له في الدهر تُثنـى وسـائدُ ومِــنْ جُودِه كُــلُّ البـريـة واردٌ
هُمـامٌ بيـومِ الخـوفِ للأمـن قـائـدٌ إمـامٌ بحـلّ الـضُـرِّ للنفعِ عـاقـدٌ
فكانَ كأهليهِ له الحَلُّ والعَقْدُ

هذا لعمري هو السحر الحلال ، والعذب الزلال ، الذي يسكر الطباع ، ويسحر الألباب والأسماع ، وتجري جداول البلاغة والفصاحة في خلاله ، وتشدو عنادل اليراعة على أوراقه بأبكاره وآصاله .

هذا ، واعلم أن كُلّ ثناء ومدح وإن علا ، وتناهى قليل في حق مثل هذا العيلم الذي لا

يبارى فضله ولا يضاهى ، فأنَّ كراماته لا تُعدُّ ، ومناقبه لا تُحدُّ .

كراماتُه

فمما ينقل عنه من الكرامات التي لولا بلوغها حدّ التواتر لما صدّق بها السامع ، إلاَّ أن يكون الوحي بها صادع ، وقَدْ سمعتها من شيخنا العلم العباس (أدام اللّه وجوده) نجل العلامة الحسن (ره) بطريق ، وسمعتُها من تلميذه العلم الربّاني ، شيخنا وملاذنا العلامة الشيخ حسن المغمغاني[1] ، بطريق يقرب منه .

والحاصل أن هذه القصة متواترة معنى ، والقدر المتيقّن منها أن الأستاذ الشيخ حسن المغمغاني (سلّمه اللّه) قال : كان الشيخ إذا رقى منبر التدريس جرى كالسيل الدفّاع بحيث لا يقف ولا يسكت في الأثناء ، فكأنما يملي علينا حديثاً أو دعاء ، وكنا نصغي بجميع جوارحنا إليه ، ونقبل بكلّنا عليه ، فلو غفل أحدنا عنه آناً فاتته مطالب عديدة ، كلها مبتكرة جديدة . فجرى يوماً بحضر الشيخ هذا الحديث فصرت أعجب عنده بطلاقة لسانه ، وحسن تقريره وبيانه . فقال : أمَّا قبل فنعم ، وأما الآن بعد تكاثر الأمراض وهجوم الشيب فلا .

ثم أخذ يحدثنا فقال : لّما توفيَ السيد رضا نجل العلامة الطبطبائي (ره) كانت وفاته عند المغرب ، فأخرجوا جنازته وجعلوها في مسجد الطوسي (ره) . واجتمعت عنده العلماء لقراءة القرآن حتى الصبح ، وكان فيهم والدي الشيخ علي (ره) والشيخ مُحَمَّد حسن صاحب الجواهر ، فجعل كُلّ واحد من الحاضرين يقرأ شيئاً من القرآن والباقون يستمعون . فلما انتهت الدورة قال والدي : ما أُعجِبت بقراءة واحد منكم كأعجابي بقراءة ولدي (المهدي) .

فقيل : وكيف؟

فقال : أنَّهُ يقرأ العشرة أجزاء والأثني عشر بأقل من ساعة مع الألتزام بجميع القواعد التجويدية مع الأفصاح والأيضاح .

فأصرّ الشيخ مُحَمَّد حسن على استحالة هذا الأمر . فبعث والدي عليّ فجئته وكنت يومئذ مناهز العشرين ، فأمرني والدي بالقراءة . وكان في الحاضرين رؤساء قُرّاء العراق

---

(١) الشيخ حسن المامقاني ولد سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م ، وتُوفي سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢م . وكان من كبار المراجع الدينيّين .

وهما إثنان فأخذوا ينظرون في المكان الذي شرعت في قراءته ليحصون الأغلاط والباقون يستمعون. فأكملت ثلاثة عشرَ جُزْءً من القرآن بأقل من ساعة، ولم يعثروا في جميع قراءتي إلاّ على غلطة واحدة وهي الدرج إما في همزة قطع أو وقف مستحب.

وفي رواية عمنا العباس (سلّمه اللّه) أنّهُ قرأ ستة أجزاء في خمسة عشر دقيقة. وإن صحّ هذا أو ما يقرب منه، فهو من المعجزات الخارجة عن طوق البشر. ولكن الفضل بيد اللّه يؤتيه من يشاء واللّه ذو الفضل العظيم.

ومنها: ما حدثنا به تلميذه وربيبه الذي هو اليوم من الأساتيذ الكبار، والفقهاء المُقَلَدين في جملة من الأقطار، الشيخ الأجلّ، والعماد المبجّل، العالم الربّاني، شيخنا الشيخ عبد اللّه المازندراني[1]، (دام ظله). قال في محشد عظيم ما معناه ومضمونه (بلا زيادة ولا نقيصة) أنّهُ كانت له زوجة صالحة علوية، وكانت ناسكة تقية، كانت تقلد الأستاذ الشيخ مهدي وتصلّي خلفه مدة عمرها، فمرضتُ مرضاً شديداً وصرتُ أعالجها وأجئ لها بالدواء والطبيب حتى انقطعتُ عن اشتغالي وتحصيلي مدة شهور. وكان الأستاذ الشيخ مهدي (ره) يتفقّدني أحياناً ويجئ إليّ يسألني عن حالها وحالي لأنّهُ كان يحبني حباً شديداً.

فلما دخل شهر صفر كانت لي في بعض لياليه عادةٌ في الجلوس بالدار الخارجة لتعزية سيد الشهداء (ع) وتجتمع عندي بعض الطلبة من أهل بلدي وغيرهم. فلما فرغت من المجلس وكان قريب نصف الليل دخلتُ على العلوية. وكان حالها في تلك الأيام شديداً ومرضها متزايداً، فوجدتهاجالسة في فراشها متكئة على الجدار وهي متستّرة (بچادر) لها كأنَّ معها مَنْ هو محرّم عليها وهي تستر نفسها عنه. فقلتُ لها: ما بالكِ وكيف حالكِ؟

فقالتْ: الحمد للّه حالي حسن جداً بواسطة قدوم الشيخ عليٍّ وعيادته لي الآن.

فقلت: ويحكِ أيُّ شيخٍ هو؟

قالت: الشيخ مهدي كان الآن جالساً قريباً مني فأين مضى؟

قلتُ: أنتِ نائمة أم مستيقظة، أين الشيخ، وأين نحن وكيف يجيء نصف الليل؟

فجعلتْ تُقسم باللّه العظيم أنها بتمام الشعور والعقل وأنها مستيقظة وأن الشيخ دخل عليها فتستّرت منه ورأته بعينها وهو لابس عمامة بيضاء ورداء أبيض وثياب بيض، وأنه

(١) تُوفي الشيخ المازندراني عام ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م، وهو من مواليد سنة ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م.

جلس عندها نصف ساعة .

ثم قالت : أخرج فانظره في الطريق عساك تلحق به .

فخرجتُ ونظرتُ في الأزقّة فلم أجد لذلك أثراً . فرجعتُ إليها وأخبرتُها فتأسّفتْ أسفاً شديداً . فقلتُ لها : وبماذا كان يتكلم ، وما قال لك؟

قالت : أنّهُ سألني عن حالي ، فقلتُ له : أنا غريبة ومرضي شديد ومالي أحد يمرضّني وآنس به والشيخ عبد اللّه مشغول هذه الأيام وأنا خائفة مستوحشة . فقال : لا تخافي ولا تستوحشي وأنت معنا ، وقَدْ أوصيت بك جماعة سيأتوك بعدي . قالت : ثم كرر مراراً قوله : «أنتِ معنا الليلة» . . . «أنتِ معنا الليلة» .

ثم بينما نحن كذلك إذ دخلتَ علينا ، والتفتُّ فلم أجد الشيخ مهدي .

يقول الشيخ عبد اللّه (أيّده اللّه) : فبقيتُ مبهوتاً متحيّراً مصدقاً مكذباً . وأمّا (العلوية) فأنّها استلقت على فراشها ونامت يسيراً ، ثم انتبهت وجعلت تتشاهد وتقرأ كلمات الفرج وإذا بها قَدْ استعدّت للمنيّة . وما كان غير يسير إلاّ وقضت نحبها وماتت . فجلستُ عند رأسها أقرأ القرآن وأنتظر الفجر لأستعدّ لجهازها وأجمع بعض الطلبة من رفقائي ليعينوني عليها .

فلمّا كان بين (الطلوعين) خرجت لأجمع رفقائي وإذا (البلدُ) مرتجّة والناس في الأزقّة تلطم على رؤوسها وتبكي وتهرع إلى جهة دار (الشيخ) . قلتُ : ما الخبر؟ قالوا : الشيخ مهدي قَدْ توفّيَ .

فطار عقلي وطاش لبّي ومضيت إلى دار الأستاذ ، فقيل : توفّيَ في الثلث الأخير من الليل فجأةً (بريح كان في متنه يعرضه أحياناً) . فجمعتُ بعض الطلبة من أهل بلدي ، ودفنّاها ، ورجعنا إلى تشييع الشيخ ، فدُفن بعدها بيسير من ذلك اليوم .

ثم نُصبتِ المآتم في دار جدّهِ الكبيرة ، واتصلت النياحة بالنياحة ، والعزاء بالعزاء إلى آخر صفر . وبقيت العامة والخاصة في سائر لياليه تخرج بالأعلام السود والمشاعل وتلطم على الصدور ، وتدعو بالويل والثبور ، وهكذا في سائر أمصار العراق .

مراثيه

وجاءت الشعراء تترى ، بمراثٍ تستنزل برقّتها الشعرى ، وهي كثيرة لا يمكن حصرها ، ولا يستطاع ذكرها . كيف وقَدْ بلغني أنها تبلغ الألف من تاريخ وقصيدة ، لأن كُلّ شاعر كان يأتي بثلاث أو أربع من سائر الأقطار . ولكنّا ننتخب منها مقداراً يسيراً خوف الملل من الأكثار .

وأحسن ما قيل فيه ، وأبدع ما سُمعَ من مراثيه ، ما جاء به الحسيب الحائز قصب السبق في مضمار كُلّ مكرمة ، والأديب الفائز بمحاسن من الكمال لدى الأصاغر والأكابر مسلّمة ، المرتقي المجد الأثيل ، والممتطي صهوة الشرف الذي لا يقاس بمثيل ، الذي ذاع ذكر فخره في جميع الأقطار ، السيد الأوحد سيدنا السيد حيدر (ره) صاحب المراثي التي عجزت أولو الأعجار عن مجاراتها ، وانبرت أقلام شعراء البر والبحر عن مباراتها ، فقال يرثيه ويعزّي أولاده وإخوته :

أعلمتَ طارقــةَ الخُطوبِ الســود ... بحِمى الوصيِّ صدعت أيَّ عميدِ

ونزعتَ ـ يا نَزعتْ يداكِ بنانَهــا ـ ... من قـبّـة الأسـلام أيَّ عــمـودِ

ونَعمْ فَـهَـبْكِ قـرعــتـه بمُرنَّة ... صـمّـاء تأخـذُ من قـوى الجلمـودِ

أفطرتِ إلاّ قلبَ حـامـيـةَ الهُـدى ... وصـدعتِ إلاّ بيضـةَ التـوحـيـدِ!

وبللتِ إلاّ في مــدامع عــينه ... ذاكَ الصعـيـدَ على أجلٍّ فـقـيدِ

الآن مــاتَ العلمُ واندرسَ التُـقى ... وعُـفي السمـاح وطاحَ كفُّ الجُـودِ

فُـجِـعتْ بنو الدنيـا بزاد مـقلّهـا ... وبريّ حــائمــةِ الرجـا المطرودِ

وسـرى فطبّـقـهـا عليـه مـأتماً ... ناعٍ تضـيـقُ به رحـابُ البـيـدِ

صلّى الألهُ عليكَ من مـفـقـود ... جلَّ المُصـابُ به عن التـحـديدِ

شغلتْ رزيّتُكَ الملائك فـاغـتـدتْ ... لكَ في هُبوطٍ عن جوىً وصُعودِ

وكفـاكَ قَدْراً أنَّ نعيَكَ في السمـا ... خلطته بالتـقـديسِ والتـحـمـيـدِ

وبرفـعــهـا ذاكَ السـرير تقـرَّبتْ ... زُلفى إلى خـلاقـهـا المعـبـودِ

رفعت به الأخوين شخصَكَ والتُقى ... وتلتْـهُ بالتـسـبـيح والتـمـجـيـدِ

وبكـاك دينُ اللّـه بـالعـين التـي ... بكـت الأئمـــةَ عَلّة الموجـــودِ

عـــدلت رزيّتُـــهم رزيتَكَ التـي ... قَـصَـمتْ عُرى الأيمانِ والتـوحـيـدِ

ماذا يُواري خطُّ قبرك من حِجىً ... يزنُ الجبالَ ومِنْ ندى مورود
إنْ مسّ مهجورَ الفناء فطالما ... وقف الرّجاءُ ببابكَ المقصود
أو إنْ تكنْ جمدتْ بنانُكَ بالردى ... فعليكَ عينُ الجُودِ غيرُ جَمود
أو قلَّ من أيام عُمركَ عدّها ... فكثيرُ برّكَ ليس بالمعدود
تبكيكَ عينٌ كَم مسحتَ دموعَها ... ببَرودِ فضلٍ لا بفضلِ بُرُود
لم تبقَ بعدَكَ للمطالب نُجْعَةٌ ... طُويَ الرجاءُ على حشا مكمود
هدمَ الرّدى بكَ ركن علّة (أحمد) ... ولَطالما بكَ كان للتشييد
غسلتْ سوادَ عيونِها بدموعها ... فصبغن أرديةَ الكرام الصّيد
صُبغتْ بها تلكَ الثياب فَسَوَّدتْ ... وجهَ الزمان بذلك التسويد
ورأتْ بقيةَ فخرِها قَدْ أُدرِجَتْ ... في بُرْدِ شخص بالفَخارِ وحيد
كم ردَّ غربَ الخصم وهو مركَّبٌ ... منها بشغرة نحرها والجيد
ووقى بمهجتهِ الكريمة قلبَها ... مِنْ أسهُمِ الأعداءِ كُلَّ مُبيد
فكأنَّها في صبرِها دون الهدى ... مع فرط رِقّتها مجنٌّ حديد
بأبي الذي عقدوا عليه رداءهُ ... والخيرُ تحت لوائهِ المعقود
لبَسَ الحياةَ فصانَ ظاهر بُردِها ... بصلاحهِ وَعَفافهِ المشهود
حتى استجدَّ سواهُ ثوباً للبلى ... ومضى على كرم نقيَّ العُود
يا ثاوياً خلفَ الصَعيدِ كفى جوىً ... إنّي دعوتُكَ من وراءِ صعيد
لثراكَ أستسقي ثلاثَ سحائب ... متكافئات كلها في الجود
فسحابةٌ وطفاءُ منكَ تَعلَّمتْ ... للأرضِ سقيَ تهائم ونجود
وسحابةٌ مِنْ جود كفّك أنبتت ... شُكرَ العُفاةِ بدَرّها المحمود
وسحابةٌ مِنْ عبرتي ما أنْ رَنَتْ ... إلاَّ وقال لها إفتقادُكَ جودي
هي بالزفير إليكَ ذاتُ بوارق ... ومن الحنينِ عليكَ ذاتُ رُعود
فاذهبْ حميداً في الجنان مُخَلَّداً ... فالعيشُ بعدَكَ ليس لي بحميد
ولقد دعوتُ الدينَ بعدَكَ دعوةً ... يستكُّ منها سمعُ كُلِّ حقود
لا تخشَ ضَعْفاً في الزمانِ وإنْ غَدا ... يُرسي بداهيةً عليكَ كؤود

فبـه لكَ (المهـديُّ)[1] أمنعُ قـوة ... تأوي لِرُكنٍ مِنْ عُلاهُ مشيدِ

نسجَتْ حميّتُهُ عليكَ صنيعةً ... لم تقضِ نشرتَها يدا (داودِ)

فإذا دَجا ليلُ الخطوب فَلَقتَهُ ... من ضوء صُبحِ جبينهِ بعمودِ

(علمُ الهُدى) السامي الذي هو في كلا ... حسبيه سادَ على الكرام الصيدِ

و(مفيدُ) فضل لو أتى العصرَ الذي ... فيه (المفيد) لقال: «أنتَ مفيدي»[2]

هو (آيةُ اللّهِ) التي قَدْ أبطلتْ ... في العالمين عنادَ كُلّ جحودِ

وأبو (المصابيح) التي شهبُ السما ... رمقتْ مطالعَها بطرفِ حسودِ

لو فاخرتْ نهرَ (المجرّةِ) في السما ... غلبت (بجعفر) جودها المورودِ

ذاكَ الذي في الجُودِ أرسلَ (صالحاً) ... لكنْ لأهلِ الفضلِ لا (لثمودِ)

و(مُحمَّدٌ) منه (الحسين) فَعاذرٌ ... إنْ قُلتُ أرسلَ (خاتَماً) للجُودِ

أقمارُ تَمٍّ في بروج سما العُلى ... شَرَفاً تُضيءُ على الليالي السُودِ

وأُسودُ غيلٍ في المهابة لو حموا ... مأوى الظباء لكان غيلَ أُسودِ

وترى المكارم في مناقب فخرهم ... تَخْتالُ بين قلائد وعُقودِ

من كُلّ محتلب البَنانِ رقيقها ... في كُلِّ جامدةِ الضروع صلودِ

ويقولُ للكفّ الكريمة كُلَّما ... بدأتْ بعارفةٍ بَدَاراً عيدي

يا عترةَ الوحيّ الذين توطّدتْ ... بهمُ دعائمُ ملّة التوحيدِ

دُمْتُمْ لنا والعِزُّ فوق رواقكم ... والفَخرُ تحتَ طِرافهِ الممدودِ

---

(١) هو السيد مهدي القزويني، وقد مرّتْ الأشارة إليه في قصائد الرثاء.

(٢) المُفيد: هو الشيخ محمد بن النعمان، شيخ الأماميّة، ومُشيّد المذهب الأثنا عشري ولد سنة ٣٣٦هـ / ٩٤٨م، وتُوفيَ سنة ٤١٣هـ / ١٠٢٢م وقد عاصر الدولة البويهيّة، ولُقِّبَ بالمُفيد لغزارة علمه.

وقد أشار الشاعر في هذا البيت إلى لقبه كما ضمّن لقبين آخرين لكبار علماء الأماميّة وهما (علم الهُدى) الشريف مرتضى المولود سنة ٣٥٥هـ / ٩٦٦م، والمُتوفى سنة ٤٣٦هـ / ١٠٤٤م، و(آية الله) وهو لقبُ العلامة الحلّي المُتوفى سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٥م.

وقد ذكر الدكتور محمد مهدي البصير في (نهضة العراق الأدبية، ص٤٠): أنّ الأمام السيد مهدي القزويني كان يُعِدُّ السيد حيدر الحلّي أكبر شاعر طالبيّ، ويُعربُ عن تقديره له، وإعجابه به في كُلِّ مناسبة؛ ولمّا سمعَ قوله فيه:

و(مفيدُ) عصر لو أتى العصرَ الذي ... فيه (المُفيدُ) لقالَ: أنت مُفيديا

قال له بصوت فيه رنّةُ الأعجاب: «أنتَ مُفيدي»، واستعاد البيت.

ورُويَ أنّهُ لمّا سمعَ قوله فيه:

فاليوم إنْ شكتِ الشريعةُ قرحةً ... فسواكَ ليسَ بمُدْمِلٍ أقرافَها

قامَ، واستعاد الشعر، وخلعَ عباءته عليه.

وبحسبكم علمُ الشريعة (جعفرُ) الـ إحسان عن علم التُقى المفقودِ
والغرُّ مِنْ آل المكارم مَنْ سَموْا شَرفاً بفضلٍ طارف وتليدِ
قَدْ رُدَّ عِقدُ الفخر في جيد العُلى بأبي (مُحَمَّد) وهو عِقْدُ الجيدِ
وأعاد يا دارَ الهُدى لك (جدُّهُ) فكأنَّهُ لم يُطوَ في الملحودِ
أحيا مآثرَهُ الحِسان وزادها لو كان فيها موضعٌ لمزيدِ
لو لم تبت أمُّ السَماح طروقةً لندى يديه لم تكنْ بولُودِ
يا مَنْ وجوهُهمُ مَصابِحُ للهُدى وأكفُّهمْ في الجُوِ سحبُ الجُودِ
ماذا أقولُ معزِّياً بنشائدي قَطَعتْ مهابتُكمْ لسانَ نشيدي

وله أيضاً يرثيه ، ويعزّي السيد العلامة السيد مهدي القزويني مع الشيخ جعفر أخيه ، وسائر أولاده وبنيه :

ملأت مكارمُكَ البسيطةَ أنعُما فلذلكَ انعقدتْ لرزئكَ مأتما
ولئن غدا فذّاً مصابُكَ في الورى فالغيثُ كان لها وجُودُكَ توأما
بالأمسِ قَدْ رَضَعتْ بنانَكَ دَرَّها واليوم تحلبهُ محاجرُها دَمَا
ما غُمِّضتْ أجفانُ عينكَ عن ردى إلاّ وجَفنُ الدهرِ غُمِّضَ مِنْ عَمى
حَلبَ الحِمامُ أبا (الأمين) بك الجوى شطرين صاباً في الزمان وعلقما
فأغصّ في شطرٍ فماً من (هاشم) وأغصّ في شطرٍ (لجعفرها) فَمَا
قَسمَ الرزيَّةَ في السويّة فيهما فَغدا كلا العينين ثقلاً أعظما
وأمَا وساعتك التي (بيلملم) زالتْ وما أعني سواكَ (يلملما)
ما خلتُ فقدَكَ يَسْتقِلُّ بثُقله رُكْنَا زمانِكَ ثم لم يتهدّما
فلقد أطلَّ غداةَ يومكَ فادحٌ هو منه في الأرضين أعظم في السما
في ناره استوتِ الأنامُ فما دروا أيُّ القُلوب أحقُّ أنْ تتضرّما
يا مَنْ أضاءَ بنوره أفقَ الهُدى أعلمتَ بعدَكَ كُلَّ أُفقٍ أظلما
مَنْ ردَّ طَرْفَكَ عن فتورٍ مغضياً وَلَكَمْ لحظت به الحواسدَ أرقما
أبكيكَ للأحسان غاضَ نميرُهُ قَسْراً وللآمال بعدَكَ حُوّما

ولطالب المعـــروف ألقى رحلَهُ وأقـامَ مـيتَ العـزم لا مـتلوِّمـا
قـطعـتْ بـكَ الأيامُ آمـــالَ الـورى قطعتْ ولا وصلتْ بكَفّكَ معصما
ولقَـــدْ ســـددتْ فَمَ النّعي بأنْمُلٍ رجـفتْ فلم أملكْ لهُنَّ به فَـمَـا
فـأقـرَّ في ســمـعي أمضَّ قـوارعٍ نفذتْ فكانتْ في فؤادي أسهُما
ينعى جـفوناً كـان يرخيهـا التُقىً بأبي جـفـونُكَ مـا أعفَّ وأكـرما
وأنامــلاً منهـــا بأعظم كـلفـــة عَـبـرَ الحِـمـامُ إليكَ بَحراً مُـفْعَـما
رفـعوكَ والبـركـاتُ عن ظهـر الثرى وطووكَ واللمعاتُ عن وجه السما
دفنوكَ وانقلبــوا بأعظم حـيـــرة فكأنّمـا دفنوا الكتـابَ المُحْكَمـا
لولاكَ يا (مـهـديُّ) آلِ مُـحَـمَّـدٍ ظلّوا بجهـلهـا الطريقَ الأقـومـا
أشرقتَ شمساً في بروج سما الهُدى فـأضـأتَهـا وولدتَ فـيـهـا (أنجـمـا)
لولاكَ مـا وَجـدتْ ولولا (جَـعْـفَـرٌ) من مـذهـب للحقّ يُرغمُ مـجـرمـا
أقـسـمتُ بالشـرف الذي قَـدْ حزتَهُ وعلمتُ ذلكَ جُهدَ مَنْ قَدْ أقسما
لقد احتمتْ منهُ الشريعةُ في فتىً لا تستـبـيحُ يدُ النوائب مـا حـمى
وإذا ذوو الفـضلِ استوتْ أقـدامُـهمْ وجـدوهُ أحـرى القـوم أنْ يتـقـدَّمـا
ومن السكـينةِ والوقـــار سكوتُهُ وإذا تكلّمَ لـم تَجِـــدْ مُـــتكلّمــا
هو خـيـــرُ مَنْ نمتِ العـــلاء وآلُهُ مِنْ ذروةِ الجـوزاء أشـرفُ مُنْتَـمى
(الجـعـفــريّين) الذين بمجـدهمْ ركبوا من الشرفِ السنامَ الأعظما
رفـعـوا على أُولى الزمـان رواقـهـم وتوارثوا فـيــه العــلاء الأقــدمـا
بالسيـد (المهـديّ) ثم (بجـعـفر) وبهمْ أنارَ اللّهُ مـا قَـدْ أُبْهِـمـا
يا مـوصـلاً مني رسـالةَ ذي حـشىً ظمـئتْ إلى ذاكَ الرواء ولا ظمـا
بلّغْ ـ بلغتَ الخيـرَ ـ خـيـرَ مُوسّـد جَـدَثاً به دفنوا الصـراطَ الأقـومـا
يا بدر إنْ تَكُ قَـدْ أفلتَ فـلا تَخَلْ بُرجَ الهـداية منك بعـدَكَ أبهـمـا
فلقَـــدْ ولدتَ به كـــواكبَ لم تَلِدْ مثـلاً لهـا أمُّ الكواكبِ في السمـا
لو عُـدتَ للدُنيـا ومَن لزمـانهـا بك أنْ تعودَ فـيغتـدي متبسّما
لرأيتَ (صـالحـهـا) (أمـيناً) للعُلى (مولى) له الدهرُ اغتدى مُسْتَخْدَما[1]

---

(١) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله : «أشار بهذا البيت إلى جميع أولاده مع التورية» .

وتلطّفتْ وطفـاءُ تحلبـهـا الصَـبـا بثرى حَواكَ فضمّ عَضْبَاً مـخْذَمـا
أفصحتُ من وجدي إليكَ بدعوة رُبْمـا ذممتُ بهـا الزمـانَ الأعـجـمـا
قَدْ كُنتَ لي بجميلِ ذكرِكَ (مالكاً) فلئن بقيتُ لأنسيّن (مُـتَـمّـمـا)

وقال العالم الكامل، والعيلم الذي جمع طرفي العلم والأدب حتى أصبح بلا مماثل، زين العبّاد والمجتهدين، شيخنا الشيخ جواد محيي الدين[1]، وهو الآن من العلمـــاء الفضلاء، ويقيم الجماعة في الصحن الشريف، مربعاً ومصيف، فيا سلّمه اللّه وأبقاه، عَلَماً يرجع إليه كُلّ منيب وأوّاه، يرثيه مع السيد علي الطبطبائي[2] المتقدم، ويُعزّي الشيخ شيخ جعفر أخاه والشيخ صالح مع باقي بنيه، وهي، (وقَدْ أجاد):

عَــلامَ بنو العَليــا تُطأطأُ هامَــهــا أَهَلْ فقدتْ بالرغم منها إمامَـها؟!
نعمْ غـالهـا صـرفُ المنون بفـادح عـراها فـأشجى شيـخَـها وغُلامَهـا
لقد هدّمتْ كفُّ الردى كهفَ عزّهاً وأوهتْ مـبـانيـهـا وهدّتْ دعـامَـهـا
وجذّتْ لها الويلات عرنينَ مجدها برغم مـعـاليـهـا وجبّتْ سنامَـهـا
لوتْ جـيــدَها حُـزْناً ولفّتْ لواءها وثلّتْ عـواليـهـا وفلّتْ حُـسـامَـهـا
فَـقُلْ ويكَ للأرزاء كُـفّي عن الورى فـقَـدْ بلغتْ بالرغم منهـا مـرامَـهـا
لها الويل كم شنّتْ خيولَ صُروفَها على (النجف) الأعلى فَغالتْ هُمامَها
وطافتْ بأرجاء (الطفوف) فأطفأتْ سـراجَ مـعـاليـهـا وأرختْ ظلامَـهـا
فرزءُ الفتى (المهديّ) كانَ ابتداءها ورزءُ (عليّ) القَدْرِ كانَ إختـتـامَهـا
وقَــدْ راحت الدُنيــا تموجُ بأهلهــا لعـمـرك هَلْ شـاءَ الألهُ إنعـدامَـهـا
فكم طُبِّـقتْ بالحُزن شـجـواً لنازل يُزلزلُ منهـا سـهلهـا وأكـامَــهـا
بمن تأمل الأعـلام عـزّاً وقَـدْ قَـضَى حـمـاها ومَنْ يرعى لديهـا ذمـامَـهـا
ومَنْ بَعـدُ للأحكام يُبـدي حلالَهـا إذا اشـتـبـهتْ بين الورى وحـرامَـهـا
ومَنْ بَعـدُ للوفّـادِ يُنجحُ سـؤلَهـا ويُنعشُ عـافيـهِ ويَشْفي سَـقـامَـهـا
وذي حرمةِ الأسلام ينعى لها الهُدى مـدى الدهر فينا عـزّها واحـترامَـهـا

(١) تُوفي سنة ١٣٢٢هـ/ ١٩٠٤م.
(٢) السيد علي تقي الطباطبائي حفيد (صاحب الرياض)، ولد سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م، وتُوفي في (٦) صفر سنة ١٢٨٩هـ/ ١٨٧٢م. أي قبل وفاة الشيخ مهدي كاشف الغطاء بأسبوع واحد.

أقولُ وهَلْ يُجدي التمنّي لقائلٍ وقَدْ فَوَّقتْ قوسَ المنون سهامَها
فيا ليتَ نفسي دونَ نفس ابن (جعفرٍ) سقتْها كؤوسُ الحادثات حِمامَها
وليتَ يداً ضَمَّتْهُ بالرغم في الثرى عليَّ أهالتْ لا عليه رُغامَها
فيا (صالح) الأفعال والعالم الذي له لم تَزَلْ تُلْقِي العلومُ زمامَها
فعزِّ الفتى المولى المُهذبَ في الورى وماجدَها الندب (الأمين) همامَها
وعزِّ لنا أعمامك الغُرّ مَنْ بهم يُغاثُ الورى إنْ صوَّحَ الدهرُ عامَها
أماجدُ مِنْ عليا (عليّ) بن (جعفرٍ) متى عُدَّتِ الأشرافُ كانتْ كرامَها
وهيهات أن يَعرُوا وإن جلّ ما عراً عُرى مجدكم وَهْنٌ ونخشى انفصامَها
وذا (جعفرٌ) ما انفكَّ فينا مقوِّماً لنا إوَدَ العلياء حتى أقامَها
إمامُ هُدىً ما إنْ جرى وبنو الهُدى بشأو عُلاً إلاَّ وكان أمامَها
فيا بن الأُلى من (جعفرٍ) خير أُسرةٍ بَنَتْ في ذُرى العلياء قِدْماً خيامَها
أقمْ شِرْعَةً ، آباؤكَ الصيدُ أحكموا قواعدَ علياها وشادوا دعامَها
وقُمْ بعدَها فينا إماماً فأنَّهُ أبى اللّه إلاَّ أنْ تقومَ مقامَها
وهل تنتهي ما فيكمُ من إمامةٍ فكيفَ وقَدْ شاءَ الألهُ دوامَها
سقى العفوُ قبراً ضمَّ للمجدِ مُهْجَةً بِمَنْهَلٍّ هتّانٍ يُروّي عظامَها

وقال يرثيه وحيد زمانه ، وفريد أوانه ، الأديب الأوحد ، والنسيب الأمجد ، الشاعر الماهر ، ذو الكمال الباهر ، المجيد المتفنّن ، الشيخ محسن ، آل شيخ خضر ، وهو من جودة الشعر وحسن النظم ووفور البلاغة ، بمحلّ لا يستطيع الفكر بلاغه . وسيأتيك من نوادره وأشعاره خصوصاً في ذا المقام ما يدلّك على منزلته . وقَدْ توفى سنة الألف والثلاثمائة والواحدة[1] . وله مراثٍ في الشيخ مهدي كثيرة ، منها قوله يعزّي الشيخ جعفر أخيه :

يا وقعة إذْ أطلَّ معضلُها عنها الرواسي يَخفُّ محملُها
إنْ بحتُ فيها غصصتُ في شَجنٍ وأدمع ما بَرِحتْ أهملُها
وسائلٍ قَدْ ألحَّ يسألُ في غريبةٍ لا يكادُ يعقلُها
أغمضتُ عنها وكنتُ مُطّلعاً وحين يحفَي السؤال أُجْمِلُها

(١) المشهور في وفاته أنَّهُ تُوفيَ في شهر صَفر سنة ١٣٠٢هـ/ ١٨٨٥م .

لكنّ عـيني وليـتَـهـا عَـمـيتْ بنشــرها أوشكتْ تفـصّلُهــا
يا صـيـحـةً في البـلاد شـاملةً أيســرُها وجـبـــةً تزلزلُهــا
يا خـيـبـةَ السـائلين قَـدْ رَجَعتْ بخـيـبــة لا تُجـابُ أسـؤلُهـا
يا ذُلَّةَ المسلمين إنْ جَــمَـحَتْ عـــاقـــدةَ الذيلِ مَنْ يذلّلُهــا
مَنْ للصـعــابِ الشـداد هائلةً الشَكلِ فـفـيـمَنْ يُحلُّ مشكلُهـا
مَنْ لليـتـــامى وأنتَ كـافلُهــا مَنْ لـلأيامى وأنتَ مـــوئلُهــا
مَنْ لحُــقـوق عنيتَ أنتَ بهــا وهل كــفـيلٌ ســواكَ يكفلُهـا
مَنْ ذا (لكشفُ الغطا) يدرّسُــهُ ومَـنْ لآيـاتـه يـرتـلُـهـــــا
ومَنْ لأحكامــه إذا اشـتـبـهتْ وكنه أســــراره يُعَللُهـــا
أولى به لو أتتْكَ صــارخـــةً آياتُهُ مُـــذْ أُصــيبَ كَلكلُهـا
يا غـايةَ السـابقين إذْ خُـتِـمتْ كــأنّمـــا اليـومَ مـاتَ أولُهـا
غُـرٌّ مـسـاعـيكَ كـيفَ أسـبـرُها وليسَ عــدٌّ الزمـــان يعـدلُهـا
أَعـــاذلي إذْ أنوحُ مـــعــذرةً نصـيـحــةٌ منكَ لستُ أقـبلُهـا
لا عـاشَ قـومي وأنتَ مُـفْـتَـقَـدٌ عليكَ قَـسْـراً يُقـامُ مـحـفلُهـا
وكـيف ترجـو البـقـاءَ مـوجـعـةٌ أُصـيبَ لمَّا أُصـبـتَ مـقـتلُهـا
فَـسَلْ بهــا مـا يقـولُ قـائلُهـا أنّى وقَـدْ سلَّ فـيكَ مـقـولُهـا
يا حُـفْـرَةً ضـاقَ عنه واسـعُـهـا حـتى تجـافى عُـلاهُ جندلُهـا
وبارحـــتك الدُمـــوعُ جـــاريةً يفيضُ فيضَ السحابِ مسْبَلُها
يا ناهضـاً والعـيـونُ شـاخـصـةً إليــه مـــدّت تُشـيـــرُ أنملُهـا
رؤيـاكَ ريّ الـقـلوب صـــاديةً و(جعـفـرُ) الفضلِ منك سلسلُها
(جـعـفـرُ) فـضلٍ وبحـرُ مكرمـةٍ يقـــولُهـــا دائمـــاً ويفـــعلُهــا
حَـسْبُ الورى في هجـيـرِ غلّتـهـا من (جــعـــفــر) دوحــةٌ تظلّلُهـا
أنتَ لعَـمــرِ العُلى مـعـوّلُهــا وأنتَ في ضــرّها مـــؤمّلُهــا
تـراثُ أهـلـيـكَ أنــتَ وارثُــهُ فـــانهضْ إلى حكمـــةِ تُؤثلُهــا
صـــريحُ لفظِ العلوم أنتَ ومَـنْ ناواكَ - إن أطلقتْ - مـؤولُهـا
(عنعنةٌ) فَلْيَــصُحَّ مُــسْنَدُها عنكَ كـمـا صحَّ لي مـسلسلُهـا

حـملتَ أعـبـاءَ كُلِّ مكرمـةٍ | إذْ ليسَ حيٌّ سـواكَ يحـملُهـا
فـقُـمتَ بالأمـرِ غـيـرَ مـضطهـدٍ | أخفُّ شيء عليكَ أثقلُهـا
هذا الهُـدى قَـدْ أتاكَ مـبـتـدراً | بأدمع في الخـدود يهـملُها
هوِّنْ عليـه المُصـابَ مـتـشـحـاً | بهـمّـةٍ في الأمـور تعـجلُها
أزركَ فـاشـدُدْهُ في أبي (حسن) | أصـدقُـهـا قـائلاً وأفـعلُها
وشـيـعـةٌ بايعـتْكَ تابعـةٌ | تَمْـسَحُ كـفّـيكَ بَلْ تُقـبّلُها
فـاحكمْ بهـا فـالأمـامُ (جعـفرُها) | و(جعـفرٌ) في الخـصام فَيْـصَلُها
وَأمُـرْ فـأنتَ المُطاعُ في فـئـة | أرحـامُـهـا في عُـلاكَ توصلُها
ها هي أضـحتْ عليكَ عـاكـفـةً | عليكَ دون الورى مُـعَـوَّلُهـا
ها هي طوعـاً لديكَ قَـدْ برزتْ | آسـادُها ترتمي وأشـبـلُها
وأنتَ حـقّـاً منارُ حـجّـتـهـا | وفـيكَ قَـدْ تُحطُّ أرحلُهـا
مَنْ يجـحـدُ الشمسَ وهي طالعةٌ | إلاَّ قـذى في العـيـون يُسْـملُها
عـلامـةٌ والجـمـيعُ شـاهدةٌ | بأنَّهُ في الجـمـيع أكـملُها
قَـدْ شـمـل العـالمين نافلةً | وإنَّ خيـرَ السَحـابِ أشـملُها
صـبـراً بني (جـعـفـر) وإنْ نزلتْ | جـائحـةٌ في القلوبِ منزلُهـا
مـا أفـسـدَ الدهرُ سوفَ يُصلحُهُ | أصلُحـهـا (صـالحٌ) وأعـدلُها
مـبـجّـلٌ مَنْ رآهُ أكـبـرَهُ | ومُلءَ عين الورى مـبـجّلُها
عـرَّقَ فـيـه أبوهُ، عـارفـةٌ | غـبـاوة مَنْ يقـولُ أجـهلُها
لا زال بـدراً تشعُّ طلعـتُـهُ | به الليـالي يُضـيءُ أليلُها

وقال أيضاً يرثيه، ويعزّي أخاه وبنيه، وقَدْ أجاد، وبلغ فوق ما أراد:

يئس المجـدُ إذْ أقـامَ طويلا | ثم ولّى وقـالَ صَـبْراً جـمـيلا
يا غـليـلي ومَنْ لغُلّة قلـبي | يبـستْ نجـعـةٌ تبلُّ الغليـلا
جفَّ عُـودُ الرجـاء فـالعينُ | لا تعـرفُ لا آمـلاً ولا مـأمـولا
دُكَّ طودُ الحـجى ودكـدكت الـ | أرضُ وكـادتْ جبـالُهـا أنْ تزولا
غـابَ بدرُ الدُجى وكـوّرت الشـمـ | ـسُ وخرّتْ شُهبُ السمـاء أُفولا

مـالَ جـيـدُ العُلى وعـمّـا قـريب كـان في الجور رافعـاً مـسـتطيـلا

عـــثــرَ الدهرُ واســتــقــال وأنّى يغـضـب المجـد أنْ يراني مـقـيــلا

مات (مـهديّها) فحيّ على الموت ويا طيـبــه قــبـيــلاً قــبـيــلا

ولو أنّ (الخليلَ) يُقْــبَـلُ منهُ لافـتـدى بالذبيح (إسـمـاعـيـلا)

أيُّ هدي يسـوقُـهُ بالغ الكعبـة لو كـــان هديُهُ مــقــبـــولا

يا إمـام الهُـدى كـفى الدينُ ذُلاً أنْ يبـيتَ العـزيزُ فـيـه ذليـلا

كنتَ كـهـفـاً وللعُـفـاة مـقـيـلا وعلى المسلمين ظلاً ظليــــلا

يا رفـيـعَ الذُرى وقَــدْ كُنتَ طوداً ضـعـتي أن تُرى كـثـيـبـاً مـهـيـلا

يا ربيعَ العُـفـاةِ غـيـرَ كـثـيـر لو أبتْ أنْ تُقـيـمَ إلاَّ قليــلا

يا هلالاً يأوي ثرى القـبـر بُرجـاً وهِزَبْراً تبــوَّأ القَـفـرَ غـيـلا

يا عليـمـاً ببـعض مـا علم اللّه وكـانَ المعـقـولَ والمنقـولا

يا لطيـفـاً رقّتْ شمـائلُهُ الحُسنى فـأوهمت شـمـألاً وشـمـولا

يا مُـغـيـثـاً وكنت غـيـثـاً مَـريعـاً صوتَ مـسـتصـرخ وربعـاً محـيـلا

يا مُـخـفَّـاً إلى العُلى غـيـر وأن حـامـلاً للأسـلام عـبـئـاً ثقـيـلا

وبنفـسـي مِنْ راحلٍ أنتَ صـاح الجُود من بعـده الرحيلُ الرحيـلا

إنَّ كَـفَـاً تجـاه نعـشكَ مُـدَّتْ طالما قَـدْ مـددتُهـا مُـسْـتَنيـلا

وجـفـوناً أغـضتْ على لِينِ نَعـ ـمـاكَ لَسـهَّـدتَهـا زمـانـاً طويلا

فـأذا مـا كـبـا برزئكَ ضَـعـفي فلقـد قـامَ في السـمـاء جليـلا

يغـضـبُ المجــدُ أنْ يرى لك نداً وسوى (صهـرك)[1] الأعـزّ بديلا

كنتم الفـرقـدين في الأفق الأعلى تُضـــيــئـــان هاديـاً ودليــلا

فَــهـوى فــرقـدٌ برغم أخـيـه يا أخـاهُ صـبـراً عليـه جـمـيـلا

وبحسب الهُدى فـرائدُك الغُـرّ له إذْ نسـجـتَهــا إكليــلا

زنتَ جـيـدَ العُلى بهُنّ عُـقـوداً عن سواها خلاخـلاً و(حـجـولا)

يهني عـينيك أنْ ترى من (عليّ) (جـعـفـراً) فـاضَ بالمكارم نِيـلا

---

(١) هو السيد مهدي القزويني (تعليقة المؤلف) .

فـاسـتـوى الماءُ طافـحـاً وهو علمٌ رُبَّ علم تخـالُهُ سلسـبـيـلا
طـالَ والحـق أنْ يـطـولَ وأولـى بيـــدً اللّه أن تـكـون الـطُولـى
فَـرَقى منبَـر النُبـوَّةِ يُوحي العِلمَ مِن فكـرهِ إليـــه رســولا
حـسـبُكَ اللّه مِنْ بديع صـفـات لنعـمَّـا بهـرتَ فـيـه العُـقـولا
دُمتَ ما دامت السماواتُ والأرضُ وكلتــاهمـا إذنْ لَـنْ يزولا
عـمـلاً (صـالحـاً) ومـولى (أمـيناً) و(عليـاً) سـامي كليـمـاً نبـيـلا

وشفّعها بثالثة ، هي في عقد السحر نافثة ، يرثيه مع الأشارة إلى السيد الطبطبائي المُتوفى في كربلاء (كما مرّ سابقاً) . وقَدْ بلغ من البلاغة أغلاها ، وحظيَ بأعلاها ، وهي :

طرقـت مـــرزئـةً تـؤجـجُ نـارَهـا وتـكـاد تلحق بالسـمـاء شـرارَهـا
درستْ رسـومُ مـدارسِ العلمِ التي صحف (الخليل) بها قضت أوطارَها
عمدت إلى (موسى) الكليم بزفرةٍ منه اليـدُ البـيـضـاء تُصلي نارَها
وعلى (عليٍّ) وهو في مـحـرابه عطفتْ بحـاسـمـة تُبلُّ غِـرارَها
وبمهـجـة (الحـسن) الزكيِّ تمثّلتْ سُـمَّـاً تُمكِّنُ مِنْ مِـراهُ مـرارَها
وعلى (الأمين) مُحَمَّد بمُصابها عَـمَـدتْ فـأدركت الرزيّةُ ثارَها
وعلى الفتى (المهديّ) جاشتْ فتنةٌ عمـياء قَدْ عصفت تُثيرُ غبارَها
لمعتْ بآفـاق البـلاد فـسـعّـرتْ بالنار مِن إعـصـارها إعـصـارَها
حـتى تبـوَّء غَـيـبـةً بغـيـابه أنـوارُ (يـوسـف) جـلـلـتْ أقـطـارَهـا
وعلى (التـقيْ) ابن الزكيِّ تألَّبتْ نُوبُ الخطوب فـضـاعـفتْ أوزارَها
مـا للشـريعـةِ والحـوادثُ لم تَزَلْ تجـتـاحُ في أرزائهـا أقـمـارَها
جَـذّتْ يمينَ المكرمـات وبعـدها عطفتْ على نَسَقِ اليـمين يسـارَها
نِوَبٌ تشـاكل بدؤها وختـامُـهـا فكـأنّ مـن إيرادها إصـــدارَها
عبرتْ لي الشِعرى العبور فقصَّرتْ من خطوها وغـدا العـويلُ شـعـارَها
حـتى توارتْ بالحـجـاب ولم تمز عينُ الهـداية ليلَهـا ونهـارَها
يا طلعـةَ الشـمسِ المُنيرةِ حجّبتْ بالطفّ أسـرارَ القـضـا أنوارَها

يا غـيـبـة (المهـديِّ) وهي رزيّةٌ ... دهت العُلومَ فـهـتّكتْ أسـرارَها
واستشعرتْ نفسُ الرواجف بعدها ... إذْ كُلَّ نـفـس لا تُـقِـرُّ قـرارَها
قَدْ آنَ نفخُ الصُورِ لولا غيبةُ (الـ ... ـمهـديِّ) كـذّبتِ الورى أخبارَها
هي (رجعةٌ) منه استعارتها العُلى ... لأخِ الفضائلِ (جعفر) فأعارَها
يا قُـرْبَمـا ابتـعـثَ الألهُ لدينه ... ذاتاً تصـفَّح قـدسـهـا فـاختـارَها
قـرَّتْ به عينُ الرسـالة صـادعـاً ... بالأمـر يجلو بالقـضـاء غُبـارَها
وآفى دعـامـة عـزّها فـأقـامـهـا ... ورقى منابر وحـيِّـهـا فـأنارَها
وأعـادَ ذاكَ الغـرسَ غـضّـاً يانعـاً ... في روضـة تجني الأنامُ ثمـارَها
في دارة الشـرفِ الرفـيع ببُـقـعـة ... بَلْ جنّة قَـدْ فـجّـرتْ أنهـارَها
بمهـابط الوحي التي يُوحى بهـاً ... (كشفُ الغطاءُ) لكاشف أسرارَها
بمطاف أملاكِ السـمـاءِ وحسبُهـا ... فخـراً إذا اعـتـبـرتْ هناكً مزارَها
بحظيـرة القُدسِ التي ودَّ السُهـا ... لو طافَ مـعـتـمـراً بهـا أو زارَها

وأحسن مِن جميع هذا قوله أيضاً يرثيهما أعنى (الشيخ)[1] و(السيد)[2] ، وقَدْ جمع فيها بينهما أحسن الجمع فقال :

اللّهُ مـاذا الحـادثُ الجَلَلُ ... قَـدْ دُكَّ منه السـهل والجـبلُ
جـللٌ تـلـهّـب زندُهُ شَـرراً ... قـذفتْ به الأمـلاكُ والرُسلُ
فـالدهرُ لا شـمسٌ ولا قـمـرٌ ... والـناسُ لا عِلـمٌ ولا عَـمـلُ
فكـأنّمـا الأيامُ طالعَـهـا ... زُحلٌ وأسـوء طالع (زُحَلُ)
والـناسُ سَكْرَى حين تـنظرُهـمْ ... فكـأنَّ كُـلاً شـاربٌ ثَمِلُ
وأصمّ أعـجم جـدَّ في عـذلي ... أولى بسـمـعك وَيْحَكَ العَـذلُ
فلقـد جـهلتَ وكُلُّهمْ عَلِمُـوا ... لا بَلْ جُننتَ وكُلُّهم عـقلوا
سَلْ بالسـمـاء فمـالها التهبتْ ... حـتى كـأنَّ نجـومَهـا شُـعلُ
وكـأنّهـا حلبـاتُ عـادية ... فـيـهـا الملائكُ بالسّـمـا قُـتلوا

---

(١) الشيخ مهدي كاشف الغطاء .
(٢) السيد علي تقي الطباطبائي .

تنبيكَ عن سهمين قَدْ فعلا في الدين ما لا تفعلُ الأسلُ

* * *

يا للرجال لحادث جلل يتلوهُ رُزءٌ حادثٌ جللُ
فترى العبادَ وكلُّها نكدٌ وترى البلاد وكلُّها زجلُ
يا ظلّة الأسلام إذْ عميتْ عيناهُ حتى ضلّت السُبلُ
يا روعةَ المعروف إذْ قُطعتْ كلتا يديه فَرَاعَهُ الوَجَلُ
يا مثلة شنعاء قَدْ عَبَثَتْ في الدين فيها يُضربُ المَثَلُ
يا غلّة المعروف فالتهبي اليوم لا عِلٌّ ولا نَهَلُ

* * *

ماتَ الرجاءُ وكُلُّنا أملُ غاضَ العُبابُ وكُلُّنا وَشَلُ
خفي الصوابُ وكُلُّنا خطأٌ أودى الرشاد وكُلُّنا زللُ
فأذا حمت شهبُ السنين فمَنْ فيه يغاثُ الناسُ إنْ سألوا
يا سَيِّديْ قوميهما وكفى شرفٌ بساق العرش متّصلُ
شَرَفٌ أبرُّ على النجوم فذا تعنو له (الجوزا) وذا (الحَمَلُ)
يا غيبةَ (المهديّ) جئتَ بها برحاء لم تَبردْ لها غِللُ
بَكرَ النعيُّ على (التقيّ) بها ولذاك رزءٌ ليس يُحْتَملُ
حتى قضى أسفاً على رجل ما إنْ له مِنْ بعده بدلُ
هذا الوفاءُ وياله شرفاً ثبتتْ عليه السادةُ النُبلُ
وآساهُ في الدُنيا وحيثُ إلى الأخرى ترحّل فهو مُرْتَحِلُ
كَذَبَتْكَ عينُكَ حينَ تنظرُهُ فتقولُ قَدْ أودتْ به العِلَلُ
ومفنّد بالعَتب قلتُ له فنِّدْ لرأيكَ أيُّها الرجلُ
أَجملتَ رُزء (الغاضرية) أمْ سيّانَ منك العِلمُ والخطلُ
إنَّ الأُلى (بالطفّ) قَدْ ضُربتْ لهمُ على هام السُّهى كُلَلُ
كانَ الرجاءُ بأنْ يكونَ لنا بهمُ العزاءُ فخُيِّبَ الأملُ
حتى غدونا أُسوةً لهمُ وكذا لكم أسلافُنا الأولُ

وقال الشيخ مُحَمَّد بن حمزة الحلّي يرثيه ، ويعزّي صهره العلم المهدي القزويني ، وأخاه الشيخ جعفر ، (قُدّس سرّهم جميعاً) ويمدح بنيه ، وهي :

العِلمُ بالدمع من فرطِ البُكا غَرَقا ... والمكرماتُ تلظّى قلبُها حُرَقا
لقد أطلّت على الأسلام داجيةٌ ... طخياء منه أعادتْ صُبحَها غَسَقا
نَعى النعاةُ إلى الدينِ الحنيفِ فتىً ... في علمه منهُ قِدْماً مهّدَ الطُرقا
نعوا عميدَ الهُدى (المهديَّ) للملأ الـ ... أعلى فطارَ عليه قلبُها فَرَقا
كانَ الهُدى فيه يحسو صافياً شَبِماً ... واليومَ أصبحَ يحسو الآجنَ الرَنِقا
وانصاعَ كُلُّ جليدٍ في ملمّته ... يحكي ابنَ عُمران (موسى) مُذْ هوى صَعِقا
وآ حسرة الدين إنَّ الموتَ أغمَدَ في الـ ... ـثرى حساماً على الأيام منذلقا
قَدْ قُرَّ عيناً بجنّات النعيم وقَدْ ... حبا عيونَ المعالي فقدُهُ الأرقا
علمتَ يا بدرُ أفقِ العلم إنَّ دُجى الـ ... ـخطوب مُذْ غبتَ عنها جلّلَ الأُفقا
قَدْ كُنتَ ترتق فَتْقَ الدهر مقتصداً ... وبافتقادك ذاكَ الرتق قَدْ فُتِقا
رمتْكَ كفُّ الردى شُلّتْ بأسهمِها ... والكُلُّ منها لقلبِ الرُّشدِ قد رشَقا
صبراً فمنْ بعده العِلمُ المشرّف في ... سميّه العلم (المهديّ) قَدْ وثقا
مولى يوفّي الهُدى أضعافَ بغيته ... فلا يخاف به بَخْساً ولا رَهَقا
يُولي بأوفر من سُحبِ السما كَرَماً ... جمّاً وأطيب من زهر الرُبى خُلُقا
حكى شمائلَهُ ذو الفضلِ (جعفرُها) ... والعلمُ منه زكيُّ العَرف قَدْ نَشَقا
نَدْبٌ على الجُودِ قَدْ شُدّتْ مآزِرُهُ ... وفوقَهُ عَلَمُ العلياء قَدْ خَفَقا
فكم أُناسٍ إلى العلياء قَدْ درجوا ... بهمَّة ولهم أَلفوه مُستَبِقا
وملّة المصطفى في (صالح) صَلُحتْ ... ووجهُها فيه أضحى مُشْرِقاً طَلِقا
والمكرماتُ لقد أصفتْ مودّتها ... (مُحَمَّد) الندبَ لا كذباً ولا مَلَقا
وإنَّها شكرت فضلَ (الحُسين) كما ... في سيبِ كفّيه منها قَلَّدَ العُنُقا
يا (سادةٌ) لم يَخَفْ دنيا وآخرةً ... مَنْ قَلبُهُ لهمُ في الحُبِّ قَدْ عَلِقا
لا تحفلوا بخُطوبِ الدهر حيثُ لكم ... لنا العزاء إذا ما الخَطبُ قَدْ طَرَقا
وإنَّ مَنْ قَدْ نُكبْتُمْ في مصيبتهِ ... بالسابقين من الأبرار قَدْ لَحَقا

وقـائلٍ سـقت الآمـاقُ حـفـرتَهُ		فـقلتُ أرّخْ (سـقـاهُ جُـودُهُ غـدِقـا)

وقال بعض شعراء الحلة أيضاً يرثيه، ويعزّي به صهره المتقدم، وأخاه، (رحمهما اللّه):

خليليَّ ليسَ اللوم للوجـدِ شـافـيـا		ألا لا تلومـاني كـفى اللومُ مـا بيـا
وناعي الـهُدى قَدْ جاء ينعاهُ بَغْتَـةً		فـأشجى الورى طُرّاً وأبكى المعـاليا
إذا مرَّ في الأرجاء أبكى ذوي الرجا		وإنْ مـرَّ في البـيـداء دكَّ الرواسـيـا
ومِنْ دهشِ الناعي ترى الناس وُلّهـاً		لفـقـدانهِ باك عليـه وناعـيـا
لقـد أوحـشت منه المسـاجـدُ بغـتـةً		وأمستْ محاريبُ الصلاةِ خواليا
فتىً كانَ يُحيي في الصِلاتِ أراملاً		رُفـاةً ويُحـيـي بالـصلاةِ الليـاليـا
تراهُ لدى سُـؤّاله في بشـاشـة		وعند سـؤال الربِّ تلقـاهُ باكـيـا
فـعنك أبا المولى إذا يُقْـبَلُ الفـداً		فـديتُكَ حـوبائي[1] وأهلي ومـاليـا
سـأبكيكَ حـتى تعلمَ الناسُ أنني		لفـقـدِكَ علّمتُ الحَـمـامَ بُكائيـا
وألبسُ أثوابَ العـزاءِ وأنطوي		على حـزن يُنشي عليك المراثيـا
فَجسمَكَ والعلمَ الشريفَ طوى الردى		بقـبـركَ والتـقـوى مـعـاً والمعـاليـا
فـأنْ شَـمَتَ الأعـداءُ فـيكَ فـأنَّمـا		بنوكَ حوت في العلم ما كنتَ حاويا
ألا طأطئـوا أهلَ الشـمـاتةِ أرؤسـاً		فـربعُ العُلى مِنْ بعدهِ ليس عـافـيـا
وإبناهُ تـقـفـوا إثره وفـعـالـه		وإخـوتُهُ أُسـدٌ تهـبُّ الضـواريا
لنا ولهم حُسْنُ العـزاء (بسـيـدٍ)[2]		إمـامٌ بـراهُ اللّهُ لـلناسِ هـاديا
فتىً هو (فُلْكُ للنجاة)[3] ومَنْ سَرى		به كـانَ من سـوء الضـلالةِ ناجـيـا
خِضَمٌّ علومٍ (جـعـفـرٌ)[4] يسـتـمـدُّهُ		من العلم مـا فـاقَ البـحـارَ الجـواريا

---

(١) الحوباء: الروح.

(٢) السيد: هو السيد مهدي القزويني.

(٣) «فُلك النجاة في أحكام الأئمة الهُداة» هي رسالة عملية في الفقه للسيد مهدي القزويني، طُبعتْ في حياته سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م، وأُعيد طبعُها سنة ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م.

(٤) جعفر هو الابن الأكبر للسيد مهدي القزويني، وقد تُوفي في حياة والده عام ١٢٩٨هـ/ ١٨٨١م. وأولادُهُ الآخرون هم السيد صالح، والسيد محمد، والسيد حسين. وقد سبقتْ الأشارة لهم. وقد ذكرهم الشاعر في هذه القصيدة.

إذا مـا جـرى في حلبـة المجـد صـالحٌ ... لـه (صـالحُ) في غـايتيـهـا مُجَـاريا
أبو (حَسنٍ) مَنْ ليس إلاّ (مُحَمَّدٌ) ... وإلا (حُسينٌ) نالَ منه التسـاويا
بني (الوحي) مَنْ يسعى إليكم قَدْ إهتدى ... ومَنْ ضلّ عنكم قَدْ أضلَّ المساعيا

وقال الأديب اللبيب، صاحب المنظومات البديعة، الشيخ صالح الكوّاز يرثيه، ويعزّي السيد مهدي القزويني، وأخاه (ره):

اللّه مـا بعـد هذا اليـوم مُـصْطَبَـرُ ... لـلمـسـلمين ولو رامـوا إذنْ غـدروا
وأصــــدق الـنـاس إيماناً أشـــدهم ... حـزناً ومَـنْ قَـدْ تسلّى كـاذبٌ أشِـرُ
أيملك الصـبـر مَنْ للدين منتـحلٌ ... والدينُ أصبحَ بطنَ الأرضِ يقـتبـرُ
رُزءٌ أقلُّ الـذي قَــدْ جـــاءَ أنَّ به ... تفنى النفوس وتُمحى بعدها الصُوَرُ
ناع أصـابَ فـقـالَ الدهرُ مندهشـاً ... اللّه أكــبــرُ مـــاذا أبدعَ القَـــدَرُ
فقالَ: لا قالَ: بَلْ جُذَّتْ سواعِدُهُ ... وطارَ في مـفـرقـيـه الصـارمُ الذَكـرُ
إنَّ الذي كانَ للعاني سحابَ ندىً ... ولـيسَ فـي نيله رنقٌ ولا كـــدرُ
أضـحتْ تقلّب أيديهـا قـواصـدُهُ ... مُـغْـبَـرَّةَ الجُـودِ لا مـوجٌ ولا مَطَرُ
أبو (الأمين) وليُّ الله قَـدْ نُصبت ... لهُ الأرائكُ حـولَ العـرش والسُّـرُرُ
وأصـبـحتْ بعـدَهُ الدنيـا كـأنَّ بهـا ... قـــامَ الـفـنـاءُ فـــلا عينٌ ولا أثرُ
ونائحـاتٍ دعتْ فـيـه فـحُقّ بأنْ ... تُجـيـبَـهـا غُـررُ الأمـلاكِ لا البَـشَـرُ
إنْ تَبكِـه مقلُ الأفـلاكِ تبكي فـتىً ... بمثله أنبــيـــاءُ اللّه تفــتــخــرُ
أبا (الأمين) لو أنَّ الموتَ أنصَـفَـنا ... أبقـاكَ مـا بقـيـتْ آلاؤكَ الغُـررُ
كي لا يضلّ طريقَ الحَقِّ طالبُـــهُ ... ولم يَخبْ مَنْ إلى جدواكَ مُفْتَقِرُ
فــهُنَّ آلاءُ مــفــقـــود إذا طُويَتْ ... طيَّ السِّجل السمـا للكُتب تَنتشرُ
نَفسي الفـداء لأجفـانٍ مغـمّضـة ... كـانتْ تؤرقُـهـا العليـاءُ لا السـمـرُ
جفّت ومـا جـفـفّـتـهـا قسوةٌ أبداً ... أغضتْ ولم تغضها من حادثٍ فكرُ
أفـدي مُـحـيّـاً أغـرّاً مـا نقـابلُهُ ... إلاّ وأشـرقَ مِنْ بِشـرٍ به القـمـرُ
أمــسى يُعـفّـرُ تُربُ القـبـر غـرّتَهُ ... وفـوقَـهـا من ثرى مـحـرابه عَـفـرُ
من بعده فيه يُستسقى السَحابُ وقَدْ ... كـانتْ تصوبُ به الهطّالةُ الهُـمُـرُ

أبا (مُـحَـمَّـد) إنَّ الدين من دَهَش قَـدْ لاذَ فـيكَ مَـرُوْعَـاً وهو مُنْذَعِـرُ
نشدتُكَ اللّه في البقيا عليه فقَدْ أودى لوجدكَ في أحشائه الضَّررُ
وحـائز قـصب العليـاء أسبق مَنْ جـرى إلى غـاية العليـاء يبـتـدرُ
مُغبَّرٌ في وجوهِ القوم ما رجحتْ مـنه المناكبُ إلاَّ وُلدُهُ الغُـررُ
التـابعين له في كُلِّ منقـبـة بيضاء عنها جميع الخَلقِ قَدْ قَصَرُوا
فـلا يُحطُّ لـه في غـاية أثرٌ إلاَّ وكـانَ لـهم من حـوله أثرُ
جحاجحٌ هُمْ شُبولٌ حول غابته وحـول هالتـه هُمْ أنجمٌ زُهُرُ
الآخـذين بأطراف الفـخـار عُـلاً إنْ عـاقَ غـيرَهم الأعـيـاءُ والخِوَرُ
والمسـتـجـيـر بهم فـاللّهُ جـارُهم ومَنْ عداهم إلى أضدادهم خسروا

وقال يرثيه العالم الفائز من العلم بالقدح المعلّى ، والفاضل الذي هو كعبة فضل لحماها وجه المكارم صلّى ، جناب السيد سيد مُحَمَّد الهندي[1] ، وهو الآن سدده اللّه فيما يعيد ويبدي ، من مشاهير العلماء الأعلام ، وأجلاّء الفقهاء العظام . وكفى في فضله أن صاحب الجواهر (قُدِّسَ سرّه) صرّحَ بفضله لسان قلمه ، فأجازه ، وهي :

أفي كُلِّ يوم للشـريعـة كـوكبُ يغيب ويهوي للحنيفيّ (أخشبُ)[2]
وتظفـر أظفـار المنيّـة بالذي تنشّبُ عنه في الحـوادث مِـخْلَبُ
وقَـدْ زلزلتْ شرقَ المعالي وغربَها فـلا مـشـرقٌ إلاَّ وينعى ومـغـربُ
وغيّبتِ (المهديَّ) عن أعينِ الهُدى فـأمـسى لأثواب الأسى يتـجلبَبُ
فـمـا هو إلاَّ للـهـدايةِ صـارمٌ برغم المعالي منه قَـدْ فُلَّ مضْرَبُ
وناحتْ عليـه المكرمـاتُ بمأتمٍ وحُقَّ لـهـا تبكيـه دهراً وتندبُ
وأظلمَ رَبْعُ الدينِ مُـذْ غـابَ بدرُهُ فلم يدرِ مَنْ رامَ الهُدى أينَ يذهبُ؟!
وما كنتُ أدري قَبلَهُ أنَّ في الثرى نُجـومَ سـمـاوات تغـيبُ وتغـربُ
لقـد كـان درعـاً للورى في مخـافة فمنْ بعدِه فليخشَ مَنْ كـانَ يرهبُ
سرى حزنهم فيه كمسرى فخارهِ فراحتْ به الأمثالُ في الناس تُضْرَبُ

(١) تُوفيَ السيد محمد الهندي سنة ١٣٢٣هـ / ١٩٠٥م . وهو والد السيد باقر الهندي ، والسيد رضا الهندي .
(٢) الأخشب : الرجل الصلب القوي . وفي الأصل تُستخدم للحبل الخشن المتين .

فمَنْ بعدَهُ يحمى الحِمى غيرُ (جعفر) ... أخيه الذي مِنْ كأسهِ كانَ يشربُ
بعيد المدى عن أنْ يدانيه أروعٌ ... ولكنْ لراجيهِ من السمع أقربُ
وإخوتُهُ الغُرُّ الكرام (حبيبُهم) ... صباح التُقى مصباحُهُ المُتلهّبُ
و(عبّاسُ) ذو النُبلِ النبيل وخلقُهُ ... الجميلُ لعمري مِنْ جَنَى النَحلِ أطيبُ
ولولا بنوهُ ، العلمُ أصبحَ مُقْفِراً ... وأصبحَ وجهُ الفضلِ وهو مُقطِّبُ
(كصالح) الليثُ الهِزَبرُ الذي له ... على أُمِّ رأسِ الفضلِ مسرى ومذهبُ
ومولى (أمّينٍ) و(الأمينُ) كلاهُما ... أمينٌ ومولى منهما الأمنُ يُطلبُ
وبابنِ أخيه (مُحسنٍ) أيُّ سلوة ... به تكشف اللأواءُ والضيقُ يرحبُ
مكارمُهم كالنيّرات زواهرٌ ... متى غابَ منهم كوكبٌ لاحَ كوكبُ
(أحبّاي لو غَيرُ الحِمام أصابكمْ ... عَتَبتُ ولكنْ ما على الموت مَعْتَبُ)
و(خمس حواسي) قَدْ أُبينتْ مؤرخاً ... (لمهديّهم جناتُ عَدْنٍ تُرَحِّبُ)[1]

وقال الشاعر المفلق ، والصّقر الذي هو في سماء الكمال محلّق ، الشيخ الأمجد ، الشيخ أحمد ابن الشيخ إبراهيم ، الملقّب بقفطان يرثيه ، ويعزي أخاه وبنيه :

سهمٌ رمى كَبِدَ الهُدى فأصابا ... مُذْ قيلَ (مهديٌّ) الخليقة غابا
نبأٌ به صكَّ النعُّ مسامعي ... فأصمَّها حيثُ النعيُّ أهابا
فسألتُ منه راجياً بتوهمي ... ذاكَ النعيَّ ممارياً كذّابا
حتى سمعتُ من المعالي نوحَها ... لَبِستْ عليه للحِداد ثيابا
أَخنا على أمجادها بعميدها ... وسقى بلوعته القلوبَ رضابا
أَودى (بمهديٍّ) الخليقة صرفُهُ ... ورَمَى به قلبَ الهُدى فأصابا
غيثٌ أطلَّ على العباد برحمةٍ ... لوليه وعلى العداة عذابا
كالعارض المدرار خفَّ بودْقه ... فسرتْ بهِ ريحُ الصَّبا فانجابا
ورواق عزٍّ فوقَ دين (مُحَمَّد) ... وعلى رؤوس المارقين شهابا
أمسى وقَدْ حُلَّتْ عُراهُ وقوَّضتْ ... أيدي الورى عن ربعه الأطنابا

---

(١) حساب الجمل في هذا التأريخ غير دقيق .

يا راحـــلاً عنّا وخلّف جَــذْوةً تُورى الجــوانحَ بعـــدَهُ إلهـــابا
يا بحـرُ علم مـا ولجتَ علومَـهُ إلاّ ولجتَ مـدى الزمـان عُبـابا
وصـدعتَ عَن وحيٍ عليكَ نزولُهُ لا عن هوى فيـمـا نطقتَ صوابا
وكشفتَ عن دينِ النبيِّ (مُحَمَّد) ظُلَمــاً ولم تُبقِ بهــا مُـرْتابا
يا نورَ مـــشكاةِ العلوم وبعــدها يا مَنْ كـشفتَ من الرُموز صعـابا
فلقـد أراني الدهر فـيك عـجـائبـاً والدهر يقـذف ـ لم يزلْ ـ أعـجـابا
مـا كنتُ أعـرفُ قـبلَ ذاتكَ جـوهراً بهـرَ العــقـولَ وحـيَّـرَ الألبـابا
مـا كنتُ أعرفُ قبلَ نعتكَ جُمْلةً أرختْ على وجـه البـيـان نقـابا
مـا كنتُ أعـرفُ قـبل رُزئكَ هادئاً أولى البـرية وقـعُـهُ اسـتـغـرابا
ما كنت أحسب قبل نعشكَ أنْ أرى الـ أيدي تُقلُّ على الرؤوس هضـابا
مـا كنتُ أحسبُ قبلَ قبركَ مرقداً أمـسى لمصـقـولِ الغـرارِ قـرابا
جَـدَثاً تضـمَّنَ بحـرَ علم زاخـر أنّى أحـيطُ بسـاحليـه عُـبـابا
أم كـيفَ ضَمَّ مكارمـاً ومـعـالماً أربَتْ على عـددِ الرمـال حـسـابا
سطعتْ كأمثـالِ النُجوم فكيفَ قَدْ أرخى علـى أنوارهُنَّ حـجـابا
يومٌ به (المهــديُّ) قُـوِّضَ ظاعناً فـتـحتْ يداهُ إلى الحـوادث بابا
قَـدْ كـانَ عِـزّاً (للغَـريّ) وأهله يُولـي ويلـوي نـائـلاً ورقــابا
ذا عـزمـة لو كَـانَ مـارسَ بعـضَـهـا الحـجُـر الأصمّ أو الحـديدُ لَذابا
وخطابة تُرضي الحـضـور خطابةً ومـخـاطبـات تؤنسُ المحـرابا
قَـدْ كـان في حـالين طوراً باكـيـاً متـضـرّعـاً أو باسـمـاً وهّابا
حـتى ثوى عـزمـاً وراح مـعـانقـاً حـوراً سُـررنَ بوصلهِ أترابا
وأقـامَ (جـعـفـرَ) مـفـخـر لرئاسـة قَـدْ ردَّها بعـد المشـيب شـبـابا
كـالغـيث يخلفُـهُ الربيعُ وغـيـرُهُ كـالنار تعـقـب إذْ تَشبُّ ترابا
خَطَبَتْـهُ عاليـةُ العُلى وكم اغتـدى أهلُ النُهى لجـمـالهـا خُطّابا
حَـبْـرٌ كـأنَّ العلمَ يطلب صـاحـبـاً فـاخـتـاره وإلى عُـلاهُ آبا
قَـرْمٌ أتاهُ فـضلُهُ مـتنقّـلاً عن نور أصـلاب زكتْ أصـلابا

فله العزا عمَّنْ مضى لسبيله | في فتية منهُ زكوا أحسابا
وكذا (الأمينُ) أخوه والمولى الذي | هدأَ الضميرُ به وَنَفْسَاً طابا
وبأُسرةٍ من آلِ (جعفر) كُلِّهم | أمسوا لمعروف الندى أربابا
يا آلَ (جعفرَ) أنتمُ القومُ الأُلى | ملكوا من الفضل المُبين نصابا
وَلاَكُمُ أمرَ الأنام إلهُكمْ | وبنى لكم فوقَ السماءِ قِبابا
لم أُحْصِكُمْ ذِكْراً ولم أُحْصِ لكم | مِدَحاً ولو أوسعتُها إسهابا
قصر الثنا عنكم ولم أبلغْ وما | قصَّرتُ لَمَّا أنْ قصرتُ خطابا
حيَّا الحَيا بالعفوِ روضةَ جدّكم | إذْ قَدْ حوتْ مِنْ ولدِه نُوّابا
وضرائحاً فيها ثوتْ مِنْ آلِه | أُسْدٌ قَدْ اتخذوا الصّفائحَ غابا
صلَّى الألهُ عليهمُ ما أشرقتْ | شمسٌ وما بدرٌ بدا أو غابا
والى ضريح حلَّهُ (المهديُّ) مِنْ | صوبِ الرضا ساقَ الألهُ سحابا
مُذْ غيّبوهُ بهِ عياناً قلتُ في | تأريخهِ (المهديُّ صِدْقاً غابا)

١٢٨٩هـ

ترجمة الشيخ جعفر بن الشيخ علي

ثم جلس بعده بمسند آبائه وأجداده ، جامعاً بين طرفي المجد تلاده ، ناشراً ما همّ أن يطويه الدهر من علومهم ، مجدداً ما كاد أن يندرس لولاه من رسومهم ، بحر العلم الدفّاع ، وجذوة الفهم المتوقّدة الشعّاع ، طود الحجى ، وبدر الدجى ، نور اللّه الأنور ، وسراجه الأزهر ، صاحب الشرف الأكبر ، مولانا أبو مُحَمَّد الشيخ جعفر الأصغر . كان أعجوبة دهره ، ونادرة عصره ، في اتّساع فهمه ، وغزارة علمه ، وحسن أخلاقه ، وطيب أعراقه ، وظرافة لطائفه ، ولطف ظرائفه .

حضر برهة من الزمن على أخويه ، مُحَمَّد ، والمهديّ ، ثم على ذي الفضل الجليّ ، شيخنا الأنصاري ، حتى برع في المعقول والمنقول ، فقهاً وأصول . وكان في زمان أخويه يباحث (القوانين)[1] لجماعة من الفضلاء ، وكان تدريس القوانين يومئذ من أصعب

(١) كتاب «القوانين» في علم أصول الفقه للمُحقّق القُمي . وقد أصبح من الكتب التراثية بعدما إسْتُعيضَ عنه بمؤلفات أصوليّة حديثة .

الأشياء ، فممن حضر عليه ذلك من العلماء في هذه الأيام ، رئيس الأنام ، وعيلم الأعلام ، سيدنا السيد مُحَمَّد الطبطبائي[1] (دام عزّه) ، وجماعة غيره من الفضلاء الفحول ، وكان (رحمه اللّه) مع ذلك ذا همّة :

قَدْ ناطحتْ هامَ السِّماك فما ارتضتْ   إلاّ النجومَ السّامكات نَعالا
واعتاقها عن ذُلّ وِرْدٍ لم يَسغْ   رَنَقاً إلى أنْ أُعطيَ السلسالا
ورضا بها إمّا عُلاً ومكارماً   تسعُ البريّة أو حصىً ورمالا

وكان مع ما فيه من فضيلة العلم التي تقدّم بها وسبق ، حتى صار عمود أخبية آبائه فكان له السبْقُ بها والسَبق ، ذا حظ من البلاغة والفصاحة وافر ، وقدرة على النظم والقوافي يعجز عن تبيانها قلم البليغ الناثر ، فهو الذي :

إن سلَّ أقلامه يوماً ليُعملَها   أنساكَ كُلَّ كميٍّ هزَّ عاملَهُ
وإنْ أقرَّ على رِقّ أناملَهُ   أقرَّ بالرق كُتّابُ الأنامِ لَهُ

فكم له من مقاطيع وقصائد ، وأبيات هي لجباه البُلغاء مساجد ، من كُلّ سائرة تسحر الألباب وتسترقّ الطبائع ، وكل نيّرة لها في أعلى فلك الحسن مجاري ومطالع ، وفي جميع الآفاق والأمصار ، أشعة وأنوار :

كالشمس تطلعُ في السماء ونورُها   قَدْ عمَّ كُلَّ الأرضِ في إشراقهِ

وكان في حسن السبك والمتانة وطول الباع وحيد ، فهو على أنّهُ مُكثِر مجيد ، وقلّما اجتمعت هاتان لأنسان ، من أهل هذا الميدان . وكان يأنف أن يمدح أحد ، ولو كان أباً وجدّ ، إلاّ حماسة أو ما هو من قبيل الهزل لا الجدّ ، ولم يُتْعِبْ فكرَه في بيت من شعره مدى عمره ، بَلْ كانت القوافي تتدافع عن لسانه على البديهة ، غير متكلّف بها ولا كريهة ، وتتناثر الألفاظ من عذب فمه وهي لآلئ منظومة ، أو أقداح بالرحيق مختومة . وكان يأبى أن يحفظ له شعر ، أو ينتشر له في هذا الأمر ذكر ، ويجهد في إتلاف ما يقول ، ولو كان كالأقاح المطلول . حتى حدّثني بعض الفضلاء ممن يوثق به ، عن بعض العلماء من تلاميذه وصحبه ، أنّهُ قال : كنتُ عند الشيخ جعفر (ره) قبل وفاته بيومين فبينا أنا هناك إذ قال لبعض غلمانه : أخرج لي (الزنبيل) الذي في (الحجرة) الفلانية . فمضى وأخرج له (زنبيلاً) كبيراً مملوءً من الأوراق والقراطيس فقال له مولاه : خذه وتوسّط به بحر

(١) تُوفي السيد محمد الطباطبائي سنة ١٣٢٦هـ / ١٩٠٩م .

النجف ، وكان يومئذ بحراً عظيماً ، وارمه في الماء ولا تخبر في طريقك أحداً . فأنعم الغلام ومضى بما أمره مولاه .

يقول الراوي : وبقيت أتأمّل فيما كان في (الزنبيل) فما وسعني إلاّ أن سألته عمّا فيه . فقال : هذه منظوماتي وقصائدي لي مدة (حَوْلٍ) أجمعها لأتلفها حتى لا تبقى بعدي .

فصعقتُ من مكاني وجعلت أوبّخه وألومه في ذلك وأسأله الرجوع عمّا هنالك ، فأبى وامتنع . فلما آيست منه خرجت أعدو خلف الغلام فوجدته راجعاً من قضاء أمر مولاه . وانكففت وأنا أدمي بالندم الأظفار ، وأتأسّف ولا تأسّف (الفرزدق) على (نوار) .

أقول : هذه الواقعة معلومة عند أهله وذويه وهي السبب لقلّة شعره في أيدي الناس ، بَلْ رجوعه إلى الأضمحلال والأندراس ، وذلك لأنّهُ لم يَروِ شعره أحد . ولكن ربّما كان بعض ملازميه من ذوي الأدب إذا قرأ شعره المرة الأولى حفظوه وتداولوه . فمما عثرنا عليه من ذلك جملة مقاطيع في الغزل ، والحماسة ، و(بويتات) في المدح .

فمن الأول قوله :

إنَّ قلباً جفا الغرامَ زمانا ... عادَ فيه الهوى كما قَدْ كانا
حرَّكتْ ساكنَ إلتياعي بدورٌ ... ركَّبَ اللّهُ تحتها أغصانا
بي شموساً بدتْ (بنعمانَ) ليلاً ... فكستْ حُلَّةَ الضُحى (نعمانا)
شمتُ من بينهم ظبيةَ خِدْرٍ ... سحبتْ للردى بنا أردانا
كنتُ من قبلها عزيزاً ولكنْ ... ذقتُ ذُلاً من حبِّها وهوانا

وله (رحمه اللّه) :

لي (بالثوية) لو تواصلُ ظبيةٌ ... بَخلتْ عليّ بطيفِها المُعتادِ
غنّاء لو أسَرَتْ فؤادَ متيّم ... فيها فما لأسيرها من فادِ
ودَّعتُها والقلبُ من دَهَشِ النوى ... في طاعة الأتهام والأنجادِ
لعبتْ بها الأيامُ بعد تمنّعٍ ... وَعَدَتْ عليها للزمانِ عوادِ

ومنه :

أشكو إليكَ عسى ترقُّ لُمهجةٍ ... دبّتْ بها الأشواقُ أيَّ دبيبِ
أوهتْ قواها يومَ مُنعرج اللوى ... لفتاتُ ميّاسِ القوام رطيبِ

رشأٌ أقامَ قيامتي فنصيبُهُ ... منّى الوداد وقلَّ منه نصيبي
رشأٌ (ليوسفَ) في ملاحة وجهِهِ ... يُنْمى وينمى نسبةً (الشبيبِ)
أصفيتُهُ محض الوداد وسَامني ... فيه هواناً عاذلي ورقيبي

ومنه :

رامَ العذولُ بأنْ أُخفي الهوى سَفَهاً ... ودونَ ما رامَهُ حُجْبٌ وأستارُ
أُخفي هواهُ ويُبديهِ ومِنْ عجبٍ ... يُذيعُهُ يا لَقَومي وهو (ستَّارُ)

ومن الثاني قوله : يتحمّس بقومه وأهليه ، وأمه (فاطمة)[1] و(عليّ) أبيه ، وهي قصيدة طويلة يعارض بها عبد الباقي في قصيدته المعروفة (ولم يحصل لنا منها إلاّ القليل) ، وهو :

صبراً جميلاً فلعلَّ وعسى ... يُورقُ عودُ الدهر بعدما عسا
والدهرُ قاسٍ قلبه وربّما ... يلينُ قلبُ الدهرِ بعدما قسا
يا دهرُ كم مارستني في موطن ... شاهدتَ منّي فيه قرماً أشوسا
لا ينثني عن غاية يطلبُها ... أو يبلغ الغايةَ صعباً أشرسا
أبوه قَدْ أسس بيتاً للهُدى ... وهو بنى فَشَادَ ما قَدْ أسّسا
من فتية أبوهُمُ (عليُّها) ... وأُمُّهم (فاطمةٌ) خيرُ النّسا
ما أصبحَ الصُبحُ على أمثالهم ... أطواد أحلام ولا أمسى المسا
من كُلّ وضّاح الجبين نوره اسـ ... ـتعارَ نورَ الشمس منه قَبَسا
ما عسعسَ الليلُ على آمالهم ... إلاّ وصبحُ جُودِهم تنفَّسا
وعيلم إنْ عَضُلَتْ معضلةٌ ... كانَ لبُرءِ دائها نِعْمَ الأسا
يا دهرُ جُدْ بالقُربِ منهم نَفَساً ... وعِدَّ كُلَّ العمرِ ذاكَ النَفسا
أسلمتني إلى الأسى من بعدهم ... من بعدهم أسلمتني إلى الأسى

وله أيضاً يتحمّس :

وإنّيَ من قومٍ يبينُ بطفلهم ... من الحَدْسِ عنوانُ الرئاسةِ في المهدِ

---
(١) هو اسمُها (تعليقة المؤلف) .

إذا لم يكن لي ناصرٌ من بني (أبي) فعزمي وحزمي يغنيان عن الحشدِ
إذا أدركَ العليـا هُمـامٌ بقـومـهِ فنفسي تناجيني بأدراكها وحدي

وقال أيضاً (يفتخر بنفسه وقومه) :

لـيَ مـجـدٌ دون الأنام عليٌّ ومـحلٌّ سـام وفـخـرٌ جَليٌّ
أنا مَنْ سـارت الركـائبُ فـيـهِ وتمنَّتْ عُـلاهُ قـبـلُ (لويٌّ)
لو رآني (عَديٌّ) مـا اختـارَ غيري والداً ينتـمي إليـه (عَـديٌّ)
مـا نشـرنا مـفـاخـرَ المجـدِ إلاّ وطوت فـخـرها بذلك (طيٌّ)
أتغـابى عن معشري وسيبدو لهمُ في الغَـداةِ منَّا الغَـبيُّ
كـيفَ أرضى عن الزمـان وفـيـه النقصُ بادٍ والفضلُ فـيـه خـفيٌّ
مـعنويُّ الفـخـار فـيـه مُـهـانٌ وعـزيزٌ فـيـه العُلى اللفظيُّ

وقال يخاطب المرحوم الشيخ مُحَمَّد عنوز[1] وقَدْ جعل يلومه على توانيه عن القيام بحقّ العُلى مع ما فيه من الفضل ، وقَدْ هدلت فروعها على من ليس له بها أصل . فأجابه على البديهة وأجاد بقوله :

أبا (جـعـفـر) لو أنَّ حظِّي أمـدَّني لألفـيـتَني والدهرُ منّيَ ضـارعُ
وكنتُ الذي إنْ مرَّ يومـاً بمحـفـل (أشـارتْ إليـه بالأكفّ الأصـابعُ)
ولكنَّهُ بي قَـدْ كَـبـا فـتـقـدّمتْ رجـالٌ لهم (حَظٌّ) تسامى (وطالعُ)
رواحلُهم لا يلحق الريحُ شـأوَهَا وراحلـتي دون الرواحل ضَـالـعُ

وقال أيضاً :

لا كفٌّ واكفِ غيث فيك قَدْ وَكَفا أ كنافَ كوفان أنتِ منيتي ، وكَفى
لم أنسَ ناعمَ عيشٍ قَدْ نَعمتُ به وموردًا قَدْ صفا لي منْ أُهيلِ صَفا
إذ فيكِ صرفُ زماني غافلٌ سِنةً عنّي وعن مجلسي طرفُ الرقيب غفا
في فتيـة كبـدور التَمِّ أوجهُـهم ما مثلُهم في الورى من مُشرق شرفا
من كُلِّ أبيض وضّـاح أخي كَـرَمٍ غيـر السماحة والمعروف ما عَرَفا

---

(١) الشيخ محمد عَنُوز تُوفي سنة ١٢٨٨هـ / ١٨٧١م .

وكُلُّ ثاقبِ فكرٍ عيلم علم ... رأى طريقَ أبيهِ في العُلى فَقَفا
قُلْ للذي رامَ يقفو إثرَ مجدهُمُ ... أقْصِرْ فكمْ ماجد من دونه وقَفَا
ما أنتَ ممَّنْ تُدانيه بمكرمة ... وإنْ سَموتَ على هام السُّهى كَنَفا
هَلْ شَبَّهَ السيفَ يوماً بالعصى أحدٌ ... أو قاسَ يوماً بصافي اللؤلؤ الصَدَفا
لا يبلغنَّ مديحي بعضَ وصفهمُ ... وإنْ ملأتُ بمدحي فيهمُ الصُحفا

وقال في (الحماسة) أيضاً:

أحببتُ أنْ أهزلَ جذلانا ... وأنْ أهزَّ الطرفَ نشوانا
وأنْ أميطَ الذُلَّ عن عاتقي ... وأمتطي في العزِّ كيوانا
وأنْ أسومَ الذُلَّ مَنْ سامني ... من الورى ذُلاً وخذلانا
أو لا فما لي في العُلى مطلبٌ ... ولم أَشدْ للمجدِ بُنيانا
ولم تكن لي سابقاتُ الندى ... على الورى سرّاً وإعلانا
ولا روى الراوي حديثَ النُهى ... عنّيَ عنواناً فعنوانا
ولم يكنْ ما كانَ مِنْ (والدي) ... منّي أمثال الذي كانا
ولم أُطِلْ بُرديَ في غارةٍ ... أجلبُها خيلاً وركبانا
مستبقات كنسور الفلا ... يطوينها سهلاً وأحزانا
يحسبُها الراؤونَ مهما جَرَتْ ... لغاية في الجوّ عُقبانا
ما سابقتْهَا الريحُ إلاّ انثنتْ ... تلوي عِنانَ الريح خسرانا
ولا جرتْ والبَرقُ في حَلْبةٍ ... إلاّ وأوهتْ منه أركانا
وما جرى الفكرُ بآثارها ... إلاّ وقَدْ أعيتْهُ ميدانا
يحملنَ للحرب أُسوداً وإنْ ... كانوا لدى المحرابِ رهبانا
كأنّها قَدْ خُلقتْ تحتَهُمْ ... أو خُلقوا للحرب فرسانا
بيضٌ إذا نارُ الوغى أُضرمتْ ... واشتبكتْ بيضاً وخُرصانا
رأيتُهمْ والنقعُ من فوقهم ... كالشُّهب أفعالاً وألوانا
رأوا حقوقَ المجدِ قَدْ عُطّلتْ ... وانتُهبتْ ظُلماً وعدوانا
فعندها هبّوا خفافاً لها ... وابتدروا شيباً وشبّانا

وأقسموا لا أَلِفوا مضجعاً أو يرجع الأمر كما كانا

وقال:

أهمُّ بأمر الحزم في كُلِّ موطنٍ أهمُّ بأمر الحزم في كُلِّ موطنٍ
ومازلتُ أسعى للمعالي وأنثني ومازلتُ أسعى للمعالي وأنثني

وقال:

وهبني جلستُ على مُسْنَد وترمقني عَينُ مَنْ يحسدُ
حقيق به دون كُلِّ الأنامِ أنا، وحقيقٌ بيَ المُسنَدُ

ومن الثالث، قال: يمدحُ الأمير عليه السلام:

إذا كُنتَ تخشى منكراً وحسابَهُ وتفزعُ مِنْ لُقيا نكيرٍ وتَرهبُ
فَلُذْ بالذي لو أذنبَ الناسُ كلُّهمْ ولاذوا به لم يبقَ في الناس مُذْنِبُ!

وقال في شيخ إبراهيم بن شيخ يحيى العاملي (ره):

إنَّ ابنَ (يحيى) وإنْ فاقَ الورى كَرَماً وحازَ ما حازَ من علم ومن أدبِ
لكنْ إذا قِيسَ بي يوماً تلوتُ له (وفي الحُميّةِ معنىً ليسَ في العنبِ)

وقال في بيت (كبّة)، وكانت له معهم مودّة أكيدة:

بني (كُبّةٍ) قَدْ أصلحَ اللّهُ فيكمُ مفاسدَ أقوام تعمُّ شرورُها
حللتم (ببغدادٍ) فأورقَ عودُها وطابتْ بكم أعوامُها وشهورُها
حميتُمْ أهاليها وصنتُمْ ديارَها فديّارُها يُثني عليكمْ ودورُها
أكفُّكمُ أندى من الغيثِ راحةً تَصوبُ فتستجدي نداها بحورُها
ديارُكمُ الدنيا وأنتُمْ بها الورى وأخلاقُكم في جبهةِ الدهرِ نورُها
أأعدمُ رشدي في طِلابيَ للعُلى وأنتم بأبراجِ المعالي بدورُها

وقال في عبد الغني أفندي جميل[1] زاده وهو من أشراف بغداد :

(غنيٌّ) كاسمه عن كُلِّ نعتٍ وأَكْرِمْ (بالغنيِّ) عن النُعوتِ
جمالُ العالمين أبو (جميلٍ) قريبُ رجا النوالُ بَعيدُ صيتِ

وقال :

قَدْ كان دون البرايا لي أخو ثقة أحلّه مِنْ فؤادي بين أفلادي
وكنتُ أيقنتُ لا خُلفٌ بموعده وإن همّتهُ إنجازُ ميعادي
أقمتُ حَوْلاً على الميعاد أرقبُهُ كما يؤمِّلُ بَرْقاً خُلَّباً صادِ
وحينَ حقّقتُ منه خُلفَ موعدِهِ فلم تثق بعدَهُ نفسي بميعادِ

وقال يرثي ابناً صغيراً مات له فأنشأ على البديهة :

ما أصابتْكَ بَلْ أصابتْ فُؤادي يا مُنى النفسِ أعينُ الحُسّادِ
أتراها رأتْ عديدي كثيراً فقضتْ لي بكثرةِ التعدادِ

وكتب إلى طه أفندي السنبلي (نائب كربلاء) وقاضيها :

إن (طاها) شَرعَ الدين وفي مدحهِ قَدْ أنزلَ الرحمانُ (طه)
وطأَ الأرضَ على تقوى بها قَدْ رقى فوق السما حتى وطاها

فأجابه القاضي المزبور بقوله :

قَدْ تَناهى فيكمُ الفضلُ وما قَدْ تَناهى فيكمُ لا يُتناها
سَتَروا نقصي بفضلٍ ولَكَمْ معضلات (كشفوا) عنها (غطاها)

وقال الشيخ محسن آل الشيخ خضر يهنّي الشيخ جعفر وأخيه الشيخ مهدي بزواج أخيهما الشيخ عباس (سلّمه اللّه) بقوله موشّحاً :

أيُّها الساقي أدرها كُلّما لمعتْ في الأفق نارُ (الفُرُسِ)

---

(١) عبد الغني جميل (هو جدّ أسرة آل الجميل البغدادية) تولّى منصب الأفتاء . ولد سنة ١١٩٤هـ/ ١٧٨٠م ، وتُوفيَ سنة ١٢٧٩هـ/ ١٨٦٣م .

(قهوةً) أعذبَ مِنْ ماءِ السما لاطفتْها نسماتُ القُدُسِ

* * *

بنتُ كَرْم زوّجتْ بابنِ سَحابْ
فانثنتْ تُرقِص أطفالَ الحبابْ
تجتليها من بني الفُرسِ كِعابْ

برزتْ كالشمسِ تجلو أنجما من كؤوس نُثِرَتْ في المجلسِ
تارةً فرداً وأخرى توأما شِيمة القيّنات في الأندلسِ

* * *

لكَ نَفْسي أيُّها الساقي فدى
هاتِها أعذبَ مِنْ قَطْرِ النَدى
لم يَطِبْ للصَبِّ كأسٌ أبدا

دون أن ينتاشَ كأساً مُفْعَما راقَ في أيدي الجواري الكُنَّسِ
ورحيقاً عاد ممزوجاً بما ظمئتْ ريقتها من لَعَسِ

* * *

لا شكتْ عينُكَ يا ظبي الصّريمْ
هاتِها مشفوعةً في ظَلْم رِيمْ
فلقد هاجَ بي الشوقُ القديمْ

لعهود سلفتْ حيثُ الحِمى نجمُهُ يُمنى بلحظ أشْوَسِ
فرصةٍ فاتخذنْها مغنما قبل أنْ ينسفَ ذيلُ الغَلَسِ

* * *

حبذا الحسناءُ زارتْ في الدُّجى فوهبناها الحجى والمُهَجا
فاز (عباسٌ) بها وابتهجا عندما ألقتْ إليه معصما

وهي ترنو في عيون النرجسِ
وانزوى عن حُسْنها بدرُ السَما
إذ بدتْ في حُلّةٍ مِنْ سُنْدُسِ

* * *

قم نهنّي شيخها الفردَ العَلمْ قُطْبَها (المهديَّ) والطودَ الأشمْ
ذاكَ شمسُ الدين ما بين الأُممْ نورُهُ يجلو عن العين العَمى
إذْ بدا في ثوبِ نُسْك أطلسِ
من (عليٍّ) وهو نعمَ المُنْتَمى
أو (بتولٍ) طُهِّرتْ من دَنسِ

* * *

وبذاكَ البِشر هنّي (ابنَ جَلا) (جعفرَ) الفضلِ، وبحرَ الفُضلا
رُبَّ سرٍّ غامضٍ فيه انجلا بعدما قَدْ كانَ صعباً مُبْهَما
عادَ طَوْعاً ذا قيادٍ سَلِسِ
لابساً ثوبَ جلاءٍ معلَما
وهو للأنباء أسنى ملبسِ

* * *

(جعفريٌّ) من بني (كشف الغطا) لم يَزلْ أزهارُها ملتقطا
يا لَدُرٍّ منهُ سمعي قُرِّطَا وبه رويّ نفوساً هيَّما
سُكْراً ما إنْ سَقاها نحتسي
بأصول تَخذَتها سُلَّما
لمدى قَصَّر أيدي الفرسِ

* * *

هاكَها مِنْ دونِ منٍّ وأذى كاعباً تجلو عن العينِ القَذى
(مَهْرُهَا) الأقصى قبولٌ وإذا شئتَ طوْقْهَا جميلاً مثلما
طوّقتها فكرتي في بُرنسِ
برنسٌ فكري له قَدْ نمنما
وكفاه منه تاجاً نكتسي

* * *

نادرةٌ غريبة

ومن نوادر الشيخ جعفر (ره) الغريبة ، الدالة على فهمه المتوقّد وفطنته العجيبة ، ما سمعته من جماعة من الثقات منهم عمّي العلم العباس نجل الحسن (ره) ، قال : جاء السيد مُحَمَّد القطيفي[1] (صاحب المراثي المشهورة) زائراً إلى النجف في زمان العَلَمين المُبرِّزين مُحَمَّد ، والمهدي - نجلي العلامة عليّ بن جعفر - (رحمهم اللّه أجمعين) . وكان السيد من الطاعنين في السنّ المعروفين بالفضل وهو من تلامذة الشيخ موسى (ره) وله فيه قصيدة كبيرة يرثيه بها مع السيد مُحَمَّد المجاهد ، والميرزا القمّي (ره) ، وكانت وفاة الجميع في عام واحد ، ويسمى ذلك العام (عام العلماء) لكثرة مَن تُوفيَ منهم فيه . ولم أعثر على القصيدة حين التأليف .

ثم إن السيد (ره) دخل في جملة الزائرين عصراً إلى دار الشيخ الكبيرة وكانت غاصّة بالعلماء والأدباء ، فجرى ذكر المراثي بينهم وجيّدها ورديّها . فقال السيد : قَدْ أتيت لسيّد الشهداء (ع) بهديّة معي لم يُهدَ له مثلها .

فقيل : وما تلك الهدية؟

فقال : قصيدة ولكن لا كما سمعتم وتلوتم من (فلان) و(فلان) ، يعرّض بالكعبي ، والخطّي ، والأزري وأمثالهم من المبرّزين في هذا الباب . فأخذوا يلتمسون منه أن يتلوها عليهم إلى أن أجابهم لذلك . فأخذ يتلو قصيدته التي يقول فيها :

بكتكَ الصّفوفُ وبيضُ السّيوفِ ... وسودُ الحُتوفِ أسىً والقطارُ

إلى أنْ وصلَ إلى قوله :

وخابَ المُلِمُّونَ والوافدونَ ... وضاعَ المشيرونَ والمُسْتَشارُ

وكان الشيخ جعفر (ره) يومئذ حدث السنّ وهو جالس في طرف المجلس . فأقبل على السيد من مكانه وقال له : يا سيدي إنَّ (المشير) و(المستشار) واحد فما الثمرة بهذا التكرار؟

فتأمّل السيد قليلاً ثم ذهب يتلو على رسله ولم يَعْتَنِ به .

فسكت الشيخ جعفر إلى أن وصل إلى بعض الأبيات ، فقال له : وإنَّ في هذا البيت (زُحافاً) غير مغتفر عند العروضيّين .

---

(١) السيد محمد القطيفي آل معصوم ، تُوفي سنة ١٢٧١هـ/ ١٨٥٥م .

فأقبل عليه (السيدُ) وقال له : يا ولدي كأنّ لك يداً في العروض ، فكيف تُقطِّعُ قول الشاعر :

جنّبـوا عنّـا كنيسـتكـم يا بني حـمّـالة الحطبِ؟[1]

فالتفتَ الشيخ جعفر إلى نكتة البيت قبل أن يُقطّعَهُ . فقال للسيد : إن تقطيع هذا البيت لواضح ، ولكن في هذه القصيدة بيتٌ هو أشكل من هذا ، إن قطّعته لي قطّعت لك هذا البيت .

فقال : وما هو؟

فارتجل الشيخ جعفر في ذلك الحين بيتاً على الوزن والقافية ، وهو مشتمل على مثل تلك النُكتة وهو :

إنَّ مَـنْ تُـجـلى طبيـعـتُـهُ ذاكَ مَـرْءٌ من ذوي الحَـسبِ

فأخذ السيد يقطّعه إلى أن قال «لاط بي» ، فقال له الشيخ جعفر ، وهو مبتسم : العياذ باللّه يا سيدي ، من يلوط بك وأنت بهذا السنّ؟!

فالتفت السيد إلى النكتة فخجل ، وتعجّب الحاضرون وعرفوا أنَّهُ إرتجال .

وسأل السيد عن الشاب ممن؟ فقيل له : هو ابن الشيخ عليّ آل الشيخ الكبير (ره) . فقام وقبّل ما بين عينيه وقال : أشهد أنكم بيت علم وفهم ما حُوججتم إلاّ حَجَجْتم ولا خُوصِمتم إلاّ خصمتم ، وأخذ يدعو له بالتوفيق والهداية .

وهذا من أعجب ما يبلغ السامعين في هذا الباب ، فيا قدّس اللّه سرّ أولئك البررة الأطياب .

ولما تُوفيَ أخوه العلم المهديُّ عكفت همم العرب عليه ، وعاجت آمال طلبة العلم إليه ، فلم يشذّ عنه إنسان ، ولم يختلف في فضله إثنان ، فتوشّح لها وترشّح ، وجعلت الأبصار والنواظر إليه تطمح .

ثم رقى أعواد التدريس والدراسة ، حتى أصبح عمود الدين وعماد الرئاسة ، وتجمّعت

---

(١) نُقل انَّ إمرأةً (من قبيلة يكسرون أول الفعل) مرّتْ بجماعة ، فسألها أحدهم : هل تكتنون؟! قالتْ : نعم ، نِكتني (وكسرت النون) ، فقال : معاذَ الله ، لو فعلتُ لاغتسلتُ! فسألتُهُ هل تحسن العروض؟ قال : نعم . قالتْ : كيف تقطّع : «حولّوا عنا كنيستكم»؟ فقال : حولّوا عن (فاعلات) ، ناكني (فاعل)! فقالت : مَنْ الفاعل؟ لكنّ الباغي مصروع!

جميع الأفاضل للحضور عليه ، حين اجتمعت كُلّ الفضائل لديه . فكان ممن حضر ابن أخيه الخلف الصالح ، دفعاً لتوهم المعارضة له في بعض الأمور والمصالح . فلم يزل أمره في ترقّي وصعود ، حتى أخلد به الشوق إلى دار الخلود ، فما أمهلته الآجال ، ولا مضت عليه الأيام والليال ، إلاّ وقَدْ اشتد به الحال ، من مرض (الدقّ) الذي تعلق به قبل أحوال ، إلى أن صعق صاعداً ذلك النور المبين ، قبل بلوغ (الستّين) ، فسلّم نفسه الزكية ، إلى رائد المنية ، في جمادى من سنة التسعين[1] ، فلم يبق بعد أخيه سوى سنة وأربعة أشهر .

مراثيه

فقامت المكارم وذوو الآداب تنعاه ، وطفِقَ أفق العُلى والكمال يرثي وينشد ثريّاه . فقال الشيخ مُحَمَّد بن حمزة يرثيه ، ويعزّي السيد العلم الحجة المهدي[2] ، لا زالت سحب الرضوان عليهم تلحم وتسدي :

حقّ لطرفِ المجد أنْ لا يرقدا … فاليومُ نادى معلناً ناعي الهُدى
ما للردى في كُلِّ يوم صرفُهُ … يدكُّ طوداً للعُلى مشيدا
أنبتغي تجلُّداً من بعدما … قَدْ طوّحت (بجعفر) يَدُ الردى
ما جاءنا بغيّه إلاّ وفي … كُلِّ حشىً نارُ المصابِ أوقدا
فاستنجدَ الدّمعُ فأنَّ العِلمَ قَدْ … غارَ الأسى بقلبهِ وأنجدا
يا مَنْ أقامَ يومه قيّمة الـ … ـوجد بفقدك السُلوُّ افتقدا
رزؤكَ قَدْ أبكى ملائكَ السما … فَوَجْدُهَا باق عليكَ سرمدا
تبكي عُفاةُ الناسِ منكَ نائلاً … كُلُّهمُ عليه منكَ عوّدا
ما حالها ونصب عينها ترى … شخصَكَ والجُودَ معاً قَدْ أُلحدا
كنتَ على الأخطار سيفاً مُصْلَتاً … ما بالُ ذاكَ السيف عادَ مُغْمَدا
لا يُحمَدُ الصبرُ بلى بالسيد (المهديّ) … صَبرُ العالمينَ حُمِدا
لسانُهُ أمضى من السيف شَبَاً … وكفُّهُ أوفى من البحرِ نَدى

---

(١) ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م .

(٢) هو السيد مهدي القزويني الحلّي المُتوفى سنة ١٣٠٠هـ / ١٨٨٢م .

غُـــرُّ المزايا قَـــدْ أتتْ إرثاً لـهُ | عن (حيـدرٍ) عن النبيِّ (أحـمـدا)
بدرُ عُـــلاً ، أبناؤه كـــواكـبُ الـ | ـفضلِ فكم من حـائر بهـا اهتـدى
(فجـعـفرٌ) للمجدِ كـانَ (صـالحاً) | كـمـا (حـسينٌ) لم يَزلْ (مُحـمَّدا)
فـيكم بني الوحي لنا السلوانُ عَنْ | خيـرِ فـقـيـدٍ فضلُهُ مـا فُـقِـدا
وإنَّ فـي إخـــــوتـهِ ونجلـه | قلبُ الرشـــادِ حَـرُّهُ قَـــدْ بردا
أبوهمُ العلمُ إذا مــا انتـــسـبــوا | فـكُلُّـهـم لـلـعلم يُـدْعَـى وَلَـدَا
وجـودُهُم فــاتَ الخِـضَمَّ دُفـعــاً | ومجدُهُمْ فاتَ (السَماك) مصعدا
أقـولُ حيًّـا الغـيثُ رمسَ (جعفرٍ) | ومنهُ يُسْـتَـجـدى الغَـمـامُ أبدا

وقال الأديب المجلّي ، الشيخ علي بن قاسم الحلّي[1] ، يرثيه ، ويعزّي السيد المتقدم وذويه ، وهي :

أدهى البــريةَ يومُـــهــا الموعــودُ | أم ذاكَ خَطْبٌ في الأنامِ جَـــديدُ
لا بَلْ لهـا الناعي أصاتَ (بجعفرٍ) | فلهــا قــيــامٌ بالجَـوى وقُـعــودُ
أودى فلجَّ بنعــيّـــهِ لَسَنِ الورى | فكأنَّ أصــواتَ النُعـــاةِ رُعــودُ
والناسُ من دَهَشِ المُصـابِ بسُكرةٍ | فكأنّمـــا دَهَمَ الأنـامَ وعـيـــدُ
وبكى عليـه المعــتــفـون وإنّمــا | بنداهُ أعـــينهم عليـــه تَجــودُ
وله القلوبُ تنازعتْ حُـرَقَ الجـوى | فلكُلِّ قلبٍ في جـــواهُ وقـــودُ
ذهبَ الورى (ببسيط) خلقٍ (كامل) | بحـرِ السّـمـاحِ براحـتـيـهِ (مـديدُ)
ربُّ البـلاغـةِ والفـصـاحـةِ والنُّهى | روضُ المكارمِ بحــــرُها المورودُ
وَخِـضَمّ علم منهُ تغـتـرفُ الورى | لولا المنيّـــةُ مَــا عـــراهُ نفـــودُ
مـازالَ حـتى أغـتـاله صـِرفُ الردى | غـيـثـاً به عـيشُ العُـفـاةِ رغـيـدُ
يصلُ البــعــيـدَ بنيلهِ مـتـعـطّفــاً | زمنـاً به نيل القــريب بعـــيـــدُ
ولرُبَّمــا شَـمَتَ الحَـســودُ بموتهِ | والموتُ لم يُحـسـد عليـه فـقـيـدُ

---

(١) الشيخ علي بن الشيخ قاسم الأسدي الحلّي ، ولد سنة ١٢٤٠هـ / ١٨٢٥م ، وتُوفيَ سنة ١٣٣٢هـ / ١٩١٣م .

وكــفــاهُ فــخــراً أنّهُ بحــيــاته ... ومماته في فــضله مــحــســودُ
ولقد عجبتُ ولم أزلْ مُتعجّباً ... إنَّ (البحار) يضمُّهنَ (صعيدُ)
اللّه أكبرُ ماتَ أكبرُ مَنْ غدا ... لبني المكارم بالعلوم يَسودُ
قَدْ عمَّ أهلَ الأرضِ خَطبُ وفاته ... فكأنّهم لمّا أُبيدَ أبيدوا
وبكى الأنامُ قريبُهم وبعيدُهم ... لمصابه وحكى الشفيقَ حسودُ
هيهات أنْ يأتي الزمانُ بمثله ... ندباً لعزٍّ عُلاهُ تعنو الصيدُ
يا حاملين بنعشه قمرَ الهُدى ... والمكرمات لها عليه نشيدُ
سرتُمْ وفيه تهتدون وأنتمُ ... كسُراةِ جيش ما لَهُنَّ عميدُ
دفنوا العلومَ بدفنه في تُرْبَة ... فيها ضجيعاهُ الندى والجُودُ
لا بَلْ بها دفنوا الشريعةَ والهُدى ... فكلاهُما في لَحْدِه ملحودُ
لولا الفتى (المهديُّ) قلتُ بيومه ... قَدْ أصبحَ الأسلام وهو فقيدُ
العالمُ العَلمُ الذي تُهدى الورى ... فيه إذا دجتِ الغواشي السُودُ
(علاّمةٌ) في الدهر جاء (محققاً) ... ما في بني الدنيا سواهُ (مُفيدُ)
أأبا (الحُسين) لقد ذهبتَ بنكْبة ... لا تستطيعُ لها الجبالُ الميدُ
نزلتْ بأكرم مَنْ عليه تراكمتْ ... في أزمةِ العام المحيل وُفودُ
أمّا السّخا فمقرُّهُ في بيتهم ... والبُخلُ عن تلك الرحابِ طريدُ
ما (أُطْلِقَتْ) فيه أعنّةُ خيلهم ... إلاّ وكانَ لخيلهم (تقييدُ)
كَرَمٌ يُزانُ بحُسنِ خُلْق مثلما ... زانَ الخُدود من المها توريدُ
لم تحكه بالفضلِ إلاّ (ولدُهُ) ... وكذاكَ أبناءُ الأُسودِ أُسودُ
ترتاحُ للفعلِ الجميلِ كأنّما ... شَربتْ سُلافاً مجّها العُنقودُ
لولا احترامُ (أبيهمُ) قُلنا انتهى ... بينَ الأنام إليهمُ (التقليدُ)
ولهم بقارعة الطريق إلى القِرى ... بيتٌ لآفاقِ السماء مَشيدُ

إلى أن قال:

صبراً بني المعروف مَنْ لنداهُمُ ... أثرٌ بكُلّ قرارة مشهودُ
قُلنا بكم حُسنُ العَزا فوجوهُكم ... تُجلى بطلعتِها الخطوبُ السُودُ

وسقى سحابُ العفو قبراً حلَّهُ فبلحدِهِ جسمُ العُلى ملحودُ

وقال الشيخ حسين بن عبد الله الحلّي يرثيه ، ويعزّي السيد المتقدم أيضاً ، وقَدْ جلس للعزاء في الحلّة ، وهي ، (ولقد أجاد) :

إلامَ أقاسي من صروفكَ يا دَهرُ جوىً بين قلبي والضلوع له سَعْرُ
وكم للرزايا منك قلبي دريّة وثغرة نحري كُلَّ آن لها نَحرُ
وكم ذا أقاسي نكبةً بعد نكبة يذوبُ لها قلبي ولو أنّهُ صخرُ
وكم أنتَ في الأمجاد يا دهرُ فاتكٌ وفي الصيدِ أهلِ الفضلِ شيمتُكَ الغدرُ
فبينا أُعاني سبرَ جُرح بمهجتي إذا جُرحُ ثان لم يَنَلْ قعرَهُ سَبْرُ
لقد طرقتنا اليومَ منكَ رزيةٌ بقلبِ الهُدى للحشرِ من هولِها ذُعرُ
فلا مِثْلُ هذا الخطب خَطبُ دها العُلى ورزءٌ عظيمٌ جلَّ موقعهُ بِكرُ
له كادت الغبرا تميدُ بأهلها وشهبُ السما تهوى وينخسفُ البدرُ
وكادتْ له الخضراءُ تهوي على الثرى وتقضي به حزناً ملائكُها الغُرُّ
وفيه الورى عادتْ سُكارى كأنّما لعُظمِ الشجى والحُزنِ فاجأها الحَشرُ
لتبكِ العُلومُ اليومَ جامعَ شملِها ومَنْ لخفاياها وأسرارِها سِرُّ
ليبكِ له المحرابُ حُزْناً فكم غدا به مُزْهِراً واليومَ مِنْ بعدِهِ قَفرُ
لتبكِ اليَتامى اليومَ أرأفَ والد فمنْ بعدِه أودى بأجسامِها الضُرُّ
لتبكِ الأيامى اليومَ كافلَ برّها فأوجهُها ذا اليوم منْ بعدِه غُبرُ
عجبتُ لذاكَ الطودِ كيفَ تصدّعتْ جوانبُهُ أمْ كيفَ قَدْ ضمَّهُ القَبرُ
وبحر ندى في التُربِ غاضَ عبابُهُ وقَدْ كانَ منه البَرُّ يُفعمُ والبحرُ
سرىٰ فيه والأيمان حول سريرهِ يُناديه منّي اليوم قَدْ قُصمَ الظَهرُ
ومِنْ خلفهِ التقوى تنوحُ بعَبرة وقَدْ شَقَّ منه القلب حزناً له الفَخرُ
وباتَ عليه العلمُ يلدمُ صدرَهُ ويذري دموعاً عندها يصغر القَطرُ
لقد كان للأسلام عَضْباً مُهنّداً ولجّة علم لا يُحدُّ لها قَعْرُ
فلو كانَ عنهُ الموتُ يُدفعُ بالفدى فديناهُ لكنْ فيه قَدْ نفذَ الأمرُ
فهيهاتَ يسلو رزءهُ اليومَ ذو حِجىً مدى عمرهِ حتى يُفارقهُ العُمرُ

نَعمْ فَلَنا خـيـرُ العـزاءِ بماجـدٍ | به عن ذوي الضراء ينكشف الُضرُّ
أبو صالح (المهديِّ) ذو الفضل مَنْ سما | مـقـامـاً عليّـاً ليس يُدركـهُ الفكرُ
براهُ إلهُ العـرشِ غَـوْثاً لخلقـه | وغـيـثـاً إذا مـا عنهـمُ حُبِسَ القَطرُ
تراهُ إذا مـا جـئـتَـهُ البـدرَ سـاطعـاً | بـه حـفَّ مـن أبـنـائـهِ أنجـمٌ زُهـرُ
هُداةٌ بهم يُسْتَجلبُ العفوُ والرضا | وفي ذكرهم يُسْتَدفعُ البؤسُ والشَرُّ
بهم قـصمَ اللّهُ الضَـلالَ وحـزبَهُ | وفي فضلِهمْ (جبريلُ) أعلنَ و(الذِكرُ)
ولا زال سـاري المُزن ينهلُّ بالرضـا | ويسـقي ضريحـاً حلَّهُ الماجدُ البَرُّ

وقال السيد في (اليتيمة) : ونحمدك يا مَنْ تفضل علينا بعيلم العلم البر ، والأصبح الأغرّ ، نجل عليّ بن جعفر ، همام أحيا مآثر جدّه بجدّه ، وبلغ الغاية القصوى بجهده ، زكي نجيب في غرّته أثر النجابة ساطع البرهان ، من غرّدت به بلابل المديح على أفنان .

البـارعُ الهَـدي الذي بجـبـينهِ | أثرُ النجـابةِ سـاطعٌ برهانُهُ
والماجـدُ الحَـبر المهـذب (جـعـفـرٌ) | مَنْ عمَّ أبناءَ العُلى إحسـانُهُ
مـقـدامُ أبناءِ المفـاخـرِ كُلِّهـا | في ذا الزمـان وقَـدْ غـدا إنسـانُهُ(١)

إمام يتّقد نوراً ، ويتفجّر بِشْراً وسروراً :

شمسُ المعالي بدرها البادي الذي | مـا زالَ يشـرقُ بالمعـاني الجُـدَّدِ
خلقـتْـهُ فكرتُهُ ليـوم طرادها | فـيروحُ يومَ السّبق فـيه ويغـتـدي
طالَ (السَماكَ) فـمَنْ أرادَ لحوقَـهُ | أومتْ مـسـاعـيـه له لا تَجْـهَـدِ

كعبة فضل ، وغمامة بذل ، ومنهاج عدل ، ما أشرقت على روضات العلم أقمار طلعته ، وسطعت عليها ثواقب فكرته ، إلاّ وجلّى غياهب ظلمته ، منذ شبّ شبّت به نار السماحة والفراسة ، ومذ نما نميت إليه الفضائل والرئاسة ، وحين دبا على عارضيه العذار ، غدا جامعاً للفضل والنهى والفخار . فهو عالم محقق ، وفاضل مدقق ، وجدليّ مفلق ، لم يقطع حبل جدله حدّ الحسام ، ولم تمحُ فضله الفضلاء الأعلام ، لم يدع منقبة في الفضل إلاّ حواها ، ولم يترك مرتبة في الفخر تعالت إلاّ إرتقاها ، ولا ذروة في العلم إلاّ رقاها ، ولا

(١) هكذا ورد البيت في الأصل .

جوهرة في قلب السر مكنونة إلاّ وإنتضى لها مشرفيّ فكره وأبداها ، باحث مفروض العلم ومسنونه ، بحجج غير موهونة ، وأحيا مدارس أبيه بدرسه ، وغوصه في بحر العلم ورمسه ، وصار من شدة الاهتمام لا يميّز يومه من أمسه ، جمع من المفاخر والمكارم ما تشتت ، وما به قلوب الحسّاد فتت ، كم سعى في المهمات ، للذاهب والقادم من البريّات ، وكابد في طلب العلم التعب ، وقاسى النّصب ، فاغتدى فيه البحر الموّاج ، والسراج الوهّاج ، والبدر الساري في أفق الكمال والشمس المنيرة ببروج الفضل في فلك الاعتدال . (جعفر) الفضل الذي كان محمولاً في صلب النور (الجعفري) حيث لا حامل هناك ولا مدير ، ومشمولاً بعبء شجرة اللطف الأزهري ولم يشعر بذاك إذ ذاك ملك التصوير ، أشرقت به شمس (عليّ) السابحة في فلك الوجود ، حيث لا متحرك من الأفلاك بأحدى الحركتين ، فكان نوراً مونقاً في فروع الشجرة الزكية الباسقة في فضاء الجود حيث لا محدّد هناك لأحدى الجهتين :

وأغـرّ وضـاح الجـبين كـأنّهُ   بسما السعادة جنح صُبْح مُسْفِرِ
مـتنمّـر مـا ريعَ قُطّ بموقف   ويُريعُ قلبَ الفـاتكِ المتنمّـرِ
وأشمٌّ مـرهوب اللقـاء إذا سَطاً   يسطو بغرمة ليثِ غابٍ مخدرِ

يتجلّى صباحه بسما العلوم ، تجلّي مصابيح الدياجر المدلهمّة في الغيوم ، فتبسم رياضها عن درر فضائل فيما أهمّ ، وعن نفائس أبكار هي أبهى ما ينظم .

ثم إن السيد (ره) أخذ يسرد جملة من شعره في حق صاحب (الترجمة) ، إلى أن قال :

هذا مع أنّهُ (أيّدهُ اللّه) مستعملاً طريقة الأنزواء في مسلكة ودرسه ، مستقلاً في ذلك بشرذمة من أبناء جنسه ، لتكفّل أخيه بأحياء مدارس أهليه ، وتشييد العلم ومبانيه ، إذ لا يسعه مع ذلك الاستقلال بالجمّ الغفير ، والسرب الكثير ، على أنّهُ الحقيق بأن يقول : لاستكماله في المعقول والمنقول :

قلبي وفكري (سليمانٌ) وآصفةٌ   هذا الرئيسُ وهذا خيرُ مرؤوسِ
يرتدّ قبل إرتدادِ الطرفِ مِنْ طرفٍ   بألفِ عرشٍ عليه ألفُ (بلقيسِ)

إلى أن قال : وهو ممن ثبتت له ثلاث خصال ؛ الأولى أنّهُ ممن يُروى عنه ، الثانية : أنّهُ ممن يُؤخذ منه ، الثالثة : أنّهُ ممن تَصدُقُ فيه الأقوال الغريبة ، والأفعال العجيبة ، والسماحة

التي ما لأحد فيها ريبة .

ثم رجع إلى ذكر كُلّ واحدة بالتفصيل ، على عادته من التطويل ، وإعادته لفقرات التبجيل . وأنت خبير أن الطبع موكل بمعاداة (المُعادات) ، واستكراه المكررات .

وقال الأديب الأوحد ، علم الكمال المفرد ، إنسان عين الكمال وعين كمال الأنسان ، الشاعر الماهر الشيخ أحمد قفطان ، يرثيه ويعزّي عماد الأنام ، وعمود الأسلام ، الرئيس المطاع ، والرأس السامي على الذرى والبقاع ، مصباح المحافل والمجالس ، وصباح المحاريب والمدارس ، بقية العلماء الأمجاد ، وقدوة العباد ، مبدأ ومعاد ، العلم المقتدى مُحَمَّد الرضا ، بقية الأمام موسى بن جعفر لا برحت تصوبهم سُحبُ العفو والرضا :

المستطيلُ على هام السماكِ عُلاً   بعزمة دونها نَسرُ السما وَقَعا

جازتْ مآثرُها الجوزاءَ في شَرفٍ   قَدْ عاقَ عن شأوها العيّوقَ مرتفعا

ترجمة الشيخ مُحمّد رضا (ره)

وكان (رحمه اللّه) كبير الهمة عظيم القدر ، كثير النهي والأمر ، مطاعاً عند الرعية والحكام ، مسلّم الرئاسة لدى الخاص والعام ، كثير السّعي في مصالح المسلمين عند الحكام ، والأمراء المتولّين .

وكان أكثر امتحانه بأمور الفرقتين الشريرتين (الزقرت) و(الشمرت) وإصابته بسببها هناة وأشياء لا يسع المقام ذكرها . فاختار العزلة عنهم والتحجّب منهم ، فسكن في أيام ابني عمّه (مُحَمَّد والمهديّ) كربلاء المشرفة ، وهاجر من النجف بأهله وجميع متعلّقيه إلى أن هدأت تلك الشقاشق وسكنت بعض هاتيك الفورة رجع إلى محل عزّه ومسقط رأسه بعد وفاة عمه المهدي ، واشتغل بأمر زواج أولاده .

فما مرت سنة إلاّ وتُوفيَ ابن عمّه الشيخ جعفر ، فجلس بمسند آبائه وأعمامه ، وتعبّقت به مرابعهم عبق الورد في أكمامه ، ونهض مستقلاً بأعباء رئاسة العرب ، وألقت الأمور إليه فضل زمامها ولا عجب .

وجعل يباحث الفقه في مدرسة آبائه الكرام ، وحضر في حوزة درسه جماعة من الفضلاء العظام . فمنهم ابن عمه الخَلفُ الصالح[1] نجل العلم المهدي ، ومنهم العالم

(١) ولد سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م ، وتُوفي سنة ١٣١٧هـ/ ١٨٩٩م . وهو جدّ الشاعر الكبير صالح الجعفري المُتوفى سنة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م .

الأوحدي ، شيخنا المقدس الشيخ أحمد المشهدي[1] ، والمرحوم الشيخ علي حيدر[2] ، والشيخ عبد الحسن ابن المرحوم الشيخ راضي[3] ، وغيرهم من أمثالهم كثير . وكان عمدة حضوره وتحصيله على عمه العلامة الحسن (قده) وصار يقيم الجماعة في الصحن الشريف ويجتمع خلفه السواد الأعظم من الناس .

مدائحه وتهانيه

والحاصل أنَّ أمره لم يزل يعلو ويتسامى ، والعدو عنه يعمى أو يتعامى ، إلى أن عادت به أيام آبائه غضة أنيقة ، وأصبحت أغصان عزّهم به بعد وشك الذبول يانعة وريقة . فقال الشيخ أحمد المتقدم يرثي ابن عمه الشيخ جعفر ، ويمدحه ويعزّي بني عمه والناس ، بوجوده وذلك سنة ١٢٩٠ ، وهي :

صرفُ الردى أمرٌ مُقَدَّرْ ... لم ينجُ منه كُلُّ مَنْ فَرْ
الكُلُّ منا هالكٌ ... يوماً وفي الأجداث يُقبرْ
ولئنْ أساءَ الدهرُ في ... تقويضه بالندب (جعفرْ)
من قبل أنْ يبقيه إلاّ ... للورى عاماً وأشهُرْ
وغدا حشا العليا له ... بزفير نارِ الحُزنِ يُسْجَرْ
والدينُ مشقوق الردا ... حُزْناً له والأفقُ مُغْبَرْ
فكفى الهُدى وبني الهُدى ... ببني أبيه القادةُ الغُرْ
قومٌ لهم في (جِدِّهمْ) ... وبجَدهمْ فخرٌ مُقرّرْ
فَخرٌ تسلّق في العُلى ... لأبي المعالي الشيخ (جعفرْ)
فَلِكُلٍّ سِلْكِ مكارم ... نَظمتْ به دُرٌّ وجوهرْ
ولئن أساءَ ففيهمُ ... وبنجلِ (موسى) الدهرُ كَفَّرْ
فلقد أقرَّ أبا (عليٍّ) ... خيرَ مَنْ منْ بعدِهِ قَرْ
بمقامِ آباهُ الأكارم ... خير مَنْ للدرسِ قرَّرْ

---

(١) ولد سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م ، وتوفي سنة ١٣٠٩هـ/ ١٨٩٢م .
(٢) ولد الشيخ علي حيدر سنة ١٢٣٨هـ/ ١٨٢٣م ، وتوفي سنة ١٣١٤هـ/ ١٨٩٦م .
(٣) ولد سنة ١٢٦٠هـ/ ١٨٤٤م ، وتوفي سنة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠م .

لا تشـمتِ الأعـدا فـهـذا ظلُّهُ السـامي تسـوَّرْ
كـيفَ الشـمـاتةُ وابنُ (مـو سى) قـائمٌ اللّهُ أكـبـرْ
بحـرٌ تدفَّقَ بالمعـارف منْ بحـورِ العلمِ يَزْخَـرْ
فـاسـتـخـبـرِ الأبناء عنْ أخـلاقـه وعُـلاهُ تُخـبـرْ
كـالشـمسِ في رأدِ الضُحى فـيـه الفـضـائلُ ليس تُنْكَرْ
فـمـتى الردى صـدعَ الهُـدى فـالصدعُ فـيـهِ اليـومَ يُجْبَرْ
وبه فـؤادُ الدينِ عـمَّنْ قَـدْ قـضى منهم تَصـبَّـرْ
أَ بني العُلى لا تعـبـأوا فـيـمَنْ تنكَّرَ أو تكـبَّـرْ
فلنا بكم حـسن العـزا عـمَّنْ إلى الجنات يُحْـشَـرْ
ولَكُمْ سلوٌّ بابن (مـوسى) إنَّهُ بـالأمـر أجـدرْ
وأبو (مُـحَـمَّـد) إنْ قـضى (فـمُـحَـمَّـدُ) المولى (الرضـا) قَـرْ
فـلأجلِ ذا، ذنبُ الردى في (جـعـفرٍ) أرّختُ (يُغـفَـرْ)

ثم لمّا إستقر له الأمر، وبزغ بين قومه بزوغ البدر وسط الشهر، قال الشيخ أحمد قفطان أيضاً يهنّيه بجلوسه في مجلس آبائه الكرام، ومرجعيّة الخاص له والعام، ويمدح بعض بني عمّه وأبيه، ويعرّض بأعاديه، وهي:

ألا حـيّـهـا جـاءت مـوردةَ الخَـدِّ إليكَ على وعد بعهد من (الجدِّ)
رأتْكَ لـهـا كـفـواً فنضّتْ قناعـهـا لديكَ ولا ترضى بعَـمـرو ولا زيدِ
رأتْ بكَ أنواراً (لموسى) جليّـةً وآياتُه التسعُ التي للورى تهـدي
رأتْ بكَ أخـلاقـاً حِـسـاناً ومنعـةً وعلماً وحلماً ناء في كفَّةِ الطودِ
نوالاً بلا سـؤل جـمـالاً بلا حُلى دلالاً بلا غيٍّ جـلالاً بلا جُندِ
رأتْ لكَ كفّاً يُخجلُ السُحبَ نَوْؤها سوى أنّها من غير برق ولا رعدِ
مكارمُ أخلاق مـشارق مـفـخـر لأنوارِ علم أو لأنوائهـا تُبـدي
وفيك صـفـاتٌ لو أُبيّنُ بعضَـهـاً يقـولون غـالى في مـجـاوزة الحَدِّ
فـأنّكَ فـينا حـجـةٌ وابنُ حُـجَّـةٍ ومنْ حُـجج غُـرٌّ ضـيـاغـمـةٍ أُسـدِ
وإنّكَ بعـد اللّه للناسِ مـوئلٌ وإنّكَ فينا صاحبُ السيفِ والبُردِ

بلى يا بنَ (موسى) أنتَ حجّةُ عصرِنا وإنّكَ أولى الناس بالحَلِّ والعَقدِ
(ضروريّ) شكل (منتج) موجباته ولا يتك الكُبرى على (العكس) و(الطرد)
وآياتُ فضلٍ ميّزتْكَ بنصِّها بها الذكرُ مشحونٌ من الناس للحمدِ
عذرتُكَ إنْ أمسيتَ محسودَ معشرٍ غداةَ بهم أصبحتَ واسطةَ العقدِ
رعى اللّهُ أرحاماً يرونَ لكَ الولا كأبني (عليّ) شيخنا ، وبني (المهدي)
رجالٌ إذا استنجدتَهُمْ في مُلمّة يثورون فيها ثورةَ الأسدِ الوردِ
أناس ولكنْ لا يُضامُ نزيلُهُمْ وقومٌ ولكنْ جاوزوا ذروةَ المجدِ
أزاهيرُ أمثالِ النجوم سوامقاً بهم يهتدي الساري إلى منهج الرُشدِ
عواضد إنْ تشدد بهم أزرَ ساعدٍ بطشتَ بكفٍّ منكَ واثقةِ الزندِ
ألا يا بنَ مَنْ أومى الزمانُ لفضلهِ كمالُكَ أومى اليومَ بالطرفِ والأيدي
لك الخيرُ لو أنصفتني لوجدتني أبرَّ الورى رَحْماً على القُربِ والبُعدِ
ورُبَّ فتىً يُبدي هواهُ تملُّقاً ولكنّهُ يُخفي خلافَ الذي يُبدي
ولستُ كمَنْ يمشي الهُوينا تَختُّلاً ليَبصَر فيها فرصَةَ الرمي للصيدِ
ولكن أرى حقَّ الولا واجباً لكمْ وطاعتَكمْ فَرْضَاً على الحُرِّ والعَبدِ
بني (جعفرٍ) أنتمْ عصامي ونخوتي ففيكم وإلاّ لا أُعيدُ ولا أُبدي
يميناً لأنتُمْ خيرَ مَنْ وطأ الحصى بعصري ، وأندى راحةً بالنَدى تُنْدي

وهي طويلة ضمّن في آخرها أغراضاً له لا فائدة في ذكرها .

وقال الأديب الوحيد ، المحلّق في سماء الفضل على كُلّ مجيد ، الماهر الباهر الشيخ مُحَمَّد سعيد النجفي الأسكافي[1] ، لازال ثوب كماله مدى الزمان ضافي ، وفي صدرها بقلمه ما هذا نصّه : لراقم بردها ، وناظم عقدها ، أحوج العبيد ، إلى ربّه الحميد ، الجاني مُحَمَّد سعيد ، مادحاً بها علامة الزمان ، ونادرة الأوان ، قدوة العلماء والمحققين ، وزبدة الفقهاء المجتهدين ، العماد الأقوم ، حضرة الشيخ مُحَمَّد رضا خلف المولى الأعظم ، الشيخ موسى نجل الشيخ الأكبر ، الشيخ جعفر ، (قُدِّسَ سرُّهما ودام بقاه) ، وهي :

فيكَ الشريعةُ أُوضحتْ أحكامُها وبكَ استبانَ حلالُها وحرامُها

(١) ولد سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م ، وتوفي سنة ١٣١٩هـ / ١٩٠١م .

شيّدتَ أربعَها وقُمتَ بعبئها
وأقمتَ مائلها فقامَ قَوامُها

فلتهنَ شرعةُ (أحمد) في حاكم
وَضَحَتْ بنيّرِ حُكمه أحكامُها

علمُ الهُدى الحَبرُ (الرضا) مَنْ طأطأتْ
لعُلاهُ من علمائها أعلامُها

حكم ترى الخصماء فيصلَ حكمه
فصلَ القضاء إذا ألدَّ خصامُها

فَلَكم جلى لذوي العلوم رموزَهَا
مِنْ بعدما أعيتْ بها أفهامُها

الراسخ القدمين في الشرف الذي
صيدُ الورى زلّتْ به أقدامُها

والشامخُ العِرْنين عَنْ شُمّ له
قَدْ دانَ مِنْ شُمِّ الرّعان شَمَامُها

يستلُّ للحَدثان صارمَ عزمة
ينبو لديه من السيوف حسامُها

جارى إلى الأمد الذي في شأوهِ
تكبو بأساد الشرى أقدامُها

بحرٌ طمى لذوي العلوم وإنَّما
يُروى بسلسله الرويّ أُوامُها

فإذا عويصاتُ المسائل أُبْهِمَتْ
يُجلى بثاقبِ فكره إبْهامُها

شهمٌ إذا ما العامُ أجدبَ في الورى
هَطَلتْ يداهُ ندىً فأخصبَ عامُها

ما ضرٌّ أنْ ضنَّ الغَمامُ بصوبهِ
وندى يديهِ يستهلُّ غمامُها

ذو راحة وَسعَ الأجانبَ جُودُها
حتى حسبتُ بأنَّها أرحامُها

ورحيبُ صدرٍ في البريةِ حلْمُهُ
ضاقتْ لدى تحديده أوهامُها

وأغرُّ وجه يُستضاءُ بوجهه
في الحادثات إذا إدلهمَّ قتامُها

ولرُبَّ حادثة تغطرس ليلُها
فأظلّ آفاقَ السماء رُكامُها

دجنتْ فشقَّ لليلها عَنْ رأيهِ
فَجْراً تقشّعُ في سناهُ ظلامُها

أسليل (موسى) ذي اليد البيضا التي
عمَّ البريةَ بالندى إنعامُها

أبرمتَ ما نقضَ الزمانُ بهمّة
موثوقة لم ينتقضْ إبرامُها

هطلت يداكَ على العُفاة فأُنعشتْ
بندى يديكَ على العُفاة رمامُها

قَدْ قدّمتْكَ سُراةُ قومكَ حيثُ قَدْ
عَلمتْ بأنَّكَ في الورى مقدامها

سَعُدتْ لها الأيام فيكَ وحسبُها
فخراً بمَنْ سَعُدتْ به أيامها

إنْ تعتصمْ بكَ مِنْ صروفِ زمانها
فلأنتَ من صرف الزمان عصامُها

بك يستجير إذا استجارَ مروعُها
وإليكَ يلجأُ إذ يُضَامُ مُضَامُها

بالشـرعـة الغـراء طُلتَ وطالما | بالغُـرِّ من آباكَ كـانَ قـيـامُـهـا
إنْ قُـمتَ عن آباك فـيـهـا صـادعـاً | فـأليكَ دونَ سـواكَ كـانَ مـقـامُـهـا
أصـبـحـتَ قـيِّـمـهـا وتلكَ وراثةٌ | خـصَّـتكَ في أبرادها قُـوَّامُـهـا
بكَ شـيِّدتْ أعلامُهـا وعليك رفَّ | لواؤها وبراحـتـيـكَ زمـامُـهـا
كم في الورى منهـا إمامُ هُدىً به | تهـدى الورى واليـوم أنتَ إمـامُـهـا
جـدّدتَ سـؤددَكَ القـديمَ لأُسـرةٍ | وطأتْ على هام السّهـى أقـدامُـهـا
قـومٌ إذا قـامت بسـؤدد فـخـرهـا | بين الأنام تقـاعـست أقـوامُـهـا
فـهـمُ لديكَ اليـومَ نَبْلُ (كُنانة) | لم تُخْطِ ـ حيثُ بها رميتَ ـ سهامُها
للّه بيتٌ للعلوم ســمـــا بـه | شَـرَفٌ له (الجـوزاءُ) طأطأ هامُـهـا
هو كـعـبـةُ العلمـاء كم في بابه | أضحى كمزدحم الحجيج زحامُها
لولاهُ لَمْ يُعْـرَفْ (لبكّة) بيـتُـهـا | بَلْ لم يُميَّزْ (حِجْرُها) و(مُقامها)
فـاسلمْ فُـديتَ أبا (عليٍّ) مُـرَغِـمَـاً | لحـواسـد بك لم يَزلْ إرغـامُـهـا
وإليكَ مِنْ نظمِ القريض قـصـيـدةً | يزري بمنظوم الجُـمـان نظامُـهـا
خُـتِـمـتْ بمسكٍ مِنْ أريجِ ثنائِكُمْ | فكأنَّمـا بالمِسكِ كـانَ ختـامُـهـا

وقال السيد الحسيب، والسند النسيب، اللوذعي الأديب، السيد مُحَمَّد علي الموسوي[1] يهنّيه بالعيد، ويعزّيه بجدّ أولاده مُحَمَّد سعيد كبّة (ره)، وهي:

يا من تشـدّ له العـفـاة ركـابَهـا | وتنالُ منه ذو الطِلاب طِلابَهـا
أنتَ الملاذُ بَلْ المعـاذُ إذا غـدَتْ | نُوبُ الزمـانِ وكـشّـرتْ أنيـابَهـا
أنتَ ابنُ (موسى) مَنْ بنو الدنيا له | في الدين كـانَ ذهابَهـا وإيابَهـا[2]
من آل (جـعـفر) فـتـيةٌ هُمْ عـرّفوا | كُلَّ الأنام بعلمـهـم أحـسـابَهـا
ولأنتَ مَنْ فـاقَ الأفـاضلَ كُلَّهـا | فـضـلاً وطوَّقَ في نداهُ رقـابَهـا
عكفتْ بحـضـرتِكَ الكرامُ وطالما | هوتِ الملوكُ فـقـبّلتْ أعـتـابَهـا

(١) هو السيد محمد علي بن السيد أبو الحسن الموسوي العاملي صاحب كتاب «يتيمة الدهر في ذكر علماء العصر»، تُوفي سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م عن عمر (٤٢) عاماً، وقد مرّت الاشارة إليه والى مؤلفه أكثر من مرّة.
(٢) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله «هذا البيت كما ترى فيه لحنٌ»!

أحييتَ شرعةَ (أحمد) ووصيّه وأبنتَ سنَّتَها لنا وكتابَها
وعلمتَ أحكامَ الأله بأسرِها حتى أبنتَ ثوابَها وعقابَها
وأحطتَ خُبْراً بالمسائلِ كُلِّها وكشفتَ عن وجهِ العُلومِ نقابَها
وأرى الغوامضَ كُلَّها لم تحتجب إلاّ وعنها قَدْ كشفتَ حجابَها
لم تُلْتَبسْ حِكمٌ ولا حُكمٌ ولا نُبِّئتَ في الحُكم الخفيِّ تشابَها
ولفكركَ السهمُ الذي لم تَرْمِه إلاّ أصابَ من الأمورِ صوابَها
يا ملجأ الأيتام كافلَ أمرِها ساوى بذاكَ حضورَها وغيابَها
للّه أربعُ جُودكَ اللاتي بها أمستْ تُنيخُ الوافدون ركابَها
للّه وَكْفُ أكفِّكَ اللاتي غَدَتْ في الجَدبِ تستجدي الوفودُ سَحابَها
ما أمّت الوُفّادُ ربعَكَ منْ عَنا إلاّ وقَدْ ملأ السرورُ إهابَها
لكَ أربعُ المجدِ التي شمختْ عُلاً حتى ضربتَ على (السّماكِ) قبابَها
يا أيُّها الشيخُ الفريدُ ومَنْ به جُملُ العُلى لا أستطيعُ حسابَها
هُنِّيتَ في عيدٍ سعيدٍ بشرُهُ عمَّ البريةَ شيبَها وشبابَها
ولئَنْ أراكَ الدهرُ غربَ نصولِه يا ليتَ أجيادَ العداةِ قرابَها
ودهاكَ فادحُ خطبِه برزيّة عمَّتْ وخصَّتْ بالشجى أنجابَها
فيكَ البقا ولكَ السلوّ بأسوةٍ ببني النبيِّ وما قديماً نابَها

إلى أن قال:

وإليكَ يا بنَ الأنجبين خريدةً شَمسُ المعالي لا تنوبُ منابَها
قَدْ أوجزتْ فيكَ المديحَ لأنَّها خافتْ تَملَّ بسمعِها إطنابَها
خُودٌ ترى أنَّ الندى بمدينة وتراكَ يا ربَّ المواهبِ بابَها
وتراكَ منْ أُفقِ المكارم بدرَها وتراكَ مِنْ أُفقِ العلومِ شِهابَها
خطبتْكَ دونَ بني الزمانِ وأرجعتْ بالرغم رجع القَهْقَرى خُطّابَها
وبقيتَ ما أهدى السحابُ إلى الثرى أمناً رمى صوبَ الغَمامِ أصابَها

وله يمدحه أيضاً، ويذكر غرضاً:

يا عيلماً في العِلمِ جَدْ وزكا أباً أُمّاً وَجَدْ

كم فــــاضل جَمّ العُلى ... من بحـــر علمك قَـــدْ وردْ
قَـــدْ رمتُ أمـــدحُ فــضلَكم ... في بعضِ أبيــــات جُــــددْ
لكنَّ بحـــرَ قـــريحـــتي ... مُـذْ شئتُ ذلكَ قَـدَّ جَـمـدْ
أيمدُّني فــــيـــــــه المدادُ ... وبحــــرُ علمي قَـــدْ نَفـــدْ
وحـــويتَ غُـــرَّ مناقبٍ ... هيــهـاتَ أنْ تُحصى بعَـدْ
كم حـــاســـد بمديحكم ... قـــدْمَـــاً بأبيـــاتي انكمـــدْ
هُنَّ الخـــرائدُ مـــدحُـــهـــا ... باقٍ إلى أمـــــــد الأبـدْ
يا حـــاســـديه بهـــا لقَـــدْ ... أودتْ بجـــمـــعِكم بَددْ
هذا الفـــتى الســـامي الذي ... ينهى ، لهُ حلٌ وعَـــقـــدْ
بحــــــرُ الندى الطامي ... بأمـــواج الفـضــائل قـــدْ زَبَدْ
أزكى البـــرية مـــاجـــدٌ ... علمٌ إمـــامٌ مُـــعْـــتَـــمَـــدْ
هذا (مُـــحَـــمَّـــد الرضـــاء) ... أبو الأطائبـــة العَـــمــــدْ
مـــا خـــابَ راجـــيـــه ولا ... بالردّ أصـــدرَ مَنْ قـــصـــدْ
يا لائمي في حـــبِّـــــهِ ... دَعْ عـــنـكَ لـومـي والـفَـنَـدْ
يا جـــاحـــدَ النعت الذي ... في ذاته ظُلْمـــاً حَـــسَـــدْ
هذا إمـــــامُ المسلمين ... ومَنْ بمفـــخـــرهِ انفـــردْ
تحكى النجـــومُ نعـــوتَهُ ... هَلْ للنجـــومِ فـــتى جَـــحَـــدْ
يُوفي العـــهـــودَ بأســـرِها ... ويفي بما فــــيــــه وَعَـــدْ
يُجلي سَناهُ غـــيـــهبَ الأ ... حـــــــزانِ عنَّا والنّـكـدْ
مـــا ودَّ غـــيـــري لا ولا ... قلبي ســـوى مـــرآهُ ودْ
فلهُ المحـــامـــدُ جـــمّـــةٌ ... تأبى التناهي في عَـــددْ
كم منْ مَـــخُـــوْفٍ في الأنام ... بظلّه الســـامي رقـــدْ
للّه مَنْ مِن نفـــســـهِ ... أمـسى عليـه لهـا رَصَـدْ
يا مَنْ كـــواكبُ رُشْـــده ... تَهْـــدي المُضلَّ إلى الرَشَـــدْ
وافـــتْكَ أبيـــاتٌ بهـــا ... حـــازتْ مـضــامـــيناً جُـددْ
قـــذفتْ لكم ســـهمَ الولا ... وبقلبِ حـــاســـدِكُمْ نفـــدْ

قَـــصُــــرتْ يدي بمديحكُمْ ولَكَمْ بهـــا قَـــدْ طلتُ يَدْ
وبقـــيــتُمُ في صنوِ عـــيشٍ أرغـــدٍ عُــــمــــرَ الأبدْ

وله أيضاً يعزّيه بجدّ أولاده المتقدم ، وهي :

يا مَنْ هواهُ مـخـيّمٌ بضـمـائري تاللّه مـا خطرَ السلوُّ بخـاطري
قَدْ كانَ شخصُكَ قاطناً في مهجتي فنأى وحلَّ غَـداةَ بانَ بناظري
كُنتَ السعيدَ وكُنتَ أكرمَ فـائزٍ في مَـفْخَـرٍ باق ليوم الآخرِ
لـلّـه رزؤكَ نـابَ أربـابَ الـنّـهـى طُرَّاً فـمَنْ باديهمُ والحـاضـرِ
ولقـد بكيـتُكَ يوم بنتَ بأدمعٍ مُنْهَلَّة كالغيثِ فوقَ محاجري
لـي سلوةٌ ببنيكَ أبناءِ العُلىً مـا فـيـهُمُ غيرُ الأغرِّ الزاهرِ
وبقومك الغُـرِّ الأطايبِ فتيـةٌ ورثوا المعالي كـابراً عَنْ كـابرِ
صبراً (مُحمَّداً الرضاء) بفقدِ مَنْ أودتْ به نُوبُ الزمـانِ الجـائرِ
فـلأنتَ بدرُ العلم والحلم الذي فـاقَ الورى بمناظر ومـخـابرِ
ولأنتَ بحرُ الفضلِ لَم يَجْزُرْ ، وكم قَـدْ مـدَّ فـضلاً كُلّ بحرٍ زاخرِ
شمسَ الفضائل أنتَ كوكبُها الذي كم راحَ يرشد للهُدى من حـائرِ
وسنا سنّي سمـاتكَ اللاتي زَهَتْ زهوَ النُجوم بهـا الهُدى للسائرِ
ولأنتَ مصباحُ الهُدى بحرُ الندى حتفُ العدى غيثُ النوالِ الهامرِ
فيكَ التسلّي للأمـاجد كُلِّهمْ عن كُلِّ حيٍّ للأنام وغـابرِ
وبقـيتَ مـا بقي الزمـانُ بأنْعُمٍ مـوفـورةٍ في ربع أُنسٍ عـامـرِ
مـا جنَّ ديجورُ المُصابِ بحادثٍ أو أسفـرَ الصبحُ المنيرُ لناظرِ

وقال الشيخ مُحَمَّد سعيد المتقدم يهنّيه في بعض أعياده ، وفي صدرها بقلمه : لراقم بردها ، وناظم عقدها ، أحوج العبيد ، إلى عفو ربّه الحميد ، الجاني مُحَمَّد سعيد ، بن الشيخ محمود سعيد ، نائب كليدار النجف الأسبق ، مهنّياً بها علامة الزمان ، ونادرة الأوان ، فخر المجتهدين ، وزبدة المحققين ، عيلم العلم الضامي ، وعلم السؤدد السامي ، الأفخم المفخّم ، منار المجد الأقدم ، موئل الحكم والقضا ، حضرة الشيخ مُحَمَّد رضا :

هو العيدُ بالأقبال عادَ كما بدا وقَدْ عادَ فيه الكونُ أنورَ أسعدا

زها يافعاً دوحُ الهنا فيه فاغتدى ... بلحن الهنا ورْقُ السرور مغرّدا
فَهَنٍّ بهذا العيد إذْ عادَ بشرُهُ ... فتىً قَدْ أمدَّ العيدَ سعداً وسؤددا
إمام الورى المولى (الرضا) موئل القضا ... عماد التقى كهف الحجى عيلم الندى
خِضَمٌّ طمى بالعلم زاخر لجّه ... فكانَ لأهل العلم أعذبَ موردا
فكم للعلوم الغُرِّ أوضحَ مُبْهَماً ... وكم حلَّ من إشكالها ما تعقّدا
غياثٌ إذا نادى المروّع بأسمه ... رأى قبل رَجْع الصوتِ تلبيةَ الندا
وكهفٌ منيعٌ يُستجارُ بظلّه ... إذا جارَ صرُفَ الدهرِ يوماً أو اعتدى
أقامَ قنا الدينِ الحنيفِ فشُيِّدتْ ... ذُراهُ به مُذْ قامَ فيه مشيّدا
حليفُ معالي لو ترى الصِيدُ بعضَها ... لخرّت لها الصِيدُ الجحاجحُ سجّدا
أخو عزمة إنْ سُلَّ ماضي غرارها ... كفاهُ بأنْ يستلَّ عضباً مُهنّدا
وذو راحة إنْ ظنّت السُحبُ بالحَيا ... سحائبُها جادتْ على الوفدِ عَسْجَدا
تجمّع فيه ما تفرّقَ في الورى ... فأصبحَ في جمع المكارم مُفْرَدا
تُقىً كرماً حِلْماً حِجىً سؤدداً عُلاً ... إباءً فخاراً عِزّةً منعةً هُدى
مناقبُ مجدٍ في الورى شاعَ صيتُها ... غَداةَ بها حادي الركائب قَدْ حَدا
أبا الماجدِ الندبِ (العليّ) ومَنْ روى ... حديثَ المعالي والمفاخرِ مُسْنَدا
ملكتَ مقاليدَ الورى حيثُ أصبحتْ ... وكُلٌّ بجدوى راحتيكَ مقلّدا
لئن رُحْتَ محسودَ المعالي فأنّما ... أخو الفضلِ لم يعدم على الفضل حُسَّدا
أتجحدُكَ الحُسّادُ فضلاً وسؤدداً ... وما كانَ ضوءُ الصُبح يَخفى ليُجَحدا
لئَنْ وطّدتْ آباكَ سؤدَد فخرها ... فأنّكَ شيّدتَ الفخارَ الموطّدا
لقد علمت صيدُ البريةِ كلُّها ... بأنّكَ أزكاها نجاراً ومَحْتدا
وأطولُها باعاً وأرجحُها حِجىً ... وأوسعُها صَدْراً وأسمحُها يدا
وأمنعُها جاراً وأرفعُها ذرى ... وأعظمُها حلماً وأغزرُها ندى
فَدُونَكَها مِنْ نظم فكري فريدةً ... فرائدُها تحكي الجُمانَ المُنضّدا
فلا زلتَ تُولي الوفدَ رِفْداً ولم تزَلْ ... مدى الدهرِ توليك الثناءَ المُخلّدا
ودُمْ للورى كهفاً منيعاً وملجأً ... وللمجتدي جدوى وللمُهتدي هُدى

ولم يسافر الشيخ مدة عمره إلاّ مرةً واحدة ، وكانت أقل من ستة أشهر ، ولم يتجاوز أطراف البصرة . وصار له في تلك المنازل من الجلالة والعظمة ، وتكاثر الأموال عليه ما لا يحيط به نطاق البيان . ولما ورد (الديوانية) في طريقه قال الشيخ مُحَمَّد سعيد(١) المتقدم أيضاً يهنّيه ويمدحه ، وهي :

هو البدرُ في أفق الحمى لاحَ مُشرِقا — فأشرقَ فيه الكونُ غَرْباً ومشرقا
أنارَ (بديوانيَّةِ) المُلك ساطعاً — سناهُ فخلنا ساطعَ الشمس أشرَقا
أم العَلم السامي بغُرٍّ علومه — مراقي يكبو دونها النَسرُ مُرْتَقى
(مُحَمَّدٌ) الندبُ (الرضا) موئل القضا — إمامُ الهُدى بحرُ النّدى عَلَمُ التُقى
إمامُ هُدىً تلقى بغُرَّةِ وجهه — إذا ما بدا نورُ الهداية مُشْرِقا
فكم قَدْ جلا مِنْ غامضِ العلم مُبْهَماً — وكم حلّ إشكالاً وأوضحَ مُغْلَقا
وحاكمُ شرعٍ قامَ بالشرع حاكماً — فطالَ به الدينُ الحنيفيّ مرفقا
له طيبُ أخلاق ذكى طيبُ نَشرها — كأنَّ فتيقَ المسك منها تفتّقا
طليق محيّا إن توسّمتَهُ تَجِدْ — مُحيّا به نورُ الجلالة مُحدقا
وغيثُ ندى لم يحكهِ الغيثُ مرزماً — وإنْ أرعدَ الغيثُ المُلِثُّ وأبرقَا
يُطوِّقُ أعناقَ الأنام بجُوده — فتُمسي به تحكي الحَمامَ المطوّقا
يبدّدُ شملَ المال جُوداً بكفِّه — ليجمعَ من شمل العُلى ما تفرقّا
وطود إباءٍ لُذْ بسابغِ ظلّه — لدى طارقِ اللأواء مَهْمَا تطرّقا
رقى مُرتقى في المجدِ ليسَ ببالغ — مداهُ سَريٌّ ما أسفَّ وحلَّقا
هو الغيثُ هطّالاً هو الليثُ مقدماً — هو البحرُ زخّاراً هو البدرُ مُشْرقا
يُجلُّ عُلاً من نعتهِ بمدائحي — وإن كنتُ هدّارَ الشقاشقِ مُفْلَقا
فتىً كأبيهِ في العلوم وجدّهِ — خضَمٌّ بتيّارِ العلوم تدفّقا
جحاجحُ مَهْمَا يُطرقُ الجمعُ ذكرهم — يذلُّ لهُ هامُ المجرَّةِ مُطْرِقا
حديثُ العُلى ما لم يكنْ عَنْ عُلاهمُ — لعمرُ أبي كانَ الحديثَ الملفّقا
تجُودُ على الرّاجين خَلقاً أكفُّهم — إذا ما السَحابُ الجُونُ كانَ تخلَّقا

---

(١) هو الشيخ محمد سعيد الاسكافي ، وقد مرّت الأشارة إليه .

سراة سرى في كُلّ قُطْر فخارُهم   فغرَّبَ في عرض البلاد وشرَّقا
وأطواد مجد طال في البحرِ باعُها   إذا ما استطالتْ طأطأ الدهر مَفْرِقا
إليكَ أبا (مُوسى) زففتُ خريدةً   بوجنتها ماءُ الجمالِ ترقرقا
لها رونقٌ في السّمع راقَ وإنَّما   أفاضَ عليها نورُ مدحِكَ رونقا
متى أُنشِدَتْ أبياتُها خلتُ أننا   نشاوى ولم نحسوا الرحيقَ المعتَّقا
ولا زلتَ للوفّادِ كعبةَ أنعُم   تحثُّ إلى أبوابِكَ الوفدِ أينقا

ولمّا قدم من سفرِه هذا قال يهنّيه بقدومه ، وهي :

مَنْ مُبْلغنَّ بني (نزار) و(يَعْرُبِ)   والقاطنين بمشرق وبمغربِ
إني سررتُ بمقدمِ المولى الذي   فاقَ الورى مِنْ أعجمٍ أو أعْرُبِ
ربّ الفضائل مَنْ بغيرِ علومهِ   الأمثالُ ما بينَ الورى لم تُضْرَبِ
جمّ المكارم والمحامد مَنْ حوى   مثلَ النجوم مناقباً لم تُحْسَبِ
أحيا مآثر (جعفر) في جدِّه   وأبانَ أحكامَ المُهيمنِ والنبي
وغَدا يؤلفُ ما تخالف دائماً   في العلم بالمعنى القريب الأنسبِ
أبدى بتدريس العلوم مراسماً   درستْ فبانتْ للنبيهِ وللغبي
جلا دياجي المُشكلات وكَمْ بها   قَدْ جاءَ بالطرزِ البديع الأغربِ
هو عيلمُ العُلماءِ والعَلمُ الذي   بسوى مديح علائه لم أرغبِ
مَنْ طالَ أربابَ المفاخرِ والنُّهَى   وشَأهُمُ فخراً بأشرف منسبِ
من آلِ (جعفر) فتيةٌ بعلومِهمْ   سادوا الأنامَ وشيّدوا دينَ النبي
نُصِبتْ لهم أعلامُ كُلِّ فضيلة   ولغيرهم أعلامُها لم تُنْصَبِ
حازوا المكارمَ والمعالي بعدما   ورثوا المفاخرَ أنجب مِنْ أنجبِ
يا أنجبَ الفُضلاء يا مَنْ قَدْ جَلا   عنّي سناهُ كُلَّ داجٍ غيهبِ
وافتْكَ تهنئةٌ عُقودُ نظامها   تزهو كما يزهو الربيعُ لمُجْدِبِ
مِنْ مخلصٍ جمِّ العُلى بمديحكم   عن فكرِهِ دررُ الثنا لم تغربِ

وهي طويلة إنتخبنا منها هذا القدر كما هي عادتنا في أكثر ما ننقله .

وقال الشيخ علي[1] بن ظاهر الحلّي يهنّيه بقدومه من بلدة (تَسْتُر) إلى المحمرة في شطّ (كارون) ، ويمدحه مع ولديه الشيخ علي (دام ظله العالي) والشيخ موسى (قُدِّس سرّه) ، وهي :

منحـتْكَ رفـقـاً إذ شكوتَ صـدودا — فـأتَتكَ تسـحبُ للوصـالِ بُرودا
وسقـتْكَ من لَعسِ المراشفِ ريقَـهـا — فـشـفتْ هنالكَ قلبَكَ المكمـودا
وبدتْ كقرن الشمس يرفلُ في الدُّجى — وعلى الدُجى نثرتْ عِقاصاً سودا
ولهـا كـجيـدِ الظبي جيـدٌ إنْ بدا — في الليل أبدى للصبـاح عـمـودا
وترنمتْ طرب المنغّم إنْ شـــدا — فـأفـادَ وتراً واسـتـعـارَ العُـودا
والكأسُ إذْ تهـوي بهـا لنديمِهـا — حلفتْ فلا تُبقي الرشيدَ رشيدا
فكأنّهـا أهوتْ على سلبِ الفـتى — لُبّـاً وأحـيتْ بالشـمـيم كُـبُـودا
وحلفتُ بالسلسـالِ وهو رضـابُهـا — لا أبتـغي بعـد الرضـابِ ورودا
أ مـبـشـري بالرود بعـد صـدودها — عطفتْ فَـدَعْ عنكَ الفـتـاةَ الرُودا
إنّي لفي شُغلٍ بذي الفضل (الرضا) — حـيّـاً فـأحـيـا للرياض هُمـودا
قَـدْ عبَّ بحـراً سـائراً بنوالهِ — مـثلَ السـفـيـنة ظلُّه ممدودا
ويُقـالُ فُلْكٌ جـاءَ يحـملُ للورى — بحراً (بسيطاً) في العطاءِ (مديدا)
كانَ (الرضا) من حيثُ ليسَ (مُحَمَّد) — و(مُحـمَّدٌ) إذْ لا (رضـا) موجـودا
بحـرٌ تدفّقَ من جـمـيع جـهـاتهِ — علْمـاً وغـيـثـاً ظلّ يمطر جُـودا
فـالناسُ بينَ مُـقلَّدٍ حكمـاً لهُ — ومُـقَلَّد من راحـتـيـه عُـقـودا
ومُـقـبِّلٍ كـفّـاً لديـهِ كـريمـة — كـادتْ بهـا شـفـتـاهُ تُورقُ عُـودا
يسـمـو ذُرى العليـاء لا مـتـأنّفـاً — لبسَ الجـلال مطارفـاً وبرودا
فالحاسدونَ إلى النفيرِ جسومُهم — وقلوبُهم خـفـقـتْ عليـه بنودا
وتظلّ شـاخـصـةً إليـه عـيونُهمْ — فكأنّمـا نسـجتْ عليـه زرودا
فـتـقيـهِ أكـبـدُهم حـرارةَ بأسـهـا — لا حـقـدُهم أذكى عليـه كـبـودا
عفّ النقـيـبـة لا يميلُ به الهـوى — للمـائسـات إذا هَزَزنَ قُـدودا

---

(1) ولد الشيخ علي سنة ١٢٤٠هـ / ١٨٢٥م ، وتُوفي سنة ١٢٩٠هـ / ١٨٧٣م . وذكر الشيخ محمد علي اليعقوبي في البابليات ، ج٢ ، ص٨٤ : أنَّ تاريخ هذه القصيدة هو سنة ١٢٨٧هـ / ١٨٧٠م .

إلاّ لمعـــتنق به نال الفـــتى ... لذُرى المعالي والفخار صُعودا
وتراهُ هَلْ سـمعتْ له أُذنٌ سوى ... ذكـر المكارم والسخاء نشيدا
و(عليُّـهُ) نِعمَ العَليُّ مـهذبٌ ... قَدْ أدركَ الشيب الكرام وليدا
لولا عميمُ الفضلِ وهو شقيقُهُ ... لتراهُ في الأقران ثَمَّ وحيدا
هو والعُلا بمشيمة وُلِدا معاً ... فالتوأمان متى تقولُ فريدا
رويا حديثَ الفضل عنه مسلسلاً ... ولداه ليس ملفَّقاً مردودا
روياهُ عنهُ وهو من (مُوسى) روى ... عن (جعفر) وإذا أردتَ مزيدا
فالكُلُّ يروي عن شريعة (أحمدٍ) ... فكأنَّ (أحمدَ) لم يكنْ مفقودا
فاهنأ بعيشكَ يا زمانُ به للعُلى ... سامي الدعائم لا يزالُ مَشيْدَا
وأبناهُ خلفا الفضل قادمنا عُلا ... بهما فحلِّقَ حيثُ شئتَ صُعودا

وقال الشيخ أحمد قفطان يهنّيه في عرس ولده جناب الشيخ علي[1] (سلّمه اللّه) مؤرخاً عام زواجه في ضمن أبيات ثلاثة في كُلّ بيت تاريخ مستقل ، وهي :

ألا زارتكَ سافرةً لثاما ... (مكارمُ) قَدْ صَبوتَ لها غُلاما
وحيَّتْكَ المفاخرُ ضالعات ... عليكَ جمالهُنَّ فَقُلْ سلاما
وآثارٌ لجعفركَ استجارتْ ... برُكنكَ إذْ رأتْكَ لها عصاما
ومدّت في ذُرى الأرحام لحظاً ... فلمْ يَرَ مَنْ يقومُ لها مقاما
فلم ترَ غير لحظِكَ يا بنَ (موسى) ... حِمىً عن حوزةِ العليا وحَامَا
فألقتْ في يديكَ زمامَ طوعٍ ... كما ألقى لك الدهرُ الزماما
وأولاكَ المُهيمنُ فضلَ علمٍ ... كشفتَ عن الخفيّ به لثاما
فقُمتَ بعون ربِّكَ صادعاً فيّ ... أمانة شرعه حلاً حراما
وأوردتَ العباد هنيَّ جُودٍ ... به الوفَّادُ تحتكمُ احتكاما
فما من مَفْخَرٍ للناسِ إلاَّ ... وكانَ لكَ ابتداءً واختتاما
وإنْ نطقَ الفخارُ بلفظِ مجدٍ ... غدوتَ له من الدنيا مراما

---

(١) هو صاحب «الحصون المنيعة» ، تُوفي سنة ١٣٥٠هـ / ١٩٣١م . وهو والد المؤلف الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء .

سمـوتَ بني أبيكَ عُـلاً وحلمـاً ... ومَنْ يصفح عن السوأى تَسامى
نَعمْ في (صـالـح) وبني أبيـه ... توسّـمنا هُدى وندى قـوامـا
وعلمـاً عن أب شـهم وجَـدٍّ ... وجـدّ أب وعمّ أب (إلى مـا)[1]
كـمـا ببنيك آثارٌ صِـحـاحٌ ... رووها عنكَ مـعنىً لا كـلامـا
ألا فـابشـرْ بـأبنـاء كـرام ... سَمَوْا فشأوا بمجدهمُ الكراما
فـذا منهم (عليٌّ) في عُـلاهُ ... تجاوَزَ ذروةَ الشَعْرَى مـقـامـا
فـتىً نرتاحُ إنْ ذُكِـرتْ عُـلاهُ ... وننشقُ من شـمـائله الخزامى
إذا اسـترفَـدْتَهُ أَو جِئتَ تتلو ... حـديثَ المجدِ فـيـه همى وهاما
و(موسى) ذو اليدِ البيضا أخوهُ ... رقى مِنْ غـاربِ العليـا سَنامـا
فـروعٌ قَـدْ تسـامَتْ من أُصـول ... بلغنَ لغـاية العليـا مـقـامـا
نرى الـفـخـرَ المزيد بهم وإنّا ... رأينا أفـضـلَ الكَرْمِ المُدامـا
أيا بنَ الأكـرمين ومَنْ تسـامى ... فـخـاراً لا أُحـيـطُ به نظامـا
تَهنَّ بعـرسـهـم فـرداً فـفـرداً ... وفي أبنائهم عـامـاً فـعـامـا
ولستُ أخصُّ بالبُـشـرى زمـانـاً ... لعـرس قَـدْ سَـررتَ به الأنامـا
فـأنَّ وجـودَكَ الميـمـونَ فـينا ... رأيناهُ سـروراً مُـسْـتَـدامـا
سـروراً في مَـهـاة ذات خـدر ... أتتْ تختـالُ مُـسْـفـرةً لثـامـا
ومنّتْ بعـدمـا تمَّتْ وشـاةً ... وأروتْ بعـدمـا ردّتْ سـلامـا
رأى منهـا (عليٌّ) شـمسَ حُـسن ... كـمـا أرّخْ : (رأتْ بدراً تمامـا)[2]
تفـرّد باللُمى أرّختُ (لا بَلْ ... سـقاها جامةً وسـقـتْهُ جَامـا)[3]
ومنهـا بعـد عـامينِ عـسى أنْ ... نجيءَ مـؤرخين (يُرى غـلامـا)[4]
ألا يا بن الأُلى شـمـخـوا محـلاً ... فـلا تَلْقَى بهم إلاّ إمـامـا
لك النورُ الجليُّ فـلا نُبـالي ... بمَنْ عن نورك الأسنى تَعـامى
أتتْ تنحـوكَ خـاتمةُ التـهـاني ... فكانَ أريجُـهـا مِـسْكاً خِـتـامـا

---

(١) إلى ما شاء الله «عن نسخة المخطوطة» .
(٢) حساب الجمل يساوي (١٢٩٠هـ) .
(٣) هكذا وردَ في الأصل ، وحساب التاريخ غير دقيق .
(٤) ١٢٩٠هـ .

ودُمْ واسلمْ وعـــشتَ قـــرير عينٍ بفــرْعِكَ دُمتَ مـــسروراً وداما

وله أيضاً يهنّيه ، ويمدحه ويعرّض بأعدائه ، وهي :

قل للذي أمـسى يُطيلُ النَفَـسا واشـتـبـهَ الصُـبحُ عليـه والمَسَا
لا تكتـرثْ في سَـمجِ الطبع إذا رأيتَــهُ مُنْجَــذباً تشـمّســا
منتبـذاً نبـذَ الحَصى عن دَينه يرنو إليــه خــرزاً وأشــوسـا
تراهُ إنْ تـابعــتَــهُ منبــسطاً وإنْ هديتَــهُ الرشـادَ عَـبَّســا
هذا ابنُ (موسى) أمعنِ اللحظَ به فـهـو عـمـيـدُ العُلمـا والرؤسـا
وبضعةٌ منْ (جعفر) مغموسةٌ بريق (مـوسى) لقّبـوها اللّعسـا
سلســالة إن لـم أكن أعـرفـهـا ذوقـاً فـقـد عـرفـتُـهـا تفـرّسا
أروع لا ترعي الخطوبُ مـا رعى ولا تشنُّ غــارة مــا حــرسـا
يفــرَحُ للتــقــبـيل عن أنامل لو قـارعَ الصـخـرَ بهُنَّ أنبـجسَا
أرهف للأغــراضِ مِنْ عـزمتـه أصــمع مــا أنبل إلاّ قــرطســا
إذا رمى غـــائبــــةً بظنّه كـفى يقين غـيـره مـا حـدسـا
قال فأعـدى النُطقَ بالخرس كما حــسَّنَ عند الناطقين الخَـرسـا
وقـامَ يبـغي حـقَّــهُ من العُلى حـتى إذا جـاَز النجـومَ جَلَسـا
مــوقّــر المجلسِ إمَّــا هو في الـ ـدست احتبى أو ركن (ثهلان) رَسَا
أســرَّهُ اللّهُ بفـــتـيـــان بهم مَنْ لم يُعـرّسْ وبهم مَنْ عـرّسـا
فــمن (عليٍّ) وســميٍّ جَـدِّه كُــلا لنور طُورِ فـضل آنســا
وطرّةِّ (عـبـد الحسين) سُـمَّـيتْ كــأنّهــا الصــبحُ إذا تنفّـســا
رشـا ظنيناً سـمـحـاً وجـدتُهُ يبــذل كـفّـاً ويصـونُ ملمـسـا
أحـسنُ أوصـاف الغَـزالِ الخَنَسـا أحـسنُ أوصـاف الغَـزالِ الخَنَسـا
تـراهُ عنّى عـــفّـــة مـــورداً قَـدْ احـتبى فـوق القبـا مـورّسـا
لـو أنّـهُ يـومــــاً إلى (والـده) عليّ في لفــتــتـه تنفّــســا
فـــأنّهُ خـــيـــر أب بَرٍّ بهم وخـيـر مَنْ أعطى الفـقـيرَ المفلسا
لا زال يحـسو للمـعـالي أكـؤسـاً أترعَ مـا فـيـهـا أبوه قَـدْ حـسـا

وقال الشيخ محسن آل خضر (ره) مهنّياً له في زواج إبن أخته الشيخ عبد الحسين نجل الشيخ مُحَمَّد بن الشيخ علي رحمهما الله ، ويمدح أخاه الشيخ محسن بن الشيخ مُحَمَّد (ره) ، وهي :

لك نفسي أيُّها الساقي فدى ولجفنيكَ إذا ما هَوَّما
هاتِها أعذبَ مِنْ قَطرِ النَدى مِنْ لُماكَ العذب يا عَذْبَ اللُّمى

وعلى شرط لبانات الهوى
فأروِ عن (إسحاق) ما يُطفي الجوى
ورعى اللّهُ (هذيما) إذ روى

نبأً عنهُ صحيحاً مُسْنَدا عن هزارِ الأيك لّما نغّما

وعلى الندمان يا حُلوَ الدلالْ
فأحثثِ الكأسَ يميناً وشمالْ
والتي في فيك من خمر حلالْ

لا تَنَلْ غيريَ منها أحسدا إنّها مًا شُرعتْ للنُدَما

وبذاك القدّ فامشِ مَرَحَا
وأزحْ عنّا العَنا والتَرحا
ومن الأبريقِ فاملِ القَدَحا

مِن طِلىً ألطف مِنْ قَطر النَدى أو لُمىً أعذبُ من ماء السما

وانتبذْ بالراح شرقيَّ الفَضَا
نعطف الآتي على ما قدْ مَضى
هاجني لامعُ برق أومضا

فهو كالسيفِ إذا ما جُرِّدا أو كبرقِ الثغرِ لّما ابتسما

قَسَماً بالطرف لّما أنْ سَهَا
فوقَ خدّ فوقَهُ الوردُ زَهَا
إنَّ قلبي عنك يوماً ما سهى

لا ولا هَمَّ بلهوٍ أبدا مللاً لا بَلْ قِلىً أو سأما

حـبّـذا ذيّالك الروض الأنيقْ
فوقَ خدٍّ مثل مُحمَّرِ الشَقيقْ
أم تـراهُ بـدمـي لمَّا أُريـقْ
منه قَدْ ضرَّجَ خدّاً فَغَدا عن دمي المطلول يحكي العَنْدَما

قُمْ من النغمة فاملأ مسمعي
وأعدْ في الحَيِّ مَيْتاً لا يَعي
وإذا كنتَ نديماً لوذعي
دونَكَ الليل فخذْهُ موعدا رُبَّ سرٍّ بسرارٍ كتما

ومن الليلِ ارتقبْ وقتَ السّحرْ
علَّنا نقضي ولو بعضَ الوَطرْ
وقُبيلَ الفجر ما أحلى السّمرْ
سَلْ به القمريَّ لمَّا غرَّدا والصَّبا الغربيّ لمّا نسّما

يا مَهَاةً ملكتْ في دلِّها
أريحيّاً فَرْعُهُ من أصلِها
وبما قَدْ منحتْ منْ وصلِها
سمحتْ رَغْمَاً لآناف العِدى لغُلامٍ (جعفريٍّ) المُنْتَمى

فلكَ البِشر بها (عبدَ الحسينْ)
فلقَدْ نلتَ بها قُرَّةَ عَينْ
ويميناً صادقاً مِنْ دونِ مَينْ
إنَّها من خيرِ أبياتِ الندى بَلْ هي الخيرة من أهلِ الحِمى

يا أبا (المهديّ) بُشراكَ الهنا
فلقَدْ خوّلَكَ اللّهُ المُنى
ولئَنْ لُقّبتَ فينا (مُحْسنا)
فبما طلتَ على الناس يدا طوّقتْ جيدَ المعالي كَرَما

فمتى جيدُ الحَيا في صوبهِ
فهو يُولي قطرةً من سِيْبهِ
وإذا ضَمَّ يدا في جيبه
خرجتْ بيضاءَ تهمي عَسْجَدا دونَها الغيثُ إذا الغيثُ هَمَى

من رجال ورثوا مجدَ الأُلى
عقمتْ مِنْ مثلهم أُمُّ العُلى
ليسَ يبغي الدين فيهم بدلا
فإذا ما اللّهُ بالعزّ بدا أوّل الدين ففيهم خُتَما

مَنْ ترى منهم ترى بحراً خِضَمْ
يلفظُ اللؤلؤَ من موج الكَلِمْ
كُلُّ فردٍ منهمُ الفردُ العَلَمْ
شأنُهُ مرتفع عند الندى وكذاكَ الرفعُ شأنُ (العُلما)

حيثُما مِلْتَ تَجدْ عينَ (الرضا)
مِنْ فتىً في حُكمهِ فَصلُ القَضا
كابنِ (موسى) وابنِ (موسى الرضا)
عامل يرفعُ أعلامَ الهُدى فلذا للدينِ أضحى عَلَما

خازن الأسرارِ عن (كشف الغطا)
وهو العصمةُ مِنْ كُلِّ الخَطا
منهُ كَمْ فاضَ نوالاً وعطا
وابلٌ لو تركَ الناسَ سُدى أصبحتْ وهي وُجودٌ عَدَمَا

فهو عن أهليهِ يروى ما روى
بأشاراتٍ بها الفقهُ انطوى
وعلى منبرهِ لمّا استوى
بثَّ ما بلَّ به منهُ الصّدى والزلالُ العذبُ ريٌّ للظّما

لـيتَ شــعـــري أيُّ مــعنىً أصفُ
مِنْ مــعــانيــهِ التي لا تُوصفُ
حَـسَبٌ فـيـه الورى لو أنصـفـوا
كـأنَّهـا ألقـتْ إليه المِقْـوَدا — لو غـدتْ ترعى لحقٍّ ذِمَـمَـا

وبحـسب المرء لو يكبـو النّصـيبْ
(صالحُ) الفعلِ أبو الفضلِ (حَبيبْ)
مِنْ (عليّ) نَسَـبـاً غـيـر عَـجـيبْ
لو غدا كالحَبرِ (موسى) في النَدى — شيخهـا المولى (أمـين) العُـلـمـا

هُمْ نجـومُ الدينِ أعــلامُ الزَمـنْ
والأدلاّء عـلـى فــرض السُـنَنْ
أخـلـصــوا للّه ســـرّاً وعَـلـنْ
شـيَّـدوا الدينَ فكانوا عَـمَـدا — وبذاكَ الأفـقِ لاحـوا أنْجُـمَـا

لـهُـمُ دامَ الـهـنـا والجـــذلُ
وجـمـيـعـاً بلغـوا مـا أمّلوا
عـشـقـوا العلمَ وفـيـه عـملوا
سـيـرة الساري طريقـاً جـددا — وكـثـير تـارك مـا عـلـمـا

وقال يهنّيه في زواج الشيخ عبد الحسين (سلّمه اللّه) أيضاً ، ويمدح أخاه ، وباقي أهليه ويعدّد مساعي كبراء هذه الطائفة ، جناب السيد الأمجد ، ذو الفضل الذي ليس له حد ، وحيد الكمال الذي ليس له عنه وفيه ثاني ، حضرة السيد موسى الطالقاني[1] .

حيِّ العـذيب وَرَامـة وضـبـاءَها — وانشقْ عـبـيراً لـم يحـز أرجـاءها
نَـشــرَ الربيعُ على رباها حُلَّةَ — حـمراء يفـضحُ وَشيُها خضراءها
وأدرْ كُـؤوسَ الراحِ فـهي لراحـتي — سـببٌ ولستُ بحـامل أعـبـاءها
وعليكَ يا ظبيَ الصـريمةِ وزرَها — فَـلأنتَ أصليتَ القُلوبَ سناءها

(١) ولد سنة ١٢٥٠هـ / ١٨٣٤م ، وتُوفي سنة ١٢٩٨هـ / ١٨٨١م .

مَنْ لي بثغركَ لو ملكتُ رضابهُ ... ما رحتُ أشربُ آثماً صهباءها
حمراء ما جلت الكؤوسُ مدامَها ... إلاّ وأصبحت العقولُ فداءها
فأدرْ شموسَكَ في الكؤوس مُغنّياً ... ومهنّياً بين الورى عليـاءها
في عرسِ مَنْ أضحتْ غواني المجدِ إذْ ... رقصَ الزمانُ به تُجيدُ غناءها
يا بنَ الذين تقدَّموا نحو العُلى ... فتأخّرتْ صيدُ الملوكِ وراءها
هذي الرئاسةُ حيثُ كانَ أبوكمُ ... بَعْلاً لها أصبحتمُ أبناءها
حَبرٌ كضوءِ الشمسِ يشرقُ فضلُهُ ... شَهدتْ عداهُ به وإنْ قد ساءها
مهما ذكرتُ (أبيكمُ) بين الورى ... نُسيَتْ لعُظم أبيكمُ آباءها
(كشفَ الغطاء) عن العلوم وقَدْ رأتْ ... عينُ الشريعةِ في هداهُ ضياءها
فاذهب لمذهبِ (جعفرٍ) فبحُكمه ... تلقى الشريعةُ والعلومُ شفاءها
كم حَقّ مجد قد قضاهُ ، وما مضى ... إلاّ وقدْ ضمنتْ بنوهُ قضاءها
أعلامُ حِلم بَلْ منارُ هداية ... وبحارُ علم عرَّفتْ جُهلاءها
ملكتْ بنائلها البرايا إذ غَدَتْ ... من رقّ مُؤلم فقرها عتقاءها
ضُربتْ على الدنيا سُرادقُ عزِّها ... قدماً وعلّمتِ الأُسودَ إباءها
حتى مضتْ ولها (الرضا) في عُصبة ... بقيتْ أطالَ لنا الألهُ بقاءها
ورثَ المفاخرَ من أبيه وأنّهُ ـ وأبيه ـ مَنْ عَقدتْ عليه لواءها
فأليكَ عن (موسى) فما ألقى العصا ... إلاّ وأبصرَ سُجّداً أُمراءها
سَلْ عنه (كسرى) يومَ جاء و(قيصراً) ... إذْ فَلَّ قاطعُ رأيه آراءها[1]
كم للعلوم بصدره من منهلٍ ... مُذْ ساغَ أوردَ عذبَهُ علماءها
ما طاولتْهُ الراسياتُ بحلمه ... إلاّ وطالَ به فحكٌ سماءها
ولقد تكفَّلَ للمعالي (شبلُهُ) ... فأقامَ مائلَها وأودى داءها
فَلَكَمْ بَدا عن ساعديه مشمّراً ... وغدا يُشيّدُ للعلوم بناءها
ما أتعبتْهُ المكرماتُ لثقلها ... مُذْ قامَ يحملُ ناهضاً أعباءها
سمعاً أبا (المهديّ) مدحةَ مُخلصٍ ... لكمُ أجادَ فخارُكمْ إنشاءها

(١) علّق المؤلف على هذا البيت بقوله : «إشارة إلى ما سبق» . ويعني بهذه الإشارة وساطة الشيخ موسى كاشف الغطاء في الصلح بين العثمانيين والقاجاريين .

يا ليتَ شعري ما أقولُ بمعشرٍ ... أعيا عدادُ صفاتهم شُعراءها
طال الثناءُ ولم أُحطْ بثنائهم ... ولقَدْ قصرتُ ولم أُحطْ إحصاءها
خَلَفٌ عن السّلفِ الذينَ بعزمهم ... ساءتْ وإنْ رضيَ العُلى أعداءها
قَدْ ساعدتك به الزمان أخا العُلى ... إذْ شدَّ أزرك (محسنٌ) ما ساءها
ما سلَّ صارمَ عزمهِ إلاّ انثنتْ ... عن عزمهِ تروي السيوفُ مضاءها
أبداً ولا هطلتْ يداهُ بساحةٍ ... إلاّ وقَدْ نزلَ الربيعُ فناءها
والشّبلُ يحكي الليثَ في وثباتهِ ... والسُحبُ تعرفُ بالربيع سخاءها
ولأنتَ أعرفُ مَنْ عليه يدُ العُلى ... تلوي الخناصرَ إذْ أجابَ نداءها
فافخرْ بجدّكَ أو أبيكَ فلنْ ترى ... وأبيكَ ما بينَ الورى أكفاءها
لم ترفع الأيامُ ذروةَ ماجدٍ ... إلاّ وكانوا شُهْبَهَا وسماءها
يا آلَ (جعفرَ) كم لكم مِنْ (صالح) ... نَشَرتْ عليه يدُ الصلاح لواءها
إنْ كانَ وجهُ الدهرِ (خالُكَ) زانَهُ ... بالخال قَدْ عَشقَ الورى ضَرّاءها
أو تعشق العلياء يا بنَ (مُحَمَّد) ... فأبوكَ مَنْ نَسجَتْ يداهُ رداءها
وأرى (حبيباً) للرئاسة (صالحاً) ... إذْ قامَ فيها خاطباً علياءها
فتراهُ إنْ طرقَ الشريعةَ طارقٌ ... (عبّاسَ) وجهِ أو يُزيلُ عناءها
و(عليّ) قَدْرٍ قَدْ أفاضَ على الورى ... علْماً فجاوزَ قَدرُهُ جوزاءها
ضخم الدّسيعةِ[1] لا ينامُ إذا اشتكتْ ... مُقَلُ المعالي أو يزيلُ قذاءها
فالمسكُ يروي طيبَهُ عَنْ خُلْقهِ ... والأُسدُ تحكي عن أباهُ إماءها
يا آلَ (جعفر) مَنْ يرومُ سواكمُ ... قَدْ ظلَّ يخبطُ نادماً عشواءها
أنّى يرومُ سواكمُ وهُداكمُ ... كالشمسِ يملأُ بالضياءِ فضاءها

ومن اللطائف التي تلحق بهذا الباب ما قاله الشيخ محسن آل خضر متوجّعاً على جار جناب مولانا الشيخ مُحَمَّد رضا (ره) وهو حاج حسون الكردي حين دعاه إلى تشريف داره واستماع قراءة (العزاء)، على سيد الشهداء. وبعد أن امتنع الشيخ رفقاً بجاره ومزيد الألحاح من جاره، الذي سعى في خراب داره، حصلت الأجابة منه لذلك الجار، عملاً بالمأثور الوارد في حقه من الأحاديث والأخبار. إلاّ أنّهُ لمزيد رأفته بجاره قَبِلَ الميسور، ونهاهُ

(١) يُقال للرجل (ضخم الدسيعة) إذا كان قوياً.

عن المعسور، غير أنَّهُ اقترح عليه أمور، أوجبت كسره من الأفلاس. فبادر الشيخ محسن بهذه الأبيات نصيحة للناس، ناظماً للقصة والحكاية، وهي:

معاشرَ الناسِ منْ عُربٍ ومن عَجم ... نصيحةً فاسمعوا نُصحي وتحذيري
لا (تعزموا) الشيخَ إنَّ الشيخ مُقْتَرِحٌ ... لدى (العزيمة) شرطاً غيرَ مقدورِ
سلوا بهِ جارَهُ (الكرديَّ) حينَ أتى ... إليه (يعزمُهُ) في عشر (عاشورِ)
فقالَ من عادتي أنْ لا أُجيبَ لها ... ولستُ في ترك عاداتي بمعذورِ
فلم يَزلْ جارُهُ المسكينُ ملتمساً ... يرجو الأجابة في ذُلٍّ وتحقيرِ
ولا يزالُ لكفّ الشيخ ملتثماً ... والعينُ تجري بدمع غير منزورِ
فقالَ بُشراكَ (نُصٌّ) دارَ في خَلَدي ... وأيّ (نُصٍّ) أتى فيَّ الجار مأثورِ
فلا تُسُؤني بألوان تعدّدها ... تريد في ذاكَ إعزازي وتوقيري
فأنتَ جاري فلا تُسْرِفْ بمأدُبة ... فالجارُ نقبلُ منه كُلَّ ميسورِ
يكفيك سبعُ دجاجاتٍ تقدُّمها ... لا يقبل اللّه تكليفاً بمعسورِ
وعَنْبرُ (البوه)(مَنٌّ) فيه بُلغتُنا ... فاسمعْ تكنْ خيرَ منهيٍّ ومأمورِ
وفي القليل من (السّبزيِّ) لو سَمحتْ ... يُمناكَ كُنتَ لدينا خيرَ مشكورِ
فقالَ أهونُ شيءٍ ما أمرتَ به ... وباتَ ليلتَهُ في قلب مسرورِ
لكنَّهُ جاءهُ رأدُ الضُّحى خَجَلاً ... يُلقي إليه حياءً بالمعاذيرا!
فقالَ: مولايَ طبخٌ ليسَ تُحسنُهُ ... (أهلي) وذاكَ قصورٌ غيرُ تقصيرِ
أجابَهُ الشيخُ في لُطف ومرحمة ... للجار عندي ذِمامٌ غير مخفورِ
فاذهبْ إلى (قَدَم)[1] تكفيكَ كُلْفَتَهُ ... فأنها ذاتَ معقولٍ وتدبيرِ
ومُذْ أتى (قَدَماً) يسعى على قَدم ... هشَّتْ وبشَّتْ وأبدتْ بشرَ محبورِ
قالتْ لهُ هاتَ منْ (سَمْن) ومنْ (بَصلٍ) ... (منّين) (منّين) وابشرْ في تدابيري
وهكذا حامض (النُوميِّ) مثلهما ... فاحفظْ وإيّاكَ أنْ تَنْسى مقاديري
و(الملحُ) خمسةُ (وَزْنات) تقومُ به ... إذْ لم أكنْ ذاتَ إسراف وتبذيرِ
وفي (الطغارات) ممّا جفَّ منْ حَطَبٍ ... قَدْ نَجْتَزي بعدَ تقنيطٍ وتقتيرِ

---

(١) (قدم) هذه من جواري الشيخ، وهي إلى الآن في دار الدنيا، ولها من العُمر مائة سنة، وهي (باكرٌ) لم يفتضّها أحدٌ، عابدة زاهدة. «تعليقة المؤلف».

و(الماءُ) ستونَ (حملاً) فيهِ تسويةٌ ... للأمر من دون إجحافٍ وتكثيرِ
واتبع ثلاثة (أرطال) يطيب بها ... طعامُنا من عطوراتِ (العطاطيرِ)
هذا هو القدر الكافي لحاجتنا ... يا خيرَ جارٍ لنا من جانب (السُورِ)
فلم يَزلْ جارُها المغرورُ ممتثلاً ... ورُبَّ جارٍ ببيتِ الشيخ مغرورِ
ومُذْ قضى جارُها المسكينُ حاجتَها ... عاث الخرَّابُ ببيت منه معمورِ
وباعَ ذاكَ (المكاري) الغِرُّ (بغلتَهُ) ... ولا أراهُ على فعلٍ بمأجورِ
وأحرزَ الشيخُ مما كانَ يلزمُهُ ... مؤونةَ العام رزقاً غيرِ منزورِ
وقامَ ثمَّةَ (للسودان) مُعْتَرِكٌ ... على (الحكاكة) مِنْ حول (التنانيرِ)
وعندها (فضّةٌ) صالتْ على (قَدَم) ... حتى علتْ رأسَها ضرباً (بكفكيرِ)
واستعرضتْ (قَدَمٌ) في ظهرِ (طاوتها) ... وجهاً (لفضّةَ) حتى عادَ (كالقيرِ)
هناكَ (تفاحةٌ) شجّتْ (براطمَها) ... فأعولتْ جَزَعاً إعوالَ خنزيرِ
و(طنقرتْ) خيزرانٌ غبَّ عولتها ... كأنَّها بغلةٌ صاحتْ (ببياخورِ)
وحينَ قامتْ على ساق عويصتهُم ... شبهَ (السخال) وأمثال (السنانيرِ)
شبّتْ لظى الحرب بين الأم وابنتها ... ضَرْباً على الهام أو فوقَ (المناخيرِ)
فاللّهُ اللّهُ كَمْ (للصفْرِ) من زَجَلٍ ... كما تَمرُّ على سوق (الصفافيرِ)
فتلكَ (بالطُوسِ) صكّتْ هامَ جارتها ... وتلكَ تضربُ في كاساتِ (فرفوري)
وهذه تتحرَّاها (بميجنة) ... وتلك تشتدُّ في محراثِ (تنُّورِ)
فلا ترى قَطُّ إبريقاً ومصخنةً ... و(أنقريًّا) و(صحناً) غيرَ مكسورِ
رُضَّتْ جميعُ أوانيهم فما تركوا ... على الرفوف ولا (مشقابِ) بلّورِ
لهفي على كسرِ البلّور حينَ غدتْ ... كلؤلؤ فوقَ وجه الأرضِ منثورِ
تشعُّ في غَسَقِ الظلماء ناصعةً ... فينجلي بسناها كُلُّ ديجورِ
ومُذْ أتى (الشيخُ) يسعى بالعصا مَرِحاً ... كما سعى قبلَه (موسى) إلى الطُورِ
رأى نجوماً بصحن الدار قَدْ نُثِرت ... فقالَ جلّ جلالُ العالم النّوري
إنَّ السما اتحفتْ داري بزينتها ... وما درى ذاكَ رضراضُ القواريرِ
فزَمْجرَ (الشيخُ) إذْ قامتْ قيامتُهُ ... بصيحةٍ أوهمتنا نفخةَ الصُّورِ
(فقامَ يجمعُ شملاً غير مجتمعٍ ... منها ، ويُجبرُ كسراً غير مجبورِ)

فما انقضى الليلُ إلاّ أصبحتْ (قَدَمٌ) آذانُهـا نـهبَ أطراف المسـامـيـرِ
وذاكَ لا شكَّ مما قَـدْ جَنَتْ يدَها عَـدْواً على الجار بالبُـهتـانِ والزُور
وكانَ عاقـبةَ (السوداء) عاقـبةً الـ ـقوم الذين أساؤا السوء (بالقيرِ)
وحيثُ كـانتْ من المُولى بذاكَ يدٌ سَـمَتْ جـمـيع أوانيـه بتكسـيرِ
فقُلْ لحافرِ تلك (البير) مقتنصا لقـد وقعتَ بهـا يا حـافرَ (البيرِ)

وكتب إليه الشيخ إبراهيم العاملي إبن الشيخ صادق (رحمهما اللّه تعالى) من جبل عامل يتشوّق إليه بقصيدة ، وهي :

إليكمُ نفـثـةُ صَبٍّ مـا سـلا على النوى عـهـدَكُمُ ومـا قَلَى
وهاكمُ جـذوةَ صـدر قَـبَسـتْ من جـمـر أحشـاءِ المُعنّى شُـعَـلا
أحـبـتي مـا بِنْتُ عن ربعكُمُ مـتـخـذاً في الناس عنكم بَدَلا
كلاً ولا ارتضيتُ لي سوى الحِمى لا والحـمى وسـاكنيـه منزلا
وبالرضـا لا والرضـا لم أبغِ عنْ دار بهـا حلَّ (الرضـا) تحـوّلا
وإنَّمـا طوَّحَ بي عن أرضكم أمـرٌ سـقـاني المُرَّ صَـاباً حنظلا
وسـاقني للجبل الأقـصى ومِنْ جِـبِلَّتي ألا أودَّ الجَـبـلا
فـهـا أنا أطوي جـوانحي على نار جـوىً وطيسُـهـا لا يُصطلى
لا غُللي تُجَـفّفُ الدمعَ ولا منهـمـرُ الدمع يُطفّي الغُللا
وكـيف تُطْفَى غللُ الصَّب الذي أمـسى بأصـفـادِ النوى مُـغلّلا
يا جيـرةَ (المَثـوى) الذي أَجـازَهُ مـعـقلُ نُجبِ الأنجبين النُبـلا
لئَنْ بـرحتُ عنكمُ فـأنتُمُ بين ضلوعي مـا بَرَحْـتُم نُزلا
أو شطَّ جسمي عنكمُ فمهجتي لـديكم لـم تبغ عنكم حِـوَلا
وإنْ عـقلتُ بسوى حـمـاكمُ رواحلي مـا كنتُ مِمَّنْ عَـقَلا
قَـدْ كنتُ أرضى مَعْ جواري لكمُ بأنْ أُرى مخفوضَ قَـدْرٍ مُهْمَلا
فكيفَ بي والحـالُ قَـدْ أحلَّنا جـواركم أرفعُ غـاياتِ العُلى
وعـامل وإنْ بهـا حظي عَـلا أعـدُّها (عـاملَ) خـفض (كَعَلى)
أسكنُ بالشـامِ ، ومَنْ واليـتُـهُم بالنجف الأعلى و(طفٍّ) كـربلا

وأرتضي بعــــد ولائي لهمُ بُعداً إذا كُذِّبتُ في دعوى الولا
فيا لها مصيبةٌ تُوجبُ أنْ أُكْثِرَ مِنْ قَولِيَ (لا حولَ ولا)
هذا وإنْ أصبحتُ ممنوع التي بحمل أثقال العنا مُوكَّلا
فلي أسىً مهما عراني مِنْ أسىً بخيرة الخالقِ مِنْ هذا الملا
أئمتي وسادتي وقادتي إلى النجاة آخراً وأوَّلا
فأنَّهُمْ هُمْ لا سِواهمْ جُرِّعُوا مِنْ مضضِ الأيام كأساً ما حلا
بلى ، وهُمْ قَدْ أُخرجوا من دارهم وأُنزلوا في دار (كَرب وبَلا)
جلّتْ رزاياهم وللحشر غَدتْ تضربُ أهلُ الأرضِ فيها المَثَلا
كم من دمٍ زاكٍ لهم محترم أصبحَ في (مُحرّمٍ) محلّلا

وتُوفيَ له في بغداد ولد اسمه (جعفر) فكتب له عبد الباقي[1] يعزّيه ، (ولكن تخيّل أنَّهُ ولده الشيخ موسى وكان أيضاً صغيراً) ، فقال :

إنْ كانَ (موسى) بنُ (الرضا) قَدْ قَضى نَحْباً وعن دار الفنا قُوِّضا
فذاكَ شبلٌ عن عرينِ الفنا عُوِّضَ عن دار الفنا مَرْبَضَا
فَقُلْ لِمَنْ راحوا يعزّونَهُ فيمَنْ مضى كالبرق إذْ أوْمَضا
وما دروا أنَّ الذي مثلهُ منْ أمرِه للّه قَدْ فوَّضا
وبالقضا ذاكَ (الرضا) دأبُهُ كيفَ يعزُّونَ (الرضا) بالقَضَا
وإنْ يكنْ ممَنْ يُعزّى به كنتُ له أوّلَ مَنْ حرَّضا
لكنني أعرفُ مِنْ صبرهِ ما فيهِ ثغرُ الدهرِ قَدْ أجرضا

ترجمة الشيخ محمد رضا في «يتيمة الدهر»

وقال السيد في (يتيمته) : «ونحمدك يا من تفضّل علينا وعلى جيلنا بمن ملك زمام الفتوة والقضا ، شيخنا الشيخ مُحَمَّد رضا ، بحر العلم الذي لم نقف له على ساحل ، والسبوح له ومنها عليها دلائل ، وقَدْ نشأنا عليه في (النجف) وهو متردٍّ بأردية الجلال ،

---

(١) هو شاعر العراق في عصره عبد الباقي العُمري المُتوفى سنة ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م .

ولم تكن يومئذ عندنا (درّاكة) نميّز بها مبلغ الرجال من العلم ، ثم كنا نجده رئيساً هماماً مقداماً ورعاً تقياً نقياً مهذباً يلهج بذكر اللّه دائماً ، له موقع في قلوب الناس ، صدراً في جميع المحافل ، علماً مقدماً على جُلّ العلماء الأفاضل ، والفقهاء الأماثل ، مطاع الأمر والنهي . ممّنْ حل النجف . إذا عدّت الفقهاء كان أوّلهم ، وإذا ذُكرت الأجلاّء كان رئيسهم وأجلّهم . ذو حلّ وعقد تأوي الناس إليه في المهمات ، وتعتمده في الملمّات ، فيجلو غياهبها ، ويقضي مآربها . فكم من كبير في الناس أطرق منخفضاً لرفعته ، وكم من عليّ تدانى منحطاً لرتبته ، وكان ذا رسم وإسم بوجود عمّه محسن بن جعفر وابن عمّه مُحَمَّد بن عليّ مع أنَّهُ ليس من القواعد العرفية فيه أن يكون له ذلك بوجودهما لأنَّهُ أصغر منهما سناً ولأنَّ بروزه بوجودهما خلاف ما عليه ترتيب هذه (الطائفة) من الجلوس بمناصب القضاء والفتوى مرتّبين ، فما ظهوره إلاّ لكونه مقابلاً لهما فيما جاؤا . ولم يزل مأوى لكل قبيلة حتى كانت الفتنة المعروفة بين الفرقتين في النجف ، فأراد الأصلاح بينهما على حسب مرامه فلم يكن ، فانكمد من ذلك واختار السكنى في بلاد الكاظمين (ع) ودار السلام (بغداد) مدة شهور وأعوام .

ولما مضينا إليهما بعض الأيام وجدناه مستقلاً بنفسه سلطاناً في مَنْ حلّ البلدين ، مُقَلّداً لكثير من أهل الجانبين ، مأوى المترددين من كُلّ واد . ولم تزل أبناء الملوك من عرب وعجم تتردّد إليه ، وتفد بمنازلها إليه ، حتى قَدِمَ الوالد إلى بغداد فالتمسه هو وجملة من أجلاء كربلاء على العدول عن سكنى البلدين والسكنى في (نينوى) ، فأجاب إلتماسهم وورد فسكن مدة مديدة فيها ونحن نشهده . ثم وقَدْ صارت له كمال المرغوبيّة فيها أيضاً زيادة على البلدين المُشار إليهما من نفوذ الحكم والكلمة والأسم ، والرسم حتى غدا آمراً بالمعروف ناهياً عن المنكر يجلس صبحاً وعصراً ويجدّ فيما بين الأثنين بتحصيل العلم متوسّماً برغبة إليه ، ولكن إلى الآن لم تقدم الأيام عليه ، فعسى أن يمدّه اللّه بالتوفيق لنيل أقصى مدارج أهليه ، ولِمْ لا وقد جمع صفتي الجلالة والعلم في ذاتهِ ، وراحت تزري بالكواكب الدُرِّية دراري صفاته ، ولعمري هو حقيق بأن تثنى له الوسادة ، ويحيي بتدريس العلم آباءه وأجداده ، وهو مشغول بالتأليف ولكنْ لقلة المشتغلين في (نينوى) لم يجد للحضور عنده أرباب فيملي عليهم ما يصل إليه فكره من كتاب ، ويؤدي إليه اجتهاده من صواب .

والكلام يتم من فيه جهات :

الأولى : في علمه ، أنَّهُ في نهاية الجدّ في العلم ليلاً ونهاراً ويؤلف به سراً وجهاراً وله

به مؤلفات لم تبرز إلى الخارج لعدم مساعدة الوقت له .

الثانية : في ورعه ، وقَدْ علمت أنَّهُ يلهج دائماً بذكر اللّه ويواظب على الصلوات الخمس بأوقاتها وجميع نوافلها ، وله أوراد كُلّ يوم أقلّها عمل (عاشورا) .

الثالثة : في ذكائه ، ولم أر ذكياً فطناً في رجال العصر في الأصولين والفقه مثله .

الرابعة : في عزته وجلاله ، ولم أجد أعزّ منه طبعاً وأحسن صنعاً وأزكى أخلاقاً وأحلى شمائلاً وأعراقاً ولا آنف عن تحمّل المنن لأبناء الزمن ، ففيه شطر من نعوت أبيه ، بَلْ كلّ ما فيه فيه ، ولكن تغيّر الزمان بتغير أهليه ، أوجب الفرق والمزيد لأبيه .

الخامسة : أنَّهُ جمع أضداد الصفات ، صغر النفس والكبرياء ، لا يتكبر ، والعظمة لا لتعظيم النفس بَلْ لعظم ذاتي ، والتصاغر لا لصغر ، زيادة على الفقه والعلم والورع والحلم وغيرها من الصفات الفائقة المتضادة المتوافقة .

السادسة : أن له ما بين جنبيه همّة يطاول بها السماكين والفرقدين لم أجدها بين جنبي أحد في البين ، لم يزل يطاول بها العلماء الأساطين ، يوسع بها على فقراء زمانه والمحتاجين ، في أوانه ، ويفي ديون المديونين ، ويرفع مظالم العاثرين ، ويفك المسجونين ، ويحقّر بها المتجبر الكبير ، ويكبّر بها الحقير ، ويُنْجد البائس الفقير ، ويجلس فوق عرش القضاء ، والسرير ، ويشيد بها أركان الدين ، ويهدي الضال إلى منهاج الحق المبين . فكم من خصومات قطعها ، وحججٍ دفعها ، وشرعة جود شرعها ، حاكم شرع بفضله وحاكم جور بعدله .

السابعة : أنَّهُ نجيب الطرفين إما بتصاعد الأنساب فيرتفع لموسى بن جعفر ، وإما بنازلها فذو طائفة كبيرة غطارف غرر من آل (هاشم) علويين معلومين الأسم والرسم ، لدى كُلّ ناثر وناظم» .

إنتهى ما انتخبناه من ترجمة (السيد) لجدّنا الأكرم ، وهي طويلة على أنَّهُ لم يُدرِك تمام أيامه ، بَلْ تُوفيَ قبل مجيء الشيخ إلى النجف[1] وانتهاء الأمر إليه ، وعكوف همم طلاب العرب وعوامها عليه .

---

(١) تُوفي السيد محمد علي العاملي صاحب كتاب «اليتيمة» في سنة ١٢٩٠هـ/ ١٨٧٣م ، وتُوفي الشيخ محمد رضا كاشف الغطاء سنة ١٢٩٧هـ/ ١٨٨٠م .

وفاته ومراثيه

وقَدْ عرفت أن الشيخ بعد وفاة ابن عمه الشيخ مهدي انتقل إلى مسند آبائه الكرام، وجدد ما كاد أن يندرس لولاه من تلك الأعلام، وصار يدرّس بمدرسة آبائه وأجداده فتستفيد جماعة من الفضلاء منه، وتحظى بطارفه وتلاده، وقَدْ ذكرنا لك بعضهم. وجعل يقيم الجماعة في الصحن الشريف، فتجتمع خلفه الصفوف بالألوف. إلى أن دعاه الله إلى رحمته فأجابه، وأختار الفوز لديه جزل ثوابه. فأقيمت مجالس العزاء، ونصبت المآتم في جميع الأنحاء، فلم يكن في الأرض مكان للشيعة إلاّ نصب له فيه مأتم كطهران، وخراسان، وإصفهان، وسامراء، وبغداد، وكربلاء، والحلة، والنجف، وغيرها من الأماكن.

وكان (ره) في أيام حياته مواظباً على عمل عاشوراء، فرآه بعض الأتقياء الثقات في المنام وهو جالس في رياض تجري خلالها الأنهار، وعلى أحسن هيئة واعتبار فقال له: يا مولانا مَنْ أعطاك هذا المكان؟ فقال: عاشوراء، أنظر، فنظرت إلى كومة فحم إلى جنبه، فقال: هذه ذنوبي كانت جمراً فأطفأتها (عاشوراء).

فلما قضى من حق العُلى واجبه، وشيّد دعائم المجد وأعلى مناكبه، واصطفاه اللّه واختاره، وأحبّ لقاه وجواره، فدعاه فجأة إليه، فبادر بالأجابة وعجّل بالمثول بين يديه. وكان قَدْ خرج إلى قرية من قرى الحلة تسمى (البُصَيْرَة)، وهي من هدايا داود پاشا إلى أبيه (قدس سره)، وانتقلت إليه بعده، فاشتكى فيها عصراً، وقضى فجراً، وجيء بجنازته الشريفة إلى النجف في اليوم الخامس والعشرين من شهر رجب المبارك سنة ١٢٩٦ مع (سواد) لا يُحصي عددهم إلاّ اللّه. فماجت الناس بعضها في بعض، وخرجت جميع الناس لاستقباله على أميال، ونُصِبتْ له مجالس العزاء في أغلب المحالّ، وأُنشدت المراثي والنشائد، في أغلب المحافل والمحاشد.

فمن ذلك ما قاله الشيخ مُحَمَّد سعيد الأسكافي المتقدم يعزّي ابني عمّه الشيخ حبيب[1] (ره) والشيخ عباس (ره) وكانا هما المرجع بعده، ويمدح الشيخ محسن ابن أخته وأولاده؛ الشيخ علي والشيخ موسى، وهي[2]:

قبّةُ المجدِ مَنْ أمالَ بناها　　والمعالي مَنْ هدَّ سامي ذُراها

(١) الشيخ حبيب بن الشيخ علي بن الشيخ جعفر الكبير، تُوفيَ سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٨٩م.

(٢) ذكر الخاقاني هذه القصيدة في ترجمة محمد سعيد الأسكافي محوّرة في رثاء السيد علي بحر العلوم. (شعراء الغري، ج٩، ص١٤٣).

ومَنْ ابتزَّ شرعةَ الدين كهفاً ... طالما عزّ في حماه حماها
عَجَباً للحمام كيفَ ترقّى ... ذروةً للأباء عَزَّ ارتقاها
عَجَباً للمنونِ يومَ تخطّتْ ... كيفَ غالتْ أُسدَ الشرَى في شراها
أوَ تدري لأي حَبر هُمام ... قَدْ أراشتْ سهامَها كفّاها
رَشَقتْ مُهجةَ المنون فأصْمَتْ ... من سويدائها صميم حَشاها
بابنِ (موسى) بنِ (جعفر) مُذْ ألمّتْ ... فجعتْ آل (جعفر) برضاها
غاضَ منها برغمها أيُّ بحرٍ ... تستمدُّ البحورُ منه رواها
غارَ منها تحت الثرى أيُّ بدرٍ ... كيفَ وارتْهُ في الثرى بوغاها
خرَّ من شاهق العُلى أيُّ طودٍ ... هو بالشُمّ ـ إنْ يُقَسْ ـ أرساها
أوَ يدري ناعيه يومَ نعاهُ ... أيَّ نفسٍ للمكرماتِ نعاها
قَدْ نعى نفسَ سؤددٍ وإباءٍ ... ليسَ ترضى سوى الأباء رداها
لم تزوّد سوى التُقى ولعمري ... أنْفَسُ الزادِ للنفوسِ تُقاها
فجعةٌ عمت الأنامَ فساوى ... في شجاها أقصى الورى أدناها
ثُلمتْ في الأسلام يوم ألمّتْ ... ثلمةٌ ليس يلتقي طرفاها
فعزاءٌ لنكبة عزَّ فيها ... صبرُنا حيثُ جلَّ فينا عزاها
بالبهاليل آل (جعفرَ) مَنْ قَدْ ... أشرقتْ للعلوم فيهم سماها
(بحبيبِ) العلوم مَنْ شغفتْ في ... حُبِّه صبوةً فكانَ فتاها
فَلَكَمْ للعلوم من مشكلات ... حلَّ إشكالَها لنا فَجَلاها
وَرِعٌ لم تَقُدْهُ أمارَّةُ النفس ... للَهو وقَدْ نهاهُ نُهاها
وخليق ما نفحةُ المسك أزكى ... مِنْ شذًا خُلْقه بطيب شذاها
وأخوه أخو المعالي أبو الفَضل ... ومَنْ فاقَ في الورى فُضَلاها
فَلَكَمْ مِنْ (سرائرِ) الفقه أبدى ... غامضاتِ الأسرار بعد خفاها
ولَكَمْ من مناهلٍ مترعات ... رَقَّ سلسالُها وراقَ صفاها
بينما (المُحسنُ) الّذي طبّقَ الكونَ ... سجايا محاسن لا تُضاهى
وأخو عَزْمَة متى ما تُقسها ... بالمواضي وجدتَها أمضاها
فعزاءً بني (عليٍّ) عزاءً ... عن فقيد عينَ العُلى أدماها

ببنيه التي اقتفتْهُ سداداً ... وبنو المجد تقتفي آباها
(فعليٌّ) عميدُها في المعالي ... وعليه العلوم رفَّ لواها
كم لوَقّاد ذهنه من مصابيح ... علوم شعَّ إتّقادُ سناها
ولَكَمْ زانَ أُفقَها بدرار ... كالدّراري شعّت بأفُقِ سماها
وأخوه (موسى) كليمُ علومٍ ... قربتْهُ منها بوادي طواها
في سماء العلوم كم أشرقتْ منه ... شُموسٌ كالشمسِ رأد ضحاها
ولَكَمْ زانَ أفقها حكَماً غرّاءَ ... تعشو بنورها حُكماها
توأما سؤدد شريكا عنان ... أحرزا في العلوم سبقَ مداها
مَنْ ترى منهما تراهُ هُماماً ... ثاقب الزندِ ناسكاً أوّاها
وأخا راحة ترى لُجّة البحر ... لديها كقطرة مِنْ نداها
كم أرى الوفدَ جودُ يُمناهُ يُمْناً ... وبيسراهُ كم رأتْ يُسْراها
و(لعبد الحُسين) ربِّ المعالي ... مأثراتٌ لم يُسْتَطَعْ إحصاها
ذو حِجىً فاقَ فيه وهو صبيٌّ ... ضيّعتْ عندَهُ الكهولُ حجاها
أسرة للعلوم أنشأها اللّهُ ... وللحُكم مُذْ براها براها
وأُباةٌ كالأُسدِ يومَ إباءٍ ... من ترى يَجحدُ الأسود إباها
لا تُقسْ مجدَهم بمجدِ سواهم ... ضلَّ مَنْ قاسَ بالثُريّا ثراها
وإذا اعتاصت العلوم ففيهم ... عَنْ رُموز العلوم (كشف غطاها)
بكمُ آلَ (جعفر) تتأسّى الناسُ ... إنْ عزَّ في الخُطوبِ أساها
إنَّ عهدي بكم رواسي حلوم ... لم تملها الخطوبُ في نكباها
لا برحتم (جَحَاجحاً) يتأسّى ... بحجاها هذا الورى ونُهاها
وسقى مرقد الرضا نوءُ سُحْبٍ ... بالرضا يُسْتَهلُّ وكفُ حَياها

وقال المرحوم المبرور، حسنة الأعوام والدهور، عديم النضير والمثيل، السيد السند الحاج سيد إسماعيل[1]، ابن عمّ حجة الأسلام الحاج سيد مُحَمَّد حسن الشيرازي[2] رحمهما

---

(١) السيد اسماعيل الشيرازي ولد سنة ١٢٥٨هـ/ ١٨٤٢م، وتُوفي سنة ١٣٠٤هـ/ ١٨٨٧م، وهو والد المرجع الكبير السيد عبد الهادي الشيرازي المُتوفى سنة ١٣٨٢هـ/ ١٩٦٢م.

(٢) تُوفي السيد محمد حسن الشيرازي سنة ١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م، ويُلقَّبُ بالمُجدد الشيرازي وقَدْ إقترنَ اسمُهُ بثورة (التنباك) التي حدثت في ايران قبل وفاته بعامين تقريباً.

اللّه ، يرثي الشيخ المرحوم ويعزّي ولده الشيخ موسى (ره) ، وكانت له مودة أكيدة وصحبة شديدة معه ، وكانا جميعاً في (سُرَّ مَنْ رأى) ، وهي :

أراكَ غـزيرَ الدمع قَـدْ مـسَّكَ الضُـرُّ ... ومـا فـيكَ للسلوان نَهيٌ ولا أمـرُ
فَـهَلْ شغـفـتكَ الغـانيـاتُ بحُبِّـهـا ... فبانتْ وفي أحشاك من بينِها جمرُ
أم الدهر لا حَلَّ الهنا في ربوعــه ... أصابكَ في غدر وشيـمـتُـهُ الغَدرُ
بفــادحــة لا يُمْلَكُ الدَمعُ عندها ... ونازلة لا يُستطاعُ لهــا صـبـرُ
وداهيــة حلَّتْ فـجلَّتْ عن العَـزا ... وحـادثة للحشـرِ مِنْ رُزئِهـا نَشـرُ
ألمْ تدرِ مــاذا قَـدْ أصـبتَ غُـوايةً ... أصـبتَ فـؤادَ المجـدِ ويحكَ يا دهرُ
وأغمدتَ سيفاً كانَ في اللّه شاهراً ... وأنفـذتَ بحـراً في أناملهِ عـشـرُ
وأثلمتَ للدينِ الحنيـفـيِّ ثلمـةً ... وأحدثتَ كَسْراً ليس يُرجى له جَبرُ
وألحدتَ بدراً في التُرابِ ولم أكنْ ... أرى قبلَ هذا اليوم أنْ يُلحدَ البدرُ
فليستْ عيـونُ المكرمـات قـريرةً ... ولا في مُحيًّا الجُود من بعدهِ بِشْرُ
ولولا التــسلّي بعــدَهُ بسليله ... حليفِ التُقى (موسى) لَمَا انشرحَ الصَدرُ
فـتىً لم يُعـرِّقْ فـيـه إلاّ أكـارمٌ ... سَمَوا فَكَبا من دون عليـاهمُ الفكرُ
بني (جـعـفـر) آباء كُلٍّ فضـيلة ... هو الفَلَكُ السّـامي وهم أنجمٌ زُهرُ
إذا كـان بالعليـاء فَـخْـرٌ لذي عُـلاً ... لَعَمْري بهم يومَ الفخار لنا الفخرُ
فَصَبْراً أبا (عمران) في فَجْعَةٍ بها ... تأسّتْ بك العليـا وشـاطرَكَ الدهرُ
فعشتَ شغوفَ القلبِ لا بكَ فجعةٌ ... ودُمتَ قـرير الدين طالَ لكَ العُـمـرُ

وقال الشيخ علي عوض[1] يرثيه ويعزّي العلامة السيد مهدي القزويني وقَدْ جلس للعزاء ، له في الحلة الفيحاء ، وهي :

أرأيتَ كـيـفَ تَحـامَلُ الأقــدارِ ... طرقتْ سـوافرَ والسيـوفُ عـوارِ
نزلـتْ بليثِ المجِـد ثم عـدمنه ... وشـبـولُ ليثَ المكرمـات ضـوارِ
(هجمتْ) على (موسى) بن (جعفر) بيتَهُ ... وذَهبنَ عنهُ (بالرضـا) المُخـتـارِ
لو أنصفَ (النجفُ) المشرَّفُ مجدَهُ ... لَمَشَى على مَهَلٍ بغيـر عـثـارِ

(١) وُلد الشيخ علي عوض الحلّي سنة ١٢٥٣هـ / ١٨٣٧م ، وتُوفي سنة ١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م .

ومَحَا بفضل أبي (عليّ) وبأسه سُدفَ العَمى وفوادحَ الأخطارِ
بُمصرّف عُمراً بدفع شدائد أَلْفَتْهُ أصيدَ في حِجى أبرارِ
بعُلى الذين تصرّفتْ أعمارُهم بعُلى الرئاسةِ في تُقى أحبارِ
السالبين الدهر سطوةَ جائرٍ والمانعينَ الدين بغي ممارِ
واللامعينَ على الزمان بأوجُهٍ هطلتْ بهُنَّ سواجمُ الأمطارِ
يا بنَ الذينَ بهم تبلّجت العُلى والدينُ أشرقَ عن سنا أقمارِ
للّه شأنُكَ لو يساعفُهُ القضَا بوصالِ رَحْم أوبطاعةِ جارِ
لَمَضى بكَ الأسلام أبلجَ واضحاً وزهتْ بنا الأيامُ فُسحَةَ دارِ
كُنتَ اللسان إذا تلعثمَ مُصْقعٌ وسنا الزمانِ دَجَى بخبوةِ وارِ
وزعيم كُلِّ عظيمةٍ فرّاجها بشُعاعِ فَهم أو جلال وقارِ
قَدْ كنتُ آملُ أنْ تشعَّ مدائحي بذكاك عند تشعّبِ الأخبارِ
وأجولُ في ميدان فضلك مُعْتَقاً إنْ رحتُ معتمداً على الأحرارِ
فلَشَدّما انقلبَ المديحُ مراثياً ومضتْ عليكَ صوارخاً أشعاري
يا مُشكلَ الحسنات فاجأكَ الردى متستّراً أبقى بلا إنذارِ
لو أمَّ ربعَكَ بالوعيدِ رسولُهُ لَدفعتَ مُعْضِلَهُ بآل (نزار)
ببني (معزّ الدين)[1] يندفعُ البلا وبهم تطولُ قصيرةُ الأعمارِ
وبنُسْكِهم وَرَعاً وفضلِ صلاحِهمْ نزلَ الحَيا، وخَبَا القضاءُ الجاري

وقال بعض شعراء الحلة يرثيه، ويعزّي السيد المتقدم (ره)، وهي طويلة، ومنها:

يشَبُّ بكُلِّ جانحةٍ ضِرَاما مُصابٌ هدَّ للعليا دَعَاما
وأبكى الأنبياءَ به جميعاً فلا عَجبٌ إذا أبكى الأناما
فهَلْ علمتْ يمينُ الدهر فيها على العُضْبِ الحُسام نَضَتْ حُساما
ووارتْ في اللحود ذُكاءَ[2] علمٍ سناها لم يَزَلْ يجلو الظَلاما
فَخِيلَ اللحدُ كانَ لها سماءً وخِيلَ الأفقُ قَدْ كانَ الرُغاما

(١) معز الدين: لقب السيد مهدي القزويني.
(٢) ذُكاء: الشمس.

فَقُلْ للمُرْمَلين فقدتِ غَيْثاً ... له انتجعَ الأراملُ واليَتامى
رفيعٌ لا يُحدُّ عُلاهُ مهما ... عليه حائرُ الأوهام حاما
سرى نعشُ (الرضا) فظننتُ فيهِ ... هِزَبْرَ الغاب يُحْمَلُ أو (شماما)
فأدمي الخدَّ يا أُمَّ المعالي ... ويا عبراتها انسجمي انسجاما

ولضعفها أعرَضنا عنها .

وقال الشيخ محسن آل الشيخ خضر رحمهما اللّه يرثيه ، ويعزّي الشيخ محسن ابن أخيه ، وباقي ذويه وأهليه ، وهي :

فَدَحَتْكَ من أحدى الكبائرْ ... بمقلّة عدَدَ الأكابرْ
سوداءُ لا يجلو الشهابُ ... سرارَها إنْ جنَّ عاكرْ
ومروعة تنعى ومِنْ ... نفثاتها كالنار ثائرْ
وَقْعاً لِهول مُصابها ... روحٌ تُردِّد في الحناجرْ
والى المقابر تنثني ... فتثيرُ أفنية المقابرْ
وتصكُّ جبهتها أسىً ... بصفيح أرسمها الدوائرْ
يفرى المرائرَ شجوُها ... والشجوُ ما يفري المرائرْ
ولها سوافحُ عَبْرَة ... كالجمرِ مِنْ فوق المحاجرْ
تنعى ابنَ (موسى) لا الكليم ... بَلْ ابن (جعفرَ) والمفاخرْ
فَلْتَلْقَ مِنْ تيجانها ... صيدُ الأكاسرِ والقَياصرْ
أَ منيعَ ضيم الجار كيفَ ... عليكَ صرف الدهر جائرْ
أَ ضياءَ عين المجد ... بعدَكَ طرفُهُ أقذاذُ عَاثرْ
فإذا بكاكَ فأنّما ... إنسانَها تبكي النَواظرْ
وأَمَا وعزِّ عُلاك إذْ ... كانتْ لهُ تعنو الجبابرْ
لو كانَ غيرُ اللّه ما ... أضرعتَ خدّك طوعَ آمرْ
لكنَّما حَتَمَ القضاء ... وحانَ ترحالُ المسافرْ
رعباً لشُهْبِك يا سما ... لَمعَتْ كأنعُمه الزواهرْ
وحكاهُ بدرُكِ طالعاً ... والشيءُ يذكرُ بالنضائرْ

سَقْيَاً لحفظ عهوده ... هيهاتَ يسلوهُنَّ ذاكرْ
تنْسَي صنائعهُ النفائس ... أم عرائسه البواكرْ
وعذرتُ ثَمَّةَ مَنْ كَبَا ... وأقلتُ عثرةَ كُلِّ عاثرْ
أنّى لُمسْتامُ الحصى ... من سوم هاتيكَ الجَواهرْ
عُذْراً بنَي العزّ الكرام ... لها فأنّي اليومَ عاذرْ
فاسلمْ أبا (المهديِّ) ... ممتثلَ النواهي والأوامرْ
وانهضْ لعزّ الدين مُنْتَصِراً ... بربّكَ خيرَ ناصرْ
كالليثِ دمدمَ كاسراً ... ويقّل عنك الليث كاسرْ
أنتَ ابنَ بجدتها ونورُ ... سراج مشكاة المفاخرْ
أنتَ الشفاءُ لدائها ... ولكُلِّ جُرحٍ أنتَ سابرْ

* * *

أ عميدَ أهليه الأكابرْ ... صبراً ولستُ أقولُ كابرْ
فإلى الحبيب إشارةَ الأحياء ... إذْ تُلوى الخَناصرْ
وبهِ المدارسُ نالت ... البُشرى وأعوادُ المنابرْ
كالبحر إلاّ أنّهُ ... عَذْبُ الموارد والمصادرْ
فاكشفْ بضوء الفرقدين ... سرارَهُ إنْ جنَّ عاكرْ
فابنا (عليٍّ) و(الزّكيِّ) ... إليهُما قصدُ النَواظرْ
وإذا ندبتُ بني (الرضا) ... للفخرِ حينَ زها المُفاخرْ
ألقى العصا (موسى) فأبطلَ ... بالحقيقة كُلَّ ساحرْ
وسَما (عليٌّ) طائراً ... بالفخرِ بُورِكَ منه طائرْ
بهما لعَمْرِ أبي (الحُسين) ... غدا (الحُسَينُ) قريرَ ناظرْ
مَنْ تلقَ منهم تَلْقَهُ ... مِلء المسامع والنواظرْ
مِنْ باهرٍ للعقل قَلَّ ... لمثله لو قيلَ باهرْ
يا تُربةَ الرمِ التي ... ضمنت من الغيب الضمائرْ
ما أنتِ إلاّ المِسكُ ... لولا نسبةٌ لدم (اليَعافرْ)
فَعَلى الأوائلِ منهمُ ... أسنى التحيّةِ والأواخرْ

مـــا هَبَّ مـــعـــتُلّ النســـيم وهاجَ فَـــقْـــدُ الألفِ طائرْ

وقال أيضاً يرثيه ، ويُعزّي ابن عمّه جناب العلم السامي ، وبحر التقى الطامي ، الأوّاه المنيب ، الشيخ العابد الشيخ حبيب[1] ، ابن الشيخ علي بن الشيخ جعفر قدس سرّهم الأطهر ، وقَدْ جلس بعده بمجلس آبائه الكرام ، ورجعت إليه مرجعية الخاص والعام ، وهي :

هتـــفتْ بشـــاوية الأضـــالعْ وفـــــوادح الرزْءِ الـلـواذعْ
ومـن الـرزيـة أعـــــولـتْ بـين الأبـاطح والأجـــــارعْ
وتـبـثُّ مِـنْ لأوائـهـــــا فـــوقَ المآذن والصّــــوامعْ
حـتى اسـتـفـزَّتْ صـيـدَها مِلءَ الشــــوارع والمشـــارعْ
تبـــغي عـــزيزَ المصـــر أمـــسى خـــدُّهُ للتُّربِ ضَـــارعْ
تَنْعَى السَـحـابَ الجُون تطويه الأعـــاصـــرُ بالزعـــازعْ
تَنْعَى لشـــملِ المكرمـــات وهَلْ لذاكَ الشـــملِ جـــامعْ
تَنْعَى الأئمـــــةَ للمنابر والجـــمـــاعـــةَ للجـــوامعْ
تَنْعَى المدارسَ أصـــبـــحتْ قَـــفْـــرَ المعـــاهدِ والمرابعْ
تَنْعَى الأُلى مِنْ (جـــعـــفـــر) وَضُـــحَتْ بهم سننُ الشـــرائعْ
أعـــلام شـــرعـــة (جـــعـــفـــرٍ) والـكُـلُّ مـــستنٌّ وشـــارعْ
تَنْعَى مـــذاهب (جـــعـــفـــرٍ) عـــادتْ مـــعـــالمُها بَلاقعْ
تَنْعَى مـــصـــابحَ أُطْفَـــئتْ لأفـــولِ أقـــمـــارٍ طوالعْ
تَنْعَى عـــصـــا (مـــوسى) إذا ألقى المخـــيّل والمُصـــانعْ
تَنْعَى مـــآثرَهُ الحِـــســـان وبـيـضَ أيـديـنـا الـنـواصـعْ
تَنْعَى (عـليّـــاً) ذا العُلى كـــشـــاف مـــعـضلة الوقـــائعْ
تَنْعَى الزكيَّ المُجـــتـــبى (حَـــسَنـاً) تريبَ الخـــدِّ ســـافعْ
تَنْعَى الجـــوادَ (مُـــحَـــمَّـــدَ) ابنَ (علـيّ) مـــــأمل كُلِّ طامعْ
تَنْعَى الفـــتى (المهـــديَّ) مَنْ مُلِئتْ هَنَاً فـــيـــهِ المســـامعْ

(١) تُوفيَ سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م .

وفجيعةُ الدهرِ التي عَظُمَتْ فهوّنت الفجائعْ
للشرع تَنْعَى (جعفراً) عذب المناهل والمشارعْ
تَنْعَى أبَا (حسن) فلا تَنْفَكُّ مسبلة المدامعْ
تنعاهُ أمْ تَنْعَى الفقاهةَ ما لِتاجرها بضائعْ
تَنْعَى (الرضا) لبني أبيه قضى غريبَ الدارِ شاسعْ
وآسى الأمامُ سميَّهُ فَعَدا له في الحَكم تابعْ
وقضى حميداً (ثامنَ) الـ أعلام لستُ أقولُ (تاسعْ)
تَنْعَى أشعةَ كوكبٍ في هالةِ العلياء ساطعْ
وأمين شرع قيّم ولنعم محتفظ الودائعْ
تَنْعَى ابنَ (موسى) ذيً اليد البيضاء والكَلِم الجوامعْ
تَنْعَى بروق سحابة والسُحبُ أغزرُها هوامعْ
تَنْعَى ضروع غَمامةً ما حُرِّمتْ منها المراضعْ
تَنْعَى المُجلّي في السباقً إذا الكميتُ الطرف ضالعْ
تَنْعَى صنائعَ ربِّها والناسُ - بعدُ - لها صنائعْ
تَنْعَى لِرُكنٍ هدَّهُ مِنْ هادم اللذاتِ قارعْ
تَنْعَى لكبشِ نِطاحِها أرداهُ مَشبوح الأشاجعْ
تَنْعَى صنائعَ عزّها كمنتْ بهابطة الأجارعْ
فَغَدا الكمين طليعه مِنْ بعدِ هاتيكَ الطلائعْ
تَنْعَى أبي (موسى) لموسى حينَ أعوزَ منه طالعْ
مِنْ خاطب بِكرَ العُلى مِنْ كُلِّ قاصيةٍ وشاسعْ
وَمَلّك من نيلها أقصى الأمانيّ والمطامعْ
فيهِ التسلّي للقلوبِ إذا أمضَّتْهَا الفجائعْ
و(بمُحسن) نِعْمَ الأسى في المزعجات مِن الوقائعْ
طلاع كُلِّ ثَنيّةٍ طلاب غايتها المُسارعْ
هو منجبُ الأبوينَ ذاً حَسَبٌ كضوءِ الصُبحِ ناصعْ
وعميد أربابً الكمال وليسَ ثَمّةَ مَنْ يُنازعْ

أرثيـــه منصـــدعـــاً فـيـــا   لـكَ فـــادحٌ للطودِ صـــادعْ
ممَّا عـــرا مِنْ نـكـبـــة   نزعـتْ من الـكـفّ الأصـــابعْ
ولمثلـهِ نِعْـمَ الـتـــسلّي   (بالحـــبـيـبِ) إلى الطبـــائعْ
الآمـــــرِ الـنـــاهـي بـنـا   والـكُـلُّ ممتـــثـلٌ وســـامعْ
هـو ذاكَ مُـنْـتَـــجعُ الـنَـدى   وعـــمـــيمُ أسـبـــابِ المَنافعْ
وبــكُـلِّ رزق قـــــانـع   زهـداً ورَبُّ الـزُهـدِ قـــانـعْ
مـــتـبـتِّل في الليل إمَّـــا   ســـاجـــدٌ أو لا فـــراكـعْ
وغـــــزيـر عـلـم زانَـهُ   عـــملٌ به للرجس قـــامعْ
نِعَـمَ المُـفـــيـــدُ (وجـــيـــزَهُ)   وَلِنعْـمَ (مـــخـــتـــصـــرٌ) (ونافعْ)
مـــا انفكَّ يلتـمسُ (الـفـتـــاوى)   مِنْ أدلَّتـــهـــا الـقـــواطعْ
ولســـوفَ يـصـــدعُ بـالـهُـــدى   وكـــفـى بـهِ بـالحق صـــادعْ
ويُـقـــيـمُ مـــا قَـــدْ زاغَ مِنْ   عـــمـدِ الـهـــداية خـيـــرَ رافعْ
وسـقـى الحَـيـا جـدثَ (الرضـا)   ومـضـاجـعـيـه لدى المضاجعْ

إلى هنا تمّت ترجمة جدنا الأعظم، الشيخ مُحَمَّد رضا (قُدِّسَ سره الأكرم).

وتليه (إن شاء اللّه) ترجمة باقي هذه الطبقة وهم: الشيخ الأجل، الشيخ حبيب[1] وأخوه الشيخ عباس[2] المبجل، ابنا الشيخ عليّ قدس سرهم جميعاً، ثم ترجمة الشيخ عباس[3] ابن الشيخ حسن قدس سره. وبه يكون ختام الطبقة الثالثة.

ونشرع إن شاء اللّه تعالى وتوفيقه بذكر الطبقة الرابعة وهم أولاد المذكورين في الطبقة السابقة.

والحمد للّه أولاً وآخراً.

---

(١) الشيخ حبيب ابن الشيخ علي بن الشيخ جعفر الكبير من كبار الفقهاء، تُوفي سنة ١٣٠٧هـ/ ١٨٩٠م.

(٢) الشيخ عباس ابن الشيخ علي بن الشيخ جعفر الكبير، ولد سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م، وتُوفيَ سنة ١٣١٥هـ/ ١٨٩٧م. وهو من كبار فقهاء هذه (الطائفة) وشعرائها.

(٣) ولد الشيخ عباس بن الشيخ حسن بن الشيخ جعفر الكبير سنة ١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م، وتُوفيَ سنة ١٣٢٣هـ/ ١٩٠٥م.

منهج الرشاد
لِمَنْ أرادَ السَدَاد

رسالة الأمام الشيخ جعفر كاشف الغطاء الى الأمير عبد العزيز بن سعود

تأليف

زعيم الأمامية في عصره

الشيخ جعفر كاشف الغطاء

المتوفى سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م

حققه وقدّم له

الدكتور جودت القزويني

المحتويات

منهج الرشاد ـ (النسخة الخطية) ٥١١

النسخة المطبوعة ٥١٤

جواب الأمير عبد العزيز بن سعود ٥١٥

منهج الرشاد لمن أراد السداد ٥١٧

مقدمة المؤلف ٥١٩

الفصل الأول : في أنَّ الأفعال والكلمات تختلف باختلاف المقاصد والنيّات ٥٢٠

الفصل الثاني : في بيان اختلاف ظواهر الآيات والروايات ٥٢٧

الفصل الثالث : في بيان الميزان التي يُرجع اليها إذا تشابهت الأمور ٥٣٠

المقصد الأول : في تحقيق ضروب الكفر ٥٣٥

المقصد الثاني : في تحقيق معنى العبادة ٥٤٠

المقصد الثالث : في الذبح لغير اللّه ٥٤٤

المقصد الرابع : في النذر لغير اللّه ٥٤٧

المقصد الخامس : في القَسَم بغير الله ٥٤٩

المقصد السادس : في الاستغاثة ٥٥٢

المقصد السابع : في التوسّل ٥٥٦

المقصد الثامن : في الشفاعة ٥٥٩

الخاتمة ٥٦٢

الباب الأول : في حياة الأموات بعد موتهم ٥٦٢
الفصل الأول : في حياة النبي (ص) بعد موته ٥٦٢
الفصل الثاني : في حياة سائر الشهداء والأنبياء ٥٦٥
الفصل الثالث : في حياة سائر الموتى ٥٦٦
الباب الثاني : في الزيارات ٥٧١
الفصل الأول : في زيارة قبر النبي (ص) ٥٧١
الفصل الثاني : في زيارة باقي القبور ٥٧٣
الباب الثالث : في التبرّك بالقبور ونحوها ٥٧٤
الباب الرابع : في بناء قبور الأنبياء والأولياء وتعميرها وتعلية بنائه وتشييد أركانها ... ٥٧٨
كشف الجواب عمّا تضمّنه ذلك الكتاب ٥٨١

هذه الرسالة حصيلة مراسلة بين شخصيّتين كبيرتين تمثّلتا بالشيخ جعفر كاشف الغطاء ـ زعيم الطائفة الأمامية في عصره ـ ، المُتوفى سنة ١٢٢٨هـ / ١٨١٣م ، وبين الأمير عبد العزيز بن سعود ـ أحد قادة الحركة الوهابيّة في عهدها الأول ـ ، المُتوفى سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م .

والسبب الذي دعا إلى تأليفها هو أنَّ الأمير عبد العزيز كتبَ رسالة إلى الشيخ كاشف الغطاء انتقد فيها الممارسات التي يُطبّقها زوّار المراقد الدينيّة المقدسة ، ـ وهي حسب العقيدة الوهابية تقارب الشرك في مقام التوحيد ـ ، المبتنية على مفردات نظرية مثل الشفاعة ، والتوسل ، والاستغاثة .

ولمعرفة ما تنطوي عليه هذه الأوراق من مناقشة وجدل يتحتّم فهم الظروف التي كانت سائدة في منطقة الجزيرة ، والتي بدأت تؤثر في المناطق المحيطة تأثيراً بالغاً وفعّالاً .

فقد كانت منطقة الجزيرة العربيّة سياسياً واقعة تحت نفوذ السيادة العثمانية (عدا مسقط) ، كما كان حال الدول الأخرى مثل العراق ، وبلاد الشام ، ومصر . ولم تكن سيطرة الدولة العثمانية على هذه البلدان سيطرة فعلية حيث تكتفي من الولاة بتقديم المبالغ المناسبة دليلاً لخضوع الوالي لها .

وفي القرنين (الثاني عشر والثالث عشر الهجريين / الثامن عشر والتاسع عشر الميلاديين) بدأ النفوذ البريطاني يدخل منطقة الشرق لتأمين سلامة المواصلات التجارية بين الهند وانكلترا ، ووصول بضائع شركة الهند الشرقية الانكليزية إلى موانئ الخليج .

وكانت إيران تحت سلطة الافشاريين بعد سقوط الدولة الصفوية سنة ١١٣٥هـ / ١٧٢٢م .

وفي أوائل القرن الثالث عشر الهجري / التاسع عشر الميلادي أصبح نفوذ البريطانيين شبه منفرد في المنطقة لانشغال الدولتين الكبيرتين القاجارية والعثمانية بأوضاعهما الداخلية المضطربة ، والنزاعات المتكررة بينهما .

ففي هذا الوسط ظهرت الدعوة الوهابية ، وامتدت بتحالف تمَّ عام ١١٥٧هـ / ١٧٤٤م بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، والأمير محمد بن سعود على أنْ يكون صاحب

السيف حارساً للدين ، وناصراً للسُنَّة ، وانْ يستمر الداعية على الجهر بدعوته الأصلاحية الجديدة .

وقد اتسعت الأمارة في عهد محمد بن سعود[1] فشملت أكثر (نجد) حيث تكرَّستْ فتوحاته على القُرى المحيطة (بالدرعيّة) ، والتي نجح في القضآء على زعاماتها المحلية ولم يبقَ خارجاً عن قبضتهِ سوى مدن الرياض ، والأحساء ، والقصيم .

وقد حكم محمد بن سعود عشرين عاماً حتى وفاته سنة ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م حيث تولّى الحكمَ بعدَه ولدُهُ عبد العزيز .

أمّا ولدُه (المُعنى بهذه الرسالة) عبد العزيز بن محمد بن سعود فقد حكم (٣٩) عاماً وخلال هذه الفترة الزمنيّة اتسعت فتوحاتُهُ إتساعاً إمتدَّ بسلطانه من شواطئ الفرات إلى رأس الخيمة ، وعُمان ، ومن الخليج إلى أطراف الحجاز وعسير .

إنَّ العلاقة الوهابية ـ الأثنا عشرية مرَّت بمرحلتين :

الأولى : في حياة شيخ الوهابية محمد بن عبد الوهاب حتى وفاته عام ١٢٠٦هـ / ١٧٩٢م .

الثانية : ما بعد رحيل الأمام محمد بن عبد الوهاب ، أي (خلال مرحلة حكم الأمير عبد العزيز بن سعود (١٢٠٦هـ ـ ١٢١٨هـ) .

ففي المرحلة الأولى لم تشهد المدن المقدسة الشيعيّة أيّ هجوم وهابي . والسبب يعود ـ كما ذكر صاحب العبقات ـ إلى علاقة الشيخ جعفر الطيّبة مع الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وبالرغم انَّ المصادر التاريخية لم تُشِرْ إلى علاقة كهذه سوى ما ذُكر في (العبقات) ، فأنَّ سياق الأحداث التأريخية يؤكد وجود علاقة بين الطرفين ، ربَّما إمتدت منذ إقامة الشيخ محمد بن عبد الوهاب أيام دراسته في بغداد ، وبقيت حتى تولّي الشيخ كاشف الغطاء زعامة الطائفة الأمامية .

أمّا المرحلة الثانية ـ والتي تبدأ بعد وفاة الشيخ محمد بن عبد الوهاب ـ ، فأنها إتّسمت بالحوار الدبلوماسي في سنيّها الأولى ، لكنَّها لم تستمّر على هذه الوتيرة بعد الغزو الوهابي لمدينة كربلاء عام ١٢١٦هـ ، وإحلال الدمار والقتل فيها .

---

(١) كانت إمارة آل سعود لا تتعدى البلدتين ، أو الثلاثة في زمن أبيه سعود بن محمد بن مقرن . وقد إتسعت الفتوحات بعد تولّي محمد بن سعود الزعامة سنة ١١٣٩هـ / ١٧٢٧م .

وتتجلّى أهمية هذا الحوار في المراسلات التي دارت بين الأمير عبد العزيز بن سعود والشيخ كاشف الغطاء ، حيث كتب الأمير عبد العزيز رسالة (نقل قسماً من مضامينها كاشف الغطاء) ، وردَّ عليها برسالة أشبه ما تكون بالمناقشة الشاملة لما وردَ من الشبهات التي أُثيرتْ حول الفكر الأمامي ، وممّا لم يرد منها أيضاً .

قد تميّز منهج كاشف الغطاء في رسالته بسمات ، أهمّها :

١ ـ امتازت الرسالة بالموضوعية والصدق ، والواقعية ، وغزارة المعرفة ، وقوّة الأستدلال ؛ حيث نهج مؤلفها منهجاً عقلانياً متكاملاً ردَّ فيه المنطق بالمنطق ، والحجّة بالحجّة والبرهان ، ممّا جعلها ـ على رغم أنّها نافت على القرنين من الزمن ـ رسالةً فتيةً ما زالتْ حجيّتها قائمة ، طريّة الأفكار ، متينة المباني ، عَذْبة المُحاججة ، خالية مما اعتاد عليه المؤلفون في مثل هذه الميادين من الخروج عن ذريعة العلم إلى ذرائع أخرى لا تتصل إلى نهج المعرفة بصلة .

٢ ـ يبدو أنَّ كاشف الغطاء كان يدرك انَّ الفتوحات الجديدة تهددُ أمن المنطقة بشكل عام ، وستصل إلى العراق لضعف السلطة الحاكمة فيه ، وانشغالها بالمشاكل الداخلية وغيرها . لذلك كان حديثُه في الردّ حديثاً حاول من خلاله إقناع عبد العزيز بن سعود ـ بما استطاع من إمكانات ـ بالرجوع عن معتقداته الدينيّة ، والتخلّي عن نظريته المذهبية التي اعتنقها وتبنّاها ـ على فرض الامكان ـ ، أو احترام وجهات النظر المتغايرة ـ على فرض آخر ـ . لذلك كان خطابُهُ إليه خطاباً يُشعر أنّه خطاب صادر من سلطة دينيّة عُليا إلى سلطة قتالية عُليا .

وبالرغم من احترامه المتزايد للأمير الفاتح إلاّ أنَّ (رسالته) لم تخلُ من واقعيّة في التعامل مع هذا الأمير ، فقد حدّثه فيها باللغة المباشرة التي يفهمها هذا الأمير العربيّ . وكان يعزو تبنّيه للمذهب الوهابي إلى عدم خبرته في اختيار المذهب الذي عليه أنْ يتبنّاه ويناضل من أجله ، بسبب ضآلة معرفته الفكرية .

٣ ـ تناولت الرسالة ردّاً للشبهات التي نشرها الوهابيون ، وقد رتّبها على مقدمة وفصول ، ومقاصد ، وكان لا يملُّ من تكرار كلمة «أخي» ، و«أقسم عليك» ـ نهاية كلّ موضوع ـ بعد بيان النتيجة التي يتوصل إليها بعد إيراده جملة من الأحاديث النبويّة لعلّ ذلك يكون سبباً لمراجعة المُعتقد من جديد .

٤ ـ إستخدم في طيّات رسالته أسلوب الموعظة ، وإلفات النظر إلى أنَّ النفوذ الدنيوي

مهما بلغ فانّه سيؤول إلى الزوال . وقد أطنب في اختيار بعض المرويات المتعلقة بنهاية الأنسان وفنائه في الفصل الثالث ، تحت عنوان : (في حياة سائر الموتى) .

٥ ـ نسب كاشف الغطاء نفسه في رسالته هذه إلى أنّه من تلامذة مدرسة (بغداد) . وقد ذكر محمد حسين كاشف الغطاء انّ الشيخ جعفر أراد بذلك أنْ يظهر بمظهر أهل السُنَّة ليتوصل إلى أهدافه ، ويُقلع عبد العزيز عمّا هو عليه . ولم يكن هذا الرأي موافقاً للصواب لعلم الأمير عبد العزيز بهوية كاشف الغطاء ، ومخاطبته الصريحة في رسالته التي إنتقد فيها زوّار قبر الأمام علي في النجف .

ويمكن الأستنتاج أنّ العلاقة التي يشير إليها صاحب (العبقات) نفسه بين الشيخ كاشف الغطاء ، وابن عبد الوهاب يمكن أن تكون ممتدّة إلى أيام تتلمذ الشيخ محمد ابن عبد الوهاب على يد شيوخ الحنابلة البغداديين . فأراد كاشف الغطاء أنْ يظهر أمام عبد العزيز بن سعود أنّه بمنزلة شيخه الذي نهض بأعباء الدفاع عن فكره ، ونشر معتقداته بالقوّة .

٦ ـ لمّا كان المذهب الوهابي يعتمد على صحاح الأحاديث السُنّية ، فقد التزم كاشف الغطاء في نقل أحاديثه ، ومناقشاته على الصحاح فقط ، ولم يتطرّق إلى غيرها من كتب الحديث . كما نقل أقوال كبار علماء السُنَّة في بحثه ، ولم يتطرّق إلى كتب الحديث الشيعيّة سوى ما نقله فقط عن كتاب الأحتجاج للشيخ الطبرسي في حديث عام يتصل بالمجادلة بين النبي محمد (ص) وبعض المناوئين له من العصر الجاهلي .

٧ ـ كُتبتْ هذه الرسالة في سنة ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م أي في حياة العلامة السيد مهدي بحر العلوم الذي تُوفيَ سنة ١٢١٢هـ / ١٧٩٧م . وكانت المرجعيّة في هذه المرحلة مقسّمة بين عدد من المجتهدين ، حيث تخصص بحر العلوم بالتدريس ، وكاشف الغطاء بالزعامة والفُتيا ، والشيخ حسين نجف بالصلاة جماعة ، مما يُبرهن على انحصار مرجعيّة التقليد السياسية والدينيّة في شخص كاشف الغطاء دون غيره من المجتهدين الكبار من طبقته .

لقد كان الشيخ كاشف الغطاء مدركاً المتغيرات السياسية ، والصراع القائم بين القُوى المتنازعة على الخليج فحاول أنْ يُظهر النجف مركزاً مستقلاً عن مدار صراعات دول المنطقة ، وأنْ يجنّب المرجعية الدينيّة العليا من الدخول في هذا الصراع .

ومن هنا يمكن تفسير العلاقة الودّية التي أقامها مع شيخ الوهابية بالمكاتبة مرّة ، وبتقديم الهدايا مرّة أخرى ، ونجاحه في حفظ الكيان الشيعي بعيداً عن المتغيرات السياسية التي

شهدتها المنطقة .

وبمقدار النجاح الذي حققه كاشف الغطاء مع الشيخ عبد الوهاب ، فأنّه أرادَ أنْ ينحو المنحى نفسه مع وريثه الأمير عبد العزيز بن سعود ، وهو وإنْ نجحَ في تحييده قرابة العقد من الزمن إلاَّ أنَّ ذلك لم يمنع ابن سعود من غزو مدينة كربلاء المقدسة عام ١٢١٦هـ ، ونهب (الكنوز) المودعة في حرم الأمام الحسين بن علي (ع) ، وقتل أهالي البلدة قتلة مأساوية شنعاء .

إنَّ الهجوم الوهابي على (كربلاء) عام ١٢١٦هـ لم يكن مستهدفاً الشيعة بمقدار ما كان يهدف إلى إحلال الفوضى في الأمبراطورية العثمانية ، وتهديد سلامتها وسرقة الخزائن التي ملأها ملوك الهند والفرس بنفائس الجواهر في النجف وكربلاء .

وبعد واقعة كربلاء عام ١٢١٦هـ / ١٨٠١م أحسَّ كاشف الغطاء بضرورة تحصين النجف ، وتعبئة الأهالي للدفاع عنها . فتهيَّأت لذلك مراكز تدريب قتالية خارج البلدة يشرف عليها كاشف الغطاء بنفسه . كما تمَّ تعيين عدد من المقاتلين للحراسة ، وتنظيم المجاميع الأخرى للتصدي للغزو الخارجي من وراء الأسوار[1] .

وقد فشلت جميع الهجمات الوهابية الخمسة التي تكررت على النجف والتي كان أعنفها الهجمة التي حدثت أواخر عام ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م حيث دافع النجفيون دفاعاً عنيفاً ، ولم تستطع القوّة الغازية من اقتحام المدينة .

وفي عام ١٢٢١هـ / ١٨٠٦م تعرضّت النجف لغارة مفاجئة إلاَّ أنَّ ثقة النجفيين بممارساتهم القتالية وتحصنّهم بالأسوار والأسلحة جعلهم يتغلبون هذه المرَّة على القوّة المُهاجمة بسهولة .

«منهج الرشاد» ـ النسخة الخطية

وهي نسخة مكتوبة في حياة المؤلف ، وقريبة لزمن التأليف كتبها العلامة الشيخ قاسم الدلبزي سنة ١٢١٠هـ / ١٧٩٥م ، وعليها تعليقٌ له .

(١) انتدب كاشف الغطاء الصدر الأعظم محمد حسين خان (وزير فتح علي شاه) ببناء سور محصّن للمدينة وفعلاً فقد بدأ العمل ببنائه سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م ، واستمرّ العمل فيه ما يقارب العقد من الزمن فأصبحت النجف بسببه بلدة محصّنة يصعب اقتحامها حيث تضمّن خندقاً عميقاً ، وأبراجاً ، ومراصد ، ومخافر ، وجُعلت في طبقاته منافذ مختلفة لوضع فوهات المدافع والبنادق .

وقفيه

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي تفرد بالازلية والقدم واشتق نور الوجود من ظلم العدم واستدعى [illegible]
الشرع [illegible] وفضل امة محمد ص على سائر الامم وانزل القرآن فيه آيات
محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات وحذر عن اتباع الملاذ والشهوات
وامر بالوقوف عند الشبهات وانذر عن متابعة الاباء والامهات واشهد [illegible]
على من [illegible] على جميع انبيائه وفضله على كافة اصفيائه محمد المختار صلى الله عليه و
آله ما اظلم ليل واضاء نهار اما بعد فقد ورد الى [illegible] ربه [illegible]
اليه من ذنبه الطالب من الله [illegible] اقل طلبة اهل بغداد [illegible]
على كلمات [illegible] النفيم من لم يزل بالمعروف آمرا وعن المنكر ناهيا وزاجرا [illegible]
لعبادة المعبود الشيخ عبد العزيز بن سعود [illegible]
[illegible]
[illegible] لنفسي بالميل الى [illegible] الى ما عليه الاباء والاجداد [illegible]
[illegible] احذر [illegible] لقد تخلصت من [illegible]
[illegible] وتحت دار العزة و[illegible]
[illegible] في هذه الديار فلو كنت في [illegible] البلدان من ممالك بني عثمان [illegible]
[illegible] الدنيا من [illegible]
النعيم [illegible] ان تكون مع الاعراض عن هذه النعم الزاخرة [illegible]
[illegible] الدنيا والآخرة [illegible] ورأيت [illegible]

لولا

الصفحة الأولى من مخطوطة «منهج الرشاد»

تطع أكثر من في الارض يضلوك عن سبيل الله وفي الحديث ان بعث الجنة من
الالف واحد فانت احذر لنفسك والمهدي من هداه الله انتهى اقول يا اخي
الوهابية صحبة مشتركة بيننا فالله علي الا ما غنيت حمية الاباء والاجداد وصحب
الطريقة المانوسة بين العباد بالنظر بعين البصيرة ولخلاص السريرة ولعا
فاني احسن عليك من حب الانفراد حتى لا تكون كبعض الاحاد فان الاصابع لم
تزل ممدودة الى من ركب جادة غير معهودة وقد ورد في الخبر خالف تعرف
وانتم احسن عليك من عقبة انكار حال البال لعيبه عن هذه الحال فو ردت عليك
شبهات لم تستطع ردها وخيالات لم تبلغ حدها فكان الحال [illegible]
قلبا خاليا فتمكن اما اليوم فليس لك عذر عند الله عز وجل لقد علمت بالاخبار الصحيحة
بطريقة الخلفاء الابرار فاجد نظرك واستفرغ فكرك ولا تخرج نفسك رتبة
التقليد والتعصب من رسلك الابائي والتقليد ثم ما ذكرت انما يدل على ان الحق
مع القليل من المكلفين لا من المسلمين فان اكثر اهل الارض كفار من يهود ونصارى
ومشركين وجاحدين وغيرهم حتى ان نسبة اقليم المسلمين الى سائر الاقاليم
اقل قليل ومنهم نقول بان من اطاع اكثر الخلق ضال لان اكثر الناس من اهل الكفر
والضلال وان الشكور قليل وان بعث اهل الجنة من الالف واحد ولو استندت
على في هذا [illegible] الى الحديث الفرقة فرقة العرفة لانافي زيادة اعدادها
الفرقة والحق انه لا ملازمة بين القلة والكثرة وبين الحق والباطل فكم من قليل
هدي الى الصواب وكثير حلت عليه المؤاخذة والعقاب وكم في الارض
الالباب والحرائف طلب العصمة والنجاة من رب الارباب والاعوال الاخرة
الله العلي العظيم تمت على يد احقر الفقراء الصادقين [illegible]
قاسم بن شيخ محمد بن حمزة الزبيري في سنة الف وماية
يتين وعشرين

الصفحة الأخيرة من مخطوطة «منهج الرشاد»

وهذه النسخة ـ كما يظهر ـ مطابقة للأصل تمام المطابقة ، سليمة العبارة ، صحيحة وهي تتكون من (٥٥) صفحة ، كُلُّ صفحة تحتوي على (٢٣) سطراً عدا الصفحة الأولى ، ويتكون السطر الواحد – غالباً – من (١٢) كلمة .

أمّا ناسخُها العلامة الدلبزي فهو من العلماء المجهولين الذين اختفى تراثهم ، ويبدو أنّه من تلامذة المؤلف كاشف الغطاء ، والسيد مهدي بحر العلوم ، كما يظهر من بعض المخطوطات أنّه كان حيّاً سنة ١٢٣١هـ / ١٨١٦م . واستظهر بعضهم أنّه مات بالطاعون سنة ١٢٤٧هـ / ١٨٣١م . وولده الشيخ حسين الدلبزي المُتوفى بالطاعون أيضاً سنة ١٢٤٧هـ من العلماء المشهود لهم بالفضل ، وغزارة العلم ، والأدباء الكبار الذين احتفظت المجاميع الأدبية بنماذج من قصائدهم البليغة الجزلة .

وعلى هذه النسخة (تملُّكُ) جملة من الأعلام منهم : الشيخ سليمان العاملي ، والسيد صدر الدين الصدر (صهر المؤلف) ، والعلامة السيد عبد الله بن محمد رضا شبّر ، والشيخ محمد رضا بن علي بن محمد جعفر الاسترابادي (وهي من مقتنيات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي ، برقم ٣٨٩٢ من تعداد الكتب الخطية) .

النسخة المطبوعة

أمّا النسخة الثانية فهي نسخة طُبعت بالمطبعة الحيدرية في النجف في شهر شعبان سنة ١٣٤٢هـ / ١٩٢٤م ، باهتمام العلامة السيد عباس التبتي ، وتقع في (٨٢) صفحة .

وعلى صفحتها الأولى كُتبَ هذا النصّ : «كتاب منهج الرشاد لمن أراد السداد من تأليف واحد الدهور ، ونادرة العصور ، أفضل الربانيين ، وأعظم أساطين الدين ، شيخ الطائفة الشيخ الأكبر (الشيخ جعفر النجفي) عطّر الله مرقده ، صاحب كتاب كشف الغطاء ، وشرح القواعد ، والحقّ المُبين ، وغيرها من المؤلفات الشهيرة ، المُتوفى في رجب سنة ثمانية وعشرين بعد الألف والمائتين هجريّة .

كتبه بعنوان جواب مكتوب ، كتبه إليه بعض أمراء (نجد) من أبناء سعود الذين هم الدُعاة إلى مذهب الوهابيّة . وهو كتابٌ جليل لم يُكتبْ مثله في هذا الباب .

وكان طبعُه ونشره باتفاق حضرة حُجّة الأسلام ، ومرجع الأنام ، وحيد الناس ، سيدنا الأجل الحاج سيد عباس التبتي مُدّ ظلّه العالي . طُبعت بمطبعة (الحيدرية) في النجف الأشرف سنة ١٣٤٣هـ» .

وقد ذكر الطهراني أنّ منهج الرشاد هو أوّل كتاب كُتبَ في الردّ على الوهابيّة ووصفه

بأنّه حوى حقائق علمية ، وحججاً دامغة .

أمَّا العلامة الأمين فذكر أنَّ هذه الرسالة هي أوّل رسالة كتبتْ في هذا الموضوع (إلاَّ أنْ يكون سبقها كتاب سليمان بن عبد الوهاب أخي محمد بن عبد الوهاب) . وامتدح مؤلفها وقال : «إنَّها حوت كثيراً مما لم يحوه بعضُ ما تأخَّر عنها ، فهي من مفاخر ذلك العصر» .

جواب
الأمير عبد العزيز بن سعود

عند وصول الرسالة إلى الأمير عبد العزيز بن سعود كتب إلى مؤلفها الشيخ جعفر كاشف الغطاء هذه الرسالة المختصرة ، وهذا نصُّها :

يصل الخط إنْ شاء اللّه إلى عبد اللّه جعفر

راعي «المشهد»

بسم اللّه الرحمن الرحيم

وبه نستعين

السلام التام ، والتحيّة والأكرام ، يُهدى إلى سيد الأنام ، محمَّد عليه من اللّه أفضل الصلاة والسلام ، ثم ينتهي إلى جناب الأجلّ الأكرم عبد اللّه جعفر سلَّمه اللّه مِنْ كُلِّ شرّ ، وأسكنه يوم القيامة جنّة المُستقرّ ، وأعاذهُ مِن عذاب النار الذي يحذر .

أمَّا بعد : فوصلَ كتابُك ، وفَهمنا ما تَضَمَّنَهُ مِنْ خطابك ، وما ذكرتَ أنّه بلغَكَ عنَّا مِنْ حُسن الطريقة ، واستقامة السيرة من الصلاة والزكاة ، والصيام ، والحج ، وغير ذلك مِنْ شرائط الأسلام ، فالحمدُ للّه الذي هدانا للأسلام ، وجنَّبنا من عبادة الأصنام ، حمداً كثيراً طيِّباً مباركاً فيه ، كما يُحبُّ ربُّنا ويرضى ، وكما ينبغي لكرم وجههِ وعزِّ جلاله .

منهج الرشاد لمن أراد السداد

مقدمة المؤلف

الحمد لله الذي تفرّد بالأزلية والقِدم ، واشتقّ نور الوجود من ظلمة العدم ، وأسس قواعد الشرع على وفق المصالح والحِكم ، وفضّل أمة محمد (ص) على سائر الأمم ، وأنزل القرآن فيه آيات محكمات هنّ أم الكتاب وأخر متشابهات ، وحذر عن اتباع الملاذ والشهوات ، وأمرَ بالوقوف عند الشبهات ، وأنذر عن متابعة الآباء والأمهات ، والصلاة والسلام على من قدّمه على جميع أنبيائه ، وفضّلهُ على كافة أصفيائه ، (محمد) المختار ، صلى الله عليه وعلى آله ، ما أظلم ليل ، وأضاء نهار .

أما بعد : فقد ورد ـ الى المقصر مع ربه ، التائب اليه من ذنبه ، الطالب من الله السداد ، (جعفر) أقل طلبة أهل (بغداد) ـ كتاب كريم ، مشتمل على كلمات كالدر النظيم ، ممن لم يزل بالمعروف آمراً ، وعن المنكر ناهياً زاجراً ، الآمر بعبادة المعبود ، الشيخ عبد العزيز بن سعود[1] . فلما نظرته وتدبرتُه وتأملته وتصورته ، خلوتُ في زاوية من الدار ، وتصفحته تصفح الأنصاف والأعتبار . وقلتُ متهماً لنفسي بالميل الى العصبية والعناد ، والركون الى ما عليه الآباء والأجداد : يا نفس إعرفي قدر دنياك ، واحذري شر من أغوى أباكِ ، لقد تخليتِ عن نعيم الدنيا بحذافيرها ، وقنعت بقليلها ، ولو بقرص شعيرها ، وتجنبت دار العزّة والوقار ، واخترتِ العزلةَ والخمولَ في هذه الديار .

فلو كنتِ في كبار البلدان ، من ممالك بني (عثمان) ، أو في بعض بلدان فارس وإيران ، لجاءت إليكِ الدنيا من كل جانب ومكان ، ونلتِ من النعيم ما لم ينله إنسان ، فأحذري أن تكوني مع الأعراض عن هذه النعم الفاخرة ، ممن قد خسر الدنيا والآخرة .

فلما شممتُ منها رائحة التصفية ، ورأيت أن نسبة المذاهب ـ لولا الله عندها ـ على التسوية ، وجهتها الى الكشف عن حقيقة الجواب عن الشُبهِ الموردة في ذلك الكتاب ،

---

(١) عبد العزيز محمد بن سعود (أمير آل سعود في دولتهم الأولى) ، ولد سنة ١١٣٢هـ / ١٧٢٠م ، ووُلّي بعد وفاة أبيه عام ١١٧٩هـ / ١٧٦٥م ، وكانت عاصمة حكمه (الدّرعية) بنجد ، واتسعت الفتوحات في أيامه ، وامتدّ مُلكُهُ من شواطئ الفرات الى رأس الخيمة وعُمان ، ومن الخليج الفارسي إلى أطراف الحجاز وعسير .
اغتاله رجلٌ من أهل العمادية (من ديار الجزيرة) في جامع الدرعية سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣م . الأعلام للزركلي ، ج٤ ، ص٢٧ .

ورأيت أن أشرحَ في الحال رسالةً على وجه الأختصار ، مستمداً من فيض الواحد القهار ، وسميتها «منهج الرشاد لمن أراد السداد» .

فاقسم عليك ـ بمن جعلك متبوعاً بعد أنْ كُنتَ تابعاً ، ومطاعاً بعد أن كنتَ لغيرك مطيعاً سامعا ، وأعزَّكَ بعدما كنتَ ذليلاً ، وكثَّر جمعك بعدما كان نزراً قليلاً ـ أن تنظر ما رسمتُه سطراً سطرا ، وتمعن في تحقيق ما رقمته نظراً وفكراً ، متوحشاً من الناس وقت النظر ، متحذراً من النفس الأمارة كل الحذر ، طالباً من الله كشف الحقيقة ، سالكاً في المناظرة واضح الطريقة ، فلعله يظهر أنه ليس بيننا نزاع ، فنحمد الله على الإتفاق والأجتماع . وقد رتبتُها على مقدمة ، ومقاصد ، وخاتمة .

أما المقدمة ، فتشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول

في أنّ الافعال والكلمات تختلف باختلاف المقاصد والنيّات

فمن قال : يد الله ، وعين الله ، وجنب الله ، وأراد الجوارح على نحو ما في الأجسام ، او.قال : إن الله على العرش استوى ، أو في جهة الفوق ، وأراد الحلول والاختصاص التام ، أو أسند الرحمة إليه ، أو الغضب ، وأراد رقّة القلب ، أو ثوران النفس على نحو ما يعرف بين الأنام ، أو أسند الرزق الى المخلوق ، أو دعاه ، أو استغاث به على نحو ما يسنده الى الملك العلام.، كان خارجاً عن مقالة أهل الإسلام .

وأما من قصدَ بها معاني أُخر ، فليس عليه من بأس ولا ضرر . وليس هذا كصنيع المشركين ، فأن الفرق ظاهر ، كما سنبينه كمال التبيين ، فالمستغيث بالمنسوب مستغيث بالمنسوب إليه ، والمستجير بالمكان مستجيرٌ بمن سلطانه عليه .

فمن أراد الأستجارة والأستغاثة بـ (زيد) فله طريقان :

أحدهما : أن يهتف بأسمه .

وثانيهما : أن ينادي بصفاته ، أو مكانه ، أو خدمه .

وثانيهما أقربُ الى الأدب ، وأرغب لطباع أرباب الرُتب ، فلا يكون المستغيث ببيت الله ، أو بصفات الله ، أو برسل الله ، أو المقربين عند الله ، إلا مستغيثاً بالله ؛ فكلّما دعا

مخلوقاً مقرباًعند الله ، أو استغاث به قاصداً بحسن التعبير الأستغاثة باللطيف الخبير ، فليس عليه بأسٌ في ذلك ، بل هو سالكٌ في الآداب أحسن المسالك .

وكذلك من أسند تلك الأشياء لمجرد الربط الصوري ، لا على قصد التأثير الحقيقي ، كما يقال : «أنبتَ الربيعُ البقل» ، والمُنْبِتُ هو الله ، و«بنى الأمير القصر» ، والباني ظاهراً بناه[1] .

فأطلاق (السيد) و(المالك) على غير الله ، «وإضافة (العبد) و(المملوك) في الأحرار الى غير الله»[2] ، إن أُريد بها الملكية الحقيقية ، كان خروجاً عن الطريقة الشرعية ، وإلاَّ لم يكن في ذلك بأسٌ بالكلية .

ولهذا ورد في الأخبار النبوية إطلاق (السيد) على غير الله .

روى أبو هريرة[3] عن النبي (ص) أنه قال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة[4] .

وعن أبي سعيد الخدري[5] عن النبي (ص) أنه قال : الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة[6] .

وعن علي (ع) ، عن النبي (ص) أنه قال : أبو بكر وعمر سيدا كهول أهل الجنة[7] .

وعن فاطمة عليها السلام : أن النبي (ص) أخبرني أني سيدة نساء العالمين ، رواه الترمذي[8] .

وروى أبو نعيم الحافظ ، قال : قال النبي (ص) إدعوا لي سيد العرب عليا .

---

(١) في المطبوع : سواه .

(٢) لا توجد في المخطوطة .

(٣) أبو هريرة : عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني ، تُوفي سنة ٥٧هـ/ ٦٧٧م في المدينة .

(٤) سنن الترمذي (كتاب المناقب) حديث ٣٥٤٨ ؛ وصحيح مسلم (كتاب الفضائل) ، حديث ٤٢٢٣ ؛ ومسند أحمد (باقي مسند المكثرين) ، حديث ١٠٥٤٩ ؛ وسنن ابن ماجه ، (كتاب الزهد) ، باب ٣٧ ؛ سنن الدارمي ، المقدمة ، باب ٨ .

(٥) أبو سعيد الخدري : سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري ، تُوفي في المدينة سنة ٧٤هـ/ ٦٩٣م ، وهو من الصحابة ، ورتبهم أسمى مراتب العدالة والتوثيق .

(٦) سنن الترمذي (كتاب المناقب) ، حديث ٣٧٠١ ، ٣٧١٤ ؛ وابن ماجه (المقدمة) ، حديث ١١٥ ؛ ومسند أحمد (باقي مسند المكثرين) ، حديث ١٠٥٧٦ ، ١١١٦٦ ، ١١١٩٢ ، ١١٣٥١ . ورواه أيضاً في (باقي مسند الأنصار) ، حديث ٢٢٢٤٠ ، ٢٢٢٤١ .

(٧) سنن الترمذي (كتاب المناقب) ، حديث ٣٥٩٧ ، ٣٥٩٩ . ومثله حديث ٣٥٩٨ ؛ وسنن ابن ماجه (المقدمة) ، حديث ٩٢ ، ٩٧ ؛ ومسند أحمد بن حنبل (مسند العشرة المبشرين بالجنّة) ، حديث ٥٦٨ .

(٨) سنن الترمذي ، حديث رقم ٣٨٢٨

وفي حلية الأولياء أنه قال النبي (ص) لعليٍّ مرحباً بسيد المؤمنين[1] .

وعن أبي بكرة عن النبي (ص) أنه قال للحسن : إبني هذا سيد[2] .

وعن عائشة[3] عن النبي (ص) أنه سار إبنته الزهراء ، فقال لها : أما ترضين أن تكوني سيدة نساء العالمين ، أو نساء المؤمنين[4] .

وروي ذلك عن الصحابة أيضاً ، فعن جابر[5] أن عمر كان يقول : أبو بكر سيدنا ، واعتقَ سيدنا ، (يعني : بلالاً) ، رواه البخاري[6] .

وعن أبي بكر (رض) أنه ، قال : أتقولون هذا شيخ قريش وسيدهم[7] .

وعن عائشة عن النبي (ص) أنه قال : أنا سيد ولد آدم ، وعلي سيد العرب .

وروي عن النبي (ص) : أن سادات النساء أربعة : خديجة ، وفاطمة ، وآسية ، ومريم .

وعن علي (ع) : أنا سيد البطحاء . إلى غير ذلك مما يزيد على التواتر .

فالجمع بين ذلك وبين ما روي في الكتب المُعتبرة أنه جاء وفدٌ الى النبي (ص) ، فقالوا : أنت سيدنا ، فقال : السيد الله[8] . باختلاف القصد في معنى (السيد) .

وكذا ما وردَ من المنع من قول السيد عبدي وأَمَتي ، فقول العبد لمولاه ربي ، مع وجود ذلك في كلام يوسف[9] .

وكذلك الأستغاثة بغير الله ، إن أُريد بها الصورة ، أو من باب إستغاثة العبد بقصد

---

(1) حلية الأولياء ، جـ1 ، ص66 .

(2) البخاري (كتاب المناقب) ، حديث 3357 ، 3463 . وكذلك رواه في (كتاب الصلح ، حديث 2505 ؛ والترمذي (كتاب المناقب) ، حديث 3706 .

(3) عائشة بنت أبي بكر التيميَّة ، أم المؤمنين ، تُوفيتْ في المدينة سنة 58هـ/ 678م .

(4) صحيح البخاري (كتاب المناقب) ، حديث 3353 ؛ وصحيح مسلم (فضائل الصحابة) ، حديث 4486 ، 4488 ؛ والترمذي (كتاب المناقب) ، حديث 3807 ؛ وسنن ابن ماجه (ما جاء في الجنائز) ، حديث 1610 ؛ ومسند أحمد (باقي مسند الأنصار) ، حديث 23343 ، 24829 ، 25210 .

(5) جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري ، صحابي ، أقام في المدينة ، وتُوفي فيها سنة 78هـ/ 697م .

(6) صحيح البخاري ، (باب مناقب بلال بن رياح) ، جـ4 ، ص217 ، حديث رقم 3471 ؛ وسنن الترمذي ، (كتاب المناقب) ، حديث 3589 .

(7) صحيح مسلم (باب فضائل سلمان ، وصُهيب ، وبلال) ، جـ4 ، ص1947 .

(8) سنن أبي داود (كتاب الأدب) ، حديث 4172 ؛ ومسند أحمد (مسند المدنيين) ، حديث 15717 ، 15726 . وجاء فيه «أنت سيد قريش ، فقال النبيّ (ص) : السيد الله» .

(9) إشارة إلى قول يوسف (ع) : «قال معاذ الله إنَّه ربي أحسنَ مثواي» ـ سورة يوسف ، الآية 23 ـ وقوله أيضاً : «فلمَّا جاءه الرسول قال أرجع إلى ربِّك فاسأله ما بال النسوة التي قطعنَ أيديهنَّ» ـ سورة يوسف ، الآية 50 ـ .

المعبود ، فلا بأس بها ، وعلى ذلك قوله تعالى «فَاسْتَغاثَهُ الَّذي مِنْ شيعَتِهِ عَلَى الَّذي مِنْ عَدُوِه»[1] وكذا قوله «يَسْتَصْرِخُهُ»[2] .

وكذلك إطلاق الربّ في بعض المعاني على غير الله كفر ، مع أنّ الصديق يوسف (ع) قال «اُذْكُرْني عِنْدَ رَبِّكَ»[3] ، وكذلك طلب الرّزق من غير الله على وجه الحقيقة كفر ، وقال الله تعالى : «وَارْزُقُوهُمْ فِيها وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلاً مَعْرُوفاً»[4] وقولُهُ : «يا أيُّها الْعَزيزُ مَسَّنا وَأَهْلَنا الضُرَّ»[5] ، ونحوه «إسْتَطْعَما أَهْلَها»[6] .

ومن ذلك قول القائل : لولا (فلان) لكان (كذا) . فأن أراد أنه الفاعل المختار ، دخل في أقسام الكفار . وإن أراد العليّة الصورية بمجرد رابطة جزئية ، لم يكن عليه بأس بالكلية .

ولذلك ورد عن سيد الأنام أنَّه قال : لولا قومك حديثو عهد بالأسلام لهدمتُ الكعبة[7] .

وعن سفيان الثوري أنه قال : لولا هذه الدنيا لكان الملوك صعاليك .

وعن عمر أنه قال لعلي (ع) لما أشار عليه بعدم أخذ حلي الكعبة : لولاك لافتضحنا .

وعن النبي أنه قال لعلي : لولا أن تقول الناس فيك ما قالت النصارى لقلتُ فيك مقالاً .

وورد في صحيح الأثر ، عن الفاروق عمر أنه قال : «لولا عليٌّ لهلكَ عُمر» . ولم ينكر عليه أحدٌ من الصحابة ، إلى غير ذلك .

وكذا الحلف بغير الله إنْ أُريدَ به الحلف على جهة إثبات الدعوى ، كان خارجاً عن الشريعة ، وإلاّ لم يكن قسماً على الحقيقة .

والحديث الذي فيه : «من حلف بغير الله ، فقد أشرك»[8] محمول على حقيقة الحلف ،

---

(١) القرآن الكريم : ١٥/٢٨ (سورة القصص) .
(٢) القرآن الكريم : ١٨/٢٨ (سورة القصص) .
(٣) القرآن الكريم : ٤٢/١٢ (سورة يوسف) .
(٤) القرآن الكريم : ٥/٤ (سورة النساء) .
(٥) القرآن الكريم : ٨٨/١٢ (سورة يوسف) .
(٦) القرآن الكريم : ٧٧/١٨ (سورة الكهف) .
(٧) عن عائشة ، قالت : قال رسول الله (ص) : «يا عائشة لولا أنَّ قومَك حديثو عهد بشرك لهَدمتُ الكعبة ، فألزقتُها بالأرض» . صحيح مسلم (كتاب الحج) ، حديث ٢٣٧٠ ؛ والبخاري (كتاب العلم) ، حديث ١٢٣ . وكذلك رواه في (كتاب الحج) : ـ حديث عهدهم بالجاهلية ـ . حديث ١٤٨٠ ، ١٤٨٣ .
(٨) سنن الترمذي (كتاب النذور والأيمان) ، حديث ١٤٥٥ .

وسيجيء تفصيله في المقصد الخامس . وكذلك إطلاق اليد ، والرِجل ، والقدم ، وغ
ذلك بالنسبة الى الله على الحقيقة ، لا يُوافق الطريقة من غير تأويل ، لم يتوهمه سوى قليل .

مع أنه روى أبو هريرة عن النبي (ص) : أن النار لا تمتلئ حتى يضع الله رجله فيها[1] وعن أنس عن النبي (ص) أن النار لا تمتلئ حتى يضع الله قدمه فيها[2] .

ومن ذلك نسبة الضحك والعجب الى الله تعالى ، فأنَّ إرادة الحقيقة بعيدة ع الطريقة ؛ مع أن أبا هريرة روى عن النبي (ص) أنه قال : لقد عجب الله ، أو ضحك الل عن (فلان) و(فلانة) ، ونقل قصته[3] .

فبأختلاف المعاني إختلفت المباني ، وكذلك في مسألة الأفعال ، فأنها شبيهة الأقوال فأنَّ القيام للتواضع قد ورد النهي عنه .

روى أبو أسامة عن النبي (ص) أنه خرج مُتكأً على عصى ، فقمنا له ، فقال : لا تقو كما تقوم الأعاجم بعضهم لبعض ، رواه أبو داود[4] .

وروى ابن عمر عن النبيِّ (ص) أنه قال : لا يقوم الرجل من مجلسه ، ثم يجلس في ولكن تفسحوا وتوسعوا[5] .

وعن أنس أنه قال : لم يكن شخصٌ أحب إليهم من النبي (ص) ، وكانوا إذا رأوه يقوموا ، لما يعلمون من كراهيته لذلك ، رواه الترمذي ، وقال : هذا خبرٌ صحيح[6] .

فينبغي أن ينزل المنع على قيام خاص ، كأن يقوم منحنياً على نحو ما يصنع الأعاج وفي الخبر ما يرشدُ إليه اختلاف الأغراض والمقاصد .

كما روي عن معاوية أنَّ النبيَّ (ص) قال : مَنْ سرَّهُ أنْ يتمثل له الرجال قياماً ، فليتب

---

(١) صحيح البخاري (كتاب تفسير القرآن) ، حديث ٤٤٧٢ ؛ وصحيح مسلم (كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهله حديث ٥٠٨٢ .

(٢) صحيح البخاري (كتاب التوحيد) ، حديث ٦٨٩٥ ؛ وصحيح الترمذي (كتاب صفة الجنّة) ، حديث ٤٨٠ ٢٤٨٤ .

(٣) صحيح البخاري (كتاب المناقب) ، حديث ٣٥٢٤ ؛ وصحيح مسلم (كتاب الأشربة) ، حديث ٨٢٩ ٣٨٣٠ ؛ وسنن الترمذي (باب تفسير القرآن) ، حديث ٣٢٢٦ .

(٤) سنن أبي داود (كتاب الأدب) ـ باب قيام الرجل للرجل ، حديث ٥٢٣٠ .

(٥) مسند أحمد ، جـ٢ ، ص١٧ .

(٦) سنن الترمذي (كتاب الأدب) ـ باب كراهية قيام الرجل للرجل ، حديث ٢٦٧٨ .

مقعده من النار[1] . وحديث «ولا يقوم الرجل» ، ظاهره اختصاص الجالس مجلسه ، وربما ينزل ما دل على كراهته كذلك على نحو كراهته لملاذ الدنيا ، وزهده في القيام كزهده في مباحاتها .

فقد روى أبو سعيد الخدري أن سعداً جاء على حمار ، فلما دنا من المسجد ، قال النبيُّ (ص) للأنصار : قوموا إلى سيدكم[2] .

وعن عائشة قالت : كنت جالسةً متربعة ، فجاء النبيُّ (ص) فأردتُ القيام ، كما هي عادتي عند دخوله ، فمنعني[3] . فأنَّ فيه دلالة على أنَّ ذلك كان معتاداً لها ، ولعلَّ هذا المنع كان لسبب خاص ، أو كزهد الدنيا ، وكسر النفس .

وروي عن النبي (ص) أنه لما قدم جعفر مبشراً بفتح خيبر ، قام ، فقال : ما أدري بأيُّهما أنا أشد فرحاً ، أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر[4] .

وقيام الأحتمال في هذه الأخبار لا يمنع الاستناد إليها كما لا يخفى على أولي الأنظار مع ما ورد في الأخبار الكثيرة ، من إستحباب تعظيم المؤمن ، ويدخل في تعظيم شعائر الله على نحو ما ورد في التفاسير المعتبرة .

وعن أبي هريرة أنَّ النبيَّ (ص) كان يجلس معنا في المسجد يحدثنا ، فإذا قام قمنا لقيامه ، حتى نراه دخل بعض بيوت أزواجه .

وعن واثلة[5] قال : قال رسول الله (ص) : إن للمسلم لحقاً إذا رآه أخوه تزحزح له ، رواه البيهقي في شعب الايمان[6] .

---

(١) سنن أبي داود (كتاب الأدب) ، حديث ٤٥٥٢ ؛ وسنن الترمذي (كتاب الأدب) ، حديث ٢٦٧٩ .
(٢) سنن أبي داود ، حديث ٥٢١٦ .
(٣) أيضاً ، حديث ٥٢١٧ .
(٤) علّق العلامة الشيخ قاسم الدلبزي (ناسخ الكتاب) على هذا الموضوع بقوله :
«لقائل أنْ يقول : إنَّ حديث (جعفر) ليس فيه دلالة على المطلوب لأنَّ قول النبيّ (ص) : «ما أدري أنا بأيُّهما أشدُّ فرحاً» لا دلالة فيه لاحتمال أنْ يكون من جمعة الفرح ؛ يعني ما أدري فرحي لقدوم جعفر ، أو لفتح خيبر ؛ لأنَّ مطلوبنا القيام ، وهذا لا دلالة فيه على أنَّ القيام كان من النبيّ لجعفر من جمعة فرحه بفتح خيبر .
وكذلك حديث أبي هريرة ، وحديث واثلة لأنَّ قول الأصحاب (قمنا قياماً) ، حتى قوله (دخل بيوت بعض أزواجه) لا دلالة فيه على أنَّهم قائمين ـ هكذا وردت في الأصل ـ له (ص) ، وكذا قوله في حديث واثلة : (فاذا رآه أخوه تزحزح له) لاحتمال أنْ يكون التزحزح ، والتفسُّح بمعنى واحد . والمنكر لا ينكر التفسّح» .
(قاسم الدلبزي)
(٥) واثلة بن الأسقع بن كعب ، تُوفيّ سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م بدمشق عن (١٠٥) سنين .
(٦) سنن البيهقي ، (كتاب شعب الأيمان) .

ولعل هذا مبني على أن التواضع تختلف أقسامه باختلاف الأزمان، وكيف كان فالذي يظهر بعد التأمل التام إختلاف الأقوال والأفعال باختلاف المقاصد. ومن ذلك إختلاف أحوال الزُهَّاد، فبعض ترك المآكل والملابس الحسان، واقتصر على الجشب والخشن، وبعضهم يأكل من أطيب المأكول، ويلبس من أنعم الملبوس. وباعتبار اختلاف النيات دخل (العَمَلان) في قسم العبادات.

ثم إنَّ الأفعال المختلفة بعضها لا ينسب الى غير الله، كأيجاد الكائنات، وصنع المصنوعات. وبعضها لا ينسب الى الله، كأفعال القبائح والمُنَفِّرات، وبعضها تختلف معانيها ومقاصدها، فتنسب الى الخالق مرة، والمخلوق أخرى. وهذا الحُكم متمشٍ على قول مَنْ لم يُثبتْ فاعلاً سوى الله، وعلى قول من أثبت.

والمعيار أنه متى قام إحتمال إرادة وجه صحيح بني عليه، لقوله (ص): «إدرؤا الحدود بالشبهات»، «ولا تقل في الناس إلاَّ خيراً». وما دلَّ على النهي عن سوء الظن، فكيف بالشك.

وعن عائشة عن النبي (ص): إدرؤا الحدود عن المسلمين ما استطعتم[1].

فالناس إذن في صدور أمثال هذه الأمور عنهم على أنحاء:

بين علماء عاملين، مقاصدهم صحيحة، فلا يتعمدون بالأقوال والأفعال، إلا الوجوه السليمة من القيل والقال.

وبين أعوام جُهَّال بنوا على ما بني عليه علماؤهم على الإجمال، وليس لهم قابلية التفتيش على حقيقة الحال، فهم أيضاً معذورون عند ربِّ العزة والجلال.

وبين من بنوا على طريق الضلال، وعليهم المؤاخذة بضروب النكال.

والتحقيق أنَّ تبدل الأحكام بتبدل الموضوعات، ليس من باب التشريع والإبداع، مثلاً يستحب للنساء التزين لرجالهن، فمنذ كان لبس السواد زينة إستُحب، فإذا انعكس وصار الميل إلى الأحمر والأصفر إنعكس الخطاب. وألوان اللباس تختلف باختلاف الناس، ففي كل بلاد يستحب لون ونوع، فإنه قد يكون في مكان لباس شهرة، وفي آخر بعكسه، وفي موضع من لباس النساء، وفي موضع بعكسه.

وكذا كانت رغبة الناس في طيب الكافور، فكرهه اليوم.

---

(١) المستدرك للحاكم، جـ١، ص٣٨٤.

وكذلك إكرام الضيف بالمآكل ، وكذا المراكب ، فيختلف الحال باختلاف الأحوال .

وكذا طريق التواضع ، وتعلية البناء ، ولباس الزهد .

والزهد في المأكول يختلف باختلاف الأزمنة ، والأمكنة ، والأحوال ، والمقاصد ، وعلى ذلك مبنى كثير من إختلاف الأخبار .

وكذا يستحب التأهب لجهاد الكفار بأحسن السلاح ، وكان أطيبها السيوف والرماح ، وصار الأحسن في هذه الأيام (التفك)[1] المعروف بين الأنام .

وكذا الوصول الى بعض الأرضين لا يستحب ، حتى تجعل مقبرة للمسلمين .

فاختلاف الأزمنة والأمكنة والجهات ، قد يبعث على اختلاف الأحكام ، لأختلاف الموضوعات ، وربما بني على ذلك إختلاف كثير من الأخبار ، وطريقة المسلمين على اختلاف الأعصار .

وفقنا الله وإياكم لسلوك الجادة المستقيمة ، والأخذ بالطريقة السليمة ، وردني الله إليك إنْ كنتَ أنتَ على الحق ، وردَّكَ إليَّ إنْ كان الحقُّ معي ، ومع أكثر الخلق .

الفصل الثاني

في بيان اختلاف ظواهر الآيات والروايات

وإن لكلٍّ من الحق والباطل مأخذاً ، كما روي : إنَّ لكل حق حقيقة ، ولكل صواب نوراً ، فمن أراد الحق إهتُدي إليه ، ومَنْ أراد الباطل كان له ميدان في المجادلة عليه . فمن خرج عن جادة الأنصاف ، وسلك طريق الغي والأعتساف ، ولم يرجع الى سيرة الصحابة والتابعين ، أمكنه أن يستند الى ظاهر القرآن المبين ، فيما يخرج عن شريعة سيد المرسلين .

فأن (الوعيدية) المنكرين للعفو ، الموجبين للمؤاخذة على المعاصي ، يمكنهم الإستدلال بآية سورة الزلزال «فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَهُ»[2] ، و(الوعدية) القائلين برفع المؤاخذة بالكلية ، وان الله لا يعاقب على معصية ، لهم الإستناد

(١) وفي نسخة (البُندق) ، ويقصد بها البنادق .
(٢) القرآن الكريم : ٩٩/٧ ـ ٨ (سورة الزلزلة) .

الى قوله تعالى : «يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللّهِ إنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعاً»[١] ، ووعده لا خلف فيه .

والمثبتون للرؤية في الآخرة يستندون الى قوله تعالى : «وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ الى رَبِّها ناظِرَةٌ»[٢] ، والنافون الى قوله تعالى : «لا تُدرِكُهُ الابصار وهو يُدرِكُ الأبصار»[٣] .

والقائلون بأن الله على العرش بآية «عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوى»[٤] ، والنافون بقوله تعالى : «إنّ اللّه مَعَنا»[٥] و«إنّ مَعي رَبّي سَيَهْدينِ»[٦] «وَما يَكُونُ مِنْ نَجْوى ثَلاثَةٍ إلاّ هُوَ رابِعُهُمْ»[٧] .

والقائلون بالتجسيم على الحقيقة يستندون الى مثل قوله : «يَدُ اللّهِ فَوْقَ أَيْديهِمْ»[٨] ، والنافون الى قوله «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيءٌ»[٩] ونحوها .

والقائلون بجواز المعصية على الأنبياء يستندون الى مثل قوله تعالى : «وَعصى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوى»[١٠] ، والنافون بمثل قوله : «لا يَنالُ عَهْدِيَ الظّالِمينَ»[١١] .

والقائلون باستناد جميع الأفعال إلى الله ، استندوا إلى قوله : «خالِقُ كُلِّ شَيءٍ»[١٢] وقوله : «كُلٌّ مِنْ عِنْدِ الله»[١٣] .

والآخرون الى قوله «ما أَصابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِن اللهِ وَما أَصابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنْ نَفْسِكَ»[١٤] .

والقائلون بأن الكفار مخاطبون بالفروع بعموم «يا أَيُّهَا الناسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ»[١٥] ، والنافون

(١) القرآن الكريم : ٥٣/٣٩ (سورة الزمر) .
(٢) القرآن الكريم : ٢٣/٧٥ (سورة القيامة) .
(٣) القرآن الكريم : ١٠٣/٦ (سورة الأنعام) .
(٤) القرآن الكريم : ٥/٢٠ (سورة طه) .
(٥) القرآن الكريم : ٤٠/٩ (سورة التوبة) .
(٦) القرآن الكريم : ٦٢/٢٦ (سورة الشعراء) .
(٧) القرآن الكريم : ٧/٥٨ (سورة المجادلة) .
(٨) القرآن الكريم : ١٠/٤٨ (سورة الفتح) .
(٩) القرآن الكريم : ١١/٤٢ (سورة الشورى) .
(١٠) القرآن الكريم : ١٢١/٢٠ (سورة طه) .
(١١) القرآن الكريم : ١٢٤/٢ (سورة البقرة) .
(١٢) القرآن الكريم : ١٠٢/٦ (سورة الأنعام) .
(١٣) القرآن الكريم : ٧٨/٤ (سورة النساء) .
(١٤) القرآن الكريم : ٧٩/٤ (سورة النساء) .
(١٥) القرآن الكريم : ٢١/٢ (سورة البقرة) .

لذلك بخطاب «يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا»[1] الى غير ذلك .

وكذا في الفروع الفقهية ، فأنَّ كلاً من الفقهاء له مأخذ من الكتاب والسنة ، مغاير لمأخذ صاحبه ، كما لا يخفى على المتتبع ، فلمن أراد أن يُبيحَ جميع الأشياء قوله تعالى : «خَلَقَ لَكُمْ ما في الأَرْضِ»[2] ومن قصر التحريم على أربعة استند الى ما دل على تحليل جميع الأشياء ما عدا الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أُهِلَّ به لغير الله ، من جميع ما خلق الله .

والحاصل أنَّ كُلَّ مَنْ أراد العناد والعصبية ، فله مَدْرَك يتشبث به من آية قرآنية ، أو سُنَّة مُحَمَّدية ، ويكون صاحب مذهب ورأي ، يباحث الفضلاء ، ويُناظر أساطين العلماء ، ما لم يكن له حاجب من تقوى الله .

ولقد أجاد بعض القدماء ، من فحول العلماء حيث يقول : إنَّ المسائل الشرعية عندي بمنزلة الشمع اللّين ، أُصوِّرهُ كيف شئتُ لولا تقوى الله .

ونُقلَ أنَّ بعضَ الفضلاء أخذ قطعةً من قرطاس في محفل من الناس ، فأورد عليهم براهين على أنَّها قطعة ذهب ، حتى أقرّوا بذلك .

ولكن مَنْ أراد رضا الجبار ، ورجا الفوز بالجنة ، وخاف عذاب النار ، ينظر الى المعادلة في الدلالات ، ثم ينظر المرجحات الخارجيات ، وأولاها التأمل في طريقة الصحابة وسيرتهم ، فأنَّها أعظم شاهد على ما حَكَمَ به الجبار ، وجرت عليه سُنَّةُ النبيِّ المختار (ص) فأنَّ لكل ملّة طريقةً يرجعون إليها ، ويُعوِّلون عند وقوع الأشتباه عليها .

وقد يحصل العلم بما عليه الأمراء ، من النظر الى عمل أتباعهم ، وأشياعهم ، ورعاياهم ، وخدمهم ، وحشمهم ، لأنَّ الأثر يدل على مؤثره ، والمنتهى يدل على مصدره .

وبُعدُ العهد بيننا وبين زمان (الصدور) ، رُبَّما أخفى علينا كثيراً من الأمور ، فاذا حصل الأجماع والأتفاق ، إرتفع النزاع والشقاق ، وكذلك إذا اشتهر أمر بين السلف وظهر ، فلا وجه للأنصراف عنه الى ما شذَّ وندر .

فقد علم أنَّ الميزان الذي لا عيب فيه ، ولا نقص يعتريه ، هو الرجوع الى كلام الصحابة ، والتابعين ، وتابعي التابعين ، لأنه موضح وكاشف لحكم سيد المرسلين .

---

(١) القرآن الكريم : ١٠٤/٢ (سورة البقرة) .
(٢) القرآن الكريم : ٢٩/٢ (سورة البقرة) .

ولمّا اختلفت الأخبار في بعض ما أوردناه وشرحناه ، لزم الرجوع إليهم ، والأعتماد في تصحيح الأخبار ـ بعد الله ـ عليهم .

على أنَّ الأخبار الدالة على جواز ما منعه المانعون أكثر مورداً ، وأوفر عدداً ، وأقرب إلى ظاهر الكتاب والسنة وكلام الأصحاب .

وفقنا الله وإياكم لأدراك حقائق الأمور ، والتوفيق للسعادة يوم النشور ، وجعلنا من المتمسكين بالعروة الوثقى ، والمتشوقين إلى دار الآخرة التي هي خير وأبقى ، والله ولي التوفيق ، وبيده أزمة التحقيق .

الفصل الثالث

في بيان الميزان التي يُرجع إليها إذا تشابهت الأمور

وهي ما عليه الصحابة والتابعون ، وما أجمع عليه المسلمون . قال الله تعالى : «وَمَنْ يَتَّبع غَيْرَ سَبيلِ الْمُؤْمنينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلّى»[1] وقال : «إنّما يُريدُ اللّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ»[2] .

وعن إبن عمر ، أنه قال : لا تجتمع أمتي ـ أو قال : (أُمّة مُحمَّد) ـ على ضلال . ويد الله على الجماعة ، ومن شذَّ شذَّ في النار ، رواه الترمذي[3] .

وعن إبن عمر ، عن النبي (ص) أنه قال : إتبعوا السواد الأعظم ، فأنه من شذَّ شذ في النار[4] .

وعن عمر ، عن النبي (ص) انه قال : مَنْ سرَّهُ بُحبوحة الجنة فليلزم الجماعة ، فأن الشيطان مع الفرد ، وهو من الأثنين أبعد[5] .

وعن أسامة بن شريك[6] ، عن النبي (ص) : أيما رجل يفرق بين أمتي فاضربوا عنقه ،

(١) القرآن الكريم : ١١٥/٤ (سورة النساء) .
(٢) القرآن الكريم : ٣٣/٣٣ (سورة الأحزاب) .
(٣) سنن الترمذي (كتاب الفتن) ـ باب ما جاء في لزوم الجماعة ـ .
(٤) مسند أحمد بن حنبل ، جـ٤ ، ص٣٨٣ .
(٥) سنن الترمذي ، حديث ٢١٦٥ .
(٦) أسامة بن شريك الثعلبي الذبياني ، كان من الصحابة ، سكن الكوفة .

رواه النسائي[1] .

وعن النبي (ص) إن الله أجاركم من ثلاث خلال ، وعدَّ منها : أن تجتمعوا على الضلال[2] .

وعن النبي (ص) : ما إجتمعت أمتي على الخطأ[3] .

وقال علي (ع) : في بعض خطبه : عليكم بالسواد الأعظم ، وإن الشاذة للذئب[4] .

وعن عمر ، عن النبي (ص) : أصحابي كالنجوم بأيّهم إقتديتم إهتديتم .

وعن رزين ، عن عمر ، عن النبي (ص) قال : سألتُ ربي عن اختلاف أصحابي ، فأوحى إليَّ : إنَّ أصحابك بمنزلة النجوم . بعضها أقوى من بعض ، ولكُلٍّ نور ، فمَنْ أخذ بما هم عليه من اختلافهم ، فهو عندي على هدى[5] .

وعن النبي (ص) : إنَّ مثل أهل بيتي كسفينة نوح ، مَنْ ركبها نجى ، ومن تخلَّف عنها هلك[6] .

وعن أبي هريرة ، عن النبي (ص) : لو سلك الناس وآدياً ، وسلك الأنصار وآدياً أو شعباً ، لسلكتُ وآدي الأنصار[7] .

وعن زيد بن أرقم[8] ، قال : قام النبي (ص) خطيباً ، فقال : أيُّها الناس إنما أنا بشرٌ يوشك أن يأتيني رسولُ ربي فأُجيب ، وأنا تاركٌ فيكم الثقلين : كتاب الله فيه الهدى ، وأهل بيتي ، أُذكركم الله في أهل بيتي ، رواه مسلم[9] .

وعن جابر[10] ، قال : رأيتُ النبيَّ (ص) في حجّه يخطب ، فسمعتُه يقول : يا أيُّها

---

(١) سنن النسائي (كتاب تحريم الدم) ، حديث ٣٩٥٧ ؛ وصحيح مسلم ، جـ٣ ، ص١٤٧٩ .
(٢) سنن أبي داود ، حديث ٤٢٥٣ .
(٣) سنن ابن ماجه ، حديث ٣٩٥٠ .
(٤) نهج البلاغة ، الخطبة (١٢٧) .
(٥) كنز العُمّال ، المجلد الأول ، ص١٨١ ، حديث ٩١٧ .
(٦) مستدرك الحاكم ، جـ٣ ، ص١٥٠ .
(٧) صحيح مسلم ، حديث ١٣٥ .
(٨) زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي ، أقام بالكوفة أيام المختار ، وتُوفيَ فيها سنة ٦٦هـ ، وقيل سنة ٦٨هـ/ ٦٨٧م .
(٩) صحيح مسلم (فضائل الصحابة) ، حديث ٤٤٢٥ ؛ ومسند أحمد بن حنبل ، (مسند الكوفيين) ، حديث ٨٤٦٤ ؛ وسنن الدارمي (فضائل القرآن) ، حديث ٣١٨٢ .
(١٠) جابر بن عبد الله الأنصاري ، توفي سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م ، عن (٩٤) عاماً .

الناس إني تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي ، رواه الترمذي[1] .

وقريبٌ منه ما رواه زيد بن أرقم[2] .

وعن حذيفة ، عن النبي صلَّى الله عليه وآله : إقتدوا باللذين من بعدي : أبي بكر ، وعمر[3] .

وعن جبير بن مطعم[4] ، عن النبي (ص) : أنَّ إمرأته قالت للنبي (ص) : إن لم أجدك فإلى مَنْ أرجع ، فقال : إئت أبا بكر[5] .

وعن إبن عمر ، عن النبي (ص) : وُضعَ الحق على لسان عمر يقول به[6] .

وعن أبي داود ، عن أبي ذرّ ، قال : إنَّ الحق وضع على لسان عمر يقول به[7] .

وعن عقبة بن عامر ، عن النبي (ص) : أنه قال : لو كان بعدي نبيّ لكان عمر بن الخطاب[8] .

وعن سعد بن أبي وقاص أنَّ النبيَّ (ص) قال لعلي (ع) : أنتَ مني بمنزلة هارون من موسى[9] .

وعن عبد الله بن عمرو[10] ، عن النبي (ص) أنه قال : ما أظلت الخضراء ، ولا أقلّت الغبراء ، من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ ، رواه الترمذي[11] .

وعن النبيَّ (ص) أنه قال : اللهم أدرِ الحقَّ مع علي حيث ما دار ، رواه الترمذي[12] .

---

(١) سنن الترمذي (باب مناقب أهل بيت النبي ـ ص ـ) ، حديث ٣٧٨٦ .
(٢) أيضاً ، حديث ٣٧٨٨ .
(٣) أيضاً ، حديث ٣٦٦٢ .
(٤) جبير بن مطعم بن عدي القرشي النوفلي ، تُوفي سنة ٥٩هـ/ ٢٦٠م .
(٥) سنن الترمذي ، حديث ٣٦٧٦ .
(٦) أيضاً ، حديث ٣٦٨٢ .
(٧) أيضاً ، حديث ٣٦٨٢ .
(٨) سنن الترمذي ، حديث ٣٦٨٦ .
(٩) المصدر السابق ، حديث ٣٧٣١ .
(١٠) هو ابن عمرو بن العاص السهمي القرشي ، صحابي ، أقام في مصر ، وتُوفي في الطائف سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م .
(١١) سنن الترمذي ، حديث ٣٨٠١ ؛ وسنن ابن ماجه (المقدمة) ، حديث ١٥٢ .
(١٢) سنن الترمذي (كتاب المناقب) ، حديث ٣٦٤٧ .

وعن عمار، أنَّ النبيَّ (ص) قال: إذا سلك الناس طريقاً، وسلك عليٌّ غيره، فأسلك طريق علي (ع).

وعن إبن مسعود، عن النبي (ص) قال: مَنْ كان مستناً فليستن بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد (ص) كانوا أفضل هذه الأمة، أبرها قلوباً، وأعمقها علماً. إلى أنْ قال: فاعرفوا لهم فضلهم، واتبعوهم على إثرهم، وتمسكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرتهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم، رواه رزين[1].

وعن عرباض بن سارية[2]، قال: صلّى بنا رسول الله (ص)، ووعظ ثم قال: إنه من يعيش منكم بعدي فسيرى إختلافاً كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، تمسكوا بها، وعضُّوا عليها بالنواجد، وإياكم ومحدثات الأمور، فأن كل محدثة بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة، (رواه أحمد، وغيره)[3].

وعن أبي هريرة، عن النبي (ص) أنه: من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة مات ميتة جاهلية[4].

وعن الحارث الأشعري[5]، عن النبي (ص) أنه قال: مَنْ خرجَ عن الجماعة قدر شبر، فقد خلع ربقة الأسلام من عنقه.

وعن ابن عباس، عن النبي (ص): إنَّ مَنْ فارق الجماعة قدر شبر مات ميتة جاهلية[6].

وعن عبد الله بن عمرو، عن النبي (ص): إنَّ أمته تفترق ثلاث وسبعين فرقة، وليس فيها ناج سوى واحدة، فسُئِلَ عنها، فقال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي[7].

إلى غير ذلك من الأخبار.

---

(١) صحيح مسلم، جـ٤، ص١٩٦٢.

(٢) عرباض بن سارية السلمي الحمصي، صحابي، أقام في الشام، وتُوفي سنة ٧٥هـ/ ٦٩٤م.

(٣) مسند أحمد بن حنبل (مسند الشاميين)، حديث ١٦٦٩٢، ١٦٦٩٤، ١٦٦٩٥؛ وسنن الدارمي، (المقدمة)، حديث ٩٥؛ والترمذي (كتاب العلم)، حديث ٢٦٠٠؛ وابن ماجه (المقدمة)، حديث ٤٢، ٤٣.

(٤) وفي النسخة المطبوعة ورد الحديث كالآتي: «مَنْ مات، ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهلية». صحيح مسلم (كتاب الأمارة)، حديث ٣٤٤١.

(٥) هو الحارث بن الحارث الأشعري، صحابي، أقام في الشام.

(٦) مسند أحمد بن حنبل (مسند الشاميين)، حديث ١٦٧١٨ (ضمن حديث طويل)، وحديث ١٧٣٤٤.

(٧) سنن الترمذي (كتاب الأيمان)، حديث ٢٥٦٥.

ومقتضى ذلك أنه من اللازم الرجوع الى سيرة الصحابة وطريقتهم ، وانها الميزان إذا اشتكلت علينا الامور ، وتعارضت علينا الأدلة ، وسيتضح أن جميع ما ينكر من هذه الأفعال الموردة صادرة عن الصحابة ، وطريقتهم مستمرة عليه ، مع أن في السنة ما يدل على جوازه .

وما ورد عنه (ص) أنَّ الأسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً[1] ، فلا ينافي ما ذكرناه ، لأن فرقة الأسلام بين طوائف الكفر كنقطة في بحر .

وروى أبو سعيد الخُدري عن النبيِّ (ص) : ما أنتم في الناس إلاَّ كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود[2] . وعوده غريباً في أيام الدجّال ، ونحوه يكفي في صدق الخبر .

وروى عبد الله بن مسعود[3] عن النبي (ص) أنه قال : لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق ، رواه مسلم[4] .

وعن أبي سعيد الخدري[5] عن النبيّ أنه قال : لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الدنيا الله[6] .

وكل ما صدر في زمان الصحابة من الأعراب بمحضر منهم ولم ينكروه ، فهو موافق لرضاهم ، وإلاَّ لأنكروه . ولهذا أوردنا في هذه الرسالة كثيراً مما صدر في زمانهم من غيرهم .

وعلى كل حال ، فلا كلام في أنَّ الأدلة فيها عام ، وفيها خاص ، وفيها ناسخ ، وفيها منسوخ ، وفيها مجمل ، وفيها مبيّن ، وفيها مطلق ، وفيها مقيّد ، ومنها قطعي الصدور ظني الدلالة ، ومنها قطعي الدلالة ظني الصدور ، ومنها ظنيهما ، ومنها قطعيهما . ومن جهة إختلاف السند : منها صحيح ، وضعيف ، وحسن ، ومُوَثّق ، وقوي إلى غير ذلك .

فإذا تعارضت الأدلة ، فلابُدَّ من النظر الى المرجحات : من جهة السند ، أو من جهة

---

(١) صحيح مسلم ، حديث ١٤٥ .
(٢) صحيح البخاري (كتاب تفسير القرآن) ، حديث ٤٤٦٤ ؛ وصحيح مسلم (كتاب الأيمان) ، حديث ٣٢٧ ؛ ومسند أحمد بن حنبل (باقي مسند المكثرين) ، حديث ١٠٨٩٢ .
(٣) في صحيح مسلم ورد إسم عبد الله بن عمرو بن العاص .
(٤) صحيح مسلم (كتاب الأمارة) ، حديث ٣٥٥٠ .
(٥) في المصادر «أنس بن مالك» .
(٦) مسلم (كتاب الأيمان) ، حديث ٢١١ ؛ والترمذي (كتاب الفتن) ، حديث ٢١٣٣ ؛ ومسند أحمد (باقي مسند المكثرين) ، حديث ١١٦٣٢ . وزاد في المصادر كلمة (الله) مرّة ثانية في نهاية الحديث .

الدلالة ، أو من جهة سبك العبارة ، أو من جهة كثرة الرواية ، أو من جهة شهرة الفتوى ، أو من جهة موافقة الأصول ومخالفتها ، أو من جهة موافقة العمومات ومخالفتها ، أو من جهة موافقة الكتاب وعدمها ، الى غير ذلك .

فاذا فُقِدت المرجحات ، وقامت الحَيْرة ، فلا يبقى مدارٌ إلاَّ على سيرة الأصحاب ، وطريقتهم ، والنظر إلى ما هم عليه صاغراً عن كابر ، وما عليه الأول والآخر .

وما نحنُ عليه اليوم من طريقة القوم أكثر الروايات موصلة إليه ، وطريقة الأصحاب والصحابة مستمرة عليه ، وقد ذكرتُ منها قليلاً من كثير ليُعْلَم حال السلف ، ويرتفع الأنكار على خلفهم .

فيا أخي فَوَحَقٍّ من رفع السماء ، وبسط الأرض على الماء ، إني لَمَّا أحببتُكَ لمكارم أخلاقك ، وحسن سيرتك مع الناس ، وإرفاقك ، أخشى عليكَ من سراية القَدْح إلى المشايخ الكبار ،[1] والعلماء الأبرار ، الذين هم للشارع نواب ، ولأبواب الشرع بواب[2] ، عصمنا الله وإياكم ، وكفانا شرَّ الجهل وكفاكم ، والله الموفق .

وأما المقاصد فثمانية :

المقصد الأول
في تحقيق ضروب الكفر

وأقسامه كثيرة :

أولها : كفر الأنكار بإنكار وجود الأله ، أو إثبات أنَّ غير الله هو الله ، أو بأنكار المعاد ، أو نبوة نبينا أشرف العباد .

ثانيها : كفر الشرك بإثبات شريكٍ للواحد القهار ، أو في النبوة للنبي المختار .

ثالثها : كفر الشك ، بالشك في إحدى الثلاثة التي هي أصول الأسلام في غير محل النظر ، ولا عبرة بالأوهام[3] .

---

(١) في المطبوع : من حمل راية القدح في المشايخ الكبار .
(٢) في نصِّ مخطوطة العبقات : «لمدائن الشرع أبواب» .
(٣) في المطبوع زيادة عبارة : «التي هي كخيالات المنام» .

رابعها : كفر الهتك لهتك حرمة الدين ، بالبول على المصحف ، أو في الكعبة ، أو سب خاتم النبيين (ص) .

خامسها : كفرُ الجحود ، بأنْ يجحد باللسان أُصول الإسلام ، ويعتقدها بالجَنان ، قال تعالى : «وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ»[١] .

سادسها : كفر النفاق ، بأن ينكر في الجنان ، ويقرُّ باللسان ، كما قال تعالى : «وَمِنَ النّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنّا بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَما هُمْ بِمُؤْمِنِينَ»[٢] .

سابعها : كفر العناد ، بأن يقر بلسانه ، ويعتقد بجنانه ، ولم يدخل نفسه في ربقة العبودية ، بل يتجرأ على الحضرة القدسية ، كأبليس (لعنه الله) .

ثامنها : كفر النعمة ، بأن يستحقر نعمة الله ، ويرى نفسه كأنه ليس داخلاً تحت مِنّة[٣] الله .

تاسعها : كفر إنكار الضروري[٤] .

عاشرها : إسناد الخلق الى غير الله على قصد الحقيقة .

وليست جميع المعاصي العظام مخرجة عن الإسلام ، فأنَّ المعاصي لا تنفك على الدوام ، حتى في مبدأ حدوث الأسلام ، ولذلك وضعت الحدود والتعزيزات ، وأُقيمت الأحكام على ممرّ الأوقات .

نعم قد يُطلقُ على كثير منها إسم (الكفر) تعظيماً للذنب ، وتحذيراً منه ، وتشبيهاً لمؤاخذته ، لعظمها بمؤاخذة الكُفر .

فهو إذن في الشرع قسمان : كُفرٌ صغير ، لا يُخرِجُ عن إسم الأسلام . وكبيرٌ مخرجٌ عن إسمه بلا كلام .

ولو بنينا على أنَّ كُلَّ ما أطلق عليه إسم الكفر يكون مكفراً ، لم تنجُ إلاَّ شرذمةٌ قليلة من الورى . فأطلاق إسم الكفر قد يكون إستعظاماً للذنب ـ كما مرَّ ـ ، وقد يراد أنه ربما إنجرَّ بالأخرة الى ذلك . كما ورد في الحديث : إنَّ في قلب المؤمن نكتة بيضاء ، فاذا عصى

(١) القرآن الكريم : ١٤/٢٧ (سورة النمل) .
(٢) القرآن الكريم : ٨/٢ (سورة البقرة) .
(٣) في المطبوع : نعمة .
(٤) في المطبوع : الأنكار للضروري .

الله إسودَّ منها جانب، وهكذا إلى أنْ يتم سوادُها، فذلك الذي طبع الله على قلبه[1].

ومما يدل على أن لفظ (الكفر) يُطلقُ على سائر المعاصي كثيراً في كلام الشارع منها: ما رواه أنس، عن النبي (ص) أنه قال: لا دين لمن لا عَهدَ له[2].

وعن أبي هريرة، عن النبي (ص) أنه قال: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يقتل حين يقتل وهو مؤمن[3].

وعن أبي هريرة: عن النبي (ص): إن علامة النفاق الكذب، وسوء الخلق، والخيانة[4].

وعن عبد الله بن عمرو، عن النبيِّ (ص): إنَّ النفاق عبارة عن أربع: الخيانة، والكذب، والغدر، والفجور[5].

وعن أبي هريرة، عن النبي (ص): إن المرآء في القرآن كفر[6].

وعن النبي (ص) أنه قال: لا يترك[7] حضور الجماعة إلاَّ منافق[8].

وعن أبي ذر، عن النبي (ص): المسلم من سَلِمَ المسلمون من يده ولسانه[9].

وعن عبد الله بن مسعود، عن النبي (ص): إنَّ الرُقى والتمائم من الشرك[10].

وعن أبي هريرة، عن النبي (ص) أنه قال: مَنْ قال: مطرنا بكوكب كذا، فهو كافر[11].

---

(١) الموطأ (باب الكلام)، باب (١٨).
(٢) مسند أحمد بن حنبل، جـ٣، باب ١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١.
(٣) صحيح البخاري (كتاب الأشربة)، حديث ٥٢٥٦؛ وصحيح مسلم (كتاب الأيمان)، حديث ٨٦؛ والنسائي (كتاب قطع السارق)، حديث ٤٧٨٧.
(٤) صحيح مسلم، حديث ١٠٧.
(٥) أيضاً، حديث ١٠٦.
(٦) سنن أبي داود (كتاب السُنَّة)، حديث ٤؛ ومسند أحمد بن حنبل (الباب الثاني)، حديث ٢، ٢٥٨، ٢٨٦.
(٧) في المطبوع: يُفَوِّت.
(٨) صحيح مسلم، جـ١، ص٤٥١.
(٩) البيهقي، جـ١٠، ص١٨٧.
(١٠) المستدرك للحاكم، جـ٤، ص٢١٧.
(١١) صحيح مسلم، جـ١، ص٨٤.

وعن زيد بن خالد[1] ، عن النبي (ص) أنه مَنْ قال : مطرنا بنوء كذا ، فهو كافر[2] .

وعن أبي هريرة قال : قال رسول الله (ص) : من أتى حائضاً أو امرأته في دبرها ، فقد كفر بما أُنزلَ على مُحمَّد ، رواه الدارقطني ، وابن ماجة ، والترمذي[3] .

وروى عمر بن لبيد ، عن النبي (ص) : إنَّ الرياء الشرك الأصغر[4] .

وعن أبي سعيد ، عن النبي (ص) : إنَّ الرياء الشرك الخفي[5] .

وعن عمر بن الخطاب ، عن النبي (ص) : إنَّ يسير الرياء شرك .

وعن شداد بن أُوس[6] ، عن النبي (ص) : من صلَّى برياء[7] ، فقد أشرَكَ ، ومَنْ صام برياء ، فقد أشرك ، ومَنْ تصدَّقَ برياء ، فقد أشرك .

وروي : إنَّ تارك الصلاة كافر[8] ، إلى غير ذلك .

بل قلَّما يسلم شيء من المعاصي من إطلاق إسم الكفر ، فلا تبقى ثمة حدود ولا تعزيرات ، ولزم الحكم بالأرتداد ، وكفر العباد ، ولا ينجو من الكفر إلاَّ قليلٌ من الأحياء والأموات ، ولنادت الخطباء بذلك على رؤوس الأشهاد ، ولشاع ذلك في أقاصي البلاد ، مع أن المعهود من سيرة النبي (ص) والصحابة ، والتابعين ، وتابعي التابعين معاملة الناس على الأكتفاء بأظهار الشهادتين .

وعنه (ص) : أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا الشهادتين .

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله (ص) أُتي بمخنث قد خضب يديه ورجليه بالحِنَّاء ، فقال : ما بال هذا؟ قالوا : يتشبَّهُ بالنساء ، فنفاه إلى (البقيع) ، فقيل : يا رسول الله ألا تقتله؟ فقال : نُهيتُ عن قتل المُصَلِّين .

---

(١) زيد بن خالد الجهني المدني ، أبو عبد الرحمن ، صحابي ، أقام بالكوفة ، وتوفي في المدينة سنة ٦٨هـ / ٦٨٧م .

(٢) صحيح مسلم (باب بيان كفر مَنْ قال مطرنا بالنوء) .

(٣) سنن ابن ماجه ، جـ١ ، ص٢٠٩ ، حديث ٦٣٩ ، وسنن الترمذي ، جـ١ ، ص٢٤٣ .

(٤) مسند أحمد بن حنبل ، جـ٥ ، ص٤٢٨ .

(٥) ابن ماجه ، جـ٢ ، ص١٤٠٦ ، حديث ٤٢٠٤ .

(٦) شدَّاد بن أوس بن ثابت الخزرجي ، تُوفي سنة ٥٨هـ / ٦٧٨م عن (٧٥) عاماً .

(٧) في المطبوع : «وهو يُرائي» .

(٨) سنن ابن ماجه ، جـ١ ، ص٣٤٢ .

وروى عبد الله بن مسعود ، عن النبي (ص) : إنَّ قتال المسلمين كفر[1] .

وعن إبن عمر ، عن النبي (ص) : إن نسبة المسلم الى الكفر كفر[2] .

وعن أبي هريرة ، عن النبي (ص) : إذا قال الرجل هلك الناس فهو أهلكهم[3] .

وعن ابن عمر قال رسول الله (ص) : أُمرتُ أنْ أُقاتل الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلاَّ الله ، وأنَّ مُحمَّداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ، ويؤتوا الزكاة ، فأنْ فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم ، وحسابهم على الله[4] .

وعن أنس أنه قال : قال رسول الله (ص) : مَنْ صلَّى صلاتنا ، واستقبل قبلتنا ، وأكل ذبيحتنا ، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله[5] .

الى غير ذلك من الأخبار .

وليس غرضي أنه لا طريق للكفر سوى ذلك ، ولكن يستفاد منها أنه بعد إظهار الشهادتين يبنى على الإسلام ما لم يعلم شيئاً ينافيه ، ولا حاجة الى التجسس ، بل نهى الله تعالى عنه .

وبيان الأمر على التحقيق : هو أنه قد عُلمَ أنَّ لسان الشارع جار على نحو لسان العرب ، ففيه حقائق ، ومجازات ، وإستعارات ، وكنايات ، وخطابات ، تشتمل على المبالغات ، كما أنَّ لساننا يشتمل على ذلك من غير إنكار ، فأنَّ الذنب إذا صدر من شخص وأردنا إستعظامه ، صَحَّ لنا أنْ نُسمِّيه كفراً ، وأنْ نسمي فاعله كافراً . ولا يزال ذلك يقع على مرور الأزمان من أيام النبي (ص) إلى هذا الآن ، مع أنه ليس في ذلك إنكار ، بل قد يُعَدُّ من أفعال الأبرار ، على أنَّ كُلَّ مَنْ صدر منه ذنبٌ ولو صغير ، لم يفِ بجزاء نِعَم اللطيف الخبير .

فأطلاق الكفر لعله من باب الكفر ببعض النعم الذي هو كفر صغير .

على أنَّ أنظار الأنبياء والأولياء ليس الى المعاصي ، حتى يكون فيها صغيرٌ وكبير ، بل إلى مَنْ عصاه الناس وهو اللطيف الخبير .

---

(١) صحيح مسلم ، جـ١ ، ص٨١ . (باب بيان قول النبي ـ ص ـ سباب المسلم فسوق وقتاله كفر) .
(٢) صحيح مسلم ، جـ١ ، ص٧٩ . (باب بيان حال ايمان مَنْ قال لأخيه المسلم يا كافر) .
(٣) مسند أحمد بن حنبل ، جـ٢ ، ص٤٦٥ .
(٤) صحيح مسلم ، جـ١ ، ص٥٣ ، حديث ٣٦ .
(٥) النسائي (باب المناسك) ، حديث ٢١١ .

فإذا لاحظتَ أنَّ المعصية كانت في حق الله ، تجدها ـ ولو صغرت ـ أكبر من الجبال الرواسي ، حتى أنه بلسان الورع والتقوى دون الفقه والفتوى ، ربما لا يفرق بين الصغائر والكبائر . بل ربما نقل عن بعض الأولياء أنه لا فرق بين المكروه والحرام ، والمسنونات وفرائض الأحكام ، قال : لأنَّ الكُلَّ مطلوب للملك العلام .

وإذا بُنيَ على هذا إستُحسن هذا الاطلاق ، وحسن إطلاق إسم المعاصي والمحرمات على فعل المكروهات ، والفرائض والواجبات على فعل المستحبات والمندوبات ، وكبائر الخطيئات على صغائر التبعات ، والكفر والكفار على كل مَنْ عمل ما يوجب دخول النار .

ولولا ذلك للزم كفر أكثر من في الأرض ، لأنَّه قلَّما خلت معصية مَنْ هذا الغرض ، ولو عملنا بجميع ظواهر الأخبار ، لاختلت علينا أحكام ملَّة النبيّ المختار ، وفقنا الله واياك ، وهدانا الله إلى الحق وهداك[1] .

المقصد الثاني

في تحقيق معنى العبادة

لا ريب أنه لا يراد بالعبادة التي لا تكون إلاَّ لله ، ومن أتى بها لغير الله ، فقد كفر مطلق الخضوع والخشوع والأنقياد ، كما يظهر من كلام أهل اللغة ، وإلاَّ لزم كفر العبيد والأجراء ، وجميع الخدام للأُمراء ، بل كفر الأبناء في خضوعهم للآباء ، وجميع مَنْ تواضع للإخوان ، أو لأحد من أصحاب الأحسان .

وإنما الباعث على الكفران ، الأنقياد لبعض العباد مع إعتقاد إستحقاقهم ذلك بالأستقلال من دون توجه الأمر من الكريم المتعال ، وأنَّ لهم تدبيراً واختياراً .

ولفظ (العبد) و(العبادة) قد يُطلقُ على مطلق المطيع والطاعة ، فقد ورد : أنَّ العاصي عبد الشيطان ، وإنه عبد الهوى . وإن الأنسان عبد الشهوات ، وإنَّ مَنْ أصغى إلى ناطقٍ فقد عبده .

ثم مَنْ إتبع قول قائل لأنه مُخْبِرٌ عن غيره ، فهو عابد للمُخْبِر عنه ، لا للمُخْبِر . ومَنْ خدم شخصاً بأمر آمر ، فالمعبود هو الآمر ، ومن تبرَّكَ بشيء لأمره ، كان ذلك من عبادة الآمر . فالملائكةُ في سجودهم لآدم ، ويعقوب في سجوده ليوسف ، والناس في تقبيلهم

---

(١) في المطبوع : وفقّنا اللّه وإياكم ، وهداك إلى الحقّ المُبين .

للحجر الأسود والأركان ، لم يعبدوا سوى مَنْ أمرهم بذلك .

ثم السجود والخضوع لعروض بعض الأسباب ، لا يُنافي الأخلاص لربِّ الأرباب .

روى أبو داود والترمذي ، عن عكرمة ، قال : قيل لأبن عباس : ماتت (فلانة) ـ بعض أزواج النبي (ص) ـ ، فخرَّ ساجداً ، فقيلَ له : تسجد في هذه الساعة؟ فقال : قال رسول الله (ص) : إذا رأيتم آيةً فاسجدوا ، وأي آية أعظم من ذهاب أزواج النبي (ص)[1] .

فعلى هذا لو سجَدَ مَنْ رأى ميتاً ، أو قبراً ، أو شيئاً عجيباً ، ذاكراً لعظمة الله ـ كما يصنعُهُ بعضُ العارفين ـ لم يكن به بأس .

وعبادة الأصنام وبعض الصالحين ، مع نهي الأنبياء والمرسلين الذين دلَّتْ على صدقهم المعاجز[2] والبراهين ، محض عناد وخلاف على رب العباد ، ولو أنهم أخذوا عن قول الله ورسله ، لم يكن عليهم إيراد .

كما أن (السيد) لو قال لعبده : تبرك بثياب (فلان) ، ونعله ، وترابه ، فَفَعلَ ، كان عابداً للمولى . وأمَّا لو نهاه المولى ، أو أخذ بمجرد الظن الذي لا يُغني عن الحقّ شيئاً ، أو الخَرْص[3] ، لكان عاصياً مخالفاً .

ألا ترى أنَّ مَنْ جعل المرضعات أُمهات ، ليس كمن جعل المصاهرات ، ومَنْ حرَّم الوصيلة ، والسائبة ، والحام[4] ، ليس كمن حرم الجلالة[5] من الأنعام .

وليس تحريم الأشهر الحرام كتحريم غيرها من باقي أشهر العام ، وليس صيام آخر شهر رمضان كصيام أول شوال . كل ذلك للفرق بين الأمر والأختراع ، والقول بمجرد

---

(١) سنن أبي داود ، جـ١ ، ص٣١١ ، حديث ١١٩٧ ؛ وسنن الترمذي ، جـ٥ ، ص٦٦٥ ، حديث ٣٨٩١ .

(٢) في المطبوع : المعجزات .

(٣) الخَرْص : الحدس ، و الكذب والأفتراء .

(٤) من معتقدات العرب أنَّ الوصيلة من الغنم (وهي الشاة) إذا ولدت أُنثى فهي لهم ، واذا ولدت ذكراً ـ أوقفوه لآلهتهم ، فانْ ولدت ذكراً وأنثى قالوا وصلتْ أخاها ، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم .
أمَّا السائبة فقد كان الرجل إذا نذر القدوم من سفر ، أو الشفاء من علّة ، فانَّ ناقته ستكون سائبة (أي لا تستخدم للانتفاع بها ، ولا تخلّى عن ماء ، أو تمنع عن مرعى) .
والحام هو الذكر من الأبل اذا انتجت من صُلب الفحل عشرة أبطن قال العرب قد حمى ظهره ، فلا يُحمل عليه .
وقد حرَّم القرآن هذه المعتقدات كما وردَ في سورة المائدة ، آية (١٠٣) قوله تعالى : «ما جعل اللّه من بَحيرةٍ ولا سائبة ، ولا وَصيلَة ، ولا حام ، ولكنَّ الذين كفروا يفترون على اللّه الكذب ، وأكثرهم لا يعقلون» .
والبحيرة هي الشاة التي تُبحرُ أذنُها (أي تُشقّ) علامة على تحريم الانتفاع بها .

(٥) الحيوان الجلاّل : هو الذي يأكل العذرة ، وقد ورد النهيُ عن أكل لحمه ، وشرب لبنه .

الأبتداع[1] .

ثم (العبادة) تختلف بأختلاف النيّات ، فمَنْ قصد حقيقة العبادة إختراعاً وابتداعاً ، ومخالفة لأمر الله سبحانه كان كافراً ، سواءً قصد القرب إلى الله زلفى أو لا ، بل هذا في الحقيقة عين العناد والشقاق بعد نهي الأنبياء والرسل .

كما قال قوم (شعيب) له : «يا شُعَيْبُ أصلاتُك تأْمُرُكَ اَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا أوْ أنْ نَفْعَلَ في أمْوالِنا ما نَشاءُ»[2] .

وقال الصدّيق : «يا صاحِبَي السِّجْن أأرْبابٌ مُتَفرِّقُونَ خَيْرٌ أم اللّه الواحد القهّار ، ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إلا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ»[3] .

وحكى الله عن قوم نُوح وعادٍ وثمُود أنّهم ردّوا أيديهم في أفواههم ، وقالوا : «إنّا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإنّا لَفي شَكٍّ مِمّا تَدْعُونَنا إلَيْهِ مُريب»[4] الى غير ذلك من الآيات الدالة على ردِّهم على الأنبياء ، وبنائهم على الأختراع والأبتداع .

وفي الأحتجاج : في حديث طويل عن النبي (ص) أنه أقبل في مشركي العرب ، فقال لهم : وأنتم فلم عبدتم الأصنام من دون الله؟ فقالوا : نتقرب بها الى الله زلفى ، فقال : أو هي سامعة مطيعة عابدة لربها حتى تتقرّبوا بها إلى الله؟ قالوا : لا ، قال : أفأنتم نحتموها بأيديكم؟ فقالوا : نعم ، قال : فلئن تعبدكم هي أحرى من أن تعبدوها ، إذا لم يكن أمركم بتعظيمها من هو العالم بمصالحكم ، وعواقبكم ، والحكيم فيما يكلّفكم[5] .

فإذا كان الله قد نهى على لسان أنبيائه عن عبادة الأصنام والصالحين من الأنام ، على نحو عبادة الصلاة والصيام ، فَفعلُهم بعد ذلك ردٌ لكلام العليم العلام .

وكشف الحقيقة : إنَّ العبادة إنْ أُريد بها مجرد الأمتثال والطاعة ، كانت الزوجة ، والأمة ، والعبد ، والخادم ، والأجير ، ونحوهم ، عابدين لغير الله .

وإن أُريد الأمتثال والأنقياد للعظيم في ذاته ، المستوجب للطاعة ، لا بواسطة أمر غيره ،

(١) في المطبوع : للفرق بين الأمر والاتباع ، والقول بمجرد الأختراع والأبتداع .
(٢) القرآن الكريم : ٨٧/١١ (سورة هود) .
(٣) القرآن الكريم : ٣٩/١٢ ـ ٤٠ (سورة يوسف) .
(٤) القرآن الكريم : ٩/١٤ (سورة إبراهيم) .
(٥) أوردها أحمد بن علي الطبرسي (من علماء القرن الخامس الهجري) في كتاب الاحتجاج ، جـ١ ، (بيروت ، ١٩٨١) ، ص٢٦ .

فأين ذلك من أفعال المسلمين .

فأُقسمُ عليك بَمنْ سلَّطَكَ على طائفة من عباده ، ومكَّنَكَ من كثير من بلاده ، أنْ تخلّي نفسك من حب الأنفراد ، الباعث على الأمتياز بين العباد ، وتحذر من قولهم . «لكُلِّ جديد لذَّة» ، و«خَالِفْ تُعْرَفْ» . كما أني أُحذِّر نفسي ، وأصحابي مِنْ حُبِّ إتباع الآباء والأجداد ، وإرادة الدخول في الجماعة ، وكراهة الإنفراد .

وأمَّا ما صدر من أهل الإسلام ، فإنَّما هو عن أمر زعموه ، فأنْ كان حقاً أُثيبوا ، أو كان خطأً فكذلك .

فأين حال المسلمين من حال مَنْ جعل الآلهة ثلاثة ، أو اثنين ، واتخذَ الملائكة أرباباً ، واتخذ بعض المخلوقين أنداداً وشركاء ، يُعْبَدُوْنَ من دون الله أو مع الله ، إمَّا لأهليتهم ، أو لترتب التقرب الى الله زلفى من دون أمر الله لهم بذلك ، قال تعالى : «ما أَنْزَلَ اللّهُ بِها مِنْ سُلْطان»(١) .

ورُوِيَ أنَّ (قريشاً) كانوا يعبدون الأصنام ، ويقولون : ليقربونا الى الله ، ولا طاقة لنا على عبادة الله . وسيجيء في بعض المقامات الآتية ما يكشف عن حقيقة ذلك .

وإن أردتَ تمام الكلام في هذا المقام ، فأنظر بعين البصيرة إلى ما نحاول في هذا المقام تحريره .

إعلم أنَّ الألفاظ اللغوية والعُرفية العامَّة ، قد تبقى على حالها من المعاني القديمة ، فتلك لا تحتاج إلى بيان ، سواءً وردت في السُنَّة أو القرآن .

وأمَّا إذا نُقلتْ عن المعاني الأولية إلى غيرها ، أو إسْتُعملِتْ في المعاني الثانوية على وجه المجازية ، فهي من المجمل المحتاج الى البيان ، كلفظ الصلاة والصيام والحج ، فأنه لو لم يبينها الشرع لبقيت على إجمالها ، حيث لا يراد منها مطلق الدعاء والأمساك والقصد ، بل معنى جديد ، تتوقف معرفتُهُ على بيان وتحديد .

ومن هذا القبيل ما نحن فيه من لفظ العبادة والدعاء ونحوهما ، فأنه لا يراد بهما في لحوق الشرك بهما المعنى القديم ، وإلاَّ للزم كفر الناس من يوم آدم إلى يومنا هذا . لأنَّ العبادة بمعنى الطاعة ، والدعاء بمعنى النداء والأستغاثة للمخلوق لا يخلو منها أحد .

ومن أطوع من العبد لسيده ، والزوجة لزوجها ، والرعية لملوكها ، ولا زالوا ينادونهم ،

---

(١) القرآن الكريم : ١٢/٤٠ (سورة يوسف) .

ويطلبون إعانتهم ومساعدتهم ، بل الرؤساء لم يزالوا يستغيثون بجنودهم وأتباعهم ويندبونهم .

فعُلِمَ أنّه لا يُرادُ بهذه المذكورات ، المعاني السابقات ، وتَعيّن إرادة المعاني الجديدة ، فصارت بذلك من المجملات والمتشابهات ، فلا يجوز الحكم بمقتضاها ، إلاّ في الموضع المعلوم دون المشكوك والموهوم .

وإنّما هو خطاب الوضيع لمن شأنه رفيع ، على أن يكون مالك التصرف ، أو خدمته الخاصة لرفعته الذاتية ، وشرافته الأصلية ، من دون أمر آمر ، ولا تكليف مكلف ، بل من مجرد الأبتداع والأختراع .

وأما ما كان عن أمر آمر ، فالمعبود هو الآمر ، ولا فرق بين أن يقول : ضع جبهتك في الصلاة على الأرض ، أو على بدن إنسان ، أو غير ذلك ، وبين أن يقول : ضعها على (قبر) كذا ، أو (حجر) كذا .

وإنّما كُفِّرَ عبدةُ الأصنام ، لأنهم فعلوا ما يُعدُّ عبادةً من دون أمر الله ، ولأنهم خالفوا أنبياء الله في نهيهم عن تلك الأشياء ، فكانت قصد تقربهم فيما نهى الله عنه . إمّا بناء على أن الأصنام للجبار قاهرون ، فيقربونهم قهراً ، أو كان إستهزاءً بالرسل ، وتكذيباً لهم ، وكل من الكُفْرَين أعظم من الآخر ، فأنَّ المتقربين محصِّل كلامهم أنّا نخالف أمر الله ، وأمر رسوله ونعبد ما نُهينا عن عبادته ليقربنا إلى الله .

المقصد الثالث

في الذبح لغير الله

لا يشك أحدٌ من المسلمين في أنَّ من ذبح لغير الله ذبح العبادة (كما يذبح أهل الأصنام لأصنامهم حتى يذكروا على الذبائح أسماءهم ، ويهلون بها لغير الله) ـ خارجٌ عن ربقة المسلمين ، سواءً إعتقدوا آلهيتهم ، أو قصدوا أن يقربوهم زلفى ، لأنَّ ذلك من عبادة غير الله تعالى .

وأما من ذبح عن الأنبياء أو الأوصياء ، أو المؤمنين ليصل الثواب إليهم ، كما يُقرأ القرآن ويُهدى إليهم ، ونصلي لهم وندعو لهم ، ونفعل جميع الخيرات عنهم ، ففي ذلك أجرٌ عظيم ، وليس قصد أحد من الذابحين للأنبياء أو لغيرهم سوى ذلك .

أما العارفون منهم ، فلا كلام . وأمَّا الجُهَّال ، فهم على نحو عرفائهم .

وقد رُويَ عن النبي (ص) أنه ذبح بيده ، وقال : اللَّهُم هذا عنّي ، وعن مَنْ لم يُضح من أمتي . رواه أحمد ، وأبو داود ، والترمذي[1] . وفي سنن أبي داود أنَّ علياً كان يُضَحّي عن النبي (ص) بكبش ، وكان يقول : أوصاني أن أُضحي عنه دائماً[2] .

وعن علي (ع) أن النبي (ص) أوصاني أن أُضحي عنه[3] .

وعن بُريدة ، عن النبيّ (ص) أن إمرأةً سألَتْهُ هل تصوم عن أُمِّها بعد موتها؟ وهل تحج عنها؟ قال : نعم[4] .

وعن إبن عباس عن النبي (ص) أنه قال : تقضي البنتُ نَذْرَ أُمِّها[5] .

ورُويَ أنَّ العاص بن وائل أوصى بالعتق فسأل إبنه عمرو النبيَّ (ص) عن العتق له ، فأمره به .

ورُويَ عن عائشة أنَّ النبي (ص) قال عند الذبح : اللَّهُم تقبل من مُحمَّد ، وآله ، وأُمته .

والحاصل لا كلام ولا بحث في أنَّ أفعال الخير تُهدى إلى الموتى ، ومَنْ أولى بالهدايا من أنبياء الله وأوصيائه ، فليس الذبح لهم وبأسمهم ، حتى يكون الأهلال لذكرهم ، وإنما ذلك عملٌ يُهدى إليهم ثوابُهُ كسائر الأعمال ، حتى أنَّهُ لو ذكر إسمهم على الذبيحة ، كان ذلك عند المسلمين منكراً ، فهو ذبح عنهم لا لهم .

وإني ـ والذي نفسي بيده ـ منذ عرفتُ نفسي إلى يومي هذا ، ما رأيتُ ، ولا سمعتُ أحداً من المسلمين ذبحَ أو نحرَ ، ذاكراً لأسم نبي ، أو وصي ، أو عبد صالح ، وإنَّما يقصدون إهداء الثواب إليهم ، فإن كان في أطرافكم قبل تسلّطكم مثل ذلك ، (فصاحب الدار أدرى بالذي فيها) .

ولا شك أنَّ نجداً وأعرابها قبل أن تُظْهِروا فيها أمرَ الصلاة والصيام ، وتأمروهم بالملازمة

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ، جـ٣ ، ص٣٥٦ ؛ وسنن أبي داود ، جـ٣ ، ص٩٩ ، حديث ٢٨١٠ ؛ وسنن الترمذي ، جـ٤ ، ص٧٧ ، حديث ١٥٠٥ .

(٢) سنن أبي داود ، جـ٣ ، ص٩٤ ، حديث ٢٧٩٠ .

(٣) مسند أحمد بن حنبل ، جـ١ ، ص١٥٠ .

(٤) صحيح مسلم ، جـ٢ ، ص٨٠٥ ، حديث ١١٤٩ .

(٥) سنن ابن ماجه ، جـ٢ ، ص٩٠٤ .

لعبادة الملك العلام، كانوا كالأنعام أو أضلّ سبيلاً، وقد رفع الله عنهم الشقاق، وحصل بينهم الأتفاق، وفرّقوا بين الحلال والحرام، وتوجهوا لأوامر الملك العلام.

ويؤيدُ ذلك ما رواه إبن عمرو عن النبي (ص) أنه قال: اللّهُم باركْ لنا في شأمنا، الله بارك لنا في يمننا، قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا، فقال: اللّهُم بارك لنا في شامنا، وفي يمننا، ثم قالوا: يا رسول الله وفي نجدنا، فأظنه قال في الثالثة: هناك موضوع الزلازل والفتن، وبها (مطلع) قرن الشيطان، رواه البخاري[1]. وإلحاق غير أهل (نجد) بهم من قياس الشاهد على الغائب.

وكيف يخفى على فحول العلماء، وأساطين الفقهاء الذين أقاموا الجمعات والجماعات، وأقاموا الأحكام، وأوضحوا الشبهات، وأمعنوا نظرهم في فهم الآيات والروايات، أنّ الذبح لا يكون إلاّ لجبّار السماوات؟ مع أنّ ذلك تلقّاه عن الأكابر الأصاغر، وعن الأوائل الأواخر. فلم يزل أهلُ الأسلام من قديم الأيام يذبحون للأنبياء والأوصياء والعباد الصالحين، ويهدون الثواب إليهم طلباً لمرضاة رب العالمين.

وإختيارهم للأماكن الشريفة، كحرم النبي (ص) ونحوه، لما ورد من أنّ الأعمال يتضاعف أجرُها لشرف الزمان والمكان، كشرف الكوفة.

روى الأصبغ بن نباتة[2] عن أمير المؤمنين (ع) أن الخضر قال له: إنّكَ في مدينة لا يريدها جبار بسوء إلاّ قصمه الله.

ورُويَ أنّ البركة فيها على إثني عشر ميلاً من سائر جوانبها.

وإن المسلمين كافة يتبرؤون ممن يدعو غير الله، أو يستغيث بغير الله، أو يذبح وينحر لغير الله، أو يحلف بغير الله، على النحو الذي وقع في نظركم أنهم يقصدونه ويتعمدونه، ومعاذ الله أن يكونوا كذلك.

والذي فلقَ الحبَّة، وبرأ النَسَمَة، لو علمتُ منهم ذلك، لكفرتُهم، وهاجرتُ عنهم، معتقداً وجوب ذلك عليَّ، لكنْ وحقِّ مَنْ إشتقَّ مِنْ ظُلْمة العدم نُورَ الوجود، ما وجدتُ ذلك منهم، ولا صدرَ ذلك عنهم، ولا بأس عليكم فرُبّما إفترى الحاضرون لديكم تقرُّباً بذلك إليكم، فأقتصرْ على حدودِكَ التي أنتَ فيها، فأنّ النفس إذا قنعتْ، قليلٌ من الدنيا يكفيها.

(١) صحيح البخاري، جـ٩ (باب الفتن)، حديث ١٦؛ وسنن الترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٧٣.
(٢) الأصبغ بن نباتة المجاشعي التميمي الكوفي، تُوفي أوائل القرن الثاني الهجري.

وفي المشكاة : عن رسول الله (ص) : إني لستُ أخشى عليكم أنْ تُشركوا بعدي ، ولكنْ أخشى عليكم الدنيا أنْ تنافسوا فيها فتهلكوا ، كما هلك مَنْ كان قبلكم[1] .

وبعد التأمل الصادق لا نجد ـ عند مَنْ شاهدناه ممن يدَّعي الأسلام وينتسب إلى ملّة سيد الأنام ـ ذبحاً ، ولا نحراً ، ولا نذراً ، ولا عتقاً ، ولا تصدقاً ، ولا وقفاً ، ولا شيئاً من العبادات مما يتعلق بالماليات أو البدنيات ، ولا توسلاً ، ولا تقرُّباً ، إلاَّ إلى جبَّار الأرضين والسماوات ، ولو أعلمُ ذلك منهم لما قبلتُ كلمة الأسلام الصادرة عنهم .

فمهلاً يا أخي مهلاً مهلاً ، فأن القوم ليس حالُهم كما وصلَ إليكم ، ووردَ عليكم ، فإني بهم خبير ، وبأحوالهم بصير ، وليس غرضي تزكيتهم ، ولكنْ ـ والله ـ هذا الذي علمتُهُ من سيرتهم ، والله الموفق .

المقصد الرابع

في النذر لغير الله

هذا المقام من مزال الأقدام ، وإنما كثرت فيه الأقاويل ، لخفاء الموضوع إلاَّ على القليل ، فإنَّه لا ينبغي الشك في أنَّ النذر لغير الله على أنه أهلٌ لأنْ يُنذرَ له ، لأنه مالك الأشياء وبيده زمامها من الكفر والشرك ، لأنَّ النذر من أعظم العبادات ، وإن أُريد أنه ينعقد بذلك وإن لم يُذْكَرْ إسمُ الله عليه فهي مسألةٌ فقهيةٌ فرعيةٌ . واعتقاد ذلك لا عن دليل تشريع حرام ، لا يُخْرِجُ عن ملة الأسلام .

وليس المعروف في هذه البلدان النذر لغير الله إلا على معنى أنه صدقة يُهْدَى ثوابها إلى أولياء الله ، فمعنى النذر للنبيّ (ص) مثلاً أنه صدقةٌ منذورة يُهدى ثوابها له ، وهكذا النذر لسائر الأولياء . فلا يزيد هذا على من نذر لأبيه وأُمّه ، أو حلف ، أو عاهد أن يتصدق عنهم ، كما رُوي عنه صلى الله عليه وآله أنه قال للبنت التي نذرت لأُمِّها عملاً : فِ بنَذْرِكِ[2] .

---

(١) صحيح البخاري (كتاب المغازي) ، حديث ١٧ ؛ و(كتاب الجهاد) ، حديث ٣٨ ؛ وصحيح مسلم (كتاب الزكاة) ، حديث ١٢١ ؛ وسنن ابن ماجه (كتاب الفتن) ، حديث ١٨ ؛ ومسند أحمد بن حنبل ، الباب الخامس ، حديث ٤٨ .

(٢) صحيح البخاري (كتاب الاعتكاف) ، حديث ٥ ، ١٥ ، ١٦ ؛ وصحيح مسلم (كتاب الأيمان) ، حديث ٢٧ ؛ سنن أبي داود (كتاب الأيمان) ، حديث ٢٢ ؛ سنن الترمذي (كتاب النذور) ، حديث ١٢ ؛ وابن ماجه (كتاب الطلاق) ، حديث ٣٦ .

فأن كان النذر للآباء والأمهات كفراً، كان هذا كفراً، وإلاّ فلا. فمَنْ حاول بالنذر حصول الثواب والتقرب إلى الله زُلْفى من المنذور له، على أنْ يكون الفعل له لا على أن يكون الثواب له، فهو ضالٌ مضلٌ. وأمّا مَنْ قصد خلاف ذلك، فلا بأس عليه.

واختيار بعض الأمكنة للنذور طلباً لشرف المكان، حتى يتضاعف ثواب العبادة، كما يختار بعض الأزمنة لبعض العبادات، لا بأس به، بل لا بأس بتخصيص بعض الأمكنة المباركة، وهو مستفادٌ من الأخبار، كما لا يخفى على من حام حول الديار.

روى ثابت بن الضحّاك[1]، عن النبي (ص) أن رجلاً سأله أنه نذر أن يذبح ببوّانة، قال: هل كان فيها وثن يعبد؟ قال: لا، قال: فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟ فقال: لا، فقال: فِ بنذرك[2].

ثم إني أعلم والله أنك لو وضعتَ منادياً ينادي في بلاد الإسلام، ويُعلن بصوته في كل مقام، ليجد شخصاً يُعَدُّ من نوع الأنسان يقصد بنذره غير وجه الملك الديّان، لرجع إليك صفر اليدين، ولم يجد ناذراً للنبيّ (ص)، أو الصحابة، أو الحسنين عليهما السلام.

وكيف يقصدونهم بنذورهم وعباداتهم مع علمهم بمماتهم؟ وإذا دخلوا إلى مواضع قبورهم قرأوا لهم القرآن، وأهدوا إليهم من صلاتهم بعض ما كان، ودعوا لهم برفعة الدرجات، وزيادة الأجر عند رب السماوات، فأن كانوا معبودين باعتقادهم، فكيف يهدون إليهم عبادة العبيد؟!

ليتَ شعري كم من الفرق بين مَن يَعْبدُ ليُقرِّب الى الله زلفى، وبين من يُعْبَدُ الله عنه ليُقرِّبه الله زلفى.

والله ما نُذرتْ نذور، ولا جُزرَتْ جزور، ممن يتصف بالأيمان، ويقرُّ بالشهادتين بالقلب واللسانَ، إلاّ لَوجه الملك الديّان، وطلباً لرضى الواحد المنان.

فمن كانت هذه مقاصدهم، وعلى ذلك بنوا قواعدهم، كيف ينسبون الى عبادة غير الله، ويُشَبَّهُون بعبدة الأصنام المُثْبِتين شريكاً للملك العلام؟!

ليتَ شعري لو أنَّ الرسل جاءت بالسجود للأحجار، أو لبعض الكواكب والأشجار،

---

(١) ثابت بن الضحّاك بن خليفة بن ثعلبة بن عدي الأنصاري مات سنة ٤٥هـ/ ٦٦٥م.

(٢) سنن أبي داود (كتاب الأيمان)، حديث ٢٢؛ سنن ابن ماجه (باب الكفارات)، حديث ١٨؛ مسند أحمد بن حنبل، الباب الأول، حديث ٩٠.

لم يكن ذلك السجود إلاّ عبادة للملك الجبار ، لأنّ الطاعة للآمر لا لمن يكن له في ذلك الأظهار .

ولو أنّ الناظر لصور الكواكب وهيئة الأفلاك ، تدبّرها تفكّراً في عظمة الخالق ، وسجد ، كان عابداً لمدبرها .

ثم ليس المراد بالعبادة مجرد الخضوع والتذلل ، كما هو المعنى القديم ، بل يُراد معنى جديد ، وهو التذلُّل الخاص ، على شرط أنْ يكون في كمال الصفاء والأخلاص .

وعلى فرض أن يصدر من بعض أعوام المسلمين ، لعدم قربهم من محال العلماء العاملين . فلا ينبغي معاملة الجميع بهذه المعاملات ، والبناء على نسبتهم إلى الشرك من دون قيام البينات .

فقف يا أخي في مواضع الشبهات ، لئلاّ تقع في الهلكات . وإني ـ والله ـ فرحٌ مسرورٌ بدفعك عن أبناء السبيل كل محذور ، وأمرك بالصلاة والصيام ، وإنفاذ ما شرع النبي (صلى الله عليه) من الأحكام ، إلاّ أني أخشى عليك أنْ تأخذ العالم بذنب الجاهل ، والمنصف بورطة المعاند المجادل . وفقنا الله لطريق الصواب ، والفوز برضاه في يوم الحساب ، فأنه أرحم الراحمين .

المقصد الخامس

في القسم بغير الله

لا يرتاب مسلم في أنّ القَسَمَ بغير الله ، على وجه إرادة صاحب العظمة والكبرياء والملكوت والقدرة والجبروت ، باعث على الخروج عن ربقة المسلمين .

وأما إرادة مجرد التأكيد ، فلا يلزم منه كفر ولا إشراك بديهةً ، إذ ليس مدار الكفر على مجرد العبارات . ويدل على ذلك أنه قد ورد القسم بغير الله متواتراً في كلام الصحابة والتابعين ، بل في كلام خاتم النبيين (ص) .

ففي كتاب علي (ع) الى معاوية : لعمري لأنْ نظرتَ بعقلك دون هواك ، لتجدني أبرأ الناس من دم (عثمان)[1] .

(١) نهج البلاغة ، ٣٦٧ .

وفي كلام له آخر : وأما تحذيرك إياي أن يحبط عملي وسابقتي في الاسلام ، فلعمري لو كنتُ الباغي عليك لكان لك أنْ تحذّرني ذلك .

وفي كتاب معاوية : فأن كنت أبا حسن إنّما تحارب عن الأمرة والخلافة ، فلعَمْري لو صحّتْ خلافتك لكنت قريباً من أن تعذر في حرب المسلمين .

وقد وقع هذا القَسَمُ بلفظ (لَعَمْري) في كلام الصحابة والتابعين ، في نثرهم وشعرهم كثيراً ، بحيث يتعذر ضبطه .

وعن بعض أهل البيت أنّ واحداً من أصحابه حلفَ عنده : وحقٍّ رسول الله (ص) ، وحقّ عليٍّ ما فعلتُ (كذا) ، وأقرّهُ على ذلك .

وفي حديث طلحة : إنّ رجلاً من أهل (نجد) جاء يسأل عن الأسلام ، فقال : أفلح الرجل ـ والله ـ إنْ صدق[1] .

وفي شرح مصابيح الطيبي عنه (ص) : أفلح الرجل وأبيه ـ والله ـ .

وحُمِلَ على أنها لم يرد بها حقيقة القَسَم ، وإنّما تجري على اللسان لمجرد التأكيد .

وروى نصر بن مزاحم[2] ، عن رجاله ، عن عمرو بن العاص أنّه سمعَ رسول الله (ص) وهو يقول لعمّار : تقتلُكَ الفئةُ الباغية ، وكان ذكره لأهل الشام قبل وقعة (صفين) بعشرين سنة فسمعه عبد الله ابن عمر العَبْسي ، وكان أعبد أهل زمانه ، فخرج ليلاً وأصبح في عسكر علي (ع) ، فحدّثَ الناس بقول عمرو ، وقال شعراً :

إنّ الذي جاء من عمرو لمأثورُ ... والراقصاتُ بركب عابدينَ له
شكٌّ ، ولا في مقال الرسلً تحبيرُ ... ما في مقال رسول الله في رجلٍ

ومن الشعر المنقول عن علي بن الحسين قوله :

«نحنُ وبيتِ الله أولى بالنبي»

وكم للصحابة والتابعين من حلف بشيبة رسول الله ، وضريحه وعينيه ، وتربته ، وليس هذا من القَسَم الحقيقي في شيء ، إذْ المراد مجرد التأكيد والتثبّت دون حقيقة القَسَم التي هي مدار القضايا والحكومات ، وتدور عليها ما لزم من الكفّارات .

(١) صحيح البخاري (كتاب الأيمان) ، حديث ٣ ؛ وسنن أبي داود (كتاب الصلاة) ، حديث ١ ؛ سنن النسائي (كتاب الصلاة) ، حديث ٤ ؛ سنن الدارمي (كتاب الصلاة) ، حديث ٢٠٨ .
(٢) وقعة صفّين لنصر بن مزاحم ، ص٣٤٣ .

فما ورد عن إبن عمر ، عن النبي (ص) : إنْ الله نهاكم أن تحلفوا بآبائكم[1] .

وفي الصحيحين : إنَّ الله ينهاكم أنْ تحلفوا بآبائكم ، فمَنْ كان حالفاً فلا يحلف إلاَّ بالله ، أو يصمت[2] .

وعن عبد الرحمن بن سمرة ، عن النبي (ص) : لا تحلفوا بالطواغي ، ولا بآبائكم ، رواه مسلم[3] .

وعن أبي هريرة عن النبي (ص) أنه قال : لا تحلفوا بآبائكم ، ولا بأُمهاتكم ، ولا بالأنداد ، رواه أبو داود ، والنسائي[4] .

وعن بريدة ، قال : قال رسول الله (ص) : من حلف بآبائه فليس منا[5] .

فهذه الأخبار محمولة على من قصد اليمين الحقيقي المثبتة والنافية التي تترتب عليها الكفارة ، فأنها لا تكون إلاَّ بالله ، كما يرشد إليه ذكر الطواغيت ، والأنداد .

ونُقِلَ عن أحمد أنَّ الحلف بالنبي (ص) ينعقد لأنَّه أحد ركني الشهادة ، أو يُحْمَلُ على الكراهة ، كما في شرح (المنهاج) وفيه : الحلف بالمخلوق كالنبي ، والكعبة ، وغيرهما مكروه ، لقوله (ص) : لا تحلفوا بآبائكم ، ولا بأمهاتكم ، ولا تحلفوا إلا بالله .

والتحقيق أنَّ الحلف غير المقصود معناه لا بأس به .

روى أبو هريرة عن النبي (ص) أنه قال : اليمين على نية المستحلف .

القسم الثاني : أن يُرادَ به الأثبات والنفي ، فأن كان مأخوذاً عن دليل ، لم يكن فيه بأس ، وترتب عليه الأثر عند الفقيه المُثْبِت له ، ولم يكن عليه شيءٌ ، وإنْ قصدَ بالحلف بالمخلوق أنه ذو الكبرياء والجبروت والمُلك والملكوت ، فهو كفر .

وربما نزل عليه ما رواه إبن عمر ، عن النبي (ص) : إنَّ مَنْ حلف بغير الله فقَدْ أشرك ، رواه الترمذي[6] .

(١) سنن النسائي (كتاب الأيمان والنذور) ، جـ٤ ، ص٤ .
(٢) صحيح مسلم (كتاب الأيمان) ، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى ، حديث ٣ .
(٣) صحيح مسلم (كتاب الأيمان) ، حديث ٦ . والطواغي هي الأصنام . ومفردها (طاغية) . وكلّ مَنْ طغى وجاوزَ الحدّ المعتاد من الشر سُمّي (طاغية) .
(٤) سنن أبي داود ، جـ٣ ، ص٢٢٢ ، حديث ٣٢٤٨ ؛ وسنن النسائي (كتاب الأيمان والنذور) ، جـ٤ ، ص٥ .
(٥) سنن أبي داود ، جـ٣ ، ص٢٢٣ ، حديث ٣٢٥٣ .
(٦) سنن الترمذي (كتاب النذور) ، باب ٩ ؛ وسنن النسائي (كتاب الأيمان) ، باب ٤ ؛ وابن ماجه (كتاب الكفارات) ، باب ٢ ؛ سنن الدارمي (كتاب النذور) ، باب ٦ .

وروى عن إبن عمر ، عن النبي (ص) : إنَّ مَنْ حلف بغير الله فقد كفر .

أو ينزّل هذا على المبالغة ، كما ورد في كثير من فعل المعاصي وترك الواجبات ، وما عدا هذا القسم والذي قبله بناؤه على الكراهة ، إذ لو كان حراماً ما صدر من الصحابة بمحظر من الناس ، ولم ينكر عليهم .

مضافاً إلى أنه مما توفر الدواعي على نقله ، ولو كان محرَّماً للهجتْ به ألسنة الخطباء والوعّاظ ، ولم يخفَ على الصبيان ، فضلاً عن العلماء الأعيان ، وليس الغرض المهم سوى دفع الكفر عن الناس إذا صدر منهم مثل ذلك .

وتفصيل الحال : أنَّ القَسَمَ والعهد بغير الله إن قُصِدَ بهما ذو العزة والجلال ، والعلو فوق كل عال ، كما يحلف المربوبُ بربّه ، فذلك كفرٌ وإشراك .

وإنْ قصد ترتّب الأحكام عليه من إثبات حقوق الناس ، ولزوم الكفارات ، فذلك تشريعٌ وعصيان ، إلاّ مَنْ أثبت ذلك بزعم الدليل والبرهان ، وإن رأى وجوب العمل بذلك لمجرد الأكرام ، لأنَّ عدم العمل ينافي الأحترام ، فلا أرى فيه بأساً في المقام .

وإنْ أُريد به مجرد التأكيد من دون ترتب بشيءٍ من الأحكام ، فأولى بالدخول في المباح ، والخروج من الحرام . وإنْ وقعَ لغواً ، وهذراً من غيرِ قصدٍ ، فلا يُعَدُّ من الأيمان ، ولا مدار عليه في شيء كائناً ما كان ، والله الموفق .

المقصد السادس

في الأستغاثة

لا يخفى أنَّ الأستغاثة بالمخلوق على أنه الفاعل المختار مدخل للمستغيث في أقسام الكفار ، وإنَّما المراد منه طلب الشفاعة ، وسؤال الدعاء .

وقد روى النسائي ، والترمذي في حديث الأعرابي أنَّ النبي (ص) علَّمَهُ قول : يا مُحمَّد إني توجَّهتُ بك إلى الله ، ونحوه ما في حديث إبن حنيف[1] .

وروى البيهقي في خبرٍ صحيح أنه في أيام عمر (رض) جاء رجل الى قبر النبي

(١) سنن الترمذي (كتاب الدعوات) ، باب ١١٨ ؛ وسنن ابن ماجه (كتاب اقامة الصلاة والسُنّة فيها) ، باب ١٨٩ ، حديث ١٣٨٥ . وابن حنيف هو عثمان بن حنيف الأنصاري ، سكن الكوفة ، ومات في خلافة معاوية .

(ص) ، فقال : يا مُحمَّد إستسق لأُمَّتك فسقوا[1] .

وروى الطبراني ، وابن المقري ، وأبو الشيخ أنهم كانوا جياعاً ، فجآؤا إلى قبر النبي (ص) فقالوا : يا رسول الله الجوعَ ، فأُشبعوا .

وروى البيهقي عن مالك الدار خازن عمر (رض) ، قال : أصاب الناس قحط ، فذهب الى قبر النبي (ص) فقال : إستسق لأمتك فقد هلكوا ، فأتاه النبي (ص) في المنام ، وقال له : قُلْ لعُمر أنهم سقوا .

ومن ذلك قوله تعالى : «فَاسْتَغَاثَهُ الَّذي مِنْ شيعَتِهِ عَلَى الَّذي مِنْ عَدُوِّهِ»[2] .

وعن معاذ أنه لما كان في اليمن جاءه نعي النبي (ص) ، فرجع وهو يقول : يا مُحمَّداهُ ، يا أبا القاسماهُ ، وبقي على ذلك برهة من الزمان . وفيه ظهور بالأستغاثة .

وعن أبي بكر بن محمد بن الفضل أنَّ (بلالاً) لمَّا أخذَ في النَّزْع ، قالت إمرأته : وآويلاه وآحزناه ، فقال لها : لا تقولي وآحزناه ، فأني قصدتُ الذهاب إلى مُحمَّدٍ ، وحزبه .

وروى الكازروني ندبة الزهراء(ع) ، وروى ندبة معاذ النبي (ص) . وعن النعمان بن بشير ، قال : أُغمي على عبد الله بن رواحة ، فجعلتْ أختُهُ عمرة تبكي وتقول : وآجبلاه[3] .

وما رُويَ عن أبي موسى عن النبي (ص) أنه ما من ميت يموت ، فيقوم باكيه ويقول : وآجبلاه ، وآسيداه إلاَّ وكَّلَ الله به ملكين يلهزانه ويقولان لهُ : أكان هكذا . فمبنيٌّ على النهي عن العزاء والبكاء .

وفي قصة إدريس أنَّ المطر إنقطع عن قومه عشرين سنةً ، فجآؤا إليه يدعو لهم .

وعن رسول الله (ص) أنَّ ملكاً غضب الله عليه ، فأُهبط من السماء ، فأتى إدريس ، فاستشفع به ، فدعا له ، فأذن له في الصعود ، فصعد .

وفي الحقيقة أنَّ المُستغيث بالمخلوق إنْ أراد طلب الدعاء والشفاعة من المُسْتَغاث به ، فلا بأس به ، وإنْ أراد إسناد الأمور بالأستقلال اليه ، فالمسلمون منه براء .

على أنَّا بيَّنا فيما سبق أنَّ الأستغاثة بدار (زيد) ، وصفاته ، وغلمانه ، وخَدَمه ، رُبَّما

---

(1) سنن البيهقي ، جـ٣ ، ص٣٢٦ .
(2) القرآن الكريم : ١٥/٢٨ (سورة القصص) .
(3) سنن البيهقي ، جـ٤ ، ص٦٤ .

أُريد بها الأستغاثة به ، فيكون هذا أولى في بيان ذل المستغيث ، وإنه لا يرى لسانه أهلا لأنْ يجري عليه إسم المولى ، ولهذا ترى أنَّ طاعة الله تُذكر بعدها طاعة رسول الله (ص) ، ورضاه يذكر بعد رضى الله ورسوله ، وإذا إنفردتْ إحداهما دخلت فيها الاخرى .

روى أبو هريرة عن النبي (ص) أنه قال : مَنْ أطاعني فقد أطاع الله ، ومَنْ عصاني فقد عصى الله ، ومَنْ يُطع الأمير فقد أطاعني ، ومَنْ يَعْص الأمير فقد عصاني[1] .

وكيف يستغاث حقيقةً بمن لا يدفع عن نفسه ضُرّاً ولا شرّاً ، ولا يملك رزقاً ، ولا موتا ، ولا حياةً ولا نشوراً ، المبدئ من تراب ، ثم نطفة مودعة في الأصلاب ، ثم جسم مُعَرَّض للبليات ، ثم بعدها يكون من الأموات .

وإنَّما شرفه بالعبودية والأنقياد للحضرة القدسية ، ولولا أمرُ الله ما سُمِعَ له كلام ، ولا رُفِعَ له مقام ، وليس بيننا وبينه ربط سوى أمر الملك العلام .

فليس المراد بالأستغاثة إلاَّ طلب الدعاء من المُسْتَغاث به ، لما في الحديث القدسي : يا موسى ادعني بلسانٍ لم تَعْصِني فيه ، فقال : يا ربِّ وأين ذلك؟ فقال : لسان الغير .

فالمستغيث إنْ طلب أصالةً وإستقلالاً من المستغاث به ، كان معولاً عليه في كل أمر يرجع إليه ، وإلاَّ فالمستغاث به حقيقةً هو الذي تنتهي إليه الامور .

وكذلك الدعاء إنْ قُصِدَ أنَّ المدعوَّ هو الفاعل المختار الذي تنتهي إليه الأشياء ، فذلك كفر بربِّ السماء ، وإن أُريد المجاز ، فلا يدخل تحت حقيقة الدعاء .

ولا ريب أنَّ كُلَّ مَنْ قال لشخص : أعنّي على بناء الدار ، أو قضاء الدَّيْن ، أو قال : أعطني ، أو غير ذلك ، بقصد الدعاء ، أعني : طلب المربوب من الربّ ، فهو كفرٌ وإشراك . وإن قصد الطلب لا على ذلك النحو ، لم يكن كفراً .

ولو كان المدار على هذه الصورة ، لكُفِّرت الخلائق من يوم آدم إلى يومنا هذا ، بل صدور هذه العبارات عن الأنبياء والأوصياء أبين من الشمس .

وكذلك (الأستجارة) ، و(الندبة) ، ونحوهما ، فأن كانت على الطور المعهود ، كقوله تعالى : «وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ إسْتَجارَكَ فَأَجِرْهُ»[2] «فَاسْتَغاثَهُ الَّذي مِنْ شيعَتِهِ عَلَى

(١) صحيح البخاري (كتاب الجهاد) ، باب ١٠٩ ؛ صحيح مسلم (كتاب الأمارة) ، باب ٢٣ ؛ سنن النسائي (كتاب البيعة) ، باب ٢٧ ؛ ابن ماجه (المقدمة) ، باب (١) . وقد رويت (الأمام) ، (أميري) .
(٢) القرآن الكريم : ٩/٦ (سورة التوبة) .

الَّذي مِنْ عَدُوِّه»[1] «فَادْعُ لَنا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنا مِمّا تُنْبِتُ الأَرْضُ»[2] فلا محيص عن القول بجوازه . فتفاوت العبارات باختلاف النيات .

فمن كان داعياً دعاء الأصنام وسائر الأرباب ، أو مستغيثاً كذلك ، فهو كافر مشرك . وإن أراد المُتَعارف بين سائر الناس ، فليس به بأس .

فبحقٍّ مَنْ شقَّ سمعك وبصرك ، أنْ تُمْعِنَ في هذا المقام نظرَك ، وتُصَفِّي نفسك عن حب الأنفراد ، كما يلزمنا التخلية عن حب متابعة الآباء والأجداد .

ولا فرق بين الأحياء والأموات ، لأنَّ مَنْ إستغاث بالمخلوق أو إستجار ، على أنه فاعلٌ مختار ، فقد دخل في أقسام الكفار ، فالأستغاثة بعيسى أو بمريم ، حيّين أو ميّتين ، تقع على القسمين .

وإعتقاد أنَّ الميت يسمع أو لا يسمع ، ليس من عقائد الدين التي تجبُ معرفتُها على المسلمين ، فمن إعتقدَها : فأما أن يكون مصيباً مأجوراً ، أو مخطأً معذوراً .

ومن ذلك القبيل الألفاظ التي تفيد الرّجاء ، والتوكّل ، والأعتماد ، والتعويل ، والألتجاء ، والأستعانة بغير الله ، فأن هذه العبارات لو بني على ظاهرها لم يبقَ في الدنيا مسلمٌ ، إذْ لا يخلو أحدٌ من الأستعانة على الأعداء ، والأعتماد على الأصدقاء ، والألتجاء إلى الأمراء ، ونحو ذلك .

إلاّ أنه إنْ قصد الملتجأ إليه والمعول عليه من المخلوقين له اختيارٌ وتدبيرٌ في العالم لنفسه لا عن أمر الله ، فذلك كفرٌ بالله ، وإلاّ فلا بأس .

ومما يناسب نقله في هذا المقام ما نقله القتيبي ، قال : كنتُ جالساً عند قبر رسول الله (ص) فجآء أعرابيٌّ ، فسلَّمَ على النبي (ص) ، ثم أنشأ يقول :

يا خيرَ مَنْ دُفنتْ بالقاع أعظمُهُ فطابَ مِنْ طيبهنَّ القاعُ والأكمُ
نفسي الفداء لقبرٍ أنتَ ساكنُهُ فيه العَفافُ ، وفيه الجُودُ والكرمُ

ثم قال : ها أنا ذا يا رسول الله ، فقد ظلمتُ نفسي ، وأنا أستغفرُ الله وأسألك يا رسول الله أنْ تستغفرَ لي . قال القتيبي : ثم نمتُ ، فرأيتُ النبيَّ (ص) في المنام ، فقال : يا قتيبي أدركْ الأعرابي وبشِّره أنه قد غَفَر الله له ، قال : فأدركتُهُ وبشّرتُه .

---

(١) القرآن الكريم : ١٥/٢٨ (سورة القصص) .
(٢) القرآن الكريم : ٦١/٢ (سورة البقرة) .

المقصد السابع

في التوسّل

ولا ريب أنه من سنن المرسلين ، وسيرة السلف الصالحين ، ودلت عليه الأخبار والآثار .

نُقلَ أنَّ آدم لمّا إقترفَ الخطيئة ، قال : يا ربي أسألك بحقِّ مُحمَّد (ص) لما غفرت لي ، فقال : يا آدم كيف عرفت ، قال : لأنَّك لمَّا خلقتني نظرتُ إلى العرش ، فوجدتُ مكتوباً فيه : (لا إله إلاَّ الله ، مُحمَّدٌ رسول الله) ، فرأيتُ إسمه مقروناً مع إسمك ، فعرفتُهُ أحبُّ الخلق إليك . صححه الحاكم[1] .

وعن عثمان بن حنيف أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي (ص) فقال : إدعُ الله أن يعافيَني ، فقال النبي (ص) : إن شئت صبرتَ فهو خيرٌ لك ، وإن شئتَ دعوتُ ، قال : فادْعُهُ ، فأمره أن يتوضأ ، ويدعو بهذا الدعاء : (اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيِّكَ مُحمَّد نبيِّ الرحمة ، يا محمد إني توجَّهتَ بك إلى ربي في حاجتي ليقضيَها ، اللهم شفِّعْهُ فيَّ)[2] .

وفيه دلالة على جواز الشفاعة في الدنيا ، وعلى الأستغاثة ، رواه الترمذي ، والنسائي ، وصححه البيهقي ، وزاد : فقام وقد أبصر .

ونقل الطبراني عن عثمان بن حنيف أنَّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفَّان في حاجته ، فكان لا يلتفت إليه ، فشكا ذلك لابن حنيف ، فقال له : إذهب وتوضأ وقل : . . .(وذكر نحو ما ذكر الضرير) ، قال : فصنع ذلك ، فجاء البواب ، فأخذه وأدخله على (عثمان) ، فأمسكه على (الطنفسة) وقضى حاجته[3] .

وروي أنه لمَّا دعا النبي (ص) لفاطمة بنت أسد ، قال اللهم إني أسألك بحق نبيك والأنبياء الذين من قبلي . . .(إلى آخر الدعاء)[4] .

وفي الصحيح عن أنس أن عمر بن الخطاب (رض) كان إذا أقحط الناس إستسقى

---

(١) مستدرك الحاكم ، جـ٢ ، ص٦١٥ .

(٢) سنن الترمذي (كتاب الدعوات) ، باب ١١٩ ، حديث ٣٥٧٨ ؛ وسنن ابن ماجه (كتاب اقامة الصلاة) ، باب ١٨٩ ، حديث ١٣٨٥ .

(٣) سنن ابن ماجه (كتاب اقامة الصلاة) ، باب ١٨٩ ، حديث ١٣٨٥ .

(٤) كنز العمال ، جـ٦ ، ص١٨٩ .

بالعباس ، فقال : اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبيِّكَ فتسقينا ، وإنا نتوسل إليك بعم نبيِّكَ ، ونستشفع إليك بشيبته ، فَسُقوا[1] .

وروى الشيخ عبد الحميد (بن أبي الحديد) عن علي (ع) أنه قال : كنتُ من رسول الله كالعضد من المنكب ، وكالذراع من العضد ، رباني صغيراً ، ووآخاني كبيراً ، سألتُه مرةً أن يدعوَ لي بالمغفرة ، فقام فصلّى ، فلمَّا رفع يديه سمعتُهُ يقول : اللهمّ بحق علي عندك إغفر لعلي ، فقلتُ : يا رسول الله ما هذا؟ فقال : أوَ أحد أكرم منك عليه ، فأستشفعُ به إليه[2] .

وفي هذين الخبرين دلالةٌ على شفاعة الدنيا .

وفي مسند إبن حنبل أنَّ عائشة قال لها مسروق : سألتك بصاحب هذا القبر ما الذي سمعتِ من رسول الله (يعني : في حق الخوارج) قالتْ سمعتُهُ يقول : إنَّهم شرُّ الخلق والخليقة ، يقتلهم خير الخلق والخليقة ، وأقربهم عند الله وسيلة[3] .

وعن الأعمش أن إمرأةً ضريرةً بقيت ستة ليالٍ تُقْسِمُ على الله بعليّ ، فعوفيت .

فما رواه جبير بن مطعم عن النبي (ص) أنه أتاه أعرابي ، فقال : جهدت الأنفس ، وجاع العيال ، فأستسق لنا ، فأنا نستشفع بك الى الله ، ونستشفع بالله عليك ، فقال النبي (ص) : «ويحك أنه لا يستشفع بالله على أحد ، شأن الله أعظم» ، فليس مما نحن فيه ، لأنه نهى عن الأستشفاع بالله لا بأحد إلى الله .

وعن علي أنه قال لسعد بن أبي وقاص : أسألك برحم إبني هذا ، وبرحم حمزة عمي منك ألا تكون مع عبد الرحمن[4] .

وعن عائشة (رض) أنَّ النبيَّ أسرَّ إلى فاطمة سرّاً ، فبكتْ بكاءً شديداً ، فسألتُها ، فقالت : ما كنتُ لأفشي سرَّ رسول الله (ص) ، فلما قُبِضَ سألتُها وقلتُ لها : عزمتُ عليكِ بما لي عليك من الحق ، (. . . الخبر)[5] .

وروى أبو مخنف عن أبي الخليل ، قال : لمَّا نزل طلحة والزبير في موضع (كذا) ، قلت :

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الاستسقاء) ، باب ٣ ؛ و(كتاب فضائل أصحاب النبيّ) ، باب ١١ .
(٢) شرح نهج البلاغة ، جـ٤ ، ص٥٥٨ .
(٣) سنن الدارمي (كتاب الجهاد) ، باب ٣٩ ؛ مسند أحمد بن حنبل ، جـ١ ، ص١٤٠ ؛ سنن ابن ماجه (المقدمة) ، باب ١٢ ، حديث ١٧٠ .
(٤) الترمذي ، جـ٥ ، ص٦٠٧ .
(٥) صحيح البخاري ، جـ٤ ، ص٢١٠ ؛ وصحيح مسلم ، جـ٤ ، ص١٩٠٥ ؛ والترمذي ، جـ٥ ، ص٦٥٨ .

ناشدتكما الله وصُحبة رسول الله (ص) .

وعن علي (ع) أن يهودياً جاء إلى النبي (ص) ، فقام بين يديه ، وجعل يحد النظر إليه ، فقال : يا يهودي ما حاجتُك ، فقال أنت أفضل أم موسى فقال له : إنه يكره للعبد أن يزكي نفسه ، ولكن قال الله تعالى : «وأمّا بنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ» إنَّ آدم لما أصابته خطيئته التي تاب منها كانت توبته (اللهمّ إني أسأَلُكَ بمُحمَّد وآلِ مُحمَّد لما غفرتَ لي) ، فغُفِرَ له[1] .

وعن علي (ع) أنه بعد دفن النبي (ص) قام عند قبره الشريف ، فقال مخاطباً له : طبتَ حيّاً وطبتَ ميّتاً ، إنقطع عنا بموتك ما لم ينقطع بموت أحد سواك من النبوة والأنباء ، وأخبار السماء ، (والحديث طويل) إلى أنْ قال : بأبي أنت وأمي إذْكُرْنا عند ربك ، واجعلنا من بالك وهمك .

ونقل الشيخ عبد الحميد أنَّ معاوية سأل عقيلاً عن عليٍ (ع) ، فقال له عقيل : يا معاوية جاءته زقاق عسل من اليمن ، فأخذ الحسين منها رطلاً واشترى إداماً لخبزه ، فلمّا جاء عليّ ليقسّمها قال : يا (قَنْبَرُ) أظنُّ أنه قد حَدَثَ بهذا حدثٌ قال : نعم ، وأخبره بقصة الحسين (ع) فَغَضِبَ ، وقال عليٌّ (بحسين) فرفع الدرة عليه ، وقال : بعمي (جعفر) ، (وكان إذا سئل بحق جعفر سكن) ، فأجابه (الحسين) بما أجاب .

ونقل الشيخ عبد الحميد أنَّ رجلاً وفد من مصر ، فاستعاذ بعُمر .

وكيف كان فقد بَانَ أنَّ مَنْ توسَّلَ إلى الله (بمعظّم) من : قرآن ، أو نبيٍّ ، أو عبدٍ صالح ، أو مكانٍ شريف ، أو بغير ذلك ، فلا بأس عليه ، بل كأن آتياً بما هو أولى وأفضل .

ولا بأس بالتوسط بحق المخلوقات ، فأن للمولى على عبده حقَّ المالكية ، وللعبد حق المملوكية ، وللخادم حقّ الخدمة ، وللأرحام حقّ الرحم ، وللصديق حقّ الصداقة ، وللجار حقّ الجوار ، وللصاحب حقّ الصحبة . فالحق عبارةٌ عن الرابطة بأي نحوٍ إتفقت ، وعلى أي جهةٍ كانت .

وعلى ذلك جرتْ عادة السلف من أيام النبي (ص) إلى يومنا هذا ، لا ينكره أحدٌ من المسلمين ، والدعوات ، والمواعظ مشتملة عليه ، والأجماع منعقدٌ عليه ، فلم يبق في المقام إشكال ، ولا بقي محلٌ للقيل والقال ، والله ولي التوفيق ، وهو أرحم الراحمين .

---

(١) كنز العمال ، جـ١١ ، ص٤٥٥ .

المقصد الثامن

في الشفاعة

الشفاعة - في الحقيقة - قِسمٌ من الدعاء والرجاء ، وليس من خواص الأنبياء والأوصياء ، وليس لأحدٍ على الله قبول شفاعته ، وإنما ذلك من ألطافه ومننه ، ولا شفاعة إلا بإذنه ورضاه ، والأخبارُ فيها متواترة .

روى محمد بن عمرو بن العاص ، عن النبيِّ (ص) أنه قال : من سأل الله لي الوسيلة ، حلَّتْ عليه الشفاعة ، رواه مسلم[1] .

وعن جابر عن النبي (ص) : «من سمع الأذآن ودعا بكذا ، حلت له شفاعتي يوم القيامة» ، رواه البخاري[2] .

وعن عبد الله بن عباس ، عن النبي (ص) أنه قال : ما من رجل مسلم يموت ، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً ، لا يُشْرِكون باللّه شيئاً ، إلاَّ شفَّعهم الله فيه ، رواه مسلم[3] .

وعن عائشة (رض) ، عن النبي (ص) أنه قال : ما من ميتٍ تصلي عليه أمةٌ من الناس يبلغون مائة ، كلهم يشفعون له إلاَّ شُفِّعُوا فيه ، رواه مسلم[4] .

وعن جابر ، عن النبي (ص) أنه قال : أُعطيتُ خمساً . . . (وعدَّ منها الشفاعة)[5] .

وعن إبن عباس عن النبي (ص) : أنا أول شافع وأول مشفع في القيامة ولا فخر[6] .

وعن جابر عن النبي (ص) : أنا أول شافع وأول مشفع . ونحوه عن أنس[7] ، وأُبيّ بن كعب[8] .

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الصلاة) ، باب ١١ ؛ أبي داود (كتاب الصلاة) ، باب ٣٦ ؛ سنن الترمذي (كتاب المناقب) ، باب ١ ؛ سنن النسائي (كتاب الأذان) ، باب ٣٧ ؛ مسند أحمد بن حنبل (كتاب الثاني) ، الباب ١٦٨ .

(٢) البخاري (كتاب الأذان) ، باب ٨ ؛ وصحيح مسلم (كتاب الصلاة) ، باب ١١ ؛ وسنن أبي داود (كتاب الصلاة) ، باب ٣٦ .

(٣) صحيح مسلم (كتاب الجنائز) ، باب ١٩ (مَنْ صلّى عليه أربعون شفعوا فيه) ، حديث ٥٩ .

(٤) صحيح مسلم (كتاب الجنائز) ، باب ١٨ ، حديث ٥٨ .

(٥) صحيح مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة) ، باب ٥ ، حديث ٣ .

(٦) صحيح مسلم (كتاب الفضائل) ، (باب - ٢ - ، تفضيل نبيِّنا - ص - على جميع الخلق) ، حديث ٢٢٧٨ .

(٧) صحيح مسلم (كتاب الأيمان) ، باب ٣٣٠ .

(٨) سنن الدارمي (المقدمة) ، الباب ٨ .

وعن جبير بن مطعم، عن عثمان بن عفان، عن النبي (ص) أنه قال: يُشَفَّعُ يوم القيامة ثلاثة (وعدَّ منهم الأنبياء).

وعن أبي سعيد، عن النبي (ص) أن الشفاعة على مراتب الناس في القابلية[1].

وعن عبد الله بن مالك عن أبيه، عن النبي (ص) أنه أتاني آتٍ من ربي، فخيَّرني بين أن يدخل نصف أُمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة.

وعن عبد الله بن أبي الجذعاء، عن النبي (ص): أنه والدارمي يدخل الجنة بشفاعة رجلٍ[2] من أمتي أكثر من بني تميم، رواه الترمذي والدارمي[3].

وعن أنس قال: سألتُ النبيَّ (ص) أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل، قلتُ: فأين أطلبك، قال: أولاً على الصراط، قلت: فأن لم ألقك؟ قال: عند الميزان، قلت: فأن لم ألقك، قال: عند الحوض، فأني لا أخطيء هذه المواضع، رواه الترمذي[4].

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبي (ص) إنَّ الله يقول بعد فراغ الشافعين من الشفاعة: شُفِّعت الملائكة، وشُفِّعَ النبيون، وشُفِّعَ المؤمنون، ولم يبقَ إلاَّ أرحمُ الراحمين[5].

وعن أنس عن النبي (ص) أنه يحبس المؤمنون يوم القيامة، فيقولون لو استشفعنا، فيأتون (آدم)، فيعتذر بخطيئته، ثم (إبراهيم) فيعتذر بثلاث كذبات كذبهن، ثم (موسى) فيعتذر بقتل النفس، ثم (عيسى)، فيقول: لست هناك، فيقول الله تعالى بعد أن أسجد له: إشفع تشفع... (الخبر وهو طويل)[6].

وعن النبي (ص) أنَّ مَلَكاً غُضِبَ عليه، فأُهبِطَ من السماء، فجاء إلى إدريس فقال له: إشفع لي عند ربك، فدعا له، فأُذن له في الصعود. وفيه دلالةٌ على الشفاعة في الدنيا. وستجيء في باب زيارة القبور أخبارٌ كثيرةٌ عن النبي (ص) أنه قال: «مَنْ زارني كنتُ له شفيعاً»[7].

---

(١) سنن ابن ماجه، جـ٢، ص١٤٤٣.
(٢) في المطبوع: «بشفاعتي رجال».
(٣) الترمذي، جـ٤، ص٥٤١.
(٤) الترمذي (باب صفة القيامة)، جـ٤، ص٥٣٧.
(٥) الترمذي، جـ٤، ص٥٤١.
(٦) الترمذي، جـ٤، ص٥٣٧.
(٧) سنن البيهقي، جـ٥، ص٢٤٥.

وبيان الحال : أن (الشفاعة) إن كانت من قبيل الدعاء ، فيرجع طلبها الى إلتماس الدعاء من الأنبياء والأولياء ، فتكون عبارة عن دعاء مخصوص لنجاة الغير ، أو قضاء حاجته في أمور الدنيا والآخرة ، فلا كلام ولا بحث في جواز طلبها من كل أحد ، فهي كما لو سألتَ إخوانك الدعاء . ويؤيد ذلك أنه لما سئل إدريس (ع) الشفاعة دعا .

ولا فرق بين الأحياء والأموات ، فأنّا سنُبيّنُ - إن شاء الله - تواتر الأخبار في أنّ الأموات يسمعون وينطقون ، لكنَّ الناس لا يسمعون كلامهم . فالشفاعة بهذا المعنى لا غضاضة في طلبها ، إذ لسنا في ذلك بمنزلة من قالوا لا طاقة لنا بعبادة الله ، ونحن نعبد الأصنام ، وهم يوصلوننا الى الله .

وإنْ أُريدَ بالشفاعة منصبٌ أعطاه الله لنبيه (ص) وأوليائه ، فيدفعون بالأذن العام عن الناس ، بمعنى أنَّ الله أذن إذناً عاماً لنبيه (ص) في إنقاذ بعض أهل العذاب من العذاب يوم يقوم الحساب ، فبهذا المعنى تكون مخصوصةً في الآخرة .

ولا ريب أن المستشفع بالنبي (ص) ، والأولياء في دار الدنيا ، يريد المعنى الأول .

فليتَ شعري ما الذي يُنْكَرُ من طلب الشفاعة ، أمن جهة خطاب الموتى فذلك لا يوجب كفراً ولا إشراكاً ، لو كان خطأ ، فكيف لو كان صواباً ، أو من جهة إسناد الأمر الى غير الله سبحانه ، وهذا أعجب من السابق ، فأنَّ الداعي والساعي في حاجة أحد إلى مولاه لا يرتفع عن درجة العبودية ، ولا سيما إذا لم يحدث شيئاً إلاّ عن إذنه .

ومن البديهة[1] أن العبيد والخدام القائمين بشرائط العبودية والخدمة مع الأذن يُشَفَّعَوْنَ عند مواليهم في قضاء حوائج الناس ، ولا يخرجهم ذلك عن العبودية والخدمة ، بل هذا نوع من العبودية .

وفي أحاديث الشفاعة ما يدل على عموم الشفاعة في دفع المضار الدنيوية والأخروية .

وقد نقل عن الصحابة بطرق معتبرة أن الصحابة كانوا يلجأون الى قبر النبي (ص) ، ويندبونه في الأستسقاء ورفع الشدائد والأغراض الدنيوية .

روى البيهقي بطريق صحيح عن مالك الدارخازن عمر (رض) أنه أصاب الناس قحط ، فذهب رجل إلى قبر النبي (ص) ، فقال : يا رسول الله (ص) إستسق لأُمّتك فقد هلكوا ، فأتاه النبي (ص) في المنام ، فقال له : قل لعمر : قد سُقوا[2] .

(١) في النسخة المطبوعة : «الأمور البديهيّة» .
(٢) البيهقي ، جـ٣ ، ص٣٤٤ .

وقد روي أنَّ من رأى النبي (ص) في نومه فكأنما رآه في يقظته ، لأنَّ الشيطان لا يتمثل به[1] .

وروى البيهقي بطريق صحيح أنَّ رجلاً في أيام عمر (رض) جاء إلى قبر النبي (ص) ، فقال : يا مُحمَّد إستسقِ لأُمَّتك[2] .

وروى الطبراني وابن المقري أنهم كانوا جياعاً ، فجاؤا إلى قبر النبي ، فقالوا : يا رسول الله الجوع ، فاشبعوا .

والغرض أن ذلك ظاهر بين الصحابة والسلف ، لا يتناكرونه أبداً ، وحيث كان لا يزيد على سؤال الدعاء ، واتضح في البحث الآتي أنَّ الأنبياء والأولياء أحياء ، لا يبقى كلام أصلاً .

الخاتمة

وأما الخاتمة ، فتشتمل على أبواب :

الباب الأول

في حياة الأموات بعد موتهم

وفيه فصول :

الفصل الأول

في حياة النبي (ص) بعد موته

وانه يسمع الكلام ويرد الجواب ، كما في حياته غير أن الله حبس سمع الناس إلاَّ قليلاً من الخواص ، ولا بعد في ذلك بعد الأقرار بعموم قدرة الجبار ، فأن من أودع تلك النطفة روح الانسان ، قادر أن يودعها في أي محل كان .

ولا ينافي ذلك إطلاق إسم الموت عليه ، وانَّ الحياة إنَّما هي وقت البعث ، لأنَّ المراد أنَّ عود تلك الأجسام على الحال السابق والكيفية السابقة ، إنما يكون في ذلك الوقت ، وان

(١) صحيح مسلم (كتاب الرؤيا) ، باب ١ ، حديث ١١ .
(٢) البيهقي ، جـ٣ ، ص٣٥٠ .

ظهور ذلك للناظرين ، إنما يكون في ذلك الحين ، ولابُدَّ أن تتلقّى ما ورد عن النبي الكريم ، بأشد القبول والتسليم .

روي عن أُمِّ سلمة (رض) ، قالت : رأيتُ النبي (ص) والتراب على شيبته ، فسألتُه ، فقال : شهدتُ قتل الحسين (ع) .

وعن ابن عباس أنه رأى النبي (ص) في المنام ، وفي يده قارورة ، فقلت وما هذه . فقال هذا دم الحسين (ع)[1] .

وقال المبارزي : نبينا حيٌّ بعد وفاته .

وقال شيخ الشافعي[2] : نبينا حيٌّ بعد وفاته ، فأنه يستبشر بطاعات أمته ، ويحزن من معاصيهم ، وتبلغه صلاة مَنْ يُصَلّي عليه .

وعن علي (ع) أنَّ أعرابيا جاء إلى قبر النبي (ص) ، فقال : يا رسول الله إستغفر لي ، فنودي من داخل القبر ثلاث مرات : قد غفر الله لك[3] .

وروى أبو داود في مسنده ، عن أبي هريرة ، مرفوعاً عن النبي (ص) ، قال : ما مِنْ أحدٍ يسلِّم عليَّ إلاَّ ردَّ اللهُ روحي حتى أردَّ عليه .

وذكره إبن قدامة من رواية أحمد أنَّ النبي (ص) قال : ما مِنْ أحد يُسلِّم عليَّ عند قبري إلاَّ ردَّ الله عليَّ روحي . وذكره بعض أكابر مشايخ البخاري .

وفي خبر النسائي وغيره ، عن النبي (ص) ، قال : إنَّ لله ملائكة سيَّاحين في الأرض ، يبلغونني من أُمتي السلام .

فعلى هذا لا فرق بين السلام من قربٍ ، أو بعد .

وعن أبي هريرة عن النبي (ص) أنه قال : مَنْ صلَّى عليَّ عند قبري سمعتُه[4] .

وعن أبي هريرة ، عن النبي (ص) أنه قال : من صلى عليَّ عند قبري ، وكل الله به

(١) تاريخ ابن عساكر ، ص٢٦٣ .
(٢) عبد القاهر بن طاهر البغدادي الأسفراييني ، ولد ونشأ في بغداد ، ورحل إلى خراسان واستقرَّ في نيسابور ، ومات في أسفرائين . له مؤلفات كثيرة .
(٣) كنز العمال ، جـ١ ، ص٥٠٦ .
(٤) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال ، جـ١ ، ص٤٨٨ ، الباب السادس في الصلاة عليه وعلى آله ، حديث ٢١٩٧ .

ملكاً يبلغني[1] .

وروى إبن أوس مرفوعاً عن النبي (ص) أنه قال : أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة ، فأن صلاتكم معروضةٌ عليَّ ، قالوا : أوَ كيفَ تعرض عليك وأنت رميم؟! فقال : إنَّ الله حرَّم على الأرض لحوم الأنبياء[2] . وهذا يعم الأنبياء (صلى الله عليهم) .

وروى الحافظ عن النبي (ص) أنه قال : علمي بعد مماتي كعلمي في حياتي[3] .

وعن النبي (ص) : إنَّ الله وكَّلَ مَلَكاً يُسْمِعُني أقوالَ الخلائق ، يقوم على قبري ، فلا يُصلّي عليَّ أحدٌ إلاَّ قال : يا مُحمَّد (فلان) بن (فلان) يُصلّي عليك ، صلّوا عليّ حيثما كنتم ، فأن صلاتكم تبلغني .

وعن النبي (ص) : إنَّ أعمالكم تُعْرَضُ عليّ[4] .

والأخبار في ذلك أكثر من أن تحصى ، وفيها دلالة على أنه (ص) يُخاطَبُ في مماته كما يُخاطَبُ في حياته ، بل يظهر من بعض الروايات[5] أنَّ كلامه يسمعه بعض الخواص .

أخرج أبو نعيم في دلائل النبوة ، عن سعيد بن المسيب ، قال : لقد كنتُ في مسجد رسول الله (ص) ، فما يأتي وقت صلاةٍ إلاَّ سمعتُ الأذآن من القبر .

وأخرج ابن سعد في الطبقات ، عن سعيد بن المسيب أنه كان يلازم المسجد أيام الحرَّة ، فإذا جآء الصبح سمع أذآناً من القبر الشريف[6] .

وأخرج زبير بن بكار[7] في أخبار المدينة ، عن سعيد بن المسيب ، قال : لم أزل أسمع الأذآن والأقامة من قبر رسول الله (ص) أيام الحَرَّة ، حتى عاد الناس .

وأخرج الدارمي في مسنده ، عن مروان ، عن سعيد بن عبد العزيز أنَّه كان لا يعرف وقت الصلاة إلاَّ بهمهمةٍ تخرج من القبر[8] .

---

(١) كنز العمال ، حديث ٢١٩٦ .
(٢) كنز العمال ، جـ١ ، الباب السادس ، حديث ٢١٤١ .
(٣) كنز العمال ، جـ١ ، الباب السادس ، حديث ٢٢٤٢ .
(٤) صحيح مسلم (كتاب المساجد) ، باب ٥٧ ؛ ومسند أحمد بن حنبل ، الكتاب الخامس .
(٥) في النسخة المطبوعة : الأخبار .
(٦) الطبقات الكبرى ، جـ٥ ، ص١٣٢ .
(٧) الزبير بن بكّار ، من أهل المدينة ، تُوفي سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م عن (٨٤) عاماً . له مؤلفات في الأنساب والتاريخ .
(٨) سنن الدارمي ، جـ١ ، ص٥٦ .

الفصل الثاني

في حياة سائر الشهداء والأنبياء

قد سبق أن الأرض لا تأكل لحومهم .

قال البيهقي في كتاب الأعتقاد[1] : إنَّ الأنبياء بعدما قُبِضوا رُدَّتْ إليهم أرواحهم ، فهم أحياءٌ كالشهداء .

وقال القرطبي في التذكرة[2] : الموت ليس عدماً محضاً ، يدل على ذلك أن الشهداء أحياء ، فالأنبياء أولى ، وقد صحَّ أنَّ الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء ، وأنَّ النبي (ص) إجتمع بالأنبياء ليلة الأسراء في بيت المقدس وفي السماء .

وقال الأُستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي شيخ الشافعي : إنَّ الأنبياء لا تبلى أجسادهم ، ولا تأكل الأرض منهم شيئاً ، وقد إلتقى نبيُّنا مُحمَّد (ص) مع إبراهيم ، وموسى بن عمران .

وعن أنس ، عن النبي (ص) إنَّه مرَّ بقتلى بدر فكلّمهم ، فقال له أصحابه : كيف تُكلّم أجساداً لا أرواح فيها؟! فقال : لستُم أسمعَ منهم لكنهم لا يتكلمون .

وعن قتيبة وأبي الفضل ، عن إبن عباس أنَّ الحواريين قالوا لعيسى : أحيِّ لنا يحيى بن زكريا ، حتى ننظر إلى وجهه ، فخرج معهم وأحياه ، وإذا نصف شعر رأسه أبيض ، وقد كان أسوداً فسألوه ، فقال : لما نوديت زعمتُ أنها القيامة ، فقال عيسى : أتريد أنْ أسأل اللّه أن يردك إلى الدنيا؟ فقال : إن مرارة الموت لم تخرج من حلقي بعد .

وعن أبي هريرة ، عن النبي (ص) أنه مرَّ بابراهيم يُصلّي ، وبموسى يُصلّي . وفي حديث المعراج أنه مرَّ بكثير من الأنبياء يصلون .

وقال الحافظ شيخ السنة أبو بكر البيهقي في الإعتقاد : إن الأنبياء تُردُّ إليهم أرواحهم بعدما يقبضون ، فهم أحياء عند ربهم كالشهداء ، وقد رأى النبي (ص) جماعة منهم ، وصلُّوا خلفه ، وقد أخبر هو عن ذلك ، وخبرُهُ صدق ، أنَّ صلاتنا تُعرضُ عليه ، وانَّ

---

(١) الأعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد للحافظ البيهقي الشافعي ، طبع في بيروت سنة ١٩٨٨م .

(٢) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة لشمس الدين محمد بن أحمد القرطبي المُتوفى سنة ٦٧١هـ ، وهو مطبوع بالقاهرة سنة ١٩٨١م ضمن جزأين .

الأرض لا تأكل من لحمه .

وعن الشيخ عفيف الدين أنَّ الأولياء من جملة خصائصهم رؤيا الأنبياء .

وقال الشيخ تقي الدين السبكي : إنَّ حياة الأنبياء والشهداء في القبور كحياتهم في الدنيا ، ويدل عليه صلاة موسى وجماعة من الأنبياء ليلة الأسراء مع النبي (ص) .

وروى الثقات عن أنس مرفوعاً ، عن النبي (ص) : إنَّ الأنبياء أحياءٌ في قبورهم .

وعن النبي (ص) أنه قال : مررتُ بقبر موسى بن عمران فرأيتُهُ يُصلّي[1] .

وقال الله تعالى في حق مَنْ قُتلوا في سبيل الله : «أحياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ»[2] إلى غير ذلك من الأخبار .

الفصل الثالث

في حياة سائر الموتى

روى إبن عباس مرفوعاً عن النبي (ص) أنه قال : ما من أحدٍ يمر بقبر أخيه المؤمن فيسلم عليه إلاَّ عرفَهُ ، وردَّ عليه السلام .

وفي رواية : ما من أحدٍ يمر بقبر رجلٍ يعرفه إلاَّ عرَفَهُ وردَّ عليه السلام[3] .

ونقل أبو عبد الله البخاري أنَّ الشهداء وسائر المؤمنين إذا زارهم المسلم وسلَّم عليهم ، عرفوه وردوا عليه السلام .

وروى الثعلبي في تفسيره ، وابن المغازلي الواسطي في المناقب : أنَّ النبيَّ (ص) ، وأصحابه لما حملهم البساط ، وصَلَوا إلى موضع أهل (الكهف) ، فقال : سلِّموا عليهم ، فسلِّموا عليهم ، ولم يردوا ، فسلم النبي (ص) عليهم ، فقالوا : وعليك السلام ورحمة الله[4] .

وأخرج الشيخ ابن حيارة في كتاب (الوصايا) ، عن قيس ، قال : قال النبي (ص) : من

---

(١) تُراجع هذه الأحاديث في كنز العمال ، الفصل الثالث في زيارة القبور ، المجلد الخامس .
(٢) القرآن الكريم : ١٦٩/٣ (سورة آل عمران) .
(٣) كنز العمال ، جـ٥ ، ص٦٤٦ .
(٤) ابن المغازلي ، مناقب علي بن أبي طالب ، ص٢ .

لم يوص ، لم يُؤذَنْ له في الكلام مع الموتى ، قيل ، يا رسول الله الموتى يتكلمون ، فقال : نعم ويتزاورون .

وعن أبي هريرة ، عن النبي (ص) أنه رأى جعفراً يطير في الجنة .

ونقل أبو بكر محمد بن عبد الله الشافعي أن عيسى لما دفن مريم ، قال : السلام عليك يا أماه ، فأجابته من جوف القبر : وعليك السلام حبيبي ، وقرة عيني ، فقال لها : كيف وجدتِ طعم الموت؟ فقالت : والذي بعثك بالحقّ ما ذهبتْ مرارة الموت من حَلْقِي ، ولا خشونته من لساني .

وروى الحاكم عن سالم بن أبي حفصة قال : توفي أخٌ لي ، فوضعتُهُ في القبر ، وسوَّيتُ عليه التراب ، ثم وضعتُ أذني على لحده ، فسمعتُ قائلاً يقول له : مَنْ ربُّكَ ، فسمعتُ أخي يقول بصوت ضعيف : ربي الله ، فقال له : وما دينُك ، فسمعتُ أخي يقول بصوتٍ ضعيف : ديني الأسلام ، فسمعتُهُ يقول له : ومَنْ نبيُّك؟ فسمعتُهُ يقول بصوت ضعيف : مُحمَّد نبيّي ، فسمعتُهُ يقول له : نَمْ نومَ العروس ، وسمعتُ المَلَكَ الآخر يقول له أَبشرْ برَوْحٍ وريحان ، وربٌّ غير غضبان[1] .

وفي الأخبار ، عن عمر بن الخطاب أنه قال : ما من ميت يموت ، يوضع على سريره ، فَيُخْطَى ثلاثَ خُطوات ، إلاّ ويُنادى بنداءٍ يسمعه ما شاء الله من الخلائق غير الثقلين ، فيقول : يا إخوتاه ، يا خدماه ، يا حملة نعشاه ، لا تغرَّنكم الدنيا كما غرَّتني ، ولا يلعبن بكم الزمان كما لعب بي ، خلَّفتُ ما جمعتُ لورثتي ، ولم يحملوا من خطيئتي شيئاً ، والديّان يحاسبني ، وأنتم تشيعوون جنازتي ، ثم تدعونني في لحدي .

وَزيَد في آخر : ثم تسلمونني الى منكر ونكير ، وآندآمتاه ، وآندآمتاه ، وآندآمتاه[2] .

وعن الفقيه الزاهد إسماعيل بن الحسن ، عن عمر بن الخطاب أنه دخل المقابر ، فنادى يا أهل المقابر الأموال قد قُسِّمتْ ، والدور قد سُكنتْ ، والأزواج قد نُكحتْ ، فهذا خبر ما عندنا ، فأخبرونا ما عندكم ، قال : فهتف به هاتف ، وهو ينادي ويقول : يا بن الخطاب وجدنا ما عملنا ربحاً ، وما خلفنا خسراناً ، والجبار سألنا عن جميع ما فعلنا ، ثم سكت .

وعن كعب ، عن النبي (ص) أنه قال : لا يمرُّ أحدٌ بالمقابر إلاّ ويناديه أهل القبور : يا

---

(١) كنز العمال ، جـ١٥ ، ص٦٠٥ .

(٢) كنز العمال ، جـ١ ، ص٥٩٦ .

غافلاً لو علمتَ بما نحن فيه لذاب لحمك وجسمك ، كما يذوب الثلج في النار[1] .

وعن الضحاك ، عن إبن عباس ، عن النبي (ص) أنه قال : إن الموتى ينادون في كل يوم ثلاث مرات من قبورهم : يا أهل الديار عجلوا عجلوا ، فأنما نحن محبوسون من أجلكم ، الرحيل الرحيل ، لا تحبسوا إخوانكم ، خرِّبوا ما بنيتم ، وأتركوا ما جمعتم ، نورتم البيوت ، وأظلمتم القبور ، وبنيتم البيوت ، ونسيتم القبور ، وعمرتم البيوت ، وخربتم القبور ، ووسعتم البيوت ، وضيقتم القبور ، (وذكروا غير ذلك)[2] .

وعن أبي عبد الله محمد بن عمر ، يروي عن عمر ، عن النبي (ص) أنه قال : ما مَنْ يوم يمضي إلاّ ومَلَكٌ يهتف : يا أهل القبور مَنْ تغبطون اليوم ، فيقولون : نغبط أهل المساجد ، يصلُّون في مساجدهم ، ويصومون ويصدَّقون ، ولا نقدر نصلي ونصوم ونتصدق .

وعن محمد بن أبي عبد الله بن الفضل ، عن محمد بن كعب ، قال : مرَّ عيسى على قبر ، فرأى فيه عذابا شديداً ، فدعا الله حتى أحياه ، فقال له عيسى : فَلِمَ تُعذَّب . قال : كنتُ جالساً في سوق (مصر) ، وقد أكلتُ شيئاً ، فأخذتُ عُودةً من حزمة شوكٍ لأُخلل أسناني بها ، ومتُّ منذ أربعة آلاف سنة وأنا في عذابها ، ثم قال : يا روح الله منذُ أربعة آلاف سنة ومرارة الموت باقيةٌ في حَلْقي . فقال عيسى : اللّهُم يسِّرْ علينا سكرات الموت .

وعن وهب بن منبة أن عيسى (ع) مرَّ على نهر فيه ماء عذب ، وحوله خابية[3] ، كلما يوضع فيها من ذلك الماء يصير مالحاً ، فقال : إلهي ما خبر هذا الماء المالح؟! فأذن الله للخابية بالكلام ، فقالت : إني كنتُ آدمياً ، فبقيتُ في قبري ثلاثمائة سنة ، ثم جاء لبَّانٌ ، فضرب ترابي لِبْنَاً ، وبنيت في قصر ثلاثمائة سنة ، ثم خرب القصر ، فبقيتُ تراباً مائتي سنة ، ثم جاء شخص فجعلني (حبًّا) ، ووضعني سقايةً على شاطئ هذا النهر من مائة سنة وكل ما يجعل فيَّ يكون مالحاً ، لما في من مرارة نزع الروح ، وأنا معذبٌ منذ مِتُّ ، لأني أخذت إبرةً من جاري ، وما رددتُها حتى مِتُّ . فما أدري أنَّ عذابي أشد أم مرارة الموت ، فقال عيسى : اللّهُم يسِّرْ عليَّ الموت ، ونجني من عذاب القبر . . . (الحديث) . وقد ذكرنا من مضمونه محل الحاجة .

وعن عائشة ، عن النبي (ص) : إنَّ أشد الأحوال على الميت حين يدخل (الغسال) داره ليغسله ، فيخرج خواتم الشبان من أصابعهم ، وينزع قميص العروس من بدنها ، ويرفع

---

(١) في النسخة المطبوعة : الملح بالماء .
(٢) كنز العمال ، جـ١٥ ، ص٦٢٦ .
(٣) الخابية : الجرَّة الكبيرة المُسْتَعملة لحفظ الماء .

عمائم المشايخ عن رؤوسهم . فعند ذلك يقول بصوت يسمع الخلائق غير الثقلين : يا غسال بالله عليك إنزع ثيابي برفق ، فأني الساعة استرحتُ من مخاليب مَلَك الموت ، فأذا صب عليه الماء صاح كذلك . فإذا رُفعَ عن المغتسل ، وشدَّ مواضع قدميه بالكفن ، يقول : بالله عليك لا تشد رأس كفني ليرى وجهي أهلي وأولادي وعروسي التي كنتُ أُحبُّها ، وينظرُ إلى وجهي أقربائي ، وأحبائي وإخواني ، وجيراني ، ورفقائي ، فأن هذه آخر رؤياي .

فإذا خرج من الدار ، نادى بالله عليكم يا حملة نعشي لا تُعَجِّلوا بي ، حتى أُودِّعَ داري التي بنيتُها ، وزيَّنتُها ونقشتُها بأنواع النقوش ، وأهلي ومالي وأولادي ، فأن هذا خروجٌ لا مردٌ بعده إلى يوم القيامة .

فإذا رُفعت الجنازة ، نادى يا حملَة نعشي بالله عليكم لا تُعجِّلوا بي ، حتى أسمع أصوات أولادي الذين يَعْوَلُونَ خلف جنازتي ، وعروسي التي تبكي عليَّ ، ووالدي الذي تقوَّس ظهره لموتى ، ووالدتي التي شدَّتْ وسطها بالمنديل لمفارقتي ، وقد نشرتْ شعرها ، وضربتْ صدرها ، وتقوَّس ظهرها ، وأبيضَّتْ عيناها لفقدي .

فإذا صُلّي على جنازته ، ورُفعَ من المصلى ، ورجع بعض أصدقائه ، يقول : يا إخوتاه كنتُ أعلمُ أنَّ الميت ينساه الأحياء ، لكن لا بهذه السرعة ، رجعتم قبل أن تدفنوني ، ونسيتموني بهذه السرعة ، وجسمي بعد بين أظهركم .

فإذا وُضعَ في لحده ، وَوُضعَ عليه التراب ، ينادي وآ ورثتاه ، تركتُ لكم الكثير ، فلا تنسوني ، تصدَّقوا عني على فقرائكم ، ولو بكسرة خبز محترق ، وعلمتكم القرآن والأدب ، فلا تنسوني من الدعاء ، فأني صرت محتاجاً ، كفقرائكم على أبوابكم ، ومحتاجاً إلى دعائكم ، كصاحب حاجتكم الى ساداتكم[1] .

ومما يدل على بقاء حياتهم في قبورهم ، ما دلَّ على أنَّ الميّت بعدما يُسْأل ، يُفتح له بابٌ إلى الجنة ، إن كان من أهل الخير ، أو إلى النار إنْ كان من أهل الشر ، وبقاء اللذة والألم ظاهرٌ في بقاء أثر الحياة .

وعن عبد الله بن عمر ، قال : قال رسول الله (ص) : إذا مات أحدكم ، عرض عليه مقعده بالغدوة والعشيّ ، إن خيراً فخير ، وإن شراً فشر .

وعن أبي هريرة ، عن النبي (ص) : إنَّ الميتَ يُسْأل في قبره عن النبي (ص) ، فأن

---

(١) تُراجع هذه الأحاديث في الجزء الخامس عشر من كنز العمال في الباب الأول (في ذكر الموت وفضائله) ، حديث ٤٢٠٩٤ حتى حديث ٤٣٠١١ (من ص ٥٤٨ حتى ص ٧٥٨) .

أجاب بالحق قيل له : نَمْ نومةَ العروس ، وإلاّ فُتِحَ له بابٌ إلى قبره يكون معذباً إلى يوم القيامة[1] .

وعن البراء بن عازب ، عن النبي (ص) ، قال : يأتيه ملكان يجلسانه ، ثم ذكر أنهما يسألانه ، فأن أجاب بحق ، فُتح له بابٌ إلى الجنة ، فيأتيه من روحها وطيبها ، وإلاّ يُفتحُ له بابٌ إلى النار ، فيأتيه من حرِّها وَسَمُوْمِها . الى غير ذلك من الأخبار الكثيرة الدالة على أنهم في قبورهم يتلذذون ويتألمون ، وهذا من توابع الحياة ولوازمها .

وكيف كان فقد بلغت هذه الأخبار فوق التواتر ، وبعد عموم قدرة الفاعل المختار ، لا بُعدَ ولا غرابة في مداليلها .

وما دلَّ من الكتاب والسنة على أنَّ الأحياء يكون عند النفخ في (الصُور) ، فقد بيَّنا أنَّ المراد : إمَّا الحياة على النحو المعهود من تلك الأشخاص الخاصة بعينها ، أو يُرادُ أنَّهُ يوم البروز والظهور على عيون الأشهاد .

وإذا تبيَّنَ بهذه الأخبار المتواترة ، أنهم يسمعون ويعقلون ويعرفون مَنْ يُخاطبُهم ، صحَّ لنا أنْ نخاطبهم مخاطبة الأحياء فنلتمس دعاءهم ، ونقسم عليهم بالأقسام في أنْ يكونوا شفعاء لنا في الدنيا وفي يوم القيام ، لأنَّ الشفاعة أظهر فرديها أنها دعاءٌ خاص ، واختصاص الخواص بها باعتبار قبولها .

فلو قال قائلٌ لنبيّ ، أو وصيّ ، أو عبدٍ صالح : إشفع لي ، أو إدعُ لي ، أو أغثني ، أو أعنّي (أي بدعائك) ، أو قال : إقض لي حاجتي ، أو إرزقني مالاً ، وأدفع الضرر عني ، ونحو ذلك ولا يريد سوى التوسط بالدعاء وسؤال الله ، لم يكن عليه شيء .

وقد وقع كثيرٌ من ذلك في كلام الصحابة والتابعين ، بل ربَّما كان هذا التعبير أولى ، لدلالته على قرب منزلة العبد عند مولاه واحترامه ، فتكون شهادة له بنبوته ، وقرب منزلته .

وليس على مَنْ قال للعبد المقرّب ، أو إلى الخادم المقرب : إقضِ حاجتي ، (بمعنى إسعَ لي في قضائها عند مولاك) ، بأسٌ ، بل هو أنسب في التواضع الى المولى .

وأما مَنْ قال مثل ذلك معتقداً أنَّ الأنبياء والأوصياء بأيديهم الأمر أصالةً ، يفعلون ما يشاؤون ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين .

---

(١) سنن الترمذي (كتاب الجنائز) ، باب ٧٠ ـ ما جآء في عذاب القبر ـ حديث ١٠٧١ .

وإني قد طفتُ بشطر من بلاد المسلمين ، وخالطتُ كثيراً منهم منذ سنين ، فلم أرَ أحداً يعتقد أنَّ في الوجود فاعلاً مختاراً سوى الفاعل المختار العزيز الجبار تبارك وتعالى ، وذلك مراد (العوام) في خطاباتهم ، فضلاً عن العلماء الأعلام ، إلاَّ أنهم لا يمكنهم كشف الحال ، وإن كان مقصدهم ذلك على الأجمال . نسأل الله وإياكم طريق السداد والنجاة من أهوال يوم المعاد .

الباب الثاني

في الزيارات

وفيه فصلان :

الفصل الأول

في زيارة قبر النبي (ص)

روى الدارقطني في السنن وغيرها ، والبيهقي ، وغيرهما من طريق موسى بن هلال العبدي ، عن عبد الله العمري ، عن نافع ، عن إبن عمر ، قال : قال رسول الله (ص) : مَن زار قبري وجبتْ له شفاعتي .

وعن نافع ، عن سالم ، عن ابن عمر مرفوعاً ، عن النبي (ص) أنه قال : مَنْ جاءني زائراً ليس له حاجة إلاَّ زيارتي ، كان حقاً عليَّ أنْ أكون له شفيعاً يوم القيامة .

وعن ليث ، عن مجاهد ، عن ابن عمر مرفوعاً عن النبي (ص) : مَنْ حَجَّ وزار قبري بعد وفاتي ، كان كمَنْ زارني في حياتي .

وروي عن عائشة أيضا ، وعن نافع ، عن إبن عمر ، عن النبي ، قال : مَنْ زارني كنتُ له شهيداً أو شفيعاً .

وعن نافع ، عن ابن عمر ، عن النبي (ص) ، قال : مَنْ حجَّ فلم يزرني ، فقد جفاني[1] .

وعن أبي هريرة مرفوعاً ، عن النبي (ص) ، قال : مَنْ زارني بعد موتي ، فكأنما زارني حياً[2] .

---

(١) تُراجع هذه الأحاديث في سنن البيهقي ، جـ٥ (كتاب الحج) ، باب زيارة قبر النبي (ص) .
(٢) كنز العمال (باب زيارة قبر النبي) ، المجلد الخامس ، حديث ١٢٣٨٢ .

وعن أنس مرفوعاً ، عن النبي (ص) ، قال مَنْ زارني في المدينة ، كنتُ له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة[1] .

وعن أنس مرفوعاً عن النبي (ص) قال : مَنْ زارني ميِّتاً كمَنْ زارني حياً ، ومَنْ زار قبري وجبتْ له شفاعتي يوم القيامة .

وعن إبن عباس ، عن النبي (ص) قال : مَنْ زارني في مماتي ، كان كمن زارني في حياتي ، ومَنْ لم يزرني فقد جفاني .

وعن علي (ع) مرفوعاً ، عن النبي (ص) : مَنْ زار قبري بعد مماتي ، فكأنما زارني في حياتي ، ومَنْ لم يزرني فقد جفاني .

وعن إبن عباس ، عن النبي (ص) ، قال : مَنْ حجَّ وقصدني في مسجدي ، كانت له حجتان مبرورتان .

وروى إبن عساكر ، عن علي (ع) ، قال مَنْ زار قبر رسول الله (ص) كان في جوار رسول الله (ص) .

وعن بكر بن عبد الله مرفوعاً ، عن النبي (ص) ، قال : مَنْ أتى المدينة زائراً لي ، وجبتْ له الجنة .

وعن كعب الأحبار أنَّ عمر لمَّا فتحَ بيت المقدس ، قال لي : هل لك أن تسير معي الى المدينة نزور قبر النبي (ص) فذهبتُ معه ، فلمَّا دخل بدأ بالمسجد ، وسلَّمَ على النبي (ص) .

وفي الموطأ عن إبن عمر كان يقف عند قبر النبي (ص) ، فيُسَلِّم عليه ، وعلى أبي بكر ، وعمر .

وسئل نافع هل كان ابن عمر يسلِّم على قبر النبي (ص)؟! فقال : رأيتُهُ مائة مرّة أو أكثر يُسلِّم على النبي (ص) ، وعلى أبي بكر ، وعمر .

وعن إبن عمر : أنَّ سُنَّةَ السلام منْ قبل القبلة .

ونقل الدارقطني ، عن علي (ع) أنه دخل المسجد فسلم على القبر . ورُويَ عن آل الخطاب ، وعن بعض الحُفَّاظ زيارة النبي (ص) .

---

(١) كنز العمال (باب زيارة قبر النبي ـ ص ـ) ، المجلد ١٥ ، حديث ٤٢٥٨٤ .

وكيف كان ، فالروايات في استحباب زيارته وشفاعته لزوّاره ، داخلةٌ في قسم المتواتر ، وعمل الصحابة ، والتابعين ، وأهل البيت أجمعين على ذلك .

قال عياض : زيارة قبر رسول الله (ص) سُنَّة ، أجمعَ عليها المسلمون . وروى غيرُهُ إجماعَ المسلمين قولاً وفعلاً على استحباب زيارته ، وصريحٌ بعضُها[1] أن شدَّ الرحال إليها لا مانع منه .

وفيما دل على استحباب التعظيم ، وانَّ حرمة الأموات كحرمة الأحياء ، كفاية .

الفصل الثاني

في زيارة باقي القبور

قد مرَّ في الأخبار الماضية زيارة الصحابة قبري الشيخين .

وروى بريدة عن النبي (ص) : إني نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها[2] .

ولعل السر ـ والله أعلم ـ أنه في مبدأ الأسلام كانت زيارة القبور وتذكار الموتى والقتلى ، باعثاً على الجبن عن الجهاد ، حتى إذا قوي الأسلام أمرهم بها . ونحو ذلك في خبر آخر .

وعن أبي هريرة ، أنَّ النبي (ص) زار قبر أُمِّه ، ولم يستغفر لها ، قال : أُمرتُ بالزيارة ، ونهيتُ عن الأستغفار ، فزوروا القبور ، فأنَّها تذكر الموت[3] .

وعن بريدة أنَّ النبي (ص) كان إذا خرج إلى المقابر ، قال : «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين» ، رواه مسلم[4] .

وعن عائشة أنَّ النبيَّ (ص) كان يخرج إلى البقيع آخر الليل ، فيقول : السلام عليكم . . . (الخبر) ، رواه مسلم[5] .

---

(١) في النسخة المطبوعة : وصرَّح بعضهم .

(٢) صحيح مسلم (كتاب الجنائز) ، المجلد الثاني ، باب ٣٦ ، حديث ١٠٦ ؛ وسنن ابن ماجه (باب ما جاء في زيارة القبور) ، باب ٤٧ ، حديث ١٥٧١ .

(٣) صحيح مسلم (كتاب الجنائز) ، باب أستئذان النبي (ص) ربَّه في زيارة قبر أمّه ، حديث ١٠٨ .

(٤) صحيح مسلم (كتاب الجنائز) ، باب ما يقال عند دخول القبور ، حديث ١٠٤ .

(٥) صحيح مسلم (كتاب الجنائز) ، باب ما يقال عند دخول القبور ، حديث ١٠٢ .

وكيف كان فالأخبار متظافرة على زيارة القبور ، ولا حاجة لنقلِ جميعها . وفيما ورد من أنَّ حرمة المسلم ميتاً كحرمته حياً دلالة على ذلك ، وزيارة النبي (ص) ، والصحابة لقبور الشهداء أوضح من الشمس في رابعة النهار .

الباب الثالث

في التبرك بالقبور ونحوها

إختلف العلماء من أهل السنة والجماعة في جواز التبرك بالقبور ، فمنهم : من أجازه على كراهة .

قال النووي : لا يجوز أنْ يُطافَ بقبر النبي (ص) ، ويكره إلصاق البطن والظهر به . قال : ويكره مسَّهُ باليدِ وتقبيله ، بل الأدب أن يبعد عنه ، كما لو حضر في حياته .

وكلامه ظاهرٌ في أنَّ المس أبعد من التعظيم ، وشبهة العبودية .

وذكر إبن عساكر في (تُحَفِهِ) ، عن ابن عمر أنه كان يكرهُ مسَّ قبر النبي (ص) .

ويظهر من بعضهم ندبه وأستحبابه .

نقل عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب العلل والسؤالات ، قال : سألتُ أبي عن الرجل يمس منبر رسول الله (ص) ، يتبرك بمسه وتقبيله ، ويفعل بالقبر ذلك رجاء ثواب الله تعالى ، فقال : لا بأس به .

وعن إسماعيل أن إبن المنكدر[1] يصيبه الصمَّات ، فكان يقوم ويضع خدَّهُ على قبرِ النبي (ص) ، فعُوتبَ في ذلك ، فقال : يستشفى بقبرالنبي (ص) . والأستشفاء أعظم من التبرك .

ونقل عن إبن أبي الضيف ، والمحب الطبري ، جواز تقبيل قبور الصالحين ، وظاهره الندب .

وفي رواية عن إبن حنبل أني لا أعرف التمسح بالقبر ، أما المنبر فنعم ، لما روي أن إبن عمر كان يفعله .

ونقل عن مالك التبرك بالمنبر .

---

(١) محمد بن المنكدر القرشي التيمي أحد الأئمة التابعين ، تُوفي سنة ١٣٠هـ / ٧٤٨م .

وروي عن يحيى بن سعيد شيخ مالك أنه حينما أراد الخروج إلى العراق ، جاء إلى المنبر ، وتمسَّح به .

وقال السبكي : مَنْعُ التمسح بالقبر ليس مما قام الأجماع عليه . وأستدل بما رواه يحيى بن الحسن ، عن عمر بن خالد ، عن أبي نباته ، عن كُثَير بن يزيد ، عن المطلب بن عبد الله ، قال : أقبل مروان بن الحكم ، فإذا رجلٌ ملتزم القبر ، فأخذ مروان برقبته وقال : ما تصنع؟! فقال : إني لم آتِ الحجر ولا اللبن ، إنما جئتُ رسول الله (ص) . وذكر رواية أحمد ، قال : وكان الرجل أبا أيوب الأنصاري .

ونقلَ هذه الرواية أحمد ، وزاد فيها : أنه قال : سمعتُ رسول الله يقول : لا تبكوا على الدين إذا وليه أهله ، ولكن إبكوا عليه إذا وليه غير أهله .

وعن أبي الدرداء أن بلالاً رأى النبي (ص) في المنام ، فقال له : ما هذه الجفوة يا بلال ، أَمَا لَكَ أن تزورني؟! فانتبه حزيناً خائفاً ، فركب راحلته ، وقصد المدينة ، فأتى قبر النبي (ص) فجعل يبكي عنده ، ويمرِّغ وجهه عليه ، إلى أنْ ذكر حضور الحسنين وبكاء أهل المدينة ، وأذآن بلال ، قال : فما رُئِيَ أكثر باكياً ولا باكية بعد رسول الله (ص) من ذلك اليوم .

وذكر إبن حملة أن (بلالاً) وضع خديه على القبر ، وأن ابن عمر كان يضع يده اليمنى عليه .

ونُقلَ عن مالك ، والزعفراني تحريمه ، وهو الظاهر من كلام أنس بن مالك ، حيث قال : ما كنا نعرفه .

وكيف كان كيف يدَّعى المسّ والتبرك عبادة مع أنه أبعد عن التعظيم ، وقضية الذم على عبادة يعقوق ويغوث ونسر ، ليس من جهة التبرك ، كما نصَّ عليه المُفَسرون[1] ، حيث قالوا : تبركت الآباء فانتهى الأمر إلى عبادة الأبناء ، فوقع الذم على الأبناء .

وتحقيق الحال : أنَّ التقبيل على أنحاء :

منها : تقبيل المحبة ، لأنَّ مَنْ أحبَّ شخصاً أحبَّ مكانه ، وثيابه ، وداره ، ومزاره ، فلا يكون تقبيل الأعتاب ، والجدران ، والأبواب إلاَّ كتقبيل بعض ثياب الأحباب ، فهو من قبيل قوله :

---

(١) في تفسير الآية (٢٣) من سورة نوح .

أمرُّ على الديارِ ديار (ليلى) أُقبّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حُبُّ الديار شغفنَ قلبي ولكنْ حُبُّ مَنْ سكنَ الديارا

وَسُئِلَ رسول الله (ص) عن تقبيل اليد ، فنهى عن ذلك ، إلاَّ في تقبيل يد الزوجة للشهوة ، ويد الولد للمحبة .

وعن علي (ع) انه ، قال : قال رسول الله (ص) بعد فتح خيبر : لولا أنْ تقول فيك طوائف من أمتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم ، لقلتُ اليوم فيك مقالاً ، لا تمر على ملأ من المسلمين إلاَّ أخذوا من تراب رجليك ، وفضل طهورك يستشفون به ، ولكن حسبك أنَّكَ مني وأنا منك[1] .

وروي عن علي (ع) أنه قال : قدم علينا أعرابيٌّ بعد دفن النبي (ص) بثلاثة أيام ، فرمى بنفسه على القبر ، وَحَثَا من ترابه على رأسه .

وعلى كلّ حال فالذي يظهر بعد تحقيق النظر أنَّ التقبيل للمحبة من قبيل تقبيل الوالد لـولـده[2] ، والأرحام بعضهم لبعض فلو قَبَّلَ بعضهم جدران بعض ، أو ثياب بعض ، أو مكان بعض ، حباً وإرادة ، لا تعظيماً ولا عبادةً ، فليس فيه بأس .

وأما قصد التعظيم والأكرام ، فليس فيه خروجٌ عن ملة الأسلام ، قصارى ما هناك أنه عدَّهُ بعض العلماء من الآثام ، فليس على الفاعل عن دليل في الرد عليه من سبيل . وأما من فعل مشرعاً فهو عاصٍ لربه ، حتى يتوب عن ذنبه .

ولقد نقل عن بعض أمراء دار السلام بغداد أنه وشى بعض الوشاة على جماعة أنهم يُقَبِّلُون أعتاب الأولياء ، فقال : سبحان الله في كل يومٍ تقبلون جلد الميتة «يعني الفروة التي هو لابسها» ، ولا تقبِّلُون أعتاب أبواب الأولياء .

وعلى أي تقدير ، فالغرض إنما هو نفي (التكفير) . ونسبة فعل هؤلاء إلى فعل عبدة الأصنام خروجٌ عن الأنصاف في هذا المقام ، لأنَّ الذاهبين إلى الجواز منا إنما أخذوا عن الدليل ، لا لمجرد الأختراع والأبتداع ، فأن اشتبهوا عُذِروا وأُجِروا .

فمن قبَّلَ الحجرَ الأسود ، والركنَ اليمانيَّ ، أو باقي الأركان ، أو مسَّها ، أو لزم المستجار ، فقد تبرك بتلك الأحجار ، لأنها بأمرٍ من العزيز الجبار ، ولو أخطأ الأمر ، كان

(١) نهج البلاغة ، جـ٢ ، ص٤٤٩ .
(٢) في النسخة المطبوعة : «الوالدة لولدها» .

مثاباً .

ومن طاف بين (المروتين) ، عملاً بالكتاب وسنة سيد الثقلين ، لم يكن عليه مؤاخذة في البين .

وطوائف المسلمين بأجمعهم لا يتبرك منهم أحدٌ بقبر أو غيره ، إلاّ بزعم أنه مأمورٌ من الله ، ومَنْ تبرَّكَ قاصداً للعبادة ، فهو خارجٌ عن ربقة المسلمين .

ومن البين المعلوم أنه لو أمر (المولى) عبده بالتبرك بثياب عبده المقرب ، أو مكانه ، أو قبره ، فأمتثل ، كان مطيعاً لمولاه ، لا للعبد الذي قرَّبه وأدناه .

فأقسمتُ عليك بمَنْ جمعَ بيننا في كلمة الأسلام ، وألَّفَ بين قلوبنا في هذه الأيام ، أنْ تنفرد عن الأصحاب إذا ورد عليك (الكتاب) ، وترى نفسك كأنَّك الآن خلقت من تراب ، وتبذل الجهد في تمييز الخطأ من الصواب ، فأنَّه ـ واللهِ[1] ـ لا حاجة بنا إلاَّ إليه ، ولا إعتماد لنا إلاَّ عليه .

وليس لنا مع الأنبياء والأولياء قرابة نسب ، ولا لهم علينا ما نخاف منه الطلب ، وإنما عظَّمناهم لأمر الله ، وأخذنا بأقوالهم عملاً بقول رسول الله ، وما أُبرِّءُ نفسي إنَّ النفس لأمارةٌ بالسوء إلاَّ ما رحم ربي .

وكشف الحال على وجه يدفع ما قيل أو يقال : إنَّ التواضع والتبرك والأكرام والأحترام لما هو مُعظَّم عند الملك العلام من تعظيم الله ، كما أن قرآنه وبيته ، ومساجده لانتسابها إليه ، إحترامٌ له تبارك وتعالى . فمن عظَّمَ عيسى ومريم وعزير لعبوديتهم ، وقرب منزلتهم ، فهو معظَّم لله .

كما أن من عظم بيت السلطان وعبيده وغلمانه وأتباعه من حيث التبعية ، يكون معظماً للسلطان . وأما من (وجدها) قابلة للتعظيم ، وأهلاً له من حيث ذاتُها لا لأجل العبودية والتابعية ، وإنْ كان غرضُهُ التقريب زلفى ، إنما يكون معظَّماً لها ، لا للسلطان .

وإني منذ ثلاثين حجة أنظرُ في حال طوائف المسلمين ، محقيهم ومبطليهم ، فلم أجد أحداً يعظم كتاباً ، أو نبيَّاً ، أو مكاناً ، أو عبداً صالحاً من غير قصد قربة من الله ، أو انتسابه إليه ، فقد ظهر أن هذا كله من باب طاعة الله وتعظيمه .

وأمَّا عبدة الأصنام والعباد الصالحين ، فأنما أرادوا عبادتهم حق العبادة ، كأنْ يُصلّوا

---

(١) في النسخة المطبوعة : فأنا وأنتَ .

لهم ، ويصوموا ويكون ذلك لأستحقاقهم بربوبيتهم في أنفسهم ، أو للتقريب زلفى ، فهي عبادة حقيقية على الوجهين .

وعلى كل من الأحتمالين على أني ذكرتُ مكرراً أنهم عاندوا الرسل ، وكذبوهم ، واستهزؤا بهم ، وقالوا أيضا : لا طاقة لنا بعبادة الله ، وإنما نعبد الأصنام لأنَّ عبادتهم مقدورة لنا ، وهم يقربونا إلى الله زلفى ، ولقد نقلتُ روايةً مشتملةً على ذلك المعنى في مقام آخر . فالفرق بين الأمرين أوضح مما يُرى رأي العين .

فبحقّ مَنْ شقَّ لك السمع والبصر ، وسلَّطكَ على طوائف من الأعراب والحضر ، أنْ تُوجِّهَ ذهنكَ الوقّاد ، وفكرَك النقّاد ، صافياً عن ملاحظة العصبية والعناد ، وتجعل مناظرتنا كأنّها حين حلولنا في المقابر ، وانصرافنا عن مرارة الدنيا ، طالبين للنعيم الفاخر ، وحضورنا يوم فصل القضاء بين يدي جبار الأرض والسماء ، وكأنَّ الملائكة بيننا شهود ، وقد حضرنا في اليوم الموعود ، وقد فارقنا الأموال والأولاد ، وانقطعنا الى ربِّ العباد .

اللّهُمَّ إجمعْ بيننا بالحقّ ، واعصمنا عن الميل إلى رضا الخَلْق .

الباب الرابع

في بناء قبور الأنبياء والأولياء وتعميرها وتعلية بنائها وتشييد أركانها

لا يخفى على مَنْ أمعنَ النظر ، وتتبَّع الآثار والسير ، أنَّ الأزمنة مختلفة الأحوال بالنسبة إلى جميع الأقوال والأفعال ، فرُبَّ شيءٍ كان في قديم الزمان في أعلى مراتب الأستحسان ، فانعكس وصار أدنى ما يكون أو كان .

وحيث أنَّ الشارع حكيم ، وبالعباد رحيم ، يراعي أحوالهم ، ففي مبدأ الأسلام لما كان المعاش ضيِّقاً ، والأسعار متصاعدة في المآكل والملابس ، حافظ النبي (ص) ، والصحابة في أيامهم على المآكل الجشبة ، والملابس الخشنة أو الخَلقَة ، لئلا تنكسر قلوب الفقراء ، ولتطيب نفوسهم ، فأنهم إذا رأوا سيد الجميع لابساً رثَّ اللباس ، وآكلاً أدنى المأكول ، إستقرتْ نفوسهم ، وأطمئنتْ قلوبهم ، وارتفعتْ كدورتهم .

ثم لمَّا توسعت أحوال الناس ، وقوي الأسلام ، ورخصت الأسعار ، استعمل الأكثر من الخلفاء أحسن الملبوس ، وأكلوا أطيب المأكول ، وهذا التعليل مستفاد من الأخبار أيضاً .

ولذلك نقول في أمر بناء (المساجد) و(الحَضْرَات) ، فأنهم كانوا لا يرفعون البناء ، ولا يزينون الدور ، لما بهم من القصور ، فإذا كانت بيوت الله ، وبيوت أنبيائه لم يرفع بناؤها طابت نفوس الفقراء ، واطمئنَّتْ قلوبهم .

وأما في مثل هذه الأيام ونحوها ، حيث ارتفع بناءُ الدور ، فلا وجه لجعل بيوت الله أخفض منها ، ومَنْ يرضى بتعلية بيوت الخلق على بيوت الخالق مع أنَّ في تعليتها تعظيماً لشعائر الله ، وهي البيوت التي إذن الله أن ترفع ويُذْكُر فيها إسمُه .

و(القباب) منها ، لأنَّها جُعلتْ للعبادة ، وليس في بناء القباب تجديد قبر ، لأنَّ القبر باق على حاله لم يجدد ، وإنَّما وضع أساس القبة بعيداً عنه ، ليكون فيها علامة على (المزَار) الذي نَدَب إلى زيارته العزيزُ الجبار ، ولتكون ظلالاً للزائرين ، فلا تدخل في باب التجديد أصلاً ، وكذا صندوق الخشب ، فأنه أجنبيٌ عن القبر لا دخل له به .

وعلى كُلِّ حال فأصل وضع البناء لهذه المقاصد الجليلة ليس فيه بأس أصلاً ، ولو تُركت العلامات ما أمكن التوصل الى زيارة أكثر الأموات لاندراس آثارهم ، فوُضعَ هذا للتمكن من إدراك فضيلة زيارة القبور ، وكلما كان الشاهد أحكم ، كانتْ دلالتُهُ على المَشْعَر أدوم .

وأما قضية (الزينة) فقد رُويَ عن علي (ع) أنَّ بعض الصحابة أشاروا على عمر أنْ يأخذ زينة الكعبة ليقوي بها جيوش المسلمين ، فقال له علي (ع) : إنَّ الأموال قسَّمها النبي (ص) على الفقراء ، وكانت في ذلك اليوم الحليّ موجودة ولم يقسّمها ، فلا تخالف وضع رسول الله (ص) ، فقال عمر (رض) :« لولاك إفتضحنا» ، وأبقى الحليّ على حالها .

والأصل في بناء (القباب) وتعميرها ، ما رواه البناني(واعظ أهل الحجاز) عن جعفر ابن محمد ، عن أبيه ، عن جده الحسين ، عن أبيه علي أنَّ رسول الله (ص) قال له : والله لتقتلن في أرض العراق ، وتدفن بها . فقلت : يا رسول الله ما لمن زار قبورنا وعمَّرها وتعاهدها . فقال لي : يا أبا الحسن إن الله جعل قبرك وقبر ولديك بقاعاً من بقاع الجنة ، وإن الله جعل قلوب نجباء من خلقه ، وصفوة من عباده تحنُّ إليكم ، ويعمرون قبوركم ، ويكثرون زيارتها ، تقرباً الى الله تعالى ، ومودةً منهم لرسوله . يا علي مَنْ عمَّرَ قبوركم وتعاهدها ، فكأنما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس ، ومن زار قبوركم عدل ذلك ثواب سبعين حجة بعد حجة الأسلام ، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه .

ونُقِلَ نحو ذلك أيضاً في حديثين معتبرين : نقل أحدهما الوزير السعيد بسند ،

وثانيهما بسندٍ آخر غير ذلك السند ، ورواه أيضاً محمد بن علي بن الفضل .

فبعد دلالة هذه الأخبار على تعمير (القباب) ، واستمرار طريقة الأصحاب ، مع أنها داخلة في المواضع المعدّة للطاعات ، كالمساجد ، والمدارس ، والرباطات ، مع أنَّ فيها تعظيماً لشعائر الأسلام ، وإرغاماً لمنكري دين النبي عليه الصلاة والسلام .

وبعد أن بيّنا أنَّ الحكم والمصالح تختلف بأختلاف الأوقات ، وذكرنا إعتضاد ذلك بالروايات ، لم يبق بحثٌ من جميع الجهات .

وعلى تقدير ثبوت الخطأ في هذا الباب ، لا يلزم على المخطئ تكفير ولا عصيان ، بل ربما يثاب ، لأن الخالي من التقصير وإن إتصف بالقصور معذور كل العذر ، بل هو مأجور .

فيا أخي لا تعارض المسلمين فيما هم عليه إن لم تركن إلى ما ركنوا اليه ، وأحملهم على المحامل الحسان ، فأنّا هكذا أمرنا بحمل الأخوان ، وفقنا الله وإياكم ، وهدانا وهداكم ، والله ولي التوفيق .

وحيث إنتهى ما أردنا ذكره ، وأحببنا رسمه وسطره ، على غاية من السرعة والأستعجال ، وعدم التمكن لأستيفاء كثير مما يناسب هذا المجال ، والإستقصاء لما في كتب الأخبار والاستدلال ، أحببنا أن نضيف إلى ذلك :

كشفُ الجواب
عمّا تَضَمّنَهُ ذلك الكتاب

من الأنكار على أكثر المسلمين في جميع الأقطار[1] .

أقول : إنْ أُريد بدعوة غير الله والأستغاثة إسناد الأمر الى المخلوق على أنه الفاعل المختار الذي تنتهي إليه المنافع والمضار ، فذلك من أقوال الكفار . والمسلمون بجملتهم براءٌ من هذه المقالة ومن قائلها ، وما أظن أن أحداً ممن في بلاد المسلمين يرى هذا الرأي ، ولا سمعناه من أحد إلى يومنا هذا .

وإن أُريدَ أنَّ المدعو والمستغاث به له اختيار وتصرفٌ في أمر الله تعالى ، فيحكم على الله ، فهذا أشد كفراً من الأول .

وإنْ أُريدَ دعاؤه والأستغاثة به للدعاء والشفاعة ، أو من التصرف في العبارة ، كما تقول : يا رحمة الله ، ويا بيت الله ، ويا عبد الله ، ولا تريد إلاّ نداء الله ودعاءه ، واستغاثته ، فهذا من أعظم الطاعات ، وفيه محافظة على الآداب من كل الجهات .

وكون الدعاء عبادة إنما يجري في قسم منه ، وهو الطلب من الخالق المدبّر الذي جلَّ شأنُهُ عن الأشباه والنظائر . ولو جعلت كل دعاء عبادة ، للزم أن دعاء (زيد) لأصلاح بعض الامور ، أو دفع بعض المحذور ، وطلب الأفعال ، كلها من قبيل الكفر .

فالسُؤال ، والأزواج ، والعبيد ، والخُدّام في طلب المآكل والملابس مربوبون ، ومقابلوهم أرباب ، فيكون ذلك مكفراً ، وإن أقررت بالتخصيص خصّصناه بما ذكرناه .

وبيانُهُ : أنَّ لفظ «الدعاء» لا يُرادُ به المعنى اللغوي ، وإلاّ لكفر جميع الخلق ، فالمراد دعاء العبودية والمربوبية ، كمن دعا الأصنام أو الصالحين ، مع إعتقاد ربوبيتهم ، وقصدَ عبوديتهم ، مكتفين بها عن عبادة الله ، أو مشركين أولئك مع الله لقصد وصول النفع

---

(١) ورد في النسخة المطبوعة :واللهّ الملهم للسداد والصواب ، فنقول : أما ما ذكرت من الإنكار على كثير من الناس الإستغاثة بغير الله ودعوة غير الله .

ليهم منهم ، وليقربوا إلى الله زُلفى .

وأمّا ما ذكرتَهُ من (النذر لغير الله تعالى) و(الذبح لغير الله) ، وهذا أيضاً إنْ أُريدَ أنهم يذبحون مُهِلِّينَ باسم غير الله ، أو ينذرون تعبداً لغير الله . فذلك لم يصدر من أحد من المسلمين ، وكل من فعل ذلك ، فهم منه براء ، سواء كان ذلك عبادةً لغير الله ، أو كان لأجل أن يقرب إلى الله .

وأمّا لو كان من باب إهداء ثواب المذبوح والمنحوروالمنذور إلى أولياء الله وعباده الصالحين ، فهو من أعظم الطاعات ، وأفضل القربات ، وقد بيَّنا ذلك في بعض المقامات .

قولك : إن ذلك حقيقة دين المشركين أعداء رسل رب العالمين ، كقوم نوح وعاد وثمود ، وقوم إبراهيم ، فأخبر الله عنهم بذلك في كتابه المبين ، حيث يقول وهو أصدق القائلين «وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ ما لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤُلاءِ شُفَعاؤنا عِنْدَ الله»(1) فأخبر الله أنهم ما عبدوهم إلا ليقربوهم الى الله زلفى ، وقال سبحانه وتعالى : «ما نَعْبُدُهُمْ إلاّ لِيُقَرِّبُونا الى اللهِ زُلْفى»(2) .

فتأمل كيف أخبر الله سبحانه عنهم أنهم ما قصدوا بعبادتهم غير الله إلاّ التقرب الى الله والشفاعة عنده ، وإلاّ فهم مُقِرُّون أنَّ الله هو المُدَبِّر لأمر هذا العالم العلوي والسفلي ، كما أخبر الله عنهم أنهم أقروا بذلك ، قال الله تعالى : «قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالأرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَمَنْ يُخْرِجُ الحَيَ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ المَيِّتَ مِنَ الحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الأمْرَ فَسَيَقُولُونَ الله قُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ»(3) .

أقول : إنَّ لكُلِّ حقّ حقيقة ، وعلى كل صواب نوراً ، إنَّ عبدة غير الله قد اتخذوا آلهة دون الله تعالى أو مع الله وجعلوا لهم أنداداً وأمثالاً لله ، قال الله تعالى : «أَتَعبُدُونَ مِن دونِ الله ما لا يَملكُ لَكُم نَفعاً وَلا ضَرّاً»(4) ، وقال : «فلا تجعلوا للّه أنداداً»(5) ، وقال : «وجعلوا للّه شُركاءَ الجنّ»(6) ، وقال : «لَقَدْ كَفَرَ الَّذينَ قالوا إنَّ اللهَ ثالثُ ثَلاثة»(7) ، وقال :

(1) القرآن الكريم : ١٠/١٨ (سورة يونس) .
(2) القرآن الكريم : ٣٩/٣ (سورة الزمر) .
(3) القرآن الكريم : ١٠/٣١ (سورة يونس) .
(4) القرآن الكريم : ٥/٧٦ (سورة المائدة) .
(5) القرآن الكريم : ٢/٢٢ (سورة البقرة) .
(6) القرآن الكريم : ٦/١٠٠ (سورة الأنعام) .
(7) القرآن الكريم : ٥/٧٣ (سورة المائدة) .

«يا عيسى بنَ مَرْيَمَ أأَنتَ قُلْتَ للناس اتَّخِذُوني وَأُمّي إلهَيْنِ مِنْ دُون الله»[1] ، وقال : «أئنّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرى»[2] ، وقال : «لَقَدْ كَفَرَ الَّذينَ قالُوا إنَّ اللهَ هُوَ المَسيحُ بْنُ مَرْيَمَ»[3] .

ثم المذمة لم تكن على اعتقاد الشفاعة ، أو التقرب زلفى ، بل على العبادة بهذا القصد ، والمراد بالعبادة أعمال خاصة كما بيَّناه .

وقولك «إن ذلك حقيقة دين المشركين ، كقوم نوح وعاد وثمود» كيف ذلك ، وقد أخبرَ الله عنهم بقوله : «ألم يأتكم نبأُ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود» ، إلى قوله : «فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ في أَفْواهِهِمْ وَقالُوا إنا كَفَرْنا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ»[4] وأخبر عن قوم (عاد) أنهم قالوا لهود : «وَما نَحْنُ بَتارِكي آلِهَتِنا عَنْ قَوْلِكَ»[5] وعن قوم صالح أنهم قالوا له : «أَتَنهانا أن نَعْبُدَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا»[6] وعن قوم شعيب أنهم قالوا له : «أَصلاتُكَ تَأمُرُكَ أن نَتْرُكَ ما يَعبُدُ آباؤنا»[7] ، وعن قوم إبراهيم أنهم كذَّبوا الرسل .

فهؤلاء الطوائف بصريح القرآن كذبوا الرسل ، وردوا قولهم ، وعاندوهم ، فلو كانوا مقرّين لكانوا كفاراً لكفر العناد ككفر إبليس .

فيا أخي أقسمتُ عليك بِمَنْ خَلَقَنا من تراب ، ثم أودعنا الأصلاب أن تترك الجدال ، وتتأمل في حقيقة الحال ، كيف تُشَبِّهُ أعمال المسلمين بأعمال عَبَدة الأصنام وغيرها مع أنهم أنكروا نبوّة الأنبياء ، وردُّوا عليهم بعد أن أمروهم ، ولم يسمعوا لهم قولاً ، ولا قبلوا لهم فعلاً .

ثم أنهم عبدوا طواغيتهم بالعبادة الحقيقية ، لاعتقاد أنَّ لهم تصرفاً في الأكوان ، أو في إرضاء الملك الديان ، وإلاّ لم يذمهم الرحمن ، ولا أنكر عليهم كل فعل كان .

ثم تعللوا بأنا لا نقدر على عبادة الله سبحانه ، فنعبدهم ونكتفي بعبادتهم وهم يقربونا ، كما أوردنا بذلك بعض الروايات في بعض المقامات .

---

(١) القرآن الكريم : ١١٦/٥ (سورة المائدة) .
(٢) القرآن الكريم : ١٩/٦ (سورة الأنعام) .
(٣) القرآن الكريم : ١٧/٥ (سورة المائدة) .
(٤) القرآن الكريم : ٩/١٤ (سورة إبراهيم) .
(٥) القرآن الكريم : ٥٣/١١ (سورة هود) .
(٦) القرآن الكريم : ٦٢/١١ (سورة هود) .
(٧) القرآن الكريم : ٧٨/١١ (سورة هود) .

وعلى كلٍّ حال لا يتأمل مسلم في أنَّ العبادة الحقيقة من الصلاة والصيام وغيرهما لا تكون لغيرالله ، فأن كان التصدق عن الأولياء والذبح لهم والنذر لهم عبادة ، فنحن عبيد آبائنا وأمهاتنا وأمواتنا الذين نتصدق عنهم ، أو ننذر لهم ، ونذبح لهم .

وإن كان طلب الدعاء منهم وندبتهم على الدعاء والشفاعة كفراً ، فعلى الأسلام السلام ، فانه ليس في الوجود أحدٌ لا يلتمس الدعاء من إخوانه ، أو يستغيث بهم في طلب نجاته ، وإن دعاء المؤمن للمؤمن أسرع للأجابة لأنه دعاء بلسان لم يعص به .

فيا أخي ، المقاصد متفاوتة ، وإنَّما الأعمال بالنيات ولكُلٍّ امرئٍ ما نوى[1] ، فرُبَّ كلمة ظاهرها الأسلام ، تصير بالنية كلمة كفر ، وبالعكس .

وأما قولك : فأنَّ الذي يُفعلُ عندنا في مشهد علي (رض) من دعوة ، واستغاثة ، ورجاء ، وخوف ، وخشية . انه ليس بعبادة ، فأنهم ما قصدوا بدعوتهم (علياً) وغيره إلاَّ ليشفع لهم عند الله .

فأن قلت : أُولئك يدعون الأصنام ، ونحن لا ندعو إلاَّ الصالحين .

قلنا : وكذلك المشركون منهم يدعون الصالحين ويعبدونهم مع الله ، كعيسى ومريم والملائكة .

فأنْ قلتم : إنَّ الدعوة لا تُسَمَّى عبادة .

قلنا : بل هي عبادة وأي عبادة ، ففي الحديث عن رسول الله (ص) : الدعاء هو العبادة . ويلي قوله تعالى : «أُدْعُوني أَسْتَجِبْ لَكُمْ»[2] .

وأصل دين الأسلام هو إخلاص العبادة بجميع انواعها من الذبح والدعوة ، والنذر ، والتوكل ، والخشية ، والرغبة ، والأنابة ، ولا يقبل الله من الأعمال إلاَّ ما اجتمع فيه شرطان :

الأول : ألاَّ يعبد إلا الله وحده .

الثاني : ألا يعبد إلاَّ بما شرع على لسان رسوله ، كما قال الله تعالى : «فَمَنْ كانَ يَرْجُو لِقاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَةِ رَبِّهِ أَحَداً»[3] .

---

(١) البخاري (بدء الوحي) ، باب ١ ؛ وصحيح مسلم (كتاب الأمارة) ، باب ١٥٥ ؛ والنسائي (كتاب الطهارة) ، باب ٥٩ ؛ وابن ماجه (كتاب الزهد) ، باب ٢٦ .

(٢) القرآن الكريم : ٤٠/٦٠ (سورة غافر) .

(٣) القرآن الكريم : ١٨/١١٠ (سورة الكهف) .

أقول : إن كان المدار على الصور دون الحقائق ، فسجود الملائكة لآدم ، وسجود يعقوب ليوسف ، قاض بأنهما عبدا غيرالله .

وإن قلت : بأن تعلق ارادة الشرع دفعت المنع . فقد أوردنا من الأخبار وكلام الصحابة ما يفيد عدم المنع ، من أمثال الصور التي ذكرت .

ثم بالله عليك أنصفْ ، ما الفرق بين قول الصديق لصاحبه في السجن «أذْكُرْني عِنْدَ رَبِكَ»[1] وبين قولنا لرسول الله (ص) : «إذكرني عند ربك» .

ثم كيف باستغاثة ولي موسى[2] ولم يحكم عليه بالكفر؟! ثم كيف باستطعام موسى والخضر أهل القرية[3]؟ ثم كيف يقول أصحاب موسى «لَنْ نَصْبِرَ عَلى طَعام واحد فَادْعُ لَنا رَبَّكَ»[4] ثم ما معنى قول الأسباط ليعقوب «إسْتَغْفِرْ لَنا ذُنُوبَنا» فقال : «سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي»[5]؟!

وعلى كل حال إن أريدت الحقائق في الأستغاثات والدعوات وغيرها ، ففي ذلك خروج عن طريقة الأسلام ، وإلاّ فلا بأس ، وإلاّ للزم ألاّ يخرج من الكفر أحدٌ من العالم ، ولا يمكنك والله ولا يسعك إلاّ أنْ تقول إنَّما يُراد دعاءٌ خاص ، واستغاثة خاصة ونحو ذلك ، فيرتفع المحذور .

وأما مَنْ قصد حقيقة العبادة مع غير الله ، ليتقرب إلى الله زلفى ، أو لغير ذلك ، فهو خارج عن ربقة الأسلام .

وما ذكرتم من أنّا نفرّق بين الصالحين وغيرهم ، فمعاذ الله أن نفرق بين مَنْ يعبد موسى أو محمداً (ص) ، أو يناديهم ويدعوهم ، أو يستغيث بهم أحياءً وأمواتاً ، ويلجأ اليهم على أنَّ لهم الأمر أو ليقربوه زلفى ، وبين مَنْ يعبد فرعون ، وهامان ، وإبليس .

أين النفوس المقرونة بالأبدان التي تتغير من أدنى حوادث الزمان ، ولا زالت مورداً للأمراض ، ومحلاً للأغراض ، لا تدفع شيئاً من حوادث الدهور ، وليس لها في كل الأمور من أمر من رتبة المعبود . ومن لا يصلح لغيره الركوع والسجود ، إنما هم عبيد زادت علينا

---

(١) القرآن الكريم : ٤٢/١٢ (سورة يوسف) .
(٢) إشارة إلى الآية (١٥) من سورة القصص : «فاستغاثَهُ الذي من شيعته على الذي من عدوّه» .
(٣) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الكهف ، الآية ٧٧ : «فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها ، فأبوا أنْ يضيفوهما» .
(٤) القرآن الكريم : ٦١/٢ (سورة البقرة) .
(٥) القرآن الكريم : ٩٧/١٢ (سورة يوسف) .

عبوديتهم ، وخدام سبقت خدمتنا خدمتهم .

فأن أُمرنا بتقبيل بنائهم ، أو تعظيم أبنائهم ، أو التماس دعائهم ، فعلنا إمتثالاً لأمر ربنا ، كما صنعنا ذلك في أحجار الكعبة وأركانها . وإن نهانا تركنا ، إذ لا خوف إلاَّ من الله ، ولا رجاء إلاَّ له .

وأما قولك : إنه قد ورد في الحديث عن الصادق الصدوق ، قال : «عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي ، عضُّوا عليها بالنواجد ، وإياكم ومحدثات الأمور ، فأنَّ كل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة»[1] .

وفي الحديث الثاني ، قال : إفترقت اليهود والنصارى عن اثنين وسبعين فرقة ، وستفترق هذه الأمة عن ثلاثة وسبعين فرقة ، كلها في النار إلاَّ واحدة . وسُئِلَ عن الواحدة ، فقال : ما أنا عليه اليوم وأصحابي[2] (انتهى) .

أقول : اللهم إني رضيتُ بسُنَّة الخلفاء الراشدين حكماً ، وما عليه أصحاب مُحمَّد متمسكاً وملتزماً ، فأُحِلُّ ما أحلوه ، وأفعلُ ما فعلوه . وهذه أقوالهم وسيرتهم في هذه الرسالة أوضحتُها ، فلا أزيغُ عنها ، ولا أبعد مسافةً منها ، فتتبع ما رويتُ من أخبارهم ، وما نقلتُ من آثارهم ، رزقني الله وإياكم حلاوة الأنصاف ، وجنَّبنا مرارة الجدال والأعتساف .

وأما قولك : «فلا تغتر بالكثرة وهذا الثابت عن نبيك ، والله يقول : «وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورِ»[3] وقال : «إنْ تُطِعْ أَكْثَرَ مَنْ في الأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سبيلِ اللهِ»[4] . وفي الحديث : إنَّ بعث الجنة من الألف واحد ، فأنت اختر لنفسك ، والمهدي من هاده الله» ، إنتهى .

أقول : يا أخي ، الوصية مشتركة بيني وبينك ، فالذي عليَّ ألاَّ تأخذني حميَّة الآباء والأجداد ، وحب الطريقة المأنوسة بين العباد ، بل أنظر بعين البصيرة وإخلاص السريرة .

وأما أنت فأني أخشى عليك من حب الأنفراد ، حتى لا تكون كبعض الآحاد ، فأن الأصابع لم تزل ممدودة إلى مَنْ ركبَ جادة غير معهودة ، وقد ورد في المثل : (خالفْ تُعْرَفْ) .

---

(١) سنن الترمذي ، جـ٥ ، حديث ٢٦٧٦ ؛ وسنن أبي داود ، جـ٤ ، حديث ٤٦٠٧ ؛ وسنن ابن ماجه ، جـ١ ، حديث ٤٢ .
(٢) كنز العمال ، جـ١ ، ص١٠٦٠ .
(٣) القرآن الكريم : ١٣/٣٤ (سورة سبأ) .
(٤) القرآن الكريم : ١١٦/٦ (سورة الأنعام) .

ثم إني ـ والله ـ أخشى عليك من جهة أنكَ كنتَ خالي البال ، بعيد عن هذه الحال فوردتْ عليك شبهاتٌ لم تستطع ردَّها ، وخيالاتٌ لم تبلغ حدَّها ، فكان الحال كما قال : (صادف قلباً خالياً فتمكّنا)[1] .

وأما اليوم ، فليس لك عند الله عذرٌ ، فقد علمت بالأخبار ، وسمعتَ بطريقة الخلفاء الأبرار ، فأجدَّ نظرك ، واستعمل فكرك ، واخلع عن نفسك ربقة التقليد ، وأطلب من ربك التأييد والتسديد .

ثم ما ذكرتَ إنّما يدل على أنَّ الحقَّ مع القليل من المكلفين لا من المسلمين ، فأن أكثر أهل الأرض كفار من يهود ، ونصارى ، ومشركين ، وجاحدين ، وغيرهم ، حتى أنَّ نسبة أقليم المسلمين إلى سائر الأقاليم أقلُّ قليل .

فنحن نقول بأنَّ مَنْ أطاع أكثر الخلق ضال ، لأنَّ أكثر الناس من أهل الكفر والضلال ، وان الشكور قليل ، وان بعث أهل الجنة من الألف واحد ، ولو استندت في هذا الى حديث الفرق ، فوحدة الفرقة لا تنافى زيادة أفرادها على ألف فرقة .

والحق أنّه لا ملازمة بين القلّة والكثرة ، وبين الحق والباطل ، فكم من قليل هُدي إلى الصواب ، وكثير حلَّ عليه المؤاخذة والعقاب ، وكم قد إنعكس الأمر في هذا الباب ، والمدار على طلب العصمة والنجاة من رب الأرباب ، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله العليّ العظيم .

تمتّ على يد أقل العباد عملاً ، وأكثرهم زللاً محمد قاسم ابن شيخ محمد بن حمزة الدلبزي في سنة ألف ومائتين وعشرة .

---

(١) إشارة إلى قول القائل :
عرفتُ هواها قبلَ أنْ أعرفَ الهوى فصادفَ قلباً خالياً فتمكّنا